قَالتْ عَجِيبَة

أساطِيرْ تِهَامِيّة

عبده خال

"عرفت الجنّ مبكّراً من خلال الحكايات ومن خلال الحياة اليومية، فليل القرى شديد الظلمة، وقد قيل لنا إنّ اليوم مقاسمة بيننا نحن البشر وبين الجن الذين يخرجون من مساكنهم في الليل ويعودون إليها مع أول ظهور للشمس.

ليل القرى دامس لا ترى فيه ظاهر كفّك، وأيّ ضوء شحيح قادم من مكانٍ ماء، سواء من فانوس أم نجم في عمق السماء، يخلق تخيّلات في ذهنية ذلك الطفل فيظنّها جنّاً جاؤوا لإزهاق روحه أو خطفه إلى الأرض السابعة.

وفي ظل افتقار القرية إلى أيّ وسيلة ترفيهية من تلفاز أو مسرح أو سينما أو أيّ وسيلة ترفيهية، فقد كانت الحكّائة تمثّل نافذةً تطلّ من خلالها القرويات إلى لحظة أنس، وتتوافد القرويات إلى مجلس السمر بعد صلاة العشاء ليسمعن حكايات الراوية ويعدن إلى بيوتهن وقد تزودن بكمٍّ من الانشراح..."

يطلق على الحكاية الشعبية في منطقة تهامة اسم "خرفينة" و"خبيرة"، فإذا أراد أحدهم سماع حكاية يقول للراوية: خرفينلي، أو خبريلي. والخرفينة تعني الحكايات التي تدور أحداثها غالباً في عالمٍ سحري مليء بالملائكة والجان والغيلان والقدرات الخارقة والقوى الخفية وما إلى ذلك. ويشتمل الكتاب على عدد كبير من "الخرفينات" التهامية يسردها الكاتب بأسلوب شيّقٍ سلسل، بعضها بالفصحى وأخرى باللهجة المحكية وأحياناً يجمع بينهما.

عبده خال كاتب وروائي سعودي. فازت روايته "ترمي بشرر" بالجائزة العالمية للرواية العربية ٢٠١٠. صدر له عن دار الساقي "قالت حامدة: أساطير حجازية"، وفي الرواية "الطين"، "فسوق"، "لوعة الغاوية" الحائزة جائزة وزارة الثقافة والإعلام للكتاب في السعودية للعام ٢٠١٣.

ISBN 978-1-85516-982-1
9 781855 169821 >
دار الساقي
daralsaqi.com

قَالتْ عَجِيبَة

عبده خال

قَالتْ عَجِيبَة

أسَاطِيرْ تِهَامِيّة

الإهداء

إلى حمود أبو طالب ويحيي أمقاسم: وريدان من شغاف القلب أحاطاني بنبضهما.

الفهرس

استهلال

في قريتي الصغيرة وفيما حولها لم يكن استخدام مفردة أسطورة حاضراً البتة، فكلّ الحكايات التي يتمّ تداولها يتمّ تحت مسمّيات (خرفينة) أو (حِكْوَايَة)، وإذا رغب الواحد سماع حكاية وطلب سماعها من الراوية قال: (خرفنيلي) أو (حَكْويلي).

وربما يعود مردّ اسم خرفينة إلى حديث خرافة.[1]

(١) حَدَّثنا ثابِتُ البُنانِيُّ، عَن أَنَسِ بنِ مالِكٍ، قال: «اجتَمَعَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم نِساؤُهُ، قال: فَجَعَلَ يَقُولُ الكَلِمَةَ كَما يَقُولُ الرَّجُلُ عِندَ أَهلِهِ، فَقالت إِحداهُنَّ: كَأَنَّ هَذا حديث خُرافَةَ، فَقال: أَتَدرِينَ ما حديث خُرافَةَ؟ قالت: لا، قال: إِنَّ خُرافَةَ كان رَجُلاً مِن بَنِي عُذرَةَ، فَأَصابَتهُ الجِنُّ، فَكان فِيهِم جِنِّياً ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الإِنسِ، فَكان يُحَدِّثُ بِأَشياءَ تَكُونُ فِي الجِنِّ وبِعَجائِبَ لا تَكُونُ فِي الإِنسِ، فَحَدَّثَ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الجِنِّ كانت لَهُ أُمٌّ فَأَمَرَتهُ أُمُّهُ أَن يَتزَوَّجَ، فَقال: إِنِّي أَخشَى أَن يَدخُلَ عَلَيكِ مِن ذَلِكَ مَشَقَّةٌ أَو بَعضُ ما تكرَهِينَ، فَلَم تَدَعهُ حَتَّى زَوَّجَتهُ امرَأَةً لَها أُمٌّ فَكان يَقسِمُ لامرَأَتِهِ لَيلَةً ولأُمِّهِ لَيلَةً عِندَ هَذِهِ لَيلَةً وعِندَ هَذِهِ لَيلَةً، فَكان لَيلَةً عِندَ امرَأَتِهِ فَكان عِندَها وأُمُّهُ وحدَها، قال: فَسَلَّمَ عَلَيها السَّلامَ، قال: فَرَدَّتِ السَّلامَ، فَقال: هَل مِن مَبِيتٍ؟ قالت: نَعَم، قال: فَهَل مِن عَشاءٍ؟ قالت: نَعَم، قال: فَهَل مِن مُحَدِّثٍ يُحَدِّثُنا؟ قالت: نَعَم، أُرسِلُ إِلَى ابنِي فَيُحَدِّثُكُم، قال: فَما هَذِهِ الخَشفَةُ الَّتِي نَسمَعُها فِي دارِكِ؟ قالت: هَذِهِ إِبِلٌ وغَنَمٌ، قال: أَحَدُهُما لِصاحِبِه: أَعطِ مُتَمَنِّياً ما تَمَنَّى، قال: فَأَصبَحَت وقَد مُلِئَت دارُها غَنَماً وإِبِلاً، قال: فَرَأَتِ ابنَها خَبِيثَ النَّفسِ، فَقالت: ما شَأنُكَ؟ لَعَلَّ امرَأَتَكَ كَلَّمَتكَ أَن تُحَوِّلَها إِلَى مَنزِلِي، أَو تُحَوِّلَنِي إِلَى مَنزِلِها، قال: نَعَم، قالت: فَحَوِّلنِي إِلَى مَنزِلِها، قال: فَتَحَوَّلَت إِلَى مَنزِلِ امرَأَتِهِ وتَحَوَّلَتِ امرَأَتُهُ إِلَى مَنزِلِ أُمِّهِ، قال: فَلَبِثا حِينًا، ثُمَّ إِنَّهُما جاءَ إِلَى امرَأَتِهِ والرَّجُلُ عِندَ أُمِّهِ، قال: فَسَلَّمَ فَرَدَّتِ السَّلامَ، قال: هَل مِن مَبِيتٍ؟ قالت: لا، قال: وهَل مِن عَشاءٍ؟ قالت: لا، قال: وهَل مِن إِنسانٍ يُحَدِّثُنا؟ قالت: لا، قال: فَما هَذِهِ الخَشفَةُ =

ويطلق على الحكاية أيضاً (خبيرة) فيقال: خبريلي. ويمكن الفصل بين المصطلحين أنّ الخرفينة هي ما تتناول العوالم غير المرئية، بينما الخبيرة هي حكاية أبطالها من البشر وتحمل في طيّاتها فكرةً أو أحجيةً أو حكمةً، وتضمر مفردة (الخبيرة) الإخبار عن علمٍ لا يعلم، وهذا لا يعني أنّ المخبرة على علم يفوق علم المستمعين، وإنما علمها وامتيازها كونها تعرف أو قادرة على صياغة الحكايات.

والخرفينة تعني في سياقها المحلي تلك الحكايات التي تدور في عالم القوى الخفية من جنٍّ وسحره وملائكة وحوادث تخترق المألوف لكي تحقق انتصاراً لبطل أو بطلة الحكاية، وقبل أن يحدث هذا الانتصار تتواشج مجموعة من الأحداث في البناء السردي مكونةً ما يصطلح على تسميته بـ«الحبكة» من أجل خلق حالة الجذب والإدهاش. ولا تخضع الخرفينة لمنطق الأشياء، إذ أنّ لها منطقها الخاص ولا يحقّ للسامع استنكار حدثٍ أو قول بحجّة أنّ ذلك الحدث يتعارض مع الواقع؛ فإن فعلها أحد الحضور تمّ زجره من جميع المستمعين، وربما يصل الأمر إلى إخراجه من دائرة الحضور.

وجرت العادة أن يكون راوي الخرفينات أو الخبابير أنثى، إذ من النادر أن يروي تلك (الخرفينات) الرجال، وربما مردّ ذلك لكون الرجل لا يجب أن يكون في موضع المخبر بما ليس حقيقياً، إذ أنّ الحكايات المروية لا تستقيم مع جدّة ورجاحة عقل الرجل (كما يُنظر إليه في ذلك المحيط) وهذه النظرة من المكتسبات التي تكلّل سيرة الرجل من غير غضاضة أو منازعة من قبل الأنثى لمكتسبات الرجل، بل تجد أنّ المرأة تؤكّد عليها من خلال تربيتها لأبنائها بإعطاء الأفضلية للذكور في كلّ شيء.

وربما مردّ رواية الأنثى للخبابير كونها الوريثة الشرعية لشهرزاد في سبك الحكايات، وإذا كانت شهرزاد تتمدد وتستطيل حكاياتها بهدف إبعاد الموت عنها، كانت الحكاية عند القرويات ملاذاً لقتل التعب المضني الذي يواجهنه من خلال

= الَّتِي نَسمَعُها فِي دارِكِ؟ فَقالت: هَذِهِ سِباعٌ، قال: فَقال أَحَدُهُما لِصاحِبِه: اللَّهُمَّ أعطِ مُتَمَنِّياً ما تَمَنَّى وإن كان شَرّاً، قال: فَمُلِئَت دارُها سِباعاً فَأَصبَحَت قَد أَكَلَتها».

وحول هذا الحديث قال أَبو حاتِمِ بن حبانَ: عُثمانُ بن مُعاوِيَةَ يَروِي عَن ثابتٍ الأَشياءَ المَوضُوعَةَ الَّتِي لَم يُحَدِّث بِها ثابتٌ قَطُّ، فَلا يَحِلُّ الرِّوايَةُ عَنهُ إلاَّ عَلَى سَبِيلِ القَدحِ فِيهِ.

وَقال المُصَنِّفُ: وقَد رُوِيَ حديث خُرافَةَ عَلَى غَيرِ هَذه الوَجهِ بِإسنادٍ قَرِيبٍ.

الأعمال الشاقة طوال اليوم حتى إذا جاء الليل جاءت معه الحكايات كمرهم يزيل تلك الأوجاع من خلال حكاية تكون نهايتها سعيدة.

وغالباً ما تفتح الخبابير نوافذ الأحلام وتتركها مشرعة في ذهنية السامعين، وخاصةً في مخيلات الصبايا اللاتي يسرفن في سكب الخيال، فعالم الخبابير عالم رؤوف بالمساكين إذ يمنحهم أدواراً موازية لأدوار الملوك والوزراء والتجار، فهو عالم يُسقط الطبقية ويمنح الفقير أو الفقيرة فرصة الانتقال الطبقي من غير حجر إذا قرر أحدهما أن يكون ملكاً أو أميراً، فإن لم تسعفه مقدرته الذاتية كأنْ ينقذ البلاد من غزو أو ينقذ الملك من مؤامرة مدبّرة، فالافتقار إلى المواهب الذاتية ليس مهماً إذ تتوفر كائنات أخرى لمساندة البطل أو البطلة للوصول إلى غايتها، فالجنّ تحضر في الخبابير لتمنح قواها ومساندتها للبطل لكي يصل إلى مراده، ومساندة الجنّ لبطل الحكاية يحضر من خلال إسداء معروفٍ إليه (في حالة تشكّله على صورة كلب أو أفعى أو قط)؛ هذا المعروف يقوم به البطل كإظهار لصفاء ونقاء روحه فيكون جزاءه تحقيق أمانيه، أو يحصل بطل أو بطلة الحكاية على (خاتم الاسم)[1] الذي ينقله من حال إلى حال بمجرّد فرك الخاتم، وهناك مساند آخر يظهر في الخرفينات يتمثل في ظهور النبي الخضر.

وعدد الحكّاءات قليل داخل القرية، فليس كلّ امرأة قادرة على الحكي، فإن كانت تعرف الحكي إلا أنّ حضورها السردي يكون ناقصاً، ولذلك يتم قصد نساء بعينهن لكي يقمن بالحكي.

وفي ظل افتقار القرية لأيّ وسيلة ترفيهية من تلفاز أو مسرح أو سينما أو أيّ وسيلة ترفيهية، فقد كانت الحكّائة تمثّل نافذةً تطلّ من خلالها القرويات إلى لحظة أنس، وتتوافد القرويات إلى مجلس السمر بعد صلاة العشاء ليسمعن حكايات الراوية ويعدن إلى بيوتهن وقد تزودن بكمٍّ من الانشراح، إذ تمتاز الحكايات بالنهايات السعيدة كما أنّ جلّ الحكايات تنتصر للفقراء، فهذه الفتاة الفقيرة يتزوجها

(١) خاتم الاسم يرد كثيراً في الحكايات الشعبية ويقصد به خاتم النبي سليمان، إذ تؤمن المخيلة الشعبية بوجود هذا الخاتم ويمكن العثور عليه ومن يجده تتحقق كلّ أمانيه بواسطة خادم الخاتم.

السلطان وتلك تتغلب على قوى الشر بطيبتها فتجد خاتم الاسم وتفركه لتتحول إلى أميرة من الأميرات، أو أنّ حالة إحداهن تجذب تعاطف جنيّة أو جنّيّ فيقوم بمساعدتها وتحقيق أمانيها.

وغالباً ما تكون الراوية امرأة مسنّة اكتسبت الخبرة والاحترام، كون مجلس الحكي له طقوس لا يجوز خرقها؛ فإذا تجاسرت إحداهن على خرق قاعدة الحكي يحقّ للراوية التصرّف وفق الحالة التي تراها مناسبة، وغالباً ما يكون الطرد هو الحل الأمثل لمثل هذا السلوك.

ومن محظورات السرد أن يتكلم الحضور أثناء سرد الراوية للحكاية أو أن يبكي أحد الأطفال أو يتداخل أحد معها في الروي أو أن تعترض إحدى الحاضرات على عدم منطقية الحدث.

وبعد اكتمال الحضور وتحلقهنّ في دائرة تأتي هذه المرأة العجوز وتقتعد المجلس مواجهةً جموع المستمعين (وكلّهم من النساء والأطفال، فمن المعيب حضور الرجل لسماع الخرفينات) تحفّهم إضاءة الفانوس الشاحبة، ثم تبدأ الساردة بعدّة لازمات قد يكون أهمها:

- قلنا وقلكم

ويكون الرد من قبل الحضور:

- مننا ومنك

فتقول:

- من واحد

فيُردّ عليها:

- الواحد الله

بعد هذه التبادلية في الردّ تبدأ في سرد خرفينتها.

وكلما كانت الراوية منشرحة الخاطر أسهبت في حكايتها ومنحتها استطالة وأكثرت من اختلاق حالات التشويق[1]، ويكون ذلك على حساب الخرفينة بحيث

---

(١) يغفل كثير من دارسي سرد الأساطير أو الحكايات نقطةً أراها مهمة للغاية وهي حالة السارد النفسية، فحين يكون السارد منتشياً فإنه يمنح الأسطورة أو القصة التي يرويها زخماً مضاعفاً، =

تزيد فيها بزوائد حكائية تستعيرها من حكايات أخرى أو أنها تؤلفها أثناء سردها، والويل لمن ينبهها إلى أنها قد انحرفت عن الحكاية (خاصةً أولئك الذين يعرفون التفاصيل أو قد سمعوا الحكاية من قبل) فمن يتدخل ويغضب الراوية عليه أن يتحمّل ردّة فعلها؛ فإن كانت ردّة الفعل تقف عند الإسكات كان بها وإن تعدّت ذلك إلى الطرد فعلى المطرودة تنفيذ حكم الطرد من غير اعتراض.

وكلّما كانت الراوية منشرحة كان ذلك من صالح الحاضرات، إذ يحظين بحكايات أخرى، ويتم أثناء الحكي طقطقة الفصفص (الزعقا) مع شرب الشاي أو القهوة (القهوة الحالي وتحويجتها قشر).

وقلّما يفرغ جراب الراوية من الحكايات، فالحكاية التي ترويها لا تعود إلى روايتها مرة أخرى، إذ أنّ في كلّ جلسة حكاية جديدة.

وعدم النضوب مخزون الراوية مردّه إلى أنّ الراوية في تنقلاتها بين الأسواق (وكانت الأسواق تُقام في قرى متعدّدة وكلّ يوم لقريةٍ بعينها دون سواها) تتبادل الحكايات مع مثيلاتها كما تتبادل السلع التي خرجت من أجل بيعها أو شرائها.

وكلما اكتسبت الراوية غزارةً في محفوظاتها مكّنتها من التأليف وتتحول من ناقلة إلى مؤلفة. ويمكن للمرء ذي المخزون الحكائي الضخم أن يتحول إلى مؤلّف أساطير، إذ تكون البداية من خلال محاكاة الموتيفات المختلفة وتركيبها في أحداث متشابهة، وهذا ما يجعل كثيراً من الحكايات الشعبية تتشابه في البدايات أو النهايات واستعارة الحيل السردية. ومثل هذا التوليف يدخل عشرات من الحكايات المستحدثة على أنها أساطير أو أنها من الحكايات القادمة عبر الزمن البعيد، بينما في الأصل ما هي إلاّ توليفة لراوٍ أو راويةٍ حاذقة.

= وربما تقوده نشوته إلى الإطالة بابتكار أحداث جديدة ليست من ضمن لحمة النص إما رغبةً في الإطالة أو شعوراً بأن الحكاية التي يرويها بحاجة إلى سدّ ثغراتها السردية أو لولعه بإضافة أحداث من عنده. وحينما تكون نفسية السارد منقبضة تجده يبتسر الحكاية وربما يحذف تفاصيل جاءت في النص الأصلي لكي ينهي حكايته...

وقد جرّبت هذه الحالات حينما كنت صغيراً أقتعد مع من يقتعد لسماع (المخبرة) حيث تؤثر فيها حالتها النفسية إما انشراحاً أو انقباضاً. وبعض الحكايات سمعتها بتفاصيل وانسياب ونشوة بينما سمعت نفس الحكاية مرة أخرى من نفس الساردة فأجدها تبتسرها محاولةً إنهاءها بعجلة، فالحالة النفسية للسارد تؤثر في مدى واتّساع وتلوّن الحكاية.

كما أنّ الحكاية تنتهي بجملة: «تحرتكن تبرتكن في . . . . الصغير من بينا»[1].

وإذا لم تبدِ الراوية رغبةً في سرد حكاية إضافية يكون الإيذان بالانصراف، فتتحرك النساء حاملات أطفالهن أو إخوانهن وأخواتهن بين أزقّةٍ غارقةٍ في ظلمتها فيتم استحضار جنّ الحكايات ويدبّ الرعب في قلوب الخائفات وتتعالى صرخاتهن من بين تلك الظلمة الفاقعة مستنجدات مستغيثات، ولهذا هناك (مناوسات)، وهنّ نساء لا يخفن ممّا تثيره خيالات الظلام في عيون الصبايا أو الأطفال العائدين إلى بيوتهم، وأكثرهنّ ممّن يحفظن القرآن، وتحديداً (آية الكرسي)[2] التي يتواصى الكبار والصغار بحفظها وتلاوتها في أيّ موقفٍ يثير الرعب أو يتطلّب الحفظ والأمان ممّا تخاف.

وسرد الحكايات لا يتمّ إلاّ ليلاً، ومن المنكرات أن تُروى الخبابير أثناء النهار، فإذا حدث فذلك نذير شؤوم ويشار إليه بصرخة استنكارية يقولها المستنكر: السوق حرق![3]

❋ ❋ ❋

---

(١) الكلمة المحذوفة لها علاقة بعضو من أعضاء الجسد وهذا يشير إلى التحرّز من ذكر الأشياء بمسمياتها حالياً في حين كانت تُقال الأشياء وفق تواجدها في الواقع المعاش من غير غضاضة، بل كان إيرادها يولّد الضحك عند المستمعين.
وإن كانت ثمة ملاحظة بخصوص السرد نلحظ ضعف الوصف والأسلوب عند العامة المتأخرين الساردين للنص الحكائي بعكس ما هو حادث في صياغة ألف ليلة وليلة التي يتم إرجاع كتابتها إلى مخيلة الساردين الأوائل الذين اعتنوا بالأسلوب وإن كان بعضهم يرى في صياغة ألف ليلة وليلة صياغة شعبوية.

(٢) يقول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ - (سورة البقرة ٢٥٥).
ويذهب بعضهم إلى أنّ في آية الكرسي اسم الله الأعظم (الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم).

(٣) يروى في المشرق العربي أنّ من يقرأ كتاب ألف ليلة وليلة لا بدّ أن تحل به مصيبة قبل نهاية السنة التي تتم فيها قراءة الكتاب. وهذا ما يفسّر بقاء الكتاب مخطوطاً قروناً عديدة إلى أن اكتشفه الفرنسي أنطوان ڤالان ونشره لأول مرة بالفرنسية بين عامي ١٧٠٤-١٧١٢ وبعد ذلك تنبه أصحاب هذا السفر الحكائي ونشروه في طبعات عربية كانت الطبعة الأولى في الهند =

جاءت الأسطورة لتخبرنا عن أخبار الآلهة القديمة، ومع خفوت توهجها بظهور الديانات السماوية بقيت حكاياتها مغروسة في جذور الحكايات المتبادلة بين شعوب العالم، فحلّت في كلّ جزء من المعمورة كحكاية يظهر سطحها الحكائي بينما غمر النسيان أو الجهل بها فحواها.

ومع ظهور القصّ الشعبي استعار الرداء الأسطوري في حكاياته من غير أن يتطرّق إلى الخلق الأول أو كيف حدثت عملية خلق تلك الآلهة كونها لم تكن معنية به، لكنّ جينات الأسطورة قبعت في أسفل القص حين يتمّ استعارة حكاية أحد الآلهة ويتمّ تركيبها على ملك أو سلطان ويصبح الصراع صراع سلطة دنيوية وليس صراع ألهة، ومن هنا يمكن أن نستلهم من أين جاءت فكرة أنّ الملك خليفة الله على أرضه أو ظلّ الله على أرضه.[1]

= (١٨١٤-١٨١٨) والطبعة الثانية في القاهرة عام ١٨٣٥ والطبعة الثالثة في بيروت عام ١٨٨٨. (مائة ليلة وليلة، تحقيق وتقديم الدكتور محمود طرشونة، منشورات الجمل).

وقد لازم كثيرٌ من التحذيرات تداول الحكاية أو السرد ومحاولة إبقائها كفعل سري يتم تداوله سراً أو في وقت محدد ويصبح محظوراً في أوقات أخرى.

(١) مبدأ أنّ الحاكم ظل الله في أرضه جاءت من الأساطير الآرية والمصرية، وقد سادت هذه النظرة في فترات زمنية سحيقة حين كان يشاع أنّ الملك يستمدّسلطته مباشرة من الإله، وهو ما اشتهرت به حكومات مصر الفرعونية وكذلك الفارسية. وعادةً تكون الطبقة الحاكمة من الكهنة أو رجال الدين الذين يعتبرون موجهين من قبل الإله أو يمثلون لتعليم سماوية، وتكون الحكومة هي الكهنوت الديني ذاته أوعلى الأقل يسود رأي الكهنوت عليها، وأطلق على هذه الحكومة مصطلح الثيوقراطية (الحكومة الدينية أو الإلهية). وكان أول من سكّ هذا المصطلح «ثيوقراطية» جوزيفوس فلافيوس في القرن الأول الميلادي لوصف الحكومة القائمة عند اليهود. ففي حين يعترف اليونانيون بثلاثة أنواع من الحكم: الملكية والأرستقراطية والفوضوية، كان اليهود فريدون في كون نظام الحكم لديهم لا يندرج تحت أيٍّ من أنظمة الحكم الآنفة. لقد فهم جوزيفوس الثيوقراطية على أنها شكل رابع من أشكال الحكومة يكون فيه ما يقوله الله في كتابه المقدس هو فقط مصدر الحكم. ومع حلول حقبة التنوير في أوروبا بدأت الثيوقراطية تأخذ دلالة سلبية بشكلٍ كبير، خصوصاً على أيدي الفيلسوف الألماني هيجل. (ويكيبيديا الموسوعة الحرة)

ولم تأتِ الثقافة الإسلامية بهذا المفهوم بالرغم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وما رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «السلطان ظلّ الله في الأرض يأوي إليه كلّ =

إذاً، القص الشعبي استعار العباءة الاسطورية في جانب اختراق السائد بواسطة الجن والسحرة أو ببقايا الأساطير القديمة من خلال خاتم سليمان أو بواسطة النبي الخضر.

وصراعات الجن تكون موجّهة ضدّ البشر لتمنعهم من الوصول إلى غايةٍ من الغايات، إلاّ أنّ انتصار البشر على الجن مسألة حتمية تحدث داخل القص الشعبي، وذلك بإعلاء مقدرة الإنسان من خلال تدبيره وتفكيره. وهنا إشارة مبطّنة إلى أهمية الإنسان ومقدرته في التغلب على بقية الكائنات بما منحه الله من عقلٍ ميّزه به عن بقية المخلوقات.

وفي أوقاتٍ أخرى يستعين الإنسان بجنّيٍّ لكي يساعده في إنجاز مهمته أو تحقيق غاياته، ويكون ذلك من خلال ردّ المعروف، ففي كثيرٍ من الحكايات الشعبية يقوم بطل القصة بمساعدة جنّي أو نصرته على جنّي آخر. فكثيراً ماترد قصة صراع جنيين على هيئة ثعبانين أو قطين أو كلبين فيقوم بطل القصة بنصرة أحدهما حتى إذا انهزم خصمه ظهر لبطل القصة وعرّف بنفسه وقصته وأظهر الرغبة في مساعدته.

والكثير من الحكايات تورد أنّ الجن يسخّرون أفعالهم الخارقة من أجل تحقيق رغبات البشر، فإن كانت الأسطورة قد نشأت لتحدّثنا عن الآلهة فإنّ الخرفينات نشأت لتحدّثنا عن البشر ومعضلاتهم اليومية وأحلامهم وأمانيهم، فحلم الثراء يتحقق من خلال خاتم سليمان أو بواسطة جنّيٍّ يفتح كنوز الأرض لبطل الحكاية.

وهناك عشرات الحكايات يتمّ تكييفها وإعادة سردها بينما أصولها تكون أسطورية وردت في الميثولوجيا أو في كتب التاريخ كبقايا لسيرة معبودات قديمة منقرضة.

ومواضيع الحكايات متعدّدة ومختلفة إلاّ أنّ جلّها يبحث عن سعادة البشر، ولهذا تكون الحكاية الشعبية ذات نهايات سعيدة، فإن بدأت بشقاء إلاّ أنّ هدفها الأساس هو تحقيق السعادة لبطل الحكاية. لكنّ النهايات السعيدة تقال من أجل المستمع وليس لكون مجريات القصّ يوصل إلى تلك النهايات، فالسامع شخص باحث عمّا يسعده، إذ تكفيه المآسي التي يعيشها من فقر وجدب ومرض، ولهذا

= مظلوم»، فقد ضعف هذا الحديث. كما أنّ الإسلام لم يأتِ بالدولة الدينية كما نلحظه في الفاتيكان مثلاً، إذ لا يوجد مجلس كنسي ولا توجد تراتبية لرجال الدين.

تكون الحكاية هي النافذة التي يتسلّل منها إلى رغد العيش وتحقيق أحلامه المستحيلة.

ومن ضمن الأحلام التي راودت البشرية الخلود، ويرى البشر أنّ رغبة البقاء في الحياة ممكنة دينياً وأسطورياً، فعمر آدم أو نوح يغري الحالم بالتوصّل إلى العمر المديد، وعمر النبي الخضر يجعل البقاء أبد الدهر يطوف بمخيّلة المؤملين في الحياة، والقصص التي وردت عن بعض الشخصيات الأسطورية ولجوءها إلى الدعاء يجعل المرء داعياً لنفسه ولمن يحبّ بطول العمر.(١)

---

(١) الدعاء بطول العمر له أساس أسطوري، وقد يكون أشهر تلك الأساطير أسطورة لقمان بن عاد، وقد وردت في الكثير من كتبنا التاريخية العربية وثبت وجودها في القرآن الكريم «وأما عادٌ فأُهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية».
وفي كتاب التيجان في ملوك حمير لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري يقول وهب بن منبه: «وكان لقمان بن عاد يدعو ربه قبل كلّ صلاةٍ: اللهم يا ربّ البحار الخضرْ/ والأرض ذات النبت بعدَ القطرْ/ أسألكَ عمراً فوقَ كل عمر. وذات يوم سمع لقمان هاتفاً أو منادياً يقول له من دون أن يراه: قد أجيبَت دعوتكَ وأعطيتَ سؤالكَ ولا سبيلَ إلى الخلود، واختر إن شئتَ: بقاءَ سبع بقراتٍ عفْر في جبل وَعْرٍ لا يَمسَسْهن ذعر، وإن شئْتَ بقاءَ سبع نواياتٍ من تَمر مستَودعاتٍ في صخر لا يَمسَسْهن نَدى ولا قَطرْ، وإن شئْتَ بقاءَ سبعة نسورٍ كلما هَلَكَ نسرٌ عَقَبَ بَعدَه نَسر. وجَدَ لقمان نفسَه أمامَ خيارات ثلاثة في البقاء، بقاء سبع بقرات (وحش) معتصمة بالجبل الوَعر، أو بقاء سبع نواياتٍ من التمر بعيدة من أسباب التلف، أو بقاء النسور السبعة المتتالية. وهذا الخيار الأخير هو الذي فضّله لقمان، لأن النسر طائرٌ معمرٌ وفق الوجدان العربي، وبهذا الاختيار ربطَ لقمان بقاءَه بحياة النسور السبعة فعرفت قصته بقصة (لقمان والنسور السبعة).
ومع اختياره عمر النسور كان يذهب إلي الجبل ويأخذ النسر الصغير ويطعمه ويرعاه حتى يموت فيختار نسراً آخر حتى انقضت النسور الستة، وعاش كلّ نسرٍ - من النسور الستة - خمسمئة عام، ومع موت النسر السادس كان عمر لقمان ثلاثة آلاف عام، فأخذ لقمان يرعى النسر السابع (واسمه لبد) الذي طال عمره عن بقية النسور وبلغ ألف عام، ويصبح عمر لقمان أربعة آلاف عام، وعندما دنا أجله وأحسّ لقمان بدبيب الموت أراد أن ينهضَ فضربت عروق ظهره، ولم يكن من قبل يشتكي شيئاً منها، فقال:

يـالَ قـومـي نَـعـى إلَـي بـمـوتـي اخـتـلاف الـنـسـا وحـبـل الـوتـيـن

وتسرد الحكاية المشهد الأخير في حياة لقمان بن عاد، وهو ينظر إلى نَسْره الأخير «لبَدْ» آخر النسور وأطولها عمراً، فيلاحظ أنّ النسور جميعها طارت، أما نسره فقد بقي في مكانه ولم يَطر، لقد عجز عن الطيران، ففوجئ لقمان وبوغتَ بعجز نَسْره، لأنه فهم معنى هذا العجز: =

كما أنّ أمنية الحصول على خاتم سليمان أمنية ليست بعيدة إذ تطوف بمخيلة الكثيرين إمكانية الحصول عليه، ويطلق عليه في الحكايات التهامية خاتم الاسم.(١)

= إنه يعني أنّ لقمانَ نفسه صار عاجزاً عن الاستمرار في الحياة. أخذ لقمان نسرَه بين يديه وبدأ يشدّه وينفضه ثم يهزّه بكلّ ماتبقّى فيه من قوة، ويحثّه على الطيران، لكنّ (لبَد) خذل صاحبه وتطاير ريشه، فكان هذا نذير شؤم وإعلاناً مفاجئاً عن انقضاء العمر واقتراب «الحياة من التوقف»، وهكذا أيقن لقمان أنّ عمره قد نفد وأنّ الموتَ قادمٌ لا محالة.

بهذه النهاية ينتهي حلم إنسان أراد الخلود فلم يتمكن من ذلك. وقد قيلت أمثال عربية كثيرة عن (لقمان ولبد) فقيل: «أتى أبَدٌ على لبد»، وقيل: «أخنى أبدٌ على لبد». وقد أورد النابغة الذبياني هذه القصة في بيت شعر يقول فيه:

أمستْ خلاءً وأمسى وأهلها احتملوا ... أخنى عليها الذي أخنى على لبد

وقصة رغبة الإنسان في العمر المديد بدأت من آدم حين عُرضت عليه ذريته ورأى أنّ عمر داود كان قصيراً فمنحه من عمره، وعندما حان أجله احتجّ بأنّ عمره لم ينقضِ بعد فذكّره ملك الموت بأنه وهبه لابنه داود فجحد آدم ذلك.

وكذلك نستذكر قصة موسى عليه السلام التي وردت ذاكرةً أنه فقأ عين ملك الموت حين جاء لقبض روحه. ففي حديث أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكّه ففقأ عينه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: فردّ الله إليه عينه وقال: ارجع إليه فقل له: يضع يده على متن ثور، فله بما غطت يده بكلّ شعرة سنة، قال: أي ربِّ ثم مه؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدّسة رمية بحجر، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق، تحت الكثيب الأحمر».

وفي موسوعة الفولكلور والأساطير العربية يذكر شوقي عبدالحكيم أسماء تلك النسور وهي على التوالي: المصون وعوض وخلف ومغبغب واليسر (أو الميسرة) وأنسا (أي لقمان الإنس) وكان سابعها لبد.

وفسّر عبيد الجرهمي لبد بمعنى الدهر... وحين وافت المنية لبد وسقط مشرفاً على الموت ولم يطق أن ينهض وتفسّخ ريشه هال ذلك لقمان هولاً عظيما ووقع موته منه موقعاً جسيماً، وناداه: انهض لبد أنت الأبد. وأنشد لقمان يبكي نفسه:

موتي إنني أموت اليوم ... وحسرتي أن قد تعرم الأبد
فطر كما كنت سالماً أبدا ... تحيا ونحيا معاً ونحتفد

ونلحظ أنّ اسم النسر عوض هو اسم للإله الجاهلي القدري عوض، إله قبيلة بكر بن وائل.

ونلحظ أنّ الإله القمري (نسر) الذي يتوحّد بالدهر والزمن هو ما أصبح رمزاً قومياً لدى أغلب الشعوب العربية والسامية عامةً، ونجده ماثلاً في أعلام البلدان أو في العملات.

(١) ربما تصرّح الراوية أنّ خاتم الاسم هو خاتم سليمان لغلبة شيوع ذكر هذا الخاتم، وهو =

ويحضر السحر في الحكايات التهامية حضوراً موازياً لحضور الجن، فأغلب أبطال أو بطلات القص الشعبي يتمّ سحرهم (وهي العقدة أو الحبكة الدرامية للحكاية) وتتنامى الأحداث بحثاً عن فكّ طلاسم ذاك السحر.

وحضور السحر قديم جداً نتذكّره مع عقوبة هاروت وماروت، ونجده متمركزاً كجوهر في الأساطير المصرية القديمة. وكذلك وجود التعويذات والرقية من كلّ الشرور التي يمكن أن تحدث في العالم، وأسطورة إيزيس مع الإله رع تؤكد أنّ نسيان ذكر التعويذة والرقية قد أصاب الإله رع بالسم.

ومن الموضوعات الملفتة التي تدور في فضائها الحكايات الشعبية تناولها للبطولات الفردية، فهي لا تحفل كثيراً بالحركة الجماعية للمجتمع بل في الغالب تتكيء على البطل (البطلة) الفرد وتسخّر بقية الأحداث من أجل هذه الفردية. وهي بهذا ترث الملاحم في سياقها الفردي حين تقوم الملحمة على شخص واحد ووحيد، إذ تتحول كلّ الأحداث نتاج تصرفاته أو ما يُحاك ضدّه مثل سيرة عنتر بن شديد أو حمزة البهلوان أو سيرة الاميرة ذات الهمة.

والفرد يتقدّم الجماعة بشعوره الداخلي كنزعة إنسانية، حتى وإن حاول إخفاء هذه الحقيقة الجوهرية إلاّ أنها تبين. وإذا كان وجوده على الأرض تميّزاً عن بقية المخلوقات فهو يحمل جينة الأنا كحضور سابق على ما عداه، ومهما تشكّلت مفاهيم وجوده في محيطه ومحاولة هضمه داخل المجاميع إلاّ نزعة الفردنة تظلّ واضحة تماماً.

= تصريح خارج النص، فالنص يقول دائماً: خاتم الاسم، وإخفاء الاسم يحمل دلالات أعمق من هذا التصريح، وربما أجدني أتذكر البحث الدائم عن الاسم الاعظم لله عزّ وجلّ، وحين يقال: خاتم الاسم، فإنه أعمق في دلالاته من ذكره مضافاً إلى النبي سليمان عليه السلام. صحيح أنّ خاتم سليمان اكتسب حضوراً طاغياً في الأساطير لكنّ هذا الخاتم لم يرد ذكره في القرآن الكريم أو في السنّة النبوية، فما روي عن جابر بن عبد الله أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: كان نقش خاتم سليمان بن داود لا إله إلا الله محمد رسول الله. (أخرجه ابن عدي في الكامل)، فهو حديث موضوع. ووجود هذا الخاتم بالصياغة التي تتناقلها الأساطير، بأنّ فرك هذا الخاتم يحقق كلّ شيء لكان أجدى للنبي سليمان أن يفركه لإحضار عرش بلقيس في لمح البصر (كما تنصّ الحكايات) بدلاً من الاستعانة بعرض رغبته على الجنّ بأن ياتوه به. وأعتقد أنّ دلالات خاتم الاسم أعمق إن كان يحمل اسم الله الاعظم بدلاً من كونه خاتماً مزوداً بخدم من الجان.

والفردنة نسق ثقافي إنساني تظهره الأساطير الأولى كأول سمة امتاز بها هذا الكائن، فشخصية الفرد هي الغالبة في تسيير الجماعات والاستحواذ على اهتمامها. وقد بدأت النزعة الفردية من خلال وسائل التعبير الأولى، سواء كان ذلك من خلال الرسم أم الحكي، فالرسم هو تسجيل حالة فردية يستشعرها الفرد حيال ما يواجهه في الطبيعة أو ما تواجه المجاميع، إلاّ أنّ تعبيراته عن الجماعة ليست سوى تصور لما استشعر به من فزع أو فرح عمّ وشمل الجميع، وهي مشاعر تظلّ فردية، إذ لم يكن الجميع يجيد هذه الوسيلة التعبيرية. وكان الفرد هو المتحدث عن الجماعة، كما أنّ الحكي، ممثَّلاً في بداياته الأسطورية، كان يدور حول الفردنة وصراعاتها مع من حولها.

وراوي تلك الأساطير كان يقوم بفعل الروي لكي يطمئن نفسه ويفسّر حالات تكوين الآلهة والخلق وما حوله من مظاهر طبيعية لكي يستقرّ نفسياً ويتّزن في مسيرته الحياتية. وفي مرحلة متقدمة كان الروي لديه نوعاً من البحث عن التميّز بمعرفة ما حدث ويحدث، وهي صفة فردانية يسعى من خلالها إلى إظهار تميّزه ومعرفته، حتى إذ جاءت التجمعات البشرية واضطرّ للدخول فيها مقابل تنازل عن بعض حقوقه وتميّزه لم يفعل ذلك من أجل الآخرين بل أقدم على ذلك الفعل لكي يحقق مكاسبه الخاصة من هذا الوجود، فقد أجرى حساباته فوجد أنه داخل هذا التجمّع يكسب حقوقاً ذاتية لن يحصل عليها بمفرده، ففضّل التنازل عن بعض الأشياء مقابل أشياء أخرى.

وفي كلّ التشكلات التنظيمية - عبر التاريخ - كان يخوضها واضعاً مصلحته في المقدمة، حتى إذا وصلت التجمعات البشرية إلى اختيار نظام الديمقراطية كنظام سياسي ظلّ جوهرها ينزع إلى الفردية، وإن أظهر على أنه خيار المجاميع، فالفرد هو المقدَّم دائماً كونه الصانع النهائي لكلّ شكلٍ من أشكال تلك التجمعات.

والفرد في وسط المجموع لايغيب، إذ يحدث إيهام بأنه قادر على تحقيق أمنيات المجاميع، ولهذا نجد أنّ آليات التنشئة منذ بدايات التاريخ تسعى إلى تجسيد صورة الفرد الصالح الذي من مهامه الأساسية أن يكون النموذج، وهي مكنة لإنتاج الفردنة.

هذه النزعة الفردانية هي الحالة الحقيقية لوجود الإنسان، ويتضاعف تمركزها

من خلال تغذية شعورية داخلية بالتميّز في كلّ شيء، بدءاً من كونه وُلد وحيداً ويموت وحيداً ويُبعث وحيداً.

❊ ❊ ❊

من الأبحاث العلمية التي تتصل بالأدب الشعبي ما قام به الأستاذ فرانز كراتشي في مقالٍ له نُشر في مجلة (الأبحاث الشعبية) يبيّن فيه الفرق بين الباعث على الإنتاج الشعبي والباعث على الإنتاج الفني. فالإنتاج الفنّي يتحكم فيه المنطق والتيارات الفكرية السائدة، أما الإنتاج الشعبي فهو إنتاج تتحكم فيه الآلية النفسية. وهذه الآلية النفسية تشبه آلية الذاكرة التي تظهر في الأحلام والتي ليس للمنطق سيطرة عليها. ومع ذلك فالأدب الشعبي أصدق تصويراً للشعب من الفن.[١]

والصدق هنا يأتي من كون الراوي متحرّر من عدّة سلطات؛ فما يرويه لا يقع تحت مظلة السلطة السياسية ولا يخشى من تربّصها به إذ يروي في الأماكن المغلقة أو البعيدة عنها وعن الطبقة المستفيدة منها، وكذلك هو متحرر من قيود الكتابة التي تفرض قيوداً متعددة (قواعد نحوية، صرفية، إملائية، أسلوبية، إلخ) وكذلك يتحرر من أساليب المحسّنات البديعية التي يحتزمها الكاتب أو الخطيب كوسائل يسعى من خلالها المتحدّث إلى كسب رضا سامعيه، إذ أنّ إقبال الجمهور على الراوي الشعبي ومطالبته بسرد الحكايات على مسامعهم يمثّل الرضا بين الطرفين.

وأسلوب الراوي الشعبي يعدُّ فريداً، إذ لا تستطيع الكتابة أن تتمثّله لما له من خصائص تميّز السرد الشفوي عن المكتوب، وهي خصائص متعلقة بالحركة وتناغم الصوت وتقطيع الجمل وتكسير الزمن. وهي أدوات تدخل ضمن بنية السرد وليست خارجة عنه، وهي تتجدّد في كلّ لحظة وتتنوع بتنوع الأحداث، إذ يقوم السارد الشعبي بمسرحة أحداث قصته عبر خلق مؤثرات صوتية وحركية.

وحين رغبت في كتابة هذه الحكايات وجدت نفسي حائراً في طريقة سردها، ووقفت أمام تلك الحيرة متسائلاً: هل أكتبها بلهجة الراوية (الحكّائة) أم من خلال المزاوجة بين اللغة البيضاء والحكي الشعبي أم أن تكون بلغة محايدة تماماً؟

ولم أستقرّ على أمر.

---

(١) سيرة الأميرة ذات الهمة، دراسة مقارنة، الدكتورة نبيلة إبراهيم.

وأثناء الكتابة تركت نفسي على سجيتها، فالطريقة التي تسلكها الرغبة أسير معها، وحين بلغت مشواراً متقدّماً في الكتابة وجدت أنّي سلكت ثلاث طرق: لهجة الراوية، المزاوجة بين اللهجة واللغة البيضاء، ولغة محايدة.

ومع أني محبّ للهجة الراوية الأساسية إلاّ أنّ مفرداتها موغلة في الإقليمية مما يعني تغيّب فهم الحكاية على من لا يعرف تلك اللهجة، بينما تكون الحكاية في غاية الروعة لمن يفهم لهجة الروي.

وأعترف أنّ الكتابة تُفقد الحكاية أجزاء كثيرة من حركيتها، إذ أنّ المحكي الشفهي حاوٍ لكلّ ما تحدثه (أو يحدثه) الراوي من حركات وأصوات ووقفات وايماءات، ما يشكّل لبنة إضافية للنص الحكائي، بينما تحويل النص الشفهي إلى نص مكتوب يُفقده طراوته وسخونته وتقوم القواعد الكتابية بتكبيل مفردات النص، خاصةً إذا علمنا أنّ لكلّ مفردة (شعبية أو عامية) دلالات محلية لا تستطيع المفردة الفصيحة الإتيان بها إلى ذهنية المستمع المنتمي إلى البيئة المنتجة للنص.

لهذا ستجد عزيزي القارىء أنّ هذا الكتاب اشتمل على ثلاثة مستويات في كتابة الحكاية، فمرةً تُروى الحكاية بأسلوب يقترب إلى اللغة الأدبية، ومرةً تجده متزاوجاً بين الفصيح والعامي، وثالثة باللهجة المحلية.

وإن كنت بحاجة الى اعتراف ما فإني أقول - باديءَ ذي بدء - إنّ هذا المشروع عمره أكثر من خمسة وعشرين عاماً أربض عليه كدجاجة بليدة فسد بيضها من مكوثها الطويل من غير أن تتحرك وتقلب بيضاتها ذات اليمين وذات الشمال.

كانت الرغبة الأولى تتمثّل في جمع هذه الحكايات كتوثيق لها فحسب، ثم طرأت فكرة المقارنة بين الحكايات (الأساطير) المتواجدة في المنطقة مع بقية حكايات (أساطير) العالم التي كلّما سمعت منها ما يتقارب أو يتطابق مع قصصنا تأجّجت تلك الرغبة، وحين فعلت ذلك وجدت أني أغرق في محيطات لا قدرة لي على الوصول إلى قرارها أو إلى أدنى من ذلك العمق للقصور في مهارة الغوص، وكنت أمنّي النفس أنّي سوف أستطيع القيام بذلك في زمنٍ ما. وكلّما مضت الأيام اكتشفت عجزاً مهولاً عن الوصول إلى الأمنية التي عششت في داخلي، فطال عمر هذا المشروع كثيراً.

كنت أهرب منه دائماً، وقد حدث خطأ مبكر حين سجّلت في سيرتي الذاتية أنّ

لدي كتابين عن الأسطورة قالت عجيبة - أساطير تهامية وقالت حامدة- أساطير حجازية، وكلّ من قرأ تلك المعلومة سألني عنها فأقول إني لم أنجزهما بعد. . . وكم أكون خجلاً حين أجد سائلاً (مفلوت اللسان) يتهكّم قائلاً: «إذا لم تنجزها لماذا تكتب أنّ لديك كتابين عن الاسطورة؟!»

وفي الفترة الأخيرة وجدت من الصديقين (بل الأخين) يحيي امقاسم والدكتور حمود أبو طالب إلحاحاً لإنجاز هذا المشروع المتعثر.

وحين شرعت في الالتفات إلى المشروع وإنجازه اكتشفت أنّ كثيراً من الحكايات التي جمعتها والقراءات والملاحظات التي سجّلتها قد تبعثرت بين الأوراق وضاع جلّها بسبب الانتقال من بيت إلى بيت، وإذا بي حائر بين الوقوف أو مواصلة الانتهاء من المشروع بأيّ صورة كانت. . . فقررت الانتهاء بهذه الصورة.

وإن كانت هناك من إشارة أخرى فهي متعلقة بالهامش، إذ تجد أنه متخم - إلى درجة الإزعاج - بإضافات حكائية عديدة، فقد كنت أستهدف - منذ البداية - خلق مقارنة بين النص المحلي وبين بقية الأساطير العالمية، لكنّ هذا أمر بعيد المحال إذ يحتاج إلى فريق عمل متكامل وعلى اطّلاع واسع جداً بما أُنتج من أساطير وعالماً بجذورها وتفرّعاتها.

كما أنّي لم أكتب بحثاً وإنما كنت أستهدف الجمع ليقوم القارىء بالمقارنة، ولهذا كان الاقتباس في مقاطع كثيرة يفوق المسموح به، ولأني لست باحثاً ولم أسعَ لأن أكون كذلك فقد منحت النفس متعتها في الجمع، وما هذا الكتاب إلا تجميع لعشرات الأساطير وتداخلها، وهي ملاحظة تنبهت لها مبكراً ولهذا رغبت في الإشارة إليها كأساس آخر في كتابة هذه الحكايات، ووجدت فرصة لتمرير هواجس كنت أعيشها حيال الأساطير يمكن أن يعتبرها بعضهم شطحات، إلاّ أنها كانت تحوم في داخلي منذ زمنٍ بعيد فثبتُّها مع محاولة تدعيمها بأدلّة من القرآن الكريم.

وكما قلت، إنّ هذا المشروع مضى عليه أكثر من ربع قرن وأنا أزوره كتابة وقراءة، لكنّ خروجه لم يكن كما كنت أحلم به، ولهذا أقدّم هذا المشروع خديجاً، فقد ضربت على بطني قبل أن أكمل عدته. وهذا القول لكي أسترضي جزع النفس التي رأت فيه قصوراً حاداً عن ما كانت تحلم به.

عبده

المقدّمة

١

علاقة البشرية بالأسطورة علاقة بدأت بالخلق الأول وظل ذلك الخلق ناثراً بذور وجوده عبر الديانات المتوالية إلى أن بلغ العلامات الكبرى لانتهاء البشرية من خلال علامة الدابة[1] وفق المفاهيم الأدبية لأسطرة الواقع في المفهوم الإسلامي.

ولهذا أجد نفسي مردّداً أننا بقايا أساطير نسكنها وتسكننا.

وحين آمنت بتلك المقولة أخذت أتلمّس وجودها في حياتنا فإذا بها تغلف كلّ شيء كمحيط، وتتغلغل في ممارساتنا كمرتكز سلوكي أنتجته أساطير موغلة في الزمن نمارسها من غير أن نستبين أنها بقايا فعل أسطوري اندثر كعبادة وتحول إلى سلوك.

وأجدني منساقاً لتعريف الثقافة بأنها كلّ فعل أو قول ترسّب داخل المجتمع وتحوّل إلى سلوك أو إيمان يمارسه الفرد من غير فحص أو مراجعة.

وإذا ولجنا من هذا الباب فسوف نجد أنّ الأسطورة تسكننا ونسكنها كإيمان وسلوك، كفعل لا نعرف مصدره.

كانت البداية من تلك الطفولة الأولى.

في قريةٍ استرخت على حوافّ وادٍ ضخم، ومن أسرة مزارعة تعرف تفاصيل

---

(١) قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ - (سورة النمل، الآية ٨٢).

الأرض بما يخرجه باطنها من ثمار، كان على أفرادها تعلم أوجاع الحقول ومداواتها قبل أن تنعكس على حياتهم.

ومن الطفولة الأولى وقفت على الأرض الخسئة والمرتوية والجدباء والمشققة والظامئة والمغبرّة، فالأرض كائن يحزن ويفرح وعلى الفلاح التعامل مع كلّ حالة من حالاتها وفق ظرفها مستجلباً كل الأساطير التي مضت عبر الزمن لكي يعيد إليها شيئاً من بهجتها.

فإذا تمدّد القحط وتغلغلت الفاقة بين الناس أُستجلبت الأغاني لإحياء موات الأرض، وهو فعلٌ فيه استعادة لأسطورة النسر. ففي زمنٍ غابر اختصمت الأرض والسماء، وإمعاناً في الخصومة قطعت السماء ماءها عن الأرض، ومضت السنوات، وفي كلّ سنة يتضاعف ألم الأرض باتّساع رقعة الجفاف بها حتى لم يعد بها مكان به ثمر أو شجر، فماتت الحيوانات والطيور وهلك البشر. وإزاء هذا الموات أشفق النسر على الأرض وكائناتها فحلّق عالياً صوب السماء وأخذ يغني لها ويستعطفها لكي تنهي خصامها مع الأرض. ولحلاوة وطراوة وعذوبة غنائه تصفح السماء عن الأرض وتسكب أمطارها، فتنبت الأشجار وتثمر بثمارها وتستعيد الأرض بهجتها وتعود كائناتها تدبّ على سطحها.

في طفولتي الأولى كنت محظوظاً، إذ عشت داخل الأساطير كحكاية وكفعل، ولأنّ ذاكرة الطفل ذاكرة محلّقة ومستفسرة منذ البدء وقبل بلوغ الحلم، إذ إنّ بلوغه يعني التكليف بحيث يكون الفرد قد تزود بما يجب وما لا يجب، بينما الطفولة السابقة هي اختراق ما يجب وما لا يجب.

في تلك الطفولة كان سؤالي هو: لو أني سرت في خط مستقيم فإلى أين أصل؟

لم يكن هناك من أحد يجيب على أسئلتي الحائرة سوى أم - رحمها الله رحمةً واسعة- لا تملك من المعرفة إلا ما يقال أو ما تمّ تغذيتها به للإجابة عن الأسئلة الوجودية الضخمة سوى أساطير تتناقلها القرية لكي تُسكت نهم الأسئلة المتقافزة من ألسنة أطفالها.

أجلستني أمامها وقالت: لو أنك سرت على وجهك - وستحتاج سنوات -

فسوف تسقط في بحر الظلمات.[1]

واقترن في مخيلتي بحر الظلمات بالليل.

ليل القرى دامس لا ترى فيه ظاهر كفّك، وأيّ ضوء شحيح قادم من مكانٍ ماء، سواء من فانوس أم نجم في عمق السماء، يخلق تخيّلات في ذهنية ذلك الطفل فيظنّها جنّاً جاؤوا لإزهاق روحه أو خطفه إلى الأرض السابعة. فالأرض السابعة موجودة كأداة تخويف وأنّ من يسكنها هم الجنّ، ومن يتمّ خطفه ليلاً لن يرى نوراً أبداً إذ سيعيش في ظلمةٍ أبدية.

وخلال ليالي السنة لا نستطيع الابتعاد أو السير في منحنيات القرية حتى إذا قدم

---

(١) كان الاعتقاد السائد أنّ الأرض مسطّحة وأنّ حوفها تنتهي بالعالم السفلي، وهو العالم الممثل للشر حيث يقبع الشياطين والمردة. وفي الأسطورة الفرعونية كانت مهمة الإله رع أن يخرج صباحاً في موكبه الخالد، يخرج من الأفق الشرقي عابراً السماء ويختفي موكبه في الأفق الغربي ليصل إلى العالم السفلي لينير بنوره ذلك العالم المظلم.

هذه الرحلة للوصول إلى العالم السفلي كان لها تفسير - عندما تقدّم العلم قليلاً - فمن خلال تواصل الرحلات البحرية بحث الإنسان عن أرض جديدة لكي يستولي عليها ويكسب وجوداً جديداً من خلال استغلال خيراتها، فحدث غزو للبحار لمعرفة ما يوجد خلفها، إلا أنّ إمكانياتهم المتواضعة لم تكن قادرة على اختراق المحيطات ومنها المحيط الاطلسي فأطلق المؤرخون العرب في إحدى حقب التاريخ لقب بحر الظلمات على المحيط الأطلسي الذي وقف على ساحله عقبة بن نافع وقال وهو يغوص بجواده في مياه الشاطئ: «يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك.»

وكان الاعتقاد بأنّ المحيط الأطلسي هو آخر الدنيا وأنّ هذا البحر يسيطر عليه طائر الرخ (وهو كائن أسطوري ضخم قادر على ابتلاع أيّ شيء) وأكّدوا أنّ من يحاول الإبحار فيه ينتهي أمره بأن يقوم طائر الرخ بابتلاعه، وإن نجا من هذا فسوف يسقط في فجوةٍ عميقة تدخله إلى العالم السفلي.

ونقطة السقوط إلى الفجوة العميقة هو إعادة فكرة أنّ الأرض مجوفة يفضي تجويفها إلى إدخالك إلى أرض أخرى.

وقد شاعت فكرة أنّ نهاية العالم هي بحر الظلمات.

وقد شغل بحر الظلمات الرحالة والمحاربون والمؤرخون، فكتب عن هذا البحر الإدريسي في نزهة المشتاق ووصفه ابن بطوطة في رحلته، وكذلك كتب عنه ابن خلدون في مقدمته وأشار إلى أنّ الأعاجم تسمّي بحر الظلمات بحر أوقيانوس وآخرون يسمونه بحر البلايا، ومن كلمة بلايا نلحظ التفخيم الأسطوري لما يتواجد في بحر الظلمات.

رمضان تحولت الليالي المظلمة إلى قطعة من ليلٍ آمن، فالإيمان المطلق بأنّ الله يصفد الجنّ والشياطين في رمضان[1] يجعل المرء يسير من غير أن تنتابه الهواجس، فما يحدث في ليالي السنة من أفعال يثير رعباً حقيقياً لدى الفرد بينما إذا حدث الفعل نفسه في ليالي رمضان فلا يُلقى له بالٌ ولا يثير مخاوف أحد إيماناً بأنّ الجن مصفدة.

لم تكن الحياة في القرية إلاّ مجموعة أساطير يتم بواسطتها تفسير كل ما يحدث على أرض الواقع، ففي ذات صباح «ارتجّت الارض» وتصايح الناس للحظات حتى إذا هدأت انتهى بهم الأمر لاستذكار «أسطورة الثور» وعرفوا أنّ الثور قد تعب وأراد أن يريح أحد قرنيه من الثقل الذي يحمله.[2]

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين. (متّفق عليه). وفي رواية: سُلسلت. وفي رواية عند الترمذي وابن خزيمة: إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجنّ.

(٢) تواجدت أسطورة مشهورة تفسّر حدوث الزلازل مفادها أنّ الارض يحملها ثور على أحد قرنيه وإذا تعب نقلها إلى قرنه الآخر.
وهذا هو التفسير الأسطوري لحدوث الزلازل أو رجفات الأرض.
والثور في الأسطورة الفرعونية هو الحيوان المقدس عند الإله آتوم، وظلّ متواجداً في بقية الأساطير العالمية بصورة أو أخرى. بينما هو في الأسطورة الإغريقية يرمز إلى الحب والهيام. فالإله جوبيتر، كبير الآلهة، كان قد شغف حباً بيوروب، ابنة فينيقا وأجمل جميلات نساء زمانها، وقد استعمر حبها قلب الإله جوبيتر وهام بها شوقاً حتى أنّ الكون كله تضاءل في نظره، وصار في حبه ضعيفاً صاغراً لا يرى غيرها. ولكي يصل إليها لجأ إلى الحيلة فتمثل في صورة ثور أبيض ناصع البياض وانخرط وسط القطيع، وكانت يوروب جالسة تشاهد جمال الطبيعة، فما أن رأت الثور الأبيض حتى نهضت كي تلمس فورة جلده الرائعة، فانحنى لها خشوعاً وكأنه يدعوها لتركب ظهره، وبالفعل فعلت، فما كاد يمشي بها قليلاً حتى انطلق بها فوق البحار والأراضي إلى أن وصل جزيرة (كريت) فأنزلها برفق ورجع إلى صورته الأولى (صورة الإله جوبيتر كبير الآلهة) وباح لها بحبه وراح يبثها أشواقه، وكلما تكلم تفتحت نجمة وترنمت الرياح. - (كتاب أسرار الأبراج)
وهناك تفسيرات أسطورية أخرى لحدوث الزلازل:
إذ كانت أسطورة الخلق القرشية فيما قبل الإسلام، وكان طوطمها الحوت تقول: «إنّ الله خلق الأرض على الحوت، والحوت في الماء، والماء على ظهر الصفا، والصفا على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة على الريح». يقال إنها هي الصخرة التي ذكرها =

من قبل أن أولد والأسطورة تشكّلني. اسمي عبد الرحيم، وقد تشكل هذا الاسم في صور عديدة بسبب الأسطورة.

ويحق لي أن أقول إني عشت الأسطورة وجدانياً وثقافة.

كلٌّ منّا يجالس أمه أو أباه ويسأل كيف اختارا له اسمه، وإذا بدأت الحكاية تصل بك إلى ما كان يحدث لك قبل أن تعلم شيئاً.

روت لي الوالدة - رحمها الله رحمةً واسعة - أنّ من سمّاني هو أخي الذي يكبرني، إذ جاءها وقال لها: لو كان في بطنك ولد فسمّيه عبد الرحيم.

وعبد الرحيم ولي من أولياء الله الصالحين له ضريح يزوره أهالي القرى، وجعلت الذاكرة الشعبية من حركة قبره موعداً لقيام الساعة، إذ تذهب إلى الاعتقاد أنّ هذا الرجل الصالح يتحرك قبره سنوياً بمقدار شبر متّجها للقاء الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، ويظلّ القبر يقطع المسافات حتى إذا وصل قبر عبد الرحيم إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم قامت الساعة. ولهذا تجدهم يشجّعون هذه الرحلة من خلال أهزوجة يترنّمون بها سنوياً أو عند زيارتهم قبره منشدين:

يا عبد الرحيم يا صابر اصبر

إنّ الله مع الصابرين.

وفي مرحلةٍ تالية تأثر الاسم بطقس العادات، إذ أنّ أهل تهامة يحوّرون كلّ الأسماء المنتهية باسمٍ من أسماء الله الحسنى إلى (عبده) بحذف الاسم أو الصفة

= الحكيم لقمان: ليست في السماء ولا في الأرض. فتحرك الحوت فاضطربت وتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال.

وفي إحدى الخرافات التي يوردها وهب بن منبه «أنّ ذا القرنين أتى إلى جبل قاف فقال: فأخبرني ما هذه الجبال التي حولك؟ فقال جبل قاف: هي عروقي، فإذا أراد الله أن يزلزل أرضاً أمرني فحرّكت عرقاً من عروقي فتزلزلت الأرض المتصلة به.» - (موسوعة الفلولكلور والأساطير، شوقي عبدالحكيم).

وقد ذُكر في كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس بيان لماذا سُمّي الإسكندر عليه السلام بذي القرنين قال: «إنه إنما سُمي ذو القرنين بذي القرنين لأنه كان في رأسه عظمان ناتئان مثل قرني الكبش ويلبس عليهما عمامته فيسترهما، وهو أول من لفّ العمامة وأول من صافح بكفة.»

وإلحاق ضمير الغائب (الهاء) بالاسم لكي يتبارك صاحبه بجميع صفات وأسماء الله الحسنى.[1]

ولأنّ المنطقة كانت مغمورة في وعاء أسطوري خضع اسمي للتغيّر مرة أخرى، إذ مرّت طفولتي بأمراض عديدة بدءاً بشلل الأطفال وتوالي أمراض عرفت في المنطقة كأمراض إما أن يعبرها الطفل أو أن تنتهي حياته داخل قبرٍ صغير. وكثيرة هي النعوش التي كانت تخرج مع كلّ (شوطة) إلى مقبرة القرية. ولهذا كانت الوالدة - رحمها الله رحمةً واسعة - تعدّني كمشروع ميت عليه الإسراع بقطع أنفاسه اللاهثة قبل أن يستطيل به الألم. أما هي فقد تدرّبت على الحزن بفقدان خمسة من أبنائها الذكور أودعتهم المقبرة في سنوات أعمارهم المختلفة. كان يشقيها رؤية هذا الطفل الذي يخوض غمار الأمراض ويخرج منها مواصلاً رحلته إلى مرضٍ جديد؛ كان يشقيها ألمه، وقد تلقّت نصيحة من إحدى جاراتها العارفات[2] أن تقوم بتغيير اسم ابنها لكي ينجو من الموت، وتمّ تغيير اسمي (وهي النبزة التي لازمتني بقية حياتي، إذ لا أعرف بسواها بين الأهل والأقارب).

❊ ❊ ❊

عرفت الجنّ مبكّراً من خلال الحكايات ومن خلال الحياة اليومية، فليل القرى شديد الظلمة، وقد قيل لنا إنّ اليوم مقاسمة بيننا نحن البشر وبين الجن الذين يخرجون من مساكنهم في الليل ويعودون إليها مع أول ظهور للشمس.

وثمة تحذيرات من أن تذهب إلى الأماكن الخربة ليلاً، إذ يمكن أن تخطفك الجنّ ولا تعود الى أهلك، وتغلظ الوصية لفتيات الجميلات فلربما عشقها جني وجذبها بحيل إلى الفضاء وخطفها وغاص بها إلى سابع أرض. وهناك قصص كثيرة (لرجال ونساء) بأن الجنّ قد خطفوهم. ولا تقف الحكاية عند هذا الحدّ بل تواصل

---

(١) الاسم الوحيد الذي لا يطاله هذا التغير هو اسم (عبد الله) أما بقية الأسماء، كعبد القادر أو عبد الرحيم أو عبد العزيز أو عبد القدوس أو عبد الرحمن أو عبد السلام، فيتم تحويره إلى عبده.

(٢) كانت المعرفة تثمّن بما يحمله المرء من دراية بالأساطير إذ من خلالها يقيّم الحالة ويصف الدواء.

سرد قصص هؤلاء المخطوفين، مع عودة بعضٍ منهم وشرح ما حدث لهم.[١]

وأهل القرى التهامية يؤكدون أنّ الجن يقاسمونهم حياتهم في أشياء كثيرة منها الأكل والشرب، فلم نكن نتبوّل أو نستنجي بعظام أو جلود الحيوانات النافقة أو التبوّل على روث الحيوانات، فهي غذائهم، ولا ندوس على ظلّ. وإذا هبّت عاصفة وتطايرت الأوراق فإنّ تطايرها يعني أنّ جنيّاً قد غضب ونادى على أهله بأن ينفخوا معه لذرّ التراب في عيون البشر، وكل ورقة طائرة هي مخبأ لجنّي يشارك في النفخ، فلا يمسك بها إنسي.

والجانب المفرح الذي ينتظره القروي هو أن يمرّ به النبي الخضر، فالمحظوظ من عبره وحقّق له أحلامه. وحضور النبي الخضر يتمركز في باطن الأودية أو بجوار الآبار وفي ليلة القدر.

وكثير من القرويين يؤمن بوجود (خاتم الاسم) وإمكانية الحصول عليه. والخاتم في الذاكرة الشعبية هو خاتم النبي سليمان، والعثور عليه يحقّق لصاحبه كلّ الامنيات التي يريدها. كما أنّ الباحثين عن الثراء لديهم أساطيرهم الأخرى، وهي تتبع الثعابين، وخاصةً (ثعبان أبو جوهرة)، فهذا الثعبان يحمل جوهرة لا تقدّر بثمن يحملها معه أينما ذهب، وهي بمثابه عينيه اللتين يرى بهما، فإذا وصل إلى مكان وضعها وتحرّك بحثاً عن غذائه، فإنّ من رأى تلك الجوهرة عليه أن يضع فوقها (ضفعة)[٢] بقرة ويهرب في الحال مغادراً قريته لمدة ثلاثة أيام، ولو مكث فإنه ميت ميت لا محالة.

---

(١) هناك قصص كثيرة بعضها يذهب إلى أنّ جنيّاً (أو جنيّة) عشق إنسيّاً (امرأةً أو رجلاً) وقام بخطفه إلى العالم السفلي، وبعد سنوات يعود هذا المخطوف في حالة رثّة يغلب وصفها بأنّ شعره طويل وأظافره كحوافر الحمار وأنه هزيل، وعلى لسانه تواصل الحكاية وصف ما حدث له من البدء حتى عودته إلى أهله الإنس.
وهناك قصص تقول إنّ الخطف يحدث إن أغضب إنسيٌّ (أو إنسية) جنيّاً (أو جنيّة) أو أذاه بصبّ ماء حار عليه أو ضربه بحجر أو صفّر واستدعاءه. . . تواجدت صور كثيرة لحضور الجنّ بين الناس. ولهذا فإنّ هناك العديد من المحظورات، مثل عدم دلق الماء الحار على الأرض أو التصفير ليلاً أو ضرب الكلاب والقطط بالحجارة أو الدوس على ظلّ الإنسان، إذ إنّ الظل هو القرين، والقرين في مفهوم أهل القرى هو جنّي أو شيطان.

(٢) أسطورة الثعبان أبو جوهرة معروفة في المنطقة، وصفته أنه ثعبان طائر وضخم، ومن شروط =

وتواصل الأسطورة حضورها حتى في الموت، فهناك حيوان أسطوري يلقّب بـ(النباش)[1]، وهذا الكائن إذا تمّ ايذائه من أحد فإنه يخرج إليه ليلاً متوعّداً إياه وصائحاً به: «حلالتي بك... وبعقب عقبك». فإذا دنا أو مات الموعود بالتهديد فإنّ على أبنائه أو ذويه حماية قبره لثلاثة أيام بلياليها وإلا قام الحيوان الأسطوري (النبّاش) بنبش قبر الميت وأكله ميتاً... وتظلّ اللعنة تلاحق ذريته.

كثيرة هي الأساطير التي عشتها، فحين يخسف القمر تقوم النساء بدقّ وقرقعة الصحون لكي ينبّهن القمر إلى أنه قد ضلّ طريقه، وكذلك مع كسوف الشمس تقوم النساء بقلب المطاحن على وجوهها إشارةً إلى أنهم سيموتون جوعاً لو اختفت الشمس، كنوعٍ من الاسترضاء وطلب الرحمة. ولو أردت الاستمرار في ذكر السلوك الحياتي لأبناء القرى فسوف يطول الأمر، خاصةً حين اقترانها بأسطورة ما حدثت في مكانٍ ما من هذه المعمورة.

ولن أكون جازماً في إعادة كلّ سلوك إلى زمنيته التي نشأ بها، إذ أنّ أفعالنا هي إرث حكائي تناقلته الأمم وأدخلته في حياتها كسلوكٍ تعبّدي في البدء، ومع تطاول العهد تحول إلى سلوك حياتي ومعيشي يمارس من غير مرجعيته الدينية. فالقروي لا

= الحصول على جوهرته أن تغطيها بضفعة بقرة (الضفعة مفردة ضفاع وهي روث البقر)، وحالما يتم تغطيتها يطير الثعبان باحثاً عمّن سرق جوهرته، فإن وجده قتله في الحال، ويظل محلقاً باحثاً عن خصمه لثلاثة أيام، فإن لم يجده سقط على الأرض ومات. ولهذا وجب على من يجدها ويغطيها مغادرة المكان لثلاثة أيام حتى إذا انقضت يعود ويزيل الضفعة ويجد الجوهرة. وكل الأساطير توصي من يجد كنزاً أن يغطّيه. ويختلف الغطاء من أسطورة إلى أخرى، ومعظمها يذهب إلى تغطية الكنز بقطعة سوداء تخفي توهّجه، إذ أنّ الكنز تصدر منه أشعة، والغطاء الأسود يخفي تلك الأشعة، ويمكن الاستنتاج من هذا أنّ الكنز كان يمثّل جواهر أو ذهباً، فهي مواد عاكسة للضوء.

(١) النبّاش هو الضبع، وهو حيوان يعيش على أكل الجيفة، ولأنه حيوان ضار ويتواجد بكثرة في خلاء القرى بسبب ابتعاد الناس عن إيذائه أو محاولة قتله. ويغزو القبور ليلاً كون القبور متروكة في الفلاة من غير أسوار، والقبر الذي ينبش وتؤكل جثته يتقوّل أهل القرى أنّ المنبوش قد أذى ذلك الحيوان لكنه لم يخبر أهله، ولهذا فإنّ من يخشى على جثته يدّعي أنه موعود بالنبش، فيحرس أهله قبره لثلاثة أيام، ومع الحرارة الشديدة تختفي الرائحة النتنة للمدفون، فلا تقود الضبع إلى نبش ذلك القبر. ولهذا أعتقد أنّ أسطورة النباش نشأت بالصدفة.

يمكن له أن يطفىء النار من غير أن يذكر اسم الله خشية أذى قد يلحق به جرّاء إطفائه النار، وهذا مرتبط بالديانة الزرادشتية وبإبقاء النار مشتعلة كونها رمزاً للنور الإلهي.

وتسود كلمة (ناهي) على ألسنة بعض أهالي قرى تهامة بمعنى التأمين على ما تقول أو الرضوخ لما تقول. ويرجع الأستاذ حمزة علي لقمان في كتابه **أساطير من تاريخ اليمن** أنّ (ناهي) كان إلهاً يعبد في اليمن.

وبسبب الوفرة المهولة للأساطير وانتقالها من حالة تعبّدية إلى حالة سلوكية أجدني دائم الترديد أننا بقايا أساطير، وهي جملة لازمتني وقتاً طويلاً ملازمة تسجيل وتوثيق هذه الحكايا، وكلما أنغمس في قراءة الأسطورة صادفني فعل ما أو عبادة قديمة تحولت إلى سلوك أو عادة في حياتنا الراهنة، وغدوت مستملحاً المقاربة بين السلوك والبحث له عن مرجعية أسطورية.

إلاّ أنّ غزارة الأساطير وتبدّل حالها من مكان إلى آخر ينبّهك إلى وجود معضلة، فالأسطورة الأولى لكونها لم تكن مكتوبة فقد غدت معرّضة للزيادة والحذف من راوٍ إلى آخر. وغالباً ما تكون الأسطورة أو الحكاية ذات جوهر واحد إلا أنها تحرّف على لسان من يرويها إما استجابةً لظرفه الاجتماعي أو الديني وإما وفق أهوائه وعدم انسجامه مع الرواية التي سمعها؛ فتجده يضيف شيئاً من عنده. وهذه الزيادة عندما تنقل إلى شخص آخر ويقوم الأخير بسرد الحكاية فإنّ زيادة الراوي الذي سبقه تصبح لبنة جوهرية من لبنات الحكاية، وربما يقوم هو أيضاً بإضافة لبنة أخرى أو إسقاط حدث أخر. وتنتقل الحكاية من مجتمع إلى آخر وفق هذه الزيادة أو النقص.

وهذه الخصلة لا يسلم منها الوعي أو عدم الوعي، فنرى أنّ جان دي لافونتين (١٦٢١-١٦٩٥) في مقدمته لحكاياته قد استقى الكثير منها من حكايات إيسوب[(١)]

(١) إيسوب عاش في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد في مدينة عمورية (آموريوم) بفريجيا الواقعة في أواسط آسيا الصغرى)، وقد حباه الله ذكاءً أذهل أهل زمانه، وجعله الله في خلقةٍ من القبح لا تصدّق، وقد ولد حرّاً ولكنه جُعل عبداً رقيقاً يباع ويشترى لسنين طويلة غير أنه بقي يتشبّث بحريته ويتحدّى المهانة والظلم بشجاعة وقدرة عقلية نادرتين. وله مع الفيلسوف اكسانتوس الذي اشتراه وأدخله في خدمته مدة طويلة في ساموس حكايات كثيرة مما =

وأراد لحكاياته أن تنتعش بلمسات منه تشع فيها الحيوية والجدّة والمرح، فهو لم يكتفِ بمجرد كتابتها شعراً بل أضاف جزئيات طريفة من عنده إلى التركيبة القصصية، كما أضاف عشرات الحكايات الأخرى التى تجعل منها وسيلة لقول الكثير مما أراد قوله على طريقته الخاصة.

ونلحظ أيضاً أنّ الأسطورة في تشكّلها الأول كانت تكتب في قالبٍ شعري وليس سردي، وهذا يعيدنا إلى أنّ الشعر أداة خانقة كونها تلتزم بشروط الشعر بينما السرد يمنح السارد فضاءً أوسع من الفضاء الشعري. وإذا تحولت الأسطورة من بنيانٍ محكم في الشعر فإنها تتفلّت في السرد، وخاصةً عندما تحولت الأسطورة إلى ملك مشاع ترويها النخبة والعامة. وقد أضرّ الرواة العاميين ببناء الأسطورة ضرراً كبيراً من حيث الزيادة والنقصان وتكييف الأسطورة مع واقعهم المعاش.

كما أنّ وجود الدين جعل الأسطورة تنسلخ عن كونها حكاية آلهة إلى كونها حكاية بشر، ولهذا نلحظ أنّ الأساطير التي تمّت روايتها بعد مجيء الإسلام قد حُرِّفت تحريفاً أساسياً، فالإله يتحول إلى ملك وآلهة الشر تتحول إلى جنّ، ونلحظ أيضاً أنّ الإله المغضوب عليه بالمسخ من قبل الإله الأكبر يتمّ تكييف هذا بأنّ ساحراً قد قام بفعل المسخ.

ومن الصعوبة بمكان - بالنسبة إلي - أن تجد بناءً موحّداً لأيّ أسطورة، إذ تتحول إلى شظايا من الحكايات المتناثرة التي يتقاسمها البشر كحكايات أو أفعال غاب بنائها الحقيقي وتوالدت منها آلاف الحكايات ميزتها الحقيقية أنها باقية وأنها عبرت الزمن وما زالت باقية.

٢

عندما نقرأ في الأسطورة فإنها توصلنا إلى طريقة التفكير لدى أصحابها وكيف كانت نظرتهم المعرفية إلى ما يحيط بهم، ولكن حين ترغب في الوقوف على

= أدّى بمالكه في النهاية إلى عتق رقبته. - (حكايات من لافونتين، اختارها وقدّم لها جبرا إبراهيم جبرا، الطبعة العربية الأولى ١٩٨٧، وزارة الثقافة والإعلام ، دار ثقافة الطفل، ص١٢).

مصطلح أساطير لكي تستبين أين تضع خطواتك في طرقٍ متشعبة سلكها مرتادو البحث عن الأسطورة، سواء بالتوثيق أم الدراسة، فإنك تجد تلاطم التعريفات التي تدخلك إلى ضياعٍ مضاعف. وقد بدأ الخلط في تعريف هذا المصطلح مع بداية جمع تراث الأمم السابقة «إبّان العصرالهيلنستي عقب فتوح الإسكندر المقدوني على يد كتّاب من أمثال كاليماخوس وأبولونيوس، وقلّدهم في ذلك لاحقاً الشعراء الرومان من أمثال أوفيد وبروبيرتيوس. وعندما جاء الباحثون الغربيون في العصر الحديث للنظر في تلك المجموعات الأدبية أطلقوا على ما حوته اسم «الأساطير»، وابتدأت مشكلتنا مع المصطلح والتعريف.»[١]

وقد تنامت تعريفات الأسطورة حتى لم تعد تستطيع الوقوف أمام مصطلح يحمل تفاصيله الواضحة[٢]، فكلّ مصطلح يحاول الاقتراب ممّا يريده الكاتب، وبذلك تشعّبت التعاريف وفق الأهواء والأغراض. وفي فضائنا العربي اعتُبرت الأسطورة قصة رمزية ذات دلالة قدسية؛ فهي نتاج تلاقح ركنين أساسيين فيها هما الصورة الشفهية للمفردة ودلالتها في الذهن الإنساني انطلاقاً من رمزية معينة ترمي إليها المفردة في إطار لاعقلاني[٣]. واعتباره بهذه الصيغة هو انقياد للتعريفات الغربية.

---

(١) فراس السواح: **الأسطورة والمعنى.**

(٢) امتاز الآريون عن الساميين بمقدرتهم على توليد الأساطير والشعر القصصي بكثرة وافرة وبأنواع مختلفة حتى أصبح متعذراً على العلماء أن يحدّدوا معناها لكثرة تنوعها، وهذا ما قاد إلى الخلط في تعريف الأسطورة. وعندما جاءت الدراسات منقّبةً عن معنى لهذا الكمّ المهول من الأساطير «وهو ماعُرف بعصر توليد الأساطير، وهو العصر الحجري والحديدي الذي مثل طوراً من أطوار ارتقاء الفكرة الإنسانية.» - (**الأساطير والخرافات عن العرب**، الدكتور محمد عبد المعيد خان، دار الحداثة).

ولكون فراس السواح اشتغل كثيراً بالأسطورة نجده يقدّم تعريفات عديدة لها فيقول في كتابه **مغامرة العقل الأولى**: «الأسطورة قفزة أولى نحو المعرفة، وهي مرحلة لاحقة على السحر بعد أن يئس منه الإنسان القديم... وهي نظام فكري متكامل ومجمع الحياة الفكرية والروحية للإنسان القديم... الأسطورة حكاية، حكاية مقدسة...» لكنه سيعود للتأكيد على أنّ للأسطورة نسيجها المتميز بالرغم من تداخلها مع الخرافة والحكاية.

(٣) الدكتور محمد شحرور: **القصص القراني - قراءة معاصرة**، دار الساقي.

ولكون علماء الغربهم هم روّاد الدرس الاجتماعي جاءت الدراسات العربية مقتفيةً أثر هؤلاء العلماء اقتفاءً حرفياً، في حين أنّ لفظة «أساطير» كانت مفردة مهمة من مفردات القرآن استُخدمت كرفض للرسالة التي جاء بها سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، لكنها لم تحمل نفس الدلالات الغربية باعتبار أنّ الاسطورة أباطيل، بل لكونها أخبار الأولين المسطّرة، أي المكتوبة، وإن كانت الموضوعات التي تدور حولها الأسطورة قد تميّزت بالجدية والشمولية، مثل التكوين والأصول والموت والعالم الآخر ومعنى الحياة وسرّ الوجود وما إلى ذلك من مسائل التقطتها الفلسفة فيما بعد.

إنّ همّ الأسطورة والفلسفة واحد ولكنهما تختلفان في طريقة التناول والتعبير، فبينما تلجأ الفلسفة إلى المحاكمة العقلية وتستخدم المفاهيم الذهنية كأدوات لها فإنّ الأسطورة تلجأ إلى الخيال والعاطفة والترميز وتستخدم الصورالحية المتحركة.[١] ومع كثرتها فهي لا تتجاوز الأوصاف الرمزية والمشابهة الفنية التي طبع الخيال، فهي ترجع إلى ملكة التجسيم والتصوير ولا ترجع إلى ملكة الإيمان والاعتقاد.[٢]

وتجري أحداث الأسطورة في زمنٍ مقدّس هو غير الزمن الحالي، ومع ذلك فإنّ مضامينها أكثرصدقاً وحقيقةً بالنسبة إلى المؤمن من مضامين الرويات التاريخية، فقد يشكّ هذا المؤمن في أيّ رواية تاريخية ويعطي لنفسه الحق في تصديقهما أو تكذيبها، ولكنّ الشك لا يتطرّق إلى نفسه، إذا كان بابلياً، في أنّ الإله مردوخ قد خلق الكون من أشلاء تنّين. فالأسطورة لا تقصّ ما جرى في الماضي وانتهى، بل عن أمرٍ ماثلٍ أبداً لا يتحول إلى ماضٍ.[٣]

إنّ الأسطورة هي حكاية مقدسة[٤] ذات مضمون عميق يشفّ عن معانٍ ذات

---

(١) نزار يوسف: الحكمة بين الإله والسلطان.

(٢) الله كتاب لعباس محمود العقاد.

(٣) نزار يوسف: المصدر نفسه.

(٤) الأسطورة، في الأساس، حكاية مقدّسة، أبطالها من الآلهة أو من أنصاف الآلهة. وهي نص أدبي جميل كان يُتلى في المعابد أو يُمثّل على المسارح القديمة. وكلمة «أسطورة» ذات أصل آرامي (سرياني) من فعل «سطر» أي كتب، ومنها كلمة «سطّر» بالعربية. أما في الإغريقية فهي (Istoria) وتعني «أخباراً تاريخية»، ومنها جاء مصطلح (History) غير أنّ للأسطورة بعداً =

صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان. ومع أنّ حمولاتها دينية لكنها لا تأخذ قداسة النص الديني، فهناك جرأة على التغيير في أسلوبها وعلى تغيير أحداثها.

وقد أظهر الدين مناعةً أمام النقد الفلسفي والعلمي، وحافظ على استمراره فاعلاً ومؤثراً في الحضارة الإنسانيه رغماً عن لامعقولية تعبيراته الرمزية.[1] وحين يقول الأستاذ فراس السواح «إنّ أيّ نصّ غير قابل للدحض من حيث المبدأ هو نصٌّ زائف» إنما ينطبق هذا القول على النصّ البشري، بينما النص المقدّس (كالقرآن) مع الإيمان بأنّه ليس نصّاً بشرياً بل قول الله يصبح دحض قول الخالق من المخلوق يعبّر عن عدم إدراك يبدأ من غياب علم الضاحد بما يعلمه الخالق المحيط بالأشياء، وينتهي بعجز لغة المخلوق عن استيعاب لغة الخالق.

كما أنّ فرضية هيجل القائلة إنّ عصراً ساد فيه السحر وقد سبق عصر الدين في تاريخ الحضارة تكون فرضية معلّقة في الهواء، إذ ليس في الإمكان أن يسود السحر القائم على التيمة اللفظية التي هي تيمة منشأها ديني. فالدين سابق لأيّ فعلٍ كان، وقد تفرّعت كلّ الأفكار والممارسات من الدين. وإن ذهب الرأي القائل إنّ تاريخ الفكر الإنساني قد تتابع عبر أربع مراحل هي السحر فالدين فالفلسفه فالعلم التجريبي، وقد تشكّل هذا الرأي انطلاقاً من فرضية هيجل، فيمكن إعادة الترتيب بأن يأتي الدين أولاً ثم تأتي بقية التفريعات الأخرى. ولو لم يكن الدين أولاً لما نشأت الأساطير الباحثة عن الخالق وتفسيرات الوجود، فهي سابقة على كلّ فعل.

= معرفياً أيضاً هو أنها محاولة لاستكشاف خفايا الكون وغرائبه الكثيرة، وهي، في الوقت نفسه، محاولة لتفسير أسرار الكون المتشابكة. وتنتمي الأسطورة، زمنياً، إلى مرحلة حضارية سبقت نشوء الفلسفة وبدايات العلوم، فكانت تفسّر بطريقة أولية، وربما بدائية أحياناً، ظواهر الكون والطبيعة، ولاسيما مظاهر التغيّر في السماء والأرض. فأسطورة «برسيفوني» تفسّر، إلى حدٍّ ما، تعاقب الفصول الأربعة، وأسطورة الثالوث المصري «إيزيس وأوزيريس وحورس» حاولت أن تقدّم تفسيراً لظاهرة الخصب تبعاً لجريان نهر النيل وفيضانه، أي ثالوث الموت والانبعاث والخلق، أو الخير والشر والانتقام؛ فاتحاد النيل بالأرض ثم بدء عملية الإنبات هو تماماً مثل اتحاد إيزيس وأوزيريس وإنجاب حورس. - (صقر أبو فخر: بين الأسطورية والتاريخية، مأساة أوديب وقصة أخناتون، مجلة نزوى، العدد السبعون).

(١) فراس السواح: الأسطورة والمعنى.

وحين يقول السير حوم «إنّ الأساطير هي علوم عصر ما قبل العلوم»[1] يمكن قبول ذلك، إذ أنها كانت المفسّر لكلّ ما يحدث للإنسان في ظلّ غياب أدوات البراهين والأدلة العلمية.

وإن كان لي من الأمر شيء في صكّ تعريفٍ للأسطورة فيمكن القول: إنّ الأسطورة هي بحث العقل عن وجوده.

٣

حينما تحاول اختراق الزمن في رحلة عكسية لتقف على بداية شرارة الحياة وكيف عاشها الإنسان الأول فلن تستطيع أعتى مخيّلة بناء منظومة متجانسة لما كانت عليه الحياة، ففترة الإنسان القديم، وفق ما اصطلح على تسميتها (ما قبل التاريخ)، تمتد إلى ملايين السنين، بل إلى أكثر من ذلك بكثير، حيث يقول العلماء إنّ الديناصورات انقرضت قبل أكثر من ٦٠ مليون عام، ويؤكّد علماء الجيولوجيا أنّ عمر الأرض لا يقلّ عن ٤,٥ بليون عام. وكان اللورد كالفن أول من تجرّأ (في العقد الأخير من القرن التاسع عشر) على معارضة التيار الديني وأكّد استحالة تشكّل الأرض خلال عمر قصير. وقد قدّم حينها استنباطاً علمياً رائعاً يعتمد على وجود أحافير عتيقة تشير إلى أنّ القشرة الخارجية للأرض تتطلّب ٤٠٠ مليون عام حتى يتصلب. واليوم أثبتت التقنيات الحديثة (مثل قياس نصف عمر اليورانيوم) أنّ عمر الأرض أكبر من كلّ التوقّعات وأنه لا يقل - في أيّ حال - عن ٤,٥ بليون عام!![2]

هذه الفجوة الزمنية السحيقة لم تصل إليها أيّ دراسة، ولم يصلنا منها أيّ مدوّنة سوى إشارات وومضات عبر الكتب المقدسة. وحديثاً استطاعت الاكتشافات الأثرية[3] اقتحام أطراف تلك التخوم إلاّ أنها لم تُشبع نهمنا إلى معرفة الأعمق.

---

(١) سليمان مظهر: أساطير من الشرق، الهيئة العامة للكتاب، الألف كتاب الثاني ٢٧٤.
(٢) فهد الأحمدي، جريدة الرياض، العدد ١٥٧٣٠.
(٣) الحفريات تكشف عن جماجم بشرية ذات شكل قردي في الترنسفال وبكين وجاوة. ونياندرتال وبعض هذه الجماجم وجدت في كهوف عثر فيها على بقايا خشب متفحم في مواقد تدلّ على أنّ أصحاب هذه الجماجم قد اكتشفوا النار واستخدموها منذ ملايين السنين. =

ولأنّ القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية فإنه لم يحمل في إشاراته تاريخاً أو جغرافيا، فأصبح المكان والزمان مجالاً رحباً للمتخيّل منذ بدء الخليقة إلى أخر نقطة في المستقبل.

وإذا آمنّا أنّ بداية الإنسان موغلة في الزمن فإنّ كلّ مانقوله عن ذلك العهد ما هو إلاّ تخرّصات وتكهّنات نذكرها لكي تستقيم دراستنا مع ما نؤمن به. ولو أردنا متابعة أول ظهور حضاري للإنسان، فإنّ أقدم هذه التحولات قد حدث في مطلع العصر البليستوسيني الأعلى الذي امتد من عام ١٠٠,٠٠٠ إلى عام ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد، فهنا تشير الدلائل إلى أنّ الإنسان قد أحسّ بانفصاله الفعلي عن عالم الحيوان، وأخذ بإدراك إمكانيات بيئته الطبيعية فكيّف نفسه تجاهها وقام بتنظيم جهوده من أجل استغلالها وتوجيهها لمصلحته. وقد اصطلح على تسمية جملة التغيّرات التي حدثت خلال هذه الفترة الممتدة عبر تسعين ألف سنة بالثقافة الباليوليتية، أي ثقافة العصر الحجري القديم.[(١)]

على سبيل المثال، نجد أنّ الأستاذ طه باقر يعتبر أنّ الإنسان قضى القسم الأعظم من حياته في أطوار التوحّش والهمجية في ما يسمّى «عصور ما قبل التاريخ» (التي استغرقت أكثر من ٩٩٪ من حياة الإنسان، وتقدّر بنحو مليوني عام[(٢)])، وهذا يُعدُّ تحديداً زمنياً خاصاً بدارس الانثربولوجيا. في حين لو أننا استندنا إلى تسجيلات التاريخ الذي لم يسجّل سوى التصرفات الجماعية أو الفردية التي حصلت ضمن

= - («قصة الخلق»، بقلم د. مصطفي محمود، مقال نشر في مجلة «صباح الخير» بتاريخ ١٤/ ٠٩/ ٢٠١٠).

وقبل أيام عثر العلماء على عظم فكّ يعود عمره إلى ما قبل نصف مليون عام في كهفٍ بصربيا. وذكر موقع «لايف ساينس» العلمي الأميركي أنّ الباحثين من جامعة وينيبيغ الكندية عثروا على عظم فكّ قالوا إنه قد يعود للإنسان المنتصب (هومو إريكتوس)، وعمره يزيد على ٣٩٧ ألف عام، وربما يزيد على ٥٢٥ ألف عام. ويعتبر الأحفور الذي عثر عليه في منطقة أوروبا هو الأقدم الذي يشبه البشر، وقد يغيّر الاعتقاد بأنّ إنسان النياندرتال كان أقرب المخلوقات المنقرضة إلى البشر، وأنه نشأ في أوروبا في ذلك الوقت. - (جريدة عكاظ، ٧ فبراير ٢٠١٣).

(١) فراس السواح: لغز عشتار - الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار علاء الدين.

(٢) طه باقر: ملحمة كلكامش، دار الحرية، بغداد.

نطاق الجماعة، فإنّ عصر ما قبل الحضارة الأولى أو الكتابة الأولى يسمّى «عصر النيولين»، وهو - حسب بعض الدراسات - يمتد لأكثر من ثلاثة ملايين سنة وينتهي حوالي سنة ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد[١]. وقد سجّل الدارسون أنّ الثورة المدنية وظهور المدن الأولى قد تمّ في سومر بوادي الرافدين ومنها انتقلت جنوباً نحو مصر وشرقاً نحو الهند[٢]. وهذه المتابعة أو العلم بما حدث بدءاً من هذه النقطة التاريخية يكون لدينا زمنٌ مهول مفقود لم يُتابع ولم يتمّ الوصول إليه، كمعرفة ماذا حدث من أفعال إنسانية سواء كانت مهنية أو فكرية.

وعلى مدى آلاف المليارات من الأيام كان الإنسان يفيق يومياً ليصنع حدثاً ما[٣]؛ فأيّ مقدرة يمكن لها أن تحصي تلك الأحداث أو أن تقف على الثورات التي

---

(١) نزار يوسف.

(٢) فراس السواح: المصدر السابق.

(٣) وما تمّ تحديد تاريخه وأحداثة الهامة جاء وفق الجدول الزمني التالي:

- من سنة ٤٠٠,٠٠٠ حتى سنة ٣٦,٠٠٠: الإنسان في آسيا وأفريقيا يصنع الأدوات ويستخدم النار ويقوم بالصيد وجمع الثمار والحبوب والجوز، ويمارس دفن موتاه.
- من ١٢٠,٠٠٠ حتى سنة ٧٥,٠٠٠: الإنسان يطوّر مهارات الصيد ويعتني بكبار السنّ.
- ٦٠,٠٠٠: الإنسان يستخدم الزهور في دفن موتاه.
- من ٤٠,٠٠٠ حتى ٢٠,٠٠٠: الإنسان يتحكم بالنار ويطوّر الأدوات ويقوم بصيد الحيوانات والأسماك ويجمع العسل والثمار.
- ٣٥٠٠٠: رسومات الكهف في فرنسا وإسبانيا.
- ١٢,٠٠٠: استئناس وتربية الماعز في الشرق الأدنى (العصر الميزوليثي الحجري أوالوسيط).
- ٧٥٠٠: تربية الأغنام في اليونان (العصر الحجري الحديث).
- ٧٠٠٠: زراعة القمح والشعير وظهور الجدران في المستعمرات السكنية (الشرق الأدنى).
- ٦٥٠٠: السومريون يطورون تصنيع العجلات.
- ٦٠٠٠: تطور صناعة الفخار والخبز وحفظ الفواكه والخضروات بالتجفيف (في سومر).
- ٥٥٠٠: صهر النحاس (فارس).
- ٥٠٠٠: حفر قنوات للري والصرف في الشرق الأدنى.
- ٤٠٠٠: تربية الخيول بعد استئناسها (أوروبا) وصناعة النبيذ.
- ٣٥٠٠: صناعة البرونز والسومريون يطورون العربات ذات العجلات والسفن التي تدفعها المجاديف.

=

شكّلت النواة الأولى لفكر الإنسان؟

وإذا كانت أبعد نقطة وصل الإنسان في تقديرها لخلق الأرض بـ ٤,٥ مليار سنة (وفق المعطيات العلمية) وكانت أبعد نقطة لما دونه التاريخ هي مليونين أو ثلاثة ملايين سنة، فأين ذهبت آلاف الملايين من السنوات؟

ومن غير المنطقي أن تكون الأرض مخلوقة وليس عليها خلق، فأيّ خلقٍ كان عليها؟

هذا ما يدخلنا إلى فجوة معرفية لا يُستهان بها تبدأ بسؤال: من سكن الأرض أولاً قبل نزول آدم إليها؟ فإن قيل الجنّ هم من سكن الأرض أولاً تكون الحوارية التي جرت بين الله عزّ وجلّ وملائكته عند خلق آدم[1] نافية لوجود الجن، إذ أنّ الحوار أورد مفردة (خليفة) والخليفة حين يأتي يكون من جنس المخلّف، فهل وجد إنسان على الأرض بتركيبته العضوية من غير ميزة العقل التي خُلق عليها آدم حتى إذا شاء الله عزّ وجلّ أن يخلق العقل خلق آدم وزوّده بهذا التميّز الفذّ وأنزله خليفةً على الأرض؟

وإذ تؤكد بداية الأصول الأولى المكوّنة للحضارات والتجمّعات البدائية (على الأقل التي وصلتنا) أنّ البدايات الخلاقة كانت متلازمة مع بداية ظهور الإنسان العاقل، إذ قبل ظهوره لم يكن للإنسان البدائي القديم أيّ أثر يدلّ على تحضّره أو تمدّنه أو اختلافه عن غيره من الحيوانات، بل كان - إلى حدٍّ بعيد - يشبه القردة في تصرّفاته وأعماله؛ فهو لم يكن منتصب القامة بل كان يمشي على أطرافه الأربع، ولم يكن - فضلاً عن ذلك - يستخدم يديه في المشي ولا في الأكل، وخلال ملايين السنين مرّ هذا الإنسان بعمليات تطور أثّرت فيه من الناحية الجسدية والعقلية وأدّت به - في نهاية المطاف - إلى الوصول إلى مرتبة الإنسان العاقل المميّز والمستقلّ عن القردة. والمراحل التي مرّ فيها الإنسان القديم أثّرت في تكوينه

= - ٣٠٠٠: السومريون يطورون الكتابة المسمارية.

(نزار يوسف: **الحكمة بين الإله والسلطان**)

(١) ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ - (البقرة: ٣٠).

الجسدي والعقلي، وقد كان أهمها تحرّر اليدين من المشي واستخدام الأرجل لهذه الغاية، أي بداية الانتصاب ثم استخدام اليدين في الاستعمال... وقد أعطت الدراسات الأنتروبولوجية تسميات عديدة للإنسان القديم عبّرت عن مراحل تطوره السابقة الذكر، كالأوسترالوبيسيكوس أو الإنسان الجنوبي، ثم الإنسان الحاذق، ثم الإنسان المنتصب القامة، ثم الإنسان العاقل، ويأتي بعد الإنسان الحالي أو الإنسان الشديد الحكمة[١]. وعند هذا المفصل يمكن الحديث عن نظرية داروين (النشوء والارتقاء) التي أثارت صخباً وجدلاً لمّا ينتهِ بعد، إذ يمكن تحميل صحة نظريته وتطبيقاته على ما سبق وجود الإنسان العاقل؟

إنّ جلّ الكائنات الثديية وغير الثديية تشترك في تشكّلٍ عضويٍّ متشابه يتحوّر ويتشكّل وفق البيئة المتواجد فيها ذلك الكائن، هذا إذا أردنا التماشي مع كلّ جهد علمي مضنٍ اصطدم بما ينقضه على أرض الواقع، فأيّ عملٍ جادّ ثمّة صواب يسكن جزءاً من أجزائه، ونظرية النشوء والارتقاء يمكن السير معها في أجزاء إلاّ أنّ نتيجتها النهائية (البقاء للأقوى) لا يمكن لها أن تصمد أمام كائنات عبرت ملايين السنوات وهي لا تحمل صفة القوة مقارنةً بما يجاورها من كائنات أخرى.

إذ بالامكان القول: إنّ كلّ ضعيفٍ قويٌّ في موقعه ووظيفته. وقد تكون وظيفته قائمة على الإبقاء على الأقوى فيغدو هو قوياً بدوره هذا.

كما أنّ هناك فوارق مهولة بين من يبدأ من اللاشيء، وليس مزوّداً بخارطة تقود خطواته ولا يعرف إلى أين تحمله مغامرته القائمة على فرضية يقبلها العقل المغامر ويسعى حثيثاً لإثباتها بكلّ ما يجده في طريقه كداعم لفكرته، وبين من يرتهن إلى يقينٍ مسلَّمٍ به تلقّاه كإيمانٍ لا يقبل الجدل أو الشكّ.

والطريقان المتبعان لكلّ حالة من الحالتين السابقتين تفضي إلى قلق الأول ودِعة الثاني واستكانته.

ولأنّ الإنسان ذو النزعة البحثية قد وُجد منذ الزمن السحيق فقد كان محراثه البحثي استخدام الخيال. ففي ظلّ افتقاره لوسائل العلم الحديث للبرهنة على ما يؤمن به استخدم مخيلته في بناء نظرته إلى الوجود وإلى ما خلف ذلك الوجود...

---

(١) نزار يوسف: المصدر السابق.

هذا ما جعل الأسطورة علمَ الإنسان الأول، إذ بواسطتها يقيم الوشائج بين مفردات الكون ويسعى لبناء حضارته.

وقد أثبت الواقع أنّ كلّ منجزات العلم لم تكن قبل وجودها سوى خيالٍ يحوم في مخيّلة الإنسان، وقد أسرّ به للدنيا عبر أسطورة أو حكاية. ولا توجد حكاية عبثية؛ فكلّ حكاية حملت روح شيءٍ ما وظلّت أمينة عليه حتى ظهر إلى الوجود كمنجز بشري. وما منجزات العلم إلا حكايات نثرها سارد، وظلت تطفو على السطح حتى التقفها عالم وصاغ منها منجزاً علمياً عظيماً. ولازالت الحكاية تبحر في الكون بواسطة مخيّلةٍ إنسانية تخترق - دائماً - تخوم المستحيل ولاتقف عند حدّ.

٤

«الإنسان كائنٌ متدين» - بهذه الجملة أراد فراس السواح أن يحاكي جملة أرسطو القائلة: «الإنسان كائنٌ ناطق»

واستشعار الإنسان منذ البداية بتميزه عن بقية المخلوقات جعله أكثر دأباً لتأكيد هذا التميّز بالبحث عن الواجد لوجوده، ولم يكن هذا البحث مقتصراً على الفرد بل إنّ الجماعات كانت معنيّة هي أيضاً بهذا البحث عن الخالق، وهذا من أهم الظواهر المميزة للجماعات البشرية منذ بداية تكونها، بل لعلها أهم ظاهرة ميّزت تلك الجماعات الأولى بعد صناعة الأدوات. فبعد ظهور الأدوات الحجرية ترك لنا الإنسان الأول، إلى جانب أدواته، شواهد وسطه الفكري التي تشير إلى بوادر دينية لا لبس فيها وتبيّن ظهور الدين إلى جانب التكنولوجيا كمؤشرين أساسيين على ابتداء الحضارة الإنسانية ومازالت إلى يوم الناس هذا. وكل نواتج الحضارة الإنسانية ليست سوى استمرار لهاتين الخصيصتين الرئيسيتين للإنسان[١].

ومن تثقف على الكتب السماوية سيجد استقراراً نفسياً لا يأخذه إلى منطقة التأزّم والقلق الوجودي اللذين عاشتهما البشرية الأولى في تصوّر الخلق أو السؤال عن الإله وكيف جاء وكيف تناسلت البشرية.

ومع تلاحق الأزمنة وترسيخ جملة أفكار عن نشوء أساطير الآلهة في أركان

(١) فراس السواح: دين الإنسان - بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، دار علاء الدين.

المعمورة يعتري المرء (المنتمي إلى أيّ ديانة سماوية) ارتباكٌ حول كيفية انحراف البشرية في تصور الخلق والإله، إذ كانت متواصلة مع ظهور أول إنسان على وجه الأرض (آدم)، ممّا يحمل الدارسون على البحث عن هذا الانحراف البدئي، وخاصةً إذا آمنّا أنّ الرسل والأنبياء لم ينقطع تتابعهم عبر الأزمنة بدءاً من آدم عليه السلام.

فهل كانت الهجرة وتكوّن الجماعات وابتعادهم عن الآباء والأجداد مصدراً لذلك الانحراف أو تكوّن تلك التصورات لبداية الخلق أم أنّ خطأً ثقافياً قد حدث في تبنّي الحكايات التي تداولتها البشرية كنوعٍ من الإنتاج الأدبي وحولتها إلى تصورات للخلق الأول بعيداً عن حقيقة اليقين الدّيني لما توارثه الإنسان في تواتر لا ينقطع؟

وثمة ملاحظة تكاد تكون جوهرية في تشابه الأساطير في البناء الحكائي مع استعارة الحدث (الحبكة القصصية) لكلّ أسطورة من مصدر ديني سماوي، ومن ثم تشكيلها وفق ثقافة البيئة التي تنتج تلك الأسطورة.

ثمة إجابات حول هذا التشابهة ذهب إليها بعض الدارسين تتمثّل - أولاً- في أنّ الجنس البشري كله نشأ، أول ما نشأ، في مكانٍ واحد ثم تفرّق وارتحلت معه معتقداته وأساطيره. ويذهب آخرون إلى أنّ حياة الناس لم تظهر في مكانٍ واحد بل في أمكنة متفرقة، ولكن قامت بين مختلف هذه الأوطان علاقات ثقافية هاجرت بواسطتها الأساطير وسواها من عناصر التراث القديم من أمة إلى أمة. وثمّة رأيٌ ثالث يقول إنّ سبب التشابه هو تشابه ظروف تطور التاريخ الإنساني عامةً وانتقاله من حالات قامت في موطن إلى حالات أخرى حكمت هذا الموطن نفسه.[١]

يقول ستروس في الإناسة البنيانية: «معلومٌ أنّ الأساطير تتحول، وأنّ هذه التحولات التي تحصل بين رواية للأسطورة الواحدة وأخرى، أو من أسطورة الى أسطورة أخرى، أو من مجتمع إلى آخر، بالنسبة إلى الأساطير نفسها أو بالنسبة إلى أساطير مختلفة، تؤثّر على هيكلية الأسطورة حيناً أو على «كودها» حيناً آخر أو على المرسال المقصود منها حيناً ثالثاً. لكنّ هذه التأثيرات لا تحول دون بقاء الأسطورة أسطورة، فهي تراعي بذلك ما يمكن تسميته مبدأ الاحتفاظ بالمادة الأسطورية، وهو

(١) سليمان مظهر: أساطير من الشرق، ص١٥.

مبدأ يعمل على أن يكون من الممكن دائماً أن تنشأ عن كل أسطورة أسطورة أخرى بحثاً عن الأسطورة الخالدة.»[1] إذ أنّ كلّ أسطورة معنيّة بالبحث عن الخلود.

وتكاد تكون جميع الأساطير مشتقّة من الكتب المنزلة، وإن تكن الحقائق الأصلية قد بُدِّلت أو أُخفيت معالمها؛ فليس ديوكاليون إلا اسماً آخر من أسماء نوح، كما أنّ هرقل هو نفسه شمشون وآريون هو يونان.[2]

وقد ضجّت الذاكرة البشرية بأساطير فرعونية وآشورية وبابلية وسومرية ويونانية وهندية وصينية، وجميعها تداخلت في تكوين المحصّلة الثقافية عن بداية تشكّل الفكر الإنساني، وخاصةً في جانبه الديني. وقد كان السؤال الأساس الذي واجهه الإنسان القديم في ما بين النهرين (وكذلك في بقية المواقع): كيف تمّت ولادة الآلهة؟

وقد تعددت الأجوبة أو محاولات الأجوبة عن هذا السؤال، فقد تمّ تصور إلهة (أم) ولدت جميع الآلهة: آلهة السماء وآلهة العالم السفلي.

إنها الإلهة - الأم مامي (الإلهة - الأم البدائية) التي جاءت سيرة ولادتها جميع الآلهة في قصيدة الصراع بين نينورتا (ابن إنليل إله الحرب) والطائر أنزو (الطائر الأسطوري الذي انتصر عليه نينورتا) وقد لقّبت بسيدة جميع الآلهة، وهي التي أعلنت دورها في تلك القصيدة حين قالت:

أنا هي ولدت جميع الإيجيجي (مجموع ألهة السماء)
أنا التي خلقتهم بكاملهم
هم ومجموعة الأنوناكي (مجموعة آلهة العالم السفلى)، الآلهة العظام
وأنا التي منحت السيادة لإنليل أخي (سيد مجمع الآلهة في سومر)
وعينت لآن (إله السماء) سلطته العليا في السماء.[3]

---

(١) تركي الربيعي: طه باقر والريادة في عالم مجهول، مجلة نزوى، العدد التاسع والثلاثون.
(٢) دريني خشبة: أساطير الحب والجمال عند اليونان، المجلد الأول، دار التنوير.
(٣) ديوان الأساطير سومر وأكّاد وآشور - الآلهة والبشر: نقله إلى العربية قاسم الشواف، دار الساقي.

إلاّ أنّ الغريب في هذا السياق أنّ الأسطورة لم تذكر كيف وجدت الأم مامي (الإلهة-الأم البدائية) إذ تغفل الأسطورة عن هذا الوجود وتستمر في إيجاد بقية الآلهة من غير ذكر، أو الإشارة إلى، وجود إلهٍ ذكر، وفق بناء بقية الأساطير المعتمدة على التكاثر الجنسي بين الآلهة.

ولو أردنا تتبّع البدايات الأولى لأساطير أخرى سنجد أنها تتكاثر من خلال فكرة التزاوج ثم تسند الأدوار، فيما بعد، إلى نتائج الصراع والحاجة التي توجدها بنية الأسطورة[1] كحدث حكائي. فسفر التكوين البابلي الذي يحكي قصة الخليقة في ملحمة (حينما في الأعالي) تبدأ الملحمة بإشارة وجيزة إلى الزمن الذي لم يكن يوجد فيه شيء سوى الأبوين الإلهيين ابسو وتئامت وابنهما ممو، وكان أبسو بحر المياه الحلوة الأول وتئامت بحر المياه المالحة، بينما يُحتمل أنّ ممو كان يمثّل السديم المرتفع من التقاء قناتي المياه والمحوّم فوقهما، لاسيّما وهو يدخل - في اللوح السابع - في علاقة مباشرة بالغيوم. وقد اختلطت هذه الأنماط الثلاثة من المياه ببعضها مكونةً كتلة واحدة هائلة وغير محددة تنطوي على جميع العناصر التي سيتكون منها العالم فيما بعد.

وفي ذلك الوقت لم تكن هناك سماء ولا أرض، وفي وقتٍ لاحق أنجب ابسو وتئامت زوجاً من أخٍ وأخت هما لخمو ولخامو، وبدأ التناسل فظهر الإله انكي إلهاً ذا حكمة استثنائية وقوة شاملة، ولذلك صار إله المياه الحلوة تحت الأرض وإله السحر والعقل المدبّر للآلهة العراقية القديمة. وقد لجأ إليه الآلهة الصغار جزعاً من ابسو الذي انزعج من صخبهم وقرر قتلهم ليستمتع بالهدوء، فلجأت صغار الآلهة

---

(١) يتساءل ستروس، في مستهل تحليله «بنية الأساطير» بما فيها أسطورة أوديب ومجموع أساطيرأمريكا الشمالية الهندية، عن السرّ الذي يجعلنا نتأرجح بين السطحية والسفسطائية كلما حاولنا أن نفهم ما هي الأسطورة. لكنه، بعد عقد ونيف من الزمان وأكثر قليلاً، راح يعزو هذا التأرجح إلى الثقافة، وبصورة أدقّ إلى العاهة الملازمة أصلاً لمعرفتنا، والتي تحول بيننا وبين معرفة الأسطورة وتفرض علينا حالة التأرجح بين السطحية والسفسطائية. وحالة التأرجح هذه تطال مسيرة الثقافة الأوروبية/ الغربية في موقفها من الأسطورة. (تركي علي الربيعو: مضمون الأسطورة في خطابنا المعاصر (الأسطورة والأيديولوجيا: فراس السواح نموذجاً)، مجلة نزوى، العدد الثامن).

إلى انكي (أو: ايا) الذي عمل دائرة سحرية ثم ألفّ رقية قدسية لا عاصم منها فأنشدها وجعلها تنحدر على ابسو بوصفها قوة مخدّرة له، وحين أنشد ايا رقيته خضع أبسو لقوة التميمة وغطّ في نوم عميق، فهرع إيا إلى إزالة التاج الملكي وانتزع بهاءه العلوي وتحلّى بهما فاكتسب قُدرة ابسو فسارع إلى ذبح جميع الآلهة محققاً نصراً ساحقاً من خلال استخدام سلطة الكلمة المنطوقة أو قوتها المتمثلة في قوة التميمة.[1]

ويلد له مردوك أحكم الآلهة (الذي رضع من صدور الإلاهات) وهكذا صار

---

(١) قوة التيمة القولية نجدها في الأسطورة الفرعونية. فقد كان رع يخرج كلّ صباح في موكبه الخالد من الأفق الشرقي عابراً السماء، وفي كلّ مساء كان موكبه يختفي في طيات الأفق الغربي حيث ينير ظلمات العالم السفلي، عالم الأدوات. وقد ظل رع يقوم بهذه الرحلة ملايين السينين حتى دبّت فيه الشيخوخة وتقدّمت به السنّ فكان لا يستطيع أن يضم فكيه أو يقفل فمه فكان لعابه يسيل على الأرض.
وتناولت إيزيس حفنة من التراب ومزجتها بلعاب رع وصنعت من ذلك قطعة من الطين جعلتها على صورة ثعبان مجنّح، من تلك الثعابين المقدسة التي تتوّج رؤوس الآلهة وتزيّن تيجان ملوك مصر، ولم تقرأ على ذلك الثعبان تعاويذها ورقاها، لأنّ الثعبان كان الحياة وكان يجري فيه من لعاب رع نفسه، ثم أخذت الثعبان وأخفته عن طريق مرور الإله رع. لكن يحدث وأن يمرّ به الإله رع فينشب الثعبان نابه فيه فيصرخ صرخةً عظيمة يسمعها كلّ الخلق، ثم يناديهم ويقول لهم: لقد أوذيت أذىً بالغاً أحسّه ولكنني لا أعلم ما أتاه ولم تخلقه يداي هاتان، ولا أعلم من أوجده. أبداً لم أحسّ بمثل هذا الالم من قبل... من الذي يستطيع إيذائي؟ إن أحداً لا يعرف سر اسمي، ذلك الاسم الذي منحنيه أبي وأمي وأودعاني إياه بحيث لا يؤثّر فيه سحر ولا يعرفه مخلوق...
وتمضي الحكاية إلى أن تأتي إيزيس وتطلب من رع أن يخبرها باسمه الأعظم لكي تستخدمه كترياق لعلاجه، ولم يبح به إلا بعد أن أوشك على الهلاك. وحين يبوح به ينتقل اسمه الأعظم من قلبه إلى قلب إيزيس وأصبح ملكاً لها، فصاحت به فأطاع السمّ وشفي رع بقوة اسمه، وقبلها قالت إيزيس لرع: عاهدني أن تعطي عينيك لحورس. وما عينا رع إلا الشمس والقمر. (كمال الحناوي: أساطير فرعونية).
ونلحظ أنّ التميمة تأتي من قوة الكلمة إذ أنّ السحر في كلّ الأساطير قائم على نفاذ الكلمة وتأثيرها في الكون.
وهذا الجزء من الأسطورة به خلل في البناء الحكائي إذ أنّ رع منذ البدء تذهب أسطورته إلى أنه خالق نفسه، بينما هنا عندما يتحدث عن اسمه يقول إنّ أبويه منحاه الاسم، وهذا ينسف بناء الأسطورة من جذرها الأساس.

يتشرّب بقوى وخواص إلهية إضافية. ويقال إنّ مردوك هو مار-أوتو (ماروت الذي هو أحد الملكين اللذين نزلا إلى الأرض). وتواصلت المؤامرات والقتل، وهي الخطة التي بدأت بها تثامت انتقاماً لزوجها.[1]

إنّ تأثير ملحمة (حينما في الأعالي) كان حاضراً في سفر التكوين في التوراة، وقد سبق وأن اكتسحت الثقافة البابلية العالم القديم منذ الألف الثالث قبل الميلاد، فقد أثرت في الطوفان وأسطورة مولد سرجون الأكّدي (٢٣٧٠-٢٣١٦ قبل الميلاد)، ويمكن مقارنتها بقصة مولد النبي موسى أو بحكايات الرجل الصالح في سفر أيوب.[2]

وللفرس قصة تروي أصل الإنسان وهي أن هرمزد خلق شيئين هما أصل الإنسان والحيوان والنبات، وهما كيومرث والثور الأول، عاشا سعيدين في ملك هرمزد ثلاثة آلاف سنة، ثم ظهر أهرمن (الشيطان) فقتلهما، بدأ بالثور وبعد ثلاثين سنة قتل كيومرث، فنتج من الثور حين موته الزوجان الأولان مشيا ومشيانه (أدم وحواء) فنسلا.

وللهنود قصة أخرى هي أنهم يتصورون السماء ذكراً والأرض أنثى، وأمطرت السماء فقبلت الأرض ماءها، بمنزلة قبول المرأة ماء الرجل في رحمها، وعالجها الفلك بسرعة جرية ودورانه فبدأ أول ما بدأ نبات شبيه بالإنسان، ثم ألحّ عليه الفلك بدورانه حتى أقلعه من منبته فسار إنساناً يسعى.[3]

وتذكر جداول الملوك السومرية أنّ الملوكية نزلت من السماء في مدينة أريدو بالقرب من أور في جنوب العراق، ثم جاء الطوفان العظيم الذي اكتسح الأرض ومن عليها باستثناء رجل الطوفان العظيم زيوسدرا في النص السومري، أو أتونابشتم في النص البابلي.[4]

---

(١) ألكسندر هايدل: سفر التكوين البابلي - قصة الخليقة ملحمة حينما في الأعالي، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الجمل.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الدكتور محمد كريم الكواز: الحفر في الذات - مقاطع من أسطورة آدم.
(٤) الدكتور محمد كريم الكواز: المصدر نفسه.

وإنّ بابل التي تلت مصر في سلّم الحضارة قد أثّرت في جاراتها أضعاف ما أثّرت مصر، والموازنة السريعة بين شجرة أنساب الآلهة البابلية ثم أشجار الآلهة السومرية والحثية والآشورية واليونانية تثبت هذا التأثير بصورة واضحة لا تقبل الجدل.[1]

لقد كان العالم قبل أن يأخذ شكله الحالي (هيولي) أو - كما كان اليونانيون يقولون - خيوس، أي شيئاً كبيراً مضطرباً لا يستطيع أحد أن يتبينه لأنه لم يكن يوجد أحد في ذلك العهد السحيق الذي يسبق الأزل، ولأنّ الكون كله كان يخبط في ظلام قاتم دامس... واعتبر اليونانيون هذا الخيوس أو تلك المادة ربهم الأول، وكانت منهم طائفة تعتقد أن هذه الهيولي شيء والإله المسيطر عليها شيء آخر وإن يكن اسمه هو الآخر خيوس.

وكان خيوس يجلس على عرش الهيولي وإلى جانبه زوجته نيكس، ربّة الليل الزنجية التي لم يكن محيّاها الأسود وثيابها الدجوجية يستطيعان أن ينشرا حولها إلاّ الظلمة التي تضرب في الظلمة والسواد الذي يضاعف السواد.[2]

مضت قرون وتتابعت الأحقاب وأحسّ الزوجان بملل شديد ينتابهما، فحياتهما الرتيبة لا تتغير وأصبحت شيئاً بغيضاً لا طعم له، ورأى خيوس أن يستعين بولده إريوس (الظلام)[3] لتبديل هذه الحال، فاستدعاه وشاوره في الأمر، فقهقه إريوس وصارح أباه بأنه لم يعد يصلح لحكم هذا العالم لأنه شاخ وتقدمت به السنّ، ومن الخير له ولذلك الكون أن يترك مقاليد الحكم لولده الذي يعيش عيشة فارغة لأنه بلا عمل... فإذا رضي هذا الرأي وجب أن ينزل لولده عن زوجته نيكس، أي أم إريوس، كي تكون لابنها زوجة!

---

(١) أساطير الحب والجمال عند اليونان، دريني خشبة، المجلد الأول، دار التنوير.

(٢) قد تكون هذه أول إشارة إلى نبذ اللون الأسود كونه ممثلاً للظلمة التي تعني الشر. وهي أسطورة سابقة لذمّ السواد وسابقة لأسطورة حام بن نوح الذي لعنه أبوه ودعا عليه أن يكون خادماً لأخويه. وتذهب أسطورة حام إلى أنه كان أسود البشرة، وإليه ينتسب العرق الزنجي.

(٣) وأريوس أيضاً يؤكد لعنة الظلام (السواد)، وتقيمه الأسطورة ممثلاً للشر بما فعله بأبيه وأمه. وهذا ما يفسر لنا حكاية الدماء الزرقاء عند الأوربيين، ويفسر المناداة بنقاء ذلك العرق الأزرق.

ثار خيوس لهذه القحة، لكنّ ابنه عبث وخلعه عن الحكم واغتصب أمه، ومن ثمّ أصبحت له زوجة.

هذه تيمة وتركيبة تصوّر بداية تناسل الآلهة، إذ يكون الملل والضيق من البقاء الطويل محرّضاً على إحداث أفعال لمواصلة تلك الحياة.

وإريوس وزوجته أيضاً يصابان بالملل من المكوث في الظلام الدامس، وعندما كبر ابنيهما أثير (الضوء) وهيميرا (النهار) تآمرا على خلع أبويهما عن الحكم والسيطرة على العالم، ومع انتصارهما يشعّ النور فيريان فوضى العالم التي كانت مستترة في الظلمة الدامسة، فيشعران بالأسف ويستدعيان ابنهما إيروس (إله الحب)، واجتمع ثلاثتهم لبحث المشكلة، فخلقوا بونتس (البحر) ثم جايا أو جي (الأرض). ولبؤس الأرض يتحرك إيروس ويصوب سهامه إلى الأرض فتنبثق العيون والأشجار والأزهار وتخرج الحيوانات وتغوص الأسماك في البحار وأصبح كل شيء جميلاً، واستيقضت الأرض (جي) فأعجبت بكلّ هذه الآيات التي صنعتها سهام إيروس لتجعلها أجمل شيء في هذا الوجود، فضحكت وعرفت أنها ربة، ثم أدركت أنّ شيئاً ينقصها، إله ذكر كما للإلاهات الأخريات آلهة ذكور، فخلقت أورانوس (السماء).

وثمّة سفر آخر يزعم أنّ إريوس وفيكس خلقا بيضةً ضخمة خرج منها إيروس (إله الحب) ليتولى بنفسه خلق الأرض[1]. ويقول السير والتر رالي في كتابه **تاريخ العالم** إنّ جوبال وثوبان وتوبال (قايين) إن هي إلا أسماء لمركيوري - أي هرمز اليوناني - وفلكان وأبوللو، أرباب المراعي والحدادة والموسيقى، وإنّ التنين الذي كان يسهر على حراسة التفاحات الذهبية هو الأفعى التي خدعت حواء، وإنّ حادثة صرح نمرود هي نفسها محاولة المردة الثورة على زيوس.

كما نلحظ استعارة طريقة التكاثر البشري للآلهة، إذ لم يكن العقل يتصوّر الوجود الإلهي خارج تجربته الشخصية، فنصوص ما بين النهرين قالت لنا إنّ السماء والأرض هما زوجان بدئيان، حيث تزينت الأرض واكتست أجمل حللها لتلقّي مني

---

(١) دريني خشبة: أساطير الحب والجمال عند اليونان.

السماء. . . إذ تتم ولادة الآلهة، في معظم الأحيان، بنتيجة اتصال جنسي. وبمجرد الاعتقاد بفكرة توالد الآلهة كتوالد البشر كان من الطبيعي محاولة سرد وتعداد الآلهة التي كانت فاعلة وكانت لها أدوارها الكونية والطبيعية والتنظيمية. وقد تمّ لذلك تأليف النصوص المختصة بتسلسل الآلهة، ومحاولة العودة بهذا التعداد إلى أقصى حدّ تصورته عقول مفكّري ما بين النهرين، أي إلى زمن البدء. وهذا ما تمّ فعلاً، بدءاً من نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، حين وضعت لائحة الآلهة التي عرفت بمطلعها (آن- آنوم) والتي أخذت شكلها النهائي في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.[١]

ونجد أنّ كلّ جيل من أجيال الآلهة يقوم بصياغة وجود آلهه أخرى، وهناك نظريات لتوالد أو نشأة الأساطير بالكثرة الكاثرة التي تقيم كلّ نظرية لنفسها مقومات لتحقيق وجودها وصحتها. فالأستاذ توماس بلفنش أقام نظريته لهذه النشأة بأنّ جميع الأساطير مشتقة من الكتب المنزلة - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - ثم بسط الحديث عن تلك النشأة من خلال النظرية التاريخية بأنّ أبطال الأساطير وآلهتها ما هم في أصلهم إلا أبطال البشر والقبائل البدوية القديمة، حيث أخذ الرواة ينسجون حولهم الأقاصيص الضافية التي كلّما جاء جيل وذهب آخر أُضيفت إليها الزيادات والحواشي حتى ارتفع هؤلاء الأبطال في أذهان الناس إلى مصافّ الآلهة، فايولوس ربّ الرياح - مثلاً- ليس إلاّ ملكاً من ملوك الجزائر في البحر التيراني، وقد حكم قومه بالعدل. وهكذا بالنسبة إلى النظريتين المجازية والطبعية، إذ جميعها تذهب إلى أنّ الأساطير هي نتاج ثقافة متناسخة.[٢]

وتقول الأسطورة المصرية إنّ الماء كان في البدء يغمر العالم كله، وكان هذا الغمر المائي الذي لا نهاية له ذا لونٍ داكن مظلم، وكان خالياً من أيّ حياة، ومن تلك الماء ظهر النظام والحياة وانبثق النور متّخذين عادةً هيئة مرتفعٍ أو تلّةٍ بدائية. إلا أنّ صورة الماء، بالإضافة إلى ما تمثله من هيولى وحال شواش مختلطة للكون،

---

(١) ديوان الأساطير سومر وأكّاد وآشور - الآلهة والبشر، نقله إلى العربية قاسم الشواف، دار الساقي.

(٢) دريني خشبة: أساطير الحب والجمال عند اليونان.

تعبّر أيضاً عن وحدة واحدية حيث تتّحد كلّ الأضداد ولا تتّخذ أشكالاً خاصة مميزة لها. لذا يرى بعض العلماء أنّ ظهور الحياة من المياه الأولية يمثّل ظهور الوعي وانبثاقه من اللاوعي.[1] ونرى تشكل الآلهة الفرعونية من خلال الإله رع الذي تُطلق عليه عدة ألقاب لما له من ميزة الاندماج مع آلهة أخرى.

ويعتبر الإله رع خالقاً لذاته، وله القدرة على التجدّد وإعادة خلق نفسه (التي مُثلت بقدرته على التحول إلى أفعى وطرح جلده)، ومع هذا ظلّ مختلفاً عن الخلق، منفصلاً ومستقلاً عنه. وقد كان إلهاً خفيّاً لا يمكن إدراك كنهه، وذلك يعود إلى كماله المطلق، وهو يختلف عن بقية الآلهة الفرعونية. ولعلو قداسته فقد ظلّ منفصلاً عن الكون المخلوق، وكان مرتبطاً بالهواء، وله قوة خفية تمكّنه من الاختلاف عن بقية الآلهة، ويظهر موازياً له آمون، وباتحاد آمون مع رَع، الشمس، تجلّى آمون للخلق، ولهذا جمع (أمن‌رع) في نفسه النقيضين الإلهيين: فهو بصفته آمون كان خفياً وغامضاً ومنفصلاً عن العالم، وبصفته رع كان جلياً وظاهراً ومانحاً للحياة اليومية. بنفس المنطق كان ارتباطه بماعت، المفهوم المصري للعدل والتوازن في الكون.[2]

وهناك أيضاً الإله بتاح (إله منيف) إذ كان يعتقد أنّ بتاح هو الصانع الأعظم الذي خلق العالم، على أنّ المجهود الذي بذله لينال هذه المكانة قد ساعده مساعدة جدية على استيلائه على السلطة والسيادة الفريدة التي كان يتمتع بها الإله رع.

وبتاح هو قلب الآلهة ولسانها والتعبير عنها بصفتها الأصل والقوة المساعدة لكلٍّ من الأمر الإلهي والأمر الدنيوي. وبما أنّ القلب واللسان تغلّبا على كلّ عضو في الجسم، فبتاح كان في كلّ صدر على هيئة قلب وعلى هيئة لسان في كل فم عند جميع الآلهة وجميع الناس وجميع الأحياء، وكان بتاح يفكّر ويأمر بكلّ شيء يرغب فيه.

وبتاح خلق كلّ شيء وكلّ كلمة مقدسة، وتُعدُّ قوة بتاح أعظم من قوة كلّ

(١) سهيل بشروئي ومرداد مسعودي: تراثنا الروحي من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة، دار الساقي.

(٢) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

الآلهة، وهو الذي ذرأ الآلهة وأقام المدن وأسّس المقاطعات ووضع الآلهة في أماكنهم المقدّسة وثبت دخلهم المقدس.[1]

أما أسطورة أوزيريس فقد وفرت الأساس الأسطوري الذي أنشأ مدخلاً للصلة بالعصر الذهبي السابق له من خلال شخص فرعون. وآلام أوزيريس تبدأ حين تزوج أخته إيزيس، عندها تآمر أخوه ست (الذي يمثّل قوى التفكّك والفوضى) للإطاحة بملك أوزيريس والنظام الذي أنشأه. واستطاع ست بما حاكه من مؤامرات أن يقتل أوزيريس ويتخلص من جثته بإلقائها في نهر النيل. لكنّ إيزيس، بما أوتيت من قدرات وقوى سحرية، استطاعت استيراد جثة أوزيريس، إلاّ أنّ ست تحدّاها وقطّع جثة أوزيريس إرباً إرباً، وقد استطاعت أن تجمع هذه الجثة وترتّبها وتدفنها بالصورة اللائقة، وسخّرت قواها السحرية لكي تحمل بحورس من أوزيريس الميت.

وولدت إيزيس ابنها حورس وأخفته عن عمه ست. وعندما شبّ حورس رغب في الانتقام لأبيه، فقام بمنازلة عمه الشرير ست وانتصر عليه، فلقي الثناء والمديح من مجلس الكبار، ثم نصّب ملكاً على مصر.

وقد تميزت فترة حورس بعودة النظام ونهاية عهد ست الفوضوي، غير أنّ ست استطاع خلال المبارزة أن يقتلع إحدى عيني حورس[2]. وكان أن حمل حورس عينه

---

(١) سليم حسن: الأدب المصري القديم، أخبار اليوم، كتاب اليوم.

(٢) كان ست ماكراً خبيثاً يتّسم بكل الصفات السيئة كونه يمثل الشر، وكانت لديه القدرة على التشكل في أي صورة يرغب، ولأنّ حورس يمثل الخير فلم تكن من صفاته الخديعة أو الغش، وقد امتاز بأنّ من ينظر إلى عينيه الزرقاوين الصافيتين يرى المستقبل منعكساً على حدقتيهما. . . وكان ست قد تمثل في هيئة خنزير أسود، وقد وصل إلى علم ست أنّ رع سوف يتشاور مع حورس، وأنّ هذه هي فرصته السانحة للقضاء على حورس. وكان رع يتحدث مع حفيده حورس قائلاً: دعني أنظر في عينيك الصافيتين لأرى ما سيجيء به المستقبل.

وبينما كان ينظر رع في عيني حورس مرّ الخنزير الأسود فقال رع: انظر إلى هذا الخنزير فأنا لم أرَ مثيلاً له في ضخامته ووحشيته. . . فنظر حورس صوب الخنزير، ولم يكن يعرف ست بهذه الصورة الغريبة، وظنّه خنزيراً برياً من الخنازير التي تسكن الغابات الشمالية، فلم يحتط لنفسه من عدوه، وعندئذٍ وجّه ست حزمة من النار إلى عين حورس فصاح متألماً: إنه ست وقد قذفني في عيني بالنيران. ولكن ست سرعان ما اختفى ولم يُرَ الخنزير الأسود مرةً أخرى. =

المقلوعة إلى أوزيريس الذي كان في حالة اللاوعي في العالم السفلي، حيث كان أوزيريس روحاً لا شكل لها، وحين أخذ عين حورس صحا، وباتت عين حورس السليمة مقترنة بإله الشمس رع، وهذا كان دليلاً على الرابطة الوثيقة التي نشأت بين أوزيريس وعقيدة رع الدينية في فترات لاحقة.

وأصبح أوزيريس ملك العالم السفلي، وامتلك كلّ القوى التي يتميز بها إله ختوني (تحت أرضي) ومنها الخصوبة والتجدّد والإنتاج.

وقد اقترن اسم فرعون (ملك مصر) بحورس واعتبر أنه هو.[1]

ويقول العالم جون ولسون إنه عندما ظنّ المصري القديم أنّ الملك فرعون كان حورس لم يقصد أنّ الملك كان يقوم بدور حورس وإنما عنى أنّ الملك كان بالفعل هو حورس، وأنّ الاله كان حاضراً في جسد الملك خلال فترة النشاط والفعل المعنية.

ويقترن فرعون بعد موته بأوزيريس في العالم السفلي.

وبذلك يكون حورس (الملك فرعون) قد رسّخ النظام الخُلقي والاجتماعي والديني وأيّده فوق وجه الأرض، بينما عمل أوزيريس (الفرعون الميت) على المحافظة على خصوبة تربة الأرض وإنتاجيتها.

وقد اقترن اسم أوزيريس، بعد نهوضه وبعثه من الموت وصعوده إلى السماء، برع، وعُرف بإله الشمس. وساد الاعتقاد على هذا الأساس بأنّ فرعون كان إلهاً متقمصاً في هيئة ملك على الأرض. فالملك لا يموت فعلياً أبداً، وإنّ ما يحدث له هو موت جسدي عضوي ينزل به إلى العالم السفلي، حيث يستيقظ ويقترن عندئذٍ برع، أو يعرف بأنه رع الإله الأسمى. ولهذا ظلّ تقليد التقمص والبعث مستمراً عند سلسلة الفراعنة المتوالية ونمطاً يتّبع النهج الأسطوري لنموذج أوزيريس[2].

وثمة اختلاف في تجسيد الإله عند الزرداشتين إذ تقوم على ثنائية النور

= وحلّت لعنة رع بالخنزير بسبب ست فقال: «ليكن الخنزير قرباناً لحورس» - (كمال الحناوي: أساطير فرعونية، منشورات المكتبة العصرية).

(١) سهيل بشروني ومرداد مسعودي: تراثنا الروحي من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة، دار الساقي.

(٢) المرجع السابق نفسه.

والظلمة، فالنور يمثل الخير (وهو الإله أهورامزدا) والظلمة تمثل الشر (وهو الشيطان أهريمن). والإله أهورامزدا يعلم بعلمه المطلق وجود الظلام، بينما أهريمن لا يعلم بوجود الإله ولم يكن يمتلك مقدرة اختراق النور. ولم تحمل الأسطورة تفسيراً لهذا الوجود أو كيف ظهرت هذه الثنائية، إذ هناك فصل تام منذ البدء. والأسطورة الزرادشتية[1] تحكي لنا أنّ أهريمن قد سُمح له فجأةً بعبور عالم الظلمة دون سببٍ واضح، وحينما صدمه هول ما رآه في عالم النور، فلم يكن على علمٍ بوجوده، قرّر أن يُدنّس عالم النور ويُميت الخلود. وكان مزدا يعلم بتجول أهريمن في عالمه النوراني المطلق، ورغم قدرته على إفنائه لم يقم بذلك بل أنه اتفق معه على موعد لبداية المعركة بين العالمين: الخير والشر، الحياة والموت، وحدّدها أنها ستكون بعد ثلاثة آلاف عام. وفي تلك الأثناء خلق مزدا كلّ خلقه، بدايةً بالسماء والأرض، وصولاً إلى العشب والنار، ونهايةً بآخر مخلوقاته وهم البشر. وظلّ الجميع في حالة سكون إلى أن انقضت المهلة وأعلنت الحرب ضد أهريمن وأعوانه، فتحركت المخلوقات.

أي أنّ فلسفة خلق العالم في الزرادشتية هي استعداد للصراع بين الخير والشر، حتى أنّ المخلوقات قد ظلّت ساكنة حتى اللحظة الموعودة، فالحرب مع الظلمة والشر هي هدف الحياة والوجود. ومن المهم الإشارة إلى أنّ كافة المخلوقات كانت تتمتع بصفة الخلود الإلهي التي منحتها إياها مزدا، ولكنّ هذه المنحة لم تدم طويلاً في مرحلة الصراع، فقد تمكن أهريمن من خلق الموت والفناء، فقام بتدنيس مخلوقات أهورامزدا المقدّسة الخالدة كخلوده بسِمة الموت والعدم.

لكنّ هذا لا يعني أنّ أهريمن يملك حق الموت في مقابل حق الحياة لدى مزدا، ففي نهاية الأسطورة، أي في نهاية العالم والمعركة، سيُفني أهورامزدا عالم الظلمة وأهريمن ليعود الوجود إلى طبيعته النورانية الأولى، أي الوعد الإلهي بالنور المنتظر. فحق الحياة والفناء بيد أهورامزدا فقط. فأهريمن يمثل زوال الحياة، أي نفي صفة الخلود عن الحياة، لتبقى من حق الإله الأكبر وحده، وكأنه يعمل لصالح

(١) في هذه الجزئية اعتمدت اعتماداً كلياً على بحث بعنوان الوحدانية في الديانة الزرادشتية (صراع المقدس والمدنس) للأستاذ أحمد لاشين، نشر في السنديوم ١٩ - ١٠ - ٢٠٠٩.

من يحاربه، ويُقر بألوهيته عليه، فدوره لا يتعدى أن يكون رمزاً للموت والمسؤول عنه، «فجدلية النور والظلمة هي امتداد طبيعي لجدلية الوجود والعدم، بما يتّسق والتصورات الطبيعية في تلك الفكرة، . . . فللطبيعة وجود حاضر مفيد. . . وزوالها هي العدم أو الظلمة أو الموت».

لكنّ الوجود في حدّ ذاته لا يمثّل الإله الأكبر، فهناك علاقة نسبية بين الوجود والإله السفلي، وبالتدريج سيحاول أهريمن أن يأخذ النور الكامن في المخلوقات، أي يأسر الحياة ويهبط بها إلى العالم السفلي، ولكن في يوم النهاية الموعود سيعود كلّ النور إلى أهورامزدا ثانيةً، فالنور دائماً إلهي وإن انتسب إلى الشيطان بعض الوقت ولكنه عائد لأبديته مرة أخرى. ونتيجةً لخطف النور الإلهي سيصيب المخلوقات الأمراض فيخلق لها مزدا الدواء، ثم يُصيب الإنسان العجز والهرم فيعوضه الإله بأبناء حتى تستمر الحياة، وهكذا دواليك. فأهريمن بفعلته تلك قد تمّم الخلق الإلهي ونفّذ مشيئة الرب الأكبر في كائنات فانية ضعيفة تحتاج دائماً إليه.

«النار في الزرادشتية هي فكرة مزدا المجسدة أعلى من كل مخلوقاته»، فالنار ليست معبوداً في حدّ ذاتها وإنما هي تجسيد للضياء الإلهي، هي أخت النور ومصدر الطهر والنقاء في الوجود. فكما ورد في الزرادشتية «إنها مخلوقة من ضياء العرش الأعلى، وتجسدت على الأرض. . . هي سرّ الحياة وروح العالم، رمز القوة الإلهية في الوجود وأصل جوهر البشر، فأصل فكلّ المخلوقات من ماء إلاّ الإنسان المخلوق من النار. . . ولكن للنار تدخّلها في كلّ عناصر الوجود، فقد امتزجت بالماء والنبات فاكتملت ملامح الخلق ونمت الأعشاب. . . وتكونت السحب وهطلت الأمطار، . . . فكان الكون».

إذاً فالنار تتجاوز مجرّد الرمزية الخاصة بالضياء لتتخلخل في الوجود بأكلمه، فقد مُنحت ميزات إلهية لم تُمنح لغيرها من العناصر الكونية. كما أنّ النار كذلك تُجسّد الصدق المطلق ضد الكذب المظلم، فللكاذب عقابه في الزرادشتية في العالم الأخر بحيث سيمكث في ظلمة الجحيم ثلاثمائة عام.

ولتصورات الحياة في العالم الأخر سياق أخر قد يحتويه سياق كتاب آخر وستكون للنار فيه مكانة هامة، ولكن من يُشكك في صدقه فالنار اختباره.

«يُحكى أنّ سياوش بن كيكاوس البطل الإله، وهو أحد أبطال الفرس

الملحميين وله مكانة خاصة في الأفستا بوصفه من عداد الصدّيقين، قد اتهمه أبوه في زوجته، وحتى يتحقق من صدقه في عدم مساسه بها أدخله النار فإذا خرج سالماً صدُق قوله وإلا ستحرقه النار، فيدخل سياوش ويخرج منها بلا أدنى أذى». فالنار هي مقياس الصدق الوحيد. وقد يُذكّرنا هذا المشهد بحكاية النبي إبراهيم ودخوله النار حتى يُعاقب، ولتثبت صحة فكرته عن الله في قومه يخرج منها سالماً، خاصةً إذا تتبعنا كمّ التراكمات الأسطورية التي بُنيت على الحكاية الإبراهيمية، حيث سنجد ذلك التشابه الواضح في عمق البنية الرمزية لعناصر الكون في كل أشكال الدين.

كما أنّ النار في الزرادشتية تمثّل حالة صراع أخرى بين المقدّس والمدنّس، فهي علامة الطهر والصدق، وهي التي تفرّق بين الشيطاني والإلهي، والصورة الأوضح لتلك الفكرة ميلاد زرادشت، فبداية خلقه كانت بنور إلهي نزل من السماء السادسة إلى الشمس للقمر، ثم إلى بيت النار فأضاءت النار تلقائياً، ثم إلى رحم زوجة صاحب بيت النار فحملت بفتاة هي والدة زرادشت، وحينما ولدت الفتاة كانت تُشعّ نوراً فظنّ أبوها أنّ هذا بفعل الشيطان فطردها، لتتزوج من أحد القبائل المجاورة ولتنجب زرادشت الذي كان يضحك ويتكلم لحظة ولادته، فخاف أهريمن على نفسه من هذا الطفل الإلهي، فوجّه بعض أتباعه ليضعوه في قدر به نار مشتعله، فدخل ثم خرج منها سالماً وحرق أولئك الشياطين ضاحكاً.

قبل قيام الساعة بثلاثة أشهر ستكون حرب قوية ما بين مزدا وأهريمن ستنتج عنها أعاصير وأمطار ثقيلة، . . . ثم تتصاعد النيران وينتهي العالم بالنار ويفنى كلّ المخلوقات. . . ويغرق العالم في ظلام كامل لسنوات طوال حتى تقوم الساعة والحساب ويعود النور ثانياً.

ويلخّص العالم الفارسي الكاهن الزردشتي فارهانغ مير جوهر الديانة الزردشتية فيقول:

تؤمن الزردشتية بخالقٍ واحدٍ حافظ للكون، وهو عليم بكلّ شيء، كلي الوجود، قدير. هو الوحيد الذي لا يظهر إلاّ من خلال صفاته ومزاياه. هو خالق الكون في فكره السليم (فوهو مانا) ومشكّله في ضميره (داينا) ومجسّده من خلال روحه الخيرة (سبنتا ماينيو) وأطلق حركته بمشيئته (آشا) - القانون الأساسي للعدل

والاستقامة. هو الذي خلق الإنسان شريكاً في عمله وملّكه القدرة على التفكير والتمييز بين الصواب والخطأ (الحق والباطل) والعمل من أجل تقدم العالم، وهو الذي أوحى بشريعته الأبدية إلى النبي زردشت في الغاثات، وهو الذي بلّغ بقانون مغبّة الأعمال وحقيقة الحياة الآخرة ووعد السعادة الحقة (أوشتا) للصالحين.[١]

وأنكي أيضاً الذي عرفته النصوص الأكادية باسم (إيا) كان بحكمته وعظيم ذكائه قادراً على نزع التراب من تحت أظافره وعجنه ثم خلق الإلهة (صلتو) - وهي الإلهة التي خلقها إيا لمجابهة عشتار - وبعد ذلك إزالتها من الوجود بمحض إرادته، وقد أظهر هذا كله أنّ للآلهة طبيعتين ووجهين مختلفين لشخصية مزدوجة: مادية وإلهية.[٢]

والملفت في الأسطورة بشكل عام أنّ الإله تنافسه زوجته بعد إيجادها وتبدأ صرعات بينهما. وإذا أسندت للأنثى الألوهية المطلقة فهي تبدأ من العالم السفلي، أو إن غضب الإله يعيدها إلى العالم السفلي، وهي إشارة إلى أنها تمثّل الشر.[٣]

---

(١) سهيل بشروئي ومرداد مسعودي: **تراثنا الروحي - من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة**، دار الساقي.

(٢) **ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور - الآلهة والبشر**، نقله إلى العربية قاسم الشواف، دار الساقي.

(٣) الميثولوجيا الإغريقية تعتبر (كاوس) الربةالأولية لهذا الكون، وهي الربةالتي تجسد المكان غير المحدد والمادة التي لا شكل لها والتي سبقت كل خلق وكل خليقة وكل ما هو معروف.
وكاوس بالإغريقيةالقديمة معناها الفراغ والظلام اللذان بلا حدود، ويمكن أن تتم ترجمة معنى الكلمة أيضاً بأنها الفراغ العشوائي الأولي للكون أو ما يسمّى أيضاً السديم الكوني الأولي.
وبحسب الميثولوجيا الإغريقيةالقديمة فإنّ كاوس هو الربة الأولية التي أتت منها بقية الأرباب الأولية التي تدعى أيضاً أرباب الخلق الأولى. وهي تدل على كل ما كان موجوداً قبل خلق الكون، وهكذا تكون كاوس هي الكتلة الأولية لهذا الكون المؤلفة من عناصر الطبيعة الأربعة: النار والهواء والماء والتراب، التي تبعثرت وتناثرت بكلّ الاتجاهات قبل أن تهدأ وتستقر.
وقد وصف الشاعر هسيودوس الربة كاوس بأنها الحالة الأولية لهذه الخليقة، فهي اللاشيء الذي بدأت تظهر منه الأشياء، كانت البداية ومنها أتت الخليقة تباعاً، فهي فجوة الظلام الدامس والسواد المطلق الذي ظهرت منه ربة الأرض «جايا» وربة ظلام الليل «نيكس» ورب =

ونلحظ أيضاً أنّ جميع الأساطير قد اهتمّت اهتماماً بالغاً بذكر تفاصيل تكاثر الآلهة وكيفية ظهورها وذكر أسباب صراعاتها، بينما لم تحفل بالإنسان (العابد) قط، إذ لا تلتفت إليه في كلّ وجودها وتناميها وصراعها. وهذا ما يرجّح أنّ مُنبت الأسطورة كان معنياً بتفسير وجود الظواهر الطبيعية (من ليل ونهار وظلام ونور وأرض وسماء وخير وشر) أوجدها الإنسان من أجل إقناع نفسه وإيجاد تبرير ما لظهور كلّ هذه الآلهة، وهو في هذا الجهد نسي أن يذكر وجوده بالنسبة إلى الآلهة، هذا إذا أغفلنا أنّ ميزة الأسطورة هي الحديث عن الآلهة في خلقها وصراعات وجودها.

وإذا أردنا أن نتعرف إلى التصور العربي لبداية الخلق سنجده يبحث عن الموائمة بين ما جاءت به الرسالة المحمدية بحيث يفسر الأخبار بآيات من القرآن الكريم[1]، فسوف أنقل مقطعاً كاملاً من كتاب **الكامل في التاريخ** لابن الاثير:

إنّ أهل العلم جميعاً من أهل الإسلام اتفقوا أنّ الله عزّ وجلّ خلق الأشياء على غير مِثَالٍ، وابتدعها من غير أصل، ثم رُوي عن ابن عباس وغيره: إنّ أول ما خلق

= الظلام في العالم السفلي «إيريبوس» ورب العالم السفلي «تارتاروس» ورب الشهوة والحب الشغوف «إيروس».

أما الشاعر أوفيديوس فقد وصف الربة كاوس بأنها المادة الخام المنفجرة التي لا حياة فيها، وهي الربة التي لا حدود لها ولا تكوين، إنها عبارة عن مجموعة بذور متضاربة تعمّها الفوضى العادلة، وهي القاع الذي لا نهاية لعمقه وكل ما يقع فيها يكون منجرفاً إلى ما لا نهاية. هي نقيض الأرض «جايا» المنبثقة منها، هي المكان الذي لا اتجاه محتمل فيه، إن وقع فيها شيء تناثر بكل الاتجاهات، وهي الفضاء القاسم والفاصل ما بين السماء والأرض بعد انفصالهما عن بعضهم البعض. - يوكيبيديا الموسوعة الحرة.

(١) قال المسعودي: وما ذكرناه من الأخبار في مبدأ الخليقة هو ما جاءت به الشريعة ونقله الخلف عن السلف، والباقي عن الماضي، فعبرنا عنهم على حسبَ ما نقل إلينا من ألفاظهم ووجدناه في كتبهم، مع شهادة الدلائل بحدوث العالم واتضاحها بكَوْنه، ولم نتعرض لوصف قول من وافق ذلك وانقاد إليه من أهل الملل القائلين بالحدوث، ولا الرد على مَنْ سواهم ممن خالف ذلك وقال بالقدم؛ لذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا، وقد ذكرنا في مواضع كثيرة من كتابنا هذا جُمَلاً من علوم النظر والبراهين والجدل تتعلق بكثير من الآراء والنحل وذلك على طريق الخبر. - (المسعودي: مروج الذهب).

الله عزّ وجلّ الماء، وكان عَرْشه عليه، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دُخَاناً، فارتفع الدخان فوق الماء فسمّاه سماء، ثم أيْبَسَ الماء فجعله أرضاً واحدة. ثم فَتَقَها فجعلها سَبْعَ أَرَضين، في يومين الأحد والاثنين، وخلق الأرض على حُوتٍ، والحوتُ هو الذي ذكره الله سبحانه في القرآن في قوله تعالى: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) والحوتُ في الماء، والماء على الصَّفا، والصَّفا على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة على الريح، وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن حكاية عن قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ فاضطرب الحوت فتزلزلت الأرض، فأرسى الله عليها الجبال فَقَرّت الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وخلق الجبال فيها، وخلق أقْوَاتَ أهلها، وسخرها وما ينبغي لها، في يومين في يوم الثلاثاء والأربعاء، وذلك قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَءِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (فصلت: ٩ ١١) فكان ذلك الدخان من نَفَسِ الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة، ثم فَتَقَها فجعلها سبعاً في يومين في يوم الخميس والجمعة، وإنما سمي الجمعة لأن الله جَمَعَ فيه خلق السموات والأرض، ثم قال: (وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا) (فصلت: ١٢) يقول: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البَرَد، وإن سماء الدنيا من زمردة خضراء، والسماء الثانية من فضة بيضاء، والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء، والسماء الرابعة من درة بيضاء، والسماء الخامسة من ذهب أحمر، والسماء السادسة من ياقوتة صفراء، والسماء السابعة من نور، قد طبقها الله بملائكة قيامٍ على رِجْلٍ واحدة تعظيماً لله لقربهم منه قد خرقت أرْجُلُهم الأرض السابعة واستقرَّت أقدامهم على مسيرة خمسمائة عام تحت الأرض السابعة، ورؤوسهم تحت العرش من غير أن تبلغ العرش، وهم يقولون: لا إله إلا الله ذو العرش المجيد، فهم على ذلك منذ خلقوا إلى أن تقوم الساعة، وتحت العرش بحر تنزل منه أرزاق الحيوان يوحي الله تعالى إليه فيُمْطِر ما شاء من سماء إلى سماء، حتى ينتهي إلى موضع يقال له الأبرم، فيوحي الله إلى

الريح فتحمله إلى السحاب فتغربله، وتحت سماء الدنيا بحر من ماء يطفح فيه من الدواب مثل ما في بحور الأرض مستمسك بالقدرة، وإن الله تعالى أسكن ظهر الأرض - لما فرغ من خلقها- الجنّ، قبل آدم، فجعلهم من مَارِجٍ من نار، وإبليسوإبليسُ فيهم، فنهاهم الله أن يسفكوا دم البهائم، وأن يظهرواالمعصية بينهم، فسفكوا وعَدَا بعضُهم على بعض، فلما رآهم إبليس لا يقلعون عن ذلك سأل الله تعالى أن يرفعه إلى السماء فصار مع الملائكة يعبد الله أشد عبادة، وأرسل الله إلى الجن - وهم حزب إبليس- قبيلاً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحار وقتلوا مَنْ شاء الله منهم، وجعل الله إبليس على سماء الدنيا خازناً، فوقع في صدره كِبْرٌ.

ثم شاء الله عزّ وجلّ أن يخلق آدم فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) فقالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: تكون له ذرية، ويُفْسِدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً، فقالوا: ربنا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

ثم بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت له الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقصني فرجع ولم يأخذ منها شيئاً وقال: يا رب، إنها عَاذَتْ بك، ثم بعث الله ميكائيل فقالت له مثل ذلك، فرجع ولم يأخذ منها شيئاً، فبعث الله ملك الموت فعاذت بالله منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ الأمر، فأخذ من تربة سوداء وحمراء وبيضاء؛ فلذلك خرج بنو آدم مختلفين في الألوان، وسمي آدَمَ لأنه خرج من أديم الأرض، وقيل غير ذلك. ووكل الله ملك الموت بالموت، وجَبَلَه الله تعالى، وتركه حتى صار طيناً لازباً يلزق بعضه ببعض، أربعين سنة، ثم تركه حتى أنْتَنَ وتغير أربعين سنة، وذلك قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦) أي: متغير منتن، ثم صَوَّرَه وتركه بلا روح من صَلْصَال كالفخار حتى أتى عليه مائة وعشرون سنة، وقيل: أربعون سنة، وهو قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَنِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ (الإنسان: ١) فكانت الملائكة تمرُّ به فيفزعون منه، وكان أشدهم فزعاً إبليس، كان يمر به فيضربه برجله فيظهر له صوت كظهوره من الفخار وتكون له صَلْصَلَة، وذلك قوله تعالى: ﴿مِن صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن: ١٤) وقد قيل: إن الصلصال غير ما ذكرناه، وكان إبليس يدخل من فيه

ويخرج من دبره، ويقول: لأمر ما خُلِقْتَ، فلما أراد الله تعالى أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: ﴿اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ (البقرة: ٣٤) وقال يا رب: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (ص: ٧٦) والنار أشرف من الطين، وأنا الذي كنت مستخلفاً في الأرض، وأنا الملبَّس بالريش والموشَّحُ بالنور، والمتوَّج بالكرامة، وأنا الذي عبدتك في سمائك وأرضك، فقال الله تعالى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الحجر: ٣٤، ٣٥) فسأل الله المهلة إلى يوم يُبعثون، فأنظره الله إلى يوم الوقت المعلوم، وذهب على إبليس المعنى الذي له ومن أجله أُمِرَ لآدم بالسجود: فمن الناس من رأى أن آدم كان محراباً للمأمورين بالسجود والمقصود بذلك الخالق عزّ وجلّ، وموافقة الأمر والطاعة له على سبيل البلوى والاختبار والمحنة الواقعة بالمكلفين، ومنهم من رأى غير ذلك، ثم نفخ الله تعالى في آدم من روحه؛ فكان كلما دخل في بعضه الروح يذهب ليجلس، فقال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنْسَنُ عَجُولاً﴾ (الإسراء: ١١) ولما تتابع فيه الروح عَطِسَ، فقال الله له: قل الحمد لله، يرحمك الله يا آدم.

نلحظ من هذا السرد أنّ المؤرخين العرب وجدوا أنفسهم أمام مرويات وأساطير عديدة فكان كلٌّ منهم يكيِّف مرويته وفق ما جاء في القرآن حتى وإن لوى النصوص لكي تتواءم مع المروي منها[١]. كما أنّ العرب عرفت آلهة عدّة تناثرت في الجزيرة

(١) ميزة الرواة والمؤرخين العرب أنهم يجمعون الأخبار المتفرقة والمتضادة حول نقطة واحدة، وهناك عشرات المرويات عن تصورهم لبداية الخلق، إذ يمكن الرجوع إلى كمٍّ مهول من المرويات سجّلت في كتب التاريخ العربي. ولأني لست في مجال بحث أو استقصاء وإنما أستهدف البحث عن متعة التنزه في المخيلة الأولى كعابر سبيل، لهذا سوف أتجاوز عن ذكر الكثير من تلك التصورات، ليس عزوفاً بل لطولها وتنوعها، وسوف أورد هنا نظرة أخرى لتصور الخلق عند العرب، إلا أن التوجة الديني المذهبي يظهر بجلاء في هذه المروية إذ يقول ابن الأثير:

روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: إن الله حي بالحدوث. ولا الرد على مَنْ سواهم ممن خالف ذلك وقال بالقدم؛ لذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا، وقد ذكرنا في مواضع كثيرة من كتابنا هذا جُمَلاً من علوم النظر والبراهين والجدل تتعلق بكثير من الآراء والنحل وذلك على طريق الخبر. =

العربية وأقيمت لها طقوس عبادية عدّة وقد كانت الآلهة كرب وعم ونون وسين أشهر تلك المعبوادت في جنوب الجزيرة.[1]

من كلّ ما مضى من سرد لبعض التصورات الأسطورية للخلق فقد تباينت صور الخالق في أذهان البشر حتى آمن بعضهم بفكرة الرب الواحد الذي يتمثل دائماً في

= ورُوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: إن الله حين شاء تقدير الخليقة وذَرْءَ البرية وإبداع المبدعات نصب الخلق في صور كالهَبَاء قبل دَحْوِ الأرض ورفع السماء، وهو في انفراد ملكوته وتوحد جبروته فأتاح نوراً من نوره فلمع، ونزع قبساً من ضيائه فسطع، ثم اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفية فوافق ذلك صورة نبينا محمد ، فقال الله عزّ من قائل: أنت المختار المُنْتَخَبُ، وعندك مستودَع نوري وكنوز هدايتي، من أجلك أَسْطَحُ البطحاء، وأَمْرُجُ الماء، وأرفع السماء، وأجعل الثواب والعقاب والجنة والنار، وأنصب أهل بيتك للهداية، وأوتيهم من مكنون علمي ما لا يشكل عليهم دقيق ولا يُغْيِيهِمْ خفي، وأجعلهم حجتي على بريتي، والمنبهين على قدرتي ووحدانيتي، ثم أخذ الله الشهادة عليهم بالربوبية والإخلاص وبالوحدانية فبعد أَخْذِ ما أخذ من ذلك شاب ببصائر الخلق انتخاب محمد وآله، وأراهم أن الهداية معه والنور له والإمامة في آله؛ تقديماً لسنة العدل، وليكون الإعذار متقدماً، ثم أخفى الله الخليقة في غَيْبه، وغَيَّبَها في مكنون علمه، ثم نصب العوامل وبسط الزمان، ومرج الماء، وأثار الزبَدَ، وأهاج الدخان، فطفا عرشه على الماء، فسطح الأرضَ على ظهر الماء، وأخرج من الماء دخاناً فجعله السماء، ثم استجلبهما إلى الطاعة فأذعنتا بالاستجابة، ثم أنشأ الله الملائكة من أنوار أبدعها، وأرواح اخترعها، وَقرَنَ بتوحيده نبوَّةَ محمد فشهرت في السماء قبل بعثته في الأرض، فلما خلق الله آدم أبَانَ فضله للملائكة وأراهم ما خصّه به من سابق العلم من حيث عَرَّفَه عند استنبائه إياه أسماء الأشياء... - (ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**).

(١) وكان من أسماء كرب عند أكثر الشعوب السامية: ورخ وشهر وآل مقه وسين (بفتح السين وتسكين الياء)، وتجده باسم محرم (بفتح الميم وتسكين الحاء وفتح الراء) وهذا الاسم يطلق على الإله الحبشي الأكبر للحرب، ومن بين أشهر أسماء الإله القمر ودّ (بفتح الواو وتسكين الدال) التي تعني الحب الإلهي البعيد عن الحب الجنسي والمحب لعباده الودود بهم، ومن بين الأسماء الأخرى للقمر عم، وكان العرب الجنوبيين يطلقون على أنفسهم (ولد عم) أي أنهم أولاد الإله القمر عم.

وإلى جانب ذلك نجده باسم ثهوان عند السبأيين وسين عند الحضارم وعم وانسي عند القتبانيين وود وشهر عند المعنيين والأوسانيين وهران عند أهل الجوف وثعلب ريام عند الهمدانيين. - (حمزة علي لقمان: **أساطير من تاريخ اليمن**، ص ص٢٦-٢٧).

ربُّ الأرباب أو كبير الآلهة، وجعلوا الآلهة الأخرى أتباعاً له يكلّفهم بمساعدته ويوكل لكلٍّ منهم مهمة معينة ويمنحهم قوى خاصة يمارسونها تارةً بإرشاده وطوراً من تلقاء أنفسهم دون أن يكون في ذلك مساس به أو تجريد لما له من ربوبية مطلقةوسلطان شامل على كل شيء.(١)

وقد عاشت كلّ الأساطير كمفسره للوجود إلا أنها تراجعت كنظام مفسر مع ظهور الديانات السماوية كنظام ديني جديد يفسر كل ما يحيط بالإنسان ويربطه بخالقه.

٥

إنّ الدين قد يحتوي الأسطورة ولكن الأسطورة لا تحوي الدين.(٢)

نهضت الأسطورة في كلّ موقع متخيّلةً كيفية انطلاق الشرارة الأولى المولدة للحياة؛ فحيناً تبحث عن كيفية تشكل الآلهة وحيناً تبحث عن بداية الخلق البشرية(٣)، ومع اختلاف تلك التصورات وتشكلها إلاّ أنّ ثمة تناسخٌ في تيماتها

---

(١) سليمان مظهر: أساطير من الشرق، ص١١.

(٢) الله كتاب لعباس محمود العقاد.

(٣) الخلق وفابيولاتة الحشرية الطوطمية تتشكل بصورة متقاربة في كثير من الأحيان، إذ يكون مرتكزها جلب مادة خلق الإنسان في أحيان. ونلحضها بصور شتى إلا أن صورها المتعددة تشي بتناسخ الفكرة مع تحويرات تأتي من هنا وهناك. ونرى في النصوص الفلاشية الحبشية أن سينجابونجا الإله الأعظم صعدت إليه الضفدعة البرية وطرشت الطمي منمعدتها في يد الإله الذي شكل منه من فورة مادة الأرض.

وصورة الرسل في تلك الأساطير غالبت ثلاثة طيور أو حيوانات ثلاثة ثابتة تغوص وسط مياه المحيط الصاخب لإحضار مادة خلق الإنسان والعالم. وفي بعض الحالات يهدف الإله أن يحضروا التربة من الأعماق، وغالباً ما يفشل الرسولان الأولان والثالث فقط ينجح في إحضار الطمي أو التربة.

ويكفي أن نلاحظ هنا أنّ كل الاحتمالات تشير إلى أنّ الأسطورة الأم منشؤها الهند، وهو ما تؤكده أغلب المصادر الهندية، خاصةً في البرجاباتي عند البراهمه، وفيها يتخذ الرسول هيئة الخنزير البري أو السلحفاة. - (شوقي عبد الحكيم: موسوعة الفلوكلور والأساطير).

بينما في الإسلام الرسل المكلفين بإحضار خامة الإنسان الأول (آدم عليه السلام) هم ملائكة، إذ أمر الإله الملاك جبريل أن ينزل إلى الأرض ويحضر حفنة من التراب لكي يخلق منها آدم، =

الأساسية تشي بأنّ هناك مرجعية أساسية لهذا التشابه والتناسخ. وهناك من ينجذب لهذا التنوع بحثاً عما طرأ في ذهنية كل أمة وابتعادها عن المرجعية الأساسية من خلال فرضيات أصالة الفكرة أو البحث عن أسباب ظهور التنويعات الإضافية لفكرة الوجود.

وانساقت كل الأمم في بداية نموها للرجوع إلى الخلف ونبش موروثها لمعرفة كيف آمن الأسلاف بفكرة الخلق وتشكله إذ أنّ مجموعة القيم والأخلاق التي تحكم تلك الأمم ما هي إلا تعاليم دينية في جوهرها، فالإنسان لا يلتزم بقيمة أخلاقية ما لم تدخله بين رحى الثواب والعقاب - قد تكون هذه في بدايات الالتزام كنهج إيماني إذ أنّ بالإمكان أن يتحول الالتزام بالقيمة الأخلاقية إلى مطلب قانوني وليس إيمانياً - وحين يتلقّى المرء تعاليم (افعل، ولا تفعل) ينازعه السؤال عمّن يقف خلف تلك الأوامر، فإن عرف قدرة الآمر وآمن به فإنه يقدم على تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي، ولهذا فإنّ فكرة الرجوع إلى الخلف غالباً ما تكون بحثاً عن الاقتناع بالمصدر أو بالمشرّع.

ولهذا فإنّ الذنب والعقاب والتوبة مفردات بقيت قائمة في وعي الإنسان

= وعندما سمع إبليس بمهمة جبريل انطلق إلى الأرض وتخفّى في ثياب رجل صالح أو رجل ناسك مقدس وأخبر الأرض أنّ الله يريد تشكيل مخلوقات من ترابها بهدف أن يسيّدها على كافة مخلوقات الأرض قاطبة. قال إبليس: لكني خائف إذ أنّ هذه المخلوقات ستجدّف ضد الله، لذا لا تسمحي أن يأخذ منك أي شيء. وبناءً عليه تصرفت الأرض، ولكن عندما سمع جبريل برفض الأرض عاد إلى الله بلا تراب. ونفس القدر صادف الملاك الثاني ميخائيل. لكن الرسول الثالث عزرائيل لم يعطِ اهتماماً لبغي الأرض مفضّلاً أمر لله، وكان أحضر حفنة من مختلف الأتربة، ومن هذا خلق آدم. لكن عندما عاد عزرائيل من رسالته كان مأخذواً حتى أنه ظلّ أربعين يوماً بلا حركه أو كلام. وبعد أن سمع الله تقرير عزرائيل باركه وكافأه بأن جعله ملاك الموت يقبض الأرواح ليصبح أداة خلق الإنسان هي نفسها أداة موته المتمثلة في ملاك الموت.

وتوجود حكاية إسلامية يلعب فيها إبليس دور عزرائيل بشكلٍ مدهش ملفتٍ للأنظار، منتمياً أكثر إلى الأسطورة الفلاشية من حيث أنها هي الأصل الأم.

هذه إلمامة المقارنة عن قصص خلق العالم والإنسان الطوطمية أو الحشرية للرسل الثلاثة من السلحفاة البرية لأبو جلمبو لدودة العلق، والتي انتهت بالرسل الثلاثة. - (شوقي عبد الحكيم: موسوعة الفلوكلور والأساطير).

كمرجّح لأغلب الأفعال، إذ لا غرابة أننا وجدنا أنّ كثيراً من الكتب التاريخية مثقلة بهذه المفاهيم التي كانت الدافع الأول للإنسان في التعبير عن مكنون ذاته عند تعاملاته مع الوعي والطبيعة، فكان من نتاج هذا التدافع بين الشعور بالذنب والتلبّسات العقائدية، نتيجةً للجهل بالطبيعة والخوف منها، أن نشأت الأسطورة في تاريخ الإنسان كحامل لمعتقداته ومخاوفه وتوجساته.[١]

ومع تحرّز العرب من بعض المرويات الأسطورية إلا أنهم لم يبتعدوا تماماً عن مغامرة الخوض في بداية الخلق[٢] إذ تناقلوا أساطير عدة من غير الجزم بأصالة أو

---

(١) الدكتور محمد شحرور: **القصص القرآني - قراءة معاصرة**.

(٢) وكانت أسطورة الخلق القرشية في ما قبل الإسلام أنّ لقريش طوطماً هو الحوت تقول «إنَّالله خلق الأرض على الحوت، والحوت في الماء، والماء على ظهر صفا، والصفا على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة على الريح». ويقال إنها هي الصخرة التي ذكرها الحكيم لقمان، ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت فاضطربت وتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال. -(**موسوعة الفلولكلور والأساطير**، شوقي عبدالحكيم).

ويقول الدكتور فاضل الربيعي عن نون أو الحوت في كتابه **رجال بلا تاريخ**: استلهم الإغريق لوقتٍ ما من تاريخهم القديم بحسب ما يقول هردت عقيدة من عقائد الفينيقيين وعقائد السكورية في بلاد ما بين النهرين. كذلك تولت في الواقع شرحها الألواح والمصورات الفنية. وتتأسس على الفكرة التالية: إنّ الإنسان الأول كان سمكة. ووجد رسم آخر للاسم أو أنس، وهذا الاسم له صلة حميمة بالمعبود العربي الجنوبي عميانس (عم انس) الذي سجّل ابن الكلبي اسمه في قائمة أصنام العرب ومعبوداتها. واستناداً إلى هردت فإن الإغريق كانوا يعتقدون أن الإنسان السمكة هذا جاء من الخليج العربي حاملاً معه الحضارة اليابسة.

لقد تمحورت أهم أفكار السومريين عن أصولهم وأنسابهم في الفكرة ذاتها، فهم من نسل هذا الإنسان السمكة القادم من الخليج إلى العراق القديم، ولكنه يدعى بدلاً من او انس انكي، وهذا الاسم مشترك مع نظيره الإغريقي الفينقي في وجود حرف النون في أصل الاسم.

كان الإله انكي الإله المحلي لمدينة أور التي تقع على ضفاف خور متفرع من الخليج العربي. وكما تخبرنا الوثائق والسجلات السومرية فإن أور كانت أول مستوطنة في العراق القديم يسكنها الإنسان جنوبي بابل، وقد عدت من المدن الخمس الأولى التي وجدت بعد الطوفان حسب معتقدات السومريين.

تعني كلمة حت في اللغة المصرية سمكة، ومكافئها العربي حوت. كان تحوت في أصله البعيد إلهاً للقمر انبثق من رأس إله الصحراء ست. ونحن أعلم أن الإله ست، وعند العرب القدماء شيت، هو ابن لآدم وكان معبوداً صحراوياً جلبه الهكسوس إلى مصر في حقبة =

= الاجتياح الشهيرة في التاريخ باسم حقبة ملوك الرعاة في عام ١٧٢٠ق.م تقريباً، وكان رمزاً للظلام؟ إن الإله تحوت انبثق من رأس ست، ورمزياً انبثاق القمر من رأس الظلام.
إنّ الإله تحوت، المماثل في مبناه ومعناه للكلمة العربية حوت بمعنى سمكة، كان كبير آلهة مصر ومعبودها الأعظم، وقد دعي بالاله المثلث العظمة لأنه كان إله الحكمة والكتابة والفلك.
والصلة بين جذر الاسم السومري انونون، وهما بمعنى واحد: سمكة / حوت فإنه يشير إلى إله عدّته الثقافات القديمة في بلاد مابين النهرين بالتعاقب إلهاً شديد القوة والجبروت، فهو الإنسان الأول المتصور على هيئة سمكة والذي خرج من الماء مجتازاً الأهوال والمخاطر حاملاً إلى اليابسة هديته الكبرى: الكتابة والمعرفة والدين.
تاريخ ثمود: إن هذه القبيلة ارتبط طعامها بعبادة الإله نون، وذلك ما يكشف عن حقيقة موطنهم القديم قرب سواحل البحر الأحمر في الجزيرة العربية، إذ أمكن العثور على رسوم فوق الصخور لسفن ثمودية كان رجال القبيلة يستخدمونها في عبور البحر للتجارة، ما يدعم الحقيقة الآثارية القائلة إنّ الثموديين عاشوا فعلاً في وقتٍ ما على ثروات البحر الأحمر وحصلوا منه على طعامهم الرئيس. وأصبح نون معبوداً طوطما عند القبائل العربية الأولى، ثم ليتحول فيما بعد، مع ظهورالمسيحية، إلى شعيرة دينية هي أساس من أساسات عقيدة الإخلاص، وهذا ما يفسر لنا على أكمل وجه رمزية العشاء الأخير في المسيحية، حيث دخلت السمكة في المائدة لتطعم الألف الجائعين.
نلمح أنّ المقصود بـ«نون» على وجه التحديد الإحالة على فكرة وجود إله الكتابة العربي القديم الذي خرج من البحر بعد أن صارع أهواله وتغلّب عليها ليوصل الهدية.
و في الأكدية نونو بمعنى السمكة وكتلة الماء.
وعن ابن عباس في تأويله لاسم قريش ومصدره يقدم تصوراً متسقاً مع الفكرة الآنفة، ففي رأيه أنّ اسم قريش مشتق من كلمة قرش وهي السمكة وليس معنى القروش أي النقود.
بكلام آخر، هو تحوت، إله المعرفة، وهو الإنسان الأول، السمكة الأولى.
ونونٌ يضاهي تلقائياً الصورة القديمة للمعبود السومري الأكدي نون، وهو كتلة الماء الازلية.
(أبطال بلا تاريخ، فاضل الربيعي)

انتهى الاقتباس من الدكتور فاضل الربيعي، ويمكن القول إننا بهذه المعلومات يمكن لنا أن نصل إلى سرّ بعض الأحرف التي وردت في بدايات بعض سور القرآن الكريم. ففي سورة نون (ن والقلم وما يسطرون) يمكن أن يكون القَسَم كان المقصود به هذا الإله المعبود الذي كانت تعبده قريش، ويمكن أيضاً، ومن خلال المعلومة الانثروبولوجية أيضاً، أن نتعرّف على سرّ ياسين في سورة ياسين، إذ أنّ ياسين هو إله عُبد في الجزيرة العربية.
ولهذا يمكنني القول إنّ كل شيء جاء في القرآن سيتمّ الكشف عنه، بل أدّعي أنّ كلّ شيء جاء به القرآن سوف يتحقق يقيناً سواء كان معجزة أم لغزاً كونياً، فالله خلق العقل لكي يصل إليه بالتجربة والبرهان.

انتقال تلك التصورات إليهم من مواقع أخرى. وقد يعود ذلك إلى أنّ تأثيرات الأمم المجاورة للجزيرة العربية قد أوصلت إليها الكثير من المعتقدات التي تجذّر وجودها كمرويات، إن لم نشأ القول كإيمان بها. وقد حدث ذلك في جميع أطراف الجزيرة العربية المحاذّة للحضارات العريقة، وتمركز في مكة المكرمة ليس بسبب جوارها لأيّ موقع حضاري وإنما لوجود بيت الله الذي حظي بالاهتمام البشري منذ القدم[1] فكان محطة تلاقي الأجناس بما تحمله من أفكار ومعتقدات تنشرها ويتم تبادلها وتسويقها أيضاً.

إلا أنّ ظهور الرسالة الإسلامية فيما بعد حملت المؤرخين على تثبيت الأخبار المطمئنة، أي أنّ تنقية الأساطير من ما يتعارض مع الرسالة الجديدة كان هو الأساس في التسجيل والكتابة، حتى وإن حدث غير ذلك يتم الإشارة إلى كونها إسرائيليات. ولهذا نجد أنفسنا كمسلمين (متأخرين) نبتعد كثيراً عن تلك الأسئلة الوجودية التي أرّقت الكثيرين من الأوائل، ونجد أنفسنا في مأمن من كل تلك الزوابع المثارة عبر الانثروبولوجيا كون الإيمان ثبات واستقرار على ما تمّ الإخبار به من مصدره، ولذلك تكون أسئلتنا في ما بعد الخلق غالباً وليس في ما قبل الخلق.

وإذ يمكن أن تسرح المخيلة بأسئلة (وإن اعتبر بعضهم أنّ بها شططاً) متلازمة مع هبوط آدم عليه السلام (وزوجه ومعهما إبليس) إذ ما هي الأحداث الاولى التي قاموا بها على الأرض، وهي المكان الجديد الذي لا يعرفه آدم ولا يعرف كيف يعيش به أو يتعامل مع طقسه (بغضّ النظر عن معرفته للأسماء كلها، فمعرفة اسم الشيء لا يعني إتقان التعامل معه. هذا إذا أردنا أن نتجاوز عن ماهية معرفة الاسم: هل هي معرفة الاسم فقط أم معرفة ماهيته وكل ما يحيط به من أفعال ودوافع؟)، فهل يستقيم هبوط آدم عليه السلام مع فكرة أنّ الجنة لم تكن في السماء بل كانت على الأرض (جنّات عدن) وأن في الأرض أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات

(١) تذكر جميع الكتب التاريخية أنّ كلّ الأنبياء والرسل حجّوا إلى بيت الله الحرام ببكة، وإن أردنا تثبيت البعد الزمني لهذه الزيارات يكفي ذكر قصة أبونا آدم وأمنا حواء، فالتقائهما حدث في عرفة، ثم توالت زيارات الأنبياء لهذا الموقع من المعمورة.

وسيحان وجيحان[1] مما يجعل الانتقال (الهبوط) هو انتقال من بيئة ذات مناخ بارد وظلال وافرة إلى بيئة أخرى ذات مناخ أشدّ وطأةً وقسوة.

وإذا كانت الجنة في السماء ففي أي سماء حدث العصيان؟ وكيف كان الهبوط؟ ويكون هذا السؤال مرعباً في ظل معلومات العلم الحديث، إذ أوقفنا العلم الحالي على المسافات الشاسعة في الكون والتي تقدر بمليارات السنوات الضوئية. وقبل العلم أخبرنا القرآن بالاختلاف الزمني المهول بين زمننا وبين الزمن عند الله جلّ في علاه.[2]

ومع بحث الإنسان في بداية الخليقة لم يكن يمتلك المعرفة عن الزمن، التي جاءت كالإعصار لتقلب كل ما يمكن رصده أو تخمينه.

بينما تعاملت الأسطورة مع الزمن بالاختصار اللفظي الذي يختصر الأزمان ويفقد الإنسان الشعور بوطأة الاختلاف الزمني المهول. فحين نقرأ (هبط آدم) نجد ملايين السنوات الضوئية قد قمنا باختصارها في زمنية نطق مفردة (هبط) ثم لا نتنبّه بتاتاً لما قد قمنا به من إسقاط لقيمة التدبر، وهي القيمة الجوهرية المطالبين باتّباعها في قراءة القرآن.

ولو كان لدينا قليل من التدبّر لتجمدت الدماء في عروقنا عند المرور بالآيات القرآنية التي ذكر فيها الزمن عند الله عزّ وجل.

ووفق ذلك الزمن المهول الذي لا نستطيع إدراكه تصبح أسئلتنا أسئلة مهتزّة وتقديرية.

كم عمر الأرض الآن؟

---

(١) روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: «أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات وسيحان وجيحان.»

(٢) ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإنّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون﴾ - (الحج: ٤٧).

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ - (٣٢ سورة السجدة).

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۞ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۞ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ - (سورة المعارج)

وما هو نصيبنا من هذا الزمن كتواجد على سطحها؟

وكم هو زمن الله عز وجل بالنسبة لمخلوقاته؟

وعلى مستوى مضامين الآيات القرآنية وكذلك العلم الفلكي نحن هباء.

لا نصل في وجودنا إلى زمنية الثانية الواحدة.

وفي هذه الثانية نصوغ العالم، نقوّض ونبني، ولا يحدث هذا إلا من خلال كوننا حكاية، أسطورة صغيرة داخل أسطورة ضخمة، واستشعارنا بهذا الوجود المتسع وتغافلنا عن كوننا جزءاً من ثانية هي عظمة الوجود التي نستشعرها.

وهذه العظمة ليس لكونك تستشعر بأنك وريث ملايين السنوات وأنك تمثل زهرة الزمن في حينك، بل لأنّ مقدرتك العقلية قادرة على تمثل كل ما مضى وتخيّل نفسك في كلّ جزءٍ من هذا الزمن الفسيح.

هذه الثانية هي الحياة، فإن لم تتحرك داخل ميناء الزمن فأنت لم توجد.

أليس مفرحاً أن تعلم أنك كنت متواجداً في بداية الخلق[1] ومتواجداً في آخر الخلق. ها أنت بثانية وجودك تتمدد عبر الزمن الممتد؛ تكون في البداية والنهاية، وهو وجود لا تدرك منه الآن إلا لحظة تنفّسك، لكنه وجود أزلي تغيب عنك كيفيته، وهذا الغياب لا يجعلك تنفيه[2]، كون إدراكك أو علمك تأسس على لحظة الفناء وليس البقاء.

وربما تصل إلى هذه المتعة من خلال المتخيل، أما اذا أخضعت الأشياء للمحسوس والحسابات والمعادلات فلن يمنحك عقلك المتواضع - الآن - تلك المتعة.

❁ ❁ ❁

الإيمان متعة.

لقد اختارك الله لأن تتنبّه لوجودك في زمنٍ ما (لتكون هي لحظة حياتك)؛ فكيف تكفر بهذه النعمة؟

---

(١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾.

(٢) ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ - (سورة ق: ٢٢)

وما ذاك الاختيار إلا حكمة، فلا تبطل الحكمة المطلقة بالانغلاق المطلق.

وإذا غاب علينا إحصاء ما مضى من زمن في حياتنا الدنيا، فمن باب أولى أن يغيب عنّا في ملكوت الله عزّ وجلّ؛ فلا تكن لحوحاً لأن تنهي الوجود بما تحمل من آلة حاسبة صنعت في القرن الحجري.

كما أنّ العقلية الباحثة عن الفناء مغرمة بالبحث عن النهايات. وهناك من هو شغوف بمعرفة البداية والنهاية قياساً بعدد سنوات عمره الضئيلة، فتجده متلهفاً لأن يغلق بوابة الزمن فيتنبّأ أو يخمّن بدنو نهاية الدنيا مستلهماً أحاديث كثيرة لهذا القرب.

وأقرب تلك الأحاديث (الأشهر في هذا الجانب) ما رواه أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بعثت أنا والساعة كهاتين». قال: وضمّ السبابة والوسطى. - **صحيح البخاري**[(١)].

ولو اتّبعنا العلم في هذا وقمنا برسم بيانات تقريبية (بواسطة تمثيل البيانات بالأعمدة) فسنجد أنّ المسافة المتبقية من الطول الوسطي على السبّابة يمثّل ما يقارب الربع، ولو أنّ عمر الأرض ٤,٥ مليار سنة فالمتبقي من حياة الأرض يصل إلى مليار وآلاف الملايين من السنوات (كنتيجة لحساب الفرق بين تمثيل بيانات ما مضى من زمن وما تبقّى منه) وهذا أدعى لأن يهتم الإنسان بعمارة الأرض وأن يعمل جاهداً على ذلك كاتّباعٍ لأمر الله سبحانه وتعالى.

نعم نحن ثانية من مليارات السنوات إلا أنّ حكمة الحكيم أرادت من هذه الثانية أن تكون غلافاً وجودياً يبدأ بسبحان الله وينتهي بسبحان الله.

فمن معاني التسبيح[(٢)] تنقيته وتنزيهه جلّ في علاه من شكوكنا وظنوننا القاصرة

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صليت العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين، فقال: أهل الكتاب هؤلاء أقل منا عملاً وأكثر أجراً. قال الله: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلي أوتيه من أشاء. - **(صحيح البخاري)**

(٢) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الأمْرُ بِتَسبيحِه يقتضي أيضًا تنزيهَه عن كُلِّ عيبٍ وسُوءٍ وإثباتَ صفاتِ الكَمالِ له؛ فإنَّ التَّسبيحَ يقتضي التنزيهَ والتَّعظيمَ، والتَّعظيمُ يَستلزِمُ إثباتَ المَحامِدِ التي يُحمَد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهَه وتَحميدَه وتكبيرَه وتوحيدَه»

والمرتبطة بزمنيتها، إذ مهما طال بنا الأمر فلن نصل بسنواتنا المحدودة إلى معرفة ذلك الكمال.

ومن يؤمن بالعلم عليه أن يكون علمياً، إذ كيف يمكن لك في ستين عاماً أو مائة عام أن تحيط بعلم مليارات السنوات؟ كيف؟

وإذا تفقّهت في علمٍ وأصبحت بحراً فيه فإنك جاهل ببقية العلوم أو تمتلك الجزء اليسير من المعرفة فيها، فهل من العلم أن تحكم على كلّ هذا الزمن وذلك التنوع والعمق بالجحود؟ العلمية تقتضي التواضع فمن يعيش ثانية لا يقدر أن يحكم على ما الذي حدث قبل أو بعد ساعة.

ومنذ دخول البعد الرابع في حساباتنا انقلب الكون، فليس هناك يقين تجاه المعارف السابقة التي سلّمنا بها لزمنٍ طويل، حتى إنّ الاتجاهات وتحديد مواقعنا في أو حول الأمكنة ليست إلا مصطلحات تواطأنا على تبادلها لكي نثبت وجودنا وفق ما نتخيله، بينما الحقيقة أنّ لنا صورة أخرى تناقض ما نحن عليه تماماً في مكانٍ آخر من هذا الكون.

أحدثت هذا الانقلاب الخطير نظرية النسبية لانشتاين، إذ طوّر مفهوم الأبعاد بإضافة الزمن كبعدٍ رابع (الطول والعرض والارتفاع) وأدخله في جميع حساباته لتأتي نتائجه مذهلة وغير متوقعة.

وقد كانت المقايس المطبّقة على المساحات والحجوم والكتل قائمة على المكان والزمن والسرعة اعتماداً على فيزياء جاليليو ونيوتن واعتبار أنّ تلك المقايس تقيس بدقّةٍ مطلقة، إلاّ أنّ نظرية النسبية لانشتاين قامت على أنه لا وجود لشيءٍ مطلق، إذ أنّ كل القياسات نسبية. ولو أردنا التقريب، لنقل بافتراض وجود أربعة أشخاص، ولدى كلّ واحد منهم متر، فالمتر العياري يكون طوله ١٠٠ سنتميتر عند الشخص الأول المتواجد على الأرض، وسيكون طول هذا المتر ٦٠ سنتيمتراً عند الشخص الثاني الذي يتحرك بسرعة أكبر، وسيكون طول المتر ٤٠ سنتيمتراً عند الثالث الذي سرعته تفوق سرعة الثاني، ولو كان الرابع يسير بسرعة الضوء سيكون طول المتر صفراً، ورغم اختلاف القياسات إلاّ أنّ كلّ قياسات الأربعة أشخاص قياسات صائبة.

إن ثبوت المقاييس والأبعاد في الكون لا وجود له حسب نظريته النسبية.[(١)]

وإذا جاءت هذه النظرية (النسبية) لتقلب الطاولة أمام معارف وحقائق سادت فترات زمنية، فمن المحتمل أن تأتي حقائق في أزمنة قادمة وتربك ما يتمّ التأسيس له أنه حقيقة.

وليست هناك حقيقة البتة إلاّ حقيقة الله عزّ وجل، فما تجهله اليوم سيكون واقعاً في المستقبل، ولهذا التبدّل والتغيّر آليات المعارف، إلاّ أنّ العلم لا يمتلك كلّ الحقيقة في كلّ الأزمان، فالعلم - مثلنا تماماً - يسير إلى الامام ليكتشف ما هو موجود، ولا ينشيء غير الموجود. فالالكترونات والذرة والفيروسات والأيونات والكواكب والمجرات والجزيئيات ومختلف السرعات كلها كانت موجودة منذ بداية الخلق، وفي كلّ مرحلة زمنية يقف العلم على مكتشف جديد بالنسبة إليه قديم بالنسبة إلى موجده وخالقه.

نحن ضيوف صفقاء في الثانية التي نوجد فيها على الأرض.

صفقاء حتى في حوارنا، فإن ينشأ جدل يبتعد عن الإيمان النصي ويقدّم الاحتكام للعلم كوسيلة للإقناع تكون منطلقات المتجادلين غير متكافئة، كما أنّ جدلهما يسبقه الرفض من الطرفين، ولهذا يكون الحوار ممتداً ليس للإقناع بل للاستعراض. هذا على مستوى الحوار الجدلي المباشر، وفي حقيقة أي جدل هو الصواب إذا علمنا المرتكزات التي ينطلق منها المجادل، فهو على صواب وفق معطياته وثقافته التي يتحرك بها، ولو تغيّر موقعه سيرى أنّ مجادله على صواب بما يحمله من معطيات وثقافة.

لذا لا تبحث عن إقناع مع من لا يريد أن يقتنع.

---

(١) تتلخص النظرية النسبية في هذه المعادلة: $E=CM^2$
E= الطاقة، M= الكتلة، C^2 = مربع سرعة الضوء، أي أنّ الطاقة التي ممكن أن ينتجها أي جسم مادي تساوي كتلته في مربع سرعة الضوء. ويمكن أن تتخيل حجم الطاقة الناتجة عن أي كتلة مهما كانت ضئيلة، وعلى أساس هذه المعادلة صنعت القنبلة النووية (الانشطارية)، ففي داخل ذرات اليورانيوم (الذي هو المادة الأساسية في القنبلة النووية) تلقح الذرة بنيوترون إضافي ما يجعلها تنشطر نصفين (ذرتين من الرصاص) بالإضافة إلى ثلاثة نيوترونات حرة مع فرق في الكتلة يتحول إلى طاقة. - ويكي الكتب - كتب مفتوحة لعالم حر.

وتصبح الكتابات والمؤلفات ما هي إلاّ تشكّل الروح في إظهار إيمانها بما تؤمن، وليست باحثة عن إقناع الآخر بما تؤمن، هي تستعرض مقدرتها في التحليل والاستنباط، وإن بدأت مستهدفةً إقناع الآخرين، إلا أنّ جوهرها يسعى إلى إقناع الذات المنشئة لفعل الكتابة قبل المطّلع على تلك الكتابة.

* * *

البشرية تسير فاقدةً جلّ ذاكرتها.

ولو أنّ إنساناً وقف أمامنا لا يتذكّر من تاريخه الطويل سوى ليلة البارحة التي ارتطم فيها رأسه بحجر فأنساه كلّ شيء وأبقاه كائنا يحمل ذكرى أربعٍ وعشرين ساعة فقط.

ونحن نعيش بذاكرة تلك الساعات المعدودات، أما ما قبل الارتطام فهو الجبل الغارق في الزمن.

وفي أجواء هذا الإغراق الحكائي الأسطوري تتخلّص من رغبة الدارس الباحث عن حكم وتعزف عن محاكمة الوجود أو محاكمة القيمة، إذ إنّ الحالتين تتماهيان وتفضيان إلى عجزٍ مريع: إذ كيف لك إصدار أحكام على زمنٍ يقدّر بملايين السنوات وليس لك نصيب منها سوى زمنٍ ضئيل عشته جامعاً معرفةٍ لم تتحقق من صحّة ساعة واحدة مما تتدعي معرفته؟ وعلى كلّ كتابة أن تعرض نفسها من غير ادّعاء اليقين الكامل، لأن الادّعاء هو محاولة إغراق إجباري.

ولا نستطيع الجزم على أيّ تنامٍ لفكرة أو اكتشاف ظاهرة أو تطور مهنة ومرشدنا في كلّ هذا رجلٌ يحمل ذاكرةً محدودة الزمن محدودة التذكّر. ولهذا لن يستطيع هذا الرجل الضعيف المسمّى بالتاريخ أن يحمل كلّ ما مرّ بهذه البشرية عبر ملايين السنوات التي كان شاهداً عليها، إذ أنه بحاجة إلى ذكر تاريخ زمنية وقوع أي حدث. ولأنه لا يستطيع أن يضع تاريخاً لما قبل التدوين فإنّ الإنسان لم يثق به كثيراً فانتدب الأسطورة لحمل ما عجز التاريخ عن حمله.

كما أنّ التاريخ[1] يسير بعلّةٍ قصمت ظهره؛ فهو يحمل تهمة الحمّال الذي

(١) لم ينفصل التاريخ عن الأسطورة إلا في زمنٍ متأخر نسبياً، مثل انفصال وظائف زعيم القبيلة في المجتمعات القديمة. فزعيم القبيلة هو الرئيس، وهو الكاهن، وهو الطبيب، وهو الساحر =

يحمل ما تريد السلطة أن يحمله، بينما الحكاية تحمل إرادة المجتمع ورغباته وأشيائه الصغيرة قبل الكبيرة. ولأنها تفلّتت من سطوة التاريخ السلطوي جاءت كما يشتهي سامعها أو قارئها. ولها سمة أخرى قائمة على الإضافة والزيادة والتحوير والإحلال والتوطين. ولأنّ تلك الحكايات والأساطير متخمة بالأحداث فقد وجد المؤرخون العرب كمّاً مهولاً من الحكايات التي أفرزتها الوقائع والمخيّلة البشرية من أساطير، ولحسن الحظ فقد تمّ نقلها وإدراجها في كتبهم في ظلّ غياب السلطة التي كان بالإمكان أن تمنعهم عن ذلك. إلاّ أنّ علّةً أخرى لازمت المؤرخين أنفسهم تتمثل في عدم نضوج فكرة الأساطير بمفاهيمها الحديثة في ذهنية الإخباريين والمؤرخين الناقلين لتلك الأساطير، ولم يجرّبوا إمكانية تعلّم أبجدياتها التي يسميها إريك فروم االلغة المنسية من أجل تفهّم أعمق لهذا التاريخ.

وهي علّة تُعدّ من علل عصرهم، ولا يمكن أن يُلاموا عليها كون العلم يسير وفق معارف تراكمية، ويكفي هؤلاء المؤرخين القدماء أن كان لديهم إحساس صلب بأنّ التاريخ يقبع في جوف الأسطورة وفي الروايةالخرافية وفي قلب كلّ خبر غير قابل للتصديق، ولذلك لم يتوقفوا عن نقل وتدوين كلّ ما كانت تقع عليه أعينهم، وهذا وحده يفسّر لنا سرّ انشغال مؤرّخين مسلمين عقلاء بنقل ما يبدو لأول وهلة مجرّد حكايات أسطورية أو خرافية. لقد كانوا ينقلون عن مصادر لم تصلنا قط، وفي هذا وحده ما يكفي للاعتراف بقيمة كثيرٍ مما أنجزوه[1]، ولو أنّ السلطة تدخلت حينها في منع وتدوين ذلك الكمّ المهول من الأساطير لكنّا الآن نجدّف في تلمّس ما تصل إليه قراءتنا في ما يكتبه الآخرون عنّا.

= معاً. ثم راحت هذه الوظائف ينفصل بعضها عن بعض بالتدريج كلما تقدم المجتمع في تنظيم شؤونه اليومية والدينية، لاسيما مع انتقال ذلك المجتمع من النسق البدائي إلى النسق القبلي، ثم إلى النسق الحضري الزراعي. وقد وجدت العلوم الإنسانية الحديثة في الأساطير مناجم معرفية غنية بالرموز والإشارات التي كثيراً ما حجبت خلف غلالاتها الرقيقة حقائق تاريخية شتى، فاتجهت هذه العلوم، لاسيما الأنثروبولوجيا، إلى كشف معاني تلك الرموز وإماطة النقاب عنها. وهكذا ظهر ميدان جديد من ميادين المعرفة هو «الميثولوجيا». - (صقر أبو فخر: بين الأسطورية والتاريخية مأساة أوديب وقصة أخناتون، مجلة نزوى، العدد السبعون).

(١) فاضل الربيعي: **أبطال بلا تاريخ**، دار الفرقد.

٦

التكاثر أحد مميزات الكائن الحي، ومنذ أن تواجد الإنسان وهو في حالة تناسل متواصلة أدّت الى التزاحم والاحتراب من أجل مصادر الغذاء، فتوزعت المجموعات في بيئات مختلفة واستوطنت وبدأت تفاعلها مع الحياة محدثةً تنامياً سكانياً وتراكماً في الخبرات المعيشية.

هذه هي الصورة النمطية التي يمكن تثبيتها كافتراض منطقي لابتعاد الأبناء عن الأجداد، وبالتالي ابتعادهم عن منبع التوحيد، وهذا المنبع يمثله آدم وأبناؤه من الجيل الأول إلى الثالث (أو العاشر) قبل أن يصلهم الانحراف التوحيدي إذا أردنا السير وفق ما أخبرتنا به الديانات السماوية المتأخرة، وهو افتراض متأخر عمّا حدث فعلاً، إذ أنّ التاريخ لم يخبرنا كيف انبثقت فكرة الهجرة عند الإنسان الأول، لكنه افتراض تمّ البناء عليه في حدوث تناسخ للهجرة الأولى وتحرّك المجاميع وتناثرها في مواقع مختلفة من العالم، ومن هناك بدأ التأقلم والتكيف مع ظرفية المكان، فزرعوا وصادوا وحاكوا ألبستهم لتقيهم ضراوة الطقس وصنعوا أدواتهم المختلفة، سواء كانت حراب الصيد أم أوانٍ لحفظ مائهم - كلّ هذه الأنشطة الاجتماعية حدثت خلال أحقاب زمنية متباعدة اكتسب فيها الإنسان الخبرة وراكم التجربة إلى أن وصل إلى إنتاج الحضارة.

والباحثون الجادّون لا يقنعون برؤية رأس الجبل، إذ هم تواقون إلى الغوص في أعماق الزمن، تواقون إلى الوقوف عند الجذر الأول لهذا الوجود. ومع أنّ دارسي الانثربولوجيا يجهدون أنفسهم لمعرفة عمر الإنسان (في مراحلة المختلفة) لكي يستطيعوا الاقتراب والإحاطة بما أنتجه العقل البشري مبكراً، إلاّ أنّ تلك الجهود تعود حسيرة عاجزة عن اختراق ملايين السنوات التي غمرت ذلك الوجود. ومع توفر الأدوات الحديثة، باستخدام الكربون المشع أو بواسطة معجّل الجسيمات، وصل الباحثون إلى تحديد أعمار كائنات عاشت قبل خمسين ألف سنة أو مائة ألف سنة، إلاّ أنّ كلّ مرحلة موغلة تقود شهيتهم لمواصلة التنقيب في الأعمق، إذ أنّ نهمهم المعرفي يبحث عن الوصول إلى الفكر الأول أو مغامرة العقل الأولى كما يقول فراس السواح.

وكما بحثت الأجساد عن مواقع لها من خلال هجراتها، فالبضرورة كان العقل

يبحث له عن موقع هو الآخر، وهذا التنقل والترحال بحاجة إلى إعمال العقل في الحركة والتنقل وفي تكييف البيئة لصالحه، وهي أفعال خاصة بالتدبّر، والتدبّر صفة عقلية وليست جسدية. . . ومن تنوع الاحتياجات بدأ العقل الأول في اكتشاف ما حوله واكتشاف نفسه ومقدرتها على التكيف بوسائط يتمّ تسخيرها أو صناعتها أو بناؤها.

وثمة اكتشافات ودراسات تتقافز من كلّ جهة يتمّ جمعها وتثبيتها (كما تُجمع عظام جثة) لإعادة تصوّر البداية الأولى للإنسان. ويكاد الفضول الحادّ يخترق كلّ السنوات السحيقة لكي يعرف ما هو النشاط الفكري الذي مارسه الإنسان الأول، وماهي الفكرة الاولى التي قدحت في مخيلته، وكيف تعامل مع محيطه، وبماذا فسّر وجوده، وكيف اهتدى إلى معضلات الوجود.

هي أسئلة ضخمة لمن يجذّف في الهواء، لكن ثمّة دراسات انثربولوجية بُذلت بمثابرة وعناد كبيرين قرّبت لنا الصورة.

ويمكن القول إنّ الإنسان تدبّر شؤونه الحياتية من مأكل ومشرب ومأوى وإشباع جسدي، إلا أنّ ثمّة إحساس بالخوف ظلّ يسيطر عليه، فاكتشف قوته وبراعة حيله في اصطياد الحيوانات والغوص في أعماق البحار وتسلّق الجبال واستئناس بعض الحيوانات، أي أنه استطاع تصريف قواه العقلية والجسدية في ما قدر عليه، بينما تواجد وسط عشرات الظواهر الطبعية، فشعر أمامها بالعجز والخوف وكان عليه البحث عمّا يحيدها أو يتصالح معها شعورياً حتى تستقرّ نفسه وتخضع جوارحه لها بالتسليم والانقياد شرط أن لا تؤذيه. ولأنه كائن مبرمج على الإيمان منذ الأزل أخذ يبحث عن إله، إله يلوذ به إن عجز عن التصرّف ويبتهل إليه طلباً لحاجة أو دفعاً لمكروه، إله يخاطبه في ضعفه وعجزه ويركن إليه في الملمّات العظيمة حتى وإن كان حجراً أو كوكباً أو شجرة. هو بحاجة إلى شيء ملموس يمنح لذاته استقراراً وتوازناً نفسياً.

وما الاشكال التي اتّخذها الإنسان كآلهة إلاّ صورٌ مشتتة ذهنياً بسبب عدم المعرفة ولكي يوقف جهده المبذول عن البحث عن الإله وإسكات نزعةٍ فطرية إنسانية زُرعت في أعماقه.

وقد دلت الأبحاث والدراسات الانتروبولوجية والأثرية على وجود معتقدات

دينية لدى هذا الإنسان القديم وتوجّهات روحية معينة، ولكن من الصعوبة بمكان تحديد الكيفية التي كان يفكر بها ذلك الإنسان (البيالوتي) ومعرفة التصرفات والمعتقدات الخاصة به والحياة الاجتماعية التي كان يحياها بشكل دقيق نظراً لعدم ظهور الكتابة في ذلك الوقت. وفي هذه الحالة لم يجد الدارسون من علماء الانثروبولوجيا أمامهم سوى المخلّفات التي تركها ذلك الإنسان فانطلقوا منها لدراسة المفهوم الديني لهذا الإنسان، سواء كانت رسومات أم منحوتات عثر عليها في الكهوف والمقابر العائدة له.[١]

إنّ تشكّل الآلهة وتعدّدها في مواقع مختلفة يشي بأنّ تلك الحياة طغت عليها مفاهيم عقدية أثّرت في النزعة التوحيدية لدى إنسان تلك المراحل، ونحمل سبب هذا التغيّر إلى التباعد المكاني والزماني عن أول وجود للإنسان ودخوله في تجمعات باحثة عن الأمان والاكتفاء الغذائي، فابتعادهم عمّن ربطهم بالتوحيد من خلال نبوّة أبيهم آدم جعل المخيّلة تنشىء تصورات جديدة للإله أو تضفي على الأصل تخيّلات ومفاهيم مستحدثة. ولعدم وجود سجّل مدون (كتاب مقدّس) تحولت التعاليم الدينية إلى مجموعة من الحكايات والأخبار، حتى إذا طال الأمد وكثرت الهجرات وتوزّع الناس في مشارق الأرض ومغاربها كان هاجس وجود الله حاضراً في أذهانهم، إلا أنه حضور مادي، فما يؤثر في حياتهم ولا يستطيعون التغلّب عليه يكون إلهاً. هذا ما يفسّر تعدد الآلهة للأجرام السماوية، ولذلك مثلت الظواهر الطبيعية، من رعد وبرق ومطر وقمر وشمس، آلهةً يُخشى بطشها وغضبها لعدم مقدرة الإنسان على السيطرة عليها أو معرفة أسباب حدوثها، فتنسب إلى غضب الإله. ولكثرتها تعدّدت صور الآلهة كأبناء وبنات، إذ لم تكن فكرة الإله الواحد حاضرة.

ويمكن ربط تفسير تعدّد الآلهة إلى العقلية المجسِّدة التي يحملها الإنسان بحيث طبّق القوانين التي يخضع لها على الإله، فإذا كان قانون وجوده قد تمّ عن طريق التناسل فلا بدّ أن يوجد الإله بنفس الطريقة، وإذا حدث وأن تكاثر جنسياً فلا بدّ أن يتكاثر الآلهة بنفس الطريقة، وإذا كان يمرض فالإله يمرض، وإذا كان له جسم يتموضع في مكان فلا بدّ أن يكون للإله مكان يتموضع فيه. ولهذا نشأت الأساطير

---

(١) نزار يوسف: الحكمة بين الإله والسلطان.

عن الآلهة وفق القانون البشري وليس خارجاً عنه، ولهذا أيضاً تحفل أساطيرهم بالتزاوج بين الآلهة، ولأنّ ثمرة التزاوج أبناء فقد اكتسب كلّ ما لا يُلمس ويُرى صفة الإله.

وحين اطمأن الإنسان القديم لهذه الفكرة أراد أن يكون إلهه قريباً منه دائماً فجسّده من خلال منحوت (صنم) أو شجرة قريبة منه أو شيء يراه كالقمر أو الشمس أو الكواكب.

وفكرة تجسيد الإله في صور مادية ظلت سارية عبر العصور حتى تمثلت في ادّعاء أنّ عيسى عليه السلام هو الله أو ابن الله تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيرا.

وكلما عدنا إلى الخلف نجد أنّ حيرة البحث عن الإله المجسّد حاضرة منذ القدم، ولم يسلم من هذه الحيرة حتى الأنبياء، وقد ذكر القرآن هذه الحيرة في قصة إبراهيم عليه السلام.(١)

وحيرة النبي إبراهيم عليه السلام إزاء ثلاثة كواكب وفق الآية (كوكب - قمر- شمس) قد يكون قادماً من أثر الثقافات أو الديانات التي عبدت الكواكب أو القمر أو الشمس، ويسرد القرآن لهذه الحيرة هو بيان وإسقاط ألوهيتها بالحجّة، إذ لا يمكن أن يأفل الإله ويترك خلقه وقتاً من الزمن، فتصبح الآية دليل إسقاط أولوهيةٍ سادت في زمنيته. ونلحظ أيضاً من الآية الكريمة أنّ العقل السليم لا يقف عند إلهٍ تتمّ صناعته وحمله وتهشيمة كالأصنام مثلاً، حتى وإن كان رمزياً يحمل دلاله إله.

وقد كانت الآلهة تتشكّل وفق حجم الخشية من المعبود، ولكي يظهروا الخضوع المطلق للإله كان العبّاد يقومون بتجسيد المعبود كرمزية له وحمله معهم أو نصبه داخل الدار أو في المعبد الذي يختارونه للعبادة. وأرجّح أنّ صناعة الأصنام وعبادتها جاءت من هذا الطريق وليس من كون الصنم تجسيداً لرجلٍ صالح مات

---

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِين* وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ *إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ - (سورة الأنعام: ٧٤-٧٩).

فصُنع له صنمٌ للتذكير به ثم عُبد في مرحلةٍ تالية، أي أنّ المنشأ الأول لظهور الأصنام كان تشكيلاً للإله المتخيّل في أذهانهم.

وهذا ما نجده متمثّلاً في رمزيته عند الديانة الزرادشتية مثلاً، فزرادشت بشّر بالقوة الشافية للعمل الصالح والقوة الخيرة، وتمثّل النار والشمس رمزاً للمجوسية، ومن هنا يأتي تقديس المجوس للنار، ليس لكونها هي المعبود بل لكونها تمثيلاً لنور أو حكمة أهورامزدا (الإله)، ولذلك يحرص الزرادشتيون على ألاّ تنطفئ في معابدهم، وهو ما جعل أصحاب الكثير من الديانات الأخرى يفسّرونه على أنّ الزردشتيين يعبدون النار.

كما أنّ نقل الخبرات والمعارف كان بطيئاً بسبب ضعف الاتّصال واختلاف الألسن[1]، إذ كانت وسائل التواصل تعتمد على الحيوانات التي احتاج استئناسها زمناً طويلاً.

وأيّ نمو وتطور، مهما كان بسيطاً، لم يحدث بين ليلةٍ وضحاها، فقد تعاقبت أجيال كثيرة لنقل اكتشاف النار أو حكاية الملبوسات (إذ كان اكتشاف الإبرة ثورة صناعية ضخمة في حينها) أو الزراعة أو العمارة، وكانت كلّ مرحلة يتم فيها اكتشاف سرّ من أسرار الحياة في جهة ما من هذا الكون، وانتقاله كخبرة بشرية وتداولها والعمل بها يحتاج سنوات طويلة، إضافةً إلى تأخر انتقال الخبرات وتصديرها، إذ يمكن لتلك الخبرات أو الاكتشافات أن تقبع في رقعة جغرافية ما ولا تنتقل، خاصةً إذا كانت تلك المجموعات منغلقة على نفسها. وأعتقد أنّ الحروب أسهمت في تبادل الخبرات، إذ تصبح المجموعات باحثةً عن بسط نفوذ واكتساب موارد بينما تكون مجموعات أخرى في حالة دفاع عن مكتسباتها البسيطة، وبالتقاء حالتي البحث عن مكاسب والدفاع عنها تنشب الحروب، ولأنّ الطرفين يسعيان إلى الانتصار كان كلّ منهما يبحث عن الوسائل الرادعة لكفّ أذى الآخر، فتولدت خبرات عديدة تمّ تناقلها بين الناس، ويُضاف إلى تبادلية الخبرات إخضاع المهزوم لمعتقدات المنتصر.

وقد جاءت المؤثرات في معتقد الآخر من طرق عدة، فحين تناثرت البشرية في

---

(١) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ - (الروم: ٢٢).

الصحارى والجبال والأودية والبحار وفي السهول وفي كلّ فجاج الأرض، ومع تنوع الطقس في بيئات المجاميع البشرية وتأقلمهم معها، حتى إذا خرجت إلى محيطٍ أخر اكتسبت ثقافته، وهي ثقافة مفضية إلى تبادل الأفكار والمعتقدات أيضاً. وأي تجمّع بشري أسهم في تنامي المعتقدات الدينية وتباينها. وهناك أمم سادت وبادت، منها ما تمّ الوقوف على وجودها من خلال مدونات أو من خلال الحفريات، وتكاد جميعها تجمع على أنّ الإنسان لا يمكن له أن يتواجد من غير الانشغال بفكرة الإله.

ونحن كمسلمين نؤمن أنّ فطرة الإنسان هي التوحيد، وأنّ الله قد أخرج من ظهر آدم كل ذّريته[١] وأشهدهم على ربوبيته[٢] فشهدوا بذلك. والذين شهدوا بالتوحيد (من كان قريباً من عهد النبوة من أبناء آدم) حدث لهم اعتوار عقدي، فكان من فضل الله إرسال الرسل لتصحيح عقيدة التوحيد لدى البشرية جمعاء، فعدل الله يقتضي تبليغ رسالته إلى جميع البشر لكي لا تكون لأيّ أمّةٍ حجّة[٣]. وقد تفاوتت

(١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ - (سورة الأعراف: ١٧٢).

(٢) (وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سُئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال: إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ الله عزّ وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار. - (رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير وابن حبان في صحيحه).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، قال: فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي. - (متفق عليه).

(٣) قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ - (سورة يونس)

ويقول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ =

المرويات عن عدد الأنبياء والمرسلين، فوصل إحصاء بعضها إلى الآلاف[1]، ومهما كان العدد فلا بدّ من تحكيم العقل، فمع الأمم المتعاقبة والمبتعدة مكانياً وزمانياً يفترض أنّ لكلّ أمة رسولاً أو نبياً، وقد لاحظنا أنّ في زمن بني اسرائيل أنّ الأنبياء

= الْمُكَذِّبِينَ﴾ - (سورة النحل).

وقال تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) - (سورة النحل).

(١) عن أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمِ الأَنْبِيَاءُ؟ قَالَ: مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفاً. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمِ الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: ثَلاثُ مِائَةٍ وَثَلاثَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا. قُلْتُ: مَنْ كَانَ أَوَّلُهُمْ؟ قَالَ: آدَمُ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَسَوَّاهُ قُبَلا. يَا أَبَا ذَرٍّ: أَرْبَعَةٌ سِرْيَانِيُّونَ: آدَمُ وَشِيثُ وَأَخْنُوخُ، وَهُوَ إِدْرِيسُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ، وَنُوحٌ، وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ: هُودٌ وَشُعَيْبٌ وَصَالِحٌ وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ، وَأَوَّلُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوسَى، وَآخِرُهُمْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ، وَأَوَّلُ الْمُرْسَلِينَ آدَمُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ كِتَاباً أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: مِائَةُ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةُ كُتُبٍ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى شِيثَ خَمْسِينَ صَحِيفَةً، وَعَلَى أَخْنُوخَ ثَلاثِينَ صَحِيفَةً، وَعَلَى إِبْرَاهِيمَ عَشْرَ صَحَائِفَ، وَأَنْزَلَ عَلَى مُوسَى قَبْلَ أَنْ يُنَزِّلَ التَّوْرَاةَ عَشْرَ صَحَائِفَ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ. قُلْتُ: رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَانَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: كَانَتْ أَمْثَالاً كُلُّهَا، كَانَ فِيهَا: أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُسَلَّطُ الْمُبْتَلَى الْمَغْرُورُ، إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ تَجْمَعُ الدُّنْيَا بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَكِنْ بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنِّي لا أَرُدُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ، وَكَانَ فِيهَا أَمْثَالٌ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنَّ لَهُ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يُفَكِّرُ فِي صُنْعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا بِحَاجَتِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لا يَكُونَ طَائِعاً إِلا لِثَلاثٍ: تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ، أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيراً بِزَمَانِهِ، مُقْبِلاً عَلَى شَأْنِهِ، حَافِظاً لِسَانَهُ، وَمَنْ يَحْسِبُ كَلامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلامُهُ إِلاَّ فِيمَا يَعْنِيهِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَانَتْ صُحُفُ مُوسَى؟ قَالَ: كَانَتْ عِبَراً كُلُّهَا، عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ هُوَ يَلْهُو، وَعَجِبْتُ لِمَنْ رَأَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا ثُمَّ اطْمَأَنَّ إِلَيْهَا، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ غَداً كَيْفَ لا يَعْمَلُ. - (المنتظم في تاريخ الأمم لابن الجوزي).

وقال الشيخ الإمام عبد العزيز بن باز - رحمه الله - بعد ذكر حديث أبي ذر وأبي أمامة - رضي الله عنهما: وجميع الأحاديث في هذا الباب ضعيفة، بل عدّ ابن الجوزي حديث أبي ذر من الموضوعات، والمقصود أنه ليس في عدد الأنبياء والرسل خبر يعتمد عليه، فلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى لكنهم جمّ غفير ... (مجموع فتاوى الشيخ: ٢/ ٦٦-٦٧).

يتجاورون مكاناً وزماناً، وقصّتا إبراهيم ولوط عليهما السلام خير دليل على هذا، وكذلك قصة موسى وشعيب عليهما السلام، وقصة زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام بها من المجاورة والتداخل ما يؤكد ذلك. وهذا التجاور والتزامن رحمةٌ من الله عزّ وجل، فإذا حدث هذا لأمةٍ واحدة فمن رحمته تعالى أن تصل إلى بقية المعمورة بإرسال الرسل والأنبياء.

لهذا لا يمكن اقتصار الرسالات السماوية على منطقتنا العربية فقط، فقد تناثرت المعلومات عن ديانات انتشرت في قارة آسيا بأعداد كبيرة (أُطلق عليها مصطلح الأديان الشرقية) مثل: الهندوسية والبوذية والسيخية والكونفوشيوسية والزردشتية والديانات الهندية والصينية بها من التنوع والكثرة ما يجعل إحصاءها ومعرفة مبادئها وقيمها بحاجة إلى مجلدات، وهناك أيضاً الديانات اليونانية والمصرية القديمة والديانات الأفروأمريكية والديانات الأفريقية، أي أنّ هناك مئات الديانات التي قدّمت نفسها وساهم في تقديمها - حديثاً - ثورة المعلومات والاتصالات، وعند استعراضها يؤكّد أصحابها أنّ دياناتهم سماوية[1]، فمثلاً تعامل الساميون الأوائل مع

---

(١) وقبل أن يعرف الناس الكتابة بزمان طويل كانت الصلوات تقام في المعابد للآلهة. ورغم ذلك فإنّ خاصة المصرين كانت تعتقد بوجود إلهٍ عظيم حكيم خالد لا يستطيع إنسان أن يدرك كنهه ولكنه يراقب الناس ويستمع إلى صلواتهم ودعائهم. وفي ما يلي جزء من ترنيمة كان الكهنة يرتّلونها كلّ يوم في معبد آمون بطيبة، ومعانيها تعطي صورة واضحة عن العقيدة الصحيحة للمصريين القدماء:

الله واحد أحد ولا شريك له
الله واحد وقد أبدع مخلوقاته وحده
الله روح غامضة لا يراها الإنسان، خفيّة عن كلّ شيء
الله روح الأرواح، روح مصر المقدسة
الله هو الله منذ البداية، هو الله قبل أن يكون شيء
هو سيد المخلوقات وأب الجميع، هو الإله الدائم
الله هو الموجود الخالد الذي لا يفنى، لابداية له ولا نهاية
الله لم تكن له بداية، وليس له نهاية، وسيظل كذلك
على الدوام....
الله خفي، لا يعرف إنسان شكله ولا شبهه
لا تعلم الآلهة مداه ولا الناس...

=

الفرس على اعتبار أنهم أهل كتاب[١]، ولهم دين سماوي، مثلهم في هذا مثل اليهود العبريين، نسبة إلى ديانتهم الزرادشتية التي تنسب إلى الحكيم الخرافي زرادشت[٢]، وهناك تعاليم صينية[٣] وبوذية، وفي الفيدا - أقدم المصادر المدونة باللغة السنسكريتية - عديد من الأساطير التي تنتمي إلى الكيانات والأمم الآرية، ومن الخطأ افتراض أنّ الأساطير اللاتينية والسلافية والأجناس الشمالية بعامة - كقدامى الألمان والكلت - مأخوذة أو مستمدة مباشرةً من الأساطير الهندية[٤]، فلكلّ أمّةٍ رسالتها التي تقدّسها وتضعها في إطار ديني مقدّس.

وما تمّ تناقله كثقافة إسلامية واقتصار المعرفة على خمسة وعشرين رسولاً ونبياً ذُكروا في القرآن، واقتصارهم على رقعة جغرافية متقاربة تجعل الكثيرين (من المسلمين) لا يكترثون ببقية الرسالات التي ظهرت على أيدي أنبياء لم يذكروا في

= الله هو الحق، ويحيا على الحق، إنه الملك الحق
الله هو الحياة، ولاحياة للناس بدونه، هو البداية،
هو الواحد الأحد. . . - (كمال الحناوي: **أساطير فرعونية**، منشورات المكتبة العصرية).

(١) شوقي عبد الحكيم: **موسوعة الفلكلور والأساطير**.

(٢) عاش زرادشت بين ٦٦٠-٥٨٣ قبل الميلاد.

(٣) وهناك كتاب التاو تي تشينغ لحكيم صيني يدعى لاو-تسو وضعه في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد. وقد قدّم الكاتب الكبير فراس السواح لهذا الكتاب ذي الحجم الصغير، إلا أنّ أثره كان تأثيراً واسعاً على الفكر الصيني والفكر الشرق أقصوي عموماً، ولا يقارن بأي إنجاز فكري آخر. لم يتّبع لاو-تسو الأسلوب الفلسفي التقليدي، وإنما صاغ أفكاره على شكل حِكَم قصيرة ومختزلة، وبأسلوب على درجة عالية من التجريد، الأمر الذي جعل الباحثين شرقاً وغرباً، وحتى يومنا هذا، في جدل بخصوص تفسير وتأويل مقولاته. - محاضرة أقيمت لفراس السواح في مركز تريم للعمارة والتراث في دمشق.

(٤) في الهند توجد أسرتان من الآلهة هي الآلهة الفيدية والبراهمية، والفيدية تنتمي للعصور المغرقة في القدم، وتبدو كما لو كانت قد عبدت من شعوب زراعية غير مستنيرة، أما اللاهوت البرهمي فمعظمه منبثق بشكل رفيع من سابقه الفيدي، وبالتدريج اتّخذ مكانته كأبسط عبادة من الفيدية بقرون قليلة قبل مولد المسيح .
ولم تمضِ أكثر من خمسة أو ستة قرون حتى اتّخذ هذا البناء الأسطوري تحويراً أو انشقاقاً جديداً تحت اسم البوذية وأصبح الدين الرئيس للهند. - (**موسوعة الفلوكلور والأساطير**، شوقي عبدالحكيم).

القرآن[1]، وهذا إغفال لتطور الفكر الديني، خاصةً مع شيوع العديد من تعاليم بعض الديانات ذات الجوهر التوحيدي. وكما حدث من تحريف للرسالات السماوية (في اليهودية والمسيحية) نال التحريف تعاليم الديانات الأخرى. وأعتقد أنّ السبب في تحييد كثير من الديانات البعيدة جغرافياً عن الرسالات المتأخرة كان بسبب الانتقاء، فكلّ ديانة سماوية تأتي حاملةً يقيناً بأنها النسخة النهائية تجعل معتنقيها يقومون بتنقية مصادرهم وكتاباتهم ممّا سبق، ولولا الأساطير وانتشارها كحكايات لغاب الكثير منها.

والتنقية شملت كتب التاريخ والسير لبعض الديانات التي لم يأتِ عليها القرآن بذكر وإن ذكرت فهي تذكر كحكاية أمّة وليس كديانة أمّة.

كما تمّ حصر الديانات برقعة جغرافية واحدة، ويعود ذلك لكون الرسالات الأممية المتأخرة الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلامية) تواجدت في رقعة متقاربة، بينما ما تباعد عنها أو ما سبقها من ديانات أممية لم تلتفت إليها بتاتاً واعتبرتها منسخوة، وحكم المنسوخ أن لا تُذكر تعاليمه.

إلاّ أنّ أثر تلك الديانات الأممية ظهر وانعكس على الديانات الثلاث، فكلّما استقرّت ديانة منها في أمّةٍ من الأمم أحدثت فيها تغييراً وصبغتها بثقافتها ودياناتها القديمة، وكلّما مضى الزمن متقدّماً كان من الصعب فصل الداخل على المدخول كممارسات معيشية وفي أحيان تعبدية.

وأعتقد أنّ ما كان قبل الطوفان قد مُحق تماماً، فلم تصل منه تعاليم مدونة، وربما توصّل الإنسان إلى حفريات، وهذا اتّساقٌ مع ما جاء في الرسالة الإسلامية، بينما هناك كتّاب يرون أنّ أسطورة الطوفان منسخوة وأنّ كلّ أمّة أُصيبت بالطوفان... وحين يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (النساء: ١٦٣) لايعني اقتصار النبوة على مكانٍ محدد، فقد يكون الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله بعد نوح شملوا المعمورة، كما أنّ الآية لا

---

(١) يقول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ - (سورة غافر: ٧٨).

تحجر إرسال الرسل على فترة ما بعد نوح، إذ إنّ معرفتنا الدينية من خلال القرآن تؤكّد لنا أنّ الله عزّ وجلّ بعث رسلاً وأنبياء قبل نوح كآدم وإدريس مثلاً.

ورؤية خارطة أسماء الأنبياء الذين ذُكروا في القرآن الكريم يتوزعون على ما اصطُلح على تسميته بالشرق الأوسط - الذي نعرفه بخارطته الحديثة - لا يلغي وجود أمم ذات رسالات سماوية انقرضت بصورة أو أخرى، ويصبح اختيار الموقع الجغرافي للديانات المتأخرة الثلاث كتواجد يشبه الزمّ أو الضمّ والجمع في منطقة تقترب من أرض الميعاد، فبعد أن تناثرت الرسالات والديانات شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حدث الزمّ والضمّ الذي يستوجب أن يكون في منطقة محدّدة لتحقيق نبوءة المعركة الفاصلة أو الوصول إلى أرض الميعاد ومن ثم المحشر (والمعركة الفاصلة تؤمن بها الديانات المتأخرة الثلاث).

والمحشر بحدّ ذاته هو تجمّع الخلائق على أرض غير هذه الأرض يوجدها ربّ العالمين: فهل يقتصر المحشر على أهل الشرق الأوسط فقط،[1] أو أصحاب الديانات الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام)؟

وآيات القرآن الكريم المتعددة والمخبرة بما سيكون عليه الناس في المحشر

---

(١) قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ۞ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ۞ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾ - (طه: ١٠٢-١٠٤).

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ - (الروم: ٥٥-٥٦).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ - (فاطر: ٣٧).

وقال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ۞ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ -(المؤمنون: ١١٢-١١٤).

وقد جاء في حديث «الصور» من رواية أبي هريرة: أنه قرن عظيم، الدارة منه بقدر السماوات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام. وجاء في الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له. فقالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا.» - (تفسير ابن كثير).

ويوم الحساب ليست مقتصرة على صنفٍ من البشر أو محدّدة لأمّة دون أخرى، بل شملت كلّ البشر بخطابٍ أممي.

يقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ۞ أَوَلاَ يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ۞ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ۞ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً ۞ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً ۞ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيّاً﴾ - [مريم: ٦٦-٧١].

ويقول جلّ في علاه:

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ - [الرعد: ٥].

ويقول تعالى في سورة:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ - [يس: ٧٧-٨٠]. (١)

وقول العظيم الرحمن الرحيم:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ - [الروم: ٢٧]

وقول رب الأرباب:

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ - [الجاثية: ٢٨].

---

(١) نزلت هذه الآية في أبي بن خلف الجمحي حين جاء بعظم رميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعدما قد رمّ؟ - (تفسير ابن كثير).

وقال عزّ من قائل:

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ - [الأعراف: ٣٨-٤٠].

لو محصنا الآيات السابقة فسنجد أنّ الخطاب عام وشامل لكلّ الناس مما يعني أنّ كل أمة من الأمم تمّ تبليغها برسولٍ أو نبي على وجه المعمورة، إلا إذا افترضنا أنّ ثمة قيامة جمعت كلّ الخلق مع وقوع طوفان نوح. وهذا الافتراض لا يمكن تبيان صحته، إذ لم يشر إليه القرآن الكريم، كما وأن الاحاديث النبوية تشير بوضوح كامل إلى أنّ في يوم القيامة يتحرك الناس إلى كثيرٍ من الأنبياء من أجل الشفاعة لبدء الحساب، ويذكر أدم عليه السلام. وهذا يعني أنّ الخلق جميعاً يجتمعون على صفحة مكانٍ واحد منذ أدم الى أمة محمد عليه الصلاة والسلام[1].

---

(١) حدثنا أبو الربيع العتكي حدثنا حماد بن زيد حدثنا معبد بن هلال العنزي حدثنا سعيد بن منصور، واللفظ له، حدثنا حماد بن زيد حدثنا معبد بن هلال العنزي قال: انطلقنا إلى أنس بن مالك وتشفعنا بثابت فانتهينا إليه وهو يصلي الضحى فاستأذن لنا ثابت فدخلنا عليه وأجلس ثابتاً معه على سريره فقال له: يا أبا حمزة إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة. قال: حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال: إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له: اشفع لذريتك، فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله، فيؤتى موسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته، فيؤتى عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فأوتى فأقول: أنا لها، فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يلهمنيه الله ثم أخرّ له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول: رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه =

٧

الحياة قائمة على الولادة والفناء ثم الولادة والفناء في دائرة لا يمكن الوقوف على نقطة معرفة المبتدأ والمنتهى. والحياة - مثلها مثل أيّ كائن حي - لها أطوار وتتمتع بخصائص الكائنات الحية في نموها وتخلّقها، ومن ثم الولادة وعبور أطوار مختلفة حتى تصل مرحلة الفناء الخاص بها. فالنبات يبذر ويفسق وينمو ويثمر ويحصد، وما يتفلت منه أو يحفظ للبذر يقوم بإعادة الدورة، والحيوان يتخلّق ويولد وينمو ويضعف ويموت ويمرّر وجوده عبر التناسل، وكذلك الإنسان إذا مات ترك من يواصل مسيرته، وإلى وقت قريب كانت هذه هي الصورة النهائية للإنسان التي نقف عندها كمنتهى لمسيرة حياتية، لكن ثمة بصيص من احتمالات للعودة أخذ يبشر بها العلم كغمزة تتطلب منا التريث في أحكامنا حول النهاية، إذ بالإمكان أن تكون هناك نهايات متعددة، وربما كانت بداية تلك الغمزة من خلال النعجة (دوللي) أو تنوعت بإعطاء العمر المديد من خلال سلوك الطبّ طريق الخلايا الجذعية، أو جنون بعض العلماء من خلال تجميد الخلايا، إذ يتوقعون أنّ مستقبل العلم يحمل لهم نبوءة إمكانية العودة إلى الحياة. المهم أنّ هناك دعوة للتريث حول النهاية، وهل يمكن لها أن تصبح متعددة المحطات.

وإذا تسللنا إلى هذه الفكرة فهل بالإمكان تخيّل انطباق النهايات المتعددة على الأفراد والأمم سابقاً، وتخيّل أنها كانت فكرة عظيمة أنتجها الإنسان في إحدى طفراته العلمية الضخمة التي ظهرت على سطح الأرض في زمنٍ ما ثم تلاشت واضمحلت من خلال كارثة كونية لم يبقَ من يسجّلها، وبذلك عادت الحياة إلى طور الطفولة الأولى وأعادت نموها مرة أخرى؟[1]

= واشفع تشفع، فأقول: أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل. - (صحيح مسلم).

(١) يقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ - [الأنبياء: ١٠٤]

لنبدأ مع المخيلة في التواجد الأول، وذلك مع هبوط أبوينا آدم وحواء عليهما السلام (وقد رحمنا الأوائل بتصور كيف حدث التناسل والتكاثر) ومع هذا التواجد الأول كان التوحيد حاضراً، إذ لم يكن الإنسان قد ابتعد مكانياً أو زمانياً عن ذلك، فالأب والأم هابطان من الجنة ويعلمان تماماً أنهما يقضيان عقوبة ذنبٍ اقترفاه، وكلاهما يحمل الندم ويداوم على الاستغفار، وبالضرورة فإنّ ذريتهما يتلقّيان نفس المبادىء والقيم، ولهذا فإنّ أول إثمٍ اقتُرف كان مبعثه حبّ التملك والتميّز[1]، أو ما

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ - [المائدة: ٢٧-٣١].

وقد ذكر بن كثير في البداية والنهاية أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى، وأن قابيل أراد أن يتزوج بأخت هابيل، وكان أكبر من هابيل، وأخت قابيل أحسن، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قربانًا.

وذهب آدم ليحج إلى مكة، واستحفظ السماوات على بنيه فأبين، والأرضين والجبال فأبين، فتقبل قابيل بحفظ ذلك.

فلما ذهب قربا قربانهما، فقرب هابيل جذعة سمينة، وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وذكر أبو جعفر الباقر أنّ آدم كان مباشراً لتقربهما القربان، والتقبل من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدعُ لي، وتوعّد أخاه فيما بينه وبينه، فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذا هو به فقال له: تقبّل منك ولم يتقبّل مني، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله.

وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته.

وقيل: بل خنقه خنقاً شديداً وعضاً كما تفعل السباع فمات.

وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم، مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها، وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ - [المائدة: ٣١].

يقال عليه (الحسد)، وهو ما يعني تغلّب المادي على الروحي وانتصار الرغبة في الاستحواذ على الزهد والعفاف، مما سهّل الطريق للإقبال على الدنيا وفق قانون الغلبة.

وإذ يمثّل قابيل روح الشر في البشر[1] إلاّ أنّ فعله صنع الحكاية الثانية (بعد حكاية الخروج من الجنة) ومن هنا نلحظ أنّ الحكاية هي التي تصنع الحياة، فهي في صورتها الأولى أحداث لكن سرعان ما تتحول مفردات الحكاية إلى حياة إذ تقوم بتجميع كل حدث وتضعه في زمنه وتُظهر فيما بعد كيف لذلك الحدث العابر تجاذب مع بقية الأحداث صانعاً حكاية وحياة.

ولو أنّ تواجد آدم عليه السلام في الجنة لم تقابله حكاية الإغواء بالأكل من الشجرة المحرّمة (أو المنهي عنها) لما نتج حدث أو فعل أو حكاية أو حياة، فالحكاية بحاجة دائماً إلى إغواء لكي تكمل سردها وتشويقها!...

ويغيب الجزم في سيرة البشرية قبل طوفان نوح عليه السلام، إذ تغرق أحقاب زمنية مهولة في التكهنات، ومع أنّ بعض المرويات الدينية تحمل أخباراً مشفّرة وموجزة تلغي كلّ شيء ما عدا خبر حلول الغرق والنجاة، وفي أحيان تُقارب الزمن لدرجة لا تتّسق مع معطيات العلم الحديث، كما يحدث إلغاء لوجود أمم أخرى أو رسل قبل نوح، وإذا كان آدم عليه السلام نبيّاً فهو أول الأنبياء، كما جاء في الحديث الذي أخرجه ابن حبان في صحيحه، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عن آدم: أنبي هو؟ قال: نعم نَبِيٌ مُكَلَّمْ. ولكنه ليس برسول لما جاء في حديث الشفاعة أنّ الناس يذهبون إلى نوح فيقولون: أنت أول رسول بعثه الله إلى الأرض. ويقول

(١) حدث عندما أيقن قابيل من قتل أخيه حمله على ظهره سنة. وقال آخرون: حمله مائة سنة، ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين.
ويقال إنّ الغرابين أخوان فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر، فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها، ثم ألقاه ودفنه وواراه، فلما رآه يصنع ذلك قال: يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي، ففعل مثل ما فعل الغراب، فواراه ودفنه.
وقد ذكر مجاهد أنّ قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه، فعلقت ساقه إلى فخذه وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت تنكيلاً به وتعجيلاً لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه. (البداية والنهاية لابن كثير).

بعضهم إنّ في هذا النص تصريح بأنّ نوح أول الرسل[1]، فكم كان عدد الأنبياء الذين سبقوا ظهور أول الرسل بدءاً من آدم وصولاً إلى نوح عليهما السلام؟ وهل يمكن افتراض أنّ البشرية انقرضت تماماً مع الطوفان؟ وإذا كنّا نقول إنّ لكلّ إنسان قيامته وتكون بموته، فهل كانت للبشرية قيامات تنتهي بحلول كارثة طبيعية تزيل كلّ شيء وتمكّن الناجين من بدء حياتهم من البداية الأولى في أرض جديدة؟

إنّ هذا التخيل يعطينا تفسيراً للأمم التي بادت ولم يعد لها من ذكر.

ثم هل كان الطوفان مغرقاً كلّ الكون أم اقتصر على الرقعة الجغرافية التي نعرفها الأن بالشرق الأوسط يضاف إليها بعض الدول الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط؟

وهو السؤال المباح الذي يمكن لأي انسان أن يسأله الآن حيال مواقع جغرافية تقع في أمريكا اللاتينية أو أمريكا الشمالية (قبل أن تُعرف بهذا الاسم) أو في قلب آسيا أو في أدغال أفريقيا أو في استراليا؛ فكلّ هذه المواقع بعيدة عن موقع طوفان نوح عليه السلام، ومع ذلك فالنص الإخباري عن الطوفان يقول إنه أغرق كلّ الأرض. . . أم ننقاد الى أنّ كلّ أمّة كان لها طوفانها الخاص، إذ تسجّل بعض المدونات في أمم أخرى قصة الطوفان الذي أغرق الارض، فإلى أيّ إخبار يمكن لنا أن ننساق؟ بمعنى، هل غرقت الأرض بكلّ ما عليها أم أنه غرق جزئي بحيث يسمح أن يكون لكلّ أمة غرقها الخاص ويجعل الانتقال إلى فكرة أنّ كلّ موقع جغرافي خضع لكارثة طبيعية أبادت كلّ الاحياء الذين عاشوا في ذلك الموقع وانتهت حياتهم بقيامتهم، ومع انتهائهم أخذت الحياة تتشكّل من جديد في أطوار مختلفة إلاّ أنّ الناجي من هؤلاء يبقي كالجين الوراثي لكلّ أمة لكي ينقل لخلفه مجمل الخبرات الإنسانية السابقة حتى وإن كان في حدوده الدنيا كون الحياة كانت فقيرة في وسائلها وتواصلها لدى الناجين (بعد أن تقوض كلّ شيء بفعل الكارثة الطبيعية)؟

ليس هناك يقين حتمي من شيء في هذا المفصل التاريخي، ولو مضينا مع فكرة أنّ الغرق عمّ الأرض وغمرها تماماً فلا بدّ من شمولية الدمار لكلّ ما أنجزه الإنسان قبل وقوع هذا الطوفان، عندها تظل اللغة هي الأداة السليمة التي لم يطلها

---

(١) مجموع فتاوى ابن عثيمين ١/ ٣١٧.

الدمار (من خلال الناجين) بل نمت وتعافت واستُخدمت في نقل الخبرات والمعارف. ومن هنا فقط تصبح الأسطورة هي الطوق الذي تعلق به الإنسان عبر مراحل التاريخ لينقل ما كان عليه سلفه.

والأسطورة على نقيض ما قاله عنها موللر بأنها «مرض من أمراض اللغة»(١) إذ تكون بمرضها استطاعت التخفي والمرور عبر الأيام بما تحمله من طيب زمنها. وحين يقول هوميروس «إن الأسطورة هي التاريخ في صورة متنكرة»(٢) أُحمّل قوله على أنّ الأسطورة استطاعت الهروب من جبروت السلطات المختلفة ومن دمار الطبيعة عبر ألسنة الناس الحاملين لها واستخدموها كزاد حقيقي مكّنهم من عبور مراحل الانقراض والفناء.

ويستقيم رأي العلامة ماكس موللر في تفسيره أنّ كثرة الأساطير يعود سببها إلى عجز اللغة الانسانية في نشأتها الأولى(٣) إذ أنّ العجز اللغوي وتلون الألسنة يجعل كلّ مجموعة تنشيء أسطورتها الخاصة بها فيحدث نوع من الاستقلالية لكلّ اسطورة، استقلالية في تصور الآلهة والمظاهر الكونية التي تحيط بكلّ قوم أو كلّ أصحاب لغة.

لكن ثمة سؤال حول هذا يتمحور مع فرضية فناء العالم ونجاة القلة في سفينة نوح: ألم يكن هذا موحِّداً للغةٍ خاصة؟ وأنّ الذين آمنوا بنوح يتحدثون لغةً واحدة، إذ هكذا يفترض لأنّ استجابتهم لدعوة نوح لأنها كانت بلغةٍ يفهمونها... فماذا حدث بعد رسوّ السفينة؟(٤) وهل مع رسوّها ونزول ركابها استمرّت الحياة القديمة

---

(١) الدكتور محمد عبدالمعيد خان: **الأساطير والخرافات عن العرب**، دار الحداثة.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الدكتور حسين الحاج حسن: **الأسطورة عند العرب في الجاهلية**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما خرج الناس من السفينة نزلوا طرف بابل وكانوا ثمانين نفساً فسمي الموضع سوق الثمانين، فمكثوا حتى كثروا وصار ملكهم نمرود بن كنعان بن حام. افترقت ألسنتهم على اثنين وسبعين لساناً ففهّم الله العربية منهم عمليق وطسم بن لوذ بن سام وعاداً وعبيلاً بني عوص بن إرم بن سام، فنزلت عبيل بيثرب ويثرب بن عبيل، ثم خرجوا منها فنزلوا الجحفة فجاءهم سيل فاجتحفهم فيه فسميت جحفة. وقيل: أول من سكنها يثرب بن قانية ابن مهلاييل بن ارم بن عبيل بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام. قالوا: =

التي سبقت الطوفان؟ وإذا مات كلّ شيء خاص بالبشرية بعد الطوفان فهذا يعني أنها بدأت تحبو في طورٍ جديد يؤرّخ له بالبذرة الثانية لولادة حياةٍ جديدة، أما ما قبل الطوفان فقد قامت قيامته وانتهى.

هذا الاحتمال يعدُّ احتمالاً متسرّعاً، خاصةً وأنّ الكتب السماوية ترى اتّصال الأزمنة بعضها ببعض منذ نزول آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة.

وترجّح بعض المصادر أنّ الطوفان كان مقتصراً على قومٍ وفي جهةٍ محددة ولم يكن عامّاً شاملاً، وكان مصدر تفسير الهلاك الجماعي قد جاء من التوراة. وسواء حدث الفناء الشامل أم لم يحدث فإنّ الطوفان يعتبره الكثيرون واحداً أو (أيتيما) من أساطير الخلق المبكرة جداً عند مختلف الشعوب، فالطوفان بداية لخلق أرض موعودة جديدة، وموضوع الطوفان ليس بقاصر على تراث الآداب والأساطير السامية[1] بل تواجد عند مختلف الشعوب.

= كان سكان المدينة في سالف الأزمان قوم يقال لهم صعل وفالح، فغزاهم النبي داود عليه السلام فأخذ منهم مائة ألف عذراء. قال: وسلط الله عليهم الدود في أعناقهم فهلكوا، وقبورهم هذه التي في السهل والجبل، وهي التي بجانب الجرف، وبقيت منهم امرأة وكانت تعرف بزهرة وكانت تسكن بها، فاكترت من رجل وأرادت الخروج إلى بعض تلك البلاد، فلما دنت لتركب غشيها الدود فقيل لها: إنا لنرى دوداً يغشاك، فقالت: بهذا هلك قومي، ثم قالت: رب جسد مصون ومال مدفون بين زهرة ورانون. قال: وقتلها الدود. قالوا: وكان قوم من الأمم يقال لهم بنو هف وبنو الأزرق فيما بين مخيض إلى غراب الصائلة إلى القصاصين إلى طرف أحد فتلك آثارهم هناك، وكانت العماليق منتشرة في البلاد وكانت جرهم وقنطورا وطم وجديس باليمامه وبالشام.

وعن زيد بن أسلم أنّ ضبعاً وأولادها رابضة في حجاج عين رجل من العماليق، وكان يمضي أربعمائة سنة ولم يسمع بجنازة، وكانت العماليق قد انتشرت في البلاد فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله، وعتو عتواً كبيراً، فبعث إليهم موسى عليه السلام جنداً من بني اسرائيل فقتلوهم بالحجاز وأفنوهم. - (عمدة الأخبار في مدينة المختار لأحمد عبد الحميد العباسي (توفي قبل القرن العاشر الهجري) تحقيق الشيخ محمد الطيب الأنصاري، طبعة الاسكندرية الأميرية ١٣٣٤هـ).

(١) موسوعة الفولكلور والأساطير العربية.

وقد سجّل جامع الحكايات الباحث بول رادن نصّاً لخرافة طوطمية من أوتاريو يقول النص: «إنّ الإله المهذب نيبوجو الذي جاء بالأصداف الجميلة الباهرة وزيّن بها الأسماك غضب عندما أفشى له طائر عملاق بنبأ أنّ سباع البحر افترست أخاه، فانتقم منها نيبوجو بأن كمن لها =

وقصة نوح المتكررة في مواقع مختلفة من ذاكرة الأمم يمكن لها قلب قاعدة الهرم، بمعنى أنّ البشرية وصلت إلى الذروة ثم وقع حدث كوني ونسف معطيات تلك الحضارة فأعادت البشرية بناء وجودها حمّالة بذور من معارف سابقة لها وأنتجتها على صورة أساطير، وإنّ هذا البناء والتقويض قد حدث مراراً وعبر أزمنة متباعدة.

٨

توجد اختلافات في تعريف النبي والرسول إذ يتقدم الرسول على النبي مكانةً كونه مرسولاً بشرائع عليه تبليغها للعالمين (ونموذج هؤلاء الرسل أولي العزم عليهم السلام: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى ومحمد عليه الصلاة والسلام، والملاحظ أنه لم يذكر من أولي العزم في الأمم التي كانت متواجدة قبل الطوفان سوى نوح) بينما النبي لديه تشريع وتبليغ لكنه محصور بتبليغ قومه، كما حدث مع شعيب ولوط مثلاً لكن رسالتهما لا يمكن لها أن تكون مقتصرة على قومهما من غير أن تعمم في الرسالات الكبرى، فإيفاء الوزن والتطفيف وكذلك تحريم واجتناب فعل قوم لوط محرّم في كلّ الرسائل السماوية، ولهذا ثمة اهتزاز دلالي في مفهوم الرسول والنبي، وربما يكون التفريق الذي قال به ابن تيمية رحمه الله والذي جرى بين الناس كتفريق وتعريف بهما، إذ يرى أنّ الرسول هو المرسول إلى قوم كفار مكذّبين، وأنّ النبي

= وقطع أشلاءها وألقى بها في مجاري المياه حتى فاضت وأغرقت الأرض، فصنع نيبوجو مركباً وأخذ من كل نوع (أو زوج) اثنين، وبعد فترة قال لنفسه: أعتقد أن طوفان الماء لن يتوقف، ومن الأفضل أن أصنع أرضاً جديدة.

وفي أحد النصوص التي جُمعت من الاسكيمو يرينا النص كيف أنّ حيوان الماموث الذي يوجد في الجليد هو حيوان مطرود لرفضه ركوب فلك نوح. أي أنّ كلّ بلد أو وحدة لغوية تضيف إلى القصة حيوانها المحلي، سواء في المكسيك أو في أوربا.

ويقدّم أفاناسييف أسطورة الفلاحين الروس عن نوح وزوجته والشيطان، وهي من نوع القصص الاستطرادية.

وفي عديد من النصوص يأخذ نوح مكان آدم ويتطابق معه، ويروح ابليس يغري الزوجة ويدفعها إلى أن تدفع نوح بدورها للأكل من الشجرة المحرمة حتى يدفع الله لأن يسلط عليهم الطوفان كعقاب. - (موسوعة الفلوكلور والأساطير العربية لشوقي عبدالحكيم).

من أُرسل إلى قوم مؤمنين بشريعة رسول قبله يعلّمهم ويحكم بينهم.

ونحن نعلم سلسلة أنبياء بني اسرائيل وأنهم توالوا في رسالاتهم، إلا أنّ هناك أنبياء لا نعلم عنهم شيئاً[1]. وفي هذا السياق، ماذا يمكننا القول عن هود وصالح ويونس مثلاً؟ فهم - وفق التعريف السابق - أنبياء، أي أنهم أُرسلوا إلى قوم مؤمنين بشريعة رسل قبلهم، وهذا التعريف يؤكد على وجود رسالات سابقة في بيئات هؤلاء الأنبياء لم نعرف عنها شيئاً[2]، إذ (كذبت عاد المرسلين)، وعاد قبيلة عربية بائدة تعود بنسبها إلى عاد بن ارم بن سام بن نوح وسكنت الأحقاف (شمال حضرموت) فأيّ الرسل ذُكروا أو عُرفوا في هذه المنطقة؟

كما أنّ النبي صالح[3] أُرسل إلى قوم ثمود (وثمود قبيلة من القبائل العربية البائدة وتعود في نسبها إلى ثمود بن عاد بن ارم بن سام بن نوح وسكنوا الحجر[4]) فأيّ الرسل هي التي تواجدت في المنطقة وسبقت النبي صالح عليه السلام؟

ثم نجد أنّ النبي يونس بن متّى[5] قد أُرسل إلى أهل نينوى في الموصل من أرض العراق، فهل سبقه رسول من الرسل إلى تلك المنطقة؟

وهناك أنبياء ذُكروا ولم تُذكر أحوالهم وقصصهم مع قومهم، مثل النبيين اليسع

---

(١) روي أنّ عمرو ابن العاص قدم من الإسكندرية على النبي فسأله عمّا رأى؟ قال: رأيت قوماً يتطلسون ويجتمعون حلقا ويذكرون رجلا يقال له أرسطوطاليس لعنه الله!! فقال له النبي: مه يا عمرو! إنّ أرسطوطاليس كان نبياً فجهله قومه. - (محبوب القلوب للديلمي).
وقال ابن القيم في الإغاثة: وكذلك أفلاطون كان معروفاً بالتوحيد وإنكار عبادة الأصنام وإثبات حدوث العالم، وكان تلميذ سقراط، ولما هلك سقراط قام مقامه وجلس على كرسيه وكان يقول: إنّ للعالم صانعاً محدثاً مبدعاً أزلياً واجباً بذاته عالماً بجميع المعلومات.

(٢) قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ - [الشعراء: ١٢٣-١٢٧].

(٣) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾- [الشعراء: ١٤١-١٤٢].

(٤) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۞ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۞ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۞ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ - [الحجر: ٨٠-٨٤].

(٥) وقال عزّ شأنه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ - [الصافات: ١٣٩].

وذي الكفل(١)، وذكر القرآن الكريم قصة ثلاثة أنبياء من غير ذكر أسمائهم وهم انبياء (أهل القرية) إذ بعث الله عزّ وجلّ رسولين إلى إحدى القرى وعزّزهما بثالثٍ يصدقهما، ولا يذكر القرآن أسماءهم أو مواقعهم، بل نلحظ أنّ القرآن ركّز على رجلٍ آمن بهم ودعى قومه للإيمان بما جاء به المرسلون، لكنّ أهل القرية قتلوه، فأدخله الله الجنة.(٢)

وهذا ما يجعل تعريف مفهوم الرسول والنبي لا يتّسق مع فكرة أنّ النبي لا بدّ وأن يكون سابقاً عليه رسول، فالنصوص القرآنية تؤكّد أنّ هؤلاء رسل، وتقترن بهم النبوة أيضاً من غير أن يكون في محيطهم رسول سابق.

الذي أريد الوصول إليه أنّ هناك أنبياء ورسل تناثروا على وجه المعمورة كلٌّ يبلّغ رسالته إلا أنّ كثيراً من تلك الرسالات لم تصلنا، وتجعل كلّ من نادى بالتوحيد

---

(١) وقد ورد اسم اليسع في القرآن مرتين، قال تعالى في سورة (ص): ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾،
وقال عزّ وجلّ في سورة الأنعام: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاً فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.
ويقول كتاب السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان إنّ النبي اليسع قام من الموت كمعجزة خاصة به.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۞ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُون ۞ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۞ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ۞ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۞ وجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۞ وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ ۞ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۞ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ۞ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۞ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ۞ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۞ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ۞ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ - [ياسين: ١٣-٣٢].

في الأزمان السحيقة أو الأماكن النائية يمكن أن يكون رسولاً أو نبياً لم يقصص الله خبره لنبيه[1] محمد صلى الله عليه وسلم.

وعدل الله يقتضي إيصال التبليغ لكلّ من على الأرض بواسطة رسول أو نبي لكي لا تكون هناك حجّة لأحد من خلقه[2]، وفي هذه الجزئية تحديداً تتجلّى عظمة الله عزّ وجلّ في عدلٍ مطلق من أنّ الخالق يقيم وزناً لحجّة المخلوق مع أنه سبحانه وتعالى منح الإنسان عقلاً لو أفناه متدبّراً لغدا رسولاً لنفسه.

وإيماننا بوجود رسل تناثروا على وجه المعمورة وظلّت تعاليمهم عابرة لزمانها يمنحنا دائرة كبرى للالتقاء والتلاقح وتنقية مجرى جريان المنبع الواحد إذ أننا جميعا نشرب نفس الماء.

وإذا آمنا أنّ الله أرسل لكلّ أمة رسول تكون نحن العرب آخر الأمم تبليغاً[3]، وهذا ما تفهّمه نجاشي الحبشة وقيصر الروم حين وصلتهما دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم. ويكون بتبليغنا (نحن العرب) قد مرّ الأنبياء والرسل بالأمم مبلّغين ومنذرين ومبيّنين الطريق الذي سيسلكه الإنسان في مستقبل الأيام.

وفي هذا السياق، وإن تباعدت الفكرة، يمكن القول إنّ الأسطورة ربما أسهمت في انحسار الديانات الهندية والآرية والصينية واليونانية والمصرية القديمة والديانات الأفروأمريكية والديانات الأفريقية، إذ تجوّفت كثير من الأساطير واتّسعت معدتها لهضم كلّ الإضافات والزيادات من عادات وتقاليد وإرث طوطمي مع إضفاء لمسات فلوكلورية احتفالية من غير حرص أصحاب تلك الديانات على تصفية ديانتهم والمحافظة على نقاء جوهرها، فتغلب الجانب الاحتفالي والإضافة عليه أكثر من الاهتمام بنقاء التعاليم والمبادىء، فخرجت من كونها ديانة إلى كونها إرثاً فولوكلورياً.

---

(1) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ - [غافر: ٧٨].

(2) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ - [يونس: ٤٧].

(3) قال الله تعالى ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ - [الأحزاب: ٤٠].

أو أنّ تلك الديانات اضمحلّت في مواقعها لسببٍ ما، كأن تكون الديانة لا تحمل في جوهرها هاجس الانتشار أساساً، وأنها محصورة بمكانٍ محدد، ومع الحروب والانتصارات كان المنتصر يفرض ديانته من غير الاهتمام ببثّها خارج إطاره السلطوي.

وتجاور وتزامن الديانات المتأخرة الثلاث قد يكون بلوغاً للنهاية إذ جاءت جميعها كرسالات أممية وقام كلّ منها بنسخ سابقتها ليكون الإسلام حاوياً لجميع الرسالات السابقة للوصول إلى النهاية، إلا أن نهايتها معقودة بتحقق كل تلك الأساطير التي جاءت في زمنها كمعجزة لتكون خاتمةً وتأكيداً لـ(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا) [الفتح:٣٣]. فمع بلوغ العقل مرحلة الرشد والنضوج فإنه سيمضي بعيداً حتى يصل إلى مرحلة الكبر والبطر والجحود والادّعاء أنه الصانع للحياة!

٩

«للتو عدت من الموت... لست واهماً» - هذه الجملة خرجت من فم بطل رواية الطين.

لقد رافقني هاجس العودة من الموت منذ أن كنت في مراحل الدراسة المبكرة، ولم يكن مراودة لمراهقة ذهنية آنذاك بل مستنداً على واقعة مررت بها حينما كنت طفلاً صغيراً، إذ كنت معلولاً وبلغت مرحلة متقدمة من الإعياء فقدت خلالها وعيّ تماماً واستشعرت أني أحلّق في فضاء المكان وأرى أمي وجاراتها يندبنني، كنت أرى نفسي معلّقا في الفضاء وخلال لحظات عاودت الارتطام بقوة إلى داخل ذلك الجسد المنهك وشهقت.

مشهد حاولت نسيانه خلال سنوات طويلة إلا أني كنت أحمله في تجاويف مخيلتي.

ومع كتابة رواية الطين انبعثت قضايا عدة كان أهمها:

هل يمكن العودة من الموت؟

وهو سؤال تجيزه مدرسة الواقعية السحرية في كتابة الرواية لكنه إجازة ادبية على أسطرة الواقع، بينما هناك عناصر في الأساطير هي حقيقة دُرست وطُمرت

تحت إهمالنا لها واليقين بعدم إمكانية تحقيقها على أرض الواقع، فتعاملنا معها من موقع الخيال أرجعناها إلى الأسطورة وفق تعريف أنها مضادة لما هو واقعي، وفي نفس الوقت آمنّا بما يخبرنا به العلم أو يتوقع حدوثه خلال السنوات القادمة، وبين إرجاعنا ما لا نستطيع تحقيقه إلى الأسطورة وتصديقنا بما يبشر به العلم نسقط معرفة الأسطورة بوقائع علمية لم تصل إلينا.

في رواية الطين أيضاً كان هاجس البطل البحث عن الأرضين السبع، ففي معتقدنا الإسلامي يقين راسخ بوجودها لكنّ هذا اليقين لم يتزحزح خطوات علمية للبحث عنها وظلّ الخيال الماء الوحيد الذي يروي الأرضين الست غير المعروفة.

ولأنّ الرواية جزء منها يقوم على المتخيل حدث معي ذلك في رواية الطين أيضاً، إذ أقام بطل الرواية فرضية السرعة وأن الأراضين السبع متواجدة في مكان واحد إلا أنّ لكلّ أرض منها سرعة مغايرة تجعل وجودها غائباً عن الآخرين بسبب اختلاف السرعات.

وهي فكرة وفق ما يقوله العلم ممكنة؛ فحين تصل سرعة جسم ما إلى سرعة الضوء مثلاً فإّن الجسم لا يُرى، وسرعة الضوء هي السرعة التي وصلنا إليها في هذا الزمن، وهناك تباشير بوجود سرعات مختلفة تفوق سرعة الضوء.

ووفق اختلاف السرعات يمكن أن تتواجد سبعة أجرام (سبع أراضين) في مكانٍ واحد لكلّ منها حياتها الخاصة بها.

إلاّ أنها تظل فرضية منبعها الخيال والبحث عن الموائمة بين ما تؤمن به وبين ما تعيشه، إلا أنّ هاجس أين تقبع الأراضين السبع كان هاجساً بشرياً ملحّاً.

وفي كتب التاريخ الإسلامية جرى الحديث كثيراً عن الأراضين السبع والمرويات بها تضارب وبها اجتهادات عديدة[1]، فقد روى الضحاك عن ابن عباس

---

(١) أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله علية السلام في غزوة تبوك إذ عارضنا رجل مترجب - يعني طويلاً- فدنا من النبي صلى الله علية واله وسلم فأخذ بخطام راحلته فقال: أنت محمد؟ قال: نعم. قال: إني أريد أن أسألك عن خصال لا يعلمها أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان، فقال: سل عما شئت. قال: يا محمد ما تحت هذه - يعني الأرض؟ قال: خلق، قال: فما تحتهم؟ قال: أرض، قال: فما تحتها؟ قال: خلق، قال: فما تحتهم؟ قال: أرض، حتى انتهى إلى السابعة (أي عدّ سبع =

قال: في كلّ أرض آدم كآدمكم ونوح كنوحكم.[1] ومعنى هذا أنّ لكلّ أرض ساعة ويقوم كبيرهم ومتقدمهم مقام آدم ونوح فينا.

هذه المروية هي جزء من مرويات عديدة تتحدث أنّ هناك سبع أرضين تتجاور فيها الحياة في زمنية واحدة، إلا أنّ قصور المعرفة في زمنية ابن عباس جعل القول محرجاً في أحيان كثيرة عند المتحدثين في معرفة كيفية ذلك.

الوجود[2]، وكلما مضى العلم في الزمن أمسك بشيء ما من معرفة يظل مبقياً عليها ريثما تستجدّ معارفه. والبحث عن الأراضين السبع ظلّ بحثاً قولياً في الغالب لم يسع العلماء على تأكيده بحثياً وإن اتجهت الدراسات إلى البحث الجيولوجي عن طبقات الأرض، وذهب بعضهم أنها تتكون من سبع طبقات وأنّ كل طبقة هي أرض، بينما النصوص القرآنية صريحة في الإشارة إلى وجود سبع أراضين:

فأين هي هذه الأراضين السبع؟[3]

إن معطيات العلم عن اتساع الكون لم تكن معروفة لكن توفرت نصوص عديدة

= أراضين) ثم قال: فما تحت الثرى؟ ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء؟ فقال: انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق أيها السائل، ما المسؤول بأعلم من السائل. قال: صدقت، أشهد أنك رسول الله يا محمد، أما إنك لو ادّعيت تحت الثرى شيئاً لعلمت أنك ساحر كذاب، أشهد أنك رسول الله، ثم ولّى الرجل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيها الناس هل تدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا جبريل. - (كتاب الحاوي في تفسير القرآن، وذكره الإمام السيوطي).

(١) تاريخ الأمم والملوك لأبي جرير الطبري.

(٢) قال أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٤٤): حدثنا ابن الجارود حدثنا محمد بن عيسى الزجاج حدثنا عامر بن إبراهيم عن الخطاب بن جعفر بن أبي المغيرة عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رجلا أتاه فسأله عن هذه الآية: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، يسأله ثلاث مرات فلم يرد عليه شيئاً حتى إذا خف عنه الناس قال له الرجل: ما يمنعك أن تجيبني؟ قال: ما يؤمنك إن أخبرتك أن تكفر؟ قال: أخبرني. قال: سماء تحت أرض، وأرض فوق سماء، مطويات بعضها فوق بعض، يدور الأمر بينهن كما يدور هذا الجردناب الذي يدور بالغزل عليه .

(٣) قال عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ - [الطلاق: ١٢].

تشير إلى ضآلة الأرض مقارنةً بملك الله عزّ وجلّ[1]. هذه الإشارات ظهرت بجلاء في الديانة الإسلامية من خلال القرآن الكريم والأحاديث النبوية، بينما نلحظ في الأساطير المتوارثة من كلّ بقاع العالم أنّ الاله الاسطوري كان يقوم بدورة حول العالم السفلي الذي يمثل فيه الظلام الشر المطلق، ولم تكن المخيلة البشرية تبتعد كثيراً عن أرض واحدة تدور بها كلّ الصراعات. وقد ظلت الأرض هي الميدان الوحيد لاختلافات الآلهة، والبشر أيضاً، بالرغم من أنّ الكتب المقدّسة كانت تمنح الإنسان إشارات للبحث أبعد إلا أنه ظلّ أسير المرويات التي تسجنه داخل الصندوق الواحد، حتى إذا تزحزح العلم قليلاً ظهر تصور جديد للأرض بأنها مجوفة من الداخل، وأنها ليست مصمتة، وأنّ هناك مخلوقات حية تعيش داخل تلك التجويفات. وكان صاحب هذه النظرية هو الفلكي الإنجليزي البريطاني المشهور إدموند هالي فقد قال في خطاب له أمام أعضاء الجمعية الملكية البريطانية بلندن إنّ «الأرض مجوفة» hollow earth، وإنّ كلّ الأجرام السماوية مجوفة مثل تجويف الكرة الرياضية ولها نجم مضيء، وإنّ كوكب الأرض له قشرة سمكها يعادل ٤٠٠ ميل تقريباً أو أقل من ذلك، ومن ثم أرض جوفاء بجوفها أرض أخرى أصغر منها، مثل صندوق الاحجية الصينية (صندوق داخل صندوق) إلى خمس طبقات من كوكب الأرض بجوف بعضها بعضاً، وإنّ قطر الكرتين الداخليتين يعادل كلاً من كوكبي الزهرة والمرّيخ كلٌّ على حدة في حين أنّ النواة الداخلية الصلبة للأرض يعادل حجمها حجم كوكب عطارد. الاقتراح الأكثر دهشةً كان أنّ كلاً من تلك الكرات أو الكواكب التي في جوف الأرض لربما تحتوي على حياة في داخلها،

---

(١) روى الترمذي وابن ماجة واللفظ للترمذي: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ.

وعن أبي ذر الغفاري قال: دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فجلست إليه فقلت: يا رسول الله، أيما آية أنزلت عليك أفضل؟ قال: آية الكرسي، وما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة.

وتمّ تضعيف هذا الحديث إلاّ أنّ اتساع الكون كمعطى علمي يؤكد أنّ الأرض هي جرم ضئيل جداً جداً مقارنةً باتّساع الفضاء اللامتناهي.

حضارات أخرى في باطنها الذي يستمدّ حرارته وضوءه بواسطة (شمس) يبلغ قطرها ٦٠ ميلاً توجد في وسطه.(١)

هذه النظرة عن تجويف الأرض انساق لها الكثيرون، ومنهم المسلمون، ويدللون على ذلك بأدلة عديدة(٢)، ولازالت نظرية تجويف الأرض تعمل كتفسير

---

(١) وأول من تكلم عن نظرية الأرض المجوفة بشكل عام هو الفلكي الإنجليزي البريطاني المشهور إدموند هالي - مكتشف مذنب هالي- المعاصر لنيوتن، مكتشف الجاذبية الأرضية. إذ توصل إدموند هالي من دراسته للمجال المغناطيسي الأرضي والجاذبية إلى أنّ كوكب الأرض مكوّن من خمس أراضين بداخل بعضها بعضاً، كرة أرضية أصغر من كرة، وجميعها بجوف كوكب الأرض تحت أرضنا، لكلّ طبقة مجالها الجوي الخاص. - ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(٢) قال هشام بن محمد أخبرني ابن عبد الرحمن القشيري عن امرأة ضريك بن حباشة النميري قالت: خرجنا مع عمر بن الخطاب أيام خرج إلى الشام فنزلنا موضعاً يقال له القلت. قالت: فذهب زوجي شريك يستقي فوقعت دلوه في القلت فلم يقدر على أخذها لكثرة الناس، فقيل له: أخّر ذلك إلى الليل. فلما أمسى نزل إلى القلت ولم يرجع فأبطأ وأراد عمر الرحيل، فأتيته وأخبرته بمكان زوجي فأقام عليه ثلاثاً وارتحل في الرابع. وإذا شريك قد أقبل فقال له الناس: أين كنت؟ فجاء إلى عمر وفي يده ورقة تواريها الكف وتشتمل على الرجل وتواريه، فقال: يا أمير المؤمنين إني وجدت في القلت سرباً - أي نفقا - وأتاني آتٍ فأخرجني إلى أرض لا تشبه أرضكم وبساتين لا تشبه بساتين أهل الدنيا، فتناولت منه شيئاً فقال لي: ليس هذا أوان ذلك، فأخذت هذه الورقة فإذا هي ورقة تين توارى الرجل وتشتمله - هذا من كبر حجمها - فدعا عمر بن الخطاب كعب الأحبار وقال: أتجد في كتبكم أنّ رجلاً من أمتنا يدخل الجنة ثم يخرج؟ قال: نعم، وإن كان في القوم أنبأتك به. فقال: هو في القوم. فتأملهم فقال: هذا هو. فجعل شعار بني نمير خضراء إلى هذا اليوم. - (**الإصابة في تمييز الصحابة** للحافظ ابن حجر العسقلاني).

وتلعب قصة ياجوج وماجوج دوراً كبيراً في إذكاء تجويف الارض وأنّ الردم الذي قام به النبي ذو القرنين إنما هو ردم أفقي وليس رأسياً، أي أنّ ردمهم تمّ في تجويف الأرض وأدخلهم إلى أرض أخرى، أي أرض داخل أرض.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ۞ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۞ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا ۞ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۞ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۞ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ =

لوجود الأراضين السبع، ويمكن قبول هذه النظرية لو أنّ العلم قد أثبت محدودية الكون كما فهمه الأوائل، وبالتالي ليس من حل للموائمة بين الإشارات الدينية والواقع الضيق سوى تكييف ذلك الواقع بما ينسجم مع الإشارات الدينية.

وما روي عن ابن عباس يمنحنا بعداً متّسعاً أكثر من الحيّز الضيق بالأرض ذاتها[1]، أي يمكننا أن نتحرك بفرضية وجود سبع أراضين منتشرة في الفضاء الشاسع، إذ إنّ قدرة الله لا تعجزه في إيجاد حيوات متعددة في أماكن مختلفة من هذا الكون. وهذا ليس من الاستحالة، فالله خلق هذا الخلق العظيم، ومن محدودية تدبّرنا بأنّ ليس في الكون سوانا، نحن سكان هذه الأرض التي لا تساوي جناح بغوضة من ملك الله المتعالي.

فالمجال الكوني الذي تعرفنا عليه مؤخراً يشير إلى اتّساع مهول يمكن له أن تتعدد فيه الأراضين السبع في مكانٍ ما من هذا الكون المتسع، أي أنّ هناك وجوداً ما بصيغة ما لكائنات ما، وطبيعي أن يكون الخطاب القرآني موجّهاً إلينا نحن كون رسولنا ينتمي إلى الأرض التي نسكنها، بينما أشار الله عزّ وجلّ إلى وجود أراضين أخرى لها ظرفيتها الخاصة بها.

فملك الله الواسع بلا حدّ يجعل إمكانية نشوء حيوات أخرى في مواقع أخرى بالكيفية التي يريدها. ومع اتّساع هذا الكون يصبح من القصور الحكم بأنّ الله خلق كلّ هذا الخلق من أجل من يقطن أرضنا هذه فقط، فما وصل إليه علم الفلك يجعل العقل يتّسع لاستيعاب وجود حيوات لا نعلم عنها شيئاً.

والأولى بالعلماء المسلمين التحرّك نحو تحقيق ما تواتروه من معلومات دينية

= انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۞ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ - [سورة الكهف].

(1) قال ابن عباس حين سأله رجل عن قول الله: (الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن) ما هو؟ فسكت عنه ابن عباس حتى إذا وقف الناس قال له الرجل: ما يمنعك أن تجيبني؟ قال: وما يؤمنك أن لو أخبرتك أن تكفر؟ قال: فأخبرني، فأخبره. قال: سماء تحت أرض، وأرض فوق سماء، مطويات بعضها فوق بعض، يدور الأمر بينهن كما يدور بهذا الكردنا الذي عليه الغزل.

ففي هذه المروية ليس تحديد المكان بالأرض بل هي سابقة على العلم حين أخبرت بتعدد الكواكب، وما يقوله العلم الآن أنّ هناك مليارات الأجرام السماوية مقذوفة في الكون.

بقيت حبيسة الكتب، ومن اطّلع عليها تعامل معها تعامل أخبار الخرافة وسلّم بما جاء في القرآن من غير العمل على تحقيق ما جاء به أو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، وبقيت عبقرية المسلمين في انتظار إنجازات العلم لكي يقولوا: لقد جاء هذا في كتابنا المنزل!

ثمة أمور عديدة جاءت في القرآن الكريم ولازال العلماء المسلمون يتلون الآيات من غير التدّبر المفضي إلى العمل لتحقيق تلك الآيات علمياً.

١٠

أظنني لم أبرح مقولة بطل رواية الطين: للتو أعدت من الموت... لست واهماً.

وأجد أنّ فكرة العودة إلى الحياة فكرة دينية أصيلة يختلف تجسيدها في الواقع باختلاف ثقافة المجتمعات، وتظهر في الديانات بصورة حتمية من خلال يوم البعث والحساب ثم الخلود في الجنة أو النار، وهي فكرة تؤسس لحياة مخالفة لحياتنا الفانية، إلاّ أنّ العودة للحياة التي نعرفها ظهرت في العديد من القصّ الديني؛ فعلى سبيل المثال قصة النبي عزير الذي أماته الله مائة عام[1]، وقصة قتيل بني إسرائيل

(١) ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ - [البقرة: ٢٥٩].

وتشير جلّ المصادر التاريخية الإسلامية، وفي مقدمتها تاريخ الطبري والبداية والنهاية لابن كثير، أنّ من أماته الله مائة عام والوارد ذكره في سورة البقرة هو عُزير بن سروخا، وينتهي نسبه إلى نبي الله هارون بن عمران بن قاهات بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ويعدّه بعض المؤرخين نبياً، ويراه بعضهم رجلاً صالحاً مثله مثل الخضر. من معجزاته أنه حدّث وهو غلام، ولما بلغ الأربعين أعطاه الله الحكمة فكان عبداً صالحاً حكيماً، فكان مستجاب الدعوة فيدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء فيستجاب له، ولم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة فألهمه الله حفظها فسردها عليهم ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه. قيل عنه إنّ الله أمر ملكاً فنزل بمعرفة من نور فقذفها في عُزير فنسج التوراة حرفاً بحرف حتى فرغ من قصة العُزير عليه السلام، والتي ذُكرت في سورة البقرة أنه خرج ذات يوم =

= على ضيعة له يتعاهدها ثم انصرف منها حين قامت الظهيرة فأصابه الحر فدخل إلى خربه ومعه حماره وكان معه سلتين بها عنب والأخرى بها تين فأخرج قصعة فاعتصر فيها العنب ثم أخرج خبزاً يابساً فاعتصره داخل القصعة ليبتل فيأكله، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط ونظر إلى سقف البيوت ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها وقد باد أهلها، فقال: أنّى يحي هذه الله بعد موتها؟ فلم يشك أنّ الله يحييها ولكنه قالها تعجّباً، فأرسل الله ملك الموت فقبض روحه فأماته الله مائة عام، فلما أتت عليه مائة عام، وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث، فبعث الله عُزير ملكاً فخلق قلبه وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيي الله الموتى ثم ركّب خلقه وهو ينظر، ثم كسا عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح، كل ذلك وهو يرى ويعقل، فاستوى جالساً فقال له الملك: كم لبثت؟ فقال له: لبثت يوماً، وذلك لأنه قد لبث صدر النهار عند الظهيرة ثم بعث في آخر النهار والشمس لم تغب. فقال له الملك: بل لبثت مائة عام، فانظر إلى طعامك وشرابك "العنب والخبز الذي أبتله" فلم يتغيرا، وكذلك التين غض لم يتغير من حاله. فتعجب عُزير وأنكر في قلبه، فقال له الملك: أنكرت فانظر إلى حمارك، فنظر إليه وقد بليت عظامه وصارت نخره، فنادى الملك عظام الحمار فأصابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركبه وعُزير ينظر، ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً يظن القيامة قد قامت. فنزلت الآية ٢٥٩ من سورة البقرة ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فركب حماره وأتى إلى منزله فإذا بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون عاماً فقال لها: يا هذه أهذا منزل عُزير؟ قالت: نعم وبكت وقالت: ما رأيت أحداً من زمن يذكر عُزير، قد نسيه الناس. فقال لها: أنا عُزير، كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني، فقالت: سبحان الله فإن عُزير قد فقدناه منذ مائة عام فلم نسمع له ذكر. ثم قالت له: إن عُزير مستجاب له فادع الله أن يرد علي بصري حتى أراك فإن كنت عُزيراً عرفتك، فدعا ربه ثم مسح بيده على عينيها فرُدّ إليها بصرها وقال: قومي بإذن الله، فاخلق الله رجليها فقامت صحيحة فنظرت إليه فقالت: أشهد أنك عُزير، وانطلقت إلى بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم، وابن عُزير شيخ عنده مائة وثماني عشر سنة وأبناء أبنائه شيوخ في المجلس، فنادتهم فقالت: هذا عُزير قد جاءكم فكذبوها. فقالت: أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربّه فردّ لي بصري وأطلق رجلي، فنهض الناس وأقبلوا إليه فقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه، فكشفا عن كتفيه فإذا هو عُزير، فقالت بني إسرائيل: فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عُزير، وقد حرقت التوراة ولم يبقَ منها شيء إلا حفظ الرجال فاكتبها لنا. فجلس عُزير في ظل شجرة والتف حوله بنو إسرائيل فجدّد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه فتذكّر التوراة فجدّدها لبني إسرائيل، فبدأ الناس يقبلون عليه وعلى هذا الدين من جديد، وأحبوه حباً شديداً وقدّسوه للإعجاز الذي ظهر فيه، حتى وصل تقديسهم له أن قالوا عنه أنه ابن الله (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ). وسبب =

الذي اشترط عليهم النبي موسى لمعرفة قاتله شراء بقرة طال السؤال عنها حتى تمّ تخصيصها بعينها، وخذ جزءاً منها (يقال اللسان) وضرب الميت بها لينهض من الموت ويخبر بمن قتله(١).

= مقولتهم أنه ابن الله ما جاء من قول بني إسرائيل: فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال فاكتبها لنا. فكتب عزير لبني إسرائيل التوراة من حفظه، فقال بني إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب وإنّ عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب، فقالت طوائف منهم: عزير ابن الله.

ومما يراودني أنّ هذه المقولة هي التأسيس الأول لادّعاء بعض الطوائف المسيحية بأنّ عيسى عليه السلام ابن الله، وأعتقد أنّ هذه الطائفة هي امتداد للطائفة التي قالت ببنوة عزير من خلال إيمانها بعيسى ونقل فكرة البنوة من عزيز إلى عيسى.

ومن أقواله حينما يناجي ربه: «يا رب تخلق خلقاً تضلّ من تشاء وتهدي من تشاء» فقيل له: أعرض عن هذا، فعاد، فقيل له: لتعرضنّ عن هذا أو لأمحون اسمك من الأنبياء، إني لا أسأل عما أفعل وهم يُسألون، وعندما مات بعثه الله شاباً كهيئته لأنه مات وهو ابن أربعين سنة، والقرية التي مات فيها يقال لها سايراباذ، وجاء في بعض الآثار أن قبره بدمشق.

(١) يقول الله في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ - [البقرة: ٦٧-٧٣].

تشير هذه الآيات إلى حادث وقع في بني إسرائيل [كما ذكره الإمام القرطبي في تفسيره] وهو أن رجلاً كان غنياً من بني إسرائيل ولم يكن له ذرية وكان له ابن أخ فقير فطمع في ميراثه فقتله وألقى به في حيٍّ من أحياء قومه [محلة بني فلان] وادّعى قتله على بعض الأسباط [قال عكرمة: وكان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر باباً لكلّ قوم باب يدخلون منه، فوجدوا قتيلاً في سبط من الأسباط فادّعى هؤلاء على هؤلاء، فتدافعوا فيما بينهم قتله ثم أتوا موسى عليه السلام يختصمون إليه فقال: (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً) فكان جوابهم لموسى عليه السلام أن قالوا: (أتتخذنا هزواً) فكان جوابه عليهم أن استعاذ بالله أن يكون من الجاهلين، لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء وهذا قول لا يجوز أن يقال لنبي ظهرت معجزته لقومه]، وكان الواجب عليهم أن يمتثلوا للأمر ولكنهم لقلة طواعيتهم وتعنيتهم لم يمتثلوا، ولو أنهم امتثلوا =

وتتجلى فكرة العودة من الموت في معجزات سيدنا عيسى عليه السلام حيث كان يقوم بإحياء الموتى بإذن الله[1]. وحدثنا القرآن عن عودة أناس من الموت عودة جماعية[2]، كما أنّ هناك حيوانات عادت إلى الحياة مرة أخرى كمعجزة، سواء

= للأمر وذبحوا أيّ بقرة كانت لحصل المقصود، ولكنهم شدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم. وعلى عادة بني إسرائيل في اللجاجة قالوا لموسى: ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هي؟ فأجابهم بأنّ الله تعالى يقول: إنها بقرة لا كبيرة ولا صغيرة ولكنها متوسطة بين الأمرين. وحدّد لهم الأمر ونبّههم إلى ترك التعنت، وكما هو الشأن في بني إسرائيل أعادوا السؤال قائلين: ادعُ لنا ربك يبين لنا ما لونها؟ فأجابهم بأنّ الله تعالى يقول لهم: إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين؛ إنها بقرة لونها أصفر شديد الصفرة حين يراها الناظرون تدخل عليهم مسرة في نفوسهم لشدة ملاءمتها لمن يراها. فلما سألوا موسى بعد ذلك عن تحديد ماهية تلك البقرة لاشتباه كثيرٍ من البقر في تلك الأوصاف، أجابهم موسى عليه السلام بأنّ الله تعالى يقول: إنها بقرة لم يذللها العمل لأنها بقرة وحشية، فلا هي مذللة ولا هي مدرّبة على حرث الأرض أو سقي الزرع، وهي خالصة اللون لا تشوبها في لونها علامة. فأجابوه قائلين: الآن جئت بالحق، فكأنّ الذي قاله من قبل لم يكن حقّاً ولم يستيقنوه إلا الآن. ولم يجدوا هذه الصفات في بقرة من البقر إلاّ في بقرة واحدة لولد من بني إسرائيل كان ابناً لرجل صالح منهم وكان يعمل حطّاباً، فولد له ولد وكانت له عجلة فأرسلها في غيضه في الجبل وقال: اللهم إني أستودعك هذه العجلة لهذا الصبي. ومات الرجل وابنه صغير، فلما كبر الصبي قالت له أمه وكان باراً بها: إنّ أباك استودع الله عجلةً لك فاذهب وخذها، فذهب، فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها، وكانت مستوحشة فأخذ يقودها نحو أمه، فلقيه بنو إسرائيل ووجدوا البقرة التي على الصفة التي أمروا بذبحها، فساموه فاشتط عليهم وكانت قيمتها ثلاثة دنانير، فأتوا به موسى عليه السلام فقالوا: إنّ هذا اشتط علينا، فقال لهم: أرضُوه في ملكه، فاشتروها منه بوزنها عشر مرات ذهب، وقيل: بملء جلدها دنانير. فأخذوها وذبحوها وأخذوا لسانها وضربوا به القتيل فأحياه الله وأخبر عمّن قتله، فقيد منه وحاق به فكره السجاء، ولم ينل من دينه ولا من ميراثه شيئاً. وإلى هنا نقف لنأخذ العبر من القصة.

(١) يقول الله عزّ وجلّ: ﴿..وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ - [آل عمران: ٤٩].

(٢) (ألم تَرَ إلى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيارِهِم وَهُم أُلُوفٌ حَذَرَ المَوتِ فَقَالَ لَهُم اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أحيَاهُم إنَّ اللهَ لَذُو فَضلٍ على النَّاسِ وَلَكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرُونَ) - [البقرة: ٢٤٣].

وذكر الموت الجماعي ثم العودة في قصة موسى مع بني اسرائيل حين قالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم، وفي ذلك يقول الله =

بموتها الطبيعي كحمار النبي عزير أو بالذبح كما فعل سيدنا إبراهيم عليه السلام بذبح أربعة من الطير ونثر لحمها على الجبال ثم طلبهم فعادوا كما كانوا قبل الذبح[1].
كما أنّ هناك مكوثاً أشبه بالموت ثم العودة إلى الحياة كما حدث لأهل الكهف.

وانتقلت تيمة العودة إلى الحياة عبر المرويات والحكايات حتى دخلت حيز الإيمان فتبنّاها الفراعنة، ولهذا نجد أنّ ملوكهم عمدوا إلى دفن كنوزهم معهم حتى إذا عادوا إلى الحياة الدنيا وجدوا أموالهم ومتاعهم معهم.

كما أنّ الأسطورة احتفلت بالعودة من الموت بتفريعات مختلفة كما حدث مع آتوم[2].

وتمّ تناسخ فكرة العودة إلى أن وصلت إلى الشيعة، حيث يؤمن الشيعة الإمامية بالرجعة، وهي نظرة خاصة بهم دون الفرق الإسلامية الأخرى.[3]

= تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۞ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ - [البقرة: ٥٥-٥٦].

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ - [البقرة: ٢٦٠].

(٢) آتوم إله فرعوني، وكان الثور حيوانه المقدس مينوس وأصبح في الميثولجيا اليونانية أدونيس، الإله الجميل الذي عشقته أفروديت، وقتله الخنزير المتوحش عندما كان يصطاد في الجبل، ومن دمه المهدور انتشرت شقائق النعمان أو زهرة الريح. وكان أدونيس يقضي نصف السنة على الأرض ونصفها الأخر في العالم الآخر. فهذه القصة عن الإله الممزّق أدونيس وبعثه يرمز إلى الموت الموسمي وعودة الاخضرار. وتظهر تنويعاتها في كلّ مكان من غرب آسيا والبحر الأبيض حتى أوروبا. وأغلب الأساطير الشرقية القديمة عن أدونيس هي التنوعات السورية الفينيقية التي تتبدى ميرها أو سميرنا ابنة الملك ثياس ملك أشور التي دبّرت وسيلة سحرية فأخذت شراب الساحر العجوز ثم سحرت نفسها إلى شجرة مرّ، ثم من جذع شجرة المرّ ولد أدونيس. والمؤمنون به يعتقدون أنّ أدونيس يُقتل في كلّ عام بواسطة حلوف الجبل ويذهب إلى العالم الآخر. - شوقي عبد الحكيم: موسوعة الفلوكلور والأساطير.

(٣) وهم يرون أنه لا يترتب على الاعتقاد بالرجعة إنكار أيّ حكم ضروري من أحكام الإسلام، وليس ثمة تضاد بين هذا الاعتقاد وبين أصول الإسلام.
كما يؤكد الشيعة على الرجعة، وهي رجعة خاصة بدلالة قوله تعالى: (ويومَ نَحشُرُ مِن كُلّ أُمةٍ فوجاً) وقوله تعالى: (وحرامٌ على قريةٍ أهلكنَاها أنهُم لا يرجِعُونَ) ويستفاد من مجموع الأخبار المستفيضة من طرق الإمامية أنّ الراجعين صنفان من المؤمنين والكافرين، فقد روي عن =

ومع التطور العلمي لم يغادر الإنسان فكرة العودة إلى الحياة الدنيا فها هي مجموعة من العلماء والباحثين الأميركيين يعتبرون أنّ الموت مجرد «مشكلة هندسية طارئة» من الممكن التوصّل مستقبلاً إلى حلّ لها، وبالتالي إعادة الجثمان إلى الحياة. العلماء والباحثون التابعون لـ«مؤسسة الكور لإطالة الحياة» يمسكون بزمام الريادة في مجال علم الـ«كريونيكس»، وهو علم يختصّ بحفظ الجثامين البشرية في درجات حرارة فائقة البرودة على أمل أن يتوصّل الطب في المستقبل إلى طريقة لإعادتها إلى الحياة بشكل طبيعي.

وفي مقابل دفع ٨٠٠ دولار كرسوم سنوية يتولى مسؤولو مؤسسة «الكور» حفظ الجثمان بطريقة الـ«كريونيكس» وهي الرسوم التي تشتمل أيضاً على حفظ مجموعة من متعلقات صاحب الجثمان الشخصية كي تتم إعادتها إليه إذا عاد إلى الحياة في المستقبل على أمل أن تساعده على أن يتذكّر ماضيه. وتستوعب كلّ أسطوانة تخزين ٤ جثامين.

ويتعيّن على من يرغب في حفظ جثمانه كاملاً أن يستخرج وثيقة تأمين بقيمة ٢٠٠ ألف دولار أميركي، بينما يتعين على من يرغب في حفظ رأسه فقط أن يستخرج وثيقة تأمين بقيمة ٧٥ ألف دولار.

ويبدأ الأمر بخطوات إجرائية علمية تبدأ بحقن جسم الشخص الميت بمادة مضادة للتجمّد بمجرّد أن تشير الأجهزة إلى أنه قد فارق الحياة، والهدف من الحقن بتلك المادة هو أن تصل سريعاً إلى كل خلية من خلايا الجسم عن طريق الدورة الدموية. ويقول العلماء إنّ عملية الحقن تلك تضمن عدم تجمد سوائل الجسم وتسمح تالياً بتبريد الجثمان مع استمرار سيولة الدم وغيره من السوائل الحيوية التي تفسد عادةً إذا تحولت إلى بلورات متجمدة.

وعقب عملية الحقن بالمحلول المضاد للتجمد، يتم وضع الجثمان في نيتروجين سائل في داخل حاوية أسطوانية مخصصة لذلك الغرض، وهي الحاوية التي يبقى الجسم محفوظاً فيها عند ١٩٦ درجة مئوية تحت الصفر.

= الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنَّ الرجعة ليست بعامة، وهي خاصة، لا يرجع إلاّ من محض الإيمان محضاً أو محض الشرك محضاً» أما سوى هذين الصنفين فلا رجوع لهم إلى يوم المآب. - الرجعة أو العودة إلى الحياة الدنيا بعد الموت، مركز الرسالة.

الرئيس التنفيذي لمؤسسة «الكور» ماكس مور يؤكد على أنّ هذا الأمر ممكن تحقيقه على أرض الواقع في المستقبل، منوّهاً إلى أنّ علم الـ«كريونيكس» يسير في طريقه حالياً نحو اكتساب شرعية ومصداقية في نظر شريحة لا بأس بها من العلماء.

وأشار مور إلى أنّ أعضاء فريقه ينسّقون مع مسؤولي المستشفيات ومع المرضى الراقدين على فراش الموت، وذلك بهدف الحصول على موافقة أولئك المرضى كي يتم حقن أجسامهم بالمحاليل المضادة للتجميد فور وفاتهم تمهيداً لتخزين الجثامين في النيتروجين السائل.

وتعليقاً على ذلك قال الدكتور مارك موريسون الذي يشغل منصب الرئيس التنفيذي لمعهد تكنولوجيا النانو في مدينة غلاسغو الاسكتلندية: «أستطيع أن أتفهّم أنه سيكون لعلم الكريونيكس تأثير كبير على أبحاث الخلايا الجذعية وعلى الأبحاث المتعلقة بوظائف أعضاء الجسم، لكنني أعتقد أنّ مسألة إعادة الوظائف والحياة إلى أعضاء معينة - كالمخ مثلاً - ستحتاج إلى وقت طويل جداً قبل أن تصبح ممكنة»[1]

إذاً، العودة من الموت ليست مسألة غير ممكنة في جانبها الديني حيث تأكّد من حدوثها كإيمان مطلق عند المؤمنين في الديانات السماوية المتأخرة، فقد نصّت الكتب المقدسة على حدوثها، وهي نظرية علمية مازالت في طور التشكّل يؤكّد العلماء إمكانية حدوثها مع توفر الظروف الملائمة.

وبينما كنت أتهيّأ لإنهاء مقدمة هذا الكتاب اطّلعت على برنامج بثّته قناة mbc كمفاجأة لجمهورها حين جلس طلال مدّاح - رحمه الله - على المسرح يغنّي أغنية (يا سارية خبّريني) وكان حاضراً فعلاً بواسطة تقنية متقدّمة تسمى الهولوغرافي[2]، حيث يتم إحضار شخص وتُسلّط عليه أشعة الليزر فتتحوّل صورته إلى الشخص الغائب أو الميت!

وهناك أفعال يقدم عليها العلم والعلماء لا تبتعد كثيراً عمّا كانت تفعله الأسطورة كأداة كشف لما مضى، إذ كانت تمثل جوهر العلم في زمنها، بينما العلم

---

(١) صحيفة الرأي الكويتية ٢٨ اغسطس ٢٠١٢.

(٢) الهولوغرافي (Holography): أو ما يسمى الذواكر الهولوغرافية تمتلك خاصية فريدة تمكّنها من إعادة تكوين صور الأجسام بأبعادها الثلاثة، تتم تلك العملية باستخدام أشعة الليزر. - يوكيبيديا الموسوعة الحرة.

الآن يمثّل دور المنشيء للأساطير حينما يخبرنا بأمور ستحدث مستقبلاً ولا نستطيع تخيّلها أو استيعابها.

ومع ذلك فإنّ الأسطورة تظل حاضرة، فإذا قلنا إنه لا ينبغي نكون أسرى الماضي، فإذا بالماضي هو المستقبل من خلال الأساطير التي وردت في الكتب المقدسة، وخاصةً القرآن حين يورد أنّ نهاية العالم ستكون إشارتها دابة تخرج من مكة لتدفع الناس إلى المحشر.

١١

إنّ أول مفردة أنزلها الله عزّ وجلّ على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبصيغة الأمر هي كلمة «اقرأ»[١]، ولم تأتِ مفردة غيرها كصلِّ أو صُم أو جاهد. لماذا كانت هي الكلمة الأولى التي يسمعها رسولنا الكريم؟ ولماذا تأتي كلمة «اقرأ» في مجتمع عُرف أنه أمّيّ لا يقرأ؟

كان من الأولى أن تاتي كلمة «وحّد»، فالتوحيد هو الغاية من نزول كلّ الأنبياء.

حدث ذلك لأنّ القراءة مفتاح للوصول إلى التوحيد والإيمان والانقياد، فإن كان الانقياد للرسول صلى الله عليه وسلم في زمنه انقياداً عاطفياً أو وقوفاً على معجزاته، فإنّ العصور اللاحقة ستقرأ ما أُنزل إليه وتُخضعه للعقل، والعقل بحاجه إلى إبهار وإقناع يقوده إلى الإيمان.

وجلّ الآيات القرآنية تقدّر العلم والعلماء وتؤكّد أنّ من يمتلك العلم والمعرفة يخشى[٢]، والخشية ليس بمعنى الخوف ولكن بمعنى الاستسلام والإيمان بما يصل إليه من حقائق أخبر بها الرسول الأمّيّ الذي نزل عليه كتابٌ يذكر علوماً لم تكن معروفة بتاتاً في زمنه ومحيطه.

ونجد بذرة الإهمال المريع في تدبّر القرآن قد ظهرت مبكراً جداً وذلك من

---

(١) قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ - [اقرأ: ١-٥].

(٢) يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ - [فاطر: ٢٨].

خلال الهجران[1]، والهجران له صور عدة، فمن صوره حفظ ما قيل لك مع عدم العمل به، أو حفظك ما قيل لك من غير دراية بفحوى ومغازي ما تحفظ، بينما شاع لدينا أنّ الهجران هو عدم قراءة القرآن (وهي القراءة السطحية التي تركض فيها العين على الحروف من غير تدبّر، وهي شبيهة بالحفظ عن ظهر قلب من غير تدبّر) وأيضاً اقتصرت قراءة القرآن على استنباط الأحكام الشرعية أو سرد وإعادة ما حدث للأنبياء سرداً قصصياً من غير الوقوف على ما تحمله من علوم، أما الآيات التي تشير إلى بقية العلوم فقد ظلّت تردّد خلال مئات السنوات (ومازال الترديد مستمراً) من غير أن نجد أنّ مسلماً قد توصّل إلى نظرية علمية من خلال قراءة القرآن، وقد يكون السبب في ذلك أنّ مصطلح العلماء عند المسلمين تمّ قصره على علماء الشريعة، وهو الخطأ الذي مازلنا نسير به، إذ أنّ كلّ علم له علماؤه، وخشية العلماء تأتي من معرفة أسرار الكون الموصلة إلى الإيمان الكامل بالله عزّ وجلّ، والعلوم ليست مقتصرة على علم واحد.

وقد أدّى ذلك القصر (في وقتٍ سابق، وخاصةً في فترةٍ ما عُرفت بالصحوة) إلى تناسل الطلاب من الكليات العلمية التطبيقية للالتحاق بكليات الشريعة وتكديس وتعطيل مجاميع من العقول الفاعلة والنشطة وتحويلها إلى ألات تسجيل تحفظ وتقول.

هذا السلوك يؤكد أنّ العقلية العربية عقلية حافظة حتى في نقل خبراتها ومواقفها، فما يحدث الآن هو نقل لتجارب مبكرة وقفت ضد العلم والعلماء (والعلماء هنا من هم خارج تصنيف علماء الشريعة) إذ كان يُجرَّم من يشتغل بالكيمياء أو الفيزياء أو علوم الفلك، فخلقت تلك المواقف أجيالاً من الحفظة الذين إذا قرأوا حفظوا.

وهي معضلة تتكرر في مواقع كثيرة جعلت القرآن مهجوراً تزوره الألسن يومياً ولا تخرج منه بفائدة علمية تحقّق مضمون «خير امة اخرجت للناس». ونجد ذلك أيضاً في ما خلّفه المؤرخون العرب ذخائر مهولة من الحكايات والأساطير، وظلت تلك الثروة المهولة متمسكةً بحبرها ولم يصاحبها من البحث الأرخيولوجي الآثاري

---

(١) ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ - [الفرقان: ٣٠].

شيء[1]، فقُبرت بين دفّات الكتب، وإن خرجت فهي تخرج للمسامرة أو للعظة، حتى أنّ هذا شمل كلّ ما جاء في القرآن الكريم من آيات تحمل شيفرات فكّ مغاليق الكون.

وظلت الأساطير الواردة في تلك الكتب مجرد حكايات تروى، فإن كانت دينية وقف أمامها وقوف الراضخ المستسلم الذي اكتفى بالمعلومة ولم يسعَ إلى تطبيقها، وإن لم تكن دينية استهلكها للتسلية أو لخلق الدهشة حين يرويها لمن لا يعرف.

هذه الشائبة التي اتّسم بها المؤرخون الاوائل ومن تلاهم من المؤرّخين والقرّاء جينة ثقافية عربية محض، فمن طبيعة المجتمعات الأمية الترديد والحفظ، مع أنّ الرسالة السماوية التي نزلت على رسولهم كانت تحثّ على القراءة بكلمة «اقرأ» وتؤكّد على أهمية الكتابة من خلال ذكر أداتها ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

مع أنّ هناك توجيه صريح بتكفّل الله عزّ وجلّ بحفظ القرآن[2]، وقد سبقه أمر إلهي بعدم الترديد[3] المفضي إلى الحفظ، ويظهر لي أنّ الأمر كان دفعاً إلى القراءة. وميزة القراءة أنها تقودك إلى التحليل، والتحليل يعني التدبّر، وهو المطلب الذي انساقت إليه كثير من الآيات القرآنية، وإن كان التوجيه لتدبّر فهذا يعني الثقة الكاملة بأنّ ما أُنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم يقبل دخول كلّ العقول السابقة واللاحقة إلى تحليل وتدبّر ما جاء في القرآن، ولا يقدم قائل قول على دفع الناس لتفنيد قوله إلا واثق، وهي الشهادة بأنّ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو

---

(١) وما يعزّز هذا الغياب في مجال الأركيولوجيا والأسطورة هو حالة الثقافة العربية الإسلامية التي تنظر إلى الأسطورة باعتبارها خرافات وأساطير الأولين التي جبّها الإسلام منذ البدء، كذلك غياب الأبحاث الآركيولوجية عن معظم البلاد العربية باستثناء العراق، خاصةً وأنّ الأساطير هي من نتاج هذه الحفريات، فقد اكتشفت الرُّقُم الطينية مع بداية هذه الحفريات وتمّ فكّ رموزها لاحقاً- (تركي علي الربيعو: مضمون الأسطورة في خطابنا المعاصر، الأسطورة والأيديولوجيا: فراس السواح نموذجاً).

(٢) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ - [الحجر: ٩].

(٣) يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ - [القيامة: ١٧-١٩].
ويقول عزّ من قائل: (وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) - [طه: ١١٤].

الحق، فالحقّ أبلج ولا يُثبت انبلاجه إلاّ المداومة على تحليله وتمحيصه، وهذا ما أراده الله عزّ وجل.

وقد عبرتنا حكايات من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تدلّل على أهمية التعليم والعلم، وأول لبنة لإنشاء تلك المدرسة ما حدث عقب غزوة بدر، فالأسرى الذين لا يجدون فديةً يفتدون بها أنفسهم (ويجيدون الكتابة والقراءة) كان شرط عتق أسرهم أن يقوم كلّ فرد منهم بتعليم عشرة من المسلمين. . . والتعليم هنا ليس الحفظ، فلو كان حفظاً فهذا يقتضي أن يقوم الأسرى بقراءة القرآن وترديده على مسامع المسلمين، ولم تأتِ السيرة على ذكر هذه الطريقة، بل كان تعليماً حرفياً. ثم هناك الكثير من الأحاديث الحاثّة على العلم والتعلم(١)، وقبل ذلك جاء القرآن ممجِّداً العلم ومطالباً ذوي الألباب بالتبصّر والتدبّر، وكلّ هذا لا يتأتّى بالحفظ وإنما من خلال القراءة والكتابة، وليس بمفهوم أن تقرأ ما سُطِّر بل بمفهوم الباحث والمحلل والمستنتج والمطبِّق.

ولم يأتِ أمر القراءة عبثاً، فأمّة أميّة عليها دخول مضمار العلم بواسطة القراءة، خاصةً وأنّ الإنسان أعلن عن نضجه ومقدرته على الدخول في تحدٍّ من أجل بناء

---

(١) عَنْ مُعاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ قال: قالَ رسول اللهِ صلى اللهُ عليْه وسلَمَ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرَاً يُفَقِّهْهُ في الدِّيْن» - [متفق عليه].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ قالَ: قالَ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليْه وسَلّمَ: «إذَا مَاتَ ابنُ آدَمَ انقَطَعَ عمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثٍ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أووَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» - [رواه مسلم].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ الله قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليْه وسَلّمَ يَقُول: «مَنْ خَرَجَ في طَلَبِ العِلْمِ فهو في سَبِيْلِ اللهِ يَرْجِعَ» - [رواه الترمذي].

وعَن أبي أُمَامَةَ رضيَ اللهُ عنهَ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليْه وسلمَ قالَ: «فَضْلُ العَالِمِ على العَابِدِ كَفَضْلِي على أدْنَاكُمْ».

وعَن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ يَقُولُ: «مَن سَلَكَ طَرِيْقَاً يَبْتَغِي فِيْهِ عِلْمَاً سَهَّلَ اللهُ لهُ طَرِيْقَاً إلى الجَنَّة وإنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضَاً بِما يَصْنَعُ وَ إنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغفِرُ لَهُ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ حَتَّى الحِيْتَانُ في المَاءِ وفَضْلُ العَالِمِ عَلى العَابِدِ كَفَضلِ القَمَرِ على سَائِرِ الكَوَاكِبِ وإنَّ العُلَماءِ وَرَثَةُ الأنبِيَاءِ وإنَّ الأنبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِيْناراً ولا دِرْهَمَاً وَ إنَّما وَرَّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍ وَافِرٍ» - [رواه أبو داود والترمذي].

حضارية إنسانية ناضجة قبل ظهور الإسلام، وقد تحقّق ذلك لأول مرة في تاريخ الإنسان بانتقال وادي الرافدين ووادي النيل من عصور ماقبل التاريخ، في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، إلى حياة التحضّر والمدينة بمختلف عناصر الحضارة الأساسية المميّزة، كظهور المدن وأنظمة الحكم والكتابة والتدوين والقوانين المنظمة للحياة الاجتماعية والفنون المختلفة والآداب والممارسات الدينية ومؤسساتها العامة كالمعابد والكهنة، وأسس العلوم والمعارف والممارسات التقنية وأجهزة الري والزراعة وبداية السيطرة على البيئة وتسخير إمكانياتها.(١)

قد تكون هناك أسباب عديدة انحرفت بأمّة القرآن عن جادّة التدبّر وظلّ الداء متفشياً من غير علاج أو المطالبة بالعلاج لهذا العجز العلمي الذي تعيشه الأمة.

وطبيعة العقل العربي في زمن التنزيل - كما يرى الدكتور محمد شحرور - اتّسم بالأميّة والعقلية التشخيصية واستفحال النظرة السكونية إلى التاريخ عند العربي الذي صنع تاريخه دون إدرك حركة التاريخ وتطوره. وعدم إدراك حركة التاريخ وتطوره هي التي أفضت الى السكونية وتمجيد الذات من خلال مكتسبات وقتية لم تمكن من مواصلة النمو الحضاري الذي جاء به الإسلام (وقد جاء به نصّاً من خلال القرآن الذي لم تُفتح أقفال أسراره).

بقيت نزعة التمجيد الذاتي (تذكّيها التشخيصية) غطاءً عن ما ماجت به حضارات الأمم وما أنتجته، وكان أولى برجال هذه الأمة الأوائل التنبّه إلى قصص الأنبياء التي وردت في القرآن إذ أنها تحمل حضارة دين سابق، إلاّ أنّ الأميّة الثقافية التي عاشوها غيّبت الجانب الحضاري لأمم الأنبياء السابقين وأبقت التركيز على كفريات ومعاصي تلك الأمم من غير معرفة منتجهم الحضاري «وأدّت طبيعة الحياة القبلية والبدوية إلى خلق حالتي الثبات والسكون والانشغال بالتفصيلات الجزئية نتيجة بطء حركية واقعه المحدود وانغلاقه على حدود نسقه الثقافي، فلم يتمكن العقل العربي المحدود من أن يدرك معاني التطور والترقّي في سيرورتها الحضارية، مما أثّر على طريقته ومنهجيته في التعامل مع التنزيل... ولذلك فإنّ منظومته التفسيرية للكون ولحركية التاريخ وحراك المجتمع لم تدرك أثر التراكم الحضاري الممتد والعابر للثقافات على

(١) طه باقر: ملحمة كلكامش.

تجربته الذاتية»[1]. وقد تنبّه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لهذه الفجوة الحضارية (على المستوى المادي) فقام بوضع تاريخ للأمة ونظّم الشأن الإداري والعسكري والسياسي، فدوّن الدواوين واتّخذ بيتاً للمال وأنشأ المدن (تمصير الأمصار)، وعقد مؤتمرات سنوية باجتماعه بولاته في كلّ موسم حجّ، ومهّد الطرق، وأقام المعسكرات وأمر بالتجنيد وحرس الحدود، ووضع نظاماً للحكم من خلال الشورى، وأسّس عشرات التنظيمات المستلهمة من حضارات سبقت تواجد الحضارة الإسلامية... كلها أفعال كانت تشير إلى أهمية الانفتاح الحضاري على الآخر. لكنّ ذلك الانفتاح اقتصر في البدء على شؤون الدولة، ومع الأيام حدث الخلط بين ما هو سياسي ويحقق الاستقرار وما هو ديني يثبت الانعزال وعدم الاندماج في الآخر مما جعل عملية التأثر والتأثير محدودة للغاية.

لقد أهملنا القرآن بالحفظ، وكان حريّاً بنا إحياء عقولنا بما جاء به من آيات بواسطة التدبّر والتمعّن والتنقيب في أسرار الكون. فالمسلم يؤمن إيماناً مطلقاً أنّ القرآن كلام الله، وكلام الله هادٍ، هادٍ بفتح مغاليق الكون من خلال الإشارات المتناثرة في آياته، فلماذا لم يتبع تلك الإشارات كي يصل إلى أسرارها الممنوحة له؟

لقد انغمس الأوائل (ذوي الأصول العربية) في علم البيان متخلّين عن أدوات البرهان التي تمثّل العلم في أنساقه المختلفة، ولهذا حدث تراكمٌ كمّي مهول من علوم البيان مع نبذ الفلسفة والعلوم التطبيقية وتجريم من يعمل بها، فتأخّرت الحضارة الإسلامية في منجزاتها العلمية تأخّراً أضرّ بها كثيراً وأفقدها ميزة أن تكون حضارة برهان أكثر من أن تكون حضارة بيان.

١٢

مع نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم مضت الدعوة سرّاً لثلاثة أعوام إلى أن جاء الأمر الإلهي بالصدع[2] فبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بعشيرته

---

(١) الدكتور محمد شحرور: القصص القراني - قراءة معاصرة، المجلد الأول: مدخل إلى القصص وقصة آدم.

(٢) ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ - [الحجر: ٩٤].

الأقربين[١] حيث صعد الصفا[٢] وهتف: يا صباحاه![٣] وبعد هذا بدات المواجهة العلنية بين الإسلام والمشركين. وكانت مواجهة أهل مكة للرسول بالإيذاء وإلصاق

---

(١) قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۞ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ - [الشعراء: ٢١٤-٢١٥].

(٢) الصفا أكمة صخرية تقع بوادي إبراهيم من الجهة الجنوبية تُجمع جميع كتب التاريخ الإسلامي أنّ السيدة هاجر قامت بصعودها والهبوط منها إلى أكمة مقابلة هي «المروة» وسعت بينهما سبع مرات. وقد تحولت الأكمتان إلى مكانٍ للسعي بعد أن دخلت في الشعائر لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ - البقرة: ١٥٨].

(٣) قال ابن عباس: لمّا نزلت (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) [الشعراء: ٢١٤] خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصعد على الصفا فهتف: يا صباحاه! فاجتمعوا إليه فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف! فاجتمعوا إليه. فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج بسفح الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك كذباً. قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبًا لك! أما جمعتنا إلاّ لهذا؟ ثم قام. فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١].

وقال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم: لمّا أنزل الله على رسوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ اشتدّ ذلك عليه وضاق به ذرعاً فجلس في بيته كالمريض فأتته عمّاته يعدنه، فقال: ما اشتكيت شيئاً ولكنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين. فقلن له: فادعهم ولا تدعُ أبا لهب فيهم فإنه غير مجيبك. فدعاهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً، فبادره أبو لهب وقال: هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة واعلم أنه ليس لقومك في العرب قاطبةً طاقة، وأن أحقّ من أخذك فحبسك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدّهم العرب، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشرٍّ مما جئتهم به. فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يتكلم في ذلك المجلس، ثم دعاهم ثانيةً وقال: الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكّل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم قال: إنّ الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثنّ كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبداً والنار أبداً. فقال أبو طالب: ما أحبّ إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشدّ تصديقنا لحديثك وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به فوالله لا أزال، فقال أبو لهب: هذه والله السوأة! خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم. فقال أبو طالب: والله لنمنعنّه ما بقينا. - (ابن الأثير: الكامل في التاريخ).

التهم به شخصياً، فقيل: شاعر، وقيل: مجنون، وقيل: ساحر. ومع توالي نزول أيات القرآن احتاروا حيال ما يُقال، وقد وصف الوليد بن المغيرة القرآن وصفاً بليغاً[(١)]. وبعد أن استوطنتهم الحيرة حيال الآيات التي تخاطب عقولهم ووجدانهم وتذكر لهم ما حدث للأمم السابقة لم يجدوا ما يقولونه للرسول صلى الله عليه وسلم عن تلك الآيات إلاّ أنها (أساطير الأولين)، وقد وردت بهذه الصياغة في تسع مواضع[(٢)] وفي جميع تلك الآيات لم تعنِ الأساطير الأباطيل أو الكذب، بل جنحت

---

(١) وعن ابن عباس قال: إنّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: اقرأ علي، فقرأ عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى...﴾ فقال: أعد، فأعاد. فقال: والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطّم ما تحته، وما يقول هذا بشر.

(٢) والآيات التسع التي وردت فيها كلمة أساطير مقترنةً بمفردة الأولين هي:

١-قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾- [الأنعام: ٢٥].

٢- قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ - [الأنفال: ٣١-٣٢].

٣- قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ ۞ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ - [المؤمنون: ٨١-٨٣].

٤- قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ - [النحل: ٢٤].

٥- قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً ۞ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ - [الفرقان: ٤-٦].

٦- قال تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمِينَ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۞ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ - [النمل: ٦٦-٦٨].

٧- قال تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۞ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ - [القلم: ١٤-١٥].

٨- قال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ - [الأحقاف: ١٧]. =

كلّ المعاني (في الآيات) إلى الدلالة اللغوية عند العرب، إذ إنّ سطر هو السطر، والسطر الصفّ من الكتاب والشجر والنخل ونحوها. وقال الزجّاج في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1]: «خبر لابتداء محذوف المعنى». وقالوا: الذي جاء به أساطير الأولين معناه سطّره الأولون، وواحد الأساطير أسطورة، كما قالوا: أحدوثة وأحاديث، وسطر بسطر إذا كُتب. قال الله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي وما تكتب الملائكة. وسَطر الكتاب يسطره سطراً، وسطره واستطره. وفي التنزيل: وكلّ صغير وكبير مستطر، وسطر يسطر سطراً كتب، واستطر مثله. قال أبو سعيد الضرير: «سمعت أعرابياً فصيحاً يقول: أسطر فلان اسمي، أي تجاوز السطر الذي فيه اسمي، فإذا كتبه قيل: سطره»[2]

ولو اقتفينا أثر تعريفات الأسطورة سنجد عشرات التعريفات، إلاّ أنّ أقرب تعريف ترسّخ في ذهنيّة الناس هو أنّ الأسطورة حاويةِ لكلّ شيء يناقض الواقع أو ليس له في الواقع وجود.

وقد تمّ ترسيخ هذا المفهوم في الأذهان من خلال الدراسات الغربية التي أحيت هذا الجانب وأبحرت فيه (الراجح أنّ هذا التفسير جاء من اجتهاد المترجمين في أوائل النهضة عندما جعلوا الأسطورة ترجمة لكلمة "Myth" التي كانت تعني «ما يناقض الواقع»).

= ٩- قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۞ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۞ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُالأَوَّلِينَ﴾ - [المطففين: ١٠-١٣].

(١) ثمة مقولات عديدة حول مفردة الأسطورة إذ تتقاسم هذه المفردة التعريفات بين كونها ما سطره الأوائل وبين كونها تشير إلى أكاذيب. ففي صحيح البخاري يرى أنها تعني الترهات، والبيضاوي يعدها من الأكاذيب، وفي كتاب فتح القدير وردت على أنها من الأباطيل والترهات والكذب، أما القرطبي فيدخلها في الأقاويل التي تكتب، وأبي السعود ينسبها إلى ما سطره الأوائل من خرافات.

وفي مجمل هذه الآراء التي تصم الأساطير بالأباطيل لم يلتفت هؤلاء العلماء إلى أنّ القرآن لم يصم تلك الأساطير بأنها كذب أو خرافات بل جاءت على لسان مشركي قريش كمواجهة وردّ على الآيات التي ذكرت أخبار الأنبياء السابقين ومعجزاتهم، فإذا كانت تلك المعجزات كذباً من وجهة نظر المشركين فهي حقيقة وواقع تثبتها الآيات القرآنية.

(٢) ابن منظور: لسان العرب.

ولو تتبعنا مفردة الأساطير في القرآن فهي لا تأتي بمعنى الأباطيل أو الأكاذيب، بل استُخدمت من قبل كفّار قريش بمعنى أنّ ما تقوله يا محمد استقيته من كتب الأولين[1]، ولهذا نجد الأساطير متلازمة مع ما سطر من أخبار الاولين.

كما نلحظ أنّ القصّ القرآني مجّد كثيراً من الأفعال المؤسطرة وأثبتها كحدث حقيقي وقع فعلاً لا كأباطيل يمكن التشكيك فيها، مثل عصا موسى وموت عزير وما فعله عيسى حين (يخلق من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله)[2] وإحياء طيور ابراهيم بعد ذبحها وتوزيعها على قمم الجبال[3] ونزول المائدة من السماء[4] أو أن يكلّم سليمان عليه السلام الطيور ويسمع كلام الحشرات (النملة) أو يأمر الجن فتطيعه، وإن كانت قد جاءت كلّ هذه الأفعال كمعجزات للأنبياء عليهم السلام، إلا أنّ هناك وجوداً أسطورياً مستقبلياً سوف يقف عليه أناسٌ يعيشون في زمنه، كالدابّة التي تخرج من مكة المكرمة أو ظهور المسيخ الدجال وما يقوم به من أفاعيل (تدخل ضمن الخوارق) أو النار التي تخرج من عدن.

والمعجزات التي حدثت للأنبياء عليهم السلام تستقبلها الذهنية غير المؤمنة بالرفض والتهكّم واستحالة وقوعها، ومن هنا يطلق عليها أباطيل، بينما العقلية المؤمنة تؤمن بحدوثها حتى وإن عجز عقلها عن استيعابها، ومن هنا يتباين الموقف

---

(١) قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً ۞ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ - [الفرقان: ٤-٦].

(٢) قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتوراةَ وَالإِنجِيلَ ۞ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسرائيلَ أني قَد جِئتُكُم بِآيَةٍ من ربكُم أَنِي أَخلُقُ لَكُم منَ الطينِ كَهَيئَةِ الطيرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيرًا بِإِذنِ اللهِ وَأُبرِئُ الأَكمَهَ والأَبرَصَ وَأُحيِ المَوتَى بِإِذنِ اللهِ وَأُنَبئُكُم بِمَا تَأكُلُونَ وَمَا تَدخِرُونَ فِى بُيُوتِكُم إِن فِي ذٰلِكَ لآيَةً لكُم إِن كُنتُم مؤمِنِينَ﴾ - [آل عمران: ٤٨-٤٩].

(٣) يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ - [البقرة: ٢٦٠].

(٤) قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ - [المائدة: ١١٤].

من الخوارق التي تحدّث عنها القرآن في كثيرٍ من المواقع.

وحين يذكر القرآن أفعالاً تبدو للوهلة الأولى غير ممكنة ويؤكّد على وقوعها، فهذا يعني أنّ الفعل الأسطوري سيتكرر - بصورة أو أخرى - في زمنٍ آخر وبإذن الله عزّ وجلّ. ولم ترد كلّ الأفعال التي حدثت في زمن الأنبياء عليهم السلام كمعجزات وقتية، بل كانت نماذجَ لما قد يحدث في مستقبل الأيام.

وحين يقول تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١] يقصد أنّ تلك القصص لم ترد فقط لإخبار النبي وقومه بما حدث في الأمم السالفة وتأكيد بوقوعه وأنها ليست حديثاً مفترى، بل هي تفصيل لكلّ شيء. ولا أعرف لماذا أُخذت جملة (تفصيل لكل شيء) على ماضويتها وعدم تكرارها مع أنّ قدرة الله عزّ وجلّ حادثة في الزمان والمكان، أي أنّ ليس لها زمنية كي تعمل وزمنية كي تتعطل، ولهذا فما حدث في زمن الرسل والأنبياء كمعجزات فإنّ الله قادر على إحداثه في زمنٍ آخر ﴿. . . . قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والقدرة الإتيان بالفعل الخارق في أيّ زمنٍ كان.

والله حين خلق الكون خلقه وفق نظام جارٍ لا يتعطّل، فإن كان تعريف المعجزة أنها خرقٌ للنظام فهو تعريف أنتجته ثقافة زمنية وقتية لم تكن تستوعب ما سوف يحدث من ثورات علمية متقدمة. والراسخون في العلم يدركون تماماً أنّ كلّ شيء في الأرض وفي السماء يسير على هدي شرائع لا استثناءات فيها ولا فوضى، ولو حدث الاستثناء لفسد كلّ ما في الأرض والسماء.[٢]

والمعجزات التي حدثت لم تخرج خارج النظام بل كانت ضمن إطاره، إلا أنها حين ظهرت في تلك الفترة الزمنية حُسبت كاختراق للسنن الكونية، بينما هي تندرج ضمن معادلة إلهية أزلية متى ما تمّ تحقيق شروطها أوصلت إلى ناتجٍ قيمي واحد مهما اختلف المكان أو الزمان أو منفّذ شروط المعادلة ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾[٣].

---

(١) سورة يوسف: ١١١.

(٢) الدكتور عبد المحسن صالح: الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، عالم المعرفة.

(٣) سورة الفتح: ٢٣.

الحكمة الإلهية من الخلق والوجود هي حكمة عميقة لم يشأ لنا الرحمن التعرّف إليها كاملةً وفي زمنٍ واحد، فما نجهله اليوم قد نعرفه في الغد، وقد تعهّد الله بالكشف عن أياته وأنه شهيدٌ على ذلك[1]. وهذا التدرّج ينتج من خلال التراكم المعرفي؛ فما كان يُعدُّ مستحيل الوقوع في زمنٍ سابق غدا اليوم من المشاهدات الطبيعية المألوفة.

الموجود موجود منذ الأزل، وعدم معرفتنا به لا يلغي وجوده، وقد أودع الله أسراره كلَّ شيء فإن عجزنا عن الوصول إليها فهو عجزٌ معرفيّ وليس عجزَ وجود.

ولم يخلقنا الله بلا وسيلة توصلنا إلى جوهر وعمق الأشياء، فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول ما خلق الله سبحانه وتعال العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال عزّ من قائل: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعزّ علي منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب». بموجب هذا الحديث فإنّ العقل كان الرابط بين الإنسان العاقل وبين الله.[2]

وإذا كان العقل هو الرابط فلا بدّ وأنّ لهذا العقل ميزة تتّسع لاستيعاب ما خلق الله وله ميزة البحث والاستدلال، أي أنه قوة لها مقدرة الوصول ومقدرة الكشف، يُضاف إليها مقدرة الرفض والترجيح. ولأنّ العقل يميّز فقد يأتي عليه زمان يكون رافضاً لشيءٍ حادث حتى إذا تكشّف له ما خلف ذلك الحدث يتقبّله.

العقل ينمو بالمعارف ومن خلالها يقيم الوشائج من أجل الكشف عمّا هو أبعد، وفي سبيل حصوله على المعارف يتحول إلى عقل جمعي، أي أنه يستفيد ممّا أنتجه الإنسان في أزمانٍ غابرة أو معاصرة ليكون من ذلك النتاج معارفه التي يسير بها في حياته، أو قد يطوّر ما كان ضامراً فيحيله ارتواءً، وقد يحقق في تجربةٍ قديمة فيجد مفاتيح تحقيقها مجدّداً.

وقد اهتمت الأسطورة اهتماماً بالغاً بما وراء الغيبيات كشارحٍ ومفسّرٍ لغموض الكون، وفي كلّ مرة يأتي العقل ناقضاً ما هو مغاير لخلق الله.

---

(١) ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ - [فُصّلت: ٥٣].

(٢) نزار يوسف: الحكمة بين الإله والسلطان.

وكانت رأفة الله بخلقه إرسال الرسل والأنبياء حين تشقّ البشرية طريقاً مظلماً مدلهمّاً، فتأتي الأنوار الربانية موجّهة إياها إلى الطريق الصائب، وهذا التوجيه ليس توجيهاً إجبارياً بل توجيه من يعرف لمن لا يعرف.

ولأنّ العقل هو ميزان الإدراك فقد جعله الله شرطاً في التكليفات، وبواسطته تحدّد المواقف من الأشياء موقف المستوضح، ودرجات الإدراك متفاوتة، وهي بهذا التفاوت تفرز التباين وتخلق القيادة وتخلق حالات التدافع[1]. والتدافع يحدث باعتناق فكرة ما والتحلّق حولها، تقابلها قوة أخرى بيقينٍ مغاير، إلاّ أنّ الفيصل بين الفريقين هو الحكمة، والحكمة ليست واضحة للكلّ[2]، والحقيقة أنّ مفهوم الحكمة، منذ بزوغ فجر الحضارات القديمة وما بعدها، ارتبط بأمرين اثنين: الأسطورة والإنسان قديماً، ثم الدين والسياسة أو الإله والسلطان لاحقاً أو حديثاً[3]. والأسطورة متقدّمة على الدين في تمدّدها وشيوعها، وليس في يقينها، حتى إذا جاء الدين وأراد نقضها استخدم أدواتها وخوارقها، إلا أنّ استخدامَه للأسطورة استخدامُ حقيقة، ولعجز العقل عن استيعاب المعجزة أدخلها ضمن الخوارق، بينما العلم يسعى دؤوباً الآن إلى تحقيق تلك الخوارق كون الوصول إليها لا يخرج عن دائرة إرادة الله، فالله خلق كلّ شيء بقدر[4]، أي أنّ الكون مخلوق وفق معادلات متى ما تمّ تطبيق المعادلة بهدف ايجاد القيمة الغائبة منها - وكان التطبيق صائباً - فإنّ الغائب يتمّ استحضاره واستطاع المطبّق الوصول إلى القيم الغائبة بمعرفتها معرفة يقين.

والملاحظ أنّ الناس تعاملوا مع تلك الأساطير الواردة في القران تعاملاً ناقصاً، إذ آمنوا بها كحالة ذكرها القرآن لكنهم أضفوا عليها الكثير من الخرافات[5] سواء

---

(١) قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ - [الحج: ٤٠].

(٢) ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ - [البقرة: ٢٦٩].
ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله».

(٣) نزار يوسف: المصدر نفسه.

(٤) يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ - [القمر: ٤٩].

(٥) نظراً إلى أنّ عدن كانت تتكوّن من أخدودٍ هائل كان بركاناً ثائراً في الأزمنة القديمة فقد أُلّفت القصص والأساطير حوله، ومن بين هذه القصص أنّ القديس بارثولوميو زار عدن وهو في =

كانت خرافات متعلقة بالقص الديني أو على مستوى الحياة الاجتماعية،[1] بينما كان من المفترض - في ظلّ وجود اليقين الكامل بحدوثها - العمل على استظهارها مرةً أخرى، واستظهارها من خلال العقل. فمع انتهاء زمن الرسالات أصبح العقل هو الرسول، ولهذا نجد أنّ كثيراً من الآيات تستنهض هذا العقل من أجل التدبّر والتمعّن لتحقيق المعجزات الخارقة، الموجودة أصلاً داخل النظام الذي أقامه الله عزّ وجلّ، ويكون الوصول إلى تلك الخوارق ليس خارج إرادة الله بل ضمن إرادته، ويكون بإذنه إن مكّن العقل (أو العلم) من الوصول إليها.

وإن كان أصل ومنشأ مفهوم الحكمة تاريخياً بدأ مع ظهور العقل في الإنسان[2]

= طريقه إلى الهند، وأنه رأى أهل عدن واقعين تحت سيطرة الجن، يعبدون النار والشيطان ويقدمون القرابين، وكان الشيطان يسكن بئراً يقال إنها تقع فوق جبل صيرة، ويقال إنها في شارع الزعفران، وكان الناس يحصلون على مائهم من هذه البئر. وحين اجتمع الناس حول البئر كان الشيطان يصرخ من بطنها ويقذف باللهب فيخرّ الناس سجّدا.

غضب القديس وقرر أن يحضر ويشاهد أعمال الشيطان، ولمّا رأى الشيطان القديس صرخ وقذف باللهب والماء فوضع القديس عباءته حول وجهه وتقدّم وهو يقول: «باسم المسيح المنقذ ابتعد أيها الشيطان وليتجمّد ماء هذه البئر» وفي الحال انطفأت النار وفرّ الشيطان إلى غير عودة وتجمّد ماء البئر. (حمزة علي لقمان: **أساطير من تاريخ اليمن**، ص١٨).

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «نار تخرج من قعرة عدن تطرد الناس إلى المحشر» - روى هذا الحديث الإمام مسلم.

(١) كثرت الخرافات في جانبها الاجتماعي بصورة طاغية، ومن تلك الخرافات - على سبيل المثال - الخشية من كوكب الزهرة، وقد حمّلوها تهمة فضّ بكارة الصبايا، فالفتاة التي تسهر وتطلع عليها نجمة الصبح (كوكب الزهرة) يقولون إنها فقدت بكارتها، حيث يتحول القمر إلى رجل يتربّع أشجار الأثل ويقوم بفضّ البكارة. ولكي يعالجوا هذا الوضع يمررونها على بندقية تلقى على الأرض لتخطوها سبع مرات لتعود إليها بكارتها، ولاختبار عودة البكارة يصوّبون بالبندقية فإن أصابت الهدف فهذا يعني أن بكارتها عادت وإن لم تصب الهدف فهذا يعني أن بكارتها لم تعد فيعيدون الكرّة.

وصفة البندقية التي تستخدم أنها تزين بإحدى عشر ناباً للوبر وتدهن بشحمه وترصّع بدبابيس لها لمعان الذهب.

(٢) نزار يوسف: المصدر السابق.

فهذا العقل أمضى سنوات طوال في نموه وتزوّد بكلّ أنواع المعارف ومازال يواصل نموه لكي يصل إلى الحكمة الإلهية التي خلقه الله من أجل تحقيقها.

١٣

طرفة عين، زمن لا نكترث به.. هذا الزمن جُلب فيه عرش بلقيس وغير التاريخ.

الكون فضاء يمنح الباحثين مفاتيح أبوابه المغلقة.

فمنذ أن وجد وهو يسرب أسراره يومياً، ومنذ أن وجد الإنسان وهو يبحث في تلك الأسرار، وكلما كشف عن سرّ زادت معرفته ورغب في كشف الطلاسم التي تحيط به.

إنّ الإنسان وجد نفسه جاهلاً بما يدور حوله وغير قادرٍ على السيطرة على ما يموج في الكون، فاستسلم للقوى التي لا يستطيع التغلّب عليها وعبدها. وكلّما مرّ الزمن واكتسب معرفةً تحوّل عنها إلى ما لا يعرف ماهيته. وكان يحارب جهله بالبحث في ماهية ما يحيط به من ظواهر الطبيعة، ويوجد لها الأسباب التي تقنعه، وهو اقتناع مرحلي قادته الأسطورة، لذا فإن الأساطير ما هي سوى تفسير بدائي للعالم والإنسان. وفي بحثه ذاك اكتسب خبرات ومعارف تسلّح بها في مواجهة القادم حتى إذا استعصى عليه «أخذ يُعمل عقله وجهده في التفكير بها وبدأ مفهومِ الحكمة يأخذ له مكاناً في عقل هذا الإنسان»[١] وظلّ عقله في حالة نمو واكتساب خبرات تراكمية تمكّنه من اجتياز ما استعصى عليه سابقاً، وفي نفس الوقت كان الدين يوازي هذا النمو فكلّما حدث انحراف جاء الدين باثّاً نوراً يضيء جنبات حياة الإنسان ليوصله إلى مرحلة تالية، حتى إذا بلغ العقل رشده كان الدين قد بلغ رشده أيضاً، إذ لا يوجد من تفسير لتوقّف إرسال الرسل إلاّ أنّ العقل قد أصبح قادراً على اختراق ما تبقّى من وجوده الدنيوي بمفرده.[٢]

واذا آمنّا بمقولة يوهان غوته التي يقول فيها «مع المعرفة يكبر الشك» فهو شكّ

---

(١) نزار يوسف: المصدر السابق.

(٢) يقول الثعالبي في قصص الأنبياء إنّ الحكماء قالوا: خلق الله تعالى الخلق ليظهر وجوده، ولو لم يخلق لما عُرف أنه موجود، وليظهر كمال علمه قدرته بظهور أفعاله المتقنة المحكمة.

البحث عن كمال العقل وليس شك الارتياب والارتكاس، وهو الشك الذي حفّزه القرآن الكريم بالبحث والتدبّر في الآيات المبثوثة في الكون[1] مع التحدي بأنّ معرفتك التي قادتك إلى الشك معرفة قاصرة عن الوصول إلى معرفة ماهية المطلق، وإنما يوصلك إلى عظمة تلك الماهية ما تمّ صياغته في الكون من عظمة تقف حيالها صاغراً.[2]

هل كان أحد ممّن عاش في الأزمنة السحيقة - مهما بلغ علمه - يفوق عِلم أحدنا في هذه الأيام؟

إنّ جريان الزمن يكسب المرء رؤيةً ودراية بما رآه أكثر وأعمق ممّن توقّف به الزمن، و الوصول إلى محطة متقدمة من خط سير أو سفر يكون فيها المسافر ملمّاً بما عبره في سيره وعلمه، أو درايته بالنقطة التي وصل إليها تفوق (وتكاد لا تقارن بـ) دراية من توقف في نقطةٍ متأخرة من الزمن.

هذا المسافر هو العقل.

هو يعلم الآن حين تمنحه قياس سرعة وتقول له: أنت تسير بسرعة الصوت أو بسرعة الضوء، أن يقدّر الزمن الذي تحدّده بعداً أو قرباً، فلو قلت له: إنّ جرماً سماوياً يصل ضوءه إلى الأرض في مليار سنة ضوئية، سوف يبهت ويدرك كم هي مسافة عميقة وسحيقة في جوف هذا الكون...

ومع علم الفلك تستطيع أن تفهم المعجزة العظيمة التي فاقت كل معجزات الرسل حين أُسري بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى السماء السابعة. وهي المعجزة التي لم يتنبّه لها من قبل المسلمين، وظلّت الدراسات تطوف حول ما حدث في تلك الرحلة، بينما الإشارة إلى الزمن الذي اخترق فيه الرسول صلى الله عليه وسلم كلّ هذه المسافات السحيقة.

---

(١) يقول سبحانه عزّ وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ - [تبارك: ٣-٤].

(٢) ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ - [يوسف: ٧٦].
وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسيره لآية ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قَالَ: يَكُونُ هَذَا أَعْلَمَ مِنْ هَذَا، وَيَكُونُ هَذَا أَعْلَمُ مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ فَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ - (**الأسماء والصفات** للبيهقي).

وعدم الانتباه هذا متكرر، فآيات الزمن التي وردت في القرآن تخلع الفؤاد.

الآن، وبما نحمل من معرفة ضئيلة عن الكون والسرعة، نثمّن تلك الآيات التي جاءت لتتحدث عن الزمن في القرآن الكريم. فقصة سيدنا سليمان مع عرش بلقيس كانت آية الزمن هي الحاضرة ولم ينجز فعلها إلا صاحب علم[١]، وهي إشارة واضحة إلى أنّ من يمتلك العلم أكثر درايةً من الجن الذين نحسبهم خارقين للعادة، فالجنّي قال إنه قادر على الإتيان بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقعده، بينما صاحب العلم قال إني قادر أن آتي به قبل أن يرتد إليك طرفك.[٢]

هذا الفعل إشارة أخرى إلى أنّ هناك سرعات زمنية مختلفة سيصل إليها العلم بالتوالي، فإن كان صاحب العلم بالكتاب قد جلب عرش بلقيس في طرفة عين[٣] فهناك من سيأتي ويكون أعلم بالكتاب (والكتاب المقصود هنا علم الله) ليصل إلى ما لم يصله من سبقه من ذوي العلم. ولأنّ هذه الحادثة لم يستطع أن يستوعبها من سبقنا من المفسرين، فقد ذهب بعضهم إلى أنّ الإحضار لم يكن إلا صورياً وليس واقعياً، وهو نفس الجدل الذي حدث حول الإسراء والمعراج، إذ لم يتم استيعاب

(١) قال عطاء عن مجاهد عن ابن عباس: وكان سليمان رجلاً مَهيباً لا يُبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يُسأل عنه، فخرج يومئذٍ فجلس على سريره فرأى رهجاً قريباً منه فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس يا رسول الله. قال: وقد نزلت منا بهذا المكان! قال مجاهد: فوصف لنا ذلك ابن عباس فحزَرْته ما بين الكوفة والحيرة قدْر فرسخ. قال: فأقبل على جنوده فقال: أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟ قال عفريتٌ من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك الذي أنت فيه إلى الحين الذي تقوم إلى غدائك. قال: قال سليمان: من يأتيني به قبل ذلك؟ قال الذي عنده علمٌ من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفُك. فنظر إلى سليمان فلما قطع كلامه ردّ سليمان بصره على العرش فرأى سريرها قد خرج ونبع من تحت كرسيه، فلما رآه مستقرّاً عنده قال: هذا من فضل ربي ليبلوني ءَأشكر إذ أتاني به قبل أن يرتد إليّ طرفي أم أكفُر إذ جعل من تحت يدي أقدَر على المجيء به منّي؟ قال: فوضعوا لها عرشها. قال: فلما جاءت قعدتْ إلى سليمان قيل لها: أهكذا عرشُكِ؟ فنظرت إليه فقالت: كأنه هو! - (ابن الأثير: الكامل في التاريخ)

(٢) قال تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ - [النمل: ٣٨-٤٠].

(٣) تتجاوز سرعة طرفة العين العشرة آلاف كيلومتر في الثانية.

التنقّلات التي حدثت في ليلة الإسراء والمعراج، ولم يكن يشغلهم الإسراء إلى السماء بل يشغلهم بُعد مسافة بيت المقدس عن مكة، ولهذا عندما أراد المفسّرون تفسير هذه الرحلة العظيمة ولم يستطيعوا استيعاب التنقلات التي أخبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم، ومع إيمانهم الكامل بما أخبر، كانوا يبحثون عن تبرير أو تحليل يثبت إيمانهم بما هم مصدّقين، فذهبوا إلى أنّ الإسراء كان بالروح من غير الجسد، وأغفلوا أنّ هناك دابّة اسمها البراق كانت وسيلة نقله، إذ كيف ترحل الروح محرّرةً من الجسد في حين أنّ هناك دابّة أُعدت للنقل؟

والإشارة الزمنية التي ذكرها الله عزّ وجل في خلق السموات والأرض في ستة أيام[1] لم نتنبه إلى أنها من أيام الله[2] التي يقدّر فيها اليوم بألف سنة مما نعدّ، أي أنّ الخلق استمرّ ستة آلاف سنة، ومع يقيننا أنّ الله قادر على كلّ شيء وإذا قال لشيءٍ كن فيكن[3] إلا أنّ ذكره لستة أيام هي إشارة أخرى إلى أهمية العمل والإتقان فيه.[4]

وإشارة زمنية أخرى في صعود الملائكة إليه سبحانة وتعالى يمنحنا بعداً إضافيا للزمن، إلا أنّ كلّ تلك اللمحات كانت تعبرنا من غير البحث في ما أمرنا به الله من تدبّر، إذ إنّ الله قد منح الإنسان العقل والحكمة، وهما ميزتان مقدرتان حتى في

---

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ...﴾ - [الأعراف: ٥٤].

(٢) قول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ - [الحج: ٤٧].

(٣) قول الله عز وجل: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ - [البقرة: ١١٧].
وقال تعالى: ﴿...قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ - [آل عمران: ٤٧].
وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ - [غافر: ٦٨].
وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ - [القمر: ٥٠].

(٤) قال القاضي أبو السعود في تفسيره عن آية الأعراف: «وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار، واعتبار للنظار، وحث على التأني في الأمور».

عهد النبوة، فموسى عليه السلام كان نبياً لكنّ الرجل الصالح صاحب علم، وفي قصتهما نموذجٌ حيّ لما يمتلكه صاحب العلم من دراية وعلم بما سيكون، وكل ذلك يحدث بمشيئة الله.

الآن، ونحن وجهاً لوجه مع الكون، علينا أن نُعمل عقولنا في آيات القرآن لنصل إلى الأسرار الغائبة ونحققها كما أراد الله، فديننا دين برهان قبل أن يكون دين بيان.

المكتوب على الجبين

جلس بعض النساء يتحدثن عن فسوق إحدى جاراتهن ونعتوها بنعوت مقذعة، فقالت إحدى الحاضرات:

- المكتوب على الجبين لا بدّ وأن تراه العين.

وحكت هذه الحكاية:

كان لأحد الملوك ابنة رائعة الجمال عفيفة لا يصدر منها العيب، وكانت محلّ اهتمام أبيها الذي كان يصفها دائماً بالقانتة، وكانت هذه البنت محلّ رغبة الكثيرين من الأمراء والسلاطين، وكان نصيبها من حظ ملك بلدٍ مجاور لمملكة أبيها، تقدّم لطلب يدها وتزوجها، وسعد بها كثيراً، ومرت الأيام وأنجبت له ابنين، وكانت محافظة على بيتها وعلى تربية أبنائها. وذات يوم وحينما كانت تلعب مع أحد أبنائها كانت تجري خلفه فسقطت وشجّ جبينها و«بان المكتوب على جبينها»، وكان المكتوب[1]:

- تتوهين أربع سنوات، سنتين تقحبين[2] فيها وسنتين تبدبدين.[3]

---

(١) هنا الحكاية لا تذكر لنا بالتحديد كيف تمّت قراءة المكتوب على جبين الأميرة، فلو كانت القراءة من خلال مرآة لقرأت المكتوب معكوساً، ولو أنّ شخصاً آخرَ قرأ المكتوب على جبينها لكانت هناك معرفة بسبب موتها، ولأنّ رسالة القصة مقدمة على التكنيك الفني فقد أغفل الراوي أو الحاكي الشعبي هذه النقطة دون الوقوف عليها.

(٢) تقحبي أي تصبحين قحبة لسنتين، وهي المرأة التي تمارس البغاء، ولفظة تبدبدي مشتقة من الاسم بدة، والبدة هي المرأة التي تتعلم السحر باقتراف أفعال مشينة لكي تصل إلى هذه الدرجة، وأهمها التبوّل على كلّ ما هو مقدس، وتحورت في بعض المناطق الجنوبية وأصبح يطلق نعت البدة على المرأة المعينة التي تصيب نظرتها الآخرين بأذى... وثمة ملاحظة على =

فجزعت من هذا وقالت لنفسها: أنا بنت الملك وزوجة الملك العفيفة القانتة سوف يحدث لي هذا، لا والله ليست لي حياة بعد اليوم، وقررت أن تقتل نفسها، ولفّت على رقبتها مصرها حتى ماتت. وفي القبر نزل عليها الملائكة وقالوا لها: لم يحن وقت موتك ولا بدّ أن تعودي إلى الدنيا، ونفخوا في صورتها فعادت إلى الدنيا في بلد لا تعرف به أحداً، وظلّت تبحث عمّا تأكله فلا تجد، وكلما سألت أحداً راودها عن نفسها. رفضت في البداية وعندما كادت تموت جوعاً قالت:

- المضطر يركب الصعاب.

فوافقت، ووجدت نفسها لا تستطيع كسب القوت؛ فامتهنت البغاء، وبعد مرور سنتين تطورت حالتها وأخذت تتعلم السحر[1] وتفتش عن كتب السحر حتى وجدت كتاب **شمس المعارف**[2] فحفظته عن ظهر قلب حتى تمكنت من تعلم السحر،

= الألفاظ، فلم يكن هناك تحرز من نطق الألفاظ التي نسمّيها النابية أو الألفاظ العارية، وهي إحدى سمات الحكاية الشعبية، إذ تخترق التابو من غير تحرّز.

(٣) إنّ قسماً كبيراً من سكان الحبشة في أواسط القرن الرابع الميلادي كان يعبد الأرواح المتصلة بالأشجار وينابيع المياه، كما لا يزال الاعتقاد سائداً بالزار، وأيضاً ما يسمى "بده" (بضمّ الباء وفتح الدال)، وهذه كلمة حبشية يوصف بها الشخص الذي يحمل عين الشر ويتحول في الليل إلى ضبع مؤذٍ مزعج يعتدي على الناس والحيوان. وكلّ هذه رواسب معتقدات القبائل الكوشية القديمة وأيضاً القبائل السامية. (أساطير من تاريخ اليمن: حمزة علي لقمان، دار المسيرة بيروت، الطبعة الثانية، ص٣٣)

- - - - - - - - - - - - - - - -

(١) هنا المسألة غير منطقية وفق الحكي المتصنّع، ووفق هذا الحكي كانت يجب أن تعود إلى بيتها من البدء، لكنّ القصة تهدف من البدء للوصول إلى الموعظة؛ فليس هناك منحى درامي لكى تتجه إلى البغاء أو تعلم السحر.

(٢) أشهر كتاب يتناقل أخباره العامة عن السحر هو كتاب **شمس المعارف** (يقع في مجلد مكون من أربعة أجزاء) وأغلبهم لم يقرأ هذا الكتاب إما خشية التورط في أعمال السحر أو خشية الوقوع في حبائل منكرات السحر الشائعة في أنّ من يقرأ هذا الكتاب سوف تتجمع حوله الجن، وإن لم يستطع صرفها فإنه سيصاب بلوثة عقلية، أو أنّ الجن ستجذبه إلى عالمها أو تشاغله في حياته حتى يصل مرحلة الجنون. ولأنّ القراءة غائبة لهذا الكتاب وسريان الشائع من القول عنه غاب على الكثيرين أنّ الكتاب حمل أسرار علوم الحروف والأوفاق، وعن الحروف والأسماء وأسرارها وحكمها، والأوقات سعيدها ونحسها، والكواكب والأبراج =

= والنجوم والأقاليم، والدعوات وأسرار الفاتحة والاسم الأعظم، وخواص أوائل السور، ويتكلم عن الاختراعات الرحموتية، والعزيمة الجلجلوتية، والقمقمة، والدعوات المستجابة، والأذكار، وقضاء الحوائج، والرياضات الروحانية، والبدايات والنهايات، وأسماء الله الحسنى وأوقاتها النافعات، وفيه اللطائف التسعة في تأليف القلوب والمحبة، وذكر خاتم سليمان عليه السلام، وخواص آية الكرسي، وفوائد لمقابلة الملوك والحكام والوزراء والقضاة وأرباب المناصب، وخواص الأوقاف والطلسمات النافعات، وفائدة للزيادة في الرزق، وإذا أردت أن تحفظ كل ما تسمع ولا تنساه، وعقد اللسان، وحفظ المال من السارق، وإذا أردت أن ترمي بالقوس ولا تخطئ في رميك، وإذا أردت أن يحبك كلّ إنسان، والأوراد، ويحتوي الكتاب على جداول ومعلومات لا يصل إليها إلا العارف بهذه العلوم.

وغلب على الكتاب صيت أنه كتاب يعلّم السحر، ولما للصوفية من كرامات ذهب البعض إلى أنه الطريق الذي سلكه الصوفية للوصول إلى الاسم الأعظم. وغالباً ما تكون العلوم التي يشكل على الناس فهمها أو التحذير من الاقتراب منها وهجرها خوفاً أو تحرّزاً تدار حولها الشائعات من غير أن تُقرأ، وهذا ماحدث لكتاب أسرار النجوم للرازي على سبيل المثال، حين قال عنه الإمام الذهبي: «إنه كتاب سحر» فرد عليه الإمام السبكي قائلاً: «وقد عرفنا أنّ هذا الكتاب مختلق عليه وبتقدير صحة نسبته إليه ليس بسحر فليتأمله من يحسن السحر»، وفي هذا الردّ تنزيه للشيخ الرازي أكثر منه انتصاراً للكتاب والتنزيه من خلال جملة «إنّ هذا الكتاب مختلق عليه»، ثم بعد ذلك نفى عنه كونه كتاب سحر.

وكتاب شمس المعارف من تأليف الشيخ شرف الدين أو شهاب الدين أحمد بن علي بن يوسف البوني القرشي، ولد في مدينة بونة (عنابة) سنة ٥٢٠هـ تقريباً. قرأ القرآن الكريم بالقراءات في مدينة تونس، وتفقه على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وتفنّن في عدّة علوم. صنّف الشهاب البوني ما يقرب من ٤٠ كتاباً، وكان -رحمه الله- كثير الانقطاع والعبادة، وكان كثير التهجد والصيام، ويمسك عن الطعام في أكثر أوقاته، ويؤثر العزلة على مخالطة الناس، ويخرج في أغلب الأحيان إلى جبل «ماكوض» على البحر شرقي تونس على يومين منها فيقيم به، ولم يكن له أولاد ولا أتباع لإعراضه عن ذلك. ولم يكن في زمنه ببلده أحسن منه خلقاً ولا أكثر منه معرفةً بعلم الحساب والحروف والفلك منه، حتى كان يقال له: كندي الزمان، ويقال إنّ الحروف تخاطبه فيعلم منها منافعها ومضارها. وتؤثر عنه أحوال عجيبة من الخطوة في المشي (أي كان من أهل الخطوة)، والاختفاء عن الناس والاحتجاب عنهم، فساعة هو معك تراه وساعة يغيب عنك ويتوارى في الطريق فلا يظهر لك إلاّ بعد أسبوع وأكثر. وكان كثيراً ما يأتي بما يقترح عليه من الفاكهة والخضار في غير وقت أوانها، ويأتي إلى النساء الحوامل بهذه الفاكهة والخضار في غير حينه، ويقرع أبوابهن ليلاً ونهاراً، ويقول: خذوا شهواتكن لعلّ الله ينفعنا بسببكن.

وفاته: توفي رحمه الله في مدينة تونس سنة ٦٢٢ هـ عن نحو ٨٠ سنة. وقد وردت له تراجم =

واستمرت تعيش بالسحر لسنتين أخريين، وفي الأخير قالت: لا بدّ أن أعود إلى بيتي وزوجي.[1] فذهبت إلى قصر زوجها في ملابس رثة ومقطّعة، ومكثت على الباب طالبةً عملاً، فطردها الحرس من أمام الباب، إلاّ أنّ أحد خدم الملك رقّ لحالها وخاطب الملك بشأنها؛ فقبلها وتمّ تشغيلها خادمةً في المطبخ. بدأت تعمل بجدّ ومثابرة، وكان طهوها ملفتاً، وتذوّق الملك في طبخها ما كان يتذوقه من أصناف الأطعمة التي كانت زوجته تعدّها له، فطلب رؤية الخادمة التي تطبخ له الطعام، وعندما وقفت أمامه عرف أنها زوجته، فقام واحتضنها، وعادت أفضل ممّا كانت.

رواية مريم عبدية

= في العديد من الكتب كالمقفى الكبير للمقريزي والكواكب الدرّيّة للمناوي والأعلام وكشف الظنون وهدية العارفين. وقد ذكر المرتضى الزبيدي في تاج العروس أنّ البوني روى عن أبي الحسن علي بن أحمد بن الحسن الحرالي التجيبي، وهذا الشيخ من العارفين المشهورين اجتمع به العارف ابن العربي الحاتمي، ولعلّه من شيوخ البوني في علم الحرف حيث اشتهر الحرالي به وله مؤلف فيه سماه شمس مطالع القلوب، وبقية أسماء مؤلفات البوني مذكورة في هدية العارفين وكشف الظنون، وذكر النبهاني في جامع كرامات الأولياء أنّ أبا العباس المرسي أخذ عن الشيخ البوني.

(١) هل هذا إشارة إلى فقدانها ذاكرتها بعض الوقت حتى يحدث المكتوب، فهي فجأةً تقرر العودة. ربما كان كذلك.

جزاء الحامدة الشاكرة

يقال إنّ حورية من حوريات الجنة كانت تتمشى بداخل الجنة، فرأت نعيماً مضاعفاً، فسألت: لمن هذا النعيم؟

فقالوا لها: إنّ هذا النعيم للحامدة الشاكرة لموت أبنائها.

فاشتاقت لأن تتنعم بهذا النعيم، وطلبت من الله أن ينزلها إلى الدنيا وتتزوج وتلد ويموت أبناؤها فتحمده وتشكره وتعود لتتنعم بذلك النعيم، فاستجاب الله لها وأنزلها إلى الدنيا.

وجدت نفسها بجوار أحد المقابر، فاختارت الجلوس هناك وامتهنت تدريس القرآن، وعندما تفرغ من عملها تمضي وقتها في التعبّد لله عزّ وجلّ. وذات يوم مرّ بها أحد التجار فأعجبه جمالها وتدينها، فقال لها:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فردّت عليه السلام، فسألها:

- جنية ولاّ إنسية؟

فردّت: إنسية من خيور الإنس.

فسألها عن حالها فأخبرته أنها امرأة مقطوعة من شجرة وليس لها من أحد، فأشفق عليها وأخذها معه إلى بيته وأسكنها مع أخواته. ومرّت الأيام، وفي كلّ يوم يتعلّق قلبه بها لجمالها ودينها، فطلبها لنفسه وقال لها:

- أريد الزواج بك على سنّة الله ورسوله؛ فماذا تقولين؟

فقالت: لا أقبل بك إلاّ بشرط.

فقال لها: اشرطي.

فقالت: أنا لا أريد ذهباً ولا لؤلؤاً، وشرطي الوحيد أن لا تعترض على ما أفعله مهما كان غريباً.

فردّ عليها: افعلي ما تشائين حتى لو أردت أن تخري على رأسي.

وتمّ زواجهما وعاشا في سعادة، تقوم على خدمته أناء الليل وأطراف النهار ولا تعصي له أمراً، وظلّ يسأل: اشترطت أن تفعل ما تشاء، وإلى الآن لا أنكر عليها شيئاً؛ فهي زوجة صالحة في كلّ شيء.

و«راحت الأيام، وجات أيام»، وحملت بأول مولود فسعدت بحملها وحافظت على نفسها، وبعد تسعة أشهر ولدت ولداً كفلقة القمر، وعاشا إلى أن بلغ خمس سنوات ومات، فحزن أبوه وخرجت عماته يندبن ابن أخيهم ويضربن صدورهن ويولون في البيت، أما الحورية فحمدت الله وقامت من حينها وتوضأت وصلّت وتحنّت وتكحّلت وأخذت الطار «تلهج»[1]، استغرب زوجها من فعلها، وكذلك أهله والجيران، وانتشر خبرها أنها تحنّت وتكحّلت يوم موت ابنها، ولم يرحمها الناس من ألسنتهم، فجاء زوجها ليحدثها فقالت له:

- ألم أشترط عليك أن أفعل ما أشاء والمكتوب في اللوح مكتوب.[2]

---

(١) تحنّت: وضعت حنّاء في راحتيها ورجليها، وتلهج: تغنّي.
درجت العادة أنّ أمّ الميت تعدّد على مولودها (أو من مات لها قريب) لأكثر من سنة لا تقرب الطيب أو الحنّاء أو الكحل وتجلس في مكان منزو من البيت يسمى الربع، وبعد مضيّ فترة تتراوح بين ستة أشهر وسنة كحدّ طبيعي تخرج من عدتها بأن تقوم إحدى جاراتها أو صديقاتها بإحضار الحنّاء والطيب والكحل وتزين «الحزينة» (هكذا يطلقون على من يموت لها أحد أقاربها) وتظلّ هي تمانع حتى تستطيع إحدى الحاضرات وضع الحناء على رأسها بكثير من التودد، وخلال هذه الفترة تمنع على نفسها كثيراً من مباهج الحياة، فهي لا تخرج من الربع ولا تذهب إلى أحد ولا تضع طيباً أو بخوراً. وإن كانت هناك مغالاة عند بعض النساء، حيث تظل في حالة حزن لمدة سنتين أو تزيد، والغريب أنّ العدة قاصرة على موت الزوج إلاّ أنّ المعدّدة تطلق بالمطلق على كلّ من يموت لها قريب، ويمكن أن يحزن معها صديقاتها وجيرانها، ويسري عليهم ما يسري عليها من الحرمان من مباهج الدنيا، وإن كان هؤلاء أقلّ مدةً منها، ويتحللن من هذا الالتزام إذا لم تقم الحزينة بمبادلتهن نفس الواجب فيما مضى.

(٢) إن أراد المرء التبرؤ من أفعاله قال إنّ هذا مقدّر منذ الأزل وإنه كتب في اللوح المحفوظ، وقصة اللوح وخلقه وردت في كلّ الكتب التاريخية مؤكدةً على أنّ كلّ ما كان وسيكون كتب في ذلك اللوح، ولهذا تكثر أمثال العامة حول القدرية من غير قصدية لفلسفة القدريين فيقال: =

فصمت عنها، ومضت الأيام، يوماً وراء يوم وشهراً وراء شهر، وقبل أن تكمل السنة حملت مرة أخرى، ففرح زوجها فرحاً عظيماً، وما هي إلاّ أيام وولدت ولداً كفلقة القمر، أجمل من أخيه الذي مات، ففرح به أبوه وعماته فرحاً كبيراً، ومضت السنوات والابن يكبر ويزداد جمالاً وظرفاً، وعندما بلغ السابعة من عمره مات، فحزن أبوه وخرجت عماته يندبن ابن أخيهن ويضربن صدورهن ويولون في البيت، أما الحورية فحمدت الله وقامت من حينها وتوضأت وصلّت وتحنّت وتكحّلت وأخذت الطار «تلهج». استغرب زوجها من فعلها، وكذلك أهله والجيران، وانتشر خبرها أنها تحنّت وتكحّلت يوم موت ابنها، ولم يرحمها الناس من ألسنتهم، فجاء زوجها ليحدثها فقالت له:

- ألم أشترط عليك أن أفعل ما أشاء.

فصمت، ولكنّ أخواته لِمْنَه على صمته وقلنَ له :

- ما زلنا حزينين على ابنك الأول فكيف يكون حالنا لفراق ابنك الثاني وزوجتك فضحتنا مع الناس، فنحن نبكي ميتنا وهي كأنها ذاهبة إلى فرح تتزين وتغنّي.

فقال لهنّ: لقد اشترطت علي قبل الزواج أن تفعل ما تشاء ووفقت أنا على ذلك ولا أستطيع أن أفعل لها شيئاً.

فغضبن منه وخاصمنه، وحاول أن يُدخل زوجته العدّةَ لكنها رفضت وقالت له:

- شرطي أن لا تسألني عن شيء.

ولحبه الشديد لها سكت، وكانت تتفانى في طاعته وحبه فيستغرب لأفعالها

= المكتوب على الجبين لا بدّ وأن تراه العين. وقصة خلق اللوح قال عنها ابن عباس: أنّ نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: إنّ الله خلق لوحاً محفوظاً من درّة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور، لله فيه في كلّ يوم ستون وثلثمائة لحظة يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويعزّ ويذلّ ويفعل ما يشاء، وعنه قال: إنّ في صدر اللوح لا إله إلاّ الله وحده دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله؛ فمن آمن بالله وصدق وعده واتّبع رسله أدخله الجنة. قال: واللوح المحفوظ لوح من درّة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب وحافتاه الدرّ والياقوت ودفتاه ياقوتة حمراء وقلمه نور وكلامه معقود بالعرش وأصلح في حجر ملك. وقال أنس بن مالك وغيره من السلف: اللوح المحفوظ في جبهة إسرافيل. وقال مقاتل: هو عن يمين العرش. (البداية والنهاية، ابن كثير).

حين مات ابناها، لكنه رضي عنها في الأخير وعاش معها راضياً.

وفي يوم من الأيام ماتت جارتهم العجوز ولـم يبكِها أهلها أو أحد من الجيران لأنها بلغت من العمر المديد ما جعل حياتها تطول بالنسبة لمن حولها، لكنّ الحورية عندما علمت بموتها أخذت تبكيها بحرقة وتندبها بصوت مسموع وذهبت إلى بيت العجوز تتقبل العزاء في موتها. استغرب زوجها من فعلها وقال لها:

- مات ابناك فقمت وتحنيتي وتكحّلتي ومسكتي الطار تلهجين وكأنّ الذين ماتوا ليسوا أبنائك، وعندما ماتت هذه العجوز التي قطعت الدنيا بعد عمر تمنّى لها الموت كلّ واحد حزنت وندبتيها وجلستي تتقبلين العزاء فيها، أمرك عجيب، أخبريني ما بك.

فردّت عليه:

- شرطي أن لا تسألني عن شيء.

كظم غيظه وصمت على كرهٍ لأنه يحبها حباً شديداً، وقال «أهل الدنيا»:

- كنها كلبة جهلتها ماتوا وما قالت جوبة ولما ماتت تا العجوز حزنت عليها، كنها تقاود لها.

- كأنها كلبة، مات أبناؤها ولـم تبكِهـم، وعندما ماتت هـذه العجوز بكتها بحرقة، ربما كانت تقاود عليها.

فكانت تسمع قولهـم وتسكت محتسبةً متصبّرة، وظلّ زوجها حائراً من كلام الناس ومن أفعال زوجته التى لم تغضبه إلاّ في عدم حزنها على موت ولديها، ولحبه الشديد لها تناسى ما حدث وعاش معها سعيداً، وماهي إلاّ شهور قليلة حتى حملت، وبعد مضي تسعة شهور ولدت بنتاً رائعة الجمال والحسن، ففرح بها أبوها وعمّاتها فرحاً كبيراً، ومضت السنوات والابنة تكبر ويزداد جمالها وتكاد تسرق لبّ من يراها، وعندما بلغت التاسعة من عمرها ماتت فحزن أبوها وخرجت عماتها يندبنها ويضربن صدورهن ويولون في البيت، أما الحورية فحمدت الله وقامت من حينها وتوضأت وصلّت وتحنّت وتكحّلت وأخذت الطار «تلهج». احتار زوجها من أفعالها عند موت أبنائها، وكذلك أهله والجيران، وانتشر خبرها أنها تحنّت وتكحّلت يوم موت ابنتها، ولـم يرحمها الناس من ألسنتهم، فجاء زوجها ليحدّثها فقالت له:

- ألم أشترط عليك أن أفعل ما أشاء.

لكنه هذه المرة حاول بطرق مختلفة أن يعرف سبب تصرفاتها مع موت أبنائها، لكنها امتنعت عن الردّ وتمسكت بشرطها، فصمت لكنه أسلم أذنه لأهله هذه المرة وبدأ يعاملها بقسوة بينما لم تغيّر هي من معاملتها له، فكانت تعامله كزوج وحبيب وتتفانى في خدمته.

ومضت شهور ومات عمها -أبو زوجها- فقام ابنه وغسله وكفنه وخرج به استعداداً لدفنه، فخرجت الحورية وتعلّقت بالجنازة وقالت لزوجها:

- والله ما تدفنه.

ضاق زوجها بما تفعله مع الموت، فأغلظ لها القول أمام الناس ونهرها، لكنها ظلت متعلقة بالجنازة وهي تقسم:

- والله ما تدفنه.

فنزع يدها من على الجنازة ودفعها بقوة فتحولت إلى «طيرة» وطارت بعيداً «ولايدروا إنها سادت ولاّ بادت»؛ فذهل من حضر الدفن وتعجبوا كثيراً، وتحركوا لدفن الميت وهم يفكّرون في تلك الزوجة التي تحولت إلى «طيرة»، وحفروا قبراً للميت، وقبل أن ينزلوا الميت إلى قبره وجدوا ورقة كتب فيها: أنا من بنات الحور، كنت أتمشى في الجنة ورأيت نعيماً مضاعفاً، فسألت: لمن هذا النعيم؟

فقالوا لي: إنّ هذا النعيم للحامدة الشاكرة لموت أبنائها.

فاشتقت لأن أتنعّم بهذا النعيم، وطلبت من الله أن ينزلني للدنيا وأتزوج وألد ويموت أبنائي فأحمد وأعود لأتنعّم بذلك النعيم، فاستجاب لدعواتي ربي وأنزلت للدنيا طلباً لذلك النعيم.

وحدث «كيت وكيت وكيت»[1]، وأفسّر لكم ما حدث مع موت أبنائي فقد فرحت لموتهم لأني حمدت وشكرت الله على ذلك على أمل أن أتنعم بالنعيم الذي شاهدته في الجنة، أما بكائي وحرقتي على المرأة العجوز فزمنها كله الذي عاشته في

(١) غالباً ما يعمد الراوي إلى استخدام جملة «كيت وكيت» لاختصار الوقت بدل أن يعيد الحكاية مرة أخرى بتفصيلاتها وأحداثها، لذلك يلجأ لاستخدام هذه الجملة للإحالة إلى تلك الأحداث، وعندما يكون الراوي منتشياً وراغباً في تمديد الوقت لا يستخدم هذه الجملة بل يعيد كلّ التفاصيل كما هي.

الدنيا «ملهاش» ولا حسنة إلاّ حسنتين حين أخذ الإعصار «ظلتها»[1] وكلب خطف منها قرص عيش، وكان حزني عليها عظيماً لأنّ نحر الموت لمّا مرّ عليها جعل دمها يصبّ في ثلاث حرائج، وهي للنار ورود، لكنّ أهل الدنيا تقوّلوا عليّ وقالوا: حزنت عليها لأنها كانت تقاود علي، وقضى الله على أبوك بالموت، فإنّ سيئاته أكثر من حسناته؛ فرفضت أن تدفنه حتى تزيد من حسناته بأن توزع ماله كصدقة، والآن أوصيك أن تحصر ماله وتقسمه ثلاثة أقسام تفرّق قسمين ولك الثلث.

حزن الزوج على زوجته وحزن الناس على اتّهامهم لها واستغفروا الله، وقام من حينه وحصر أموال أبيه وفرّق ثلثيها وأخذ الثلث.

ويعد ذلك قام بدفن أبيه.[2]

رواية عائشة عجيبية

(١) ظلتها هي مظلة تصنع من الخسف، والنوع الجيد يصنع من الخيزران، وتستخدم للحماية من أشعة الشمس.

(٢) أول طريقة للدفن تعرّف عليها البشر هي دفنة الغراب، وهي جاءت عقب مقتل هابيل وحيرة قابيل فيما يصنع بجثة أخيه، وقد وردت تلك القصة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين﴾ [سورة المائدة، الآية ٣١] إلا أنّ طريقة الدفن وردت مع وفاة آدم عليه السلام، فحين «جاء الملائكة لقبض روحه رأتهم حواء وعرفتهم فلاذت بآدم، فقال: إليك عني، إنما أتيت من قبلك، خلّي بيني وبين ملائكة ربي تبارك وتعالى. فقبضوه وغسلوه وكفّنوه وحنّطوه وحفروا له وألحدوا له وصلوا عليه ثم دخلوا قبره فوضعوه في قبره ووضعوا عليه اللبن ثم خرجوا من القبر ثم حثوا عليه، ثم قالوا: يا بني آدم هذه سنتكم» (تاريخ الملوك لابن الجوزي). وعن أبي بن كعب أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: «إنّ الملائكة صلّت على آدم وكبّرت عليه أربعًا وقالوا: هذه سنتكم يا بني آدم». (تاريخ الملوك لابن الجوزي).

وعن ابن عباس قال: صلى جبريل ومعه الملائكة على آدم وكبّر عليه أربعًا ودفن في مسجد الخيف واحد من قبل القبلة ولحد له وكتم قبره.

وقال عروة بن الزبير: أتاه جبريل بثياب من الجنة وحنوط من حنوطها فكفنه وحنطه وحملته الملائكة حتى وضعته بباب الكعبة وصلى عليه جبريل ثم حملته الملائكة حتى دفنته في مسجد الخيف.

وقال ابن اسحاق: قبر عند منى أول قرية كانت في الأرض قال: وبلغني أنه مات بمكة وقال =

= قوم: قبر في غار أبي قبيس.
وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: مات آدم على نود الجبل الذي أهبط عليه، فقال شيث لجبريل: صلّ على آدم، فقال: تقدم أنت وكبر عليه ثلاثين تكبيرة.
ولما ركب نوح حمل معه آدم فلما خرج من السفينة دفن آدم ببيت المقدس، ولم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً ورأى فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد.
وقد ذكرنا أنه توفي يوم الجمعة. (نفس المصدر السابق)

رزق

كان هناك صياد رقيق الحال يصطاد من البحر ويبيع صيده بهللتين ويعود إلى بيته يعطي زوجته هللة ويبقي هللة له.

وذات يوم مرّ عليه النبي الخضر[1] فسأله الصياد:

---

(١) يؤمن الكثيرون من أهل الجنوب بأنّ الخضر يسيح في الارض ويمرّ على الناس ويساعدهم ويخبرهم عن ما سوف يحدث، .ويرى البعض أنه هو من يوصل بشارة ليلة القدر.
واختلف حول الخضر فقيل إنه رجل صالح (وهو صاحب موسى الذي وردت قصته في مواقع مختلفة من القرآن): ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف:٦٥] وقيل: بل هو نبي. وفي المرويات ثمة خلط بين قصة الخضر وعزير، خاصةً في قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام، ولأنّ سيرة الخضر سيرة ملتبسة لم تفصل فيها كتب السير عن نهاية الخضر؛ فقد ظلّ شخصية حية في ذاكرة العامة وأنه يخرج للملهوفين والسائلين ويرشدهم إلى الطريق القويم، كما أنّ الخلط بقي: هل هو نبي أم مجرد عابد؟ إلاّ أنّ الطبري يورده على أنه نبي؛ فعن إسحاق قال: فيما بلغني استخلف الله عزّ وجلّ على بني إسرائيل بعد إشعيا رجلاً منهم يقال له ياشية بن أموص، فبعث الله لهم الخضر نبياً. واسم الخضر فيما كان وهب بن منبه يزعم عن بني إسرائيل هو إرميا بن حلقيا، وكان من سبط هارون. وأما وهب بن منبه فقال: قال الله عز و جل لإرميا حين بعثه نبياً إلى بني إسرائيل: يا إرميا من قبل أن أخلقك اخترتك، ومن قبل أن أصوّرك في بطن أمك قدّستك، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهّرتك، ومن قبل أن تبلغ السعي نبيتك، ومن قبل أن تبلغ الأشدّ اختبرتك ولأمر عظيم اجتبيتك؛ فبعث الله عزّ وجلّ إرميا إلى ذلك الملك من بني إسرائيل يسدده ويرشده ويأتيه بالخبر من قبل الله فيما بينه وبين الله عزّ وجل. قال: ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل وركبوا المعاصي واستحلوا المحارم ونسوا ما كان الله صنع بهم وما نجاهم من عدوهم سنحاريب وجنوده، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى إرميا أن ائتِ قومك من بني إسرائيل فاقصص عليهم ما آمرك به وذكّرهم نعمي عليهم وعرّفهم إحداثهم. ثم أوحى الله عزّ =

= وجلّ إلى إرميا أني مهلك بني إسرائيل بيافث، ويافث أهل بابل، فهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، فلما سمع إرميا وحي ربه صاح وبكى وشقّ ثيابه ونبذ الرماد على رأسه وقال: ملعونٌ يوم ولدت فيه ويوم لقنت فيه التوراة، ومن شر أيامي يوم ولدت فيه فما أبقيت آخر الأنبياء إلاّ لما هو شرّ علي، لو أراد ربي خيراً ما جعلني آخر الأنبياء من بني إسرائيل، فمن أجلي تصيبهم الشقوة والهلاك. فلما سمع الله عزّ وجلّ تضرّع الخضر وبكاءه وكيف يقول ناداه: يا إرميا أشقَّ عليك ما أوحيت لك؟ قال: نعم يا رب، أهلكني قبل أن أرى في بني إسرائيل ما لا أسرّ به، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أهلك بيت المقدس وبني إسرائيل حتى يكون الأمر من قبلك في ذلك، ففرح عند ذلك إرميا لما قال له ربه وطابت نفسه وقال: لا والذي بعث موسى وأنبياءه بالحق لا آمر ربي بهلاك بني إسرائيل أبداً. ثم أتى ملك بني إسرائيل فأخبره بما أوحى الله إليه فاستبشر وفرح وقال: إن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة قدّمناها لأنفسنا، وإن عفا عنا فبقدرته. ثم إنهم لبثوا بعد هذا الوحي ثلاث سنين لم يزدادوا إلاّ معصيةً وتمادياً في الشر، وذلك حين اقترب هلاكهم، فقلّ الوحي حين لم يكونوا يتذكرون الآخرة، وأمسك عنهم حين ألهتهم الدنيا وشأنها، فقال لهم ملكهم: يا بني إسرائيل انتهوا عما أنتم عليه قبل أن يمسّكم بأسُ الله وقبل أن يبعث الله عليكم قوماً لا رحمة لهم بكم، فإنّ ربكم قريب التوبة مبسوط اليدين بالخير رحيم بمن تاب إليه. فأبوا عليه أن ينزعوا عن شيء مما هم عليه، وإنّ الله ألقى في قلب بختنصر بن نبوزراذان بن سنحاريب بن دارياس بن نمروذ بن فالغ بن عابر، ونمروذ صاحب إبراهيم عليه السلام الذي حاجّه في ربه أن يسير إلى بيت المقدس ثم يفعل فيه ما كان جده سنحاريب أراد أن يفعل، فخرج في ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس، فلما فصل سائراً أتى ملك بني إسرائيل الخبر أنّ بختنصر قد أقبل هو وجنوده يريدكم، فأرسل الملك إلى إرميا فجاءه فقال: يا إرميا أين ما زعمت لنا أنّ ربك أوحى إليك ألاّ يهلك أهل بيت المقدس حتى يكون منك الأمر في ذلك؟ فقال إرميا للملك: إنّ ربي لا يخلف الميعاد وأنا به واثق. فلما اقترب الأجل ودنا انقطاع ملكهم وعزم الله تعالى على هلاكهم بعث الله عزّ وجلّ ملكاً من عنده فقال له: اذهب إلى إرميا واستفته وأمره بالذي يستفتيه فيه، فأقبل الملك إلى إرميا وقد تمثّل له رجلاً من بني إسرائيل، فقال له إرميا: من أنت؟ قال: أنا رجل من بني إسرائيل أستفتيك في بعض أمري، فأذن له، فقال له الملك: يا نبي الله! أتيتك أستفتيك في أهل رحمي، وصلت أرحامهم بما أمرني الله به، لم آت إليهم إلاّ حسناً ولم آلهم كرامة فلا تزيدهم كرامتي إياهم إلاّ إسخاطاً لي، فأفتني فيهم يا نبي الله، فقال له: أحسن فيما بينك وبين الله، وصل ما أمرك الله أن تصل وأبشر بخير. قال: فانصرف عنه الملك، فمكث أياماً ثم أقبل إليه في صورة ذلك الرجل الذي كان جاءه، فقعد بين يديه، فقال له إرميا: من أنت؟ قال: أنا الرجل الذي أتيتك أستفتيك في شأن أهلي، فقال له نبي الله: أو ما ظهرت لك أخلاقهم بعد ولم ترَ منهم الذي تحب؟ قال: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى أهل رحمه إلا وقد أتيتها إليهم =

= وأفضل من ذلك، فقال النبي: ارجع إلى أهلك فأحسن إليهم واسأل الله الذي يصلح عباده الصالحين أن يصلح ذات بينكم وأن يجمعكم على مرضاته ويجنبكم سخطه، فقام الملك من عنده فلبث أياماً، وقد نزل بختنصر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد، ففزع منهم بنو إسرائيل فزعاً شديداً وشقّ ذلك على ملك بني إسرائيل؛ فدعا إرميا فقال: يا نبي الله، أين ما وعدك الله؟ فقال: إني بربي واثق. ثم إنّ الملك أقبل إلى إرميا وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذي وعده، فقعد بين يديه، فقال له إرميا: من أنت؟ قال: أنا الذي كنت أتيتك في شأن أهلي مرتين، فقال له النبي: أو لم يأن لهم أن يفيقوا من الذي هم فيه؟ فقال الملك: يا نبي الله، كلّ شيء كان يصيبني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه وأعلم أنّ مآلهم في ذلك سخطي، فلمّا أتيتهم اليوم رأيتهم في عمل لا يرضاه الله ولا يحبه، قال له النبي: على أيّ عمل رأيتهم؟ قال: يا نبي الله، رأيتهم على عملٍ عظيم من سخط الله، فلو كانوا على مثل ما كانوا عليه قبل اليوم لم يشتد غضبي عليهم وصبرت لهم ورجوتهم، ولكني غضبت اليوم لله ولك، فأتيتك لأخبرك خبرهم، وإني أسألك بالله الذي هو بعثك بالحق إلاّ ما دعوت عليهم أن يهلكهم الله، قال إرميا: يا ملك السموات والأرض! إن كانوا على حق وصواب فأبقهم، وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم، فلمّا خرجت الكلمة من في إرميا أرسل الله عزّ وجلّ صاعقة من السماء في بيت المقدس فالتهب مكان القربان وخسف بسبعة من أبوابها؛ فلمّا رأى ذلك إرميا صاح وشقّ ثيابه ونبذ التراب على رأسه وقال: يا ملك السماء ويا أرحم الراحمين! أين ميعادك الذي وعدتني؟ فنودي: يا إرميا، إنه لم يصبهم الذي أصابهم إلاّ بفتياك التي أفتيت بها رسولنا؛ فاستيقن النبي أنها فتياه التي أفتى بها ثلاث مرات، وأنه رسول ربه. وطار إرميا حتى خالط الوحوش، ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس فوطئ الشأم وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرّب بيت المقدس، ثم أمر جنوده أن يملأ كلّ رجل منهم ترسه تراباً ثم يقذفه في بيت المقدس؛ فقذفوا فيه التراب حتى ملأوه، ثم انصرف راجعاً إلى أرض بابل واحتمل معه سبايا بني إسرائيل وأمرهم أن يجمعوا من كان في بيت المقدس كلهم، فاجتمع عنده كلّ صغير وكبير من بني إسرائيل، فاختار منهم مائة ألف صبي فما خرجت غنائم جنده، وأراد أن يقسمها فيهم، قال له الملوك الذين كانوا معه: أيها الملك، لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بني إسرائيل؛ ففعل فأصاب كلّ رجل منهم أربعة غلمان، وكان من أولئك الغلمان دانيال وحنانيا وعزاريا وميشايل وسبعة آلاف من أهل بيت داود وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين وثمانية آلاف من سبط أشر بن يعقوب وأربعة عشر ألفاً من سبط زبالون بن يعقوب ونفشالي بن يعقوب وأربعة ألاف من سبط روبيل ولاوي ابني يعقوب وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب ومن بقي من بني إسرائيل، وجعلهم بختنصر ثلاث فرق؛ فثلثاً أقرّ بالشام وثلثاً سبى وثلثاً قتل، وذهب بآنية بيت المقدس حتى أقدمها بابل، وذهب بالصبيان السبعين ألفاً حتى أقدمهم بابل، وكانت هذه الوقعة الأولى التي أنزلها الله =

- أسألك يا نبي الخضر عن رزقي.
فردّ عليه النبي الخضر:
- رزقك هللة ورزق زوجتك هللة.
فعاد إلى زوجته قانعاً برزقه، وفي الليل قام ليغتسل بعد أن جامع زوجته، وأثناء ما كان يرفع الدلو من البئر خرجت في الدلو صرّة كبيرة بها ذهب، وعندما فتحهها ووجد الذهب صرّها وقال لزوجته:
- هذا الذهب ما هو لنا، فقد قلي الخضر اليوم إنّ رزقي هلله ورزقك هلله، خلينا نصرّها لما يمرّ النبي الخضر أسأله عن هذه الصرة.
واحتفظ بالصرّة عنده، وراحت أيام وجات أيام ومرّ الخضر على الصياد فقال له:
- ياسيدنا الخضر، أنا سألتك عن رزقي فقلت لي: رزقك هلله ورزق زوجتك هلله، لكني وجدت صرّة مليانة ذهب؛ فهل هي رزقي؟
فقال له الخضر: لا، رزقك هلله ورزق زوجتك هلله.
فقال له الصياد: اسأل ربك لمن هذه الصرة.
فقال له الخضر: سأسأله.

= بني إسرائيل بإحداثهم وظلمهم. فلمّا ولّى بختنصر عنهم راجعاً إلى بابل بمن معه من سبايا بني إسرائيل أقبل إرميا على حمار له معه عصير من عنب في ركوة وسلة تين حتى غشي إيلياء، فلمّا وقف عليها ورأى ما بها من الخراب دخله شكّ فقال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها، فأماته الله مائة عام وحماره وعصيره وسلة تينه عنده، حيث أماته الله وأمات حماره معه وأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد، ثم بعثه الله فقال له: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم، قال: بل لبثت مائة عام؛ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه (لم يتغير) وانظر إلى حمارك، ولنجعلك آيةً للناس، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً؛ فنظر إلى حماره يتصل بعضه إلى بعض، وقد كان مات معه بالعروق والعصب، ثم كيف كسى ذلك منه اللحم حتى استوى، ثم جرى فيه الروح فقام ينهق، ثم نظر إلى عصيره وتينه فإذا هو على هيئته حين وضعه لم يتغير، فلمّا عاين من قدرة الله ما عاين قال: أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير. ثم عمّر الله إرميا بعد ذلك، فهو الذي يُرى بفلوات الأرض والبلدان. (تاريخ الكامل، الطبري). ولنتنبه إلى جملة «فهو الذي يُرى بالفلوات»، أي إنّ شخصية الخضر ظلّت محرّرة ترد في حكايات العامة كمنقذ.

وراحت أيام وجات أيام وعاد الخضر وقال للصياد:

- يقول ربي إنّ صرة الذهب هي رزق من قمت لتغتسل بعد أن وضعته في بطن أمه.

فعاد الصياد إلى زوجته فرحاً وقال لها:

- إنّ هذه الصرة هي رزق ابننا اللي انت حاملة بيه.

وقاما من حينهما وبنيا له بيتاً واشترى له مركباً وأغناماً

وعندما جاء إلى الدنيا كانت أمواله مالها حدّ.

رواية عائشة عجيبية

لولوة بنت مرجان

فى بلد من البلدان كان هناك ملك لم يرزقه الله بالذكور، ورزقه الله فى أخر أيامه ببنت جميلة، وكان مكتوباً فى اللوح أن يموت هذا الملك ويوصي لابن أخيه الوحيد بالملك من بعده، ولم يطلب منه مقابل ذلك إلاّ تربية ابنته الصغيرة والاعتناء بها، وعندما مات الملك نودي بالملك لابن أخيه الذى رزقه الله المال والسلطان من حيث لا يحتسب، وحرمه من الذرية، فكان يتزوج ويطلّق بحثاً عن ولد يرث العرش من بعده، وما زال يتزوج ويطلّق حتى اقتنع بقسمته، وبقي وحيداً. وفى يوم رأى ابنة عمه التى كبرت وأصبح «الزين زينها والزخم زخمها»، فأعجب بها وقال فى نفسه:

- الله ما قسم لي فى الذرية، وأحسن شيء أتزوج ابنة عمى وأبقى معها ما تبقّى لي من عمر.

وتزوج ابنة عمه وعاشا سعيدين. وفى يوم من الأيام دخلت عليه ابنه عمه فوجدته «مخددا»، فقالت له:

- ما لك مخدد، بك شيء؟

فقال لها:

- ما بي شيء يا بنت عمي، بس كنت أفكر في حالي، معايه كلّ شيء ومحروم من الخلفة.

فطيبت خاطره وقالت له:

- ليه ما تنذر نذر يمكن ربك يرزقك بالذرية.

فقال لها:

- بمه أنذر؟

قالت له:

- مثلاً واحد ما عنده بيت تبني له بيت، واحد مش قادر يتزوج تزوجه، عبد مظلوم تعتق رقبته.

فردّ عليها:

- أنا لا أكرم واحد بس، أنا أكرم كلّ الناس، بس ربي يكرمني بولد... لكن أقلك... أنذر على نفسي نذر إن ربى رزقنى بولد لأحفرن ثلاث أبار، املا واحدة ماء ورد، واملا الثانية دهن العود، واملا الثالثة بدهن العنبر، على أن تملأ كل يوم ليتطيب منها الناس بدون مقابل.

وانتهت جلستهما على تلك المقولة، وما هي إلا أيام حتى استجاب الله لطلبه، فإذا بزوجته تظهر عليها أثار الحمل، فكانت تمشي دائخة وتتوق نفسها لأمور غريبة، ففرح الملك فرحاً كبيراً حينما علم أنّ زوجته حامل، وأمر جميع الخدم بأن يكونوا تحت رهن إشارتها حتى تضع مولودها. وما هي إلا شهور قلائل ووضعت زوجة الملك وأنجبت ولداً جميلاً سمّاه أبوه يوسف، وكبر الولد بسرعة - وأنت عارف أنّ ابن الحكاية يكبر بسرعة، وعهد به إلى كبار العلماء ليعلموه فنون الكلام وأخبار الأمم، وجنّد له مجموعة كبيرة من القادة ليعلموه فنون الفروسية والرماية وفنون الحرب من كرّ وفرّ، وكان الملك يشرف على تربيته بنفسه لأنه كان يُعدّه لأن يصبح ملكا من بعده.

وبعد أن كبر يوسف وأصبح فارساً ومتعلماً أحسن فهم العلوم كلها، تغيّرت حاله وأصبح يشعر أنّ جلده يأكله، ويسمع صوتاً يخاطبه ويقول له:

- يا يوسف... يا ولد الملك... فيان نذر ابوك؟

فلا يفهم شيئاً، ويظلّ يحكّ جلده حتى يخرج منه الدم، وكلما حكّ جلده سمع ذلك الصوت يخاطبه ويقول له:

- يا يوسف... ياولد الملك... فيان نذر ابوك؟

فلاحظ الملك تغير حال ابنه، وكثرة حكّه لجلده، فخاف عليه، وسأله عن قصته، فقال له يوسف:

- يبه أحس بهرشه فى جلدى وصوت يقلى: يا يوسف، يا ولد الملك، فيان نذر ابوك؟

فصاح الملك:

- هذا نذر نذرته على نفسي ونسيته.

ونفذ السلطان نذره وأمر وزراءه بحفر ثلاثة آبار، وملأ واحدة بماء الورد، والثانية بدهن العود، والثالثة بدهن العنبر، وورد الناس الآبار يملؤن منها قربهم وقواريرهم، ويمضون دون أن يدفعوا شيئاً مقابل الطيب الذى يأخذونه، وكان يقف على الآبار حراس الملك، وكلما نضبت الآبار ملؤوها بأصناف الطيب الثلاثة.

وسمع الناس بحكاية آبار الطيب، فأصبحوا يأتون إليها من أماكن قصية، وذات يوم جاءت امرأة عجوز من بلد بعيد تمشي ببطىء حتى وصلت إلى مكان الآبار، وكانت تحمل ثلاث قوارير لتملأها بالطيب، وصادف أنّ يوسف ابن الملك كان يجلس مع أصحابه في حديقة القصر التى تطلّ على الأبار الثلاث، ورأى تلك المرأة العجوز وهي على وشك أن تدلي الدلو لتملأ قواريرها التى أبقتها بجوار البئر الأولى، فقال يوسف لأصحابه:

- مين يبارينى على كسر القارورة الزرقا؟

فلم يتقدم أحد من أصحابه لمباراته لمعرفتهم قدرته على التصويب، فقال لهم:

- اقدر اضرب بحجرة واحدة الثلاث القوارير حق العجوز.

فقالوا له:

- هذه ما تقدر عليها.

فقال لهم:

لكم على كسرها، وان كسرتها تطلعوا معي للصيد، وان ما كسرتها اطلبوا ماتشون.

فوافقوا على كلامه، وتناول حجرة وصوّب بها على قوارير العجوز فأصاب جميعها، فتطلعت العجوز إلى قواريرها المكسورة بحسرة، وقالت:

- لمه يبني كسرت قواريري وما رحمت شيبتى، وأنت مين أنت... دارى من أى أرض بعيده ويجيه، بمه ادعى عليك، بموت.. لكنك وحيد مك وبوك.. ادعى عليك بمرض.. لكن أقلك روح الله يبليك بحب لولوه بنت مرجان.

وما أن سمعها يوسف ابن الملك حتى نزل من مكانه وتوجّه صوبها، وأمسك بها، فحاولت المرأة العجوز أن تفتك منه، فقال لها:

- ما افكك حتى تقولي لى مين هي لولو بنت مرجان.

فقالت له:

- هذه لا هي جنية من الجن ولا إنسية من الإنس ما شافتها عين على وجه الأرض، وتحرسها أمها الغولة.

فشدّ على المرأة العجوز وقال لها:

- وكيف اوصل للولوة؟

فتمنعت وأبدت شفقتها وحسرتها عليه إن ذهب بقولها:

- يا بني ماقد احد مشى فى طريقها وعاد، فاحسن لك عود لمك ولبوك.

لكنه أصر على معرفة طريق لولو بنت مرجان، فوصفت له الطريق، وما سوف يجده من مشاق، وحذّرته من مغبّة أن يخطىء، وذهبت لحال سبيلها. وأصبح يوسف بن الملك عاشقاً للولو بنت مرجان، يمسي ويصبح وهو يفكر بها، ودخل على أبيه واستأذنه بالسفر؛ فجزع أبوه وأمه من رغبته، وحاولا أن يثنياه عمّا عزم، لكنه أصرّ، وأمام حبهما له سمحا له بالسفر، وقال له أبوه:

- أزودك بمه

فقال الأمير يوسف: أشا منك ماء يرويني وزاد يكفيني ومال يوفيني.[1]

بكى عليه أبوه وأمه وقالا له:

- كيف تتركنا وانت حيلتنا في هذه الدنيا؟

وحاولا مرة أخرى أن يثنياه عن السفر، وقالا له:

- ما تطلبه يكون بين يديك فلمه السفر؟

فأخفى أمره عنهما وأقنعهما بضرورة سفره، فزوّده أبوه بما طلب وودّعه على مشارف البلاد هو وكبار رجالات دولته، وسافر يوسف «تا البلاد تشله وتا البلاد

(١) في أصل الحكاية «ومال يفنيني»، ووجدت أنّ «يفنيني» غير متسقة كمضمون؛ فالمال الذي يفني صاحبه لايصبح سلاحاً للمرء، ويبدو أنّ الراوي استخدم «يفنيني» لكى تتسق مع الجملة بغضّ النظر عن دلالاتها أو مضمونها.

تحطه» حتى وصل لخلاء ما فيه «نافخ طير»[1]، وبينما هو يمشي رأى رجلاً جالساً القرفصاء وشعر رأسه وذقنه وشنبه ورموشه طويلة جداً ومدفونة بالأرض، وأظافره طويلة كمخالب الحيونات. سار إليه يوسف وقال له:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فلم يردّ عليه، كان منظره مرعباً ومخيفاً، نظر إليه يوسف ولم يخف، وقام بتقليم أظافره وقصّ الشعر المدفون بالأرض[2] وتهذيبه، عندها تحدث الرجل وقال ليوسف:

- لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك،[3] اطلب!

فقال يوسف: خرجت أطلب لولو بنت مرجان واشا اصل لها، دلني على الطريق.

أصيب الرجل بالفزع وقال ليوسف: طلبك صعب وما في أحد رأى لولو بنت مرجان، فطريقها بعيد وقبلها موت احمر.

---

(١) «نافخ طير» تستخدم لإيضاح أمور كثيرة، كأن يكون هذا الخلاء موحشاً ليس به إنسان ولا حيوان، وإنما رمال ووحشة، والغريب في الجنوب لا يقولون «صحراء» أبداً، وإنما يستخدمون لفظة «خلاء»، وهذا يعود لعدم معرفتهم بالصحراء كتضاريس، فجميع أماكنهم وأماكن تجوالهم تدور حول الأودية، وإن وجدت أرض خالية من الزرع فهي محدودة.

(٢) ثمة ممارسات حياتية يمارسها الإنسان وفق إيمان ورثه من خلال عبادة أو معتقد وقد ذكر جيمس فريز أن هناك حظراً خاصاً على الشعر، ويجيء من اعتبار الرأس مقدساً إلى حد أن في لمسها أذى، مما أدى إلى أن تصبح عملية قص الشعر عملية دقيقة وصعبة، وأصبح التخلص من الشعر المقصوص - مثل الأظفار - أكثر صعوبة، لأن صاحبهما يعتقد بأنه عرضة لمعاناة أي أذى قد يقع عليهما، ولذلك كان الحرص على إخفاء بقايا الشعر والأظفار أو إعدامها.
- وكان الرجل البدائي يعتبر اسمه جزءاً حيوياً منه ويقوم برعايته وفقاً لذلك، ولهذا فإن بعض العشائر الأسترالية تعمد إلى إخفاء أسماء أفرادها خوفاً من استخدامها في السحر للإضرار بأصحابها، وللسبب نفسه كانت أسماء المصريين القدماء مزدوجة يحتفظ بأحدها سراً، وعلى ذلك كان يحظر نطق أسماء الموتى خشية أن يستدعي هذا أشباحهم.

(٣) تكاد هذه الجملة أن تكون لزمة شهيرة في كل الحكايات وغالبا تكون خاصة بالغيلان والعفاريت.

فقال له يوسف: تركت كل شى ورائي وخرجت من أجلها، يا تساعدني يا تتركني ادور عن غيرك يساعدني.

أشفق الرجل على يوسف وقال له:

- أدلك على اخويه تلقاه على مسيرة أربعة أيام قله انك قادم من عندي واطلب طلبك.

ودّعه يوسف وركب حصانه وظلّ مسافراً لأربعة أيام، وبعدها رأى رجلاً جالساً القرفصاء وشعر رأسه وذقنه وشنبه ورموشه طويلة جداً ومدفونة بالأرض، وأظافره طويلة كمخالب الحيونات. سار إليه يوسف وقال له:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فلم يرد عليه. كان منظره مرعباً ومخيفاً، نظر إليه يوسف ولم يخف، وقام بتقليم أظافره وقص الشعر المدفون بالأرض وتهذيبه. عندها تحدّث الرجل وقال ليوسف:

- لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك، مين وصلك لي؟

فقال له يوسف: أنا موصى من أخوك.

فقال له الرجل: اطلب.

فقال له يوسف: خرجت أطلب لولو بنت مرجان واشا اصل لها، دلني على الطريق.

أصيب الرجل بالفزع وقال ليوسف: طلبك صعب وما في أحد رأى لولو بنت مرجان، فطريقها بعيد وقبلها موت أحمر.

فقال له يوسف: تركت كل شى ورائي وخرجت من أجلها، يا تساعدني يا تتركني ادور عن غيرك يساعدني.

أشفق الرجل على يوسف وقال له:

- امشي على مسيرة أربع أيام وستجد أمي وهي مجردة لها ثديان متلحفة بها فلا تخاف منها إذا رأيتها تطحن قمح أحمر أهرب ولا توريها وجهك ولا تخليها تشم ريحتك تراه تاكلك وان لقيتها تطحن قمح أبيض تسلل وارضع من ثدي عثمان (الثدي الأيمن) عندها ستتحرك وتقول شامة ريحه عثمان، فلا ترد عليها وانتظر قليلاً

وارضع من ثدي عبدالله (الثدي الأيسر) رايح تسمعها تقول شامة ريحة عبدالله، عندها ستكون أخونا، انزل وسلّم عليها وقلها طلبك.

سافر يوسف لأربعة أيام وفي رابع يوم رأى امرأة شكلها مخيف وثدياها ملتفان على أكتافها ورآها تطحن قمح أبيض، فتسلّل وتناول ثديها الأيمن وأخذ يرضع منه. تحركت العفريتة وقالت:

- شامة ريحة عثمان.

فلم يردّ عليها يوسف وانتظر قليلاً وأخذ يرضع من ثديها الأيسر. تحركت العفريتة وقالت :

- شامة ريحة عبدالله.

فلم يرد عليها، وبعد لحظات قالت:

- شامة ريحة عثمان وعبدالله.

فنزل يوسف من على صدرها وقال لها:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقالت له: لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك، اطلب فقد رضعت من لبن عثمان وعبدالله وصرت ولدي مثلهم.

فشكرها يوسف، فقالت له: ما قصتك؟

فقال يوسف: خرجت أطلب لولو بنت مرجان واشا اصل لها، دليني على الطريق.

فقالت له: طريق لولو بنت مرجان صعب ولا تصله إلا بمساعدتي.

فرجاها يوسف أن تساعده، فقالت له:

- خرج عثمان وعبدالله من سنين طويلة[1] وذحين جا وقت غداهم وأنا جالسة أجهزه لهم وخاف أن يصلوا ولو لمحوك ياكلوك خليني أدسك.

---

(١) شيء الملفت أن يرد في الأساطير اختصار الزمن، فالسنوات الطويلة ما هي إلا فترة وجيزة تفرق ما بين وجبتين، بمعنى أنّ الزمن تختلف مقاييسه بين الكائنات، وهذه حقيقة يؤكدها القرآن وتؤكدها الدراسات الحديثة، فالأسطورة ومن وقت مبكر تنبّهت إلى الفوارق الزمنية وتباينها من مكان لآخر.

فوافق يوسف على ذلك، فقامت العفريته بنفخه وحوّلته الى دبوس[١] ووضعته بشعرها، وبعد سنوات قليلة جاء عثمان وعبدالله وهما يصيحان:

- جياع ياماه.

فقامت الأم بتحضير أكلهم وكانا يتعجبان لأنهما لم يجدا يوسف الذي أرسلاه إلى أمهما وصمتا خوفا من أمهما وأن تعاقبهما لأنهما يتحدثان مع الأنس، وقبل أن يأكلا قالا:

- نشم ريحة أدمي.

فقالت أمهما:

- منين ياتي لنا انسي وحنا جالسين في هذا المكان.

لكنهما أصرّا على ذلك فقالت لهما:

- تعاهدوني ما توذوه.

فعاهداها فمدت يدها لشعرها وأخرجت الدبوس ونفخت فيه فاذا بيوسف يسقط من شعرها وهو يعطس ويقول:

- لا إله الاّ الله محمد رسول الله.

وعندما رأى يوسف العفريتين عثمان وعبدالله تعرّف عليهما وتعرّفا عليه، فهما نفس الرجلين اللذين لقيهما في طريقه، فتصافحوا وجلسوا ليأكلوا، فاعتذر منهم يوسف وذهب وأخرج من خرج حصانه زوّادته وأخذ يأكل منها،[٢] وبعد ما أكلوا «وعليهم بالشور»[٣] قال يوسف:

---

(١) الدبوس غير معروف بالمنطقة بتاتاً، سواء أكان دبوس تزيين الشعر أو الدبوس المستخدم لشبك الأوراق، وهذا يعني أنّ الحكاية منقولة من منطقة أكثر تحضّراً على المستوى المادي، ويمكن أن يكون الراوي استخدم الدبوس لتحديث الحكاية حيث من الممكن أن تقوم العفريته بتحويله إلى ريشه أو عود ويوضع بالرأس، لكنّ نهاية القصة تؤكد على الدبوس وهو الأصح، حيث يمكن أن يكون وسيلة لمسك السحر برأس المسحور.

(٢) نلاحظ أنّ يوسف مكث في شعر العفريتة سنين قليلة ولم يفسد طعامه الذي يحمله، وهذا كما قلنا في أحد الهوامش السابقة أنّ الراوي لا يهتم بالجزئيات الصغيرة في بناء النص.

(٣) «وعليهم بالشور» جملة تستخدم عادة لتصف حال الأبطال وأنهم في حالة سلام مع أنفسهم أو مع المتنازعين وإن كان «الشور» كلفظة مستقلة تعني المشورة وتبادل الرأي.

- يا ولداه بعد ما شربت من لبنك وسرت ولدك خبريني عن طريق لولو بنت مرجان

فقالت له العفريته: لازم يروح معاك عثمان وعبدالله يساعدانك.

ففرح عبدالله وقال لها:

- سمعاً وطاعة.

قامت العفريتة من مكانها وأخرجت «دحية»[1] وباكورة وقالت ليوسف:

- شل هذه الدحية والباكورة ورحوا لبلاد الظلمة وضربوا الدحية بالباكورة تنفلق لكم طريق كالشعرة أدخلوا منه تلاقوا في أخر الطريق قصر كبير لا يتكلم منكم أحد ولما توصل أوقف تحت طاقة القصر الشامية وقول: يا لولو بنت مرجان نزلي شعورك الطوال[2] فإذا نزلتها تمسك بها واطلع وحذاري من ان تشوفك أمها أو كلبتها فإذا لمحوك أكلوك وفصفصوا عظامك.

وقالت لعثمان وعبدالله: اذا طلع اسرعوا واخرجوا من الدحية قبل ما تنغلق عليكم واذا ما نزلت لولو بنت مرجان شعرها فعادوا كلكم لأن أمها ستكون عندها سمعتكم.

فردوا عليها:

- سمعنا وأطعنا.

وأخذوا الدحية والباكورة وحملوا يوسف وطاروا به إلى بلاد الظلمة، ولو لم يحملاها لاحتاج مائة سنة سفر كي يصل إلى بلاد الظلمة وعندما وصلوا إلى هناك ضربوا الدحية بالباكورة فنشق طريق كالشعرة، وكلما ساروا فيه اتسع وسمعوا أصوات تحذرهم وتقول لهم: ستمتون جميعاً، وصوت يقول: يا يوسف، أنا لولو بنت مرجان تعال. وكلما حاول يوسف أن يلتفت إلى صاحب الصوت جرّه عثمان

---

(١) الدحية نبتة مرّة الطعم لا تؤكل وشكلها بيضاوي، وقد وردت في قوله تعالى (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا)

(٢) الشعر الطويل دائماً توصف به الفتاة الجميلة بالمنطقة، فكلما كان شعر الفتاة طويلاً كلما كان إقبال الرجال عليها متزايداً، وفي الحكايات دائماً ما يكون ملازماً للجمال، وأغلب الحكايات يقوم الشعر الطويل بدور السلالم التي من خلالها يصعد العاشق إلى محبوبته، كما في هذه الحكاية والترونجية (حكاية ضمن حكايات هذا الكتاب).

أو عبدالله دون أن يكلّماه، وقد نسي يوسف وأراد أن يكلمهما فأطبقا على فمه حتى وصلوا إلى قصر كبير؛ فوقف يوسف في الناحية الشامية وقال:

- يا لولو بنت مرجان انزلي شعورك الطوال.

اهتز القصر وأطلّت من تلك النافذة فتاة كفلقة القمر «تقول للقمر بعد وأنا أجلس مكانك» وأنزلت شعرها الطويل، فتعلّق به يوسف حتى صعد إلى مخدعها بعد أن ودّع أخويه عثمان وعبدالله، وعندما صعد قالت له: ما جابك؟

فحكى لها قصته «من طقطق لسلام عليكم»[1] فأعجبتها هيئته ووقع بنفسها هواه[2] فقال لها:

- اشاك تسافرين معي لبلادي.

فقالت له: أنا مسلمة وموحّدة بس مي غولة ومشركة لو لمحتك تقتلك وتقتلني.

فقال لها يوسف: ما اتركك حتى ولو شبر وما اروح من غيرك.

فأخذت تتودد إليه وتطالبه بالنزول وهو مصرّ على أن تذهب معه، واقتنعت بقوله[3] فقالت له:

- انزل وأنا ألحقك.

فقال لها يوسف: أخاف تضحكين علي، اشاك تعاهديني.

فعاهدته وأرخت شعرها فنزل وتحرّكت هي إلى حجرة أمها الغولة وأخذت من مخدعها شوك وفحمة وحجر ونزلت خلف يوسف وفردت نفسها وطارت، ولو أنها أخذت أكثر ممّا أخذت لما استطاعت أن تطير، وحملت يوسف معها، وما زالا

---

(١) «من طقطق لسلام عليكم» جملة تستخدم للإيجاز بدل أن يعيد المتحدث كلّ ما حدث، وكلمة «طقطق» ليس لها معني بمفردها.

(٢) في الأساطير سرعان ما يحدث الحب والعشق من الطرف الآخر بناءً على الشكل أو أنه الشخص الموعود، وفي لحظة واحدة يمكن للفتاة أو الفتى أن يتخلى عن كلّ الدنيا مقابل الالتصاق بهذا القادم.

(٣) نلاحظ أنّ تقنيات السرد في الحكاية الشعبية لا تهتم كثيراً بالوصف وإنما تتسارع الأحداث تاركةً فراغات يكملها السامع بخيالاته للمكان والشخصيات، وتكتفي الحكاية الشعبية بإعطاء السامع شرارات أولى للمكان كأن يقال «قصر ليس له مثيل في الدنيا» أو «بنت جميلة مثل القمر»، وتهمل كثيراً دقة الوصف.

طائرين حتى وصلا إلى «الدحية»، وخرجا من ذلك الطريق الضيق الذي يشبه الشعرة وراحا عند العفريته أم عثمان التي سلّمت على يوسف وهنأته على السلامة، ولم تعد تستطيع لولو بنت مرجان الطيران فأخذ يوسف حصانه الذي تركه عند العفريته أم عثمان[1] وانطلقا مسافرين إلى بلاد يوسف، وكانت لولو بنت مرجان تقول ليوسف:

- تنفر لو لحقتنا أمي الغولة هي أو كلبتها تاكلنا.

أما خبر الغولة أم لولو بنت مرجان فعندما عادت إلى بيتها ولم تجد ابنتها وشمّت رائحة إنسي قالت لكلبتها:

- الملعونة هربت مع إنسي، هيا نلحقها.

وانطلقت خلف ابنتها وهي تصيح بكلبتها:

- اجري يا كلبتي وأنا أجري وراك.

ولحقت بحصان يوسف في وسط الطريق، وعندما رأتها لولو خافت وأخرجت الشوكة التى أخذتها من مخدع أمها ورمتها في طريق أمها وكلبتها فأصبحت الدنيا كلها شوك. غضبت الغولة وصاحت بكلبتها:

- كسري يا كلبتي وأنا أكسر وراك.

وعندما كسرت كلّ الأشواك لحقت بهما فرأتها لولو تقترب منهما كثيراً، فأخرجت الحجرة التي أخذتها من مخدع أمها الغولة ورمتها في الطريق فتفتحت الأرض عن مياه كثيرة كالسيول تحول ما بينهما، فغضبت الغولة وصاحت بكلبتها:

- اشربي يا كلبتي وأنا أشرب وراك.

فظلّت الكلبة والغولة يشربان تلك المياه الكثيرة حتى لحقا بيوسف ولولو، فأخرجت لولو الفحمة وقالت ليوسف:

- اسرع ممعناش غير تا الفحمة ولو لحقتنا أكلتنا.

فشدّ يوسف على حصانه الذي أرهقه الركض المتواصل، ورمت لولو الفحمة

---

(١) يقوم تصعيد الحدث في الحكاية الشعبية على حلقات في أحيان لا تكون ذات صلة بما سبقها؛ ففي هذه الفقرة لم تعد لولو تستطيع الطيران وكان من الطبيعي أن تقوم العفريتة أم عثمان بمساعدتهما بما تملك من قوة غير طبيعية للوصول إلى بلاد يوسف، ولكن لكي يستمر تصاعد الأحداث أهملت الحكاية دور العفريتة أم عثمان لكي تستمر الحكاية في حلقة تشويق جديدة.

في طريق أمها وكلبتها فاشتعلت الدنيا كلها ناراً، فغضبت الغولة غضباً شديداً وصاحت بكلبتها:

- بولي يا كلبتي وأنا أبول وراك.

وأصبح يوسف على مقربة من قصر أبيه لكنّ الغولة استطاعت هي وكلبتها إطفاء تلك النيران ولحقتا بهما وأمسكت بهما وقالت لولو:

- مالي مك فانا مش حاكلك اشا اعذبك انت وذا الانسي حتى تعرفي قدري.

ونفخت في ابنتها وحوّلتها إلى بسّة ونفخت في يوسف فحوّلته إلى طير وعادت هي وكلبتها إلى بلادها، فطار يوسف مع الطيور وسارت لولو تمشي وتموء باتجاه قصر أبي يوسف، وكان شكلها جميلاً وشعرها أبيض وكثيف، وما زالت تمشي حتى دخلت القصر فرآها أحد الحراس فأعجبه شكلها وأخذها عنده وقرّب لها ماء وكسرات خبز وذهب للنوم، ومع الفجر خرج الناس لصلاة الفجر فجاء يوسف ووقف على جدار الغرفة التى بها لولو وقال بصوت حزين:

- يالولوه بنت مرجان كيف حالك في بيت ابي؟

فردت عليه البسّة:

- تحتي تراب وفوقي تراب

عايشة عيشة كلاب

يايوسف يا أعز الأحباب

بكى يوسف وطار مرة أخرى، وعندما سمع حراس القصر تلك المحاورة تعجبوا أشد العجب مما سمعوا، فذهب الحارس إلى السلطان وأخبره بمحاورة الطير والبسة وأقسم أنهما يتكلمان، فتعجب السلطان وأمر وزيره أن يذهب مع الحارس وقال لهما:

- حطوا تحتها خسف.

وفي اليوم الثاني ومع صلاة الفجر جاء يوسف مرفرفاً ووقف بجوار لولوه وقال لها:

- يالولوه بنت مرجان كيف حالك في بيت أبي؟

فردت عليه البسّه:

- تحتي خسف وفوقي خسف

عايشة عيشة بسس

فحزن يوسف وطار مع الطيور وكان الوزير وبعض الحرس يستمعون لما حدث فعادوا وأخبروا السلطان، فقال لهم السلطان:

-هات ذي البسة

وأمر أن تُغسل وأن يقدَّم لها أفضل أكل وأن تجلس بغرفة كلها حرير في حرير، وفي اليوم الثالث ومع صلاة الفجر جاء يوسف مرفرفاً وقال:

- يالولوه بنت مرجان كيف حالك في بيت أبي؟

فترد عليه البسة:

تحتي حرير وفوقي حرير

عايشة عيشة أمير

فرح يوسف وطار بعيداً وكان السلطان يسمع ما حدث، فقام واقترب من البسة وأخذ يدللها ويمرّر يده على شعرها الأبيض الكثيف، وعندما كان يمرّر يده على شعر البسة أحسّ بشيء حاد أسفل رأسها فأمسكه فإذا به دبوس فقام وسحبه فإذا البسة تتحول إلى بنت كفلقة القمر «ذاك الزخم زخمها والزين زينها». صاح بها السلطان:

- انسية ولا جنية؟

فردت عليه لولو بنت مرجان:

- لاني انسية ولا ني جنية ولكني موحدة.[1]

وحكت للسلطان حكايتها، وأخبرته أنّ الطير الذي يأتي إليها ما هو إلا يوسف ابنه، فحزن السلطان حزناً عظيماً على ابنه الوحيد، وأخذا يفكر كيف يخلص ابنه من سحر الغولة، فقالت له لولو:

- هاتوا لي طشت فيه ماء مسكر وقليل من الحب وتركوني لوحدي.

---

(١) عادة ما يكون الرد في مثل هذه الحالات أن تقول البنت: انسية من خير الانس، هذا في حالة أن تكون البطلة مسحورة من الشخوص الذين يمثلون قوى الشر في الحكاية، أو أن ترد بأنها جنية مسلمة، لكن في حكاية لولوه بنت مرجان تفاجئنا بعنصر أخر «لا انسية ولا جنية»، وهذا يقودنا إلى تساؤل ما زال محل بحث العلماء: هل ثمة كائنات أخرى تعيش بهذا الكون؟

جهزوا لها ما طلبت وتركوها بمفردها، فجلست تغني ليوسف وما هي إلا لحظات إلا وجاء مرفرفاً وحط بجوارها، فأمسكت به ومررت يدها على رأسه وجذبت الدبوس من أسفل رأسه فلم يتحول إلى إنسان، وعادت وامسكت برأسه فوجدت دبوس أخر فجذبته فلم يتحول وظلت تخرج من رأسه سبع دبابيس حتى عاد إلى صورته الأولى، وعندما شاهده أبوه وأمه ركضا إليه يقبلانه ويهنئانه على سلامة الوصول والتخلص من سحر الغولة، وأقاما لهما عرساً تحدث عنه القاصي والداني.

وأخرها ثلاث تفاحات: واحدة لفلان والثانية لفلان والثالثة لك قسّمها لمن تحب.[1]

رواية حنان محمد سليم الرفاعي

(١) هذه اللازمة لإقفال القصة غريبة عليّ، فلم أسمعها إلا في هذه الحكاية، فنحن عندما ننهي الحكاية نقول: تحرتكن تبرتكن في (. . . . . .) الصغير من بينا. وهذا ليس بغريب حيث هناك لازمات تتكرّر في كلّ جزء من المنطقة وتختلف من مكان لآخر.

يا عجلتي يا عجلتي

صلي على النبي

اللهم صلي وسلم على عبدك محمد بن عبدالله

يُحكى أن امرأة لم ترزق في الدنيا بشيء إلاّ بابنة واحدة، وكانت البنت جميلة ومطيعة، ومضت أيام وطلب الله وداعته، فماتت الأم وقبل أن تموت جلس بجوارها زوجها يخفف عنها، فقالت له: لا أطلب منك شيئاً سوى أن تتنبه لابنتي وتحافظ عليها، فلم يرزقنا الله شيء أغلى منها، فطمأنها وقال لها: هي ابنتي كما هي ابنتك.

وماتت الأم، وظلت البنت وأبوها يعيشان في سعادة، وقالت له البنت: اشتري لي عجلة، فاشترى لها عجلة، وكانت هذه العجلة من الجن[١]، فأخذتها البنت وكانت تعتني بها وتغذيها وتقدم لها العلف وتحافظ عليها، فأحبت العجلة البنت، وكانت تقدم لها جميع الخدمات التي تطلبها منها.

وفي ذات يوم قال الأب لابنتة: يا بنتي أنا رجل وأريد أن أتزوج.

فقالت له ابنته: تزوج.

فتزوج من امرأة حقود لا تحبّ الخير للناس ولا لمن هم حولها، وكانت تحقد على ابنة زوجها وزاد حقدها عليها بعد أن رزقت بابن وابنة قبيحة، فكانت تعامل

---

(١) سبب تسمية الجن أن إبليس كان له ملك سماء الدنيا وكان ينحدر من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجنّ وسمّوا الجن لأنهم خزان الجنة، كما أن العرب عبدوا الجنّ لكون النار أفضل من الطين. - موسوعة الفولكلور والأساطير، شوقي عبدالحكيم.

ابنة زوجها كخادمة وتعطيها فتافيت العيش فترميه وتقول:

يا عجلتي يا عجلتي

أشتهي طعام ما مثله مثل

وأشتهي شراب ما مثله مثل

فتفتح العجلة فمها وتقدم لها ما لذ وطاب من الشراب والمأكل، وكانت عمتها تستغرب من صحتها وعافيتها، فأرسلت ابنها وقالت له:

- شوف اش تاكل، نحن نرسل لها فتافيت الأكل فبدل ما تضعف تصح.

فذهب الابن بالأكل إليها، وأعطاها وانتظر معها، فقال لها: أنا أحبك وأمي قالت لي كيت وكيت.

فقالت له: لو أخبرتك السبب هل تخبر أمك؟

فقال لها: لا.

فقالت: يا عجلتي يا عجلتي

أشتهي طعام ما مثله مثل

وأشتهي شراب ما مثله مثل

ففتحت العجلة فمها وأخرجت لها ما لذ وطاب من الأكل والشراب وأكل معها أخوها وعاد، فسألته أمه عن أكل ابنة زوجها فقال لها: أكلت الأكل اللي أعطيتها.

واستمر مع أخته زمناً، فشكّت الأم في أنّ ابنها يكذب عليها، فأمسكته وأرسلت ابنتها القبيحة، فذهبت البنت القبيحة ومعها الأكل، فقالت لها أختها: أين أخوك؟

فقالت لها: أمي منعته وأنا من اليوم أجيب لك أكلك.

فأخذته منها وتركته على جنب، وقالت لها: لو أخبرتك بخبر هل تخبري أمك؟

فردت عليها وقالت: مش رايحه أخبر أمي.

فقالت البنت لعجلتها:

يا عجلتي يا عجلتي

أشتهي طعام ما مثله مثل

وأشتهى شراب ما مثله مثل

وأكلت معها وعادت وأخبرت أمها، فعرفت الأم أنّ تلك العجلة لها قصة وأقسمت على ذبحها، وذهبت إلى زوجها وهي تتدلل عليه وقالت:

- أنا حامل واشتهت نفسي أكل لحم عجلة بنتك.

فذهب الأب وقال لها: عمّتك تتوحّم وتبغى من لحم عجلتك.

فأخذت البنت تلاطفه وتقول له إنها لا تحب في الدنيا إلا هذه العجلة، ويمكن أن تأكل عمتها أي لحم، فتراجع أبوها، لكنّ عمتها ظلت خلفه حتى أجبر ابنته على ذبح عجلتها فأعطته عجلتها وقالت لها:

يا عجلتي يا عجلتي
لو مسكوك ما تنمسكي
لو ذبحوك ما تنذبحي
ولو سلخوك ما تنسلخي
ولو قطعوك ما تتقطعي
ولو طبخوك ما تنطبخي
ولو أكلوك ما تناكلي
وان أكلوك حلوى في كل فم
وفي فم عمتي علقم

وجاؤوا ليمسكوا العجلة فلم تمسك، فضرب الأب ابنته حتى أمرت عجلتها: يا عجلتي امسكي، فامتسكت.

فجاؤوا ليذبحوها فلم يستطيعوا ذبحها، فضرب الأب ابنته حتى أمرت عجلتها: يا عجلتي انذبحي، فانذبحت.

وجاؤوا ليسلخوها فما انسلخت، فضرب الأب ابنته حتى أمرت عجلتها: يا عجلتي انسلخي، فانسلخت.

وجاؤوا ليطبخوها فما انطبخت، فضرب الأب ابنته حتى أمرت عجلتها: يا عجلتي انطبخي، فانطبخت.

فجاؤوا ليأكلوها فلم تؤكل، فضرب الأب ابنته فأمرت عجلتها: يا عجلتي انأكلي، فانأكلت.

وأصبح من يأكل من لحم العجلة يقول: والله لم أذق في حياتي لحماً كلحم

هذه العجلة، وجاءت العمة لتأكل فتحول اللحم في فمها إلى علقم، فرمته على الأرض، وقام الأب وضرب ابنته حتى أمرت عجلتها: يا عجلتي كوني حلوة في فم عمتي، فأكلت العمة لحم العجلة حتى انبشمت من كثر الأكل.

وأرادت العمة أن تثأر من البنت فقالت لها: روحي جيبي لي منخل الغوريلا.

ومنخل الغوريلا لا أحد يستطيع أن يحضره، ومن ذهب لإحضاره أكلته الغيلان، فخرجت البنت ولقيت في طريقها الباذنجان الأبيض فقالت له:

- يا باذنجان لونك حلو.

فقال لها: يجعل لوني في وجهك ما هو في شعرك.

فأصبح لون وجهها أبيض جميل.

وعندما مشت قليلاً وجدت في طريقها الباذنجان الأسود فقالت له: يا باذنجان يا أسود لونك حلو.

فقال لها: يجعل لوني في شعرك ما هو في وجهك.

فأصبح لون شعرها أسود غامق جميل.

ومشت قليلاً فوجدت في طريقها الفلفل الأحمر فقالت له: يا فلفل يا أحمر لونك حلو.

فقال لها: يجعل لوني في خدودك ما هو في عيونك.

فأصبحت خدودها حمراء جميلة.

ومشت قليلاً فوجدت الفلفل الأخضر فقالت له: يا فلفل يا أخضر لونك حلو.

فقال لها: يجعل لوني في عيونك ما هو في خدودك.

فأصبحت عيونها خضراء جميلة.

وسارت باتجاه بيت الغولة، فوجدت بائع سمسم فقال لها: يا ابنتي اشتري من سمسم عسى يفيدك.

فرقّت لحاله واشترت منه سمسماً ومضت إلى بيت الغولة، فوجدتها تهرش جسمها وتصيح من شدة أكلان القمل، فسلمت عليها فقالت لها: لولا سلامك لأكلت لحمك وبقيت عظامك.

فجلست البنت بجوارها فقالت لها الغولة: أطلب منك تفليتي وأكل قملي ولا أكلتك.

فقامت البنت وأخذت تفلي الغولة وترمي قملها وتأكل من السمسم الذي اشترته، وكلما فلّتها قالت لها: قملك حلو يا ستنا الغولة.

فأسعدت بقولها، وقالت لها: هيا قومي نظفي البيت وعلفي للدواب.

فقامت البنت ونظفت البيت وعلفت للدواب دون أن تشتكي أو تتذمر، فارتاحت لها الغولة وقالت لها: ما هو طلبك؟

فقالت البنت: أبغى منخلك.

فقالت لها الغولة: انزلي للبئر وستجديه هناك.

فنزلت البنت للبئر، فصاحت الغولة:

يا بيري يا بيري

البسيها الجواهري والحريري

وأخذت المنخل وسلّمت على الغولة، وعادت إلى عمتها بمنخل الغولة. حقدت عليها عمتها عندما رأت جمالها وما تلبسه من الجواهر والحرير، فأمسكت بها وضربتها ضرباً مبرحاً وسجنتها بمخزن الفحم، وقالت لابنتها: اذهبي وأحضري لي منخل الغولة عسى أن تعودي جميلة مثل أختك.

فخرجت البنت القبيحة، وفي طريقها وجدت الباذنجان الأبيض فقالت له: يا باذنجان يا أبيض لونك شين.

فقال لها: يجعل لوني في شعرك ما هو في وجهك.

فأصبح لون شعرها مثل العجائز وقبيح المنظر.

ومشت قليلاً فوجدت الباذنجان الأسود فقالت: يا باذنجان يا أسود لونك شين.

فقال لها: يجعل لوني في وجهك ما هو في عيونك.

فأصبح وجهها أسودَ قبيحاً، ومشت قليلاً فوجد الفلفل الأحمر فصاحت به: يا فلفل يا أحمر لونك شين.

فقال لها: يجعل لوني في عيونك ما هو في خدودك.

فأصبحت عيناها حمراء قبيحة.

ومشت فوجدت الفلفل الأخضر فقالت له: يا فلفل يا أخضر لونك شين.

فقال لها: يجعل لوني في خدودك ما هو في عيونك.

فأصبحت خدودها خضراء ووجهها أسود وشعرها أبيض وعيناها حمراوان، وزاد قبحها قبحاً، ومشت فوجدت بائع السمسم فقال لها: يا ابنتي اشتري مني سمسم قد تحتاجينه.

فسخرت منه وعنفته ومضت ودخلت إلى الغولة ووجدتها تحكّ جسمها من كثر القمل، فلم تسلّم عليها، وسخرت من حكها، فقالت لها الغولة: فليني وأعطيك ما تريدين.

فجلست البنت القبيحة تفليها وتقول: قملك كبير ومقرف.

فغضبت منها، وطلبت منها تنظيف البيت والتعليف للدواب فرفضت فقالت لها الغولة: ما هو طلبك؟

فقالت: أبغى منخلك.

فقالت لها الغولة: انزلي للبئر وستجدينه. فنزلت فصاحت الغولة:

يا بيري يا بيري

ألبسيها الدودي والثعابيني

ولم تعطيها المنخل، فعادت الى أمها أكثر قبحاً ممّا مضى.

أما صاحبة العجلة فلم يتعرف عليها أبوها بعد سجنها بداخل مخزن الفحم، فطردها، فخرجت حزينة وأصابها العطش فنزلت لتشرب من النهر فرأت وجهها فحزنت كثيراً، وأخذت تبكي فخرج إليها بائع السمسم وتذكر صنيعها معه وقال لها: هذا ما فعلته زوجة أبيك، وأنا جني مسلم وقد ساعدتيني في يوم كذا وكذا، وأنا أحملك جميلك، وهذه ثلاث تفاحات كلي كلّ يوم تفاحة وسيعود إليك جمالك.

فأخذتها منه، وأكلتها فعادت كما كانت، وفي الطريق وجدها أمير فرقّ لحالها وطلبها لأن تكون زوجته، فوافقت بشرط أن يذهب معها إلى أبيها حتى يتعرف عليها وتخبره بخبر عمتها فوافق، وذهبا إلى أبيها وأخبرته بالحكاية من البداية للنهاية، فطلّق زوجته وزوّج ابنته للأمير.

رواية حنان محمد سليم الرفاعي

يا شمس

قلنا وقلكم[1]

- مننا ومنكم

من واحد

- الواحد الله

قال: في زمان من الأزمنة مات رجل وخلّف زوجته وابنته، وكانت البنت مثل فلقة القمر، «تقل للقمر بعد وأنا أجلس محلك»،[2] وكانت أمها تغار من جمالها، وتتعجب من حسنها، وكلما مرت الأيام «زادت البنت حسن على حسن»، فأصبحت الأم تكره ابنتها، وتحاول أن تبدو أجمل منها في كل شيء،[3] فكانت تمنعها من

---

(١) تستخدم هذه البداية كاستهلال لكلّ حكاية حيث يبدأ الراوي بقوله: قلنا وقلكم
فيرد المستمع: مننا ومنكم
فيبدأ الراوي بقوله من واحد
فيرد المستمع: الواحد الله
عندها يبدأ الراوي بسرد حكايته.

(٢) هذه الجملة تستخدم لبيان جمال الموصوفة دون الدخول في التفصيلات.

(٣) كل امرأة جميلة ترى أنها الأجمل وأن لا فتاة تضاهيها في جمالها، وهذا الشعور كان المرض الذي أصاب ميدوسا فالأسطورة تقول (أنها كانت فتاة إغريقية جميلة جداً. لكنها اغترت بجمالها واشتد غرورها وزعمت أنها أجمل امرأة في الكون فتحولت إلى حيوان قبيح الخلقة وتبدل شعرها بثعابين وأصبح لها وجه بشع. وكان كلّ من ينظر إليها يتحول إلى حجر. وقد تمكن « بيرسيوس»، بفضل حذائه المجنح وخوذة هاديس ودرع أثينا وسكين هيرميس، من قطع رأسها. وقد استخدم بيرسيوس رأسها ضد أعدائه).

الاغتسال ومن «الغسل» و«التطيب»،[1] وانشغلت هي بالتزين ولبس الملابس الفاخرة، وكانت كلما وقعت عينها على ابنتها رأت جمالها الفاتن بالرغم من منظرها البائس والثيابها المرقعة، فلا يزيدها ذلك إلاّ حقداً وكرهاً لابنتها.

وفي يوم من الأيام فكرت الأم أن ترى مقدار حسنها وجمالها مقارنةً بابنتها فنهضت من نومها و«تحنّت» و«تشظرت» و«شرخت» و«عذقت» و«شلفت» بأنواع متعددة من الفلّ والكاذي والعزاني[2] فبدت كقمر ليلة «أربعطش»،[3] ومع صياح الديكة فتحت نافذتها مع بزوغ الشمس، وظلت تتباهى بزينتها وجمالها، وعندما تذكرت فتنة وجمال ابنتها تحسّرت وأسرّت للشمس[4] بمرارتها وقالت تخاطبها:

---

(١) - «الغسل» هو غسل الجسد كاملاً مع استخدام بعض الأعشاب ذات الروائح الذكية. «التشريخ» وضع اللباب على الرأس وتخلل به خصلات الشعر كاملة بعد أن يطحن وتدخل به مواد معطرة، و«التطيب» (بكسر الطاء) هو اللباب بعد أن يوضع على الرأس، و«التطيب» (بفتح الطاء وضم الياء) وضع العطور المحلية على الجسد.

(٢) «تحنّت» وضعت الحناء على راحة يدها، وهو سابق لشظار، و«الشظار» وضع مواد مخلوطة مكونة من الشب والحطم لتصبح راحة اليد سوداء بنقوش جميلة وبديعة، و«التشريخ» فرد الشعر وتخليله بالطيب المكون من اللباب الذي يسحق ويخلط بقليل من الماء ويضاف إليه بعض العطور المحلية، ويقال: عذقت المرأة رأسها، أما «الشلف» فهو وضع أنواع من الزهور ذات الروائح الذكية مثل الفل والكاذي والعزاني بين الجدائل.

(٣) توصف البنت الجميلة بقمر ليلة أربعطش لاكتمال البدر وظهوره في أحسن حالاته.

(٤) الشمس إله عُبد في فترة زمنية موغلة في القدم، وهذه الحكاية حافظت على نقل تلك العبادة بصورة أو أخرى، قال الله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ وهو الخبر الذي حمله الهدهد إلى نبي الله سليمان.

ونجد أن الزرادشتية تؤمن (أن للشمس دورها في تطهير العالم والمخلوقات بوصفها عين مزدا، فكل من يدنّسه الشيطان أهريمن يطهّره إله الشمس، بل إن الأمر يتجاوز ذلك، فهناك علاقة قوية بين الشمس والوجود البشري، فأصل البشر منها، وستعود أرواحهم إليها، فهي رمز البداية". ففيها نطفة آدم أو الإنسان الأول (يومرث) وهو لا يماثل آدم في الكتب الدينية الأخرى، ولكنه مخلوق من البقرة المقدسة فحينما مات الإنسان الأول صعدت نطفته المقدسة إلى الشمس لتتطهر، ثم عادت واستقرت في الأرض لأربعين عاماً، وبعد ذلك نتج أول ذكر وأنثى".

ومن ضمن الطقوس المؤكدة فكرة تقديس الشمس والنور، أن الموتى في الزرادشتية يدفنون في أعلى الجبال، ولذلك فكرتان، الأولى أن الميت نجس لأن الموت من فعل الشيطان =

- يا شمس. . . يان أحلى أنا ولا بنتي؟![1]

فأجابتها الشمس:

- لعبة تلعب بقلبك. . . بنتك أجمل وأحلى.

فأغلقت الطاقة في وجه الشمس بضيق، ونزلت غاضبة، واتجهت إلى مرقد ابنتها، وأمسكتها من شعرها الأسود الطويل جداً ولفته على يديها، وتناولت عصا، وانهالت على ابنتها ضرباً موجعاً، والبنت تتلوى بين يديها ألماً دون أن تعرف لهذا الضرب سبباً، وأصبحت من عادة الأم أن تمضى الليل بطوله تتزين حتى ترضى عن زينتها وجمالها، ومع بزوغ الشمس تصعد لطاقتها، وما أن ترى الشمس صاعدة حتى تسألها بلهفة وتوسل وكلها رغبة في أن تسمع جوابا غير الذي تسمعه دائماً، وتقول:

- يا شمس. . . يان أحلى أنا ولا بنتي؟

فتردّ عليها الشمس باحتقار:

- لعبة تلعب بقلبك. . . بنتك أحلى وأجمل.

فتنزل من طاقتها وتضرب ابنتها ضرباً مبرحاً، والبنت تبكي بكاء يقطع القلب،

= أهريمن، فالجسد طالما به حياة فهو ملك لأهورامزدا، ولكن حال موته لم يعد يمتّ له، وإنما الروح النورية فقط هي المتبقية في حالة طُهر لأنها نور مزدا، لذا فيتم دفن الموتى في أعلى قمم الجبال بعيداً عن المقدس الأرضي، ولكن هناك تأويلاً آخر للطقس نفسه، فالغرض من الدفن الجبلي هذا هو الاقتراب من الشمس فهي تأتي من خلف الجبل وتعود إليه، وبالتالي فالميت سوف يتطهّر من دنس موته الشيطاني لدى اقترابه من مكان الشمس، حتى أن الملوك كانوا يدفنون هناك رغبة في البركة، ويُودّعون بجملة: (فلتذهبوا إلى جنة الشمس - الوحدانية في الديانة الزرادشتية (صراع المقدس والمدنس).

أحمد لاشين مقال نشر في السند يوم ١٩ - ١٠ - ٢٠٠٩.

(١) يا شمس، من أجمل: أنا أم بنتي؟

نجد الشمس مؤنثة في جنوب الجزيرة العربية ونجدها مذكرة في شمال الجزيرة العربية حيث كان يسمونها إل حمون وبعل حمون، ولها ولكوكب الزهرة مجموعة أسماء تطلق وفق تعارف الناس عليها. ومن أسماء كوكب الزهرة عثتر شرقن (أي عثتر الشرقي) وهو نجمة الصباح، وهو كالشمس يذكر في الشمال حيث كانوا يسمونه عشتر وعشتروت، ويؤنث في الجنوب. (أساطير من تاريخ اليمن، حمزة علي لقمان، دار المسيرة ببيروت، ط٢، ١٩٨٨، ص ص٢٨-٢٩).

ولا زالت الأم على هذه الحالة، تتزين وتصعد لطاقتها، وتسأل الشمس، فتردّ عليها بردّها الدائم:

- لعبة تلعب بقلبك. . . بنتك أحلى وأجمل.

فضاقت بابنتها، وأخذت تفكر في الخلاص منها، وبعد تفكير طويل اهتدت إلى حيلة تخلصها من ابنتها وعزمت على تنفيذ فكرتها.

وفي ذات صباح استيقظت الأم من منامها وأيقظت ابنتها بهدوء، فخافت البنت وتوقعت أن تضربها كالعادة واستعدّت بوضع يدها على ظهرها لتحتمي من تلك الضربات المتوالية، إلاّ أنّ الأم حضنتها وهي تمسد على شعرها مبديةً الحب، وقالت لها:

- واه يا بنتي أنا لحبك وقد نذرت من زمان آن هبالي ربي بنت لزورها قبر السيد امناجي، وافرق عند قبره عيش وتمر، ورأيت في امنام أني زاورتبك، ولازم ذحين أوفي بنذري، هيا قومي استعدي لزيارة امناجي.[1]

وحثتها للتهيؤ والاستعداد للخروج لقبر السيد المناجي، فقامت البنت ولبست إحدى «كرتها» المرقعة، وخرجت في أثر أمها التي أمسكتها من يدها، وأخذت تخبّ بها الخلاء، فكانت السهول تبتلعهما والجبال ترفعهما والرياح تعريهما وما زالا عابرين القفار والأودية[2] حتى ابتعدتا عن بلدتهما، ولم تعد البنت تعرف أين هي. وقفت الأم تتطلع إلى الخلاء الموحش متيقنة أنها لو تركت ابنتها هنا فلن تنجو أبداً من «عراج»[3] ضالّ أو ذئب جائع أو أفعى زاحفة. فرحت لهذا الخاطر، ولكي تتأكد من عدم سلامة ابنتها فقد توسطت الخلاء، وقبل حلول الغروب بقليل توقفت الأم ضاربةً على صدرها ومبديةً الندم على نسيانها كبش النذر، وخاطبت ابنتها:

---

(١) النذر للقبور كان منتشراً في جنوب الجزيرة العربية، وهناك العديد من القبور التي تزار ويذبح لها، ومن أشهر تلك المزارات قبر المناجي وهو قبر باليمن يزار ويذبح له.

(٢) حينما يعبرون عن قطع المسافات البعيدة يقولون: تا البلاد تشله وتا البلاد تحطه.

(٣) العراج هو الضبع، وله أسطورة معروفة تعرف بالنبّاش يقوم بنبش القبور في حالة اختياره لشخص ما، إما عن طريق دعوة لمظلوم أو لذنب اقترفه في حياته ويسمعه قبل الموت يصيح به: حلالتى بك ويعقب عقبك (أي أنت وذريتك حلّ لي بعد مماتك) ومن يسمع هذا النداء يوصي ذويه بالمرابطة على قبره لثلاث ليال حتى ييأس النبّاش من نبش القبر ويكون الميت قد نجا من هذا العقاب.

– واه يابنتي. . . نسيت كبش امنذر حاويلي هنا وأنا أبكله وأعود لك.[1]

فاستجابت البنت لكلام أمها، وجلست بذلك الخلاء تنتظر عودتها، وتحركت الأم عائدةً إلى بلدتها وهي جازمة من أنها ستتخلص من هذه الابنة التي حوّلت حياتها إلى عذاب دائم. . . وبقيت البنت تنتظر إلى أن دخل الليل وخرجت «هوامه» تسعى وتجوب هذا الخلاء الموحش، فكانت تسمع عواء الذئاب وفحيح الأفاعي، فاستشعرت بالخوف، وانكمشت في ثيابها باكية، وعندما سمعت أصوات الذئاب تقترب منها تحركت من مكانها تبحث لها عن مأوى، فأخذت تبحث عن شجرة تتسلقها وتأوي على أغصانها أو عن كهف أو جبل تصعده فلم تجد شيئاً حيث كان الخلاء ممتداً كميت سارت على جسده الهوام والزواحف، وليس به مكاناً مرتفعاً أو شجرة تحملها، فظلّت تسير دامعةً خائفة حتى دخلت مقبرة موحشة فتمنّت الموت على أن ترى الحيوانات الكاسرة تمزقها وهي حية، وعندما بلغ بها الخوف حدّاً لاتقوى عليه قررت أن تدفن نفسها، وأخذت في تلك الظلمة تبحث عن أداة تحفر بها قبراً، وفي بحثها وجدت حجرة كبيرة حركتها فانبثق من أسفلها نورٌ ضئيل فأزاحتها تماماً فإذا بها أمام «دبب»[2] فنزلت فيه وأعادت الحجرة إلى مكانها وسارت بداخل الدبب فأفضى بها إلى بيت مكون من سبع غرف[3] ومطبخ ودارة، فتسللت إلى المطبخ وملأت بطنها وقامت من حينها وكنّست ونظفت وجهزت «القروع»[4]

---

(١) معني الجملة: واه يا ابنتي، نسيت كبش النذر. . . انتظريني هنا وأنا أذهب لإحضاره وأعود إليك.

(٢) «الدبب» يقصد به النفق.

(٣) ورود كلمة غرف بهذه الاسطورة فالمنطقة لم تكن تعرف الغرف وكانت منازل القرى مكونة من عشش أو عرئش ونادرا ماتكون هناك غرفة وإن وجدت فيطلق عليها لفظ (مربعة)،وأقول غريب لأن هذه الاسطورة عمرها أكثر من مائة وخمسين عاماالأن التى روتها روتها عن جدتها نقلا عن جدتها والراوية حين روت كانت في الخمسين تقريبا وقد تكون هذه الاسطورة من اختلاق منطقة أخرى غير المنطقة التهامية من شبة الجزيرة العربية .

(٤) القروع هو وجبة الافطار وهناك عدة وجبات في اليوم لها مسمياتها ودلالاتها فما يؤخذ بعد الاستيقاظ يسمى صفارة وعادة ما تكون وجبة خفيفة لفتح الريق تتكون من بعض الحلوى المحلية مثل المشبك والزنبطيا والحلوى التركية مع شرب القهوة وممكن أن يكون معها المطبق والزلابيا وهي أكلات تصنع من الدقيق كرقائق ذات سمك نحيف ثم هناك وجبة =

وعادت إلى مخزن الحبوب وتكوّمت على نفسها ونامت.

وكان يسكن في هذا البيت سبعة إخوة أقزام[١] ليس عندهم امرأة تقوم على شؤونهم، وكان من عادتهم أن يقوم كلّ يوم واحد منهم بمهام البيت من كنس وتنظيف وغسيل وإعداد وجبات الطعام، وحين دخلت البنت عليهم كان دور الأخ الأكبر في تنظيف البيت وتجهيز الطعام، وفي ذلك اليوم نهض الأخ الأكبر مع طلوع الشمس[٢] وغسل وجهه واستعدّ لتجهيز «القروع» فوجده جاهزاً ووجد البيت نظيفاً مرتباً، فأصابته الدهشة، فأخذ يتحرك في كلّ أنحاء البيت فلم يجد أثراً لأحد فقال في نفسه:

- كنه واحد من أخواني قام وساعدني.

وكتم أمره وتشاغل قليلاً وأيقظ إخوته، وحينما جلسوا إلى مائدة الإفطار قالوا له:

- أنجزت أمقروع في امحال عسى ماوطيت.

فحكّ رأسه بفرح وردّ عليهم:

- معونة الله.

وتناولوا فطورهم وخرجوا لأعمالهم، فقامت البنت من مكانها وطبخت ونظفت البيت وغسلت الأواني وجهّزت الغداء، وعندما سمعت حركتهم عادت إلى مخبئها، ودخل كلّ منهم إلى غرفته ليرتاح وتبقى كبيرهم لكي يعد لهم الغداء، وعندما دخل

= القروع وتتكون من الفول والسمك والبيض والدجراء ثم وجبة الغداء وتختلف باختلاف حالة الناس وهناك وجبة اسمها الهراشة وتؤخذ قبل الغروب وعادة تكون خاصة بالمزارعين العائدين من حقولهم مع الغروب أما وجبة العشاء فليست منتظمة عند الكثيرين فالبعض يتناولها والبعض يكتفي بالهراشة وقد يعود ذلك الى أن معظم الناس تنام بعد صلاة العشاء مباشرة .

(١) الأقزام في الأسطورة يمتلكون الحكمة والشجاعة وهم يذكروننا بأسطورة الفيس، وقد ذكرت نبذة عن هذه الأسطورة في أسطورة المنتوف.

(٢) تذكر الحكاية الدبب (النفق) على أنه بداخل المقبرة وهو مكان موحش لكنها لا تسلط الضوء على سبب تواجد هؤلاء الإخوه في هذا المكان كما توحي الحكاية أنّ هذا الدبب أسفل الأرض لكنها تتناسى هذا بذكر شروق الشمس عليهم وكذلك خروجهم ودخولهم أثناء العمل دون أن تقدم تفسيرات مقنعة لهذا المكان وكأنّ الراوي الأول أوجده فقط لكي يحدث نقلة للقصة دون الاهتمام بمنطقية المكان

إلى المطبخ وجد كلّ شيء جاهزاً فاستغرب وفكّر لو أنّ أحد إخوانه ساعده في تجهيز «القروع»، فمن ساعده في تجهيز الغداء؟ فكلهم عادوا معه، ووسوس أنّ الله سخّر له أحد الجن لمساعدته لأنه لم يسيء إلى أحد في حياته وفرح بهذا الخاطر، وتشاغل قليلاً وذهب لإيقاظ إخوته فبادروه بقولهم:

-اليوم انت شلح (اليوم أنت نشيط)

فردّ عليهم: أعانني الله، بس حسكم عينكم (لقد أعانني الله، فقط اكفوني من عيونكم)

فتغدوا وهم منشرحين وتبادلوا الأحاديث وخرجوا في العصرية للتنزه، وعادوا مع الغروب وناموا.

وفي اليوم التالي كان دور الأخ الذي يلي الكبير، وقد حدث له مثل أخيه بالتمام والكمال، واستمرت الحال مع بقية الأخوه كما حدث لكبيرهم، وعندما جاء دور الأصغر، وكان أكثرهم حكمةً ورجاحة عقل،[1] فما أن استيقظ ووجد كلّ شيء جاهزاً أيقظ إخوته في الحال، وبينما هم جلوس على المائدة قال لهم:

- تدروا اليوم ما وطيت شي، لقيت كل شيء جاهز.

(أتدرون، لم أعمل شيئاً اليوم، فقد وجدت كل شيء جاهزاً)

قال كبيرهم: وأنا مثلك.

وتصايحوا كلهم: وأنا مثلك... وأنا مثلك.

فقال أصغرهم: في بيتنا غريب، قوموا ندور عليه.

فهبّوا جميعهم للبحث عن الغريب الذي ببيتهم، وانطلق كلّ واحد منهم يبحث في ركن من أركان البيت، وعندما لم يجدوا شيئاً قال صغيرهم:

- دوروا في امدوار.[2]

فتراكضوا جميعهم إلى المخزن، وما أن فتحوه حتى وجدوها خلف أكياس الحبوب نائمة، فهالهم جمالها فتصايحوا وصرخ كلّ واحد منهم:

---

(١) في معظم الحكايات يكون الأخ الأصغر صاحب المميزات الأفضل، كرجاحة العقل إذا كانت الحكاية تدور في مجال الحكمة، أو الجمال إذا كانت الحكاية تتحدث عن الجمال وهكذا.

(٢) «الدوار» هو المخزن ويخزن به -عادةً- أكياس الحبوب والعجّور، و«العجّور» هو علف البهائم، عبارة عن أعواد القصب اليابسة.

- هي لي، أنا رأيتها قبلك.

فاستيقظت من نومها على صراخهم وقد اشتدّ بينهم الشجار، وادّعى كلّ واحد منهم بأحقيتها بالفتاة، وعندما لم يفلح الصوت في إثبات تلك الأحقية أخرج كلّ واحد جنبيته وأشهرها في وجهه أخيه، فصاح فيهم أخيهم الأصغر:

- وا عيباه على حرمة تشون تتقاتلون ونتم اخوه مالكم مجرى لعقولكم.

فوقفوا صامتين، فصاح أخوهم الصغير:

- ربنا ما رزقنا بخية لمه ما تكون تا البنت أخت لنا وكل واحد منا له نصيب فيها مالها أخته.

فتصايحوا جميعهم:

- عفارم عليك، هذا هو امرأى.

وتعاونوا في إخراجها من بين أكياس القمح، وكلّ واحد يتودد لها ويتقرب منها، وقاموا من حينهم وبنوا لها غرفة تتوسط غرفهم وأحبوها حباً جماً، فبادلتهم حباً بحب وأصبحت بينهم بمنزلة القلب من الجسد، وكان كلّ واحد منهم مستعد أن يقدّم حياته دونها، وكان كلّ واحد منهم يعود من عمله وهو يحمل لها هدية فأصبح لديها من الذهب والطيب والأقمشة الشيء الكثير.

وعاشت بينهم سعيدة.

وفي أحد الأيام تحرّك حقد الأم المدفون في صدرها على ابنتها وحنّت أن تعرف مقدار جمالها بعد موت ابنتها في الخلاء، فقامت تتزين، فتحنّت وتكحّلت وتطيّبت و«شلفت»، وصعدت إلى نافذتها، ومع بزوغ الشمس قالت:

- يا شمس... يان أحلى: أنا ولا بنتي؟[1]

(١) إيراد الشمس كمحرّك للأحداث ومنبئ عما يحدث للبطلة لا أصوره عبثاً، ففي الثقافة الفرعونية يمثل رع إله الشمس واعتقد أن إيراد الشمس في الحكاية هو استعادة لهذا المعبود بصورة أو أخرى.
ورع (إله الشمس) هو أشهر الآلهة ويعتبره الفراعنة الأصل في حياة كل شيء ويطلق عليه (في الثقافة نفسها أيضاً) الخالق العظيم الواحد، وتقول الأسطورة إن رع خلف أربعة بنين وأربع بنات وتم تزويجهم ببعض: فشو وتفنوث كانا رمز الهواء والماء، وجب ونوت رمز الأرض والسماء، وأزوريس وإيزيس رمز النيل والتربة، وست ونفتيس رمز الصحراء والضواري. =

فأجابتها الشمس:

- لعبة تلعب بقلبك... بنتك أحلى وأجمل. بكتن بها للمخبت تشين تموتينها لكنها دخلن امجنة ولقين حجر زحته ولقين دبب ومشيت فيه وحصلن سبعة اخوه وعملوا معها كيت وكيت ولو بكتن لها لقطعوك ورموك للكلاب.

فنزلت من نافذتها غاضبةً وهي تصيح:

- الله أبوها عادها عايشة.

وقامت من حينها وارتدت ثوبها الذي كانت ترتديه يوم أن تركت ابنتها بالخلاء بعد أن مزقته من جهات متفرقة، ووضعت على رأسها «مظلة» خزفية تقيها أشعة الشمس، وحملت بيدها زنبيلاً متهتكاً، ومضت إلى حيث تركت ابنتها، وما زالت مسافرة «تا البلد تشلها وتا البلد تحطها»، وعندما بلغت المكان الذي تركت فيه ابنتها وأخذت تبحث عن الحجر الذي وصفته لها الشمس حتى إذا عثرت عليه اطمأنت وأخذت «كراع»[1] من عظام أحد المتوفين ووضعته بزنبيلها وأزاحت الحجر ومشت بـ«الدبب» حتى وصلت إلى غرف الإخوه السبعة، فوجدت أنهم كانوا في أعمالهم ووجدت ابنتها تجلس في غرفتها انتظاراً لمقدم إخوتها، فأسرعت نحوها وحضنتها وانهالت عليها تقبلها وتبكي، وعندما رأتها ابنتها خافت وحاولت أن تتخلص من يدها لكنّ الأم كانت تبكي بحرقة وتقول:

- فيانك يا بنتي عودت بمنذور ودورت وراك في كل مكان لكني ما لقيتك، وآآآه يا ست مي، أيتي طعمي منذا الحنيد بقيته لك من كبش امنذر.

ابتعدت البنت عن أمها مذعورة وأخذت تدفعها عنها بيدها، إلاّ أنّ الأم جذبتها بقوة وحشرت «الكراع» الذي تحمله معها بحلق ابنتها حتى توسط حنجرتها، وتركتها وخرجت مسرعة فيما بقيت البنت جاحظة العينين وليس بها عرق ينبض.

- وعندما عادوا إخوتها وجدوها على حالتها التي تركتها عليها أمها، فتصارخوا

= والمخيلة البدائية لم تكن تتصور أن الإله لا يلد، فهم يتعاملون مع الإله كما هي عليها حياتهم فإذا تكاثروا بالتزاوج فلا بد أن الآلهة تتكاثر بالتزاوج فلذلك نجد أنها تستعير صيغة ما لتزاوج الإله وأيضاً نجد أن العقلية الأولى خلطت بين ما حدث لذرية آدم كتكاثر وبين الآلهة، ولهذا استعارت الطريقة نفسها التي تكاثر بها البشر لتجعلها طريقة لتكاثر الآلهة.

(١) «الكراع» هو الساق.

وتباكوا وحاولوا جاهدين أن يصنعوا شيئاً لأختهم، لكنّ محاولاتهم ذهبت سدى، فجلسوا بجوارها ينوحون لفترة طويلة، عندها قال كبيرهم:

- ماشي فايدة اختنا ماتت هيا قوموا نقبرها.

لكنّ أصغرهم رفض أن تقبر معللاً أنّ جسدها ما زال دافئاً، واقترح أن يقذف بها في البحر، وقد وافق البقية على هذا الرأي وخرجوا وأحضروا صندوقاً خشبياً لا يخترقه الماء وهيئته كالقبر وله قفل من الخارج،[1] وغسلوها وألبسوها أفخر ملابسها ووضعوا معها جميع مجوهراتها وذهبها وملابسها، وأغلقوا عليها الصندوق، وخرجوا يحملونه باكين ومتحسرين على فقدانها، وعندما بلغوا البحر قذفوا بالصندوق وعادوا حزينين منكسرين على فراقها، وظلّ الصندوق «يصبو» لعدة أيام والأمواج تتقاذفه حتى انتقل إلى بلاد بعيدة، وكان في هذه البلاد سلطان عادل أمين يحب الخير للجميع، وقد انتشر بحارته في البحور السبعة يتفقدون أحوال الناس ويمنعون لصوص البحر من الاعتداء على المراكب المبحرة في تلك البحور، وفي إحدى رحلاتهم لمحو صندوقاً يعلو ويهبط في عرض البحر فاقتربوا منه وانتشلوه وقال رئيسهم:

- يشبه صناديق امسلطان كنه فلت من أحد سفنه.

وحملوه معهم حتى وصلوا به إلى قصر السلطان وأخبروه بخبر الصندوق فنفى أن يكون الصندوق من أملاكه وأوصى خدمه أن يوضع في المخازن علّ أحداً يسأل عنه، وأرسل منادياً بالبلد ينادي أن من ضاع له صندوق فليذهب إلى قصر السلطان، إلاّ أنّ أحداً لم يتقدم لطلبه، وبعد مضي عدة شهور قرّر السلطان أن يفتح الصندوق ويرى ما بداخله، فسار في حاشيته وبين خدمه إلى المخازن وأخرجوا الصندوق من بين البضائع وأمر بفتحه، وما أن ارتفع غطاء الصندوق حتى ظهرت تلك البنت الجميلة بملابسها ومجوهراتها ومن فوقها لؤلؤ ومن تحتها الذهب وكل أنواع

---

(١) ذكر في الحكاية «صندوق» بينما وصفه يدل على «تابوت»، ولم يذكر بهذا اللفظ، وهذا يدل أيضاً على أنها حكاية وافدة على المنطقة تمّ تحويرها كما يقتضى حال القرية، وإن ظلت محتفظة بسماتها الاساسية، إلاّ أنّ الغريب أنّ بحارة السلطان عندما وجدوا هذا الصندوق لم يتعرفوا عليه كونه تابوتاً وإنما ظنوا أن يكون من صناديق السلطان والتي تحمل بداخلها أي سلعة تجارية.

الجواهر والملبوسات؛ فتعجب السلطان لحالها وزاد عجبه حين رأى ذلك العظم الذي يتوسط حنجرتها، وظنّوها ميتة لكنّ السلطان مسّ يدها وقال لحاشيته:

- عاد بها روح.

وأمر مناديه أن ينادي في طول البلاد وعرضها عن حال هذه البنت ومن يستطيع تطبيبها فليتقدم إلى قصر السلطان وله ما يشاء من الذهب واللؤلؤ والياقوت، وجاء أطباء من شرق وغرب البلاد، وكلما رأوا حال تلك البنت قالوا:

- تا البنت ميتة.

لكنّ السلطان كان يردّد على مسامع حاشيته:

- عاد بدنها دافي... هاتوا حكماء جدد.

وتناقل الناس خبر تلك البنت التى عجز عن تطبيبها كبار حكماء البلد، وعن الجائزة المالية التى ضاعفها السلطان لمن يعرف تطبيب تلك البنت، وسمعت إحدى عجائز البلد الخبر، وكانت تمتلك خبرة في الطب ولا تعالج إلاّ الحالات المستعصية، فذهبت إلى قصر السلطان وأخبرت الحراس أنها قادمة لتطبيب البنت التى عجز الحكماء عن مداوتها، فسخر منها الحراس وطردوها، لكنّ السلطان سمع صريخ الحراس بها، فناداها وقال لها:

- تعرفين تداوين.

فقالت له:

- جربني يا سلطان الزمان مانت خسران شي.

فأمر السلطان بأن تعرض حالة البنت على المرأة العجوز،[1] وعندما رأتها

---

(١) كان طلب الطب عزيزاً، وقلة ممن يمتهن هذه المهنة والندرة من يكون حاذقاً بها فاهماً لها، وكانت هناك حالات يستعصى علاجها، ويقال إنه في أيام هارون الرشيد قد ولى عبيد الله المهدي مصر، فأهدى عبيد الله إلى الرشيد جارية من أهل البيما -صقع بصعيد مصر- وكانت جارية حسنة جميلة؛ وكان الرشيد يحبها حباً شديداً، فاعتلت علة عظيمة، فعالجها الأطباء، فلم تنفع بشيء، فقالوا له: ابعث إلى عبيد الله عاملك بمصر ليوجه إليك واحداً من أطباء مصر، فإنهم أبصر بعلاج هذه الجارية من أطباء العراق.

فبعث الرشيد إلى عبيد الله بن المهدي يختار له من أحذق أطباء مصر من يعالج الجارية. فدعا عبيد الله بليطيان بطريك الإسكندرية، وكان حاذقاً بالطب مشهوراً، فأعلمه بحب الرشيد =

أمرت بإحضار كماشة وسطل لبن فائر، فركض العبيد لتلبية طلبها، وعندما أحضروه أخذت الكماشة وأدخلتها بفم البنت وأمسكت بـ«الكراع» وانتزعته بقوة فتفجّر الدم من حلق البنت وسارعت العجوز بدلق اللبن الفائر بفم البنت، واستمرّت لثلاث أيام (تغرد) البنت باللبن الفائر، وفي اليوم الرابع استعادت البنت وعيها وبدأت تأكل وتشرب وما هي إلا أيام حتى استعادت البنت صحتها وعاد إليها جمالها الباهر، وبعد أن سمع السلطان أنّ المريضة استعادت صحتها وعافيتها أعطى العجوز ما طلبته من مال وودّعها شاكراً، وطلب رؤية البنت فقام الخدم وألبسوها أفخر الملابس وزيّنوها وأدخلوها عليه فسلبت حشاشته ووقعت في قلبه، فطلبها للزواج فوافقت وأقيم لها (هوبا) حضره القاصي والداني، ومدّت الموائد في جميع البلاد فأكل الفقير والغني، وزيّنت المدينة لعدة أسابيع متوالية، ودخل بها، وعاشت معه في سعادة وهناء ورزقت منه بولدين كان أكبرهما يتلقى علومه في الكتاب أما الثاني فلا زال رضيعاً في حجرها.

= للجارية وعلتها، وحمله إلى الرشيد؛ وحمل بليطيان معه من كعك مصر الخشن والصير - السمك المملح- فلما دخل بغداد، ودخل إلى الجارية أطعمها الكعك والصير، فرجعت إلى طبعها، وزالت عنها العلة، فصار من ذلك الوقت يحمل من مصر إلى دار الرشيد الكعك الخشن والصير «لكي لا تعتلّ جارية الرشيد الاثيرة».

وكما هناك طرف على جميع المهن في ذلك الزمان فإن للأطباء طرفهم أيضاً، ومن ما يروى أنّ هارون الرشيد أصيب بصداع شديد، فطلب طبيباً ماهراً كيما يعالجه، إذ لم يستطع من حوله علاجه، فذكر له بختيشوع، فاستقدمه، فضحك الرشيد، وأحب أن يجربه ويختبر مهارته، فقال الرشيد لبعض الخدم: أحضر ماء دابّة لهذا الطبيب حتى نجربه، فمضى الخدم وأحضر قارورة الماء، وجاء بختيشوع، فلما رأى القارورة قال للرشيد: يا أمير المؤمنين، ليس هذا بول انسان. وكان في المجلس جماعة من الأطباء المشهورين من مثل: أبو قريش عيسى، وعبد الله الطيفوري، وداود ابن سرابيون، وسرجس، ليشهدوا مراحل اختبار بختيشوع، فقال له أبو قريش: كذبت، هذا ماء محظية الخليفة. فقال له بختيشوع: لك أقول أيها الشيخ الكريم؛ لم يبل هذا إنسان البتة، وإن كان الأمر على ما قلت فلعلها صارت بهيمة، فقال له الرشيد: من أين علمت أنه ليس ببول إنسان؟ قال له بختيشوع: لأنه ليس له قوام بول الناس، ولا لونه ولا ريحه، فقال له الرشيد: ما ترى أن نطعم صاحب هذا الماء؟ فقال: شعيراً جيداً. فضحك الرشيد ضحكاً شديداً، وأمر فخلع عليه خلعة حسنة، ووهب له مالاً وافراً، وجعله رئيس الأطباء لمعرفته بصناعة الطب ومزاولته لأعمالها بحذق وفن".

وفي أحد الأيام تحرّك حقد الأم المدفون في صدرها على ابنتها وحنت أن تعرف مقدار جمالها بعد موت ابنتها بسبب العظم الذي حشرته بحنجرتها، فقامت تتزين فتحنّت وتكحلت وتطيبت (وشلفت) وصعدت لنافذتها ومع بزوغ الشمس قالت:

- يا شمس يان أحلى أنا ولا بنتي

فأجابتها الشمس:

- لعبة تلعب بقلبك بنتك أحلى وأجمل بعد ما عملتي لها (كيت وكيت) قام أخوانها السبعة وعملوا لها (كيت وكيت) حتى وصلت لقصر السلطان، وصار (كيت وكيت) وهي ذحين سلطانة وزوجة سلطان ولها ابنين سعيده بهم.

فنزلت من نافذتها غاضبة وهي تصيح:

- الله أبوها عادها عايشة

وتجهزت استعداداً للسفر، وركبت البحر، ولا زالت «تا البلاد تشلها وتا البلاد تحطها» حتى وصلت (وزين) لبيت السلطان. وفي رحلتها صادفت ساحراً فطلبت منه أن يعمل لها سحراً أسوداً ويكتبه لها بورقة، وعندما بلغت بيت السلطان تسللت حتى دخلت على ابنتها باكية وكانت ابنتها تمشط شعرها وترضع ابنها الرضيع، ولما رأت أمها انكمشت وخافت منها وانعقدت لسانها من شدة الخوف فلم تستطع أن تنادي على الخدم بينما كانت الأم تبكي وتتقرب منها وهي تقول:

- واااهـ هـ يا بنتي فيانك عن صدر مك فقداك ياست مي، تعبت وأنا أدور عليك.

وما أن أنهت جملتها حتى كانت قد أمسكت بضفائر ابنتها ودست بها الورقة التى كتبها لها الساحر لتتحول البنت إلى «طيرة» أخذت ترفرف بجناحيها بعيداً عن القصر، وكان ابنها البكر يقف في مكان لا تراه فيه جدته، وقد شاهد ما حدث لأمه فخاف واختفى عن عين جدته التي جلست في مكان ابنتها وأخرجت ثديها للابن الرضيع وحشرته بفمه وجلست تتغنّى، وعندما حضر السلطان ورأها أنكر هزالها فسألها:

- عسى ما بك ضعيفة

فردت بصوت مقلدةً صوت ابنتها: تعبانة من اموحم.

فدعا لها بالعافية وخرج لمجلسه.

أما الابن البكر للسلطان فأصبح دائم الخوف ولا يطيق البقاء داخل القصر وأصبح يتغيب عن الحضور للكتاب، يخرج من الصباح الباكر ويمرّ للسوق يشتري شعيراً ولوزاً وزبيباً، ويملأ جيبه الأيمن باللوز والزبيب وجيبه الأيسر بالشعير ويمشي على الساحل لمدة طويلة حتى يصبح في مكان ليس به إلا الطيور والحمام، فيصيح بالحمام:

- يا حمام يا حمام امي بينكم؟

فيقبل الحمام إليه ويحطون أمامه ويجيبونه:

- عادها ورا

فينثر لهم بالشعير ويواصل السير على امتداد الساحل، وعندما تلمحه أمه من بعيد تأتي محلقةً وتحطّ على كتفه وتنقمه في خده، فيخرج لها اللوز والزبيب ويظلّ معها إلى ما قبل الغروب ويعود إلى البيت متسللاً إلى مخدعه، ويقفل على نفسه الباب وينام. وأصبح يومياً يقوم بهذه الرحلة ولا يعود إلى قصر أبيه إلاّ في المساء وقد ذبل وأصابه الهزال، وعندما رآه أبوه على تلك الحال سأله:

- مالك ذاوي؟

فخاف الابن من أن يقول الحقيقة لأبيه، فأخذ يبكي، فزجره أبوه مراراً وهو يقول له:

- تهرج ما لك

فقال الابن:

- خايف ما تصدقني

فقال له أبوه: قل ما عندك

فقال الابن: تا الحرمة اللي في بيتنا مش مي

قفز أبوه مستنكراً: أفا وأنا ابن مجيد، ما هو

- قلك تا الحرمة مش مي، أمي عودن طيرة وت الحرمة دسن في رأسها ورقة وأنا كل يوم أبوك أزورها

هزه أبوه مرة أخرى وهو يفور غضباً: تعرف لو انك تكذب شاقص لسانك

قال الابن بتحدي: قص لساني يه لو كذبت

واتفقا الاثنان على صباح اليوم التالي أن يسير الابن إلى موقع أمه وأن يسير أبوه من خلفه ليعرف الحقيقة. ومن الصباح تسلل الابن من مرقده -كعادته- وجنب للسوق واشترى شعيراً ولوزاً وزبيباً، وحشا جيوبه وأخذ يمشي على الساحل بينما تبعه أبوه من الخلف حتى أصبح في مكان ليس به إلا الطيور والحمام؛ فصاح بالحمام:

- يا حمام يا حمام امي بينكم

فأقبل الحمام عليه وحطوا أمامه وأجابوه:

- عادها ورا

فنثر لهم الشعير وواصل السير على امتداد الساحل، وعندما لمحته أمه من بعيد أقبلت محلقةً وحطت على كتفه ونقمته في خده الأيمن، وأرادت أن تنقمه في خده الأيسر فأمسك زوجها برأسها وحطت يده على ورقة السحر فانتزعها فإذا بها تتحول إلى زوجته عارية من كلّ شيء، وصاحت به:

- استرني الله يسترك[1]

فناولها شاله، فتغطت به، وسألها عن قصتها مع تلك المرأة فأخبرته بالقصة (من طقطق لسلام عليكم) فأخذ منها السماح بقتلها فوافقت، فحملها هي وابنها وعاد إلى القصر ووضعهما في الغرفة «الطارفة»، وقام بشقّ جيبه وحمل نقود «ثرة»[2] وتقلّد سيفه وصعد لعمته، وعندما رأته تصنّعت الوحم وقالت له:

---

(١) كشف العورة من أقدم المحرّمات، وهي كشف المناطق الحساسة، وقد أكدت عليه الأساطير الهيلينية مع الإلهة الأنثى الجميلة أرتيمس ابنة زيوس مع حبيبها الصياد البري اكتايون، وسوف أورد قصتهما في مكان آخر من هذه الأساطير.
ووجد هذا أيضاً في حكاية البالادا السودانية (تاجوج) التي أفسدت سريان قصة حبها على الفور عندما اكتشفت أن حبيبها يتلصص عليها وهي عارية. (موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، شوقي عبدالحكيم، مكتبة مدبولي)
والتلصص ورؤية العورة من الموبقات التي تستوجب اللعنة، ولعنة البشرة السوداء جاء من جذر الأسطورة الأولى حين تلصص حام ورأى عورة أبيه ولم يفعل كما فعل شقيقه سام، فكان أن دعى نوح عليه السلام على حام (اللهم سود وجهه ووجه ذريته من بعده).

(٢) النقود الثرة هي النقود المعدنية الصغيرة، وهذا يقود إلى وجود عملة غير معدنية قد تكون ورقية أو خلافه.

- نفسى تشهون بفرقوص

فأبدى استعداده لذلك ووضع «الثرة» في جيبه المشقوق فتساقطت على الأرض، فقال لعمته: ناوليني امزلط.

فانحنت لتناوله مادّةً عنقها لجمعها من عرصة الدار، فسارع بإخراج سيفه وجزّ رأسها في الحال وحمل رقبتها المقطوعة وجسدها في كفن ودفنها بالقبل،(١) وعاشت البنت مع السلطان وأنجبت له الأبناء والبنات.(٢)

رواية عائشة عجيبية

---

(١) القبل هو فناء الدار، وعادةً ما يكون متسعاً ذا أرضية ترابية ناعمة توضع به جرار الماء وتزينه أشجار متنوعة.

(٢) عادةً ما تنتهي الحكايات الشعبية نهاية سعيدة، وهذه الحكاية قابلة لأن تستمر من خلال تلك اللازمة المولّدة لتصاعد الحدث (ياشمس يان أحلى أنا والا بنتي). وقد أثبت أصل الحكاية كما هو موجود في الأعلى وإن أغرتني بخاتمة أخرى هي كالتالي:
وكان قبر الأم في مكانٍ منزوٍ من القبل بجوار جرار الماء، ومع مرور الأيام نبتت شجرة صبّار على قبر الأم وأخذت تمدّ فروعها وتنمو على غير العادة حتى أصبحت تطلّ من على جدران القصر. وفي إحدى طلعات الشمس قالت شجرة الصبار:
- يا شمس يان أحلى أنا ولا بنتي؟
فأجابتها الشمس: لعبة تلعب بقلبك، بنتك أحلى وبعد ما متي عاشت سعيدة وأنجبت الابنين والبنات وأصبحن سلطانة.
فاهتزت شجرة الصبار وقالت:
- يلعن بوها عادها عايشة
وحينما جاءت البنت لتغسل بعض الأواني أرسلت شجرة الصبار نحوها شوكةً سامة قضت عليها في الحال، وعندما افتقدها زوجها بحث عنها فوجدها ميتة بجوار قبر أمها.
لكنّ هذه الخاتمة هي افتراء على النص الأساس.
ويمكننا أن نلحظ تكرار الحدث بين الأم والشمس يعطي نصاً مفتوحاً يمكن له مواصلة السرد إلى ما لا نهاية. وإذ بدا تكرار السرد جالباً للملل إلا أنّ السمة الأساسية في الأساطير هي التكرار «وهذا ما ذهب إليه دارسو فنّ الأسطورة. فمن وجهة نظر بارت أن للتكرار وظيفة سلطوية، يقول: إن اللغة السلطوية - تلك التي تنشأ وتنتشر تحت حماية السلطة - هي، قانونياً، لغة تكرار. ولكن الإناسي الفرنسي كلود ليفي ستروس Strauss في بحثه عن بنية الأساطير يرى أن للتكرار وظيفة جوهرية تتمثل في إظهاره لبنية الأسطور، فالتكرار يمسّ بنية =

= الأسطورة ويوازيها، إنه ينشأ مع نشوء الأسطرة. وهذا ما حدا ببارت أن يتراجع، فهو يجد نفسه ملزماً تحت الضغط القادم من حقل الدراسات الأسطورية الحديثة الذي يؤكد أنّ للتكرار وظيفة طقوسية هامة يقول بارت: فالتكرار ذاته قد يولّد المتعة، والأمثلة الإثنوغرافية وفيرة: إيقاعات مسيطرة، موسيقى تعزيمية، ابتهالية، صلوات، طقوس - التكرار المفرط هو الدخول في الضياع، الدخول إلى صفر المدلول. بذلك - أي بهذا التكرار- نرى أنّ النص الأسطوري يضمن كونه نص متعة، فنص المتعة، كما يعرفه بارت، هو الذي يضعنا في حالة من الضياع ويرهق ويهزّ الثوابت التاريخية والثقافية والبسيكولوجية لدى القارئ ويزعزع الثابت من أذواقه وقيمه وذكرياته، مؤزّماً علاقته باللغة.» - (بحثاً عن الأسطورة الخالدة: طه باقر والريادة في عالم مجهول، تركي الربيعي، مجلة نزوى، العدد التاسع والثلاثون)

الترونجية[1]

- قلنا وقلكم
- مننا ومنكم
- من واحد
- والواحد الله
- قلنا أنه كان هناك زوجين قد مضى عليهما زمن طويل ولم يرزقهما الله بالذرية، فظلا يتحسران على نفسيهما كلما خطر ببالهما أنهما لن يتركا خلفهما ذرية تذكر بهما، وتعاقبت أيامهما فارغة بلا ولد يشدّ من أزر أبيه أو ابنة تسلّي أمها فى وحدتها حينما يذهب زوجها إلى حقوله البعيدة. ولأنّ الزوج يحب زوجته ولا يريد أن يكدر خاطرها بزوجة ثانية، فقد رضي بنصيبه وأكمل حياته مع زوجته يتمنيان أن يرزقهما الله بالخلف والذرية الصالحة.

وفى يوم من الأيام خرج الزوج من الصباح الباكر -كعادته- لحرث حقوله، وبقيت الزوجة بالبيت تكمل أعمالها، فكنست بيتها، وكسرت الحطب، ووارت الميفى، وخبزت قرصين من حبوب القمح، واتجهت إلى زريبة البقر لتحلب بقرتها، وبينما هى منشغلة بذلك سمعت هندي بابا[2] ينادي:

---

(١) الترونجية مسمى لفاكهة بالجنوب وهي فاكهة أقرب إلى مذاق التفاح وتشبه السفرجل في اللون والشكل.

(٢) في الحكايات والأساطير المتفشية بالمنطقة غالباً ما تأتي شخصية الهندي موصوفة برجل رحال ويمتلك المعرفة في الطب وأخبار النجوم، أيضاً جلب أدوات لا تعرف، ولها وقع مدهش عند الأخرين، ويكون اسمه دائما (هندي بابا) دون ذكر للهيئة أو المكان الذي قدم منه، وفي =

= أحيان يوصف بالشحاذ، وليست كمهنة وإنما ترحاله من بلد الى بلد وانقطاع سبل العيش به.
إلا أنّ الامر أكثر عمقاً من هذا، فقد تواجد الهندي في الأساطير الشعبية كحاضر بديلاً لثقافته، فالثقافة الهندية مغروسة في عمق التراث الإنساني، كما أن أساطيرها تمددت بين سكان المعمورة منذ الأزل وقبل الرحلات الكبرى (فقد شهد النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد عدداً من التحركات والهجرات لجماعات رعوية محاربة تتكلم بلغات هندو أوربية واتجهت إلى آسيا الصغرى وعرفت باسم الحثيين، وإلى مناطق الجزيرة والشمال السوري وعرفوا باسم الميتانيين، وإلى اليونان القارية توجهت الجماعات التي حملت إليها اللغة الاغريقية (الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية - فراس السواح).
ويشكل البنيان الإيراني جنساً رئيساً لما يعرف بالهند و إيران بين الذين عرفوا بالآريين أو النبلاء، ومنها جاءت تسمية إيران لأولئك الذين تملكوا أرض ميعادهم في إيران على عادة ما هو متبع بالنسبة للساميين وأساطير أرض ميعادهم، ومما هو ثابت أنهم جاءوا وهاجروا للمرة الأولى من جنوب روسيا وعبروا آسيا والقوقاز فاكتسبوا لغتهم الإيرانيه المشتقة من الفيدية الهندية القديمة، اللغة الأم للسلافية والتيتوية والكلتية واليونانية واللاتينية (موسوعة الفلوكلور والأساطير - شوقي عبدالحكيم).
وكتب التراث الإسلامي تؤسس للوجود الهندي كوجود أول لأبي البشر آدم عليه السلام، حيث جاء في كتاب الكامل في التاريخ ما نصه: "عن ابن عباس قال: أهبط آدم بالهند وحواء بجدة فجاء في طلبها حتى اجتمعا فازدلفت إليه حواء فلذلك سميت المزدلفة، وتعارفا بعرفات فلذلك سميت عرفات، واجتمعا بجمع فلذلك سميت جمعا، قال: وأهبط آدم على جبل بالهند يقال له بوذ. وعن ابن إسحاق قال: وأما أهل التوراة فإنهم قالوا: أهبط آدم بالهند على جبل يقال له واسم عند وادٍ يقال له بهيل، بين الدهنج والمندل، بلدين بأرض الهند، قالوا: وأهبطت حواء بجدة من أرض مكة. وقال: هبط آدم عليه (يعني على الجبل الذي هبط عليه) ومعه ورق من ورق الجنة فبثه في ذلك الجبل فمنه كان أصل الطيب كله وكل فاكهة لا توجد إلا بأرض الهند.
وآخرون يقولون هبط آدم بسرنديب على جبل يدعى بوذ وحواء بجدة من أرض مكة وإبليس بميسان والحية بأصبهان، وقد قيل أهبطت الحية بالبرية وإبليس بساحل بحر الأبلة. (الكامل في التاريخ)
ومن هنا يصبح لوجود الهندي في قصة الترونجية وعرضه لفاكهته التي تتسبب بالإنجاب له معنى أسطوري. وعليه تكون الهند أول بلد تستقبل الحياة البشرية، وبذلك تزول الدهشة من تناسل الحكايات والأساطير من هناك، وهذه الفرضية تؤسس وجوداً أسطورياً لمدينة جدة في المملكة العربية السعودية إلا أن موات الدراسات الأثرية في السعودية أبقى هذه المدينة مدروسة، الأمر الذي يستوجب إعادة إحياء تاريخها القديم. =

- نكشف امغيب. . . ونهب امذرارى ذكور واناثى

وسمعت صوته يبتعد بين عشش القرية و«مزاقيرها»[١] فقذفت ما بيدها وانطلقت في أثره وهي تنادي:

- واه هندي بابا. . . واه هندي بابا

فتوقف عند سماعه نداءها، وسألها عن حاجتها، فأجابته:

- لى زمان وأنا متزوجه ولم أرزق بجهله ونفسى فى ولد ولا بنت

فأنزل هندي بابا خرجاً كان يضعه على ظهره، وناولها حبتين من الترنج، وقال لها:

- قبل ما يجيك زوجك كلى حبة ترنجية والثانية ياكلها زوجك وربنا سيهب لكم ذرية

فأخذت منه الترنجوتين وعادت إلى البيت و«الدنيا مش سيعاها»[٢] وخبئتها بـ«الجب»[٣] المعلق بوسط العشة، وانشغلت بأعمال البيت، وهي تستعجل وقت

= وفي زمن سابق كانت الهجرة المتزايدة للهنود وتواجدهم في مناطق مختلفة لافتين، وفي ظل غياب المعلومة عن الهند ومساحتها والتعداد السكاني المهول بتلك القارة أوجدت المخيلة الشعبية أسطورة تفسر كثرتهم، حيث روى لي الأستاذ عبدالرحمن البريك (وهو من سكان جدة هذه الحكاية):

يقال إن النبي سليمان كان يركب الريح ويتمشى وأثناء طيرانه أحس برغبة في التغوّط، فتغوّط وواصل سيره وفي عودته رأى وفي المكان نفسه الذي تغوّط فيه مجموعة كبيرة من الدود، فسأل:

- ما هذا الذي أراه؟

فقيل له: هذا المكان الذي تغوّطت به.

فقال: يا دود كونوا هنود!

(١) المزاقير هي الأزقة.

(٢) يستخدم هذا التعبير عادة من الراوي حينما لا يريد الإطناب في وصف حالة الفرح أو الحزن، فيقول: «روحن والدنيا مش سيعاها»، وتفهم من سياق الحدث إن كان تعبيراً عن فرح أو حزن.

(٣) في المناطق الريفية بجنوب الجزيرة العربية (التهامية) يستخدم الأهالي زنبيلاً لحفظ ما تبقى من طعام ويعلق في سيخ يتدلى من وسط العشة، والسيخ وضع في الأصل من أجل أن يعلق به فانوس في الليل لكي يضيء جنبات العشة.

وصول زوجها، وقبل الغروب عاد زوجها جائعاً، فنادى عليها فلم ترد حيث كانت بـ«الدارة»[١] تغتسل، فبحث عن أيّ شيء يأكله، وأنزل «الجب» المعلق بوسط العشة، فوجد الترنجوتين فتناولها وأكلها وهو يقول في سره:

- الملعونة تشطر كل شيء عني

وبعد أن أكل الترنجوتين مسح فمه، وخرج قبل أن تراه زوجته، وبقي بالخارج لوقت قصير وعاد الى البيت، فوجد زوجته قد حضرت له «الهرشة»،[٢] «فتهرش» وصلى على النبي، وأخذ حزمة قاته وذهب عند أصدقائه وقضى جزء من الليل في مسامرة أصحابه، وعندما عاد إلى البيت وجد زوجته متهيئة في أحسن زينتها (وكأنها عروس)، وعندما اشتاقت نفسه إليها استمهلته، ونهضت لتجلب الترنجوتين، فلم تجدها في المكان الذى تركته بها، فأصابها الكرب وأخذت تبحث عنهما في كل مكان وهي تسأل عنهما بضيق، وقد توجهت إلى زوجها تسأله عنهما فأنكر رؤيتهما، وهو يغالب ابتسامته من أن تخرج فتفضح أمره، وعندما يئست الزوجة من العثور عليهما تمددت على «قعادتها»[٣] مستحكمةً لأمر الله دون أن تبين لزوجها سر تلك الترنجوتين حينما أبدى تعجبه لكدرها الزائد على فقدان الترنجوتين، ونامت وهي تغالب دموعها وتسترضي نفسها بقولها:

- الله مش رايد لي بخلفة

ومضت الأيام، وبعد شهر شعر الزوج أنّ نفسه تعوف رائحة زوجته،[٤]

---

(١) الدارة هي مكان قضاء الحاجة.

(٢) «الهرشة» وجبة يتناولها المزارعون عند عودتهم من الحقول مع الغروب.

(٣) «القعادة» تمثل السرير وتصنع قوائمها من خشب الأثل وتجدل (توضن) حبالها بأغصان الدوم بعد أن يبلل في الماء وتشقر السعفة الواحدة إلى ثلاثة أجزاء، وفي أحيان يعتمد تشقيرها على عرض السعفة.

(٤) هنا إشارة إلى أسطورة خصاء آنو، وهي نص حوري يعود إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، والتي حدث فيها صراع بين الآلهة، والتي بدأت بالإله ألوس الذي كان ملكاً في السماء، وكان انوس يقف تحت قدمي الإله ألوس ويركع له، وبعد تسع سنوات نازع أنوس الالوس وقهره ونزع منه السيادة، فهرب من وجهه وهبط إلى الأرض المظلمة، ثم صعد أنوس على العرش فكان كوماربي الجبار يقدّم له الطاعات ويركع بين يديه، وبعد تسع سنوات نازع كوماربي أنوس على السيادة، فخسر أنوس النزاع وهرب كطير حلق في السماء، فأراد =

و«يتنفس»[١] لـ«فرقة».[٢] ومع مرور الأيام أخذت بطة رجله اليمنى[٣] تنتفخ، حتى إذا استدارت وتقوبت أحسّ بشيء يتحرك بها بوداعة دون أن تؤلمه. لكن انتفاخها

= كومار بي اللحاق به فجرّه من قدميه ثم عض على قضيبه فانسال سائله المخصب إلى بطن كوماربي، فالتفت إليه أنوس فرحاً وقال له: لقد زرعت في داخلك وزراً ثقيلاً إذ جعلتك تحمل بإله العاصفة، ومضى آنوس إلى السماء واختبأ بها، أما كوماربي فحاول التخلص مما في بطنه فبصق بعضاً من المادة التي ابتلعها، فولد منها تاسميشو ونهر الدجلة، ومضى إلى مدينة نيبور السومرية ليحصل على مشورة أيا، إله الحكمة الرافدي، وبقي هناك ليستكمل أشهر مدة الحمل والجنين ينمو في بطنه إلى أن جاءت ساعة المخاض فتكون لحظة البحث عن خروج الجنين تحدث حيرة عظيمة فكلّ جهة قد تتسبب في إيذاء كوماربي، سواء العين أو الأذن أو الأنف، ولم يبق إلا الخروج من الدبر، وهو العضو المقابل المناظر للمرأة في الولادة. وتقول الأسطورة إن الاقتراح الذي قدمه آنوس (الإله المخلوع لمساعدة إله العاصفة لأنه يعول عليه في الانتقام من كوماربي) بأن يكون الخروج من الموضع الحسن من غير تحديده، فيما كان كوماربي يصيح: أخرجوا إلي ابني، اعطوني ابني لأبتلعه، حتى إذا خرج إله العاصفة من الموضع الحسن ساعده آنوس على خلع أبيه كوماربي والاستيلاء على عرش السماء.

بينما نجد في أسطورة مولد ديونيسيوس الإغريقية أنّ موضع الولادة الذكورية تمّت وفق ما جاءت عليه قصة الترونجية، ففي مولد ديونيسيوس تطلب سيملي من زوجها زيوس أن يظهر لها في هيئته الأصلية، كإله للصواعق والبروق، وعندما يفعل ذلك تموت سيملي هلعاً من المنظر المخيف وتهبط إلى العالم السفلي وهي حامل بديونيسيوس، ويستطيع زيوس إنقاذ الجنين من بطن أمه ولكن قبل اكتمال نموه فيعمد إلى شق فخذه ويودع الجنين هناك ويخيط الشق عليه.

وهناك ولادة قام بها ذكر متمثلة في ولادة أثينا إلهة الحرب، حيث قام زيوس بابتلاع ميتيس، أولى زوجاته والإلهة فائقة الحكمة، وذلك إثر نبوءة حذرته من أنها حامل بمولود سوف يتحدى سلطانه، وتكمل ميتيس فترة حملها في جوف زيوس ثم تلد الإلهة أثينا التي صعدت إلى رأس أبيها تحاول الخروج دون جدوى، فانتاب زيوس صداع أليم بسبب اضطراب أثينا في رأسه، وهنا تطوع الإله الحداد هيفيستوس لحل المشكلة وعمد إلى شج رأس زيوس بفأس، ومن الجرح العميق خرجت أثينا في عدة الحرب كاملة. (الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية - فراس السواح)

(١) يتنفس إشارة للوحم الذي يسبق الحمل أو يكون دلالة على بدء الحمل.

(٢) «الفرقة» أكلة شعبية، وهي عبارة عن لبن مطبوخ بالسمن والبصل ويضاف إليه أقراص البر ويكون على هيئة ثريد.

(٣) ليس معروفاً لفظ بطة ولا نقول لأسفل الرجل بطة.

يزداد مع مرور الأيام، ويشعر بشيء يتحرك يميناً ويساراً، وبعد اكتمال تسعة أشهر شعر برفس يكاد «يطر»[(١)] بطة رجله اليمنى، فاتجه إلى الأحراش باحثاً عن مكان معزول حتى إذا بلغ مكاناً لا تطرقه إلا الطيور ركن إلى «فنية»،[(٢)] وأخرج شفرته وشق بطة رجله، فخرجت منها صبية في غاية الجمال، فحملها ووضعها وسط الغابة وعاد إلى بيته وكأن شيئاً لم يكن.[(٣)]

التفّت الطيور والحيوانات حول المولودة، وسخروا أنفسهم لرعايتها والاعتناء بها، فكانت الطيور والحمام تضع مناقيرها في فمها، ومضت الأيام والمولودة تعيش في كنف واهتمام الطيور والغزلان، منها ما يغذّيها بلبنه ومنها ما يغطيها من الشمس ومنها ما يجلب لها خيوط الحرير ومنها من يغزل لها ملابسها ويسرّح شعرها الطويل جداً.

كبرت البنت في هذا الجو وكل ما حولها يعاملها معاملة حسنة ويعدها ابنته.

وفي ذات يوم توغل ابن السلطان داخل الغابة، وظلّ تائهاً وسطها فأصيب بالإنهاك، فقرر أن يأخذ قسطاً من الراحة فنام، وحين استيقظ وهمّ بمغادرة الغابة كان حصانه يأكل لحاء وأوراق الشجر من شدّة العطش، فأخذ يبحث عن منبع ماء يسقي حصانه ويتزوّد بالماء لنفسه، فسلك مسالك شتى حتى وصل إلى نهرٍ جارٍ، فأطلق عنان فرسه ليشرب ما يكفيه إلاّ أنّ الحصان كان يمدّ رقبته ويتراجع قبل أن يرتشف الماء. استغرب ابن السلطان من فعل الحصان، فمع عطشه الشديد إلاّ أنه يتراجع عن الشرب، فاقترب منه ليرى سبب تردده، وعندما اقترب رأى خصلات

(١) يطر بمعنى يمزق.

(٢) «فنية»: مجرى مائي متفرع من الوادي.

(٣) وفي جزئية حَمْلِ الرجل يحضر السؤال الفلسفي عن لذة اللذة فتصل إلى أقصى انفتاحها في المصادر الهندية فيذكر (بنفي) حكاية هندية صادفها في الملحمة الهندية الشهيرة (المهابهارتا) عن ملك يتحول إلى امرأة حين ينزل ليستحم في النهر وهنا يتخلى عن عرشه عبر رحلة عبورية في غابة متوحشة، وهناك يلد بعد أن أصبح امرأة وحين يزوره الإله أندرا ليطرح عليه سؤاله أو لغزه عن لذة اللذة وأي وضعين يفضل أن يتحوّل: مرتداً إلى رجل أم يظل امرأة؟ يجيب الملك بأنه يفضل أن يظل امرأة لأن المرأة أكثر استمتاعاً بالحب - الجنس من الرجل.
- موسوعة الفولكلور والأساطير، شوقي عبدالحكيم.

شعر تسبح في الماء تعيق حصانه عن الشرب. استغرب كثيراً لهذا الشعر الممتدّ، فأخذ يتتبّع إلى أين ينتهي، وظلّ سائراً حتى رأى أنّ صاحبة هذا الشعر فتاة في غاية الجمال تسبح داخل النهر في دعةٍ وحبور وقد حفّ بها الطير من كلّ جانب، وتقافزت حولها الأسماك، وبقيت مجموعة حيوانات ترنو إليها من الشطّ المقابل لها.

أصابته الدهشة لمنظر الفتاة، وشعر أنّ قلبه تعلّق بها تعلّقاً محموماً، فانتظر حتى خرجت من النهر، وقبل أن يتقدم إليها ليحدثها طارت بها الطيور إلى داخل الغابة ولم يعد يراها.

فعاد حزيناً على عدم تمكّنه من الحديث مع تلك الفتاة، وفكّر في ضياعه داخل الغابة وكيف له الخروج منها، إلا أنه خشي أن يضيّع موقع الفتاة، فكان يسير في اتجاهٍ واحد لا يغيره حتى إذا لم يجد منه منفذاً عاد إلى النقطة التي طارت منها الفتاة، وظلّ هكذا يختار طريقاً واحداً وإذ لم يجد منفذاً تراجع، وبعد محاولات عديدة وجد طريقاً ينفذه إلى خارج الغابة ويوصله إلى مواقع يعرفها جيداً، فعاد مرة أخرى إلى موقع الفتاة التي طارت ووضع إشارات من حجارة في ذلك الطريق كي لا يضيع منه.

ومع وصوله وجد خلقاً كثيراً ينتظرون وصوله؛ فقد مات أبيه وكانوا ينتظرونه لتعزيته ومبايعته على أن يكون ملكاً للبلاد.

تقبّل العزاء في أبيه، وأُقيمت مراسيم مبايعته ملكاً للبلاد، ووضع تاج الملك على رأسه، وكان ينتظر انتهاء كلّ هذه المراسيم ليعود إلى النهر لرؤية تلك الفتاة التي سلبت قلبه.

وقد استعجل إنهاء المراسيم وقصرّها على ثلاثة أيام بدلاً من شهر، وفي اليوم الرابع خرج في نفس الوقت الذي صادف فيه تلك الفتاة. تسلل إلى داخل الغابة، فوجدها تغتسل بمياه النهر، فوقف على رأسها مسلّماً،[1] فاستأنست به، وظلا يتحدثان إلى الغروب، واستمرّت لقاءاتهما حتى عرض عليها الزواج على سنّة الله

(١) الحكاية هنا تغفل القول إنه أول إنسان تراه في حياتها، وتغفل أيضاً كيف تحدثت بنفس لسانه وهي ربيبة الطيور والحيوانات البرية.

ورسوله، فقبلت، فحملها إلى قصره استعداداً لإعلان الزواج إلاّ أن أمه اعترضت واحتجّت أن يتزوج بفتاة ليست من عروق ملكية ولا يعرف عنها شيئاً، فلم يستمع إلى رأي أمه وقرّر الزواج مهما كانت العواقب، وما إن أعلن عن موعد زواجه حتى توافد ملوك وأمراء الدول للمباركة والمشاركة في ليلة عرسه، وأُقيمت الأفراح على امتداد البلاد، وعاش الملك مع زوجته في هناء وسعادة.

وفي سنة من السنوات قرّر الملك أن يحجّ، فودّع زوجته وانفرد بأمه يوصيها بزوجته خيراً، وسافر في قافلةٍ كبيرة، وجرى أمامه وخلفه الحشم والخدم.

بقيت الترونجية في مقصورتها، وكانت أم زوجها تحقد عليها وتكرهها، فجاءتها في إحدى الليالي وقالت لها:

- ما لك يا بنت قاعدة لحالك تعالي نتسلى...

فاستجابت الترونجية لقول عمتها وخرجت من مقصورتها، فأخرجت عمّتها لعبة وقالت للترونجية:

- هيا نلعب ومين تربح تفقع عين الخسرانة.

فرفضت الترونجية الشرط وقالت لعمتها: نلعب من غير شرطك.

فقالت الأم : لا الشرط شرط...

فقالت الترونجية: لا لا، ألعب معاك من غير هذا الشرط.

فرشت أم الملك اللعبة وبدأت تلاعب زوجة ابنها. استمرّ اللعب للحظات وفازت الترونجية، فتوقفت عمتها وقالت لها: هيا افقعي عيني على الشرط اللي بيننا

فقالت الترونجية: (معزك) أنت عمتي وأم حبيبي.

اغتاظت العمة وطالبت الترونجية بمواصلة اللعب، وفي الجولة الثانية فازت الترونجية، فتهيأت أم الملك وقالت للترونجية: هيا افقعي عيني على الشرط اللي بيننا.

فردّت الترونجية: (معزك) أنت عمتي وأم حبيبي.

ازداد غضب أم الملك وحقدها وأصرّت على مواصلة اللعب لجولة ثالثة، فتهاونت الترونجية في اللعب فكسبت أم الملك هذه الجولة، ونهضت فرحةً: هاتِ عينك أفقعها.

ظنّت الترونجية أنّ أم زوجها تمازحها لكنها وجدتها مصرة على فقأ عينها،

فحاولت دفعها ومنعها من فقأ عينيها إلاّ أنها لم تستطع، فقد وضعت أناملها في عيني الترونجية وأخرجتهما من محاجرهما، ونتفت شعرها، وقطعت ملابسها، وأخرجتها خارج القصر، وقالت للحرس أن يبعدوها بعيداً.

وقامت من حينها وذبحت كبشاً وحفرت له في فناء القصر ودفنته، وأخذت موضع زوجة ابنها.

أُعلن عن مقدم الملك فخرجت الرعية لاستقباله بالبيارق وضرب الدفوف والغناء له، وكان الملك متشوقاً لرؤية زوجته وأمه فاختصر الاحتفالات، وصعد إلى الحرملك، فتزيّنت أمه (على أنها زوجته)[1] وأخذت تلاطفه وتؤنسه، فسألها عن

---

(١) معظم الأساطير التي وثقتها تشير إلى أنّ الأم هي التي تتزوج بابنها أو ترغب في أن تكون محلّ زوجته، وهذا مغاير لعقدة أوديب الذي تزوج أمه وأوديب تعني «القدم المتورمة». وتذهب الأسطورة اليونانية إلى أن أوديب هو ملك طيبة الذي توصل إلى حلّ لغز «سفينكس» وقتل أباه وتزوج أمه ولذلك قُدِّر له أن تكون حياته مأساة بسبب لعنة الرب. وأوديب هو ابن «لايوس» ملك طيبة و«جيوكاستا» في رواية هوميروس. وأسطورة أوديب تقول إنّ «لايوس» كان ملكاً على مدينة طيبة فطُرد منها، ولجأ إلى ملك طنطالة. ثم عاد «لايوس» إلى مدينته طيبة بعد أن خطف ابن الملك الذى استضافه وأحسن إليه وأعانه في شدته، مما حدا بالابن المخطوف إلى الانتحار بعد ما فعله لايوس من خطيئة. ويتزوج لايوس من جوكاستا، ويعيش معها عيشة هنيئة منتظراً قدوم الابن الذى سيرثه في الحكم والذى تأخر مقدمه كثيراً. وعندما يسأل لايوس العرّاف عن ذلك أخبره أنّ هذا نتيجة لفعلته مع ابن ملك طنطالة؛ والذي سيرزق بولد سيعيش ويكبر حتى يقتله ويتزوج أمه. وبالفعل يرزق لايوس وجوكاستا بطفل، فيخرقان قدميه ويربطانه منهما ويعطيانه إلى خادم لكي يلقيه في جبل «كثيرون» لتفترسه السباع هناك. لكنّ الخادم أشفق على الطفل فسلّمه إلى راعٍ أخذه إلى ملك «كورنثة» الذى اتخذه ولداً، وسماه أوديب لتورم قدميه. وبعد أن يكبر أوديب يخبره العرّاف بأنه سيقتل أباه ويتزوج أمه، فيهرب أوديب من بلدته لكي لا تتحقق النبوءة. يهرب بعربته، ويقابله «لايوس» بعربته أيضاً؛ خارجاً من طيبة باحثاً عن حلّ للعنة التي حلت ببلاده، إذ حلّ بها وحش في صورة أبو الهول يسأل الناس لغزاً؛ فمن لم يستطع حله يقتله. تصادمت العربتان (عربة أوديب وعربة لايوس) فتشاجرا، حتى قتل أوديب والده ودخل طيبة. فقابله أبو الهول في أول المدينة، حيث يمكث، فسأله عن الشيء الذى يمشي على أربع ثم اثنين ثم ثلاثة، فقال أوديب: «الإنسان، حيث يمشى في طفولته على أربع، ثم اثنين، ثم ثلاثة، عندما يستعين بالعصا» فمات الوحش كمداً، فكافأه أهل طيبة بأن زوّجوه من ملكة بلادهم جوكاست. ويعيش أوديب هانئاً مع زوجته، وينجب منها أربعة أبناء: بولينكس وتيتوكليس وأنتيجونا وأسميتا. لكنّ وباءً كاد يهلك =

أمه، فقالت له: بعد أن خرجت للحجّ بأيامٍ قليلة مرضت وأخذ الله أمانته. وأنزلته إلى الفناء وقالت له: دفنتها هنا وهذا قبرها.

بكى الملك قليلاً واستغفر لأمه وعاد إلى مخدعة منشرحاً بزوجته!!

أما ما حدث للترنجية، فهي بعد أن فقات عينها هامت على وجهها من غير هدى، ولم يساعدها أحد، وكان هناك طائر يحلق متجهاً إلى الغابة، فرآها فحلّق إلى داخل الغابة منادياً على بقية الطيور التي تداعت من كلّ جهة وحلّقت في سماء المدينة كسحابة كبيرة داكنة هبطت على الترونجية وحلّقوا بها إلى داخل الغابة،(١)

= كل شيء في البلاد. فيذهب البعض لسؤال العرافين عن ذلك. فيخبرونهم بأنّ ملكهم هو سبب البلاء، لأنه تزوج أمه بعد أن قتل والده، فيفقأ أوديب عينيه، وتقتل جوكاست نفسها.

وأسطورة أوديب تجد بعض موتيفاتها موزعة في كثير من الحكايات سوف أشير إلى تواجدها في حكايات المجموعة.

(١) يوجد هنا تداخل مع اسطورة سميراميس والتي تعني الحمامة وهي البطلة الاسطورية المشهورة وقد تم الخلط بينها وبين سمور امات وهو اسم اغريقي يعني سيدة البلاط. وسميراميس ملكة آشورية شاركت زوجها الحكم لأكثر من أربعين عاماً وحكمت بعد وفاته خمس سنوات واتصفت بالجمال الأخّاذ، وقد تنبأ لها أحد المنجمين أنها ستحكم العالم وستكون نهاية من تحب على يديها، ويُقال إنها والدة الملك نبوخذنصّر الذي سبى اليهود في العصور البابلية، ويحسب لها تشييد الجنائن المعلقه (إحدى عجائب الدنيا السبع). وتقول أسطورة سميراميس إنّ نهر الفرات فاض بمياهه مما أدّى إلى خروج الأسماك إلى الشاطيء، وكانت من بينها سمكتان كبيرتان اتجهتا إلى وسط النهر ثم قامتا بدفع بيضة كبيره نحو الشاطئ، وعندها جاءت حمامة بيضاء كبيرة قامت باحتضان البيضه وأخذتها بعيداً عن مجرى النهر، اهتمت بها واحتضنتها حتى فقست لتخرج منها طفله رائعة الجمال، فأحاطت بها أسراب الحمام لتشملها بالعناية والحماية. وكان الحمام وبقية الطيور يطيرون إلى مخازن بعض القرى القريبة يحملون بمناقيرهم اللبن والغذاء ويلقمون سميراميس، وتنبه الرعاة إلى النقص في منتجاتهم فقرروا وضع أحدهم ليراقب ما يحدث فإذا به يرى الحمام وهو يحطّ على الحليب والجبن ويحمله إلى مكان ليس ببعيد، فأسرع الراعي وأخبر رفاقه الذين لحقوا بالحمام حتى وصلوا إلى مكان وجدوا فيه فتاةً حسناء... أخذوها إلى خيامهم ثم قرروا بيعها في «سوق نينوى» الكبير، وعندما كبرت تزوجها مستشار الملك اونس، وحين رآها الملك أعجب بها وطلب من مستشاره التخلي عنها لكي يتزوجها، فتخلى عنها ومات بعد زوجها من الملك نينوس وأنجبا طفلاً أسمياه نيناس... حكمت سميراميس مع زوجها الملك حتى توفي (ويُقال إنها قتلته عن طريق الخطأ ظناً منها أنها قتلت عدوّه بسبب الظلام) وأصبحت هي الحاكمه المطلقه على بلاد ما بين النهرين...

وتوافد كلّ سكان الغابة لرؤية ابنتهم وهم يتحسّرون لما حدث لها، وجاءت الغزالة تطمئنها وأعطتها «خاتم الاسم»،[١] فأخذته منها شاكرةً وفركته وقالت: المنية منيتي أكون أجمل بنت على وجه الارض.

وفي الحال غدت أجمل مما كانت، فركت الخاتم مرة ثانية وقالت:

– المنية منيتي يكون لي قصر بجنب قصر الملك سقوفه من ذهب وأرضه من زعفران وحصاه من اللؤلؤ ولبناته من فضة وأعمدته من الزبرجد[٢] وفيه كلّ ما يطلبه الطالب.

وفي لمح البصر ظهر قصر يجاور قصر الملك، به كلّ ما يتمناه السائل.

وكان الملك يسير بموكبة عائداً إلى قصره، فاستغرب لوجود هذا القصر الذي لم يرى أحسن منه في حياته، فسأل وزيره وحرسه عن ذلك القصر، ولم يكن أحد يعرف من يملكه أو من يسكنه.

وذات يوم اشتكت أمه (التي قامت مقام زوجته) من دوار وغثيان مظهرةً علامات الوحم، ففرح الملك فرحاً عظيماً لأن زوجته ستنجب له وريثاً لملكه، وأخذت تتشهى بعنقود عنب[٣]، ولم يكن قد حان أوان العنب، فاحتار الملك من أين يجلب لها ما توحمت به، وتذكّر القصر المجاور لقصره الذي به جميع الفواكهة في غير وقتها، فاستدعى أحد عبيده وأمره أن يذهب إلى ذلك القصر ويطلب من صاحبه غصن عنب. تحرّك العبد إلى القصر وطرق الباب قائلاً:

يااللي قصرك جال قصرنا
هبيلنا شجن عنب

---

(١) «خاتم الاسم» يرد في أساطير جنوب الجزيرة العربية هكذا، ويقصد به خاتم النبي سليمان عليه السلام، وإنّ هذا الخاتم بعد موت النبي سليمان حصل عليه أحد الجان وأصبح الخاتم يتم تناقله بين الجن يمنحونه لمن يريدون مساعدته... وفي هذا إغفال للأسطورة الأساس التي تقول إن النبي سليمان يسترجع خاتمه بعد معاناة كبيرة. وقد تم ذكر هذه القصة في أحد هوامش هذه الحكايات.

(٢) غالباً ما تاتي أوصاف القصور في الحكاية الشعبية حاملة أوصافاً للقصور الملوك بمبالغات وصفية وكأنها تستحضر قصص مدينة إرم ذات العماد أو زيارة بلقيس لملك سليمان أو الإشارة إلى الملك الباذخ الذي كان لقارون حتى أنّ مفاتيحه ينوء حاملوها من كثرتها.

(٣) تاقت نفسها لتذوق العنب.

للوحيمة اللي عندنا...

نظرت الترنجية إلى العبد من شرفتها وردّت عليه:

أنا الترنجية والرنجية

أبي حبل بيه

والطير والطاوس[1]

غطوا عليه

عاد السلطان محمد

شيجب عليه

يا مقص قص من لسانه شويه

حبيبي سيدي اليه

فخرج من جدار القصر مقص قصّ على الفور لسان العبد، فعاد العبد ينزف دماً، وعندما سأله الملك عن خبر شجن العنب تأتأ وسقط في مكانه، فلعنه ولعن العبيد الذين هم على شاكلته، ثم أرسل عبداً آخرَ، فتحرّك هذا العبد إلى القصر وطرق بوابته قائلاً:

ياللي قصرك جال قصرنا

هبيلنا شجن عنب

للوحيمة اللي عندنا...

نظرت الترنجية إلى العبد من شرفتها وردّت عليه:

أنا الترنجية والرنجية

أبي حبل بيه

والطير والطاوس

غطوا عليه

عاد السلطان محمد

شيجب عليه

(١) يُعدّ طائر الطاووس رمزاً للإله هيرا، وقيل إنّ العملاق ذا المائة عين كان يتبعه، فلما قُتل نثرت عيونه المائة على ريش الطاووس.

يامقص قص من لسانه شويه

حبيبي سيدي اليه

فخرج من جدار القصر مقص قصّ على الفور لسان العبد، فعاد العبد ينزف دماً، وعندما سأله الملك عن خبر شجن العنب تأتأ وسقط في مكانه، فلعنه ولعن العبيد الذين هم على شاكلته، ثم أرسل عبداً ثالثاً، وكان مصيره كسابقيه. . . قرّر الملك أن يخرج بنفسه ليعرف ما الذي يحدث لعبيده في القصر المجاور له.

وقف الملك على باب القصر وطرق الباب قائلاً:

ياللي قصرك جال قصرنا

هبيلنا شجن عنب

للوحيمة اللي عندنا. . .

نظرت الترنجية من شرفتها فرأت زوجها وحبيبها فردّت عليه:

أنا الترنجية والرنجية

أبي حبل بيه

والطير والطاوس

غطوا عليه

عاد السلطان محمد

شيجب عليه

يا مقص قص. . .

وتردّدت في أن تقول: قص من لسانه شويه، واستبدلتها بقولها:

يا مقص قص من شاله شويه

حبيبي سيدي اليه

وفي الحال تحول شال الملك إلى نتف صغيرة متطايرة، فأعاد مقولته:

ياللي قصرك جال قصرنا

. . . .

فردّت: يا مقص قص من طاقيته شويه، وفي الحال تحرك المقص (طق طق) فتحولت طاقيته إلى نتف صغيرة متطايرة، وكلما أعاد الملك طلبه بنفس الطريقة

ردّت عليه يامقص قص ثوبه، فنلته، حتى أصبح الملك عارياً فصاح بها: استريني الله يسترك في الدنيا والآخرة.

فمدّت له جديلتها، فتعلّق بها وصعد إليها، فإذا بها زوجته وحبيبته، فاستغرب أشدّ الاستغراب وسألها عن القصة، فروت له كيف أنّ أمه طلبت أن تلاعبها... إلى نهاية القصة.

خرج السلطان غاضباً وأوصى زوجته أن تبقى ريثما يعود، وانتقل إلى قصره، ورمى نقوداً على الأرض وقال لأمه (التي قامت مقام زوجته):

- ناوليني يا حرمة، تناثرت الدنانير مني

وعندما انحنت لجمع الدنانير المتساقطة هوى على رأسها بسيفه... وحفر قبر الكبش ودفنها مع جيفته[1]، وأحضر زوجته إلى القصر وعاش معها في سعادة وهناء وخلّفت له الأبناء الذين تناقلوا الحكم إلى آخر الزمان.

رواية عائشة عجيبية

(١) حكايات قتل الأم كثيرة. نيرون، مثلاً، قتل أمه «أغريبينا» لأنها سمّمت أباه، وكانت تأتيه في الحلم بأوضاع شبقية. والطاغية هيبياس الذي زحف على أثينا بمساعدة الجيش الفارسي حلُم أنه تزوّج أمه. وقد فسّر ذلك الحلم بأنه سيعود إلى أثينا وسيحكمها مجدداً ويموت فيها. ويفسّر بعض المحللين حلم الزواج من الأم (أي الأرض التي منها ينبثق كل شيء وإليها يعود كل شيء) بأنه يعني إما الموت وإما الاستيلاء على السلطة - بين الأسطورية والتاريخية مأساة أوديب وقصة أخناتون - صقر أبو فخر- مجلة نزوى العدد السبعون.

الترونجية - مروية بلهجة أهل المنطقة

قلك وقلك من ذاك الواحد والواحد الله من عطس في كمه زال الهم عنه ومن عطس في جيبه ربنا يجيبه كان ذاك الرجل وحرمته لهن سبع سنين ماحصلو عيال وما بقو بكان دلوهن عليه إلا وراحو ولادوى وصفولهن الا وهبوه ولكن الله ما أراد وقعد يسأل لحد مادلوه على واحد في قرية بعيده عن قريته يمكن يلاقي عنده فايده توكل وسافر يسأل لحد ما وصل عنده حكاله على مشكلته قام عطاه تمره وقسمها نصين وقاله كل النص وحرمتك امنص امثاني وحاجتك مقضيه إن شاء الله خرج راجع على قريته وفي امطريق أكل نص امتمره حقه لقلا طعمها مره فن ووسوس له الشيطان وهانه نفسه قام اكل امنص امثاني حق حرمته وكما طريقه والا يشوف رجله اليمين تورم وكل مامشى زاد ذاك الورام تعب قعد في ذاك البستان يرتاح ومن كثر تعبه نام ماصحي الا لقى رجله كنها حبحبه استحكم لقدره وقعد لهو قادر يمشي ولا يتحرك بعد يومين جنب واحد قحم شافه مسدوح تحت امشجره قده شايموت من امجوع وامظما هبله اكل وشربه وسأله عن اللي جراله خبره بحكايته قله ذاك القحم والله ما أظن أن في رجلك الا جاهل حبلتابه في رجلك لأنك اكلت امتمره كلها قام يبكي ويقول ياذي الفضيحه ماهو أسوي بعمري قال امقحم الطريقه الوحيده اللي نتأكد فيها انه نشق رجلك وافق قام امقحم فتح رجله وطلع منها ذيك الصبيه اللي كأنها قمر قله الحمد لله ربنا رزقك بنيه وحقق لك اللي طول عمرك تتمناه رد عليه قله ماهو اقول لحرمتي وللناس ميان جبتوها أنا ما أشاها ولا هشلها معايه تشاها ولا كبها تحت ذي الشجره وربنا يتولاها حاول معاه انه ياخذها أبي وقام يشا يسافر على قريته قاله امقحم اقعد لما رجلك تتعافي وأنا اشل ذي الصبيه والله يعينني واربيها

تعافن رجل ابوها وسافر وقعد امقحم حاير في ذيك الصبيه لانه ساكن في خدر ويخرج كثير وخاف يكبها لوحدها يجي ذيب ياكلها في ذاك الخايع (غابه) استخار ربه وبنى لها مهد فوق امشجره وحطها فيه وكان كل يوم يجي يأكلها وينظفها ويروح وكل مايجي سناها يلاقي امطيور اللي معششه في امشجره تلعب معاها وتغرد لها وسماها ذاك القحم ترونجه (نوع من الفاكهه طيب الطعم والرائحه) مرن الايام وكبرن ذيك البنت وكانن حاليه حلى تبارك الخلاق وكل ما كبرن زاد جمالها وحلاها وكانن في امنهار تنزل تلعب وتتغسل في اموادي وفي امليل تطلع ترقد فوق امشجره وامقحم يراعيها لما صار عمرها ستعشر سنه مات ذاك القحم وبقين وحيده تنزل كل يوم وتطلع اخر امنهار وفي ذاك اليوم جنب ابن السلطان يتمشى ومر على اموادي يسقي حصانه أبى امحصان مايشرب نزل يشوف ماهو في امويه لقى شعر عايم قعد يفكر من أي بكان اجي ذا الشعر والا يشوف ذيك الصبيه تلعب مع طيور اشكال والوان حمام وعصافير وطواويس وقماري وحتى بوم وغربان تعجب منها واندس يراقبها لما المغرب طلعن فوق امشجره ورقدن قعد شويه وطلع وراها برويد وغطاها بشاله ونزلها وركب حصانه وروح على قصره وحطها على سرير وقعد يطانع فيها من جمالها مايشا يتركها صحين الصباح لقين نفسها في ذاك القصر ومع ذاك الشاب قعدن تبكي خايفه قلها لاتخافين ولا تحزنين انا أشا اتزوجك على سنة الله ورسوله بس مين انتن وماهو خبرك وكان امقحم قبل ما يموت بياها بحكايتها ردن على ابن السلطان أنا اسمي ترونجه أمي تمنني وأبويه حبل بيه خذني قحم عند امطيور وعشش عليه.

راح ابن السلطان لامه وأبوه وحكالهن على ترونجه زوجوه عليها وعاشن معاه وكل يوم تجي امطيور عند امطاقه تغرد لها وتلعب معاها وجابن عيال وعاشن هي وزوجها وعيالها في هناء وسعادة.

رواية فاطمة صالحي

نوب

- قلنا وقلكم
- متنا ومنكم
- من واحد
- والواحد الله

في سلطان لم يرزقه الله بالذرية، وكان صالحاً ولم ييأس وظلّ يدعو ربه أن يمتعه بهذه النعمة، وفي أخر أيامه رزقه الله بولد واحد، كان نور عينيه وفرحته في الدنيا، فأسبغ عليه كلّ أنواع الحب وأعطاه ما يطلبه دون تردد، ولم يكن يطلب طلباً إلا كان بين يديه في لمح البصر. وقد شاع ذكره بالبلد، فكانوا يقولون: فعل القليص بن زايدي[1] - وهذا هو اسمه- وصنع القليص بن زايدي وجاء القليص بن زايدي، ولم يكن بالبلد من هو في حسن طلعته وبهاء منظره، وكان يخرج مع أصحابه وحاشيته وكأنه القمر بين الكواكب.

---

(١) كنت أظن أنّ اسم القليص جاء كاشتقاق من القلوص، وهي الجمال كمفردة شعبية، ونصف لمعان البروق بالقلوص أيضاً، وهذا الوصف وجدته بهذا المعنى في كتاب الأسطورة عند العرب في الجاهلية (تأليف الدكتور حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص٢٧) حين قال: «في جزء من تهامة إذا ظهرت البروق قيل: قلصت».
كما وجدت أنّ لهذا الاسم (القليص) جذر أسطوري متعلق بالنجوم أو البرق، فقد ذكر في كتاب بلوغ الارب وحديثه عن العيوق «عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهراً»، وهي نجوم صغيرة نحو عشرين نجماً، فهو يتبعها أبداً خاطباً لها، ولهذا سمّوا هذه النجوم القلاص.
ويبدو أنّ «القليص» يمثل مفرد «القلاص»، تلك النجوم الباحثة عن المحبوبة، ويأتي اسم «القليص» متشابهاً معها في البحث عن تلك المحبوبة التي تمثلها «نوب» في الحكاية.

وفي إحدى المرات خرج القليص يلعب بـ«مسحره»[1] مع أقرانه، وكان مسحره مصنوعاً من الفضة الخالصة وله كرة من ذهب، وأثناء لعب القليص جاءت امرأة عجوز تحمل «شاطرتها»[2] على رأسها ووضعتها جانباً ودخلت السوق لتشتري بعض حاجياتها، وأثناء لعب القليص بمسحره ضرب كرته الذهبية بقوة فأصابت «شاطرة» المرأة العجوز وكسرتها، وعندما رأت المرأة العجوز ما حل بـ«شاطرتها» صاحت مولولة:

- من كسر شاطرتي

وعندما لم يردّ عليها أحد صاحت:

- أو يظن من كسر شاطرتي أنه رأى نوب بنت السلطان؟[3]

فسمعها القليص وكتم غيظه في صدره، وعاد إلى قصر أبيه كرباً متضايقاً، واتجه إلى مخزن البصل والثوم واختبأ بداخله ولم يغادره، فاغتمّ أبواه لتغيّبه، وخرج العبيد ورجال الدولة للبحث عن القليص في كلّ مكان يمكن أن يذهب إليه، فبحثوا عنه في أماكن الصيد وعند الغدران وبين الحقول وفي القرى والمدن القريبة والبعيدة، وذهب بحثهم دون فائدة ترجى، وفقد الباحثون أي بارقة أمل للعثور عليه، وخشوا أن يفاتحوا السلطان باحتمال موته، كأن أكله ذئب أو لدغته حية وتنتف لحمه الطير وسباع البراري، وكلما مضى يوم اغتمّ السلطان لفراق ابنه، وعندما رأى أنّ همّة الباحثين فترت نادى المنادي في المدينة عن جائزة سنية لمن يعثر على القليص، فخرجت المدينة تبحث عنه طمعاً في تلك الجائزة الكبيرة التي أعلن عنها السلطان، وعادت كلّ العيون التي خرجت تبحث عن ابن السلطان الوحيد

---

(١) المسحر: هو أشبه بالقولف، وهذه اللعبة يلعبها الشباب في جنوب الجزيرة العربية من وقت مبكر، و«المسحر» هو الأداة التي يضرب بها الكرة، ويتم أخذه من إحدى فروع الأشجار، وغالباً ما يؤخذ من شجر الأثل ويتم إصلاح استدارته بالسكاكين مستخدمين ثمرة الدوم ككرة يلعبون بها، ولا أدري بالتحديد إلى أي عصر يعود تواجد هذه اللعبة بالمنطقة، وإن كان الأرجح انتقالها من خلال الهنود الرحالة أو ألئك الذين استوطنوا المنطقة.

(٢) الشاطرة: نوع من أنواع الأواني الفخارية خاص بملء الماء من الأبار.

(٣) المعنى: كأنّ الذي كسر شاطرتي رأى نوب بنت السلطان... وبهذه الجملة إشارة تهكمية حيث تنص الحكاية أن لا أحد أستطاع رؤية نوب بنت السلطان، ولذلك يحق لمن رآها أن يقوم بأي فعلة فيكفيه أنه تغلب على الصعاب حتى قدر على رؤية نوب.

دون أن ترجع بخبر عنه، وكلما مضى يوم على غياب القليص زاد هلع وجزع أبويه وفقدا الأمل في العثور عليه حيا.

وذات يوم ذهبت إحدى الجواري إلى مخزن البصل والثوم، وبينما كانت تقلب الأكياس بحثاً عن كيس ممتلئ رأت القليص مقذوفاً بين الأكياس وهو غائب عن الدنيا، وكانت هيئته يرثى لها؛ فقد أصابه الهزال وصفر لونه وجحظت عينيه وغدا كطائر نتف ريشه، وعندما رأته على هذه الحال خرجت تصيح بسيدها السلطان بلسان يتعتع[(١)]:

- ياسيدي. . . سيدي في مخزن امثوم.

فلم يصدقها السلطان في بادئ الأمر، وأخذ يستوضح منها وهي تحاول إخباره بتعسر شديد، وعندما أصرّت على ما رأت نادى السلطان رجال دولته وفتحوا مخزن البصل والثوم فوجدوا القليص بين الحياة والنوم فأخرجوه، وتكفل بالسهر عليه كبار حكماء البلد حتى ارتدت العافية إليه. جاءه أبوه وسأله عن سبب اختفائه بين أكياس البصل والثوم، فقال لأبيه:

- أريد رؤية نوب بنت السلطان.

فتنهد أبوه بحرقة:

---

(١) كلّ الخبابير التي تروى في الجنوب تنص على أنّ العبيد عندما يتكلمون تكون ألسنتهم مقلوبة، ويصطلح على تسمية العبد بلفظة «خجمة»، ويبدو أنها تحوير للفظة «عجمة» أي أنه لا يعرف كيف ينطق الكلمة بشكل سليم، وقد يعود ذلك إلى أنهم كانوا يجلبون إلى سوق النخاسة من خارج الوطن العربي، وربما تكون إشارة إلى أن العبيد في قصور السلاطين تقص ألسنتهم كي لا يفشوا أسرار القصر وما يحدث فيه.
والعبد في جنوب الجزيرة العربية (حالياً) لا يطلق إلاّ على العرق الزنجي والمرتبط باللون الاسود، ومع موجة التحرر ظلّ ذوو الأصول الزنجية محلّ احتقار اجتماعي وتمّ استبدال لفظة العبد بلفظة دالة على إبقاء هذه الفئة في الخانة الدنيا اجتماعياً، فيطلق عليهم «الخدم»، وقد التصقت بهم مهن معينة لا يقوم بها العربي الحرّ، مثل امتهان الحلاقة أو الجزارة أو ضرب الطبول، فهي مهن يعاب على العربي امتهانها.
وهناك العربي الحر الذي تقترب بشرته من السواد فلا يقال له: أسود، بل يقولون: الأخضر، وتكون ملامحه أقرب إلى الهنود (البنقالة) في اللون والهيئة، وكل ألوان البشرة خارجة عن حياض العبودية إلا الأسود، فهم يقولون: أبيض وأحمر وأصفر وأخضر.

- أين أنت من نوب، فهي ببلاد بعيدة ولم يستطع إنسان رؤيتها، ومن أراد لم يرجع أبداً.

فأصرّ القليص على تحقيق رغبته وقال لأبيه:

- إن كنت تحبني دعني أسافر وأجرّب حظي.

وأمام إصرار القليص أذعن السلطان لرغبة ابنه وزوّده بصفحتين ذهب وصفحتين فضة، وأعطاه خيله الأشهب الذي يسبق الريح، وزوّده بمائة عبد يكونون رهن بنانه أينما اتجه. ويوم سفره خرجت كلّ البلاد لوداعه وهم يبكون خوفاً عليه من أن لا يعود من أرض نوب، وبعد أن غابت عن ناضريه مدينة أبيه عتق العبيد الذين خرجوا معه، وانطلق مسافراً قاصداً بلاد نوب، وكانت «تا البلاد تشله وتا البلاد تحطه»[1] ولا زال مسافراً وكلما نزل ببلد وسأل عن أرض نوب قيل له:

- فيانك وفيان أرض نوب عاد أرضها بعيدة

فينطلق بخيله الأشهب بعد أن يتزود بالزاد، ويتعرف على الطريق الذي يجب أن يسلكه حتى يصل بلاد نوب. وبعد شهور وصل إلى أرض نوب، وكانت ببلادها استراحات يفد إليها المسافرون ليناموا أو ليتزودوا، ويقوم على خدمة هؤلاء المسافرين عجائز يترزقن من العابرين لهذه الاستراحات، فوفد القليص بن زايدي على إحداهن ومكث عندها لعدة أيام لا يحدّثها بشيء ولا يخبرها عن مقصده عند سؤالها إياه، وكان يكرمها يومياً بمال كثير فكانت تنظر إلى جماله وتقول في نفسها: ما هذا إلا سلطان من السلاطين، ولكنها لم تفاتحه هي أيضاً بشيء، وكان القليص بن زايدي في مكوثه عند العجوز يبحث عن وسيلة لكي يتمكن من رؤية نوب، وفي إحدى المرات أخذ يتودد للمرأة العجوز، فقالت له:

- في براسك شيء خبرني عنه عسى اني اساعدك.

فقال لها القليص: أريد رؤية نوب.

فضربت العجوز على صدرها هلعاً وحذرته من أن يسأل أحداً عن نوب، وأخبرته أنه لم يسأل أحد عن نوب إلا قتل، ولم يرها أحد من البشر، حيث تسكن

---

(١) «تا البلاد تشله وتا البلاد تحطه» هي جملة يقولها الراوي ليعرف السامعون أن البطل قطع مسافات طويلة، ولكي لا يطنب فهو يقول: «تا البلاد تشله وتا البلاد تحطه».

في قصر لا يصل إليه أحد من الناس، ومن حاول قُتل قبل أن يصل إليها؛ فهناك ألف قائد مسلح، وبعدهم ألف أسد جائع، وبعدهم ألف ثعبان لادغ، وكلّ هؤلاء حرس على الأميرة نوب، وأنّ أباها يزورها في أيام الجمع والأعياد ويزنها بميزان الذهب، وعندما أراد أن يعرف لماذا يحمي السلطان ابنته كلّ هذه الحماية أخبرته العجوز أنّ جمال نوب كان سبباً لكلّ هذه الحراسة، فذات يوم رآها أحد السحرة وأُعجب بها وطلبها من أبيها فامتنع أن يهبها له فأقسم أن يحيل جمالها إلى حجر، وقبل أن يفعل قطع السلطان رأسه وعلّقه داخل بلاطه؛ فكان الرأس يتحدث ويقول: سيخرج لها غول يخطفها بدلاً مني، وعندما سمع السلطان ذلك التهديد كان يخرج إلى البرية لقتل الغيلان والسباع، فسمّوه حامل رأس الغول.[1]

كانت العجوز تتحدث واللقليص يستمع إلى حكاياتها وهي تحذّره من الاقتراب من قصر نوب المسجونة في قصرها خوفاً عليها من أن تصبح حجراً، فوعدها أن لا يسأل عنها أحد وطلب منها أن تكتم سره ومنحها «مشمع»[2] ذهب، وطلب منها أن تذهب إلى أمهر النجارين بالبلد لينجر لها بقرة يستطيع المرء أن يدخل بداخلها ويحرّكها كيفما شاء، واشترط أن يكون قفلها ومفتاحها من الداخل. فرحت العجوز

---

(١) حامل رأس الغول هو كوكب لنجم رأس الغول، وهي تجسيد لأسطورة المرأة السلسلة أندروميدا، إذ إن كاسيوبيا ملكة أثيوبيا (الحبشة) جالسة على كرسي، فسحبت ذات الكرسي، وزوجها قيفاوس أو الملتهب قريب منها، ويقابلهما قيدا ابنتهما اندروميدا مُقيدة بسلسة على صخرة في البحر خوفاً عليها من الآلهة لئلا تخطفها لأنها جميلة جداً، فرآها القيطس، وهو وحش بحري، فسار نحوها ليفترسها، فشاهده فرساوس فركب حصانه الفرس الأعظم فسار مسرعاً وراء القيطس، ولكنه شاهد في طريقه الساحرة ميدوزا الجرجونية التي لها نظرات إذا نظرت إلى شيء تحوله إلى حجر، وقبل أن تنظر إليه استلّ سيفه وقطع رأسها وحمله أمامه، فسمّي «حامل رأس الغول»، واستمرّ باللحاق بالقيطس حتى أدركه فخاف الوحش ووقف في مكانه ونزل فرساوس عن الحصان حاملاً سيفه بيده، أما الحصان (الفرس الاعظم) فسار ووقف في مكان قريب من أندروميدا، حيث اشترك معهما بنجم، وهكذا أنقذ فرساوس اندروميدا من الوحش القيطس. (النجوم في مسالكها للمؤلف الإنجليزي الفلكي جيمي جينز).

(٢) مشمع: هكذا ورد في الحكاية، ولا أدري هل يقصد بتلك اللفظة معناها الدارج الذي يعني كيساً صغيراً غالباً ما يكون مصروراً برباط محكم عند فتحته لأنّ للفظة معنى اخر، ويقصد به أي شيء مصنوع من النايلون، والمعنى الأخير يتردّد في الحجاز.

بمشمع الذهب وخرجت إلى النجارين تسأل عن أمهرهم حتى وجدته وأخبرته عن طلبها، فاستعدّ لذلك واشترط مالاً كثيراً لإتمام صنع البقرة، فوافقت على شرطه، وبعد عدة أيام عادت العجوز إلى النجار وأعطته ثلاث «مشمعات» من الذهب مقابل صناعته لتلك البقرة العجيبة، وعادت بها إلى القليص فرحةً، فقد وعدها أن يضاعف لها الأجر، وبعد أن رأى القليص تلك البقرة ودخل بداخلها وأخذ يجرّبها، فيرفع قوائمها ويهزّ رأسها من الداخل، خرج منها منشرحاً، وطلب من تلك العجوز أن تدور بتلك البقرة -وهو بداخلها- بين أسواق وطرقات المدينة، تعرضها على الناس، ووعدها أن يعطيها ما تشاء من المال، فوافقت وأخذت تدور بالبقرة في المدينة والقليص يحرك رأس البقرة حيناً وأحياناً يرفس برجليها وأحياناً يغنّي بصوتٍ عذب، وقد اجتمع خلق كثير لرؤية هذه البقرة الخشبية التى تتحرك وتتكلم، وكان كلّ من رآها تعجّب لها ومنح العجوز مبلغاً من المال مقابل رؤيته لها، وتناقلت المدينة خبر تلك البقرة حتى لم يعد أحد بالمدينة إلا وخرج لرؤيتها، وكانت العجوز في كلّ يوم تذهب إلى ناحية من نواحي المدينة. وبعد أن سرى خبر البقرة في كلّ المدينة طلب القليص من المرأة العجوز أن تذهب بالبقرة إلى قصر السلطان وتطلب منه أن يري نوب هذه البقرة العجيبة، فخافت ورفضت في بادىء الأمر، لكنه أغراها بكمية كبيرة من الذهب فوافقت، وتحرّكت بالبقرة إلى قصر السلطان وهي ترتعد، وعندما وقف الحراس في وجهها أخبرتهم بمقصدها، فأخذوا لها الإذن من السلطان فسمح لها بالدخول، خاصةً بعد أن سمع عن تلك البقرة العجيبة، وعندما دخلت المرأة العجوز وهي تنتفض وكادت أن «تسلح»[1] على نفسها، وعندما وقفت أمامه تمالكت نفسها وحيّت السلطان بما يليق بالملوك، وقالت له:

- ياسلطان الزمان، عندي بقرة ليس لها مثيل وأتمنى أن تلعب بها الأميرة نوب.

وعندما رأى السلطان ما تفعله البقرة من حركات عجيبة وأصوات شجية فرح بها ووافق أن تُنقل إلى غرفة نوب، وأخذ البقرة من العجوز وأجزاها مبلغاً ضخماً، وأمر

(١) «تسلح»: تخرج ما في بطنها من قاذورات.

مجموعة من العبيد بحمل البقرة وإدخالها إلى قصر نوب[١] لتلعب بها،[٢] وعندما رأت نوب تلك البقرة ذهلت لحركاتها والأصوات التي تخرجها من بطنها ففرحت بها وأخذت تلعب بها، ولحبّها لها أخذتها معها إلى مخدعها وركنتها جانباً وتهيأت للنوم - وكان القليص ينتظر هذه اللحظة- وعندما دخلت نوب في النوم العميق خرج القليص من داخل البقرة ورأى حسن وجمال نوب كاد يغشى عليه ويفقد عقله وهو واقف يتطلع إلى جمالها وفتنتها، حتى إذا أفاق من دهشته قام من حينه وخمر حنّاء وحنّى رجلها اليمنى ويدها اليمنى، و«عذق» جديلتها اليمنى وكحّل عينها اليمنى، وعاد إلى موضعه بداخل البقرة. ومع تنفس الصباح أفاقت نوب من نومها، فوجدت رجلها ويدها اليمنى محناة وعينها اليمنى مكحلة وجديلتها اليمنى مطيبة، فدهشت دهشة عظيمة، وسألت من يقدر على الدخول إلى مخدعي ويعبث بي مثل هذا العبث ويسخر مني كلّ هذه السخرية، وفكّرت بقتل جميع من بداخل القصر لكنها تراجعت حين فكّرت أنّ الجميع ليس لهم ذنب، ويجب معاقبة الفاعل، وقررت أن تكشفه بنفسها، وعندها ستأمر بقتله وتقطيع جسده ونشر لحمه على أبواب قصرها، وقامت وأكلت وتنزهت بقصرها، واشتاقت إلى بقرتها العجيبة، فلعبت معها لوقت طويل، وكانت في لعبها تراقب الخدم ومحضياتها ومن هم حولها، فكان كل من يرى يدها ورجلها وكحلتها وجديلتها يتعجب من فعلتها، ومضى الوقت دون أن تلحظ شيئاً، وعندما حان وقت نومها ركنت بقرتها جانباً، ونامت نوماً عميقاً، فخرج القليص من داخل البقرة الخشبية وأعدّ الحناء والطيب والكحل، وحنّى رجلها اليسرى ويدها اليسرى وكحّل عينها اليسرى، وظفر وطيب جديلتها اليسرى[٣]، وعاد إلى مكانه.

---

(١) إدخال البقرة الخشبية إلى قصر نوب وبداخلها القليص هي استعارة لفكرة حصان طروادة.

(٢) دائماً تستخدم حيلة حصان طروادة في الحكايات الشعبية لإدخال الشيء إلى الأماكن المحظورة، وهذه الحكاية تستخدم نفس حيلة حصان طروادة.

(٣) من عادات العرب قديماً أنّ المرأة التي عسر عليها خاطب النكاح نشرت جانباً من شعرها وكحلت إحدى عينيها، مخالفةً للشعر المنشور، وحجلت على إحدى رجليها، ويكون ذلك ليلاً، وتقول: يالكاح أبغى النكاح قبل الصباح، فيسهل أمرها وتتزوج عن قرب. (الأسطورة عند العرب في الجاهلية: الدكتور حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع).

=

وعندما أفاقت نوم من رقدتها ورأت ما حلّ بها زاد غضبها وحيرتها، وقالت في نفسها:

- من ذا الذي يريد فضحي بين محظياتي وأمام أبي.

وقررت أن تكتشف الجاني الذي عبث بها لليلتين متواليتين، فلم تخبر أحداً بما حدث وظلت يومها كسابقه تلعب مع البقرة وتستقبل زوارها من نساء القصر ووصيفاتها حتى حان وقت نومها، فثقبت غطاءها وتصنّعت النوم العميق، فخرج القليص من داخل البقرة، واقترب منها، وقبل أن يلمسها فزّت من مرقدها، فأصيب القليص بالارتباك، وقبل أن تنادي نوب بخدمها وحشمها قال لها القليص:

- استريني!

قالت له: جني ولاّ إنسي؟

فقال القليص: إنسي من خيور الإنس.

فقالت له: سترتك، ما جابك هنا؟

فسرد لها حكايته «من طقطق لسلام عليكم»، فأعجبها منظره وحلو لسانه، فتولّعت به، وظلاّ يعيشان سوياً كعشاق أصابهما العشق، فلم يعودا يدركان ليلهما من نهارهما، وكان أبو نوب يزور ابنته في الجمع والأعياد ويزن ابنته بميزان الذهب. وفي إحدى الجمع جاءها ليزورها، وكانت تتوحم، فلمّا وزنها مالت كفة الذهب، فقال لها أبوها: ما لك يا نوب أراك ضعفتي؟

فردّت عليه: أشعر بغثيان وليست لدي شهية للأكل.

خاف عليها أبوها وأمر أن يحضر حكماء البلد لمداواتها، لكنها أقنعته أن ليس بها شيء، فقط هي أيام وتعود لوزنها الطبيعي، فاطمأن عليها وغادرها، وظلّ

= وغالباً ما تحدث الدسائس وحبك النوايا ليلاً، واقترن الليل باللون الأسود، وثمة إجماع في الثقافات العالمية على نبذ اللون الأسود، رمز الليل، والتوجّس منه فـ«اللون الأسود هو لون الشيطان والليل، وهو مجاله الحيوي، واللون الأسود لا يسبب الشقاء، وكلّ ما في الأمر أنه لا يحمل معه السعادة». (معجم الخرافات والمعتقدات الشعبية في أوربا: بيار كانافاجيو).
وقيام القليص بفعلته بتظفير وتحنية وتكحيل الجهة اليسرى للنوب هي إشارة لهذه العادة العربية، لكنها جاءت من شخص رغب في نوب ولم تأتي من نوب ذاتها، إلا أنّ تواجد العادة في ذهنية المجتمع السارد أبقى أصل العادة أو المعتقد.

القليص يعيش معها حتى ظهرت عليها إشارات الحمل، وقد جاء إليها أبوها ووزنها فوجدها قد رجحت بكفة الميزان كثيراً فقال لها:

- سمنتي يا نوب!

فردّت عليه: نفسي انفتحت على الأكل لكني سأحافظ على وزني في المرات القادمة.

فغادرها متنياً لها الصحة الدائمة، وعندما عادت إلى القليص قال لها:

- يصعب علي يا نوب فراقك لكن خايف إن اكتشف أبوك والا أخوانك أنك حامل يقطعوني بسيوفهم، ولزماً لزماً أسافر.

بكت نوب كثيراً وتعلّقت به، وقالت له: «بويه» يحبني كثيراً وأنا بنته الوحيدة وسط خمس رجال، وإن قلت له إني أريدكِ فسوف يزوجني بك.

فقال القليص: كان هذا قبل ماتحملني، أما وقد حملتي فسيقطوني ويرمونني للكلاب.

قالت له نوب: أفديك بدمي.

لكنه أقنعها بضرورة أن يسافر، فوافقت مكرهةً على سفره، وفي الليل تسسل القليص من القصر، ومرّ على تلك العجوز التي ترك عندها حصانه[1] «ونفر كمطير»

---

(١) نادراً ما تعطي الحكايات الجنوبية البطولة للحيوانات، فالحيوانات مساعد لبطل الحكاية على التخلص من المآزق، وفي حكاية نوب لا تظهر الأسطورة بسماتها الأساسية، فهي حكاية أقرب إلى الحكايات الاجتماعية، إلاّ أن ثيمة الأسطرة تبرز بين الحين والآخر، ووجود حصان القليص هنا كمخلص في سرعة العودة إلى بلاده لم يكن له مكان في بداية بحثه عن نوب. وتستعير الحكايات القصص المؤسطرة خارج سياقها الأسطوري بحيث تستلها وتضعها في أي حكاية أخرى.

وقصة الحصان المجنّح ويدعى«بيجاسوس»، وهو جزء من أسطورة ضخمة لها علاقة بقطع رأس ميدوسا؛ فبيجاسوس هو حصان رشيق مجنح يعود لبطل إغريقي هو بيلروفون Bellerophon وقد ولد هذا الحصان الأسطوري من دم سكب عند قتل الأفعى الجرجونية «ميدوسا» على يد «بريسيوس»، بيلروفون كان قد أُعطي لجاماً سحرياً من آلهة الحكمة «أثينا» لتساعده على لجم بيجاسوس، و بهذا الحصان الأسطوزي قتل بيلروفون الوحش «كايميرا» متعدد الرؤوس الذي كان يرعب الممالك المحيطة، وبذلك فقد عيّنه الملك وريثاً له وزوّجه ابنته نظراً لشجاعته الفريدة. وقد كان حصان اليونيكورن موضوعاً للتأمل والتعجب لفترة =

ليحطّ به حصانه في إسطبل قصر أبيه، وقبل أن يحلّق بحصانه وعندما أصبح بعيداً عن قصر نوب وجد «هندي بابا»(١) وأعطاه «مشمع» ذهب وبزته الغالية وقال له: بوك لبلاد نوب وعند طاقتها ألهج بذا الشعر وقول:

يـا نـوب هـبـي وهـبـهـبـي   وجيـبـي الـقـلـيـص بـن زايـدي
الـلـي سافـر وراك تـسـعـين لـيـلـة   مـا لـقـيـتـه إلا الـطـيـور الـهـبـايـبـي

فأخذ «هندي بابا» مشمع الذهب وبزة القليص واتجه إلى بلاد نوب حتى إذا وصلها وقف بالقرب من طاقة نوب وبصوت مرتفع ردّد:

يـا نـوب هـبـي وهـبـهـبـي   وجيـبـي الـقـلـيـص بـن زايـدي
الـلـي سافـر وراك تـسـعـين لـيـلـة   مـا لـقـيـتـه إلا الـطـيـور الـهـبـايـبـي

وعندما سمعت نوب هذا الغناء فزّت من مخدعها وفتحت طاقتها بقوة ورددت:

يـــفـــديـــه مـــي وبـــي   وكـل الـلـي فـي الـلـحـايـدي

فسمع أبوه وإخوتها الغناء والردّ من نوب،(٢) فغضب إخوانها وجرّد كلّ واحد سيفه من غمده وهمّوا بقتل نوب إلاّ أنّ أبوها وقف في وجوههم وقال لهم:

- اللي حصل حصل، ونوب ما لي قدرة على فقدها.

ورضخ إخوتها لمشيئة أبيهم، وما هي إلا أيام وولدت نوب ولداً جميلاً كأبيه

= طويلة، فقد كتب عنه الكثير من الكتاب في فترات متفاوتة منهم: أريستوتل، جنكيز خان، القديس توماس والقديس جريجوري، فقد عكست كتابات هؤلاء وغيرهم كونهم اعتبروا اليونيكورن كائناً حقيقياً.

(١) هندي بابا: حضور الهندي في أساطير وحكايات جنوب الجزيرة هو حضور المعرفة، حيث يرى إنسان الجنوب أنّ الهندي على اطّلاع بما يدور في الأفلاك، وقد ذكرت بعض الملاحظات على هذا الحضور للهندي، ووجدت أيضاً أنّ شوقي عبد الحكيم، في موسوعته **الفلولكلور والأساطير العربية**، يؤكد أنّ العرب قبل الإسلام عاشوا تحت تأثير المظلة الأسطورية الآرية للهند وفارس -المحيط الهندي والبحر الاحمر- فعبدوا مظاهر الطبيعة - الصحراوية في مجملها- والديانات الطوطمية كعبادة الأحجار والأشجار.

(٢) هنا توجد ثغرة في الحكاية، فالحكاية تؤكد وجود قصر نوب بعيداً عن قصر أبيها، وأنه يزورها في الجمع والأعياد، فكيف سمع هو وأبناؤه صوت «هندي بابا» وهو يردد تلك البيتين وردّ نوب.

فأحبّه جدّه حباً عظيماً، وألحقه بنسبه، وكبر ابن نوب، وكان يخرج ليلعب مع أقرانه من الأطفال فيصيحون به: يا زنوه!

فيعود لأمه باكياً وشاكياً ممّا يقوله له أقرانه، فكانت تصبّره وتحاول أن تنسيه، لكنه في كلّ مرة يعود ويقول لها إنّ أترابه لا يحبّون اللعب معه ودائماً ما يرددون: يازنوه! فقالت له نوب: اللي يقلك «يا زنوه» ردّ عليهم وقلهم ما مزني إلا أنتم أما أنا فابن القليص بن زايدي اللي سافر ورا مي تسعين ليلة ما لقيته إلاّ الطيور الهبايبي.

فخرج سعيداً وعندما رآه أترابه يقترب منهم قالوا له: جنّب عنا يا زنوه.

فردّ عليهم في الحال: ما مزني إلا أنتم أما أنا فابن القليص بن زايدي اللي سافر ورا مي تسعين ليلة ما لقيته إلا الطيور الهبايبي.

فتصايح الصبية: بن من؟

فيردّ عليهم: أنا ابن القليص بن زايدي اللي سافر ورا مي تسعين ليلة ما لقيته إلاّ الطيور الهبايبي.

فانتشر خبر ابن نوب وأنه ابن القليص بن زايدي، وأصبحوا يلعبون معه ويشاركونه لعبهم. وذات يوم عاد ابن نوب فقالت له أمه:

- اذهب إلى جدّك وقله أريد رؤية أبي، وإذا قال لك: أنا ابوك، فقل له: لا، أنت جدي.

ذهب الغلام إلى جده، فرحب به وحضنه وسلم عليه فقال له:

- أريد رؤية أبي.

فقال له السلطان: أنا أبوك.

فرد عليه: لا، أنت جدي وليس أبي.

وأمام إصراره ومعرفته برغبة نوب في رؤية زوجها، جهّز لهما القوافل وحمّلها بالذهب والحرير والجواهر ومائة عبد يمشون «قدّامهم ووراهم» وودّعهم وعيناه تبكيان، وخرجت قافلة نوب متجهه إلى بلاد القليص بن زايدي، وظلّوا مسافرين تسعين ليلة حتى وصلوا إلى مشارف بلاد القليص فعرجوا إلى «حسي» يستقوا منها أهل البلد، وبجوار الحسي (البئر) أقيم حوض للسقي البهائم، وقد تجمع حوله ناس كثيرون يريدون أن يسقوا بهائمهم، وكان القليص قد تزوّج وأنجب ابناً. تفرّق له الناس ليسقي حصانه إلاّ أنّ ابن نوب لم يقبل أن يتقدّمه ابن القليص (وهو لا يعلم

من يكون)، فاختصم الاثنان على الحوض وكلّ منهما يريد أن يسقي حصانه قبل الآخر فقال ابن القليص:[1]

- لا تتقدمني يا غريب فأنت لا تعرف من أنا.

فردّ عليه ابن نوب:

- وأنت تسقي قبلي ولا تعرف ابن من أكون.

فردّ عليه ابن القليص: من تكون؟

فقال ابن نوب: انا ابن القليص بن زايدي اللي سافر ورا مي تسعين ليلة ما لقيته إلاّ الطيور الهبايبي.

فقال ابن القليص: أنا ابن القليص وليس أنت.

وتشاجرا وتعاركا، وتدخّل عبيد نوب لنصرة سيدهم، وتحرّك الناس يخبروا القليص أنّ غريباً يعارك ابنه ويقول إنه ابن القليص، فعرف القليص أنه ابن نوب، فخرج بنفسه ممتطياً فرسه حتى بلغ «الحسي» وعرف حبيبته نوب وحضن ابنها وقام بضرب ابنه ورحّب بنوب والأرض التي حملتها، وأبقاها هي وابنها وقافلتها على مشارف البلاد وعاد وجهّز قصره واستقبل نوب استقبالاً ظلّ يتحدث عنه الناس لشهور، وعاشت نوب مع القليص الذي طلّق زوجته وأرسل رسولاً إلى أبي نوب يخبره أنّ نوب لن تعود وإنما ستعيش في قصره معزّزة مكرّمة، وبعد فترة زاره أبو نوب وضمّ البلدتين تحت حكم القليص بن زايدي.

وتحرتكن وتبرتكن في بطن الصغير من بيننا.

رواية عائشة عجيبية

(١) رغم التسامح الذي أظهره أبو نوب لزلة ابنته ظل الابن يُنسب إليها، ولم تذكر الحكاية أن أحداً نسبه إلى جدّه، وظلوا يعيرونه بزنوه، وعندما وقف الاثنان وهما أبناء القليص ظل ابن نوب ينتسب لأمه لا لأبيه.

علي يرث وعلي لا

يقال إنّ مفتياً حضرته الوفاة وكان له ثلاثة أبناء أسماؤهم علي، فعندما جاءته الوفاة قال:

- الإرث لعلي ولعلي وعلي لا

وعندما مات جاء الإخوه لاقتسام الإرث، فمن هو علي الذي لا يرث.

فقال اثنين منهم: ربما المقصود بعلي لا هو أخونا علي بن الجارية.

فاختلفوا وقرروا الذهاب إلى القاضي حمود بن منصور، وعندما وصلا رحّب بهم وقرّب لهم الطعام، وبينما هم جلوس على الغداء قال علي الأول: الطعام طعام لكنه نبت في مقبرة.

وقال علي الثاني: اللحم لحم لكنّ الكبش رضع من كلبة.

وقال علي بن الجارية: القاضي قاضي لكن ابن زنا.

فسمعهم القاضي ودخل على أمه شاهراً سيفه وقال لها: الضيوف قالوا وقالوا فمن هو أبي؟

فقالت له: كان لدينا سقّا وهو أبوك.

وعاد ليحكم بين ضيوفه وأخرج علي ابن الجارية من الإرث، فاشترط علي بن الجارية أن يكون له الهواء فوافق إخوته، وعندما عادوا إلى بلادهم منع علي بن الجارية الهواء عن البلاد كلها فضاق الناس وجاؤوا إليه فاقتسم معهم الأموال وغدا ملكاً على البلاد.[1]

رواية زهراء حامد

---

(١) هذه حكاية مختصرة لحكاية طافت الآفاق وقد سجّلتها كاملة في كتاب قالت حامدة - أساطير =

= حجازية بعد أن سلّمني إياها راويها مكتوبة، وخامرني أن تلك الحكاية قد عبرتني في إحدى الكتب، وبعد بحث عثرت عليها عند السائب الكلبي فألحقتها بالقصة المروية. وتعدُّ هذه القصة من القصص الملغزة، وهو نوع من القصّ اشتهر في فترة زمنية معينة، وقد نقل السرد من حالة الاسترخاء والاستمتاع إلى حالة التأمل وصياغة الحبكة على هيئة ألغاز، ثم ياتي حل الألغاز لاحقاً.

وقد اشتهرت حكايات التلغيز وكان لها مريدين يجمعونها ويرونها، وكان هذا التلغيز متواجداً حتى بين الصحابة، فقد رُوي أنّ الصحابي عمر رضي الله لقي حذيفة بن اليمان فقال له: كيف أصبحت يا حذيفة؟ فقال: أصبحت أحبّ الفتنة وأكره الحق وأصلي بغير وضوء، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء. فغضب عمر غضباً شديداً، فدخل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: يا أمير المؤمنين، على وجهك أثر الغضب!! فأخبره عمر بما كان له مع حذيفة، فقال له: صدق يا عمر، يحب الفتنة، يعني المال والبنين، لأنّ الله تعالى قال: «إنما أموالكم وأولادكم فتنة». ويكره الحق، يعني الموت. ويصلي بغير وضوء، يعني أنه يصلّي على النبي بغير وضوء وفي كل وقت. وله في الأرض ما ليس لله في السماء، له زوجة وولد وليس لله زوجة وولد. فقال عمر أصبت وأحسنت يا أبا الحسن، لقد أزلت ما في قلبي على حذيفة!!

بلاد ضاع الحق

- قلنا وقلكم
- مننا ومنكم
- من واحد
- والواحد الله
- قلنا إنه كان هناك ولد ملك مفتون بنفسه وكلما طلبه أبوه الزواج قال: أنا لا أتزوج إلاّ بشرط.

فقال له: وما هو شرطك؟

فقال شرطي إنّ التي تريد أن تتزوجني لا بدّ أن أضربها بالحذاء على رأسها أربع ضربات.

فأرسل الملك الخطاب والخاطبات وكلما وافقت إحداهن قيل لها: ولكن الأمير له شرط واحد.

فتسأل: وما هو شرط الأمير؟

فيردّ عليها الخاطب أو الخاطبة: أن يضربك على رأسك أربع ضربات بحذائه، فتستنكف كل واحدة منهن وترفض هذا الشرط، وظلّ الخطاب يجوبون المملكة علّهم يجدون زوجة تقبل أن يضربها ابن الملك أربع ضربات بحذائه؛ فلا يجدون أيّ واحدة تقبل بهذا الشرط... ومرّت الأيام وهم يعرضون هذا الشرط على نساء المملكة، وذات يوم وجدوا فتاة يتيمة رائعة الجمال وعرضوا عليها الشرط فوافقت. وفي ليلة العرس، وقبل دخولها، أمسك زوجها بالحذاء وقال لها: عليك أن تنفّذي الشرط بأن أضربك أربع ضربات بحذائي.

فقالت له: سأُمكّنك من ضربي بحذائك كما تشتهي بشرط أن الذي تضربني به يكون من ملكك الخاص.

فقال لها: وهذا من ملكي الخاص.

فقالت له: هل حصلت عليه من كدّك وتعبك؟

فقال لها: لا.

فقالت له: خلاص، عندما تمتلك كلّ شيء من عرق جبينك ساعتها لك أن تضربني بحذائك.

فقال لها: وما العمل الآن؟

فقالت له: عليك أن تعمل وتوفّر قوتك من عرق جبينك.

فذهب الزوج إلى أبيه الملك وقال له: أريد ان أخرج في تجارة وأريد منك أن تزوّدني بمال أتاجر به وعند عودتي أعيد كلّ ما أعطيتني.

فقال له أبوه الملك: وما أحوجك إلى التجارة وانت ابن ملك؟

فقال له: أريد ان أكسب رزقي من عرق جبيني.

فرح به أبوه وأعطاه باخرة مليئة بكلّ صنوف المتاجرة. ودّع الابن زوجته وانطلق بباخرته وظلّ مسافراً حتى رست باخرته في بلاد يقال لها «بلاد ضاع الحق»، وبلاد ضاع الحق أُطلق عليها هذا الاسم بعد أن مات ملكها غيلةً، فقد أحب امرأةً حباً عظيماً، وكانت تصغره بمراحل، فكان إذا جاءها جمحت عنه ورفضت أن يلمسها، فجنّ جنونه وظلّ يطلب ودّها بالغالي والنفيس، وقد قالت له: لو أردت الوصول إلي لا بدّ أن أتوثق من حبك.

فقال لها: وكيف تتوثقين من حبي؟

فقالت له: عليك بقتل ابنك وابنتك لتثبت مقدار حبك لي.

فعظم عليه الأمر ولم يستطع، ولا يزال يطلب منها أن تبحث عن شيء أخفّ من ذلك فقالت له: أسقيك الخمر حتى تثمل، وإذا ثملت سيهون عليك الأمر.

فوافق على طلبها، فجاءت له بخمر عتق من مئات السنوات وأخذت تجرعه وتغنّي له غناءً فاتناً حتى ثمل وقال للسياف: اقطع رأس ابني.

فأطاع السيّاف أمره وقطع رأس الأمير فمات في الحال، فقامت الشابة تولول وتصيح:

- إذا كان الملك لا يرحم فلذة كبدة ويقتله من غير حق فلا بدّ وأنه سيقتل أهل المملكة متى ما لعبت به الخمر.

فوافقها الوزراء والقادة، فأمرت بقتل الملك ونادت بنفسها ملكة[1] على البلاد، فخرج السيّاف وصاح بالمهنئين:

- والله أنها هي التي وسوست للملك بقتل ابنه وعندما رفض أشربته الخمر حتى ثمل وأمر بقتل ابنه ومن ثم قتلت الملك.

فصاحت في الناس:

- والله أنّ هذا السيّاف هو من خوّف الملك من ابنه وكان يجب أن يُقتل أولاً.

فأمرت أحد القوّاد فجزّ رأس السيّاف وطاب لها الملك، واختلط الأمر على الناس فسمّو البلاد «بلاد ضاع الحق»، وأصبح من عادة أهل البلد أن يمارسوا كلّ الرذائل على الغرباء، ويشهد بعضهم لبعض، ويتصيدوا الغرباء لسرقة ما لديهم، فأصبح الناس لا يعرفون تلك البلاد إلاّ ببلاد ضاع الحق...

(١) تحتفي الحكاية التهامية بالمرأة وتمنحها دوراً أساسياً في تحريك الأحداث وتوصلها إلى مراتب متقدمة في التنظيم الإداري للدولة وهناك حكايات تكون فيها المرأة هي الملكة والمسيطرة وكأنها بهذا تعيدنا إلى تاريخية المرأة عبر التاريخ بدءاً من حواء أم البشر كواقع وصولاً إلى بطولاتها السردية في ألف ليلة وليلة، وكذلك استعادة سيرة الأميرة الفلسطينية ذات الهمة والتي قال عنها الأستاذ شوقي عبدالحكيم في كتابه موسوعة الفولكلور والأساطير بأن أحداثها تبتدئ بأزهى عصور الخلافة الأموية في دمشق المتاخمة للروم وفي عصر عبد الملك بن مروان مروراً بمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين الذي طارده أبو مسلم الخراساني عقب هروبه إلى مصر حتى لحقه واغتاله في أبو صير بمصر الوسطى مروراً بمطلع العصر العباسي وصراع السلطة المحتدم المتبلور وأزمة أو فاجعة البرامكة وانعكاس كل هذا على عرب فلسطين وأميرتهم ذات الهمة وابنها عبد الوهاب، حيث تستفيض بسردها هذه السيرة العملاقة التي تصل مخطوطتها الأصلية إلى ٢٦ ألف صفحة..

إلا أن في هذا القول امتداداً زمنياً لسيرة الأميرة ذات الهمة غطى فترات مختلفة وربما تكون عدد صفحات هذه السيرة مفسراً للزيادات والإضافات التي جاء بها الرواة المتأخرون فحدث خلط المواقيت والتواريخ لتسجيل بطولات قومية خاصة باستغلال سيرة الأميرة ذات الهمة، وهي سيرة أُحتفل بها كثيراً ويُشار إلى أن المخطوطة الأصلية مفقودة في عالمنا العربي منذ أن نسخها مؤلفوها الحقيقيون وأن هذه النسخة الوحيدة محفوظة بمكتبة الدولة ببرلين كمخطوطة أصلية.. وعرفت باسم (سيد البطال) وهو اسم بطلها.

أما ابنة الملك فقد تسللت من القصر بمعاونة إحدى محظياتها وهربت وغابت عن البلد فلم يُعرف لها مكان.

وصل ابن الملك إلى بلاد ضاع الحق ولم يكن يعرف ما بها من نهب وسلب وخدع وحيل للاستيلاء على أموال الغير، وقبل أن ينزل حمولة باخرته جاءته امراة تصيح:

- يا رجل، ألا تخاف الله تتركني أنا وأولادك كلّ هذه السنين ولا تصرف علينا؟ والله لا نتركك حتى يحكم بيننا القاضي.

فقال لها:

- يا امرأة، أنا لا أعرفك.

فصاحت بكلّ صوتها:

- وتترك زوجتك أيضاً، والله لا أتركك حتى نقف على حكم القاضي.

وأخذت تشدّه من قميصه ومعه خلق كثيرون يساندونها ويصفعونه من كلّ جهة ويصيحون به:

- يا لقساوة قلبك! تتنكر لزوجتك وأولادك!

وعندما وقفا عند القاضي قال القاضي للمرأة:

- ما شكواك يا امرأة؟

فصاحت:

- هذا الرجل الناكر للجميل كان لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، فوهبت له ذهبي وقلت له اذهب وترزق، وغاب عني وعن أولاده خمس سنوات، وعندما عاد وطالبته بحقي وحق أولادي تنكر لي.

وشهد معها خلق كثير فحكم لها القاضي بعُشر ما يملك من تجارة، وأرسل معها جنداً لتنفيذ حكمه.

وفي اليوم التالي جاءه رجل أعور وصاح به:

- يا رجل، انتظرتك زمناً طويلاً، عسى عدت بالعين التي طلبتها منك.

فقال له:

- لم أرك طول حياتي.

فصاح بأعلى صوته:

- يا ناس اشهدوا، لقد أرسلت مع هذا الرجل ليشتري لي عيناً، وها هو الآن يتنكر لي، والله لا أتركه حتى نقف على حكم القاضي.

وسحبه إلى القاضي فقال له القاضي:

- ما شكواك يا رجل؟

فقال الرجل الأعور:

- لقد كانت لي أموال طائلة وكنت أنعم في رغد وفير وأنعم بالصحة والعافية، وفي ليلة ماطرة رأيت غراباً يرتعد من البرد فخرجت لأعينه فخفق بجناحيه فقلع لي عيني، وحمدت الله على ذلك، وفي يوم رآني صاحبي هذا وقال إنه ذاهب إلى بلاد العجائب وادّعى أنّ بها عيون تُباع فوهبته كلّ مالي ليجلب لي عيناً بدل العين التي فقدتها، ولم يكن معه فلس، وذهب بأموالي وعندما عاد نكرني ونكر معرفته بي.

فقال له القاضي: وهل عندك شهود على ما تقول؟

فقال الأعور: كلّ أهل المدينة يشهدون معي.

وشهد معه خلق كثير فحكم القاضي له بعُشر ما يملك من تجارة وأرسل معه جنوداً لتنفيذ الأمر...

وفي اليوم الثالث خرج عليه رجل مقطوع الرجل وصاح به:

- عسى أنك عدت لي بالرجل التي وعدتني بها؟

فقال له:

- أيّ رجل هذه التي وعدتك بها؟

فاستنكر الرجل ذو الرجل المقطوعة ردّه وجمع الناس صائحاً:

- انظروا لقد أخذ أموالي وها هو يتنكر لي، والله لا أتركه حتى نقف على حكم القاضي. وسحبه إلى القاضي فقال له القاضي:

- ما شكوتك يا رجل؟

فقال ذو الرجل المقطوعة:

- كنت رجلاً سليماً وصحيحاً، وفي إحدى رحلاتي هجم سبعٌ على رفاقي فافتديتهم بنفسي وأخذت أصارع الأسد، حيناً يطرحني وحيناً أطرحه، وفي إحدى طرحاته لي قضم رجلي وابتلعها فغرست خنجري في أحشائه فمات ورجلي معلّقة

بين أنيابه، وقد قدّر رفاقي صنيعي هذا ومنحوني مالاً كثيراً، وعندما عدت إلى بلدي رآني هذا الرجل فأشفق على حالي وقال إنه مسافر إلى بلاد العجائب وإنّ بها أقدام تُباع وتُركّب لمن فقد قدميه أو إحداهما، ففرحت بهذا الخبر وأعطيته كلّ المال الذي أعطاني إياه رفاقي، وقد صدّقته عندما أخذ مقاس رجلي، وأخذت انتظر عودته وعندما عاد تنكر لكلّ الحكاية.

فقال له القاضي:

- وهل لك من شهود؟

فقال ذو الرجل المقطوعة:

- كلّ أهل المدينة يشهدون معي.

فحكم له القاضي بعُشر ما يملك من تجارة وأرسل معه جنداً لتنفيذ أمره...

نفّذ ابن الملك الحكم وأصبح متوجّساً مما قد يحدث في تالي الأيام، ولم يخب ظنه، فقد تسلّل أحد أهالي المدينة ليلاً لسرقة متجره فوقع على بكرة خيط وانغرست إبرتها في عين اللص، فتحامل اللص على ألمه وذهب من الصباح الباكر إلى قاضي البلد يشكو صاحب المتجر أن إبرته انغرست في عينه، فأحضر القاضي ابن الملك وحكم عليه بخلع عينه قصاصاً لما حدث للص، وخشي أن تُفقأ عينه فمال على أحد المتواجدين وقال له:

-خلصني وأهبك ما تشاء من مال.

فوافق الرجل وتدخل قائلاً للقاضي:

- يا نور العدل والحكمة، لقد حكمت فعدلت ولي مشورة إن قبلت بها كمل عدلك.

فاستحسن القاضي حديثه وقال له:

- قل مشورتك.

فقال للقاضي:

- إنّ جاري يعمل بالصيد، وحين يصيد يغمض عيناً ويفتح الأخرى، والرأي عندي أن تأخذ عينه التي يغمضها أثناء الصيد فهو لا حاجة له بها... وأعطني عين هذا الشاب.

استملح القاضي مشورته وأمر بإحضار الصياد وفقأ عينه.

وخارج مجلس القضاء أعطى ابن الملك من أنقذ عينه من الفقأ مالاً كثيراً، وأخذ يفكر في كلّ هذه الحكايات التي مرّت به وادّعاءات أهل هذه البلدة وخشي أن تذهب أمواله كلها في هذه البلد من غير أن يستطيع النفاذ منها، فمشى مهموماً يفكّر في حاله، وبينما هو يسير مرّ بجوار قصر الملكة استغرب مما يفعله حراس القصر عند رؤيته، فبعضهم ينحني أمامه والبعض منهم يصرخ فزعاً ويولي هارباً، فهمّ بالتراجع عن سيره قبل أن يمسك به أحدهم ويذهب به إلى القاضي مدّعياً عليه بدعوى لا يعرف النفاذ منها وتتوالى خسائره وذهاب ماله.

وفي أثناء انسحابه كان يستتر بأشجار القصر الخارجية، فرأته إحدى محظيات القصر، وكانت كارهة للملكة، ففرحت لرؤيته، وهبطت على عجل من مدخل خلفي، وأخذت تتسلل إلى أن وصلت إلى الأمير المتراجع. تفاجأ بها الأمير وهي تقف خلفه وتقول له:

- سيدي الأمير، لا أعرف كيف عدت إلى الحياة إلا أني سعيدة برؤيتك وأتمنى أن تعيد ملك أبائك وأجدادك من هذه الملكة الشريرة.

ثم صمتت للحظات وهي تتطلع إليه وقالت:

- لقد رأيتك في الحلم تعلّق رأس الملكة على شجرة أثل.

كان الأمير مستغرباً أشد الغرابة مما يسمع، ولم يشأ إظهار عدم معرفته بما تقوله تلك المحظية فظلّ صامتاً، وهي تواصل تعبيرها بفرحة عودته وتخليص البلاد من شرور الملكة، واقترحت عليه أن يختبىء داخل القصر وليس خارجه، وأخذت بيده متسللةً إلى حجرتها، وهي تقول له:

- لو ارتديت زيّاً نسائياً فلن ينتبه إليك أحد وسوف أسهّل لك الانفراد بالملكة وقتلها.

كان الأمير مندهشاً من كل ما يحدث، وعندما أشارت المحظيّة على قتل الملكة فزع ورغب أن يشرح لتلك المرأة أنه غريب جاء من أجل التجارة وليس من أجل القتل، لكنه خشي على نفسه من مكر تلك المرأة فلاذ بالصمت وعزم على مغادرة القصر ليلاً.

وجد الأمير نفسه مرتدياً زياً نسائياً ومختلطا بالخادمات وملبّياً الطلبات التي

يتلقاها، ومع انتهاء النهار كان منهكاً تماماً، فما إن وصل إلى قبو الخدم حتى أسلم جفنيه للنوم، وفي تقلباته اكتشفت إحدى الخادمات أنه رجل فأخذت تصيح وتستغيث بالحرس، فنهض الأمير مسرعاً وغادر القبو فتلقّته المحظية وهي تلومه لتوجُّهِهِ إلى مبيت الخدم. ومع تسارع الحرس لتلبية الاستغاثة كانت المحظية تقوده إلى داخل القصر وتدخله غرفتها، وقالت له:

- لو أنت قدر فلن يصيبك مكروه.

وأخبرته بوجود محاكمة ستقام في الصباح تحكم فيها الملكة، وأنها المرة الأولى التي تظهر فيها الملكة وسط حشود كبيرة من أهل البلد، وأوصته بالصمت إن سمع ما لا يرضيه.

في صباح اليوم التالي دبّت الحركة في جنبات القصر وتوافد خلقٌ كثير يتقدّمهم قاضي المدينة الذي اقتعد مجلساً يجاور عرش الملكة، وهبّ الجميع من مقعده مطاطىء الرأس لمقدم الملكة التي اقتعدت عرشها. وفي لحظات دخل الحرس يقودون امرأةً مسنّة ليس لها من ذنب إلا أنها أرضعت ابن الملك المقتول، وتهمتها أنها تطالب بالثأر للأمير المقتول.

كان الغضب بادياً على وجه الملكة وهي تحدّث القاضي قائلةً:

- ما الذي تراه يا قاضينا؟

نهض القاضي مبجّلاً الملكة بالألقاب الفخمة ثم قال:

- لقد علمت طيبتك يا ملكة الزمان فلا تأخذك رأفة بها، والحكم أن تقتل هي وكل ذريتها فالشوك لا يولّد إلا الشوك.

صاحت المرأة العجوز محقّرةً القاضي وحكمه فارتفع صوت الملكة آمرةً السياف بقطع رقبة تلك العجوز وتعليق رأسها على مدخل المدينة، فتحرك السياف لتنفيذ الأمر، وقبل أن تمتد يده إلى سيفه كان الأمير قد استلّه منه وهوى به على رأس الملكة وأتبع الضربة الثانية برأس القاضي وتحلّل من الملابس النسائية، وعندما رآه حراس القصر تصايحوا:

- الامير لم يمت.

فتحرك القواد لتهنئته بالسلامة وأجلسوه على كرسي العرش، وطلب أن تُحلّ قيود المرأة العجوز، وأدناه منه، وعندما جاورته أخذت تهمس في أذنه:

- الشبه شبهين، شبه روح وشبه وجه، وأنت تشبهه في الحالتين، وأظنك مت وعدت إلى الحياة.

وابتسمت في وجه وانقلبت إلى المجتمعين رافعةً صوتها:

- لقد سلّم الله الأمير فبايعوه على الملك.

وتدافع كبار القواد والوزراء لمبايعته ثم تبعهم بقية الموجودين، وخرج المنادي يدور في المدينة معلناً عودة الأمير ومبايعته على أن يكون ملكاً للبلاد.

أصبح الأمير ملكاً على بلاد ضاع الحق وبدأ بتقريب الصالحين ومنحهم مناصب القواد والوزراء، وعيّن قاضياً عُرف بالصلاح، وقام بنفسه على ردّ المظالم ومحاربة الفساد والضرب بقوة على من يدّعي ما ليس له، وسعى إلى تحسين حياة الناس بتوفير الأرزاق وتأمين حياتهم، فازدهرت الحياة وأصبحت البلاد تُعرف باسم بلاد عاد الحق.

وبعد أن توثق الأمير من ملكه اصطحب بعض قواده وعاد إلى بلاده، فاستقبله أبوه استقبالاً حافلاً، وزاد سروره وبهجته حين علم أن ابنه أصبح ملكاً على بلاد ضاع الحق، وقد طلب منه ابنه أن يكتم هذا الخبر عن أهل بيته حتى يقابل زوجته التي رفضت أن يضربها بالحذاء أربع ضربات حتى يكسب من عرق جبينه.

علمت الزوجة بمقدم زوجها ففرحت كثيراً وتهيأت لاستقباله، وعندما وقف أمامها قال لها:

- عليك أن تنفذي الشرط بأن أضربك أربع ضربات بحذائي.

فتبسّمت وقالت له: وشرطي أن يكون حذاؤك من ملك الخاص، وأريد رؤية ما اكتسبت.

فقال لها: استعدي لتري ما اكتسبته في رحلتي.

وبعد أن أمضى مع أبيه ثلاثة أيام استاذنه في الانصراف إلى مملكته، فأذن له وزوّده بقوّاد وهدايا ثمينة، فتحرّك الأمير مسافراً إلى مملكته وبمعيّته زوجته، وكلما اقتربا من بلاد ضاع الحق اضطربت الزوجة واعتراها الخوف الشديد حتى إذا لم يعد بينها وبين المدينة إلا فراسخ معدودة صاحت بزوجها تستحلفه أن لا يدخل بها هذه المدينة، فاستغرب الأمير أشد الغرابة من تصرفات زوجته وسألها ما الذي يخيفها من الدخول الى المدينة، فقالت له:

- اعلم أني ابنة ملك هذه البلاد، وقد قامت زوجة أبي بقتل أبي وأخي، وقد استطعت الهرب بمساندة إحدى محظياتي، ولو دخلت هذه البلاد وعلمت زوجة أبي بوجودي فسوف تقتلني.

اندهش الأمير وكتم فرحةً داخلية اعترته، وأخذ يهوّن على زوجته مخاوفها ويقول لها:

- لن يقدر احد على أن يمسسك بسوء.

فأخذت تتوسل إليه بأن لا يدخل بها هذه المدينة، وقالت له:

- خلاص، قبلت أن تضربني بحذائك أربع ضربات ولا تدخل بي هذه البلاد.

ولازال يحاول معها وهي ممتنعة، فقام وأرسل أحد قواده وأمره أن يأتي بمرضعة الأمير والمحظية، وأخذ ينتظر مقدمهما بينما كانت زوجته في حالة هلع، وزاد هلعها حينما رأت قواد أبيها يقبلون نحو زوجها مدججين بالسلاح، إلا أن هلعها خفّ وهي ترى انحناءهم وتقبيل الهواء بين يدي زوجها وهم يخاطبونه بلفظة الملك بينما نزلت من عربة كانوا يقودونها سيدتان عرفت فيهما مرضعة أخيها ومحظيتها.

كانت تعيش حالة ذهول مما تراه، وعندما أقبلت عليها المحظية قبلت الأرض بين يديها وهي تقول لها:

- مرحباً بملكة بلادنا.

زادت حيرتها مما تسمع إلا أن زوجها أخبرها بما حدث معه منذ أن دخل بلاد ضاع الحق إلى أن أصبح ملكاً للبلاد فامتلأ قلبها سروراً وأخذت تقبّل زوجها، ومن شدة فرحها قالت له:

- الآن أقبل أن تضربني بحذائك أربع ضربات.

فقبّلها زوجها وقال لها:

- بل أقبّلك على رأسك أربع قبلات.

ودخلت الأميرة قصر أبيها تحفّ بها المحظيّات والخدم، وعاشت في كنف زوجها سعيدةً هانئة، وخلّفت للأمير الصبايا والصبيان.

رواية محمد مؤمن يحيي

جلد العير

كان لملكٍ من ملوك الأرض أبناء كثر لم يفصح يوماً عن عددهم[1]، وكان لكلّ واحد من أبنائه شجاعة لا يضاهيها أحد، فقد تميّز كلّ واحد منهم بميزة لا توجد عند غيره، وغدا الناس يتحدثون عن أبناء الملك الذين لا يشقّ لهم غبار في المنازلة والفصاحة، وكان أصغرهم يفوق الجميع في الدهاء والتكتيك الحربي وقيادة الجيوش، وكان الملك سعيداً بأبنائه، وزادت سعادته حينما أقدم الجميع على الزواج، ولم تكتمل تلك الفرحة لأنّ الابن الاصغر والأحبّ إلى قلبه رفض أن يتزوج وقال لأبيه:

- أنا أريد فتاة تحبني لذاتي وليس كوني ابن الملك وقائد جيشه.

واستأذن أباه في الخروج للبحث عن المرأة التي تحبه لذاته. ركب حصانه وانطلق يعبر الأودية والقفار من بلد إلى بلد حتى استقرّ به المقام في مملكة الرضوان، وكانت مملكة عظيمة الشأن وبها ملك قد ملك الدنيا السبع، وقصره لم يرَ إنسان قصراً يشبهه أو يدانيه، وبجوار ذلك القصر سبعة قصور آية في الجمال والروعة، وبينما كان يسير في طرقات تلك المملكة ويتأمل بنيانها وحوانيتها وحدائقها قال في نفسه:

---

(١) تشير الجملة هنا إلى معتقد قديم وهو كرههم لعدّ أو إحصاء ما يمتلكون من مال أو ولد. و«كان اليهود يرفضون إحصاء عددهم لأنهم يعتقدون أنّ الله أبدى كراهيته نحو تعدادهم. وقد زاد تشاؤمهم من الإحصاء بعد الكارثة التي حلّت بهم أيام نبي الله داود الذي قيل إنّ الشيطان أوحى إليه أن يعدّ قومه وإنّ الطاعون انتشر بعد الإحصاء مباشرة فأهلك كثيرين منهم وتناقص عددهم». (أساطير من تاريخ اليمن: حمزة علي لقمان، دار المسيرة بيروت، ط٢، ١٩٨٨، ص ص٧٤-٧٥).

- هذه المملكة يحسن بي أن أستقرّ بها.

فلجأ الى إحدى الغابات وترك حصانه بها بعد أن قبّله وهمس له في أذنه بكلام فصهل الخيل وهزّ له رأسه وانطلق في تلك الغابة كالبرق، وسار في طريقه إلى داخل المدينة وأثناء سيره رأى حماراً نافقاً[1]، فسلخ جلده وارتداه ووضع كرشة الحمار على رأسه وسار في طرقات المدينة، وكان يطوف به الذباب أينما اتجه، فيتراكض الصبيه حوله ويقذفونه بالحجارة ويتصايحون به:

جلد العير... جلد العير

وصادف أن مرّت صغرى بنات ملك تلك المملكة، فأشفقت على الشاب وطردت الصبيه من حوله وقالت له:

- اتبعني فسوف أجد لك شغلاً يبعدك عن عيون الناس.

وأخذته إلى حدائق القصر وقالت له:

- من اليوم مهمتك سقي الأشجار وتشذيبها.

فمكث بتلك الحدائق وكلّما مرّت عليه الفتاة جلست معه بعض الوقت ومضت لحالها، ومع الأيام أُعجبت الفتاة برجاحة عقل ذلك الشاب وتناسق كلماته، فقالت له:

- ما دمت تمتلك هذا العقل لماذا لا تتنظف من هذه الكرشة التي تحملها على رأسك وتخلع عنك جلد العير.

فقال لها:

- منذ أن عرفت نفسي وجلد العير ردائي والكرشة عمامتي ولا أستطيع أن أبدّل حالي التي ألفت عليها.

---

(١) لم يغب الحمار عن الذاكرة العربية، وأشهر حمار ورد ذكره هو الحمار يعفور، فقد ذكر ابن حجر العسقلاني في الفتح (٧٤/٧) قال: كان يعفور يكلّم النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر له أنه كان ليهودي وأنه خرج من جده (= جد يعفور) ستون حماراً ركبها الأنبياء ولم يبق منهم (يقول يعفور) غيري وأنت خاتم الأنبياء. وقال ابن حجر العسقلاني: كان النبي صلى الله عليه وسلم يركب يعفور في حاجته ويرسله إلى الرجل الذي يريده، فيقرع بابه برأسه فيعرف أنه أرسل إليه، فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم جاء يعفور إلى بئر أبي الهيثم بن التيهان فتردّى فيها فصارت قبره.

- لكنّ منظرك هكذا ينفّر الناس منك ويجعل الذباب يتبعك أينما ذهبت.

فقال لها:

- هذه حياتي وأنا احبها هكذا.

فتركته وأصبحت يومياً تنزل وتجلس معه في الحديقة وتقاسمه أكلها وتعود إلى قصر أبيها. وذات يوم، وهي تتطلع من نافذتها، رأت جلد الحمار يخلع الجلد ويقذف بالكرشة ويغتسل في قناة مياه الحدائق، وكم هالها منظره وجماله فخرّت مغشياً عليها، وبعد أن أفاقت لم تخبره بما رأت واستمرّت في الجلوس معه ومحادثته.

وكان لها ست أخوات هي سابعتهن، وليس لأبيها ولد يرث الحكم من بعده، وخشي عليهنّ إن مات يطمع فيهن الطامعون، فجمعهنّ وقال لهن:

- ما بنيت السبع القصور التي تجاور قصري إلا لكنّ ولكي تكونوا قريبات مني وأنا رجل أملك ملك الدنيا وأخشى إن أنا مت طمع فيكنّ الطامعون وقد قررت أمراً عسى أن تعينوني عليه.

فدعونَ له بطول العمر وقلنَ له:

- افعل ما تشاء فستجدنا طوع أمرك.

فقال لهنّ:

- في الغد سوف أعرض عليكنّ أبناء عمومتكنّ من الأمراء والوزراء وأعيان المملكة، وسأعطي كلَّ واحدة منكنّ ليمونة، وأيّ واحدة منكنّ يعجبها أحدهم عليها أن تقذف الليمونة عليه وسأزوجها به في الحال.

في صباح ذلك اليوم أُشيع الخبر أنّ بنات الملك سوف يخترن أزواجهن ومن يعترضهنّ وهن يقذفن الليمون ربما يصادفه الحظ وتختاره إحدى بنات الملك فيصبح صهراً للملك؛ فتدافع الشباب من كلّ حدبٍ وصوب، وكل واحد منهم لبس أحسن ما عنده، ووقفوا أمام قصر الملك، ومع الصباح الباكر خرج الملكِ ومعه بناته السبع وكلّ واحدة منهن «تقول للقمر: بعد من مكانك أجلس بدالك»، واصطفّ أبناء عمومتهنّ والوزراء وأعيان البلد وجمعٌ غفير تنادوا من جميع أنحاء المملكة.

ودارت المنازلات بين الشباب وسباق الخيل، وكلّ واحد يظهر مهاراته في فنون القتال وركوب الخيل، ثم أُقيمت رقصات شارك فيها بعض النساء والرجال

وأنشدوا الأناشيد وأطلقوا النيران في الهواء، وقبل أن تصل الشمس إلى وسط السماء قال الملك:

- هؤلاء بناتي وفي يد كلّ واحدة منهنّ ليمونة وقد أخرجتهم اليوم لتختار كلّ واحدة عريسها؛ فمن أصابته ليمونة من ليمونات البنات يتقدم لأزوّجه بمن رمته بليمونتها...

اصطفّ الشباب وسُمح للأميرات بالسير بين الصفوف لتختار كلّ واحدة زوجها. بدأت البنت الكبرى وسارت قليلاً ورمت ليمونتها على ابن عمها؛ فتقدّم فزوّجه الملك من الأميرة الكبرى ومنحه قصراً من القصور ليعيش به مع زوجته... ثمّ تقدّمت التي تليها فسارت وقذفت بليمونتها أحد أبناء عمومتها فزوّجها الملك ومنحها قصراً من قصوره لتعيش به مع زوجها، وتقدّمت الثالثة وسارت وقذفت بليمونتها أحد الوزراء الشباب فزوّجها الملك ومنحها قصراً لتعيش به مع زوجها، واستمرّ الحال كلّ واحدة تتقدّم وترمي بليمونتها أميراً أو وزيراً أو أحد أبناء الأثرياء الكبار في المملكة، وبقي الدور على الصغرى، فحملت ليمونتها وسارت بين الصفوف واخترقتها باتجاه حدائق أبيها حيث كان يقف جلد العير يشاهد الاحتفالات وقذفته بالليمونة فأصابته فتصايح الحضور ومعهم الملك:

- لا لا، غلطت، مكّونها من أن ترمي مرّة ثانية.

فأعادوا لها الليمونة، ونهروا جلد الحمار للابتعاد عن مكان الاحتفال وصاحوا به:

- ألا تستحي أن تقف مع الأمراء والوزراء والأعيان وأنت بهذه الحالة والذباب يطوف بك من كلّ مكان؟

فابتعد عن الحفل قليلاً وظلّ ينظر من مكانه، وعندما أعادوا للأميرة الصغيرة الليمونة حملتها وسارت إلى حيث يقف جلد العير ورمته بالليمونة، فتصايح الحضور ومعهم الملك:

- لا لا، غلطت، مكّونها من أن ترمي مرة ثالثة.

فزجروا جلد العير وأبعدوه من مكانه وأعادوا الليمونة للأميرة، فسارت إلى الجهة التي يقف فيها جلد العير وقذفته بليمونتها؛ فغضب منها الملك وقال لجلد الحمار:

- تقدّم والله لأزوّجك بها حتى تعرف أنها جنت على حياته.

فتقدّم وزوّجه بها، وقال لهما:

- لن تعيشا في القصر المتبقّي ولكن أبني لك سقيفة في إحدى الحدائق وعش بها.

انفضّ الناس من الاحتفال وهم يتقوّلون:

- قلك بنت الملك تزوّجت جلد العير صاحب الذباب والنامس... قلك بنت الملك تزوّجت جلد العير صاحب الذباب والنامس...

وشاع الخبر في المملكة وندم الناس على مصير أجمل بنات الملك وأعقلهنّ.

بنى جلد العير سقيفة لزوجته وجلس بجوارها، فقالت له:

- قم واغتسل فأنت اليوم عريس.

فقال لها:

- أريد ان أعرف لماذا اخترتيني من غير خلق الله المجتمعين!

فردّت عليه:

- القلب وما يهوى.

فقام واغتسل فإذا به بدر الزمان فخرّت مشغياً عليها، فأيقظها وقال لها:

- وأنا أخترتك من دون العالمين والذي أريده منك أن تكتمي خبري إلى حين.

حاولت أن تعرف أصله وقصته فقال لها:

- سوف أخبرك خبري في يوم من الأيام.

وعاش معها زمناً، في الليل يغتسل ويتنظف ويجالسها وهو في أبهى صوره، وفي النهار يعيد لبس جلد الحمار ويضع على رأسه الكرشة، ولم تحاول أن تخالف له أمراً، وكلّما سألها أخواتها كيف يأتيها بكلّ هذه القاذورات وتطيقه تقول لهن:

- القلب وما يهوى.

فيتضاحكن عليها وسمّوها «القلب وما يهوى»...

ولا يدوم على حال إلا ربّ العباد... اللهم لا تغيّر علينا... في ذلك اليوم قام ملك البلد المجاورة بغزو مملكة الرضوان، وقد هيأ لهذا الغزو العدّة والعتاد والجيوش الطائلة، ووقف بتلك الجيوش على باب مملكة الرضوان، فاحتار ملك مملكة الرضوان فيما يصنع إزاء هذه الجيوش الجرارة، ونادى بأصهاره وقوّاده

ليتشاوروا فيما يصنعون، فكان كلّ واحد منهم يقترح اقتراحاً، فلا يستسيغ له الملك، وأمر كلّ واحد منهم أن يجهّز خطةً للحرب ويأتي بها إليه لمناقشتها، وسمع جلد العير بالخبر فقال لزوجته:

- اذهبي إلى أبيك وأعطيه هذه الخطة ولا تخبريه أنني أنا الذي وضع الخطة، وإن سألك عن صاحبها فقولي له: كنت أتسلّى وقمت بوضع هذه الخطة، وإياك أن تخبريه أنني من وضع هذه الخطة مهما كان السبب.

فقالت له:

- سمعاً وطاعة.

وحملت تلك الخطة وذهبت إلى قصر أبيها، وكان مجتمعاً بأصهاره وبالقادة وهم يناقشون خطة كلّ واحد منهم، فطلبت مقابلته فقال لها:

- وهل الآن وقتك، ألا ترييننا نناقش كيف ستكون الحرب؟

فقالت له:

- وما جئت إلاّ من أجل هذا... كنت أتسلّى وقمت برسم هذه الخطة، فإن أعجبتك كان بها وإن لم تعجبك فارمِ بها.

تناول منها تلك الخطة ووضعها على كرسيه، وواصل مناقشة الخطط المقدّمة، وكان لكلّ خطة ثغرة كبيرة تمكّن العدو من اجتياح المملكة في يسر وسهولة، فضاق ذرعاً وصاح بهم:

- أليس فيكم من يفكّر في خطة تبعدنا عن الهزيمة؟ هيا اخرجوا ولا يعود أحد منكم إلاّ بخطة تحقّق لنا النصر.

فخرج أصهاره والقادة وجلس على عرشه ضائق الصدر مهموم الخاطر يفكر كيف يجنّب مملكته عار الهزيمة وذل القهر، وبينما هو على حاله هذه التفت فرأى الخطة التي جلبتها ابنته الصغرى فتناولها وتفحّصها وذهل لها؛ فقد كانت خطة يسيرة وفي غاية الذكاء، فنادى على ابنته وسألها عن صاحب الخطة فقالت له:

- ألم أقلك إنني كنت أتسلّى فرسمتها.

فقال لها:

- لا يرسم هذه الخطة إلاّ قائد كبير حنّكته الحروب وجرّبها لكن سأعرف فيما بعد صاحبها.

ونادى على قواده وأخبرهم أنه توصّل إلى خطة تبعد شبح الهزيمة وتجعله ينتصر على خصمه، وعندما عرض عليهم الخطة ذهلوا لها وقاموا بتنفيذها.

وعندما خرج الجيش اعترض جلد العير الملك وقال له:

- يا عمي، احملني معك للحرب.

فازدراه وقال له:

- لم يعد ناقصاً علينا إلاّ المحاربة بذبابك الذي يحلّق على رأسك! اذهب من هنا قبل أن أفصل رأسك عن جسدك.

وعندما ألحّ عليه وقال له:

- احملني في أيّ جهة تراني أخدمك فيها.

وعندما رأى حرصه قدّره وقال له:

- عليك أن تجلب الماء للجيش.

وأمر له بحمارٍ منهك تنتشر الجراح في كلّ جسده، فأخذ الحمار وركبه وسار مع الجيش، وكلما اقترب من الجند هشّوه وصاحوا به:

- ابتعد أنت وذبابك عنّا.

فيتحرك في جهة أخرى فيجد نفس الاعراض، فسار في مؤخرة الجيش وعندما نشط الجيش وابتعد عنه وهو لا يزال يحثّ ذلك الحمار المجهد على السير، وعندما استوثق من خلوّ الطريق وبعد الجيش عنه نادى على حصانه:

- يا برق البروق الساعة ساعة غروق.

«وكان الأرض انشقت وولدت ذلك الحصان» فامتطاه وتقلّد سيفه، ووضع على وجهه لثام وانطلق خلف الجيش، وفي لمح البصر كان في مقدمتهم، وعندما بدأت المعركة دخل في أتونها[1] وانطلق كالإعصار يقتلع الفرسان من على خيولهم وجندل القادة والفرسان، وكان ملك مملكة الرضوان ينظر إلى أفعال هذا الفارس بانبهار وإعجاب، وعندما دنا الليل واقترب الجيشان من الفكاك عن بعضهما اقترب من عمه

---

(١) أتون تعني قرص الشمس. وفي بلاد الشام تعني الفرن الذي يُشوى فيه الفخار. ومن معانيها الرب أو السيد مثل أدون أو أدوناي. - بين الأسطورية والتاريخية مأساة أوديب وقصة أخناتون، صقر أبو فخر، مجلة نزوى، العدد السبعون.

وخطف شاله واختفى وسط الجيش. . .

عاد الملك بجيشه فرحاً وهو يتساءل مع قوّاده عن ذلك الفارس العظيم الذي جندل الأعداء وسكب في قلوبهم الرعب، فيقول كلّ واحد منهم:

- أنا ذلك الفارس.

فيقول لكلّ واحد منهم:

- أثبت أنك ذلك الفارس.

فيردّ عليه: وكيف أثبت؟

فيقول الملك:

- ذلك الفارس أخذ مني شيئاً، فما هو؟

فيعجز كلّ واحد منهم عن الإجابة. . .

وبينما كان الجيش عائداً عند مدخل المدينة كان جلد العير يركب على حماره المجرح والماء يتصبّب من الأواني التي يحملها على ظهر ذلك الحمار والذباب يطوف به من كلّ مكان، فاستقبلهم:

- ها. . . ما هي أخبار الحرب؟

فيطردونه من طريقهم:

- لم يبقَ إلاّ جلد العير ليسأل عن الحرب!

وفي مدخل المدينة كانت النساء يستقبلن الجيش فرحات ويزغردن، وتناقل الجنود خبر المعركة على مسامعهنّ، وكانت حكاية الفارس المجهول تدور على لسان كلّ واحد منهم، وعرفت المستقبلات أنّ الملك يبحث عن ذلك الفارس وقد أخذ منه شيئاً لا أحد يعرفه. . . وتمنّت كلّ امرأة أن يكون ذلك الفارس زوجها أو أخاها أو أباها. . .

وعادت زوجة جلد العير إلى سقيفته تنتظر زوجها الذي خرج في مؤخرة الجيش، وكانت متحسّرة متمنيّة لو أنّ زوجها دخل المعركة بدلاً من جلب الماء للجيش، وبعد زمن دخل عليها يجرّ ذلك الحمار المجرّح فاستقبلته استقبالاً فاتراً وقالت له:

- كانت فرصتك أن تحسّن سمعتك عند أبي بدل أن تذهب لجلب الماء وأنت الذي من وضع الخطة.

فلم يردّ عليها بل ناولها شال أبيها. . . فعرفت الشال ونهضت فاحتضنت زوجها وهي تقول له:

- سوف أخرج لأعطي أبي الشارة التي يبحث عنها وعن ذلك الفارس.

فقال لها:

- لا تفعلي واصبري قليلاً.

فقالت له:

- سمعاً وطاعة.

بينما كان داخلها يتحسر لما يحدث.

وفي اليوم الثاني خرج جيش الملك لملاقاة الأعداء وحدث ما حدث في أول يوم، وقبل أن يفترق الجيشان اقترب جلد العير من عمه وخطف طاقيته واختفى وسط الجيش. . . عاد الملك بجيشه فرحاً وهو يتساءل مع قواده عن ذلك الفارس العظيم[1] الذي جنّدل الأعداء وسكب في قلوبهم الرعب، فيقول كلّ واحد منهم:

- أنا ذلك الفارس.

فيقول لكلّ واحد منهم:

- أثبت أنك ذلك الفارس.

فيرد عليه: وكيف أثبت؟

فيقول الملك:

- ذلك الفارس أخذ مني شيئاً، فما هو؟

فيعجز كلّ واحد منهم عن الإجابة. . .

وبينما كان الجيش عائداً عند مدخل المدينة كان جلد العير يركب على حماره المجرّح والماء يتصبب من الأواني التي يحملها على ظهر ذلك الحمار والذباب يطوف به من كلّ مكان فاستقبلهم:

- ها. . . ما هي أخبار الحرب؟

فيطردونه من طريقهم:

---

(١) تركيبة الحكاية الشعبية إعادة صياغة الأحداث مرة أخرى بنفس المفردات والأحداث ولذلك ثبت هذا للمحافظة على روح نص الحكاية الشعبية في استخدامها لهذا التكنيك.

- لم يبقَ إلاّ جلد العير ليسأل عن الحرب!

وفي مدخل المدينة كانت النساء يستقبلن الجيش فرحات ويزغردن، وتناقل الجنود خبر المعركة على مسامعهنّ وكانت حكاية الفارس المجهول تدور على لسان كلّ واحد منهم، وعرفت المستقبلات أنّ الملك يبحث عن ذلك الفارس وقد أخذ منه شيئاً لا أحد يعرفه. . . وتمنّت كلّ امرأة أن يكون ذلك الفارس زوجها أو أخاها أو أباها. . .

وكانت زوجة جلد العير تتمنى أن تقول لأبيها وأخواتها أنّ ذلك الفارس ما هو إلاّ جلد العير زوجها، ولكنها تتراجع كلّما تذكرت وعدها له، فتسكت على مضض، وسبقته إلى سقيفتها وأخذت تنتظره كما حدث بالأمس، فجاء متأخراً فاستقبلته أحسن استقبال وجهّزت له الملبس والمأكل، فناولها طاقية أبيها فقامت وضمّته إلى صدرها وقالت له:

- ليحفظك ربّ العباد لحفظك مملكة أبي.

وعندما وصل الملك إلى قصره لم يكن يشغله إلاّ قصة ذلك الفارس فقال في نفسه:

- في الغد أعرف من هو.

ونام جميع الجيش فرحين ومتيقنين من النصر وأنّ في الغد ستكون آخر الجولات، ومع الصباح الباكر خرج الجيش. . . وركب جلد العير حماره وسار مع الجيش وكلّما اقترب من الجند هشّوه وصاحوا به:

- ابتعد أنت وذبابك عنّا.

فيتحرك في جهة أخرى فيجد نفس الإعراض، فسار في مؤخرة الجيش، وعندما نشط الجيش وابتعد عنه وهو لا يزال يحث ذلك الحمار المجهد على السير، وعندما استوثق من خلوّ الطريق وبعد الجيش عنه نادى على حصانه:

- يا برق البروق الساعة ساعة غروق.

«وكأنّ الأرض انشقت وولدت ذلك الحصان» فامتطاه وتقلّد سيفه، ووضع على وجهه اللثام وانطلق خلف الجيش، وفي لمح البصر كان في مقدمتهم، وعندما بدأت المعركة انطلق كالإعصار يقتلع الفرسان من على خيولهم وجندل القادة والفرسان، وما هي إلاّ ساعات حتى اندحر جيش الأعداء وولّوا هاربين وتركوا خلفهم غنائم لا

حصر لها، وعندما أيقن جلد العير من النصر اقترب من عمه الملك وهمّ بأخذ حزامه، وقبل أن يمدّ يده ضربه الملك بالسيف على فخذه... وكانت الضربة غائرة فشدّ على خيله وفي لمح البصر اختفى عن الأنظار... وعندما عاد الجيش إلى المدينة احتفل الجميع بالنصر فأُقيمت الاحتفالات وأنشد المنشدون بحياة الملك.

وعندما عاد جلد العير إلى سقيفته كان الدم ينزف منه بغزارة، فجلست زوجته تطبّب جرحه وتبكي حاله وهو يصبّرها ويطمئنها...

وعندما عاد الملك إلى قصره أمر رجاله بالطواف على مملكته وتفقّد جرحى الحرب وأوصاهم أن يحضروا له كلّ مصاب أُصيب في رجله، فخرجت العيون في جميع أنحاء المملكة تطمئنّ على الجرحى وتبحث عن مصاب أُصيب في فخذه، فيعودون من غير أن يجدوا شخصاً قد أُصيب في فخذه، فكثّف الملك المرسلين وكلّما عادت فرقة نفت وجود أيّ شخص أُصيب في فخذه، فقال الملك:

- لن أبات الليلة حتى تأتوني برجلٍ أُصيب في فخذه.

فقالوا له:

- يا ملك الزمان، درنا على جميع المحاربين وأهل مملكتك ولم نجد شخصاً مصاباً في فخذه.

فقال لهم:

- أنا متاكد من أنّ هناك شخص مصاب في رجله وعليكم إحضاره.

وكانت هناك امرأة عجوز بارعة في قصّ الأثر فجيىء بها وأخبروها الخبر فتقصّت الأثر وقالت لهم:

- من تبحثون عنه دخل هذه السقيفة.

وعاد المكلّفون إلى الملك يخبرونه الخبر وقالوا: لا يوجد في هذه السقيفة إلاّ جلد العير؛ فتذكّر الملك ابنته الصغرى التي قدّمت له خطة الحرب، فظنّ أنّ ابنته هي ذلك الفارس الذي حقق لمملكته النصر على الأعداء... فقال الملك:

- سوف أقوم بزيارة صهري جلد العير.

فقال له أصهاره وقوّاده:

- أنت ملك الزمان تذهب إلى سقيفة حقيرة! لماذا لا تأمرنا فندعو جلد العير للمثول بين يديك؟

فقال لهم:

- لا تنسوا أنني أزور ابنتي، وفي أيّ مكان حقير يجب أن ازورها وأتفقّد أحوالها، وقد قلّلت عليها حيث لم تأتِ لتبارك لي بالنصر كما فعلت أخواتها.

تحرّك موكب الملك وسمعت ابنته الصغرى بزيارة أبيها لها وأخبرت زوجها الذي كان يتلوّى من شدّة الألم، فأمرها أن تعيد عليه جلد العير وتستر رأسه بالكرشة، وعندما حاولت أن تعترض وقالت له:

- دع الملك يعرف بلاءك في الحرب وأنك زينة الشباب.

فقال لها:

- دعيني أتصرّف كما أريد.

فردّت عليه:

- سمعاً وطاعة.

وصل موكب الملك إلى سقيفة جلد العير فتنحّى الجميع ودخل الملك تلك السقيفة وهاله منظرها الرثّ وأثاثها الحقير، وتفاجأ عندما وجد في استقباله ابنته وهي تقف صحيحة البدن وهمّ بالانصراف قبل أن يسلّم على زوجها جلد العير، وقبل أن يفعل ذلك لمح شاله وطاقيته على إحدى الأرائك، فجزم أنّ الفارس الذي جندل الأعداء في هذه السقيفة فالتفت إلى ابنته وقال لها:

- أين زوجك؟

فقالت له:

- أصيب بحمّى وهو راقد في فراشه.

فتحرّك الملك إلى مكان جلد العير فوجد الذباب يغطيه من كلّ جانب، فسلّم عليه واعتذر جلد العير عن عدم مقدرته في استقباله كما يليق به فقال له:

- لا عليك.

وجلس بجواره يواسيه، وافتعل حركة وضغط على فخذه فتألّم جلد العير، فقال له الملك:

- والله أنت الفارس الذي رسم خطه الحرب وهزم أعدائي فلا تتظاهر بهذه الهيئة وأخبرني خبرك.

وقبل أن يتكلم قالت زوجته:

- والله يا أبي كلّ من قام بتلك الأفعال هو زوجي الذي احتقرته وقذفت به في هذا المكان الحقير.

وأخرجت الشال والكوفية وقالت له:

- وهذه هي الأشياء التي تبحث عنها.

فارتمى الملك على جلد العير يضمّه ويقبّله في مفرق الرأس ويعتذر له عمّا بدر منه، وسأله عن حاله ومآله فقالت ابنته: يحسن بك أن تراه على حقيقته، وساعدت زوجها فاغتسل ولبس ملابس الملك وخرج على عمه الذي دهش لحسن خلقه وقال:

- سبحان الله! لا يكون هذا إلاّ لملك أو ابن ملك؛ فما هي قصتك يا بني؟

فقال له جلد العير:

- اعلم يا ملك الزمان أني ابن ملك وليّ سبعة[1] إخوة أنا أصغرهم وأقربهم

---

(١) يمثل رقم سبعة رقماً ملغزاً ولا زالت تدور حوله التكهّنات مع يقين تام بأن هذا الرقم يحمل سراً كونياً لا زال مخفياً ولم تصل إلى ماهيته المعرفة الحالية ويذهب البعض على أنه مخبّاً لأسرار عميقة ويدلّلون على ذلك من أن رقم سبعة يتكرّر وجوده في أمور كثيرة بدءاً من كلمة التوحيد (لا إله الا الله محمد رسول الله) مروراً بسبع سموات ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (الملك:٣)، وسبع أراضين. قال تعالى في سورة الطلاق: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ (سورة الطلاق: ١٢) وأن عدد أيام الأسبوع سبعة ايام وأن عدد أبواب جهنم سبعة أبواب وأن عجائب الدنيا سبع والطواف حول الكعبة سبعة أشواط وكذلك السعي بين الصفا والمروى سبعة أشواط وأن ألوان قوس قزح سبعة ألوان، وأن آيات سورة الفاتحة (أم الكتاب) سبع آيات، ويقال عنها السبع المثاني، وأن عدد القارات سبع وعدد البحار سبعة وأن عدد الحصى التي تُجمع لرمي الجمرات سبع حصوات وأن النجوم الأساسية سبعة وأن للضوء المرئي سبعة ألوان وأن أشعة الضوء غير المرئي سبع وأن تكبيرة العيدين سبع تكبيرات وأن الأعضاء التي تلامس الأرض عن السجود هي سبعة أعضاء وكذلك مراحل وأطور القمر سبعة أطوار وأن مدارية حركة الالكترون حول النواة هي سبعة مدارات، وأن دوران الحيوان المنوى حول البويضة قبل التلقيح سبع دورات وأن المعادن الرئيسة في الأرض هي سبعة (الذهب، الفضة، الحديد، النحاس، الفوسفات والرصاص).

وأن نغمات السلم الموسيقي هي سبع نغمات كما أن الصبي يؤمر بالصلاة عند بلوغه السبع =

إلى أبي، وكنت قائد جيش مملكة أبي، وقد تزوّج جميع إخوتي، وعندما أراد أبي تزويجي رفضت أن أتزوّج أيّ امرأة وقلت لأبي: لا أريد امرأة تتزوجني من أجل أنني ابن ملك، وإنما أريد امرأةً تحبّني لشخصي، وطلبت من أبي السماح لي بالخروج للبحث عن المرأة التي تحبني لشخصي، وعندما وصلت إلى مملكتك وجدت حماراً ميتاً فسلخت جلده ووضعت الكرشة على رأسي، فتراكض الصبيه من حولي يرجمونني بالحجارة، فجاءت ابنتك الصغرى وأشفقت لحالي واستأجرتني ساقياً لحدائق القصر، وظلّت تزورني وتجالسني، وعندما عرضتَ بناتك لاختيار أزواجهنّ اختارتني من دون كلّ الخلق من غير أن تعرف قصتي؛ فقلت: لقد وجدت

= سنوات، وأن عدد النساء المحرمات على الإنسان سبعة أصناف جاء ذكرهن في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ...﴾ (سورة النساء: ٢٣).

وكذلك السبعة الذين وعدوا بأن يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سبعة يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله. ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه (متفق عليه).

ومن الآيات التي وردت في القرآن القريم ورد فيها رقم السبعة قول الله تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (سورة يوسف: ٤٣).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٧).

وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾ (نوح: ١٥).

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٩).

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً﴾ (النبأ: ١٢).

وهناك أبحاث وأقاويل كثيرة عن رقم سبعة ومضاعفاته إلا أن الملاحظ كل ذلك هو بحث عن وجود رقم سبعة فيما هو حولنا أو أشير إليه من غير الوصول إلى السر في تكراره.

ونجد أن الحكايات تورد رقم سبعة من غير التنبّه لسطوة هذا الرقم فيُقال سبعة أخوة، سبعة بحور، سبعة قصور، سبعة طيور وهكذا.

المرأة التي تحبني لشخصي، وعندما غار عليك الأعداء أرسلتها بالخطة الحربية وأنت تعرف ما تبقّى.

فنهض الملك وضمّه إلى صدره وأخذ الجلد والكرشة ووضعهما في كيس واصطحب ابنته وزوجها إلى قصره وأمر منادياً أن ينادي بالمدينة أنّ الجميع مدعو الليلة لمعرفة الفارس الذي هزم الأعداء؛ فتجمّعت كلّ المدينة في قصر الملك وخرج عليهم الملك ومعه صهره وابنته الصغرى وقال لهم:

- أتعرفون من هو الفارس الذي وضع خطة معركتنا مع الأعداء، والذي اخترق الصفوف وشتت شمل الغائرين؟

فتصايح الجميع:

- لا نعرف.

فقال لهم:

- كلّ الذي فعل ذلك هو جلد العير زوج ابنتي الصغرى، وها هو أمامكم، وهو ابن ملك حفيد ملك...

فتعجّب الناس لجمال طلعة ذلك الفارس وأقبلوا عليه يعتذرون عمّا كانوا يفعلونه به، فقبل اعتذاراتهم...

وقال الملك:

- أيها الشعب، لقد كبرت وكنت أبحث في أزواج بناتي عمّن أمّلكه عليكم ولم أجد خيراً من صهري هذا؛ فأُشهد الله وأُشهدكم أنني تنازلت له عن المُلك، وهو ملككم من اليوم...

فبارك الحضور هذا القرار وتصايحوا بحياة الملك الجديد... وعاش جلد العير ملكاً يهنأ بزوجته وأطفاله، وأرسل بالرسل ليخبر أباه عمّا حدث له، وخلال أيام جاء أبوه وإخوته مهنئين إياه، وتنازل له أبوه عن المُلك فأصبح ملك مملكتين.

رواية محمد مؤمن يحيى

كثر العسل والسمن

كان أحد الباعة يجول بين القرى يومياً لبيع بضاعته، وعاد ذات مرة إلى بيته فوجد زوجته تحت رجل، وتنبها له، فنهض الرجل متسلحاً بحجر في محاولة للدفاع عن نفسه أمام زوج عشيقته، لكنّ الزوج صاح به: لا تخف، فأنت اليوم ضيفي.

وصاح بامرأته: قومي يا حرمه جهّزي الأكل.

وذبح لغريمة وأجلسه في أحسن مجلس وأخذ يجاذبه الحديث ويتودّد إليه، وكان العشيق محتاراً لا يعرف ماذا يصنع وظنّ بزوج عشيقته الظنون. وجهز الأكل وجلسا يتغديان؛ فكان الزوج يضيف على غريمه ويصبّ له السمن والعسل صبّاً، وكلّما حاول غريمه ثنيه عن ذلك أصرّ وصبّ العسل على السمن بكميات كبيرة، وبعد أن أكل غريمه وشرب قال له زوج عشيقته:

- إن أردت البقاء فابقى وإن أردت الرحيل فارحل.

فارتحل عشيق زوجته وقام هو من حينه وقال لزوجته:

- احملي ما تريدين من البيت، فأنا ذاهب بك إلى بيت والدك.

وأوصلها إلى بيت والدها، وطلّقها ثلاثاً، فاستغرب أهلها من فعلته وحاولوا معرفة السبب، فقال لهم:

- ليس هناك من سبب وإنما قد عافتها نفسي.

فندم عمه لمّا حدث وحاول أن يعرف السبب من ابنته فلم تطلعه فقال لها:

- اعلمي أنك خسرتي رجلاً.

وبعد أيام وشهور انقضت عدّتها فجاء عشيقها طالباً الزواج منها فوافقت ووافق

أبوها وتمّ الزواج وعاشت مع عشيقها أياماً طوال فى هناء من العيش، وفي أيام عشقت رجلاً آخر، فكانت تدعوه إلى بيتها عندما يذهب زوجها إلى العمل، وذات يوم رجع زوجها إلى البيت فرآها تحت رجلٍ آخر، فتذكّر ما حدث معه مع زوجها الأول وفار دمه، ولم يشعر إلاّ وهو يطلق النار عليها وعلى عشيقها، وانتشر الخبر وتمّ القبض عليه وبعد محاكمته أمر القاضي بقصّ رأسه بالسيف حدّاً. وفي يوم تنفيذ القصاص كان قد سمع زوج امرأته الأول بالقصة فاتّجه إلى ساحة القصاص ورأى غريمه يسيرون به فى الساحة، فاخترق الصفوف حتى وصل إليه وقال له:

- علشان كذا حطينا فوق العسل السمن.

رواية أحمد السفري

مقدرة المرأة

تقدّم أحد الأشخاص لخطبتها من إخوانها لكنهم رفضوه، بينما كانت هي تريده، فأقسم إخوتها أن لا يزوّجوها إياه وفرضوا عليها مراقبة لصيقة كي لا تراه، فقالت لهم:

- ما دمتم رفضتموه فلن أراه مرة أخرى حتى تقبلون به.

لكن إخوتها لم يصدّقوها وظلّوا يراقبون كلّ سكناتها وتحركاتها، فضاقت بهم وجمعتهم وقالت لهم:

- لو أردت أن أراه فلن يمنعني أحد وإنما يمنعني شرفي.

فضربوها، فأقسمت لهم أن تبيّن لهم مقدرتها على ملاقاته بداخل البيت دون أن يقدر أحد على منعها فتحدّوها، ومضت الأيام، وبينما كانت تعلف بالحقول قالت لحبيبها:

- أريدك اليوم أن تأتي معي إلى البيت.

فقال لها: كيف وإخوانك في كلّ مكان في البيت.

فقالت له: لا عليك.

وأحضرت حزمتين من القصب ووضعته في وسط واحدة منهما وحملته على شدّ الحمار ودخلت البيت.

ونادت على إخوانها فلمّا أقبلوا أخرجت حبيبها من بين أعواد القصب وقالت لهم:

- ألم أقلكم إنني أستطيع متى ما أردت.

رواية أحمد السفري

قاتل المية

كان ياما كان، كان في قديم الزمان، كان في رجل يعيش مع زوجته في سعادة وهناء، وممّا زاد في سعادتهما انتظار مولود أوشكت زوجته على وضعه، وكان يدلّلها ويمنعها من القيام بأيّ عمل مجهد، ومنعها من النزول معه إلى الحقول والاكتفاء بالاسترخاء ريثما تضع حملها.

وذات يوم خرج إلى الخلاء لقضاء حاجته، وأخذ يبحث عن مكان يبعد العين عنه، فلم يجد إلاّ أشجاراً متعانقة الأغصان والدخول إليها يستدعي منه قطع بعض أغصانها ليجد له مكاناً داخلها، وكان جلّ المكان مكشوفاً للعابرين، فقرّر أن يوجد لنفسه مكاناً بين تلك الأشجار الكثيفة، فانطلق إليها وأعمل منجله ضرباً وقطعاً بأغصان وفروع الأشجار، وكلّما هيّأ مكاناً وقف على رؤوس الأشجار نسرٌ يخفق بجناحيه فأخذ يهشّه من غير جدوى فضربه بالمنجل ليسقط إلى الأسفل في نفس المكان الذي هيّأه، فعافت نفسه رؤية ذلك الطائر الملقى أمامه بين الحياة والموت، فتحرّك إلى جهة أخرى يقطع فروع الأشجار ويهيّىء لنفسه مكاناً جديداً، فسمع صوتاً يزجره: لقد أوجعتني وقطعت أوصالي فإن لم تكفِ كتبت عليك القتل...

توقّف بعض الشيء إلاّ أنه جزم أنه يتوهم سماع ذلك الصوت، فواصل تقطيع الأغصان حتى أوجد لنفسه مكاناً قضى به حاجته وأراد الاستجمار فتناول حجراً غرس بين جذور الشجرة فسمع الصوت نفسه: قطعت أوصالي ونجّست أرضي ولن أسامحك وسأجعل الدم دواءك ونجاستك.

فاستعاذ بالله ممّا سمع، وأسرع بمغادرة المكان وهو يسمع الصوت يلاحقه: بعد أن تقتل مائة نفس سوف أسامحك.

عاد الرجل إلى بيته حزيناً ممّا سمع، ولم يطق نفسه من الكرب الذي اعتراه وقال في نفسه: كيف أقتل مائة وأنا لا أقدر على إيذاء دجاجة؟ وظلّ مهموماً كسيف البال، ولاحظت زوجته الهمّ الطافح على محياه، فحاولت التقرّب إليه ومعرفة ما يضايقه وما زالت به حتى أخبرها القصة وكيف أنّ تلك الأشجار الملتفة تنبّأت بأنه سيقتل مائة نفس، فهوّنت عليه وأكّدت له أنّ النفس تتحدث بصوت مرتفع وما سمعه ما هو إلاّ حديث نفس لتقوّي قلبه وتجعله قادراً على مواجهة أعدائه من منافسيه في السوق.

هدأ بال الزوج واطمأن إلى أنّ ما حدث لم يكن إلاّ وسواساً خرج من صدره حيال ضعفه أمام خصومه، ذلك الضعف الذي مكّنهم من أخذ حقوقه وهو صامت لا يتذمّر.

وفي أول يوم خرج إلى حقله وجد أنّ جاره حوّل «فنية السيل» التي تصبّ في أرضه إلى اتجاه آخر، فشعر بالغضب وقرّر أن لا يصمت هذه المرّة، فتحرّك إلى خصمه صائحاً ومتوعّداً إياه بالعقوبة التي يستحقها، فتلقّاه جاره متهكّماً وواصفاً إياه بالحمار الذي لا ينهق أثناء حمل حمولته ومستغرباً نهيقه، فزاد هذا النعت من غضبه، فحمل «ميهره» وألقاه على رأس خصمه الذي خرّ صريعاً يشخب الدم من قحف جمجمته المفضوضة... وتصايح الحضور الصامت قتل المعدي... الصامت قتل المعدي.

وتسارع الفلاحون لإسعاف المعدي الذي بقي جثة هامدة، وأسرع الصامت بالهرب من تنادي أهل القتيل بدمه.

وصل إلى بيته لاهثاً مستجيراً بزوجته وصائحاً بها: قتلت أول المية.

فاستقبلته مندهشةً من قوله وحاولت تهدئته إلاّ أنّ هياجه ارتفع وانشغل بحمل ثيابه وتوديع زوجته مفكراً بالهرب إلى أيّ مكان يبعده عن أهل الدم، فتعلّقت به زوجته باكية مستغربة منه تخليه عنها وعن ابنهما الذي تحمله في أحشائها وأشارت إليه أن يختبىء داخل نفقٍ خلف البيت حيث يضعون مخزون الأطعمة، ووعدته أن لا أحد سيصل إليه وأنه سيكون في مأمن وستكون هي وابنه الموعود في أمان بوجوده بقربهما، وقالت له: سوف أشيع أنك جئت إلى البيت وحملت أغراضك وغادرته هرباً.

وافق على فكرة زوجته وتسلّل إلى داخل النفق وقد زودته زوجته بالمأكل والمشرب وفراش ووسادة، وغطّت باب النفق بأكياس الطعام، وعادت إلى وسط الدار صائحةً ومستنجدةً بجاراتها حتى إذا أقبلن عليها حكت لهنّ عن هرب زوجها وتركها في محنة وهي تنتظر مولودها وحيدة ليس لها معين. وما هي إلاّ لحظات حتى أقبل أهل الدم صائحين منددين بالقاتل وأنهم لن يتركوه ينعم بيومٍ واحد على وجه الأرض وأنّ قصاصهم سينالونه بأيديهم، وحين وجدوا زوجته تصيح وتولول وهي تشتكي لجاراتها عن هرب زوجها تفرّقوا بحثاً عنه، وأشار بعضهم إلى أنّ اللحاق به ممكن، فلم يمضِ وقتٌ طويل على هربه، وتفرّقوا في طرقات البلد كلٌّ يبحث عن الاقتصاص من الصامت.

وبعد ذهابهم جاء درك السلطان يبحث أيضاً عن القاتل، وقام بعض الجنود بتفتيش البيت تفتيشاً دقيقاً، وعندما علموا بهربه تفرّقوا من أجل اللحاق به.

ظلّ الصامت مختبئاً داخل النفق حتى إذا حلّ الليل خرج في منتصفه والتقى بزوجته واستأنس بها، وقبل حلول الفجر يعود إلى نفقه متزوّداً بما شاء من طعام.

وذات ليلة جاء ابن القتيل إلى باب الصامت صائحاً ومتوعِّدا بقتل الزوجة إن لم يعد الصامت، فتجمّع الجيران في محاولة لإبعاده عن زوجة الصامت إلاّ أنه أقسم أن لا يغادر مكانه حتى يأتي الصامت أو يقتل زوجته، فتفرّق الجيران وظلّ ابن القتيل قائماً على الباب، وفي آخر الليل خرج له الصامت وجزّ رقبته وسحبه إلى داخل النفق ودفنه هناك وهو يقول لزوجته: ثاني المية...

وفي اليوم التالي افتقد أهل القتيل ابنهم الذي لم يعد، فسألوا فقيل بات أمام بيت الصامت، فجاءت الشرطة تسأل وتبحث فأنكرت زوجة الصامت رؤية القتيل وقالت: سمعته يتهدّد ويتوعد فأغلقت باب غرفتي ودعوت الله أن ينجيني منه...

فقام رئيس الحرس بالتفتيش والتنقيب في كلّ مكان فلم يجد أثراً، فأمسك بالزوجة من رأسها وخبط به الجدار فشجّ رأسها وتوعّدها بالعذاب إن لم يظهر زوجها، وفي منتصف الليل خرج الصامت فرأى حال زوجته وما أصابها وعلم منها ما أحدثه رئيس الشرطة، فغضب غضباً شديداً وتركها في مكانها وخرج متسللاً إلى أن وصل إلى بيت رئيس الحرس وداهمه على حين غرّة صائحاً به: تتشجّع على مرة! ويقر بطنه بخنجرٍ ناجل أنهى حياة رئيس الحرس، وعاد إلى زوجته فرحاً بما

صنع وهو يقول لها: اقتصيت لك ورئيس الحرس ثالث المية.

استيقظت البلد على موت رئيس الحرس، فضجّت بالخبر والتفّ الناس في ميدان البلد يتناقلون تأكيدات زوجة رئيس الحرس أن من قتل زوجها هو الصامت، فخرج أهله إلى بيت الصامت يتهدّدون ويتوعّدون أن يصيبوا زوجته بسوء، وكان الصامت يترصّدهم من مكانٍ خفيّ من بيته ويحدّد كلّ من هدّد بقتل زوجته، مبقياً على نفسه قريباً من النفق لو دخل أحدهم لتفتيش بيته.

نصب أهل رئيس الحرس خياماً أمام بيت الصامت وظلّوا مترقبين مجيئه إلى زوجته، وعندما لم يظهر عادوا إلى بيوتهم وبقي ابنه مقسماً على قتل الصامت أو بقر بطن زوجته. ومع دخول الليل خرج له الصامت مرتدياً عباءة زوجته، وقال له: إنّ الصامت بالداخل وأريد منك قتله فأنا أخاف على نفسي وعلى مولودي القادم، فصدّق الخبر وشهر سيفه ودخل البيت حذراً، فما كان من الصامت إلاّ أن جزّ رأسه من البلعوم، وسحبه إلى النفق ليدفنه هناك، وهو يضحك لزوجته: هذا رابع الميه.

وذات ليلة جاء إلى زوجته فوجدها باكية وعرف منها أنّ الجيران يتقولون عليها بأنّ لها عشيقاً يدخل إليها في الليل، وقد شاعت هذه التهمة امرأة رئيس السقائين في البلد، فخرج من فوره إلى بيت رئيس السقائين وطرق الباب وقتل صاحب البيت وقطع لسان زوجته كي تبقى بحسرتها، وعاد مخبراً زوجته بما حدث. وتوالت ضحاياه، وفي كل يوم يموت شخص من داخل المدينة ولا أحد يعرف من القاتل وإن كانت كلّ التهم تُحمّل الصامت مقتل كلّ الذين قتلوا، وأصبحت البلد تعيش في خوفٍ وارتباك.

وقد تناقل الناس أنّ من يؤذي زوجة الصامت أو لا يقدّم لها مساعدة سيموت حتماً، لهذا كان الجيران يقدّمون كلّ ما عندهم من أطعمة وأقمشة ونقود إلى زوجته تقرّباً وتودّداً، فأصبحت زوجته ثرية تمتلك أموالاً وذهباً ومجوهرات وأطعمة وأقمشة وكلّ ما تشتهيه النفس.

غاب الصامت عن زوجته ثلاث ليال لم تره فيها، فانقبض صدرها ولم تعرف ماذا تصنع سوى التصبّر والتعوّذ ممّا يكون قد أصابه، وفي اليوم الثالث من غيابه شعرت بطلق الولادة وليس عندها أحد، فأخذت تصيح من الألم، فسمعت بها

جارتها وأحضرت لها الداية، وتجمّع كثير من الجارات لمساعدتها خوفَ أن يسمع زوجها أن لا أحد ساعد زوجته.

ولدت ولداً مكتوب على جبينه «عندي كمالة المية»، ولم يعرف أحد معنى المكتوب على جبينه، ولم تفهم هذا إلاّ أمه، وعرفت أنّ زوجها إمّا أنه مات أو سيموت لأنّ ضحايا زوجها وصلوا إلى التسعة والتسعين قتيلاً ولم يتبقَّ إلاّ قتيل واحد.

ومع خروج جاراتها تسللت إلى النفق فوجدت زوجها ميتاً بجوار الجثث التي دفنها هناك، فقامت وحفرت له قبراً ودفنته، وعادت إلى وليدها باكيةً محتسبة ولم تخبر أحداً للإبقاء على خوف الناس من إيذائها أو إيذاء ابنها.

عاشت مع ابنها حياة وديعة، ومع الأيام تنبّهت إلى أنّ لولدها كرامات أخذت تظهر عليه في كلّ ما يعترضه، فكان ريقه ولمسة يده شفاء للمرضى، فكثر زائروه والتبرّك به، فنشأ مباركاً محبوباً من الناس.

وكانت أمه فرحة به إلاّ أن المكتوب على جبينة «عندي كمالة المية» يقلقها، وتسأل بينها وبين نفسها: من هذا الذي سيقتله ابنها تكملةً للمائة التي تنبّأت بها الشجرة.

مضت الأيام والابن يكتسب سمعة مباركة ويأتيه الناس من أقاصي الدنيا بحثاً عن شفاء لأمراضهم وتفسير لأحلامهم، ويعودون من عنده راضين بما يتحقق لهم.

وفي زمنه حلم ملك البلاد حلماً لم يقدر أحد على تفسيره، وأحضر عشرات المفسرين فلم يستطع أيٌّ منهم تفسير حلمه بما يرضيه. وذات يوم دخل عليه أحد المفسّرين الذي استقدمه من بلاد الواق الواق وقال له:

- أطال الله عمر الملك، تبحث في الأمصار عمّن يفسر لك حلمك وهناك شاب في رعيتك يأتيه الناس من كلّ مكان ليفسّر أحلامهم.

فتعجّب الملك وقال: أيوجد هذا في بلدي؟

ونادى على وزيره ولامه أشدّ اللوم، وقال: اتوني بهذا الشاب، فإمّا أن يفسّر حلمي أو أقتله.

تمّ إحضار الشاب إلى بلاط الملك فرأى الوزراء مصطفين والقواد والخدم

والحشم، فقبّل الأرض بين يدي الملك وقال له: أنا رهن إشارتك يا ملك الزمان. . .

رحّب به الملك وأدناه من كرسيه وقال له: لقد حلمت حلماً لم يستطع تفسيره مفسّرو الشرق والغرب، فإن فسّرته فلك ما تشاء، وإن لم تفسّره ذبحتك.

قال الشاب: اسمع واتدبر. . .

فقال الملك: حلمت أنّ غطائي لا يغطّيني وأنّ ثوراً أسودَ يحرث أرضي.

ظلّ الشاب صامتاً لا يتكلّم والملك ووزراؤه ينتظرون تفسيراً للحلم، وعندما طال صمته غضب الملك ونادى على سيّافه، فلم يرتبك الشاب أو يخاف، فاستغرب الملك وقال له: ألا تخاف؟

فرد الشاب: لن أموت، فأنا ابن المية ولم أفعلها.

زاد استغراب الملك من ردّ الشاب: ابن المية ولم تفعلها، ما هي؟

قال الشاب للملك: ستعرف حالاً، أريد منك أن ننتقل إلى الحرملك، أنا وانت، وأن تضيفني الملكة.

ومن شدّة فضول الملك وافق، وانتقل مع الشاب إلى موقع الملكة، فوجدها هي ومحظيتها تتهامسان، وعندما استشعرت بوجوده أنهضت محظيتها واستقبلت الملك معترضةً أن يدخل إلى مكانها شخص غريب، فقال لها الملك:

- هذا الشاب يدّعي أنه قادر على تفسير حلمي وطلب أن نأتي إلى هنا، فإن لم يفسّره قتلته مرتين: مرّة لأنه تجرّأ أن يطلب المجيء إلى هنا ومرّة لأنه كذب ولم يفسّر حلمي.

وقف الشاب متأمّلاً المحظية وقال لها: اخلعي ثيابك.

صعق الملك وصفعته الملكة لطلبه الغريب وطلبت من محظيتها مغادرة المكان، إلاّ أنّ الشاب أسرع وأمسك بالمحظية ممزّقاً ثيابها، فلم يكن منها إلاّ أن طرحتها وحاولت الفكاك، فأخرج الشاب سكينة وبقر بطن المحظية التي لم تكن سوى رجل متنكّر بزي النساء، ونهض الشاب صائحاً بظفر: أنا ابن المية.[1]

---

(١) «قاتل التسعة وتسعين» حكاية نمطية من سوريا العليا، ومحورها طفل قدري موعود ما أن يولد حتى ينطق بالحكمة، ذلك أنه ينحدر تجاوزاً من صلب أبي قاتل التسع وتسعين نفساً، =

وقبّل الأرض بين يدي الملك قائلاً: امرأتك هي الغطاء الذي لا يغطّيك والعبد الأسود هو الثور الذي يحرث أرضك.

أخذت الملكة تبكي وتعتذر بأنها لا تعلم من أمر المحظية شيئاً، فتحرّك الملك وأخذ الخنجر من يد الشاب وغرسه في بطن الملكة ونادى على أمين سره وقال له: أحرِق هذه القمامة.

وسحب الشاب إلى مجلسه في البلاط ونادى به وليّاً للعهد.(١)

رواية عائشة عجيبية

= ومكتوب على جبينه ومقدّر له أن يكمل مائة، لكنّ قومه قبضوا عليه وأحرقوه بالنار حتى أصبح جسده رماداً يتطاير في الهواء، ومرت فتاة، هي أم هذا الطفل، وما أن ابتلعت لحسة من رماد وتنفست هواءه حتى حملت منه، وكان أن وضعت هذا الغلام المتوقد الموعود الذي تكلم في المهد بالحكمة إلى أن ذاع صيته ووصل إلى الملك، فطلبه ليفسّر له حلماً رآه، فطلب الطفل المعجز من الملك، على عادة النصوص الفارسية، أن يعطيه تاجه ساعةً، ثم طلب أن يعطيه خنجراً، وبدأ الملك يروي للطفل حلمه قائلاً: «رأيت السكين تأكل من الجبسة»، وهنا طلب الغلام خادمة الملكة زوجة الملك وطلب أن يرفع عنها ثيابها الداخلية فرفعوها فإذا هي رجل ذكر وقام الغلام فطعن الخادم بخنجره والتفت إلى الملك قائلاً: امرأتك يا جلالة الملك هي االجبسة، ثم هتف: أنا أبو التسع والتسعين والآن أكملت مائة نفس. (الموسوعة الفلوكلورية والأساطير: شوقي عبد الحكيم).

وفي حكاية سودانية (ودّ النمير) يطلب المنجّم من الزوجة العاقر صحناً من عظام الموتى لتشربه زوجة ودّ النمير لكن ما أن يقع المحظور ويشرب زوجها من المعلاق بدلاً منها حتى يحمل في وركه.

كذلك يمكن التعرض لجزئية قاتل التسعة والتسعين الموعود بأن يصل بضحاياه إلى المائة حتى أنّ في بعض النصوص يذهب قاتل التسعة والتسعين إلى المقابر ليزرع نبّوته، فإذا اخضرّ في اليوم التالي اتّخذ طريقه بعد الموت إلى الجنة، لكن ما أن يفاجأ داخل المقبرة برجل إنسي شبق ينكح جثة امرأة جميلة دفنت حديثاً فيقتله بنبّوته مكملاً المائة ويزرع نبوتة ويفاجأ باخضراره أي أنّ حسنة القتيل الأخير المائة ذهبت بسيئاته التسعة والتسعين السابقة عليها.

(١) قصة قاتل المائة تتكرر بصور مختلفة في أغلب الحكايات، فبعد أن يقوم القاتل بسفك الدماء ويوغل فيها يعتريه الندم ويبحث عن مخرج للتوبة، وقد يكون أساسها ما حدث في قصة طالوت مع النبي داود كما وردت في الإسرائيليات ونقلت عبر المؤرخين العرب، وهذا ابن الاثير يذكر قصة طالوت وندمه لما أحدثه من قتل لأناس كثر بحثاً عن داود كي يقتله، وتبدأ القصة من اختيار طالوت أن يقود بني إسرائيل في حربهم، ومع عبورهم النهر الذي قال لهم طالوت أن لا يشرب منه أحد إلاّ رشفة واحدة لمن أراد، ففي ذلك اليوم عبر أبو داود في من =

= عبر في ثلاثة عشر ابناً له وكان داود أصغر بنيه، وإنه أتاه ذات يوم فقال: يا أبتاه، ما أرمي بقذافتي شيئاً إلاّ صرعته، فقال: أبشر يا بني، إنّ الله قد جعل رزقك في قذافتك. ثم أتاه مرة أخرى فقال: يا أبتاه، لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسداً رابضاً، فركبته وأخذت بأذنيه فلم يهاجمني، فقال: أبشر يا بني فإنّ هذا خير يعطيكه الله، ثم أتاه يوماً آخر فقال: يا أبتاه إني لأمشي بين الجبال فأسبح فلا يبقى جبل إلا سبح معي، فقال: أبشر يا بني فإنّ هذا خير أعطاكه الله، وكان داود راعياً، وكان أبوه خلفه يأتي إلى أبيه وإلى إخوته بالطعام، فأتى النبي عليه السلام بقرنٍ فيه دهن وتنور من حديد فبعث به إلى طالوت، فقال: إنّ صاحبكم الذي يقتل جالوت يوضع هذا القرن على رأسه فيغلي حتى يدهن منه ولا يسيل على وجهه ويكون على رأسه كهيئة الإكليل ويدخل في هذا التنور فيملأه، فدعا طالوت بني إسرائيل فجرّبهم به فلم يوافقه منهم أحد، فلما فرغوا قال طالوت لأبي داود: هل بقي لك ولد لم يشهدنا؟ قال: نعم، بقي ابني داود وهو يأتينا بطعام، فلما أتاه داود مرّ في الطريق بثلاثة أحجار فكلمنه وقلن له: خذنا يا داود تقتل بنا جالوت، قال: فأخذها وجعلها في مخلاته، وكان طالوت قد قال: من قتل جالوت زوّجته ابنتي وأجريت خاتمه في ملكي، فلما جاء داود وضعوا القرن على رأسه فغلى حتى أدهن منه ولبس التنور، فملأه وكان رجلاً مسقاماً مصفاراً، ولم يلبسه أحد إلا تقلقل فيه، فلما لبسه داود تضايق التنور عليه حتى تنقض، ثم مشى إلى جالوت، وكان جالوت من أجسم الناس وأشدّهم، فلما نظر إلى داود قذف في قلبه الرعب منه، فقال له: يا فتى، ارجع فإني أرحمك أن أقتلك، فقال داود: لا بل أنا أقتلك، فأخرج الحجارة فوضعها في القذافة كلما رفع منها حجراً سماه، فقال: هذا باسم أبي إبراهيم، والثاني باسم أبي إسحاق، والثالث باسم أبي إسرائيل، ثم أدار القذافة فعادت الأحجار حجراً واحداً، ثم أرسله فصكّ به بين عيني جالوت فنقبت رأسه ثم قتلته، فلم تزل تقتل كلّ إنسان تصيبه تنفذ فيه حتى لم يكن بحيالها أحد، فهزموهم عند ذلك وقتل داود جالوت ورجع طالوت فأنكح داود ابنته وأجرى خاتمه في ملكه، فمال الناس إلى داود وأحبوه، فلما رأى ذلك طالوت وجد في نفسه وحسده وأراد قتله، فعلم داود أنه يريده بذلك، فسجى له زقّ خمر في مضجعه فدخل طالوت إلى منام داود وقد هرب داود فضرب الزقّ ضربةً فخرقه فسالت الخمر منه فوقعت قطرة من خمر في فيه فقال: يرحم الله داود، ما كان أكثر شربه للخمر، ثم إنّ داود أتاه من القابلة في بيته وهو نائم فوضع سهمين عند رأسه وعند رجليه وعن يمينه وعن شماله سهمين سهمين ثم نزل، فلما استيقظ طالوت بصر بالسهام فعرفها فقال: يرحم الله داود هو خير مني، ظفرت به فقتلته وظفر بي فكفّ عني، ثم إنه ركب يوماً فوجده يمشي في البرية وطالوت على فرس فقال طالوت: اليوم أقتل داود، وكان داود إذا فزع لم يدرك، فركض على أثره طالوت ففزع داود فاشتدّ فدخل غاراً فأوحى الله إلى العنكبوت فضربت عليه بيتاً، فلما انتهى طالوت إلى الغار نظر إلى بناء العنكبوت قال: لو كان دخل هاهنا لخرق بيت العنكبوت، فخيل إليه فتركه، وطعن العلماء على طالوت في شأن داود، فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن داود إلاّ =

= قتله، وأغراه الله بالعلماء يقتلهم فلم يكن يقدر في بني إسرائيل على عالم يطيق قتله إلاّ قتله حتى أتي بامرأة تعلم اسم الله الأعظم فأمر الخباز أن يقتلها فرحمها الخباز وقال: لعلنا نحتاج إلى عالم، فتركها، فوقع في قلب طالوت التوبة وندم وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس، وكان كلّ ليلة يخرج إلى القبور فيبكي وينادي: أنشد الله عبداً علم أنّ لي توبة إلاّ أخبرني بها، فلما أكثر عليهم ليالي ناداه منادٍ من القبور أن يا طالوت أما ترضى أنّ قتلتنا أحياء حتى تؤذينا أمواتاً، فازداد بكاء وحزناً فرحمه الخباز فكلّمه فقال: ما لك؟ فقال: هل تعلم لي في الأرض عالماً أسأله هل لي من توبة، فقال له الخباز: هل تدري ما مثلك، إنما مثلك مثل ملك نزل قرية عشاءً فصاح الديك فتطيّر منه، فقال: لا تتركوا في القرية ديكاً إلاّ ذبحتموه، فلما أراد أن ينام قال: إذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج، فقالوا له: وهل تركت ديكاً يسمع صوته؟ ولكن: هل تركت عالماً في الأرض؟ فازداد حزناً وبكاءً، فلمّا رأى الخباز منه الجدّ قال: أرأيتك إن دللتك على عالم لعلك أن تقتله؟ قال: لا، فتوثق عليه الخباز فأخبره أنّ المرأة العالمة عنده، قال: انطلق بي إليها أسألها: هل لي من توبة؟ وكان إنما يعلم ذلك الاسم أهل بيت إذا فنيت رجالهم علمت النساء، فقال: إنها إن رأتك غشي عليها وفزعت منك، فلما بلغ الباب خلّفه خلفه، ثم دخل عليها الخباز فقال لها: ألستُ أعظم الناس منّةً عليك، أنجيتك من القتل وآويتك عندي؟ قالت: بلى، قال: فإنّ لي إليك حاجة، هذا طالوت يسألك: هل له من توبة؟ فغشي عليها من الفرق فقال لها: إنه لا يريد قتلك ولكن يسألك: هل له من توبة؟ قالت: لا والله ما أعلم لطالوت توبة، ولكن هل تعلمون مكان قبر نبي؟ قالوا: نعم، هذا قبر يوشع بن نون، فانطلقت وهما معها إليه فدعت فخرج يوشع بن نون ينفض رأسه من التراب، فلما نظر إليهم ثلاثتهم قال: ما لكم، أقامت القيامة؟ قالت: لا، ولكن طالوت يسألك: هل له من توبة؟ قال يوشع: ما أعلم لطالوت من توبة إلاّ أن يتخلى من ملكه ويخرج هو وولده فيقاتلون بين يديه في سبيل الله حتى إذا قتلوا شدّ هو فقتل فعسى أن يكون ذلك له توبة، ثم سقط ميتاً في القبر، ورجع طالوت أحزن ما كان رهبةً ألاّ يتابعه ولده، فبكى حتى سقطت أشفار عينيه ونحل جسمه، فدخل عليه بنوه، وهم ثلاثة عشر رجلاً، فكلّموه وسألوه عن حاله، فأخبرهم خبره وما قيل له في توبته، فسألهم أن يغزوا معه، فجهّزهم فخرجوا معه، فشدّوا بين يديه حتى قُتلوا، ثم شدّ بعدهم هو فقُتل، وملك داود بعد ذلك وجعله الله نبياً.. فذلك قوله عزّ وجلّ: (وآتاه الله الملك والحكمة)، قيل: هي النبوة آتاه نبوة شمعون وملك طالوت. واسم طالوت بالسريانية شاوول بن قيس بن أبيال بن ضرار بن بحرت بن أفيح بن أيش بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وقال ابن إسحاق: كان النبي الذي بعث لطالوت من قبره حتى أخبره بتوبته اليسع بن أخطوب. حدثنا بذلك ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق،

وزعم أهل التوراة أنّ مدة ملك طالوت من أولها إلى أن قتل في الحرب مع ولده كانت أربعين سنة.

حكاية أحمد البوشقي وبنت السلطان

قلنا وقلك، من سلطان كانت أمنيته في الدنيا أن يرزقه الله بالخلف والذرية، وبعد سنوات طويلة حملت زوجته وأنجبت بنتاً فرح بها السلطان فرحاً غامراً، فكان يدلّلها ويحقّق لها كلّ رغباتها، وعندما كبرت ازداد حسنها حسناً، فكان الخطّاب يتهافتون لطلب الزواج منها فترفض كلّ من تقدّم إليها، واحتار أبوها في رفضها المتواصل للخطّاب، وحاول إقناعها باختيار وقبول الأصلح من كلّ الذين تقدّموا لخطبتها، فقالت لأبيها:

- حين أجد الرجل الذي يروق لي سأخبرك لتخطبه لي. . .

ضحك من ردّها وقال لها:

- الرجال يخطبون لأبنائهم وليس لبناتهم.

فقالت له: اتركني على راحتي وسأخبرك عندما أجد الرجل المناسب.

ومن شدّة حبه لها لم يعترض على رغبتها وتركها ولم يفاتحها بأمر الزواج، وكان يردّ الخطاب من غير أن يستشيرها.

وكانت من عادة الأميرة أن تخرج من الصباح الباكر يحفّ بها المحظيّات وخدمها تتنزّه حول القصر وفي البساتين القريبة وتعود قبل صلاة الظهر.

وذات يوم رجعت من نزهتها فرأت مكتوباً على جدار القصر بالخط العريض: أحمد البوشقي قاتل ألف وعاتق ألف.

فتوقفت عند تلك الكتابة وأخذتها مخيّلتها في خيالات واسعة تتصوّر جسارة وبطولة هذا الفارس المغوار الذي يقتل ألفاً ويعتق ألفا، وقالت في نفسها: هذا هو الفارس الذي يصلح أن يكون زوجا لي.

وعادت إلى غرفتها وهي تفكر في ذلك الفارس وتسأل كيف لي أن ألتقي بأحمد البوشقي؟

وعندما سيطر على خاطرها سؤال كيف تجد ذلك الفارس أسرّت لمربيتها بسرّها، فأبدت مربيتها الاستعداد الكامل لأن تبحث عنه وتأتي بخبره للأميرة.

ومن حينها نادت على ابنها وطلبت منه أن لا يعود حتى يجد شخصاً اسمه أحمد البوشقي.

خرج ابن الجارية يبحث في المدينة عن شخص اسمه أحمد البوشقي، وكلّما سأل عنه لا يجد جواباً. ذهب إلى الأسواق والمزارع والملاعب حتى يئس أن يجد شخصاً بهذا الاسم، وفكّر أن يعود إلى أمه من غير نتيجة لكنه خشي من غضبتها عليه فواصل سؤاله إلى أن وجد رجلاً أشار إلى خرابة تقع في طرف المدينة وقال له: ستجد أحمد البوشقي هناك.

فرح ابن الجارية أنه عثر على ضالّته، فتحرّك إلى الخرابة المشار إليها ودخلها، فإذا به يجد شاباً يقتعد ركناً منزوياً يجفّف دماً سال من جرحه الممتد من كعبه إلى ركبته، بهيئة رثة وملابس مقطعة وشعر ملبّد ورائحة نتنة.

وقف ابن الجارية على رأس أحمد البوشقي وقال له:

- قم معي إلى بيت السلطان.

فردّ عليه أحمد مستغرباً:

- ما الذي فعلته حتى يطلبني السلطان، لا ضربت أحداً ولا اشتكيت من أحد.

فقال له ابن الجارية: قم بس.

وكانت الأميرة قد ذهبت إلى أبيها تبشره وقالت له:

- لقد وجدت الرجل المناسب الذي أرغب أن أتزوجه.

فاستغرب أبوها وسألها كيف وجدته وأين، وماذا يعمل، فاختصرت له الحكاية بأنها حاذقة وتعرف الرجال ويكفي أنّ الذي اختارته يقتل ألفاً ويعتق ألفاً.

استغرب أبوها من حكاية هذا الفارس وأخبرها أنه لأول مرة يسمع عنه ولم يمرّ عليه في حياته أوصاف هذا الفارس، ورحّب باقترانها به، وقال لها: دعيه يأتي لخطبتك وأنا موافق كونك موافقة عليه.

أخذت الأميرة تنتظر خبر مقدم أحمد البوشقي، فقد وعدتها مربيتها بأنّ ابنها

سيعود به حتما، وعندما جاء ابن الجارية مصطحباً أحمد البوشقي وأدخله على الأميرة صدمت من منظره وهيئته الرثة ودمه السائل من جرحه الواسع، فسألته غير مصدّقة:

- أنت أحمد البوشقي الذي كتب على جدار القصر قاتل ألف وعاتق ألف؟

فقال لها: نعم، أنا الذي كتبت على جدار قصركم قاتل ألف وعاتق ألف.

فقالت له: كيف لواحد مثلك بهذه الشجاعة والفروسية يكون منظره بهذه الصورة؟

فقال لها: وما تظنين الألف القاتل والألف المعتوق.

فقالت له: وما عساهم أن يكونوا سوى محاربين تقتلهم في الحرب وتعتقهم في الحرب؟

فقال لها: لالالا، أنا مجروح جرح لا يندمل ويحطّ عليه الذباب في كلّ حين، فأمسك بيدي ألف ذبابة وأقتلها وأمسك بالأخرى ألف ذبابة فأعتقها.

صدمت الأميرة واسودّت الدنيا في عينيها وجال بخاطرها ما سيقوله عنها أبيها وكيف فضّلت هذا «الدابّة» على الأمراء والملوك، وكيف سينظر إليها لو عرف حقيقة الرجل الذي اختارته، وسيصمها بأنها فتاة بلهاء لا تعرف كيف تقيّم الناس وتضع كلّ إنسان في موضعه، واحتارت فيما تصنع، وقررت مداراة الوضع ريثما تتدبّر حيلة تبعدها عمّا وقعت فيها من كبوة.

وأمرت خدمها بإدخاله إلى الحمام وتنظيفه حتى لو استدعى الأمر إزاحة جلده الميت المتسخ، وأن يفلّوا رأسه من القمل ويجفّفوا جرحه ويربط برباط نظيف، وأن يلبسوه ملابساً فاخرة، ، وأعطتهم قطعة عود لتبخيره[1] وأكساه رائحة زكية فأمضى العبيد في مهمة تنظيفه يومين كاملين، وعندما وقف أمامها قالت له:

- اسمع، تذهب إلى أبي و تخطبني، وإذا سألك من أنت فقل أنا الفارس أحمد البوشقي قاتل ألف وعاتق ألف، وقل إنّ أباك أحد التجار الكبار، وإيّاك ثم

---

(١) قال إن أبانا آدم عندما عصى ربه وخرج من الجنة مسكت بثوبه شجرة العودة، فالعودة شجرة من الجنة.

إيّاك أن تقصّ عليه قصة الذباب مع جرحك، فإن فعلت فسوف أقصّ رأسك بنفسي... فهمت؟

طأطأ أحمد البوشقي ووعدها أن يقول ما أوصته به. استأذن في الدخول على السلطان ووقف خائفاً مرتبكاً وحرص على قول كلّ كلمة تفوهت بها الأميرة، فرحّب به السلطان ونادى على الحرس بأن يعلنوا في البلاد عن زواج الأميرة على الفارس أحمد البوشقي قاتل الألف وعاتق الألف، وأنّ الدعوة عامة يحضرها الكبير والصغير.

وأُقيم الزواج، حضره القاصي والداني، وزُفّت العروس إلى جناح من أجنحة القصر، وكانت الأميرة تتميّز من الغيظ، وقد بلغ غضبها حدّاً ظهر جلياً للمدعويين، واستغرب أبوها وجومها وسرحانها، وعندما وصلت إلى الجناح المعدّ لها ولعريسها تخلّصت من كلّ الخدم والحراس وأمرت مربيتها بأن تجهّز موضعاً لينام فيه أحمد البوشقي وحذّرته أن لا يفعل شيئاً ولا يخرج من مكانه إلاّ بإذنها، وجلست تفكر كيف تتخلص من هذه المصيبة التي ورّطت نفسها فيها.

وكانت تتصنّع السعادة أمام أبوها، وكلما سألها عن زوجها قالت خرج للصيد أو لمصارعة ذئاب البرية أو لمسابقة الريح، فيزداد أبوها إعجاباً بصهره وتزداد الأميرة حيرةً ممّا هي فيه.

ومرّت الأيام ثقيلة وزاد من ثقلها أنّ حرباً نشبت بين دولة أبيها وبعض خصومه، فجمع السلطان وزراءه وقواده للتخطيط لهذه الحرب، وذكر قادة جيشه أن يستعينوا بصهره، وأوصاهم بإشاعة أحمد البوشقي قاتل الألف وعاتق الألف.

وأرسل السلطان من يستدعي أحمد البوشقي وعندما وقف بين يدي السلطان رحّب به وقال له:

- كما تعلم نشبت بيننا وبين بعض خصومنا حرب، وهو اليوم الذي ننتظره جميعاً لنرى شجاعتك وبطولتك.

وأمره بالانصراف لكي يستعدّ للالتحاق في صفوف الجيش.

فعاد أحمد البوشقي إلى زوجته باكياً ومحمّلاً اياه مسئولية توريطة في حرب وقتال، وهو الذي لم يمسك بسيف طوال حياته. هوّنت عليه الأميرة الأمر وقالت له:

- سأكون معك فلا تخف.

ومن الصباح الباكر أحضرت بدلتين من بدلات الحرب، لبست واحدة وأعطت الأخرى لزوجها، وأركبته على حصان، فما أن يستقر حتى يسقط، فلم تجد من حيله سوى ربطه بسرج الخيل، فكان يسقط وربطته، وسارت محاذيه له. . .

وفي أرض المعركة أمر السلطان أن ينادي المنادي بصوتٍ عالٍ أنّ معنا فارس مغوار لا يشقّ له غبار. . . معنا أحمد البوشقي قاتل ألف وعاتق ألف.

فسمع جنود العدو هذا النداء المتكرّر فخالطتهم الخشية من مواجهة هذا الفارس. وما أن نشبت الحرب حتى أخذ أحمد البوشقي يصيح جزعاً وخوفاً، ووزوجته تدفع بحصانه إلى الأمام، وكلّما اخترق صفوف الأعداء زاد هياجه ورعبه، وإذا أحاط به الجنود تمسّك بالأشجار فينزعها من شدّة خوفه. . . وكان يتابع المعركة قائد جند الأعداء، وحين رأى أحمد البوشقي يخلع الأشجار في تقدّمه خشي على جيشه من هذا الفارس فأعلن مبادرة للصلح وانسحب الجيشان وعاد كلٌّ منهما إلى بلاده.

وفي طريق العودة قامت الأميرة بضرب أحمد البوشقي بسيفها على فخذه فأحدثت له جرحاً عميقاً في رجله الأخرى، فكان دمه يسيل من رجليه (اليمنى واليسرى) وعندما وصلا إلى القصر أمرت الأميرة ابن الجارية أن يعيده إلى الخرابة التي جاء به منها. . . وودّعته ساخرة:

- الآن لديك جرحان، فاقتل ألفين واعتق ألفين.

وعندما جاء أبوها ليعود صهره ويشكره على ما فعل في الحرب استقبلته الأميرة واعتذرت لزوجها الذي غادر لزيارة أهله والسلام عليهم. وعندما طالت غيبة أحمد البوشقي وكثر السؤال عنه ادّعت الأميرة أنه طريح الفراش وأنه يحتضر، وعجّلت بإعلان وفاته، وعندما سمع الأعداء بموت أحمد البوشقي استعدّوا وأعادوا هجومهم، فلم يكن من الأميرة إلاّ أن تلثّمت وركبت خيلها ونزلت إلى الميدان صائحةً:

- أنا قاتل الألف والعاتق للألف.

فأُصيب الجيش المهاجم بالرعب وتراجعوا فهزموا للمرة الثانية.

وعندما استغرب الناس من عودة أحمد البوشقي قالت الأميرة:

- لقد أحياه الله. . .

وأبقت على هذا الأمر لأيام ثم أعلنت الحداد على موت زوجها الغالي قاتل الألف وعاتق الألف للمرة الثانية أيضاً.(١)

رواية فاطمة صالحي

---

(١) بالرغم من كون الحكاية ساخرة ليست بها إلا بطولات زائفة إلاّ أنّ جزئية عودة أحمد البوشقي بادّعاء زوجته بأنه عاد إلى الحياة هو اجتزاء لما فعلته سميراميس في الأسطورة الأرمنية حين عرضت سميراميس على «آرا» الزواج منها إلاّ أنه رفض ولقي مصرعه على يد قوات قادتها هي بنفسها لمحاربته. وقد حاولت بعد ذلك أن تعيده إلى الحياة وعندما فشلت ارتدت زيه الحربي وزعمت أنّ الإله أعاده إلى الحياة.

حكاية أحمد البوشقي وبنت السلطان بلهجة الراوية

قلك في سلطان ماشي معاه عيال ويتمنى جاهل منى وبعدين ربنا رزقه صبيه دلعها وشهاها ومناها المهم كبرن امبنيه وصارن حق جواز وكل ما يجي ابوها يشاورها تابى وتقوله يوم شأتزوج انا اللي شأدور عليه واجي به حتى عندك وكان كل يوم تخرج هي وامجوار حقها وامحرس تتمشى وترجع على امقصر قبل الظهر وفي ذاك اليوم في رجهعتن ارن مكتوب على جدار امقصر احمد البوشقي قاتل الف وعاتق الف قالن في نفسها اكيد ياذا الرجل اشجع الفرسان هو ذا اللي يصلح يكون جوزي بس كيف القاه قعدن تفكر وتتشاور مع امجاريه اللي ربنها قالن لها انا ارسل اللي يجي به حتى عندك امجاريه كلمن ابنها وقالن له اشاك تيجيلي بواحد اسمه احمد البوشقي من تحت الارض راح امولد يدور ويسأل في امدينه كلها ومابقى محل ماسأل فيه لحد ماشر له واحد على خرابه مهجوره وقله تلقاه هناك دخل ابن امجاريه ذيك الخرابه والا يشوف ذاك الشاب حالته بلى ومعاه جرح في رجله من امكعب لما امركبه قله قوم معايه قله فيان قله بيت السلطان قله انا ماسويتو ولا حاجه وقاعد في حالي ولا اذيت حد ماهو يشابي السلطان قله قوم وبس وكانن بنت السلطان قالن لابوها انا لقيت امرجل اللي شأتزوجه وتراه شجاع لدرجة انه يقتل الف ويعتق الف قال السلطان على بركة الله المهم اجا ابن امجاريه ومعاه احمد البوشقي ودخله عن بنت السلطان قالن له هو ذا احمد البوشقي قلها ياوه سألنه انت اللي كتبت امكلام على جدار امقصر قلها انا قالن انت شجاع لدرجة انك تقتل الف فارس وتعتق الف قلها ومن قلك انهن ناس انا عندي جرح في رجلي تتجمع عليه امذبه (ذباب) اقوم امسك الف واقتلهن وامسك الف وانفرهن الا وهي عميا وخايفه

ابوها يقولها انها هبله ومتعرفش الناس بعد ماردن الامراء والملوك اللي خطبوها المهم جابن واحد يداوي له رجله حتى تعافى وغسلوه امعبيد ونظفوه من امقمل اللي كان في راسه ولبسوه وقالن له ذحين تروح عند بويه ولو سألك من انته قله انا الفارس احمد البوشقي قاتل الف وعاتق الف وانك ابن شيخ وتاجر كبير وعنده مال ولو قلت على امذبه وانك فقير وخواف شأذبحك وادفنك راح قابل السلطان وسوى مثل ماقالن امبنيه وهو يتنافض من امخوف قام السلطان قلو خلو امنادي يصيح في امدينه ان جواز الاميره على الفارس احمد البوشقي يوم الخميس وكل الناس معزومين وصار ذاك الجواز اللي غير وخلاف والاميره شاتموت من امقهر على حظها وليلة امدخله قالن حسك تقرب مني ولا تدخل غرفتي وروح ارقد في أي محل ثاني وقعدن تفكر كيف تتخارج من ذي المصيبه اللي حطن نفسها منها بعد مده سمع ابوها ان في ملك شيحاربهن قام جمع الوزرا حقه وقعدو يتشاورون الا هو يقولهن لا تنسون ان عندنا احمد البوشقي اشجع الشجعان ارسله واحد من امحرس ولما اجى قال السلطان اليوم يومك ترى في ملك واجي يحاربنا واجى اميوم اللي نرى فيه شجاعتك راح عند حرمته يبكي ويرتعش من امخوف ويقولها انا ما اعرفش احارب وانتن اللي ورطتني في ذي الحكاية ةذحين هبيلي دبره قالن ولا يهمك ثاني يوم ركبنه على امحصان وربطنه بحبل حتى لا يطيح وتلثمن بعد مالبسن لبس امرجال وركبن على امحصان امثاني ومشن معاه وقبل امعركه هبو واحد يصيح انه معانا الفارس احمد البوشقي قاتل الف وعاتق الف واجيتن لموتكن دخل امخوف في قلوب ذولاك الناس وكانو يحاربون وهن خايفين من احمد البوشقي اللي كلما قربو منه صرخ من خوفه ويتمسك في شجره حتى ينتفها لما شافوه كذا قالو ذا الرجل مايهمه لاناس ولا شجر وقفوا امحرب وتصالحو مع السلطان وهن مروحين قامن حرمته جرحنه في فخذه بمسيف ووصلو امبيت ودمه يسيل وقعدن راجمابه في غرفه حتى كبر ذاك الجرح وقالن لابن امجاريه حقها رجعه امخرابه وشنقول انه سافر يزور اهله ولا انه مات.

وسمع الناس بموت احمد البوشقي قالوا نهجم عليهم تا المرة شانفوز ولمن عرفن الاميرة قامن لبسن لبس امحرب وتلثمن وركبن حصانها وحاربن وهي تصيح انا قاتل الف وعاتق ألف فهرب امجند وكسب ابوها ام معركة وعادن الاميرة الى

البيت وسمعن الناس يتهرجوا كيف يحارب احمد وهو ميت فقالت لهم الله نفخ في صورته... وما هي الا ايام حتى صاحت وقالت مات احمد البوشقي وكذا خلصن نفسها منه.[1]

رواية فاطمة صالحي

(١) وتروى هذه القصة بطرق أخرى ومسمّيات مختلفة، ومنها قصة راعي أم سيف، وتبدأ على صيغة المثل فيقال: كأنه راعي امسيف، فيردّ السامع قائلاً: وما هي قصة راعي امسيف؟ فيكمل المتحدث قائلاً: قال كان واحد معه سيف مكتوب عليه قاتل ألف وفاسح ألف وألف بالتوجه ودخل عند ناس ولما شافوا سيفه زوجوه بنت شيخهم عسى يحميهم إذا صار حرب، وراحت أيام وعدى عليهم غزاة فقالت له زوجته: جاء يومك، فقال لها: اصبري لم يهجموا هجموا، فقالت: لقد هجموا، فقال: اصبري لم ينهبوا نهبوا، فقالت: نهبوا، فقال: اصبري لم يقتلو، فقالت لقد قتلوا، فقال لها: أصارحك أني جبان، وقالت له: والسيف المكتوب عليه قاتل ألف، فقال لها: كلها ذبه، فخشيت من العار فحملت سيفه وخرجت تحارب بدلاً عنه وهي ملثمة، فقالوا: منه ذا؟ قالوا: ذا صاحب امسيف.

ابن العجينة منتوف

كان يا مكان، كان لملك ابنة في غاية الجمال يحبّها ويدلّلها ولا يرضى أن يؤذيها أحد، ولم يكن يحزنه شيء إلاّ أنه ليس له ابن يرث دولته المترامية الأطراف.
وذات ليلة استيقظ حزيناً مهموماً، واستدعى وزيره الحكيم وصارحه بحلم أفزعه وقال له: لقد رأيت أنّ إناءً كبيراً مُلئ بالدم وأُريق على عرشي، ورأيت ابنتي تحمل عجيناً من دقيق تزيل به الدم الذي أُريق على عرشي وتتلفت فلا تراني.

استغرب الوزير من حلم الملك واستقرّ في خاطره تفسيرٌ واحد استعصى أن يرويه للملك، وحاول ألاّ يجيب إلاّ أنّ الملك قال له: قل ما خطر ببالك ولك الأمان.

فقال له الوزير: خطر في بالي تفسير لجزء من الحلم، فقال له: قل، فقال: أمّا الدم الذي يسفك على عرشك فهو زوال ملكك، ولن يكون إلاّ بالدم، أمّا فعل ابنتك فليس عندي له تفسير.

غضب منه الملك وأمره بتجرع السم في الحال قبل أن يتسرّب تفسيره أو ما قاله لأحد من الرعية، وأشاع في البلد أنّ الوزير قد مات وستقام عليه صلاة الميت، وإجلالاً ومحبةً للوزير فقد عيّن ابنه في مكانه.

وكان ابن الوزير رجلاً داهية محبّاً للسلطة وراغباً في الحصول على المُلك، وتعمّقت رغبته حين شعر أنّ اباه مات قتيلاً ولم يمت بقضاء الله وقدره كما قال الملك.

وزاد غيظه وغضبه حينما رفض الملك طلبه بان يزوّجه ابنته، فأضمر الحقد وقرّر أن يستولي على الحكم، وأخذ يتحيّن الفرصة لكي ينقلب على الملك.

ولم يحاول أن يقدم على خطوة غير مأمونة، وخلال كلّ هذا الوقت أظهر الإخلاص والأمانة في حماية الملك وابنته.

وفي سنة من السنوات قدم أمير إحدى الدول المجاورة ورأى الاميرة فأعجبته، وتقدّم لخطبتها وتزوّجها وكان الملك يأمل أن تلد ابنته مولوداً فيعهد إليه بولاية العهد. مضت سنوات ولم يأتِه خبر حمل ابنته، وذات يوم عادت البنت إلى بلدها حزينة كسيرة الخاطر، فقد طلّقها زوجها وأرسل معها رسالة إلى الملك يقول له فيها: زوّجتني بامرأةٍ عاقر منفعتها في الفراش ولا تنفع دولة تحميها.

فهم الملك الرسالة فأصابه الهمّ والحزن ولم يجد من يكشف له سبب همه، فظلّ شارد البال وكلما التقى ابنته أخذ يواسيها ويقول لها: عسى الله أن يعوّضك خيراً منه...

فقالت له: كان يشتمني يومياً ويقول عني عاقر، وأنا لم أخبره أني ليلة زواجه بي حلمت أنه وضع في داخلي قرص عيش وسمعت صوتاً يقول: أولادك في العجينة، لن يخرجوا من بطنك، ولم أفهم إلاّ الآن أني عاقر وأن أولادي هم من أتصدّق عليهم بأقراص العيش... وآمنت أني عاقر، وكلّما شتمني وعيّرني بالعاقر ألوذ بالبكاء حتى أني تمنيت أن ألد له ذلك القرص الذي وضعه فيّ، ومع الأيام حمدت الله ورضيت بما أنا عليه.

اقتنع أبوها بتفسيرها، فكان يساعدها على التصدّق ويجمع أطفالاً في القصر ويجعلها تنزل إليهم وتقيم لهم موائد بها أصناف المأكولات.

أصبح الملك كبيراً غير قادر على متابعة كلّ شيء بنفسه، واستغلّ ابن الوزير هذا الضعف وانقلب على الملك وقتله ولطّخ عرشه بدمه، وكانت البنت ترى منظر قتل أبيها، فخافت وتسلّلت وهربت من نفق داخلي يوصل إلى خارج القصر، وظلّت تركض حتى اختفت عن الأنظار، ولا زالت مسافرة من بلد إلى بلد حتى ابتعدت عن بلد أبيها. وفي إحدى القرى صنعت لها «خدروش» وسكنت فيه، ولكي لا تظهر عليها النعمة من حليّ وأموال أخذتها في هربها أخفتها واشتغلت ببيع الدقيق، فكانت تلطّخ جسدها بالفحم وتنكش شعرها وتجلس أمام بضاعتها للبيع، وكلّ خوفها أن يتعرف عليها أحد.[1]

---

(١) تحمل تقلبات الزمان وصروفها قصصاً في غاية الألم لمن كان عزيزاً فذلّ، فنهاية المعتمّد بن =

ومع الأيام أخذت تتقرّب من جاراتها وتتودّد إليهن حتى أحببنها جميعاً.

مرّت الأيام سريعة وهي بين أهالي تلك القرية، وأصبح لها جارات يحببنها ويسألنَ عنها، وكلّما سألها أحد عن أهلها تقول: أنا مقطوعة من شجرة.

وذات يوم أحسّت بألم في بطنها وازداد الالم حتى أنه منعها من المشي، فكانت تتحمّل ألمها صامتةً. وذات ليلة حلمت أنّ بطنها غدا عجينة منتفخة، وسمعت أصواتاً تناديها: أخرجينا يا أمي، فاستيقظت من نومها تستعيذ بالله مما رأت.

وعاد إليها الحلم لثلاث ليالٍ متتالية، وفي الليلة الأخيرة سمعت صوتاً يقول لها: كني على عجين من دقيق يخف ألم بطنك.!

قامت فعجنت دقيقاً وربضت على تلك العجينة،[1] فأحسّت أنّ ألمها قد خفّ،

= عبّاد وما حلّ به وبأسرته تجسّد ماساة العزيز الذي أُصيب بسهم الأيام المسمومة، وكذلك ما حلّ بالبرامكة، وهناك عشرات الحكايات التي أصابت قوماً كانوا في أرفع مقام فإذا بهم في أسفل مقام، وأجدني أذكر قصة أوردها ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان يذكر فيها أنّ من أعجب ما يُؤرّخ من تقلبّات الدنيا بأهلها ما حكاه محمد بن غسّان الهاشمي، قال: دخلتُ على والدتي في يوم عيد، فوجدتُ عندها امرأة في ثياب رثة. فقالت لي والدتي: أتعرف هذه؟ قلت: لا. قالت: هذه أمّ جعفر البرمكي رحمه الله. فأقبلتُ عليها بوجهي وأكرمتها، وتحادثنا زماناً، ثم قلت: يا أُمّه، ما أعجب ما رأيتِ؟ فقالت: أتى عليّ يا بنيّ عيدٌ مثل هذا وعلى رأسي أربعمائة وصيفة، وإني لأعدُّ ابني عاقًا لي. ولقد أتى عليّ يا بنيّ هذا العيد وما مُناي إلاّ جِلْدا شاتين، أفترش أحدَهما وألتحفُ الآخر. فدفعتُ إليها خمسمائة درهم، فكادت تموت فرحًا بها. أما قصتنا هنا فالأميرة تتظاهر بشظف العيش، فهي تمتلك مجوهرات سوف تستخدمها لاحقاً.

(١) الأسطورة دائماً ما تلجأ إلى الموتيفات السابقة لها لتقيم وجودها، وفي هذه الحكاية تستعيد الأسطورة أو الحكاية قصة الخلق الأولى لخلق آدم (وإنما سمّي آدم لأنه خُلق من أديم الأرض) قال ابن عباس: أمر الله بتربة آدم فرفعت فخلق آدم من طين لازب من حمأ مسنون، وإنما كان حمأ مسنونًا بعد التراب فخلق منه آدم بيده لئلا يتكبّر إبليس عن السجود له، قال: فمكث أربعين ليلة، وقيل: أربعين سنة، جسدًا ملقىً، فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل، أي يصوِّت، قال: فهو قول الله تعالى: ﴿من صلصال كالفخارّ [الرحمن: ١٤]. يقول: منتن كالمنفوخ الذي ليس بمصمت، ثم يدخل من فيه فيخرج من دبره ويدخل من دبره ويخرج من فيه ثم يقول: لست شيئًا ولشيء ما خلقت ولئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت عليّ لأعصينّك، فكانت الملائكة تمرّ به فتخافه وكان إبليس أشدّهم منه خوفًا. فلما =

وكلّما ابتعدت عن العجين لفترة طويلة عاد إليها انتفاخ وألم بطنها فتعود مسرعةً لتجلس على تلك العجينة. ومع الأيام رأت العجينة تنفصل إلى أربع عجينات، وكلّ منها يتكوّر ويتمشّج وتجري به عروق دموية، فهالها المنظر إلا أنها صمتت وبقيت مداومة على الجلوس. افتقدتها جاراتها وأخذن يزرنها ويواسينها في ما تجده من ألم، وبعضهن يقدّمنّ لها الطعام والشراب، وكانت لها جارة فضولية أرادت معرفة لماذا كلّما زارتها وجدتها جالسة كما تركتها آخر مرة.

وقرّرت أن تعرف السبب مهما كان الأمر، فجاءتها وطلبت منها أن تقوم لتصنع لها قهوة، فنهضت الأميرة لإعداد القهوة، فتطلّعت الجارة إلى مقعد جارتها فرأت أربع قطع من العجين المحمرّ، فنتفت واحدة منها وشمّت ما نتفته، ففاحت رائحة مقززة، فقذفت بما نتفتة على الأرض، ولم يطل مكوثها فقد احتست القهوة على عجل وغادرت، فلاحظت الأميرة أنّ إحدى العجينات منتوفة، ورأت القطعة المنتوفة على الأرض، فأخذتها وحاولت أن تعيدها إلى مكانها فلم تلحم مع العجينة المنتوفة، عادت وربضت على عجيناتها المتكورة، وبعد ٢١ يوماً[1] أحسّت بحركة

= بلغ الحين الذي أراد الله أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [الحجر: ٢٩]. فلما نفخ الروح فيه دخلت من قبل رأسه وكان لا يجري شيء من الروح في جسده إلاّ صار لحمًا، فلما دخلت الروح رأسه عطس فقالت له الملائكة: قل الحمد لله، وقيل: بل ألهمه الله التحميد فقال: الحمد لله رب العالمين، فقال الله له: رحمك ربك يا آدم. فلما دخلت الروح عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما بلغت جفوه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، فلذلك يقول الله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ [الأنبياء: ٣٧]. فسجد له الملائكة كلهم إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين فقال الله له: يا إبليس ما منعك أن تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خير منه، لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين. فلم يسجد كبرًا وبغيًا وحسدًا، فقال الله له: (يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) إلى قوله: ﴿لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: ٨٥]. فلما فرغ من إبليس ومعاتبته وأبى إلاّ المعصية أوقع عليه اللعنة وأيأسه من رحمته وجعله شيطانًا رجيمًا وأخرجه من الجنة. (الكامل في التاريخ - ابن الاثير).

وسنلحظ في الحكاية تنقّلاً بين الخلق الأول لآدم من خلال الطين ومقابله العجين وبين إخراج الحي من الميت في كون المرأة عاقراً، فتستلهم لها الأسطورة إخراج أبنائها من ميت (البيض) وهو الخلط الحكائي الذي تسلكه الأساطير في بناء وحدتها ووجودها.

(١) ٢١ يوما هي مدة فقس بيض الدجاجة.

من أسفلها، فرفعت مؤخرتها لتجد أربع أطفال يتصايحون، وكان أحدهم مختوناً[1] فسعدت أيمّا سعادة، وقامت بغسل كلٍّ منهم وتنظيفة ولفّه في قطعة قماش نظيف، وشعرت أنّ ثديها ممتلئان باللبن، فأخذت ترضع كلاً منهم على حدة، وأخذت تتفكّر في وضعها، وخشيت أن تتهم في شرفها، فقرّرت مغادرة القرية التي هي بها، فحملت أولادها وغادرت ليلاً، وظلّت مسافرة من بلد إلى بلد حتى وصلت بلد زوجها الذي طلّقها، وكانت راغبة في أن تبشّره بأولاده الأربعة، وكلّما حاولت دخول القصر تمّ طردها، فاستكانت وقرّرت أن تربّي أولادها على الفروسية والأخلاق النبيلة، وظلّت ترعاهم وتنفق عليهم من مجوهراتها وحليّها التي حملتها معها أثناء الهرب.

ومع نمو أبناءها ظهر لها أنّ أحدهم قصير جداً[2] ومأخوذ من جوفه عدة

---

(١) دائماً ثمة ميزة مغايرة لبطل القصة وأن يأتي الشخص مختوناً لها دلالات دينية عميقة إذ تشير إلى أن هذا المولود مصطفى وقد ذكر ابن الجوزي أن جملة من الأنبياء عليهم السلام ولدوا مختونين فقال: إن آدم خلق مختوناً، وولد شيث، إدريس، نوح، سام، هود، صالح، نبي أصحاب الرس، لوط، يُوسُف، موسى، شعيب، سليمان، زكريا، عيسى ونبينا محمد مختونين مسرورين، وابتلي بالختان إِبْرَاهِيم الخليل -. المنتظم في تاريخ الأمم لابن الجوزي.

(٢) تحتفي الأساطير بالأقزام وقصار القامة وتهبهم الحكمة والشجاعة والإقدام، وهذا يعيدنا إلى اسطورة ألفيس (ومعناه الحرفي الحكيم المحصن) وهو اسم لقزم قيل إنه يعيش تحت السطح وطلب يد «ثرود» ابنة «ثور»، كما جاء في قصيدة وردت في كتاب **الأساطير النرويجية** المنظومة شعراً. لكنّ «ثور» كان يعارض زواج ابنته من « ألفيس» لذلك أخبره بشرطه للموافقة على هذا الزواج وهو أن يجيب عن بعض الأسئلة. وظن ألفيس أنّ بوسعه أن يجيب عن أيّ سؤال يوجّه إليه بعد أن طاف بتسعة عوالم، فوافق على أن يجيب عن الأسئلة. ووجّه إليه «ثور» ١٣ سؤالاً تعجيزياً، لكنّ «ألفيس» استطاع أن يجيب عنها بسهولة. وكانت الأسئلة والأجوبة قد شغلت الليل وكانت الشمس في الحجرة. واكتشف «ثور» أنه كان على ألفيس أن يهرع مع ضوء النهار وإلاّ تحوّل إلى حجر، ومن هنا قضى ألفيس عمره يجري وراء الشمس ولم يتزوج من الفتاة التي أحبها.
وإن كان هناك سياق آخر للحديث عن هذه الشخصية التي عبث بها أثناء تخلقها: هل علينا أن نستعيد دخول وخروج إبليس من جسد آدم المسجّى حتى إذ أمر أن يسجد له فأبى فطرد بهيئة مخزية، كما يورد ابن الاثير في التاريخ الكامل حين يقول: قال الشعبيّ: أُنزل إبليس مشتمل الصّمّاء عليه عمامة أعور في إحدى رجليه نعل.

أضلاع تجعله مشوّهاً عند تعريته، وأنّ رأسه لين إذا ضُغط التمّ في اليد، وكان حزيناً على حالة، وسألها عمّا أصابه فروت له أنّ الداية نتفته من بطنها بقوة قبل أن يكتمل نموه في بطنها، فأطلق عليه إخوته لقب المنتوف.

كان المنتوف محلّ سخرية إخوته وعزوفهم عن اللعب معه أو مشاركته ألعابهم أو تمارينهم على ركوب الخيل والمبارزة، فكان يظهر لأمه ندمه وحزنه لما يفعل به إخوته، فتغضب منهم وتقول لهم: أنتم إخوه من بطن واحد ودم واحد فإن لم تحبوا بعضكم فسوف يغلبكم عدوكم.

لم يسمع الأبناء الثلاثة لنصيحة أمهم وأبقوا سخريتهم لأخيهم «المنتوف».

شعرت أمهم بالندم أنها أطلقت عليهم اسم «أبناء العجينة»، فقد شاع هذا الاسم فأصبح أقرانهم ينادونهم «أبناء العجينة» ويتّهمونهم أنهم أبناء زنا، فليس لهم لقب سوى العجينة، فيعودون يشتكون لأمهم مما يسمعوا من أقرانهم فتصبّرهم وتقلّل من شأن ما يُقال.

وعندما امتنعوا عن الخروج أجلستهم وقالت لهم: أنتم أبناء ملك وأحفاد ملك، ولن أخبركم باسم أبيكم إلاّ بعد أن تثأروا لجدّكم وتسعيدوا ملكه.

وأخبرتهم بقصة ابن الوزير وكيف قتل أبيها واستولى على حكمه، وكيف هربت إلى بلاد بعيدة لكي تنجو بنفسها. أقسم الإخوة على استعادة ملك جدهم لكي يعرفوا نسبهم ويستعيدوا شرفهم.

خرج الإخوة، وركبوا جيادهم وتسلّحوا بسيوفهم، وحينما أراد أخوهم المنتوف أن يكون معهم رفضوا وقالوا له: أنت معاق وسوف تعيق ممشانا، وتركوه وانطلقوا بجيادهم. حاول المنتوف أن يركب حصاناً فلم يستطع لصغر حجمه وعدم مقدرته على السيطرة على الحصان، فركب تيساً وانطلق خلف إخوته.

سافر الإخوة الثلاثة باتجاه بلد جدهم، وكان ابن الوزير يخشى الأعداء؛ فقد جلب سحرة ماهرين وطلب منهم أن يعقدوا عقداً، ونفثوا سحرهم على حدود البلد تمنع دخول الأعداء أو من يوسوس بقتل الملك.

= وهل يمكن أن نعلق المثل الشهير القائل «كلّ ذي عاهةٍ جبار» إلاّ أنّ نقصه يؤدي به إلى الافتراق عن السائد والسعي في طريق الجبروت ؟!

حاول الإخوة الثلاثة دخول البلد من كلّ جهة إلا أنهم لم يقدروا؛ فكلما حفزوا خيولهم للانطلاق ترتد أو تسقط على الأرض.

وبينما هم على هذه الحال وصل أخوهم المنتوف وسألهم عن حالهم، فتضاحكوا منه ولم يخبروه، وكان المنتوف قد وجد في طريقه جنيّة مربوطة إلى شجرة سدرة، شعرها منكوش وتضرب خدّها وتصيح: من يفكّني أكون جاريته، ولم يكن أحد يقدر على الاقتراب منها لمنظرها المرعب، فاقترب منها المنتوف، فتعجبت من منظره وهو يمتطي التيس والسيف يخطّ في الارض، فأخذت تضحك وقالت له: أنا ممتنة لك، فقد مضى عليّ ألف عام وأنا أبكي وأستنجد بكلّ المارين أن ينقذوني من حبسي، ولم أكن محبوسة فعلاً بل حزينة، وكان يسعدني أن أقبض على من يحاول إنقاذي وأقدّمه طعاماً لأطفالي، أما أنت فقد أضحكتني من أوّل ما رأيتك وفرّجت كربتي، فأخبرني إلى أين تذهب؟ فأخبرها، فقالت له: بلد جدّك محوطة بسحر لا يُفكّ إلا بثلاث شعرات من شعرات سعالي الجبل الأسود، ولن تصل إليها إلاّ بطريقة واحدة، وهي أن ترشّ في عين كلّ واحدة ملحاً، وتأخذ شعرة من حاجبها وليس من أيّ مكان آخر، وقبل ذلك لا بدّ أن تبدأهنّ بالسلام وإلا أُكلت، وقالت له: مقابل إسعادك لي سوف أهبك تيساً من الجنّ ينفّذ لك كل ما تريد فعله. شكرها وركب التيس الجني ومضى في طريقه حتى وصل إلى إخوته وأخبرهم خبر السعالي ولم يخبر خبر أنّ معه تيس من الجن.

وما إن سمع إخوته بالحكاية حتى امتطوا خيولهم وانطلقوا يبحثون عن الجبل الأسود، فلحق بهم صائحاً: خذوني معكم، فرفضوا أن يصاحبهم، فلحق بهم وهو يصيح:

- قدامكم بحر ووراكم بحر يغرقكم ويغرق خيلكم.

ولم يبتعد إخوته بعيداً حتى أحاطت بهم المياه من كلّ جهة وأحسّوا أنّ الماء يقترب منهم بسرعة، وحين رأوا أخاهم المنتوف صاحوا به:

- يا منتوف يا منتوف البحر يغرقنا
تذكّر قول أمنا العدو لا يفرّقنا!

فقال لهم: أنجيكم مقابل أن تأخذوني معكم.

فقالوا له: نعم ولا نستطيع أن نستغني عنك.

فركض المنتوف بتيسه صائحاً:

سيماء سيماء

عينك عنا عمياء[1]

فارتدّت المياه إلى جوف الأرض، ووقف الإخوة الثلاثة منبهرين ممّا حدث، إلاّ أنّ أكبرهم قال لهم: لا تظنّوا هذا من فعل المنتوف فهو لا يقدر على شيء، اتركوه ودعونا نواصل سفرنا.

وفي الحال انطلقوا بجيادهم مسرعين وأخوهم المنتوف يصيح بهم: انتظروني؛ فلا يلتفتون إليه. فلحق بهم صائحاً:

اثل يا أثل

سدّ الطريق بالمثل

فجأةً تحوّلت الأرض إلى أشجار أثل عملاقة تسدّ كلّ الطرق فلا يقدر أحد على اختراقها، وعندما وصل إليهم المنتوف صائحوا به:

يا منتوف يا منتوف أثل ملفوف

تذكّر قول أمنا العدو لا يلوف

فقال لهم: أنجيكم مقابل أن تأخذوني معكم.

---

(١) يطعّم السرد الحكائي العربي بعض مفاصله بالشعر إلا أن الحكايات الشعبية تزجّ بمقاطع شعرية غير موزونة وبها كسور، ولا تركّز كثيراً على سلامة وزن تلك المقاطع.
وللشعر حضور قديم، وأقدم حضور سجّل له على لسان آدم عليه السلام، فعن ابن عباس قال: لما قتل ابن آدم أخاه قال آدم عليه السلام:

تَغَيَّرَتِ البِلاد وَمَنْ عَلَيْهَا ... فَوَجْهُ الأرض مُغْبرٌّ قَبيحُ
تَغَيَّرَكُلُّ ذِي طَعْم وَلَوْنٍ ... وَقلَّ بَشَاشَةُ الوجه الصبيح
قتل قابيل هابيلا أخاه ... فواحزنًا مضى الوجه المليح

فأجابه إبليس لعنه الله:

تنحَ عن البلاد وساكنيها بني ... في الخلد ضاق لك الفسيح
وكنت بها وزوجك في رخاء ... وقلبك من أذى الدنيا مريح
فما انفكّت مكايدتي ومكري ... إلى أن فاتك الثمن الربيح
فلولا رحمة الجبّار أضحى ... بكفّك من جنان الخلد ريح

تاريخ الملوك لابن الجوزي

فقالوا له: نعم.
فانطلق بتيسه صائحاً:
مثلوث يا مثلوث
عن طريقنا ملتوت
فتساقطت أشجار الأثل وانفرج الطريق، فقال الأخ الثاني لإخوته: انطلقوا حتى نصل للسعالي قبل المنتوف فهو ليس أفضلنا.
فركبوا خيولهم وأسرعوا إلى الجبل الأسود الذي بانت قمته من على بعد، وتركوا أخاهم المنتوف في مكانه، وعندما صاح بهم مذكِّراً إياهم بوعدهم قالوا له: نخاف عليك من السعالي أن تأكلك، عدا!
فركض خلفهم صائحاً:
جبل على جبل
طريق محدبل
فجأةً تحوّلت الدنيا إلى جبال وعرة لا تقدر الخيول أو الأقدام على سلوك وعورتها، وعندما رأوا أخاهم المنتوف مقبلاً صاحوا به:
يا منتوف يا منتوف حجر مصكوك
تذكّر قول أمنا العدو بك مفكوك
فقال: لقد أنجيتكم مرتين وفي كل مرة تعدوا وتخلفوا.
وأخذ منهم المواثيق الغليظة أن يحملوه معهم وأن لا يتركوه، وانطلق بتيسه صائحاً:
يا جبال غيبي
عن دنية حبيبي
فضمرت الأرض وامتدّت صحراء واسعة لا شجر بها ولا ماء، وبدا الجبل الأسود في نهاية تلك الصحراء، فشكر الإخوة الثلاثة أخاهم منتوف، وقام الكبير بإردافه على حصانه، وقام الثاني بحمل تيسه، وقام الثالث بحمل أغراضه، وانطلقوا إلى الجبل الأسود عابرين تلك الصحراء.
وقال لهم أخوهم المنتوف: لا أحد يتكلّم، دعوني أتصرّف، ولو قلت قولاً لا تعقّبوا عليه. فوافقوا.

وبينما هم يسيرون إذا بجنيّة ضخمة تجلس في وسط الطريق وبجوارها كميّات من الحجارة «تقرمشها»، فأخذ المنتوف يسير ببطيء ومن خلفه إخوته حتى وصل إليها ورفع صوته:

السلام على ستّ الجبل

فنظرت إليه غاضبةً وقالت: لولا أنّ سلامك سبق كلامك لمصمت عظامك،[1] ما الذي جاء بك يا منتوف؟

فقال لها: أرسلتني إليك ابنة أختك وقالت تروح لخالتي ست الجبل وتعطيها هذه الوجبة. فرمت الحجارة من يدها وقالت: صدقت بنت أختي، أنا جائعة من مائة سنة، فين الوجبة التي أرسلتها معك؟ وكان قد ربط إخوته بحبل وعندما سألت: أين الوجبة؟ سحب إخوته إليها وقال لها: هذه هي الوجبة. فرحت السعلوة وأرادت أن تبتلع إخوة منتوف، فقال لها: اصبري، هذه ربع الوجبة، فهناك عشرين شخصاً أسحبهم لك بهذا الحبل، ولو أكلتي هؤلاء فلن تحصلي على الباقي. فوافقت وأخذت تنتظر والمنتوف يسحب حبلاً طويلاً، وتوقّف عن السحب وقال لها: يا سيدة الجبل، عينك شديدة الاحمرار وقد أرسلت لك ابنة أختك دواء وأمرتني أن أضعه في عينك. فرحت السعلوة وشكرت المنتوف على إيصال وجبة الغذاء والدواء المرسولة من ابنة أختها، فاقترب منها وقال: افتحي عينيك من أجل أن أضع لك الدواء. وعندما فتحت عينيها نتف شعرة من حاجبها ورشّ الملح في عينيها، فقفزت من شدّة الألم تصيح: لقد قتلتني يا خبيث... وفي الحال ماتت.

وهكذا حدث مع السعلوة الثانية والثالثة، وعندما حصل الإخوة على الثلاث شعرات، عادوا إلى مملكة جدّهم وأحرقوها فانفتحت لهم الطرق، فدخلوا المدينة متخفّين، وحين داروا في طرقها استغربوا أنّ كلّ من بالبلد عميان إلاّ رجال الشرطة،

---

(١) حرّم العرب على أنفسهم التواجد في الأماكن الخلوية كونها مساكن للجن، كوادي برهوت وبيرين وصيهد، والتي كانت دياراً لقبائل ثمود وعاد وطسم وجديس وجرهم والعماليق.
ومن هنا جاءت فكرة اعتبار المقابر والخلاء موطناً للجنّ، وكان العربي القديم إذا عبر مثل هذه المواقع واتقاءً لشرّ الجنّ يقول: «عموا ظلاماً»، ولهذا نجد في الأساطير متلازمة إذا حلّ إنسي على جنّي أن يسبقه بالسلام فيردّ الجني: «لولا سلامك غلب كلامك لكنت أكلتك ورميت عظامك». (موسوعة الفولكور والاساطير العربية، شوقي عبدالحكيم، مكتبة مدبولي).

ولم يقدروا أن يسألوا أحداً، ومثّلوا دور العميان مع بقية الشعب، وظلّوا لأيام يدورون بحثاً عن قصر الملك، وحينما وصلوا وجدوا حرساً شديداً محيطاً بالقصر من كلّ مكان، فتسلّلوا إلى داخل القصر وسمعوا الملك (ابن الوزير) يخاطب رئيس الحرس ويخبره أنّ هناك من أبطل السحر على طرف مملكته ويأمره بتجنيد جيش استعداداً لأيّ طارىء، فهدّأ رئيس الحرس من روعه وقال له: إنّ عيوننا في كلّ مكان ولم تصلنا أخبار بمسيرة جيش. . .

فقال له ابن الوزير: يا أغبى مخلوقات الله، انفكاك السحر يعني أننا معرضون لحرب من الجنّ[1] والإنس معاً. . . فأنت لا تعلم أنني تعاهدت مع الجنّ أن

---

(١) الأسطورة العربية تؤكّد على التقاء الجنّ والإنس في حروب متعددة ذكرت على صور مختلفة، وقد يكون أهمها حرب بني سهم التي سرد قصتها محمد بن حبيب البغدادي في كتابه المنمق في أخبار قريش، حيث روى أنّ بني سهم بن عمرو أعزّ أهل مكة وأكثرهم عدداً وكانت لهم صخرة عند الجبل الذي يقال له مسلم؛ فكانوا إذا أرادوا نادى مناديهم: يا صباحاه! ويقولون: أصبح ليل، فتقول قريش: ما لهؤلاء المشائيم ما يريدون؟ يتشاءمون بهم، وكان منهم قوم يقال لهم بني الغيطلة، وكان الشرف والبغي فيهم، وهي الغيطلة بنت مالك بن الحارق من بني كنانة ثم من بني شنوق بن مرة، تزوّجها قيس بن سعد بن سهم فولدت له الحارث وحذافة، وكان فيهم العدو والبغي، قال: فقتل رجل منهم حيّة فأصبح ميتاً على فراشه، قال: فغضبوا فقاموا إلى كلّ حية في تلك الدار فقتلوها فأصبحوا موتى على فراشهم، فتتبعوها في الأودية والشعاب فقتلوها فأصبحوا وقد مات منهم بعدد ما قتلوا من الحيّات، قال: فصرخ صارخ منهم: ابرزوا لنا يا معشر الجن! قال: فهتف هاتف من الجن فقال:

يا لسهم قتلتم عبقرياً
فصحناكم بموت ذريع
يا لسهم كثرتم فبطرتم
والمنايا تنال كل رفيع

قال: فنزعوا وكفوا. قال الكلبي: وفيهم نزلت ﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾ وقال ابن الخربوذ: جعلوا يعدّون من مات منهم أيام الحيات، وهذا قبل الوحي، وذلك أنه وقع بينهم وبين عبد مناف بن قصي شرّ فقالوا: نحن أعدّ منكم، فجعلوا يعدّون من مات منهم بالحيّات فنزلت هذه الآية فيهم على لسان النبي صلى الله عليه. وهكذا ذكر الشهرستاني في كتاب الملل والنحل (وهو أبو الفتح تاج الدين عبد الكريم بن أبي بكر أحمد المشهور بالشهرستاني) ذكر أنّ معارك قامت بين العرب والجن ومنها معركة بني سهم التي كان سببها أنّ بني سهم قد قتلوا ابن جنية كان عائداً من حجته وطوافه بالبيت الحرام، وجرّاء ذلك قتل الجن أناساً كثراً =

أحميهم، وإشارة عدم التزامي بحمايتهم بطلان السحر على أطراف مملكتي، وإذا هجموا فإنّ الناس سيستعيدون أبصارهم ويقاتلوننا مع من سيأتي، جنّاً أو إنساً.

وصاح برئيس الحرس: ابحث فإن وجدت إنساناً مبصرا فاقتله في الحال فربما يكون ممّن قتل جنيّاً.

أظهر رئيس الحرس انضباطاً وتعهّداً بقتل أيّ غريب أو مبصر، وتحرّك في الحال.

كمن الأخوه في أماكنهم إلى أن حان الليل، فتسللوا إلى مخدع الملك (ابن الوزير) وقتلوه وأعلنوا موته على الشعب معلنين أنهم أحفاد الملك المغدور وخلفائه في ملكه، فهلّل الناس ورحّبوا بهم ولعنوا الملك (ابن الوزير) الذي سحر البلد وحوّل أهلها إلى عميان.

طار خبر سقوط مملكة ابن الوزير، وكان تربط بينه وبين الملك (زوج أمهم) مواثيق وصداقة، فأعلن هذا الملك الحرب على الإخوة الذين قتلوا صديقه ابن الوزير؛ فجهّز جيشاً لغزو وتأديب المنقلبين على حكم ابن الوزير.

وما كان من الإخوة، بعد ان استعادوا ملك جدهم، إلاّ أن أرسلوا أخاهم الأوسط ليأتي بأمهم ويعلنوها ملكةً على البلاد.

ويوم أن وصلت إلى حدود البلد كان الملك (زوجها) يقف بجيشه لمحاصرة مملكة ابن الوزير المسلوبة، فقالت له:

تساند الظالم على المظلوم

وعرف منها كلّ القصة وكيف أنّ قرص العيش الذي تمنّاه أصبح أربعة فوارس هم من استعاد ملك أبيها وأجدادها. فرح الملك بها وبأبنائها، وتمّ دمج المملكتين في مملكة واحدة وتنازل الجميع للمنتوف عن الحكم فحكم البلدتين بالعدل فعاش الجميع في أمن وسعادة.

رواية عائشة عجيبية

= من بني سهم الذين خرجوا إلى البرية وقتلوا كلّ هامة تدبّ على الأرض من أفاعٍ أو عقارب أو خنافس أو عضاضة إلا قتلوها، فضجّ الجنّ وطلبوا وساطة قريش بينهم وبين بني سهم، وحين توسطت انتهت المشكلة. ويقال إنّ العربي إذا سار في خلاء صاح: أنا من بني سهم وبيننا مواثيق، فلا تمسّه الجنّ.

أخبث من إبليس

كان ياما مكان، كان في قديم الزمان، كان في تلك العجوز الشريرة تعيش في بلد وتسيطر على كلّ شيء بشرورها وخبثها، ولم يكن منزعجاً من أفعالها إلاّ إبليس،[1] فقد فاقته خبثاً ولم تمكّنه من العمل فغدا لا يفعل شيئاً إلاّ ووجد عمله لا

(١) وذكر الأحداث في ملكه روي عن ابن عباس وابن مسعود أنّ إبليس كان له ملك سماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن، وإنما سمّوا الجنّ لأنهم خزان الجنة، وكان إبليس مع ملكه خازنًا، قال ابن عبّاس: ثم إنه عصى الله تعالى فمسخه شيطانًا رجيمًا. (الكامل في التاريخ لابن الاثير)
وهناك تفريق بين الجنّ والأبالسة منه ما ذكره ابن الاثير في الكامل حين قال: أما الأحداث التي كانت في ملكه وسلطانه فمنها ما روي عن الضحّاك عن أن ابن عبّاس قال: كان إبليس من حيّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان خازنًا من خزّان الجنة، قال: وخُلقت الملائكة من نور وخلقت الجنّ الذين ذكروا في القرآن من مارجٍ من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت، وخلق الإنسان من طين، فأوّل منْ سكن الأرض الجن فاقتتلوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضًا، قال: فبعث الله تعالى إليهم إبليس في جندٍ من الملائكة، وهم هذا الحيّ الذين يقال لهم الجنّ، فقاتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، فلمّا فعل ذلك اغترّ في نفسه وقال: قد صنعتُ ما لم يصنعه أحد، فاطّلع الله تعالى على ذلك من قلبه ولم يطّلع عليه أحد من الملائكة الذين معه.
وروي عن أنس نحوه. وروى أبو صالح عن ابن عبّاس ومُرّة الهمداني عن ابن مسعود أنهما قالا: لما فرغ الله تعالى من خلق ما أحبّ استوى على العرش فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا وكان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجن، وإنما سمّوا الجن لأنهم من خزنة الجنّة، وكان إبليس مع ملكه خازنًا فوقع في نفسه كبر وقال: ما أعطاني الله تعالى هذا الأمر إلاّ لمزية لي على الملائكة، فاطّلع الله على ذلك منه فقال: (إني جاعل في الأرض خليفة). قال ابن =

يقارن بما تفعله تلك العجوز الشريرة، فذهب إليها وقال لها:

- لا يمكن أن أكون أنا وأنت هنا، أحدنا يترك البلد.

فقالت له العجوز: هذه بلدي وبلد أجدادي وأنت غريب والغريب هو الذي يغادر.

فقال لها: أنا مكلّف بالعمل في هذه البلد ولن أتركها.

فقالت له العجوز: لا أحد يمنعك من البقاء.

فقال لها: لا أحد يمنعني لكنك تعطلين عملي فلا أقوم بشيء إلا وقمت بأحسن منه ولا يرضيك أن تضرّيني.

فقالت له: وما العمل؟

فقال لها: دعينا نتقاسم العمل، يوم لي ويوم لك.

فرفضت العجوز وقالت له: ما رأيك أن يقوم أحدنا بإحداث فتن ويقوم الآخر بحلّها والمهزوم يغادر البلد؟

أعجبت هذه الفكرة إبليس وقال في نفسه: دعها تقوم بالفتن وأنت تقوم بحلّها، فهذا أحسن.

وافقها على ما قالت وقال لها: أنت من يجيد زرع الفتن فابدئي أنت...

تعاهدا على هذا الشرط وافترقا.

ومن الصباح الباكر استيقظت العجوز وذهبت إلى السوق واختارت بائع أقمشة عجوز قد تزوج بفتاة تصغره بسنوات كثيرة، ودخلت عليه مسلمة وقالت له:

= عباس: وكان اسمه عزازيل، وكان من أشدّ الملائكة اجتهادًا وأكثرهم علمًا، فدعاه ذلك إلى الكبر، وهذا قولٌ ثالث في سبب كبره. كما روى عكرمة عن ابن عباس أن ٱلله تعالى خلق خلقًا فقال: اسجدوا لآدم فقالوا: لا نفعل، فبعث عليهم نارًا فأحرقتهم، ثمّ خلق خلقًا آخر فقال: إني خالق بشرًا من طين فاسجدوا لآدم فأبوا، فبعث الله تعالى عليهم نارًا فأحرقتهم، ثمّ خلق هؤلاء الملائكة فقال: اسجدوا لآدم قالوا: نعم، وكان إبليس من أولئك الذين لم يسجدوا.

وقال شهر بن حوشب: إنّ إبليس كان من الجنّ الذين سكنوا الأرض وطردهم الملائكة وأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء. وروي عن سعيد بن مسعود نحو ذلك. (الكامل في التاريخ لابن الاثير)

سأخبرك بحكاية وأريدك أن تساعدني وسوف أشتري من عندك أيّ قماش وبأيّ سعر.

فقال لها البزّاز: قولي ما عندك.

فقالت له: ابني يحب فتاة صغيرة في غاية الجمال وقد تزوجها رجل يكبرها بسنوات وما زالت متعلقة بابني وهو متعلق بها، وأوصاني أن اشتري هدية لحبيبته وقد اخترت أن أشتري قطعة قماش فاخرة لحبيبته لكي يهديها لها، فهو يقابلها حين يخرج زوجها إلى عمله، فاختر لي أغلى ما عندك.

قلّب البزاز أقمشته وكلّما اقترح قطعة قالت العجوز: أريد قطعة فاخرة ونادرة وغالية، وبعد تقليب عدد من الأقمشة اختارت قطعة رشّحها البزاز كأغلى هدية، فابتاعتها منه وخرجت.

وتحركت مباشرةً إلى بيت البزّاز وطرقت الباب فخرجت لها الزوجة الشابة، فقالت لها العجوز:

- يا بنتي دخل علي وقت صلاة الظهر وأخاف أن تفوتني فلو تسمحين لي أن أصلّي عندك أكون شاكرة.

رحّبت الزوجة الشابة بالعجوز وأدخلتها، فتصنّعت أنها تتوضأ وهي تسألها عن بيتها وزوجها ومرقدهما، فأخبرتها، وعندما انشغلت الزوجة قليلاً تحرّكت العجوز ووضعت قطعة القماش تحت مخدّة الزوج، وتصنّعت أنها أنهت صلاتها وودّعت الفتاة ومضت.

عاد البزّاز العجوز إلى بيته ووجد الأكل جاهزاً فتغدّى وقال لزوجته: أريد أن آخذ قسطاً من النوم قبل أن أعود إلى الدكان.

ودخل إلى مخدعة، وبينما هو يصلح مخدّته رأى قطعة القماش التي ابتاعتها منه المرأة العجوز وتذكّر ما قالته له من عشق ابنها لفتاة تزوّجت رجلاً عجوزاً.

فخرج غاضباً وحمل زوجته إلى بيت أهلها وهي لا تعرف سبباً لغضبه وإعادتها إلى بيت أهلها، وعجزت عن أن تفهم، فكلّما استفسرت نهرها وأمرها بالتجهّز، فتجهّزت وأعادها إلى بيت أهلها وهو عازم على الطلاق، وعندما أوصلها إلى بيت أهلها كاد تطليقها لكنه تذكّر نصيحة من أبيه قالها له وهو شاب: لا تبيع قبل ما تعرف خسارتك من ربحك.

فقال في نفسه: لا بدّ من معرفة الشاب الذي باعتني من أجله فإن كان خسارة فبيعي لها مربح.

وقرر أن يبحث عن هذا الشاب. أما العجوز الشريرة فأول ما وصلت إلى بيتها نادت على إبليس وقالت له: لقد عقدت لك عقدتي الأولى، تحلّها أو أواصل.

فقال لها ابليس: أنا أحلّ عقد مجتمعة وليست منفردة... اعقدي طوال اليوم ولي اليوم الثاني أن أحلّها قبل طلوع الشمس.

وافقت العجوز وهي تضحك: أنت تصعّب على نفسك.

في نفس اليوم كان ملك البلاد مدعواً إلى عرس، فعرفت الطريق التي سيسلكها ليصل إلى العرس، واختارت بيتاً يطلّ على الشارع الذي سيمرّ منه وسكنته، وقامت من حينها بتحضير خلطة من روائح زكية مختلفة الأنواع ووضعتها في إناء، وتحيّنت فرصة مرور الملك حتى إذا اقترب من باب منزلها خرجت ورمت سوائل خليط العطور على الملك، وارتمت أسفل قدمه تعتذر من أنها رشّت على مقامه بول ابنتها.

كاد الحرس أن يقطعوا رأسها عندما سمعوا أنها رشّت الملك بالبول، ولامس الملك السوائل التي علقت بملابسه يتشممها بحذر، وما إن شمّ حتى أخذته تلك الروائح وسلبت عقله.

فأمر حرسه بالتوقف، وانحنى يرفع العجوز عن الأرض قائلاً:

- أنت متأكدة أنّ ما رششتني به هو بول ابنتك؟

فقالت له: نعم وأرجو منك المعذرة فهي بنت مدلالة لا تضع رجلها على الأرض وقد تعودت أن أضع أسفلها إناءً لكي تبوّل وتتبرّز.

فقال الملك في نفسه: إذا كان بولها بهذه الروائح الأخّاذة فكيف ستكون البنت؟ وأضمر في نفسه خطبة البنت حالما ينتهى من حضور العرس.

لم يستطع الملك الجلوس في العرس كثيراً فقد ظلّ يتشمّم تلك الروائح بنشوة، وخرج مسرعاً إلى المرأة العجوز وقال لها: أريد ابنتك زوجةً لي. فرحّبت به وأطلقت الزغاريد وقالت له: هي زوجتك، غداً تزفّ إليك.

عاد الملك جذلاً وخيالات العروس تملأ رأسه.

وما أن غادر الملك عادت العجوز الخبيثة إلى بيتها ونادت على إبليس وقالت

له: اكتفيت اليوم بأن عقدت عقدتين إن استطعت أن تحلّها غادرت البلد وتركتها لك.

عرف إبليس بالعقدتين ونزل في اليوم التالي من أجل أن يحلها قبل أن ينتهي اليوم.

ظلّ إبليس طوال اليوم يفكر في طريقة تقنع البزاز أن يعيد زوجته، فمضى الوقت من غير أن يهتدي إلى حلّ، فقال: أنتقل للعقدة الثانية وأحلّها ثم أفرغ للعقدة الأولى، فوجد أنّ العقدة الثانية أصعب، فكيف يزوّج الملك بفتاة ليس لها وجود.

مضى اليوم كاملاً من غير أن يقدر على حلّ أيّ عقدة من العقدتين، فجاءت إليه المرأة العجوز وقالت له: لم تحلّ أيّ عقدة، عليك أن تغادر البلد وتتركها لي.

فقال لها إبليس: عقدتي فحلّي وإلاّ أنا باقٍ.

فقالت له: لو حللت العقدتين لا أراك في أيّ مكان من هذه البلد.

قال لها: نعم...

من الصباح الباكر خرجت إلى بيت البزاز وطرقت الباب ففتح لها البزّاز الباب (وقد تنكّرت بحيث لا يعرفها) وقالت له: قبل يومين دخل وقت صلاة الظهر وطرقت هذا البيت واستضافتني صاحبته، فصلّيت وخرجت لكني نسيت قطعة قماش وقد وضعتها أسفل إحدى المخدّات في المكان الذي صليت فيه.

فرح البزاز أشدّ الفرح ودخل إلى البيت وعاد بقطعة القماش للمرأة العجوز وانطلق إلى بيت زوجته وأعادها قبل أن يطلّقها.

فنادت المراة العجوز على إبليس وقالت له: حللت أول عقدة قبل أن يحين الظهر وتبقّت عقدة.

وتركته وهو يتمنى أن لا تقدر على حلّ العقدة الثانية.

وذهبت إلى قصر الملك وأخذت تصيح بأعلى صوتها: يا ملك أغث زوجتك.

وتناقل الحرس استغاثتها حتى وصل الخبر إلى الملك، فخرج مستغرباً ممّا يسمع، فوجد المرأة العجوز تصيح وتنتف شعرها وتقطع ثيابها.

فنزل إليها مستغرباً وسائلاً:

- ما بك يا خالة؟

فقالت له: بنتي التي خطبتها سقطت في البئر ولم اقدر أنقذها لوحدي... أرسل حرسك أو تعال لإنقاذ زوجتك.

تحرّك الملك ومعه حرسه إلى البئر التي أشارت إليها العجوز، وعندما وصلوا اجتمع أناس كثر وكلّ واحد يريد أن ينزل إلى البئر لإنقاذ خطيبة الملك، لكنّ العجوز قالت: لا أقبل أن يطلع على ابنتي أحد... أنزلوني بحبل وأنا من سيرفعها... وأمام إصرارها ربطوها بدلو وأنزلوها.

وكانت البئر مسكونة بمارد عصى أمرها ولم يجلب لها ماء الشباب، فاقتصّت منه بحبسه مع زوجته داخل البئر.

وعندما أنزلوها بالدلو فرح المارد لرؤيتها وقال لها: طال حبسنا.

فقالت له: جئت لأزيد من عذابك وأخسف بك لسابع أرض.

فبكى المارد وقال لها: أفعل أيّ شيء من أجل أن تفكّي أسري وأسر زوجتي...

فقالت له: تعرف طلبي.

قال: نعم وقد مللت من السجن الطويل فامريني.

قالت له: أريد ماء الحياة مخلوطاً بماء الجمال وإلاّ أخسف بك أنت وزوجتك وأتسلّط على أبنائك واحداً واحداً.

فأخذ يترجّاها ويعدها بتحقيق ما تريد.

فقالت له: اخرج واجلب لي ما أمرتك وامرأتك رهينة إلى أن تعود.

وفي لمح البصر تصاعد دخان من البئر جعل المجتمعين يصيحون على المرأة العجوز متسائلين عمّا يحدث في البئر.

فقالت لهم: ادلو بالدلو اقتربت منها...

وفي لحظات كان المارد يقف ويناولها زجاجة وقال لها: هذه زجاجة ماء الحياة مخلوط بها ماء الجمال.

فرشتها على نفسها فإذا بها تتحول إلى فتاة في غاية الجمال.

قالت للمارد: هيا اخرج أنت وزوجتك أنتما أحرار. فانطلق المارد وزوجته من داخل البئر محدثين غباراً كثيفاً وتبعتهما صرخة عظيمة ثم جاء صوت من داخل البئر: اسحبوا الدلو...

فسحب الحرس الدلو لتظهر منه فتاة في غاية الجمال وصاحت بالملك: استرني يا ملك الزمان، وأخذت تبكي وتقول إنّ أمها غرقت وهي تحاول إنقاذها.

فرح الملك برؤية خطيبته التي لم يتصوّر أن تكون بكلّ هذا الجمال، وألقى عليها شاله، وأخذ يواسيها في موت أمها وزُفّت إليه في حفل حضره الملوك والأمراء والوزراء.

وفي الليل وعندما نام الملك خرجت زوجتة (المرأة العجوز الشريرة) إلى فناء القصر ونادت على إبليس وقالت له:

- لقد حللت العقدة الثانية وعليك أن تغادر البلد.

ووفق الاتفاق غادر إبليس ولم يعد في البلد من إبليس إلاّ تلك المرأة العجوز التي حكمت دولة وحوّلت كلّ ما فيها إلى شرور لا تنتهي.

رواية ليلى طاهر

علي ابن الجارية

قلنا وقلكم، من ملك «والملك لله» كان عنده شجرة نراجيل تطرح يومياً ثماراً من ذهب، وكان عنده أربعة أبناء، ثلاثة منهم أشقّاء والرابع ابن جارية، فلم يكن يعتدّ به واعترف به مكرهاً ولم يلحقه بنسبه، وظلّ يناديه علي ابن الجارية.[1]

(١) علي ابن الجارية نسبةً لأمّه الأَمَة المملوكة، وهو بطل قومي في الحكاية الشعبية الجنوبية، وهو بهذا يتقابل تقابلاً عكسياً مع البطل الملحمي سيف بن ذي يزن، ولعلّ أبرز ما تؤرّخ له هذه السيرة الملحمية الامتداد بالصراع بين ابني نوح، سام وحام، بهدف إرساء الأفضلية والسيادة للعرب الساميين على ذوي البشرة السوداء المتعارف عليهم بالحاميين انتساباً إلى حام بن نوح، ابن اللعنة، أبو الابن الأسود الإفريقي، في حين أنّ علي ابن الجارية يناضل في محيطه لكسب حريته الفردية وليس من أجل المجاميع (أو بني جلدته)، إلاّ أنّ ثمّة خلاف في المقصد بين البطلين؛ فعلي ابن الجارية يتشكّل دوره داخل الحكاية الشعبية في نصرة المظلوم ضمن إطاره الحكائي ولا يتعدّاه، ومع ظهور قوته وحكمته غالباً ما يكون مستشاراً ليس إلاّ، وإن تجاوزت الحكاية في جعله حاكماً هو نوع من الانتصار للمقهورين، والطريف أنّ الراوي أو الراوية إذا كانت من ذوي الجلدة السوداء تسعى إلى حبك الحكايات وتكثيف القهر والاستبداد حتى يتمكّن علي من إزالتها وجعله مستحقّاً منصب السلطان، بينما نجد أنّ سيف بن ذي يزن (اتّخذ له وزيراً عاقلاً تصفه السيرة بأنْ لا نظير له لا في مشرق الأرض ولا في مغربها، وكان اسمه يثرب، وكان ملهماً بكثير من الكتب القديمة والملاحم العظيمة بما فيها التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم، وقد علم يثرب من تلك الكتب أنّ نبياً سوف يظهر اسمه محمد، سيظهر الإسلام ويبطل سائر الأديان، ومن ثم تأخذ السيرة في عرض العلاقات بين جنوب الأرض وشمالها منذ أقدم العصور. ولم تكد جيوشه تصل إلى مكة إلاّ ويظهر ذو يزن رغبته في هدم الكعبة ونقلها إلى اليمن فينتقم ربّ البيت منه ويسلّط عليه كافة الأمراض التي أثنته عن عزمه، وعلى أثر تلك المعجزات يعتنق هو وجيشه الإسلام ويشهد أن لا إله إلا الله وأنّ إبراهيم خليل الله ويكسو الكعبة. ثم نجد الوزير يثرب الذي كان يدين الإسلام سراً يعلن =

كانت شجرة النارجيل مفخرته التي يفاخر بها، فليس في الدنيا مثيلاً لها. وذات يوم تعرضت ثمارها للسرقة، فانزعج الملك كثيراً، مستغرباً جرأة اللصوص الذين

= إسلامه ويرجو الملك أن يسمح له ببناء المدينة التي أطلق عليها اسمه، وذلك لأنه قرأ في كتب المتقدمين أيضاً أنّ محمداً سيهاجر إليها، وكذلك في بلاد الحبشة تثبت أنّ تلك البقاع يوماً ما كانت خاضعة للنفوذ التجاري أو الثقافي أو السياسي اليمني.
وتعرض السيرة بعد ذلك لشرح دعوة نوح هذه كما يرويها أبو المعالي راوي سيرة الأمصار وسائق النيل من أرض الحبشة والسودان إلى هذه الديار، فهو يقول إنّ نوحاً عليه السلام نام مرةً وكان سام قاعداً عند رأسه وحام تحت رجليه، فهبّ الهواء وكشف عن عورة نوح فضحك حام وغضب سام وتشاجر الاثنان، فاستيقظ نوح واستطلعهما الخبر فقصّ عليه سام ما فعل به حام، فغضب والدهما غضباً شديداً ودعا على حام بسواد البشرة وتمنّى لذريته استعباد نسل سام لها. وفي موضوع أخر هاجر حام إلى أفريقية وكيف تزوج «قمر شاهق» بنت الملك «كركار»، ومن ذريتهما انحدر العنصر الحامي الأسود الذي لحقته الإدانه السلفية.
فالصراع بين العرب الساميين الغازين بقيادة الملك سيف وبين الأفريقيين السود الحاميين هو جوهر هذه السيرة الكبرى. وكثير من هذه الحروب التي اتّخذت أشكالاً مختلفة، فهي طوراً دينية وطوراً استعمارية وطوراً تقتصر على الساميين والحاميين وطوراً تتعدى العنصرين إلى الزنوج والأوروبيين، للنوع الأخير لعدم اتصاله بالعصر الذي يميل إلى تصويره لنا، وهو العصر الجاهلي.
فسيف بن ذي يزن الذي ولد لأبيه في أفريقية وتربّى في الفلاة والذي أتى في صباه بإعمال كثيرة تدلّ على بطولته وشجاعته كشخصية تاريخيه ماثلة محققة، فهو الأمير اليمني الذي قاد الجيوش العربية والجنوبية وطرد الجيش من بلاده بمساعدة الفرس عام ٥٧٠ م، وقد تحدث ابن هشام عنه وذكر الكثير من الأشعار التي تُنسب إليه أو قيلت فيه. ولم تقف شهرة هذا القائد العظيم عند هذا، بل نراه جدّاً لكاسره الحاكمة في بورنو وبطل من أبطال ملاحم سكانها.
ولكن بينما نجد راوي السيرة يختار سيف بن ذي يزن قائداً للساميين إذا به يسند زعامة الحاميين إلى ملك حبشي يدعى «سيف أرعد»، وكان في اختياره الشخصية الثانية غير موفّق، وذلك لأنّ التاريخ الحبشي ينصّ على أنّ «سيف أرعد» هذا حكم البلاد فيما بين عامي ١٣٤٤-١٣٧٢ م، أي في القرن الرابع عشر، بينما سيف بن ذي يزن من أبناء القرن السادس.
ونقرأ في التاريخ الحبشي أيضاً أنّ حياة هذا الملك كانت امتداداً لسلسلة من أعمال القسوة والإرهاب التي شنّها والده (عمدا صيون) على المسلمين القاطنين في تلك البلاد والمناطق المجاورة حتى أنه أغار عليه والي مصر وأطلق سراح بطريرك الإسكندرية الأب مرقس الذي كان قد قبض عليه والي مصر وسجنه لامتناعه عن دفع الجزية. وهذا النزاع بين الحاميين والساميين قد انتقل إلى مصر بعد أن كاد يكون محصوراً في الجزيرة العربية . (موسوعة الفلوكلور والأساطير، شوقي عبدالحكيم)

سرقوا ثمار شجرته، فانتدب ابنه الاكبر لحراستها، فخرج متوشّحاً سيفه ومختبئاً في مكانٍ لا يراه فيه أحد كي يستطيع مباغتة السارق. مضى جزء من الليل فتعب الأمير ونام، وعندما جاء الصباح كانت ثمار الشجرة مسروقة، وعاد إلى أبيه ونفى أن يوجد لصوص وعلّل أنّ الثمار تختفي من غير يأخذها أحد.

لم يقتنع الملك وأرسل ابنه الثاني محفّزاً إياه أن يعود إليه بالخبر اليقين. ذهب الأمير الثاني وحدث له كما حدث لأخيه الأكبر، فأرسل الملك ابنه الثالث، ولم يكن يبتعد فعله عمّا فعل أخواه، فتقدّم علي ابن الجارية من أبيه طالباً أن يسمح له بالذهاب لحراسة الشجرة، فأنكر عليه وسخر منه، وقال له:

- أخوانك فوارس وأبطال حرب وما قدروا على اكتشاف السارق ما بقى إلا انت..

فأخذ علي ابن الجارية يترجّى أباه ان يسمح له بشرف خدمته كبقية إخوته فلم يوافق.

أراد علي ابن الجارية أن يثبت لأبيه مقدرته على أن يكون محل ثقته، فخرج إلى مكان الشجرة وربض في مكانٍ يمكنه فيه رؤية أيّ شخص يقترب منها، وظلّ ساهراً طوال الليل ولم يظهر أحد، ومع ظهور الفجر قرر أن يعود حامداً الله أنّ أباه لم يسمح له بالحراسة وإلاّ لكان محلّ تندّر وسخرية الكلّ، وبينما هو يتهيأ للمغادرة رأى غراباً يحطّ على الشجرة وينقر ثمارها فتتساقط على الأرض وتختفي، فأسرع إلى قوسه وأطلق سهماً على الغراب[1] فأرداه قتيلاً في الحال، وحمله وذهب إلى أبيه منتظراً مقابلته.

---

(١) لم تهجُ العرب طيراً كما هجت الغراب والبومة، ويحظى الغراب بالنصيب الوافر من ذلك الهجاء، ولو تتبعنا سيرة الغراب في المرويات العربية سنجده مسبوباً على كلّ لسان، فها هو الجاحظ يقول عنه في كتاب الحيوان: «الغربان من لئام الطير وليس من كرامها، ومن بغاثها وليس من أحرارها، ومن ذوات البراثنِ الضعيفة والأظفار الكليلة، وليس من ذوات المخالب المعقّفة والأظفار الجارحة، ومن ذوات المناقير وليس من ذوات المناسر. وهو مع أنه قويُّ النَّظر لا يتعاطى الصيد، وربما راوغ العصفور، ولا يَصيد الجرادة إلاّ أن يلقاها في سدٍّ من الجراد، وهو فسلٌ إذا أصاب جِيفةً نال منها وإلاّ مات هُزالاً، ويتقمم كما يتقمم بهائم الطير وضعافها، وليس ببهيمةٍ لمكان أكلِه الجيف، وليس بسَبع لعجزه عن الصيد... وهو مع ذلك =

وعندما جلس الملك على كرسيه وأخذ الوزراء والقواد يتوافدون سمح لعلي ابن الجارية بالدخول، فدخل وبيده غراب ميت، فنظر إليه الملك ساخراً:

- ما لك من صبيحة ربي وانت تطلب مقابلتي... تشا توريني أخوك الميت.

وأشار إلى الغراب الذي يحمله فضحك كلّ من كان في المجلس، وانتظر علي ابن الجارية انتهاء التعليقات والسخرية وقال:

- يا ملك الزمان... هذا الغراب هو من كان يسرق الثمار وقد رأيته وصدته بنبلي...

واصل الملك سخريته وضحكه على علي ابن الجارية، فردّ عليه:

- من بكره لو انسرقت ثمرة وحدة اقطع راسي.

- وعاد علي حزيناً إلى أمه وحكى لها الحكاية وأراها الغراب الذي صاده فضحكت منه وقالت له:

- ما لك يا علي، غراب يسرق!

وتناولت منه الغراب الميت وأخذت تصبّر عليه سوء معاملة أبيه له.

ومرّت الأيام ولم تُسرق ثمرات الشجرة، لكنّ الملك لم يذكر صنيع علي بل تعمّد تجاهله تماماً، وفي نفس الوقت رغب أن يعلم أبناءه الاعتماد على النفس ومجابهة الأخطار، فجمعهم وقال لهم:

- أنا ميت ميت وواحد منكم حيمسك الحكم من بعدي وما من بد أتحقق من منكم الأصلح ومن أجل هذا سأهب لكلّ واحد منكم ساعية يخرج يتاجر بها والرابح منكم أمسّكه حكم البلد.

أعطى الملك لكلّ واحدٍ من أبنائه الثلاثة سفينة بها «كلّ ما يطلبه الطالب» من

= يكون حالكَ السواد شديدَ الاحتراق، ويكون مثله من الناس الزّنج، فإنهم شرّارُ الناس، وأردأُ الخلق تركيباً ومزاجاً، كمن بردت بلادُه فلم تطبخه الأرحام، أو سخنت فأحرقته الأرحام. وإنما صارت عقولُ أهل بابَل وإقليمِها فوقَ العقول، وجمالهم فوق الجمال لعلة الاعتدال... وللغراب إما أن يكون شديد الاحتراق فلا تكون له معرفةٌ ولا جمال، وإما أن يكون أبقعَ فيكون اختلافُ تركيبه وتضادُّ أعضائِه دليلاً على فسادِ أمره. والبُقع الأَمُ من السود وأضعف».

وتأتي أسطورة إرسال نوح عليه السلام لبعض الطيور للكشف عن جفاف الماء مخزية للغراب أيضاً.

ذهب وفضة وحبوب وأقمشة وعطور وعبيد، وخرجت البلد لوداع الأمراء الذين أبحروا للتجارة متمنين لهم التوفيق في رحلتهم. وفي اليوم التالي دخل علي ابن الجارية على الملك متوسّلاً عليه أن يسمح له بالتجارة وأن يزوّده بما زوّد به إخوته لكنّ الملك رفض رفضاً قاطعاً، ولا زال ابن الجارية يترجّى ويتوسّل حتى وافق على سفره من غير أن يهبه شيئاً سوى قارب صغير ليس به شيء.

عاد علي إلى البيت مهموماً يشتكي لأمه ما يصنع أبوه معه، فأخذت تواسيه وتصبّره وتدعو له بالتوفيق.

وفي الصباح الباكر أبحر ابن الجارية بقاربه الصغير بعد أن وضع فيه كميات من البعر والكر وعجور يابس، وما زال مسافراً في عرض البحر لا يعرف إلى أين يتجه ولا كيف يقنع الناس بشراء حمولته، وليس معه نقود ليشتري بضاعة ويبدأ بها مشروعه التجاري.

وكان في عرض البحر جنّي يخرج للسفن المبحرة ويوقفها في عرض البحر ويوجّه سؤالاً واحداً لكلّ مالك للسفينة فإن أجاب تركه في حال سبيله وإن لم يجب أخذ سفينته غصباً.[١]

---

(١) الحكايات الشعبية تحلّ الجنّ محل الوحوش في الأسطورة الاغريقية، وما الجني في هذه الحكاية إلا الوحش الذي ظهر في صورة أبي الهول في أسطورة أوديب حين قابل «لايوس» الخارج من مدينة طيبة بحثاً عن حلّ للعنة التي حلت ببلاده، إذ حلّ بها وحش في صورة أبي الهول يسأل الناس لغزاً، فمن لم يستطع حلّه يقتله. وكانت اللعنة ممثلة أنّ وحشاً يقف على بوابة مدينة طيبة ومن أراد الدخول سأله سؤالاً واحداً فإن لم يجب قتله. وعندما أراد أوديب الدخول سأله أبو الهول عن الشيء الذي يمشي على أربع ثم اثنتين ثم ثلاثة، فقال أوديب: الإنسان، حيث يمشي في طفولته على أربع، ثم اثنتين، ثم ثلاثة عندما يستعين بالعصا، فمات الوحش كمداً، فكافأه أهل طيبة بأن زوّجوه من ملكة بلادهم جوكاست وهي أمه لتتحقق نبوءة أوديب.

وكما قلت في هامشٍ من هذه الحكايات إنّ موتيفات كثيرة من قصة أوديب توزّعت على كثيرٍ من القصص، وهذا موقع واحدة منها.

وهناك أوديب روماني أيضاً أي من رومانيا وليس من روما. ففي إحدى قصص ذلك البلد أن ثلاث جنيات أتين امرأة في الحلم بعد أن ولدت صبياً، وقلن لها إن هذا الصبي سيقتل أباه ويضاجع أمه وهو لا يعلم ذلك. ارتعبت المرأة لهذه النبوءة، فعمدت إلى وضع الصبي في برميل وألقت به في نهر الدانوب. لكن بعض البحارة شاهدوا البرميل فسحبوه، وأنقذوا الطفل =

وقد عبر إخوة علي ابن الجارية الطريق الذي يتواجد به الجني[١] ووجّه إليهم

= ورباه أحدهم. ولما بلغ هذا الطفل السابعة عشرة أخبروه كيف وجدوه في النهر، وكيف أنقذوه، وأن عليه منذ الآن فصاعداً أن يتدبّر رزقه. فغادرهم، وراح يجوب الأماكن بحثاً عن مصيره ومعاشه. وفي إحدى جولاته التقى رجلاً رقّ له قلبه، ودعاه إلى العمل حارساً لكرومه. ونبّهه إلى أن عليه أن يطلق النار على أي متسلل إلى الكروم ليلاً إذا لم يكن يحمل مصباحاً. وفي إحدى الليالي بينما كان صاحب الكروم يحمل العشاء إلى الحارس، وكان قد نسي المصباح في المنزل، أطلق الحارس النار عليه فقتله، ولم يكن يعرف أنه ربّ عمله وصاحب الفضل عليه. وبعد أن دفن صاحب الكرم، دعته زوجة القتيل إلى الزواج منها، فقبل بفرح غامر لأنه أخيراً سيكون له بيت وزوجة. وفي ليلة العرس، بينما هما مضطجعان، وقبل أن يتضاجعا، سألته عن حياته، فراح يروي لها قصته. عند ذلك اكتشفت أن زوجها هو ابنها، وتأكدت أنه ابنها من ساقيه الملتويتين. وهكذا تحقق نصف النبوءة: قُتل الأب فعلاً، لكن الزنى لم يتحقق.

أما هسيود (السوري) فيقول في كتابه «نشأة الآلهة»: في البدء كان السديم والخواء (chaos) وكل جسم يسقط يتوه في الخلاء. تصدّت غايا لهذه الحال، وأنشأت الثبات. غايا هي الأم الكونية التي خلقت نقيضها (أورانوس) أو السماء المذكرة من ذاتها ومن دون أب. ثم ضاجعته فأنجبت ابنها (كرونوس)، فهو ابنها وزوجها معاً. ولما كانت السماء (أي أورانوس) مُطبقة على الأرض (أي غايا)، الأمر الذي يحول دون أي خلق جديد، أمرت غايا ابنها كرونوس بإرغام أورانوس على الارتفاع عن الأرض. وهكذا انفصلت السماء عن الأرض، وفغر بينهما الخلاء، وراح الليل والنهار يتعاقبان، وصارت السماء تخصب الأرض بالمطر. إن فكرة انفصال السماء المذكرة عن الأرض المؤنثة هي جوهر قصة التكوين في «العهد القديم» وفي قصة غلغامش، ولا سيما في ملحمة «إينوما إيليش» (عندما في الأعالي)، وفي قصة الخليقة السومرية التي تروي كيف أن الآلهة «نمو» أنجبت من ذاتها الاله «آن» والآلهة «كي»، وكان «آن» و«كي» ملتصقين. وقد تزوّج «آن» أخته «كي» فأنجبا «إنليل» إله الهواء. وظل «إنليل» محصوراً بين أبويه، ولم يطق البقاء على هذه الحال، فقام بإبعاد أبيه عن أمه، فرفع «آن» فصار إله السماء المذكّر، وبسط «كي» فصارت إلهة الأرض المؤنثة. . بين الأسطورية والتاريخية مأساة أوديب وقصة أخناتون، صقر أبو فخر، مجلة نزوى، العدد السبعون.

(١) إنّ أغلب معتقداتنا عن الجنّ وموطنهم ومصاهرتهم للإنس وقبائلهم وكذلك الغيلان والسعالي وسكان ما تحت الارض ترجع بإكملها إلى العرب البائدين -الالف الثاني قبل الميلاد- وهم سكان اليمن القحطانيين، ويعود ذلك لتيسر اتصالهم المبكر بالفرس المجوس في إيران. فقد لعب الموقع الجغرافي لليمن في جلب هذه المعتقدات عن الجان ثم تم تسريبها إلى بقية الشعوب العربية ومنهم عبرت إلى أوربا (وهذا مايراه أيضاً الدكتور فاضل الربيعي في كتابه شخصيات بلا تاريخ) وهناك من يرى أنّ فكرة الجان ما هي إلا فكرة (عشتروتية) بمعنى أنها =

سؤاله فلم يجبه على سؤاله أحد، فأخذ سفينة كلّ واحد منهم بما حملت وأنزلهم في عرض البحر، ولا زالوا يسبحون حتى أوشكوا على الغرق وأنقذتهم بعض مراكب الصيد المتناثرة في البحر.

وصل علي ابن الجارية إلى النقطة التي يتواجد بها الجنّي وظهر مزمجراً وصائحاً بعلي ومستفسراً منه كيف يجرؤ على عبور البحر، فتلطّف علي في الردّ وقال له:

- يا ملك الجان أنا فقير لا أملك من حطام الدنيا شيئاً وقلت أخرج بهذا البعر والكر والعجور اليابس عسى الله يفتح طريقي.

فزاد غضب الجني وقال لعلي ابن الجارية:

- ما في حد قطع البحر قبل ما يجاوب على سؤالي وان كنت تشا تعبر جاوب وإلا اشل صنبوقك...[١]

= كانت في منبتها الأم جزئية أسطورية سومرية لا سامية، والتضحية بالملك الأب الذكر، وهي التي أصبحت فيما بعد حكاية جان واسعة الانتشار عند الساميين. (موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، شوقي عبدالحكيم، مكتبة مدبولي).

(١) موتيفة الجني الذي يقف في وسط البحر أو على مدخل المدينة المسحورة ولا يسمح لأحد بالعبور إلا بعد أن يوجه إليه سؤالاً هي موتيفة تستعيد أسطورة أوديب (من أشهر الأساطير اليونانية) والتي بدأت بتنبؤ عرافة معبد دلفي بأن يولد لملك مدينة طيبة لايوس وزوجته جوكاستا ابناً سيقتل أباه ويتزوج امه. وعندما ينجبان طفلاً يقرر الملك التخلص منه فيوكل أحد أتباعه بترك الطفل في الخلاء ليموت هناك، إلاّ أنّ الموكل بالمهمة يرأف بحال الطفل ويودعه عند راعٍ يدعى بوليبوس فيتعهد بتربيته وتنشأته إذ لم يكن لديه أبناء، وعندما كبر الطفل أخبره أقرانه إنهّ ليس ابناً للراعي بوليبوس، فذهب الشاب أوديب إلى معبد دلفي ليستوضح الأمر فسمع بنبوءة أنه سيقتل أباه ويتزوج أمه، وخوفاً من تحقق النبوءة غادر المدينة التي عاش فيها ظناً أنها مدينة أبيه. وفي طريقه إلى مدينة طيبة يواجه حاشية ينشب بينه وبينهم شجاراً فيتمكن من قتل سيدها وأتباعه، وكان ذلك السيد هو والده، ويصل أوديب إلى مدينة طيبة ليجد كائناً خرافياً ضخماً يقف على بوابتها له أجنحة وجسم أسد ورأس امرأة، ولم يكن يسمح بعبور بوابة المدينة إلا إذا أجاب عن سؤاله، وسؤاله يتمثل في ما هو الشي الذي يسير على أربع في بداية النهار وعلى اثنين في وسطه وعلى ثلاث قبل الغروب؟ ولم يجد أوديب صعوبة في الإجابة إذ أخبر الكائن الخرافي بأنّ جواب لغزه هو الإنسان، إذ يحبو على أربع في بداية حياته ويسير على رجليه وفي شيخوخته يتوكأ على عصا.

حاول علي أن يثني الجني عن شرطه لكنه عجز فقال للجني:

- وإن جاوبتك ما هو لي؟

ارتبك الجني فلم يواجهه أحد بهذه الثقة، فدائماً ما يرتبك أصحاب السفن ويستمعون إلى السؤال من غير شرط، وعندما لم يجد علي جواباً من الجني قال له: لو انا جاوبتك لي كلّ السواعي اللي معاك. . .

فكر الجني للحظات وكان متاكداً أنّ علي لن يجيب على سؤاله، لكن لكي يؤدّبه اشترط عليه أنه لو لم يجب على السؤال يأخذ قاربه ويقتله قائلاً له:

- انا ما قتلت حد بس كملك ساطي جزاك قتلة ما انقتلها حد.

أحسّ علي بالندم كونه اشترط وإلاّ كان مصيره أن يؤخذ قاربه وليس به شيء وينجو بنفسه، لكنّ الوقت قد فات حين قال له الجني:

- استعد.

أخرج الجني فتاتين إحداهما عربية في غاية الجمال والثانية جارية دميمة بشعرة خنزير ما تشتريها وقال لعلي:

- مين من البنتين حالية وزخمة!

فطن علي إلى أنّ السؤال هنا ليس في تحديد الجميلة فربما تكون الدميمة هي الجميلة في عالم الجن والجميلة دميمة وربما أنّ المقايس واحدة للجمال بين الإنس والجن، فتريث لحظة وقال له:

- حبيبك حبيبك ولو كان عبد نوبي.

صعق الجني وأخذ يصيح وينتف شعره:

- غلبتني غلبتني. . .

وبهذا الجواب استولى علي ابن الجارية على كلّ السفن التي اعترضها الجني وأصبحت بما تحمله من أرزاق وعبيد ملكاً خالصاً له. وبقي الجني واقفا ينتظر علي ابن الجارية أن يصرفه، ولم يكن عليا متنبّها له حتى سمعه يقول له:

- يا سيدي علي تشا مني حاجة؟

فرد عليه: مثل مه؟

فقال الجني: ما تطلبه يصير فأنا عبدك ومليش إلا أنت قتلت بني وأخذت أموالي.

استغرب علي من قوله: قتلت بني.

فأنكر علي أنه قتل أحداً.

فحكى له العبد أنّ ابنه لم يقبل أن يعمل معه في البحر وكان يومياً يتحوّل إلى غراب ويطوف الدنيا ويعود في أخر النهار ومعه كنز من الذهب لا يقدّر بثمن، وغاب أيام طويلة فخفت أن يكون قد أصابه مكروه، فأرسلت لكلّ الجنّ خبر غيابه، وقد جاءني أنّ علياً ابن الجارية قتله، وقيل لي: إنّ من يقتل ولدك ينهب مالك، وقد أقسمت أن أقتل علياً شر قتلة، لكني ما أعرفك وها أنت تأخذ مالي.

رقّ علي ابن الجارية له، وأفهمه أنه حين صاد الغراب لم يكن يعلم بأنه جني واعتذر له وأطلق سراحه قائلاً له:

- أنت حرّ.

لكنّ الجني رفض وقال لعلي: معاك دمي ومالي وما أفارقك ما حييت بس وقت ما تشاني انده باسمي اكون بين يديك.

واختفى الجني عن الأنظار.

قرّر علي ابن الجارية أن يعود مباشرةً إلى مملكة أبيه لكنه تراجع وأراد أن يعرف ماذا فعل إخوته وقد علم أنّ الجني اعترضهم وأخذ سفنهم.

فنزل في بلد قيل له إنّ بها كل من أُخذت منهم سفنهم يعملون خدماً في نزلٍ للصيادين الذين أنقذوا حياتهم من الغرق.

دخل علي تلك المدينة فوجد أخاه الكبير يعمل حمّالاً ووجد أخاه الثاني يعمل منظفاً وملمّعاً للنزل أما أخوه الثالث فيعمل حلاّقاً للعابرين والمسافرين.

أشفق عليهم وعلى حالتهم التي وصلوا إليها وعدم مقدرتهم الحصول على المال من أجل العودة إلى بلادهم.

فجمعهم وأخذ يستفسر عن حالهم والأسباب التي دفعتهم إلى هذه الأعمال المهينة وهم الأمراء أبناء ملك وأحفاد ملك، فأخبروه بالقصة كاملة وكيف أنّ الجني أخذ أموالهم وسفنهم ورمى بهم في عرض البحر، فطيّب خاطرهم وعرض عليهم أن يعيد لكلٍّ منهم بدل السفينة الواحدة عشر سفن بما تحمله من ذهب وفضة ولؤلؤ وثمار وعبيد. في البداية ظنوا أنه يسخر منهم كما كانوا يفعلون معه وعندما أوقفهم على أملاكه صدّقوا قوله فأخذوا يشكرونه ويصفونه بالأخ الشهم الوفي، فقال لهم:

- شاهب لكلّ واحد منكم عشر سواعي بما حملت بشرط واحد.

وكان شرطه أن يختم على مؤخرة كلّ واحد منهم بختمه «عبد علي ابن الجارية»، وقال لهم:

- فكّروا وردّوا لي الخبر.

أخذ الأمراء الثلاثة يتشاورون واستقرّ رأيهم على الموافقة بحجّة أن لا أحد سيكشف على مؤخراتهم لرؤية ختم علي ابن الجارية بأنهم عبيد له.

ومع موافقتهم قام علي بالكشف على مؤخرة كلّ واحد منهم ووسمه بميسه «عبد علي ابن الجارية»، وبعد ذلك أعطى كلاً منهم عشر سفن محملة بما يطلبه الطالب.

عاد الأمراء إلى بلادهم وأرسلوا إلى أبيهم رسولاً يخبره بمقدمهم، فخرجت البلاد برجالها ونسائها لاستقبال الأمراء، وكان السلطان مشفقاً على أولاده وخائفاً من فشلهم في رحلتهم وقرر في نفسه أن يشقّ بطنه بخنجره لو رأى بيرقاً أسودَ يلوح من على سارية سفنهم وهو يقول: لا فائدة... من حكم لا يخلف رجالاً.

حمل خنجره المسموم وتقدّم المستقبلين وكان حظه أنّ سفينة عابرة كان شراعها يحمل اللون الأسود فأخرج خنجره ليغرسه في صدره[1] إلاّ أنّ وزيره أمسك بيده وأشار إلى وسط البحر مبشّراً:

(١) كما هي العادة حيث تجد أنّ كلّ أسطورة أو حكاية تستعير نتفاً من الأساطير المختلفة وتدخلها ضمن بنيتها الحكائية أو أنها تحدث تأزّماً داخل الحدث لخلق الإثارة من خلال موتيفة مقتبسة، وحالة السلطان هنا هي اقتباس عن أسطورة بحر إيجة، واختصار تلك الأسطورة - كما كتبها الأستاذ جمال خالد الطريفي- تقول إنّ مينوس، حاكم مدينة كنوسوس في جزيرة كريت، كان له من الأبناء ثلاثة، اثنان ذكور والأخرى أنثى، وكان أكبرهم «أندروجيوس»، وكان قويًا وذكيًا ومحبًا للألعاب الرياضية بأنواعها، والأخرى فتاة جميلة كانت من أجمل الفتيات في ذلك الوقت وتسمى «أريادني»، أما ابنه الثالث والأخير والمسمى «المينوتوروس» فقد كان غريبًا وعجيبًا ومغايرًا عن بقية الجنس البشري، إذ كان له جسد إنسان ورأس ثور، وكان نهمًا لأكل لحوم البشر، ولخوف والده منه وعليه قرر حبسه في ممرات قصره المسمى «قصر التيه» نظرًا لكثرة ممراته ودهاليزه إذ يقال إنه يحتوي على ١٥٠٠ غرفة، وقد سمع أندروجيوس ذات يوم بأنّ حاكم مدينة أثينا «أيجيوس» أقام مسابقة رياضية كبرى، فلم يتوانَ عن الذهاب والمشاركة، وفي تلك المسابقة حقق أندروجيوس الفوز بكافة أنواعها ما جعل =

- انظر يا سلطان الزمان، فتلك السفن هي سفن الأمراء.

وعندما حدّق السلطان رأى سفناً تُعلّق بيارقَ بيضاء تتزاحم وهي مقبلة على الشاطىء فهاجت أصوات المستقبلين مرحبةً بالأمراء وبسفنهم المحمّلة بكلّ ما في الدنيا من خيرات. . .

وكان الملك فرحاً بأبنائه وأخذ يقبّل كلّ واحد على رأسه.

أما علي ابن الجارية فقد وصل إلى الشاطىء بعد ثلاثة أيام في نفس قاربه الذي خرج به، وكانت أمه تخرج يومياً تسأل البحارة والصيادين إن كانوا قد رأوا ابنه في أيّ مكان من الأمكنة.

= أيجيوس يغتاض من فوز شاب غير أثيني وتفوقه على كلّ الأثنيين في الألعاب التي أقامتها مدينته أثينا، فدبّر مؤامرة لقتل أندروجيوس قبل عودته إلى كنوسوس، وبالفعل نجح في ذلك وانتهت حياة أندروجيوس في أرضه، وما أن علم والده مينوس بذلك حتى قرر الانتقام والهجوم على مدينة أثينا بالكامل، وكان له ما أراد، إذ أنه لم يستطع الفوز في هجومه فحسب بل وقام بإذلال أيجيوس حاكم المدينة بأن يرسل قربانًا يقدّم لابنه المفترس المينوتوروس كلّ تسع سنوات مكوّناً من سبع شبان وسبع فتيات، حتى قرر «ثيسيوس» ابن أيجيوس حاكم مدينة أثينا أن يخرج أهالي مدينته من هذا الذلّ الذي فرضه مينوس عليهم في الذهاب بنفسه وقتل المينوتوروس، وما أن علم والده أيجيوس بما عزم ثيسيوس عليه حتى قام بإعطائه أشرعة بيضاء، إذ جرت العادة عندما يعود سائقو القوارب من جزيرة كريت بعد إنزالهم للقرابين البشرية أن يقوموا برفع الأشرعة السوداء تعبيرًا عن الحُزن والحداد، ولكي يعلم أيجيوس ما إن كان ثيسيوس قد نجح في مهمته أم لا أعطاه ما أعطاه، إما أن تبقى الأشرعة سوداء أثناء عودتهم فيعلم أنّ مصير ابنه كسابقيه، أو أن ترفع الأشرعة البيضاء ويعلم بأنّ ثيسيوس قد نجح في مهمته وانتصر، وهنالك قابل ثيسيوس أريادني ووقعا في غرام بعضهما ما جعل أريادني تقوم بمساعدة ثيسيوس على أخيها بأن أعطته كرة من الخيط ربطت أولها في بوابة القصر والأخرى بجسمه كي لا يتوه في العودة في حال نجح في قتل المينوتوروس، وبعد نجاح ثيسيوس في مهمته قام بقية الشبان والشابات بالرقص واحتضان بعضهم البعض تعبيرًا عن فرحتهم في النجاة والخلاص، تشاركهم الفرح أريادني، وهم في غمرة الفرح، وأثناء ما هم عائدين نسوا أن يرفعوا الأشرعة البيضاء بدلاً من السوداء، وما أن رأى أيجيوس الذي كان يقف على الشاطئ منظر هذه القوارب وهي متّشحة بالسواد حتى ظنّ أنّ ابنه العزيز ثيسيوس قد مات وانتهى أمره، الأمر الذي جعل أيجيوس يرمي بنفسه في الماء تعبيرًا عن حزنه لمفارقة ابنه. ومنذ ذلك الوقت سمّي هذا البحر ببحر إيجة نسبة إلى أيجيوس حاكم مدينة أثينا والمنتحر حزنًا على ابنه.

ومع وصوله تضاحك منه الصيادون والبحارة وقالوا: سافر بكر ورجع بكر.

وجد علي ابن الجارية أمه تنتظره على الشاطىء، وعندما رأته على تلك الحالة حزنت حزناً شديداً وأخذت تبكي، فضمّها إلى صدره وخفّف عنها حزنها وقال لها: ابنك راجل لا تبكي.

أخذته إلى البيت وجهّزت له طعاماً وشراباً، وبينما هو يأكل سمع صوت غراب ينعق نعيقاً متواصلاً، فخرج فوجد غراباً في كنّ الدجاج مربوطاً بخيط من رجله، فاستفسر من أمه عن وجود هذا الغراب، فتضاحكت وحكت له أنّ الغراب الذي صاده وأتى به إلى البيت كان فيه رمق، وحكت كيف أنها أشفقت عليه وأخذت تداويه حتى رجعت له الحياة، وعندما وجدته حياً خافت أن تطلقه فيعود إلى سرقة الذهب إن كان قول ابنه صحيحاً لهذا ربطته بحبل في كنّ الدجاج، وكانت تأتي له ببقايا الأكل من قصر الملك.

استغربت من ابنها عندما حضنها وقبّلها وأخذ يقفز فرحاً:

- الحمد لله ما قتلتش حد.

وحكى لها أنّ هذا الغراب جنّي كان يجوب الارض لجمع الذهب فلم تصدّقه، وفي الحال نادى على الجني الذي استولى على سفنه فإذا به بين يديه مردّداً: شبيك لبيك عبدك بين إيديك.

فاستقبله وبشّره بنجاة ابنه من الموت وقام وأخرج الغراب من كنّ الدجاج وسلّمه إلى أبيه فإذا بالغراب ينتفض ويتحوّل إلى جنّي وعانق أبيه وقال لعلي ابن الجارية: أنا عبدك ما حييت...

فقال لهما علي ابن الجارية: أنتم أحرار.

فرح الجنّي وابنه وحدّثا علي بأنهما سيكونان في خدمته بمجرّد أن يذكر اسميهما وتوادعوا وذهب الجني وابنه وبقي علي ابن الجارية مع أمه التي حضرت ما حدث وهي في حالة استغراب شديد.

أما الأمراء فبعد استقبالهم الاستقبال الحاشد أخذهم أبوهم ألى بلاط الحكم وأشهد كلّ من حضر أنّ جميع أبنائه أهلّ لتولّي الحكم من بعده لكنه سيختار وليّاً للعهده بعد أسبوع وبالقرعة.

وخلال الأسبوع ذهب علي ابن الجارية لمقابلة إخوته في قصورهم لكنّ أيّاً

منهم لم يستقبله ورفض الجميع الردّ عليه وأمروا حرّاسهم بطرده من أمام قصورهم.

وفي يوم إجراء القرعة دخل علي ابن الجارية على أبيه وقال له:

- يابه كل ما مع اخواني حقي انا...

في بداية الأمر ضحك منه واتّهمه أنه يحقد على إخوته كونه عاد بالكر والبعر الذي خرج به، وعندما أصرّ علي على كلامه غضب منه غضباً شديداً وهمّ بطرده فقال له علي ابن الجارية:

- لي طلب واحد مقابل راسي.

وكان أبوه راغباً في التخلّص منه وعندما وجده مصرّاً واضعاً رقبته ثمناً لما يقول وافق على الفور، واستمع إلى طلبه فوجده طلباً غريباً حين قال له:

- أبناؤك عبيدي.

أحسّ بالغضب الشديد لكنه أمسك ثورة غضبه عندما قال له علي ابن الجارية إنه يمتلك صكّ عبودية إخوته وإن لم يظهر هذا الصكّ فرقبته حلّ.

كان الوقت قد حان وتجمّع الخلق من كلّ مكان لمعرفة من سيكون وليّاً للعهد في مملكتهم الشاسعة، وخشي الملك أن يكون عليّاً صادقاً كما كان حين قال له: لن تُسرق الثمار الذهبية بعد اليوم، وخشيته أن يمسّك البلاد لأحد أبنائه الذين يقول عنهم عليّ إنهم عبيد له.

فقال لعلي: هات صكّ انهم عبيدك...

فطلب علي أن يجمع أبوه إخوته داخل إحدى الغرف وأن لا يكون معهم أحد. كظم الملك غيظه واستجاب لطلبه، واجتمع معهم الأربعة في غرفة مستقلة وقد طلب أن يتواجد السيّاف لقصّ رأس علي ابن الجارية لو اكتشف كذبه، وقال لأبنائه:

- علي ابن الجارية يقول إنكم عبيده،[1] ما تقولون؟

---

(١) هنا استنكاف أن يتحوّل السيد إلى عبد وقضية العبودية متداخلة تداخلاً حاداً وقد أوجدت الأسطورة تفسيراً لها في قصة حام بن نوح وتسلّم هذه اللعنة من بعده كنعان، ويقول الأستاذ شوقي عبدالحكيم في كتاب موسوعة الفولكلور والاساطير اتفقت الأسطورتان العبرية والعربية في أن كنعان ابن اللعنة انفصل عن إخوته وبقية قبيلته من أبناء نوح مثلما حدث قبلاً لجده =

= الأعلى قابيل قاتل أخيه هابيل، فهام كنعان على وجهه تائهاً يضرب في الأرض وبعد أن أصبح كنعان مغضوباً عليه وملعوناً ومطروداً من إخوته مر متزوياً يطلب وطناً وأرضاً جديدة إلى أن نزل أرض ميعاد وهي أرض كنعان في لبنان وفلسطين وانتشر أبناؤه الأحد عشر في الشام وفلسطين وهم الصيدونيون الذين أنشأوا مدينة صيدا نسبة إلى أبيهم صيدون والحوثيون أبناء حث واليبوسيون أبناء يبوس والأموريون أبناء أمور والإحدى عشرة قبيلة تنحدر من أبناء كنعان الذين طاردتهم ولحقتهم لعنة جدهم حام التي حمل من بعده وزرها ابنه فتعقبته في ذريته وعلى هذا حوّلهم العرب والعبريون إلى سَخَرة (يقطعون الخشب ويحملون الماء كما يذكر توينبي) على اعتبارهم أنهم أجناس مدانة وهو مفهوم أسطوري يجيء من المنطلق العبري الشوفيني منذ الأزل وأن العرب ساووهم بالبربر والنوبيين، فكان كنعان أخاً لهم كما يقول النسابة العرب، فبعد اللعنة ولدت امرأة حام غلاماً لونه أسود وسمّوه كوشا وولد لكوش الحبشة بن كوش، إما شقيقة الثاني الذي لحقته أيضاً لعنة أبيه وهو ماريع بن حام فقد ولد ثلاثة أولاد وهم كنعان وبربر والنوبة واستناداً إلى أهم المصادر الميثولوجية العربية وهو عبيد بن شري الجَرْهَمي فإن ولد كنعان بن كوش بن حام هم البربر والذين ساروا حتى نزلوا في فلسطين.

ولقد اعتبر العرب واليهود أن المصريين القدماء منحدرون من نسل حام وأولاده من البرابرة بمعنى أنهم أجناس أدنى من أشقائهم الساميين، ومن هنا فقد وحدوا بين المصريين والكنعانيين والغريب أن الكشوف الحفرية الكنعانية أكدت هذه المعلومة الأسطورية. دلت هذه الكشوف الأثرية والحفرية او الأركيولوجية أن الفينيقيين كانوا جزءاً من العالم الكنعاني الذي تشكل من الهجرات السامية منذ فجر التاريخ، وهي الكشوف التي عثر عليها في (بيبلوس الإغريقية) ومكانها اليوم إحدى القرى الصغيرة الواقعة شمالي مدينة بيروت، وهي تعرف بجبيل وترجع هذه الكشوف إلى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد.

وكذلك دعمتها كشوف رأس شمرا باللاذقية في سوريا التي ترجع الى بداية القرن الرابع عشر والتي عثر عليها العام ١٩٢٩ وكذالك أشارت إليه كشوف البحر الميت والكشوف الأخيرة لمدينة وحضارة إيبلا قرب مدينة حماه السورية.

الغريب أن هذه الكشوف الكنعانية الفينيقية الفلسطينية أكدت العلاقة الشديدة بين حام وكنعان أو بين المصريين والشوام الكنعانيين إذ أنهم اعتبروا أوزيريس أخاً لكنعان، وكان كنعان أول من سُمّي فينقس، فكانت أعياد قيامة الإله المصري أوزيريس تُقام في مدينة جبيل الكنعانية أو اللبنانية كما أنه في مكان الاسكندرية القديمة او فاروس كانت تقام أعياد وشعائر أدونيس الفينيقي فقد جعلوا من كنعان أخاً لأوزيريس دلالة علة وحدة نسب الأمتين.

وفي إحدى أساطير الخلق البابلية التي تتفق مع أساطير مدينة صيدا يبتدئ كنعان أخاً لحام فيُقال إن بعل كرونوس ولد بعلاً آخر هو كنعان، ومن كنعان جاء كنعان أبو الكنعانيين او الفينيقيين كما أنه أنجب حاماً الذي يسمّيه اليونان أسبوا وكان أخاً لمصرائيم وأباً للأثيوبيين والمصريين.

والكوشيون هم ذوو البشرة السوداء ذلك أن الميثولوجيين الساميين سمّوا كل ذوي البشرة =

فأظهروا الغضب الشديد ونالوا من علي سبّاً واتّهاماً بأنه يحقد عليهم ولأنه لم ينل من الدنيا شيئاً أراد أن يدّعي بمثل هذه الدعوى.

التفت الملك إلى علي ابن الجارية وقال له: هه... ما تقول؟

فأثنى علي على الملك وعلى إخوته وأظهر تسامحاً مع شتائم إخوته وطلب من الملك تعرية إخوته فصاح به غاضباً:

- اقلك فيان صكك تقول عريهم

فقال علي: لو ما بان صكي اقتلني انت عريهم وبس.

أمر الملك أبناءه بالتعري تماماً وصُعق حين وجد مؤخرة كلّ واحد منهم مختومة بـ«عبد علي ابن الجارية»، فقام من حينه بتقريعهم لادّعائهم أنهم هم من كسب تلك الأرباح في تجارتهم، وأمرهم بارتداء ملابسهم، وخرج إلى المجتمعين ليعلن عن ولي عهده.

وقف أمام الوزراء والأمراء والحشود المجتمعة وقال: أعلن أن ابني علي ابن الجارية ولي عهدي.

تفاجأ الجميع من الخبر، وقبل أن يطول هرجهم ومرجهم أخبرهم عن بطولات ابنه علي ابن الجارية مظهراً تفاخره به وبشجاعته وحنكته...

ومضت الأيام ومات الملك فحكم علي ابن الجارية البلاد وأسعد كلّ شعبه وقضى على الظلم والاستبداد فعاش شعبه في رخاء دائم.

رواية عائشة عجيبية

= السوداء كوشيين نسبة إلى حام ابن اللعنة الذي تحمّل أبناؤه فيما بعد وزر أو خطايا أبيهم حام حين عصى حام أباه نوح وجامع امرأته خلال حجهم إلى البيت عقب فابيولات الطوفان العربي وكذا الإسلامي، فجمع من كل زوج اثنين واتجه بالفلك إلى مكة والطواف بالبيت.

وقد ولدت امرأة حام غلاماً جاء أسود اللون سمّته كوشاً واستقر وحَكَم الحبشة، أما شقيقة الثاني الذي لحقته لعنة أبيه أيضاً فهو ماريع بن حام فقد ولد ثلاثة أولاد هم كنعان بن ماريع وبربر بن ماريع والنوبة بن ماريع.

وهذه تفسر العلاقة بين هذه الأقوام والكيانات الإفريقية المدانة منذ الأزل من أحباش وكنعانيين فلسطينيين وبلاد النوبة مع السودان وذوي البشرة الملونة السوداء الذين أدخلتهم أساطير الخلق والإدانة السامية أو العربية في متونها واتفقت على تسميتهم بالحاميين وخلفائهم بالكوشيين وألحقت بهم كل إدانة واضطهاد. - موسوعة الفلوكلور والاساطير، شوقي عبدالحكيم.

علي ابن الجارية - ٣

كان ياما كان، كانت هناك أميرة في غاية الحسن والجمال، وقد شاع ذكر جمالها فتقدّم لخطبتها الملوك والأمراء فلم تقبل بأحد منهم، رفضها الدائم لخطابها جعل أبوها في حالة حيرة من عناد ابنته وعدم قبولها بأحد.

فجالسها يوماً وأراد أن يعرف سبب رفضها لكلّ الملوك والسلاطين الذين طلبوها للزواج فقالت له:

- انا مشاش اتزوج الا بشرط واحد

وقبل أن يسمع أبوها شرطها أخذت عليه المواثيق أن يوافق على كلّ ما تقوله، فأعطاها المواثيق...

فاشترطت أنها لن تقبل بأحد إلا أن تراه وينفرد بها ليلة كاملة إن استطاع خلال هذه الليلة أن يستخرج من فمها ضحكة أو كلمة واحدة تزوجت به وإن لم يستطع يُقتل، وله قبل أن يتقدّم سبعة أيام يتصرف فيها وكأنه ملك.

استغرب الملك شرط ابنته لكنه وافق على شرطها وأعلن داخل المملكة وخارجها أنّ الأميرة ستقبل بأيّ رجل، سواء كان ملكاً أو أميراً أو من عامة الشعب، بشرط أن يقضي معها ليلة ويفعل ما يريد مقابل إضحكاكها أو أن تردّ عليه ولو بكلمة واحدة.

طار هذا الخبر في مشارق ومغارب البلاد.

وكان شرط حدوث المقابلة أن يقفز المتقدّم جملاً على ظهره إناء به لبن فإن سقطت قطرة واحدة لا يحق للمتقدّم مواصلة الخطبة.

وبدا المتقدمون في التوالي، فمن استطاع قفز الجمل ولم تسقط قطرة من الإناء

الذي به لبن حددت له ليلة لمجالسة الأميرة ومحاولة استخراج ضحكة أو كلمة.

فكان الخاطب يدخل على الأميرة من الغروب إلى ما قبل أن تشرق الشمس، فإذا لم يحقّق الشرط يجد السياف في طريقة فيقطع رأسه ويعلّقه على مدخل المدينة.

وكان كلّ خاطب يدخل ويتحدّث وينكّت وهي صامتة تماماً وكأنها صنم لا تردّ ولا تبتسم، وحاول الخطاب أن يضحكوها بدغدغتها فلم يفلح أحد. وفي كلّ صباح كان رأس من رؤوس الخطاب معلّقاً على بوابة قصر الملك أو في مدخل المدينة.

وصلت الرؤوس المعلّقة إلى آلاف وأراد الملك أن يثني ابنته عن شرطها لكنها لم تقبل ولم تقبل أيضاً أن يمنع أبوها المتقدّمين من التقدّم.

سمع علي ابن الجارية بخبر هذه الأميرة بعد أن قُتل اثنان من إخوته الأمراء اللذان تقدّما لخطبة الأميرة ولم يفلحا في تجاوز شرطها. وكان علي ابن لملك لم يعترف به وأبقاه مع أمه في بيوت الخدم، ولم يشفع لعلي ابن الجارية بطولاته ولا علمه في أن يرضى عنه أبوه ويلحقه بنسبه.

سمع علي بخبر الأميرة فقرر أن يجرب حظه، فلم يخبر أباه بما قرر واكتفى بإخبار أمه التي حاولت أن تثنيه عمّا عزم وذكّرته أنّ الأخبار تقول إن آلافاً من الناس ماتوا بسبب شرط الأميرة، فلم يتراخَ أمام دموعها ومطالبته بالبقاء. ودّعها وسافر إلى بلد الاميرة متقدّماً لخطبتها.

وعندما حان دوره قفز الجمل من غير أن تسقط قطرة واحدة من اللبن.

ووفق الشرط فإنّ له سبعة أيام يحقّ له فيها أن يتصرّف كملكٍ للبلاد قبل أن يدخل على الأميرة، فقام من حينه بجمع الحراس ومطاردة اللصوص الذين عاثوا في البلد فساداً، وإلقاء القبض عليهم وإدخالهم السجون، وأمر أن يوضع صاج كبير جداً ويغلى زيت غلياً يذيب ما يلقى فيه في الحال، وقام بتقطيع أيدي السارق وألقاها في ذلك الزيت المغلي، وأعلن أنّ كلّ من أخذ أرض فلاح أن يعيدها إلى صاحبها وإلاّ دُفن في الأرض التي سلبها، ودخل إلى الاسواق بحثاً عن أيّ مخالفة فمن وجده مطفّفا أخذ كلّ بضاعته ووزّعها على الفقراء والمحتاجين، وأمر أن تفتح خزانة بيت المسلمين ويصرف لكلّ امرأة ليس لها عائل وأن يُعطى كلّ عاجز مالاً يكفيه لأن يعيش مستوراً. . .

قام بأفعال كثيرة في السبعة أيام المقرّر فيها أن يتصرف كملك، فأصبح اسمه متداولاً في طول البلد وعرضها، ويستيقظ الناس ليتحدثوا بما فعل فتسمع: علي ابن الجارية فعل... علي ابن الجارية أمر... علي ابن الجارية قال...

وكانت الأميرة تسمع عنه حكايات لم تصدّقها، وفي كلّ يوم تنقل محظياتها أفعاله وأقواله حتى تمنّت أن تراه.

انتهت السبعة أيام وكان اليوم الثامن موعد التقائه بالأميرة منفرداً بها، لكنّ علي ابن الجارية رفض أن ينفرد بها وطلب أن يكون معه في هذا اللقاء عمّ الأميرة، فاستغرب الملك طلبه وكان قد وصله أخبار أفعاله وأحبه وتمنى أن لا يموت، وحاول أن يثنيه عن مقابلة ابنته وتعهّد له أن يصدر قراراً بإلغاء مسألة القتل التي اشترطتها ابنته، لكنّ علياً أصرّ على مواصلة الخطبة وفق شروطها.

وجاءت الليلة الموعدة ودخل علي ابن الجارية غرفة الأميرة ومعه عمها. مضى الليل وعلي يتحدث مع عمّ الأميرة ويسرد له الأخبار والأشعار وأيام العرب وتاريخهم من غير أن يحاول ولو محاولة واحدة أن يوجّه الكلام للأميرة أو ينظر إليها، وكانت الأميرة تنظر وتسمع لما يقوله بإعجاب شديد وتتمنّى لو ينظر إليها فقط لكنه لم يفعل.

انتصف الليل وعلي يتحدث مع عمها متنقلاً بحديثه بين فنون الأدب والتاريخ والأخبار، وعمّ الاميرة مستمتعاً بحديثه وتداخله حسرة على هذا الشاب الذي سيموت مع طلوع أول شعاع من أشعة الشمس، ولخوفه عليه استوقفه وقال له: جرّب حظك مع الأميرة، تكلم معها أو حاول إضحاكها، فالوقت يمضي.

فردّ عليه علي ابن الجارية: لقد وجدت في مجالستك الأنيس فاسمع مني هذه الحكاية وأريد منك أن تحكم فيها، فقال له: هات ما عندك.

قال علي ابن الجارية:

اجتمع ثلاثة أشخاص في سفر، وكان الأول نجاراً والثاني بزازاً والثالث عطاراً، وقد طالت سفرتهم وتنقلاتهم، وفي ليلة من ليالي سفرهم أصابهم التعب فناموا في الخلاء. نام النجار إلى منتصف الليل ونهض من نومه ووجد مرافقاه نياماً فلم يشأ إيقاظهم، فذهب وجلي جذع شجرة كبير وظل ينجر ويعدل فيه حتى أنهاه على شكل امرأة، ثم وتعب ونام، وما هي إلا لحظات حتى استيقظ البزاز فرأى

هيكل تلك المراة فأعجبه شكلها وقرر أن يُلبسها أفخر الثياب، فأخرج أقمشته واختار أجودها وألبس ذلك الهيكل تلك الملابس وتعب ونام، وما هي إلا لحظات واستيقظ العطار، ورأى تلك المرأة المنحوتة بجمالها الفاتن وملابسها الفاخرة، فقال في نفسه: لم ولن توجد امرأة كهذه لو أنها حية، وفكّر أن يخلط بعض أعشابه ويضعها في فمها علّ الروح تجري فيها(١)، فقام وأخرج أعشابه وعطوره، وخلط العديد منها وأخذ تلك العصارة ووضعها في فم ذلك الهيكل، وتعب ونام.

ومع طلوع الشمس استيقظ الجميع، النجار والبزاز والعطار، ووجدوا امرأةً في غاية الجمال والفتنة تجلس بجوارهم وتخبرهم أنها جائعة، وعرفوا فيها ذلك الهيكل الذي كان بالامس، فادّعى كلّ واحد منهم أنها ملكه ولم يقبل أيٌّ منهم بحجة الآخر، فقفز كلٌّ منهم لسلاحه لفضّ النزاع بينهم.(٢)

---

(١) كان اعتقاد الرجل البدائي بأن حيوية الإنسان والحيوان تكمن في حضور الروح، وكانت هجعة النوم أو الموت تفسيراً بغياب الروح، والنوم غياب مؤقت للروح أما الموت فغياب دائم.
- ولما كان الاعتقاد بأن الروح لا تفارق الجسد طواعية، إذ أنها ربما تنتزع منه بواسطة الأشباح أو الشياطين أو السحرة، لذلك فإن بعض المحظورات تفرض في حالات معينة لتوقي ذلك، فبعض القبائل البدائية كانت تعمد إلى تقييد الأطفال ووضعهم في مكان معين من المنزل أثناء مرور الجنازات خوفاً من أن تفرّ أرواحهم إلى جثة الميت أثناء عبورها.
- وكان الرجل البدائي يعتبر ظله أو انعكاسه تماماً مثل روحه، وهو على أي حال جزء جوهري من نفسه، ويمثل مصدراً لخطر يتهدده، فلو أن أحداً داس ظله أو طعنه فإنه سوف يشعر بالأذى، ولو حدث أن انفصل ظله عنه كلية (في اعتقاده بإمكان حدوث ذلك) فإنه سوف يموت.
- ومن هنا يمكننا فهم خوف الرجل البدائي من الغرباء، فالسحر هو أكثر مصادر الخطر إثارة لرعبه، ولذلك كان يتوجّس من جميع الغرباء خشية أن يكونوا من ممارسي هذا الفن.
- ولاتقاء أذى الغرباء فقد كانت هناك شعائر يؤديها السكان الأصليون، غرضها في الغالب هو تجريد هؤلاء الغرباء من قوتهم السحرية، ومن ذلك إلزام الغرباء بالسير بين صفين من النار، اعتقاداً بأن النار تبطل السحر. – الغصن الذهبي، جيمس فريزر.

(٢) القص الشعبي يستعير قصصاً أخرى وردت في حكايات أخرى، وربما تكون قصة هذا الهيكل أو التجسيد أو النحت هو استعارة من قصة أوردها الطبري في كتابة يقول: قال وهب بن منبّه: سمع سليمان بمدينة في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون بها ملك عظيم السلطان لم يكن للناس إليه سبيل لمكانه في البحر، وكان الله قد آتى سليمان في ملكه سلطاناً لا يمتنع منه شيء في برّ ولا بحر، إنما يركب إليه إذا ركب على الريح فخرج، إلى تلك المدينة تحمله =

= الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها واستفاء ما فيها وأصاب فيما أصاب ابنةً لذلك الملك لم يُر مثلُها حسناً وجمالاً فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلة ثقة، وأحبّها حباً لم يحبه شيئاً من نسائه ووقعت نفسُه عليها فكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنُها ولا يرقأ دمعها، فقال لها لما رأى ما بها وهو يشق عليه من ذلك ما يرى: ويحكِ، ما هذا الحزن الذي لا يذهب والدمع الذي لا يرقأ؟ قالت: إنّ أبي أذكرُه وأذكر ملكَه وما كان فيه وما أصابه فيحزنني ذلك، قال: فقد أبدَلك الله به ملكاً هو أعظم من ملكه وسلطاناً هو أعظم من سلطانه وهداك للإسلام وهو خير من ذلك كله، قالت: إن ذلك لكذلك ولكني إذا ذكرتُه أصابني ما قد ترى من الحزن فلو أنك أمرت الشياطين فصوّروا صورة أبي في داري التي أنا فيها أراها بكرة وعشية لرجوت أن يُذهب ذلك حزني وأن يسلّيَ عني بعض ما أجد في نفسي، فأمر سليمان الشيطان فقال: مثّلوا لها صورة أبيها في دارها حتى ما تنكر منه شيئاً، فمثّلوه لها حتى نظرت إلى أبيها في نفسه إلاّ أنه لا روح فيه، فعمدت إليه حين صنعوه لها فأزّرته وقمّصته وعممتْه وردّته بمثل ثيابه التي كان يلبس مثل ما كان يكون فيه من هيئة ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو عليه في ولائدها حتى تسجد له ويسجدن له كما كانت تصنع به في ملكه وتروح كل عشية بمثل ذلك لا يعلم سليمان بشيء من ذلك أربعين صَباحاً، وبلغ ذلك آصف بن برخيا - وكان صديقاً وكان لا يُرد عن أبواب سليمان أي ساعة أراد دخول شيء من بيوته دخل حاضراً كان سليمان أو غائباً - فأتاه فقال: يا نبي الله كبِرت سِنّي ودق عظمي ونفِذ عمري وقد حان مني ذهاب! وقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت أذكر فيه مَنْ مضى من أنبياء الله وأثني عليهم بعلمي فيهم وأعلّم الناسَ بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمورهم فقال: افعل، فجمع له سليمان الناس فقام فيهم خطيباً فذكر مَنْ مضى من أنبياء الله فأثنى على كلّ نبي بما فيه وذكر ما فضّله الله به حتى انتهى إلى سليمان وذكَره فقال: ما كان أحلمَك في صغرك وأورعَك في صغرك وأفضلك في صغرك وأحكم أمرك في صغرك وأبعدك من كل ما يُكرَه في صغرك! ثم انصرف فوجَد سليمان في نفسه حتى ملأه غضباً فلما دخل سليمان دارَه أرسل إليه فقال: يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم وعلى كل حال من أمرهم فلما ذكرتَني جعلت تُثني عليّ بخيرٍ في صغري وسكتّ عما سِوى ذلك من أمري في كِبَري فما الذي أحدثتُ في آخر أمري قال: إن غير الله ليُعبد في دارك منذ أربعين صباحاً في هوى امرأة فقال: في داري! قال: في دارك قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! لقد عرفتُ أنك ما قلت إلا عن شيء بلغك، ثم رجع سليمان إلى داره فكسّر ذلك الصنم وعاقب تلك المرأة وولائدها ثم أمر بثياب الطهرة فأتِيَ بها وهي ثياب لا يغزلها إلا الأبكار ولا ينسجها إلا الأبكار ولا يغسلها إلا الأبكار ولا تمسّها امرأة قد رأت الدم فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده فأمر برماد ففرش له ثم أقبل تائباً إلى الله حتى جلس على ذلك الرماد فتمعّك فيه بثيابه تذللاً لله عز وجل وتضرّعاً إليه يبكي ويدعو ويستغفر مما كان في داره ويقول فيما يقول - فيما ذكر لي والله أعلم: رب =

توقف علي ابن الجارية عن سرد حكايته فاستحثه عم الأميرة على إكمال حكايته، لكنّ علياً ابن الجارية قال له: أنت الحكم الآن؛ فما رأيك: لمن تكون الفتاة، هل تكون للنجار أم للبزاز أم للعطار؟

أخذ العم يفكّر في الإجابة ثم قال: الفتاة تكون للنجار فهو الذي أوجدها.

فتدخّلت الأميرة قائلةً: لا يا عم!

فوجّه علي ابن الجارية حديثه لعمّ الاميرة: اشهد هذه أول كلمة تتفوه بها الأميرة...

ابتسم العم واطمأن إلى نجاة علي ابن الجارية من القتل وقال لابنة اخيه: لمن تكون؟

فقالت الأميرة: تكون الفتاة للعطار.

فقال لها عمها: لماذا؟

فقالت: النجار ترك خشبه والبزاز ألبس خشبه أما العطار فهو من منحها الحياة.

وبعد قولها هذا استاذن علي ابن الجارية عمها وطلب أن يخرج، فقد أشرقت الشمس، فأذن له، وكان السيّاف يقف خارج الغرفة وعندما رأى علياً خارجاً أمسك به ليقطع رأسه فلحقت به الأميرة صائحة:

- كيف تجرؤ على قتل خطيبي؟

ولأول مرة منذ سبع سنوات لا يرى الناس رقبة تعلّق في مدخل البلد، وقد كانوا مشفقين على علي ابن الجارية يُقتل، وعندما انتقل لهم الخبر أنّ علياً لم تُقصّ رقبته خرجوا إلى الشوارع مبتهجين وحامدين الله على سلامته.

ولم يمضِ شهر إلا وأُعلن زواج علي ابن الجارية على الأميرة، وقد حضر حفل الزواج الملوك والأمراء ومنهم أبو علي ابن الجارية الذي اعترف ببنوّته له وولاّه وليّاً لعهده.

رواية عائشة عجيبية

= ماذا ببلائك عند آل داود أن يعبدوا غيرَك وأن يُقِرّوا في دورهم وأهاليهم عبادة غيرَك! فلم يزلْ كذلك يومه حتى أمسى يبكي إلى الله ويتضرّع إليه ويستغفره.

مقطعة اليدين والرجلين هبت الحسن والحسين

قلنا وقلك، من ملك وهبه الله سبع بنات وكان يحبهنّ ويرعاهن بالتربية الحسنة، وفي إحدى السنوات قرر أن يحج، فقام العبيد والخدم بتجهيز قافلة من مائة بعير وحمّلوها بكلّ ما تشتهيه النفس، وفي يوم «الممشى» كان مرافقو الملك ينتظرونه حيث بركت (اناخت) الجمال، ودخل الملك لوداع بناته السبع، فكانت تدخل عليه كلّ واحدة بمفردها لتودّعه وتطلب منه ما تريد أن يجلبه لها من الحجاز.

دخلت البنت الكبرى وقبّلته ووقفت أمامه مطأطاة الرأس، فسألها:

- كمه حبك لي؟[1]

فقالت له: كمعسل.

فقبّلها وذهبت لتأتي أختها التي تليها، فسألها:

- كمه حبك لي؟

فقالت: كمسكر.

فقبّلها وخرجت لتأتي الأخت التي تليها، فسألها نفس السؤال وكلّ واحدة منهنّ تشبّه مقدار حبها له بشيء يتّصف بين الناس أنه جميل، وعندما جاءت ابنته الصغيرة وهي أحبهنّ إلى قلبه، ضمّها وسألها:

- كمه حبك لي؟

فقالت: كالملح.

غضب الملك منها وأراد أن يعنّفها لكنه تراجع كونه على سفر ولا يعرف هل

---

(١) ما هو مقدار حبك لي؟

يعود أو يموت في الطريق، فكظم غيضه، ونادى على بناته وأعطى كلاً منهنّ مرآةً وأوصاهنّ بالمحافظة على لمعان مرآة كلّ واحدة منهن، وأنّ هذه المرآة سوف تفضح سوءة أيّاً منهنّ، وخرج وهو يكرّر تنبيهه أن لا تسودّ المرآة فهذا يعني أنّ من اسودّت مرآتها قد أقدمت على إثم عظيم حتى وإن حاولت كسرها فلن تستطيع.[1]

سافر الملك بعد أن قبّل جميع بناته إلا الصغرى، فلم تطاوعه نفسه على تقبيلها، ومضت القافلة متجهة إلى الحجاز.

أما البنات فقد اجتمعن يتضاحكن ويمرحهن في حديقة القصر، وكان مكلّفاً بخدمتهن أحد العبيد الأقوياء، وقد تجرّأ ومازح كبرى الأميرات، فارتاحت لطريقته في الحديث وزاد ارتياحها أن قام بتعليمها فنون الألعاب المختلفة، وكان يسامرها في الليل، وفي كل مرة يتجرّأ على فعلٍ لا يليق أن يقوم به حرّ فما بالك بعبد.

ومع الأيام أصبح العبد يدخل مخدع الأميرة ويداعبها إلى أن فضّ بكارتها.

وذات يوم اقترح العبد على الأميرة الكبرى أن تشاركهما لعبهما ومرحهما إحدى أخواتها، فطابت لها الفكرة، وفي الليل جاءت بأختها إلى مخدعها وأخبرتها بما سيحدث، فلم تمانع، ووصل العبد إلى بكارة الأميرة الثانية، وما هي إلا أيام واقترح على الأميرتين أن يشركا معهما إحدى أخواتهما في اللعب والمرح، وجاءت الأميرة الثالثة، وحدث لها ما حدث لأخواتها، واستمرّ العبد على هذه الطريقة حتى لم تعد باقية إلاّ الأميرة الصغيرة، وعندما فاتحتها أختها الكبرى بأن تأتي معهن وتلعب وتمرح وتمارس ما تشاء، وصارحتها بما حدث لها ولأخواتها مع العبد، غضبت الأميرة الصغيرة غضباً شديداً وأنكرت عليهن ما فعلنه، وقامت بمقاطعتهن طالبةً منهن أن لا يزورها وأن لا تراهنّ.

استمرت الأخوات على حالهن يمارسن المتعة ويلعبن ويمرحهن ولم يفقن من حالتهن إلا حينما علمن بدنوِّ مقدم أبيهن، فقد اسودّت مرآة كلٍّ منهنّ تماماً، وخشين إن رأى أبوهنّ مرياهنّ على تلك الحالة أن يأمر بقتلهن، فأخذن في البكاء

(١) كانت الحقيقة عند الروحانيين الفرس بمثابة مرآة مهشمة، كلّ إنسان يمرّ من أمامها يستلّ منها قطعة إذ يؤمن أنها تحوي الحقيقة كلها. (مقدمة رواية أرض ورماد لعتيق رحيمي، ترجمة اسكندر حبش، دار الآداب، ٢٠٠٢)

والتشاور فيما يصنعن، فأشارت أختهن الكبرى أن يسرقوا مرآة أختهن الصغرى، وتحملها كلّ واحدة لتري أباها على أنها مرآتها.

اتفقن على هذه الخطة، ومع إعلان دخول الملك إلى البلاد خرج الجميع لاستقباله والدعاء له أن يتقبل الله حجه، وقد رفعت البيارق ودقت الطبول ونصبت المخادر وذبحت الخرفان وأقيمت الولائم وجاء (الدشاونة) المداحون لإلقاء التراحيب بالشعر وبالحكايات. . . وقد خرجت الأميرة الصغيرة تنظر إلى احتفالات استقبال أبيها من شرفة القصر، وقد وجدت الأخت الكبرى أنّ هذه أحسن فرصة لأن تتسلل إلى غرفة أختها الصغرى وتسرق مرآتها، وبالفعل تسللت وخطفت مرآة أختها ووضعت بدلاً منها مرآة مسودة.

وبعد أن انتهت مراسيم الاستقبال دخل الملك إلى بلاطه وطلب من بناته أن يتقدمن للسلام عليه، فدخلت ابنته الكبرى حاملة مرآة أختها الصغرى على أنها مرآتها، فقبّلته وقبّلها وطلب رؤية مرآتها فرآها لامعة ليس بها خدش واحد، ففرح بها وقدّم لها هديتها التي جلبها من الحجاز، فخرجت من عنده تقبّل الأرض بين يديه، وكانت أختها التي تليها تنتظرها خارج البلاط، فناولتها المرآة، ودخلت على أبيها فقبلها، وحدث لها ما حدث لأختها الكبرى، وتناوبن جميعهن على تبادل مرآة أختهن الصغرى، وعندما جاء دور الأخت الصغرى سحبت مرآتها من تحت المخدة ولم تتطلع إليها، ودخلت على أبيها فقبّلته ولا زال في نفسه شيء من تمثيلها لحبه كحبها للملح، وطلب رؤية مرآتها، وعندما ناولته صعق من اسوداد مرآتها، فأمسك بها من شعرها وأخذ يقررها على ما فعلت، فنفت أن تكون قد أحدثت شيئاً يغضب الله تعالى، ولا زال يعنّفها ويقرّعها من غير أن تعترف بشيء، ومن شدة غضبه نادى على العبد الذي كان يخدم بناته (والذي فضّ بكارة كلّ الأميرات) وأمره أن يخرج بابنته الصغرى إلى خارج المدينة ويقطع رأسها، وسلّمها له موصياً إياه أن يعذّبها قبل قطع رأسها بتقطيع يديها ورجليها.

قام العبد بتقييد الأميرة الصغيرة وحملها على خيل وامتطى خيله، وأثناء الطريق أخذ يراودها عن نفسها ويمنّيها بالأماني إن مكّنته من نفسها، وعرض عليها أن يسكنها بيتاً خارج المدينة ويصرف عليها ما تشاء من النعم، فتمنّعت، فزادت رغبته بها، وأخبرها أنه لا يقدر على قتلها لأنه يحبها، فكانت تدفعه عنها بقولها إنها تحب

الموت على أن يمسّ شعرة منها، ولا زال يعاود المحاولات حتى يئس من كثرة المحاولات، وقد وصل بها إلى بلاد بعيدة، وهي تمانع وترفض طلبه، فأنزلها من على الخيل ودخل بها بين أحراش ملتفة، وكانت السماء داكنة تلمع بروقها[1] وترعد

---

(١) عبر جريان الزمن حدث اصطلاح على تسمية مظاهر الطبيعة وتصور ما لا يمكن معرفة كنهه أو جوهره بما يعرفه الإنسان في محيطه، ولنا في النجوم ومسمياتها أنموذجاً، فحين تتشكل النجوم في السماء كانت المخيلة تحاول تجسيدها وفق الأشكال المتواجدة في محيطها الحياتي، فنجد مثلاً مسميات للنجم وكوكبه فأطلق على نجم مسمّى بنات نعش وكوكبة الدب الأكبر ونجم التيس وكوكبة التنين ونجم جبهة الأسد وكوكبة الأسد ونجم رأس الغول وكوكبة حامل رأس الغول وأعداداً مهولة من النجوم سمّيت بما يماثلها شكلاً في المحيط المعاش، وأرست الحكايات وجوداً لهذه المسميات كتعليل لوجودها أو أثرها.
و«تصوّر قدماء المصريين مجموعة الدب الأكبر على شكل «ثور» يحرث الأرض ويقوده تمساح كبير، بينما تخيّلها الصينيون على شكل عربة صغيرة خلفها رجلان، وفي أوروبا صورتْ على شكل عربة تجرها ثلاثة خيول، وفي بريطانيا شُبهت بـ«المحراث»، أما العرب فقد تخيّلوا المربع على شكل نعش والذيل هو البنات، ولكنهم ظلوا يتخيلونها أيضاً على شكل دبّ مثل اليونانيين. فبنات نعش ليست كلّ مجموعة الدب الأكبر بل فقط النجوم السبعة الأكثر لمعاناً». (الأساطير الفلكية - جبرائيل سكريا، محاضرة أُلقيت من قبل الأستاذ القدير والمدرّس المتقاعد جبرائيل سكريا بتاريخ ١٢ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٩م في دار مار بولس في بغديدا.
وفق المعطيات المعرفية لكلّ عقلية تعيش وفق المعطيات المعرفية لزمنها "فابن أبي حاتم قال: حدثنا أبي حدثنا هشام عن عبيدالله الرازي عن محمد بن مسلم قال" بلغنا أنّ البرق ملك له أربعة وجوه: وجه إنسان ووجه ثور ووجه نسر ووجه أسد، فإذا مصع بذنبه فذاك البرق".
(البداية والنهاية - ابن الاثير)
ونجد أنّ البرق في الأسطورة اليونانية له شكل مخيف حيث رغبت سيميلي رؤية زوجها زيوس بهيئته الأصلية كإله الصواعق والبروق، وعندما فعل ذلك تموت سيملي هلعاً من المنظر المخيف وتهبط إلى العالم الأسفل وهي حامل بديونيسيوس.
ويُقال في المعتقد الشعبي إنّ كتلة النجوم الدقيقة التي تشبه الضباب وتظهر بعد منتصف الليل سمّيت بنات نعش لأنها تحمل نعش أخيها المقتول منذ الأزل وتدور باحثةً عن قاتله، وطوافها في السماء دائم أبدي، وتمثل لدى البعض آلهة أخرى لأنها تتبدى للإنسان في أوقات محددة، إليها فيقدسها ويحزن لهدوئها وحملها هذه الكتلة التي تشبه النعش.
وفي الأسطورة الفرعونية نجد أنّ صراعاً يحدث بين الآلهة، يقتل على أثره أوزيريس، فتقوم زوجته بالبحث عنه حتى تجده، وتحمل أجزاء جثته زمناً طويلاً، ثم تدفنها، وبعدها تنتصر =

رعودها ويزداد المكان وحشة على وحشة، وكان وجه العبد يزداد سواداً على سواد، وفكّر لو أنه سلك طريق التهديد لربما ترضخ لرغبته، فقام وقطع يدها اليمنى فلم ترضخ له، ثم قطع يدها اليسرى فلم ترضخ له، فقطع رجلها اليمنى فلم ترضخ له، فقطع رجلها اليسرى فلم ترضخ له.

وانهمر المطر بغزارة وتصببت مياه السيول كالطوفان تغرق ما يصادفها، فقام العبد بقذف الأميرة الصغيرة في مجراه، وركب حصانه وانطلق عائداً إلى قصر الملك يخبره أنه قتل الأميرة الصغيرة ودفن جثتها في الخلاء. . . اطمان الملك وحمد الله على الستر، وقال في نفسه: بنت تموت ولا فضيحة تحيا.

أما الأميرة الصغيرة فقد جرى بها السيل مسافات طويلة حتى توقف بها بغرسها بين جذوع السنابل والطين المتراكم ووجدت نفسها لا تقدر على فعل شيء، فأخذت تئنّ أنيناً يثقب القلوب وتدعو الله أن يسلمها.

وكان ابن ملك تلك البلاد عائداً من رحلة صيد ونزل عليه المطر فلجأ إلى مغارة إلى أن ينتهي انصباب الماء، وفي عودته سمع أنين امرأة لم يعرف من أين يأتي، فأخذ ينصت فلم يعرف الجهة التي يصدر منها الصوت، وعندما عجز عن الوصول إلى الصوت غادر المكان ولا زال المطر يتساقط بفجاجة والسيول تغرق كل ما يواجهها.

ليل ومطر ووحشة والأميرة الصغيرة تئن ولا أحد يضمّد جروحها، فأخذت تدعو الله أن يسخّر لها من يسعفها، وفي الحالِ ظهر النبي الخضر[1] وأمرها أن

= على سيث قاتل أخيها وزوجها. وتطوافها باعتبارها إلهة يكون بين السماء والأرض. (المعتقدات الشعبية في التراث العربي: محمد توفيق السهلي وحسن الباش، دار الجيل، ص٣٣)

(١) قال أبو جعفر: كان الخضر ممن كان في أيام أفريدون الملك بن أثفيان في قول عامّة أهل الكتاب الأوّل وقبل موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم. وقيل إنه كان على مقدمة ذي القَرْنين الأكبر الذي كان أيام إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم وهو الذي قضى له ببئر السبع -وهي بئر كان إبراهيم احتفرها لماشيته في صحراء الأردنّ- وإنّ قوماً من أهل الأردنّ ادّعوا الأرض التي كان احتفر بها إبراهيم بئره فحاكمهم إبراهيم إلى ذي القرنين الذي ذكر أن الخَضِر كان على مقدمته أيامَ سَيْره في البلاد وإنه بلغ مع ذي القرنين نهرَ الحياة فشرب من مائه وهو لا يعلم ولا يعلم به ذو القرنين ومن معه فخلّد فهو حيّ عندهم إلى الآن. =

تتقلب بين الطين والوحل وتذكر الله خاشعة، ورمى عليها أوراقاً من شجرة الخلد فنبتت أطرافها (اليدان والقدمان) وعادت كما كانت.

ظلّ ابن الملك يتفكّر في ذلك الصوت الذي سمعه البارحة، فقرّر أن يعود إلى نفس المكان فربما يجد صاحب الأنين. تحرّك إلى نفس المكان واخترق الأحراش، وكم كانت دهشته عندما رأى فتاة في غاية الجمال والفتنة، وعندما رأته طلبت منه أن يسترها، فألقى عليها بشاله وسألها إن كانت هي التي تئنّ ليلة البارحة، فأخبرته أنها فتاة مقطوعة من شجرة، وكيف داهمها السيل وبقيت محاصرة بالمطر والبرد، فأخذها إلى القصر وعرض عليها الزواج على سنّة الله ورسوله، فوافقت، وبارك أبوه هذا الزواج وأعلن موعد زواج ولي العهد وأُقيمت الأفراح لسبعة أيام.

وكانت الأميرة الصغيرة نعم الزوجة لزوجها فأحبته وتفانت في إرضائه، وأنجبت له ولدين هما الحسن والحسين.

ودارت الأيام في أفلاكها ومات الملك، فتمّ تتويج ابنه ملكاً على البلاد، وحضر الملوك والأمراء لتهنئته ومباركة توليه الحكم في بلاده.

وممن جاء للمباركة أبو الأميرة المقطعة اليدين والرجلين، وعندما علمت الأميرة بمقدمه، طلبت من أبيها أن تقوم هي بإعداد الطعام وأن لا يشاركها أحد من الخدم أو الحشم، فوافق. تمّت استضافة الملك أبي مقطعة اليدين والرجلين في المقصورة الخاصة بالملك، ومُدّت المائدة بأطباق من الأطعمة المختلفة والمتنوعة التي طبختها الأميرة، وتعمّدت أن لا تضع ملحاً في كلّ المأكولات، وحين أقدم

= وزعم بعضهم أنه من ولد مَن كان آمن بإبراهيم خليل الرحمن واتبعه على دينه وهاجر معه من أرض بابل حين هاجر إبراهيم منها. وقال: اسمه بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. قال: وكان أبوه ملكاً عظيماً.

وقال آخرون: ذو القرنين الذي كان على عهد إبراهيم صلى الله عليه وسلم هو أفريدون بن أثفيان، قال: وعلى مقدمته كان الخضر.

وقال عبد الله بن شوذب فيه ما حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري قال: حدثنا محمد بن المتوكل قال: حدثنا ضمرة بن ربيعة عن عبد الله بن شَوْذب قال: الخضر من ولد فارس وإلياس من بني إسرائيل يلتقيان في كلّ عام بالموسم. (البداية والنهاية، ابن كثير)

أبوها على الأكل لم يستطع الأكل ولم يستسغ طعمه، فاعتذر زوج مقطعة اليدين والرجلين من ضيفه وقال إنّ زوجته عندما عرفت بالضيف حرصت على أن تعد الطعام بنفسها، وقد صنعت كلّ هذه الأطعمة من غير ملح؛ فهي تقول: لولا الملح ما حبّينا أي شيء في الدنيا. . . ولا أعرف لماذا لم تضع ملحاً في كلّ الأطعمة.

سرح أبوها بعيداً وهو يتذكّر محبوبته الصغيرة التي أمر بقتلها وتذكّر ردّها على سؤاله: كمه حبك لي وعندما ردت عليه كملح. . .

تنهّد وترحّم عليها فقد ماتت آثمة.

وجلس مع الملك الشاب يتجاذبان الحديث، فدخل عليهما الحسن والحسين وسلّما وجلسا متجاورين، فنظر إليهما أبو مقطعة اليدين والرجلين مستفسراً: من أنتما، فعرّفهما أبوهما أنهما ابنيه، لكنّ الحسن قال: تقول أمي أخبر الضيف وقل له إنّ مقطعة اليدين والرجلين هبت الحسن والحسين. . .

فقفز الملك من مكانه وصاح: والله إنّ زوجتك هي بنتي. . .

وطلب رؤيتها وعندما رآها تأكّد أنها ابنته، فحضنها وأخذ يقبّلها، وجلست تحكي له قصتها من يوم ذهب إلى الحجاز إلى أن رزقها الله بزوجها الذي عوّضها عن كلّ ما وجدته في حياتها من عذاب.

جلس أبوها يستغفر الله ويتوب إليه، واستأذن زوج مقطعة اليدين أن يحمل معه ابنته وحفيديه لكي ترى أخواتها، فوافق الزوج، وانطلقت القافلة إلى بلد أبي مقطعة اليدين والرجلين، وما أن وصل حتى أمر بإحضار العبد وسأله عن ابنته الصغيرة، فأخبره أنه قتلها كما أمره بذلك، فأخذ يقرّره على ما فعل ببناته، ومع التعذيب اعترف بكلّ شيء، فأمر بقتله وأن ينتف تنتيف. . .

وانفرد ببنته وقال لها: كلنا نطلب عفوك، والله قد عوّضك خيراً، فأخواتك مرميات في القصر ولم يتزوجهنّ أحد. . . فإن تغفري وتسامحي يجزيك الله خيراً.

فعفت الأميرة الصغيرة عن أخواتها وعادت إلى بلد زوجها وعاشت عيشة هناء وسعادة.

رواية عائشة عجيبية

حكاية مقطعة اليدين بلهجة المنطقة

قلك وقلك من ذيك الرُجل معاه سبع بنات وأمهن فاتن قعد يربيهن لما كبروا وشبوا وفي ذيك السنه نوى إنه يحج لبيت الله الحرام بس كان خايف على بناته وماشي معاه كفاية فلوس يشلهن معاه للحج جلس ذاك الآدمي مهموم يفكر ويتشاور مع أصحابه لما لقي واحد قحم حكاله الحكاية قله بسيطه جيب لكل وحده من بناتك عرسة ريحان ومراية واللي تلقى ريحانتها يابسه ومرايتها مش صافيه بعد ما تروح من الحج معناه إنها لعبن بنفسها فرح امرجال وراح جاب مريحان وامرايا وقال لبناته يا ويل اللي اروح وغرستها يابسه ومرايتها عميا المهم سافر بعد ما وصى أمعبد حقه يهب لهن مصروف كل يوم بيومه ويشوف طلباتهن قعد امعبد يجي لهن بامصاريف ثلاثه اسابيع وبعدين بطل جلسو جياعا أول يوم وثاني يوم قالوا لأختهن امكبيره روحي شوفي عبد السوء ماله راحن امسوق على دكان ابوها لقين امعبد سألنه مالك ما أجيت لك يومين قلها اللي يشا حاجه يجي يشلها أنا تعبان طلبن منه مصروفهن قال إذا رقدتن عندي الليله اعطيك رقدن عنده وعطالها وقبل ما تروح قلها بكره ارسلي اختك امثانية قعد على ذا الحال لما وافي على ست منهن وبقين اختهن امصغيره قالوا لها روحي لمعبد وجيبي امصروف راحن قلها ارقدي عندي الليله قالن له هاتي امقاضي وانا اروح وارجعلك المغرب روحن امبيت وراحن تشوف امريحان حق خواتها لقنه يابس وشافن امرايا عميا قامن تخاصمهن وتقولهن والله لأبيّ ابويه لما يرجع بعمايلكن امسودا مع امعبد قاموا شلوها وحبسوها في غرفه وقفلو عليها بمفتاح وشلوا امريحانه حقها نتفوها ورجعوا غرسوها حتى تابس وشلوا امرايه حقها وهبو عليها زيت وتراب وغسلوها حتى تعمى واشتروا لهن مرايا جديده وغرسوا

ريحان روح أبوهن وسلم عليهن وشاف امرايا حقهن صافيه وامريحان أخضر إلا حق أختهن امسابعه سألهن عنها قالوا حبسناها في امغرفه بعد ما فضحنا بين الناس وصاحبن امعبد وكان تروح ترقد عنده كل ليله قام شلها وراح بها لما امخبت وقطع أياديها وكبها وروح جنب ذاك الجمّال لقيها غاشيه شلها وركبها على امجمل وروح بها بيته وكان عنده ثنيتن خوات بلا زواج وعاشن معاه قعد يداوي ذيك الصبيه لما تعافن وطلب منها إنه يتزوجها قالن كيف أتزوج عليك وأنا في ذي الحاله مش عارفه أناولك حتى كاسه مويه قلها أنا أشاك وما أشى منك ولا نفعه رضين وتزوجن به وهبلها وحده تنفعها وتطبخ وتقوم بشغل امبيت حبلن وولدن اثنين جهله تومه كأنهن قماري وفرح بهن أبوهن وجاب وحده ثانيه تربي امعيال انقهروا خواته منها وأكلهن امغيره خلوه حتى يسافر وجابوا خُرج حطو كل واحد من امعيال في جهه وعلقوه في رقبتها وطردوها خرجن تمشي وتبكي لما وصلن عند ذيك الشجرة جلسن تحتها مش داريه ماهو تفعل وعيالها يبكون من امجوع وهي تبكي معاهن وهي في ذاك الهم شافن طير شكله غريب وريشه فيه من كل لون قالن ياربي لو كان خلقتني طير ماكان حصلي ذا كله قام ذاك الطير يناديها يامقطعة اليدين دخلي يدك في الجوه (فتحه في جذع الشجرة) دخلن يدها خرجن سالمه فرحن وقالن الحمد لله تسدني يد واحده إلا وامطير يناديها مره ثانية يامقطعة اليدين دخلي يدك الثانية في الجوه دخلنها خرجن سالمه صارن من امفرحه تضحك وتبكي ورضعن عيالها وشبعوه ورقدو قامن تمشي لما شافن ذاك البيت وجنبه هوش (مواشي) على مد النظر وفيه واحده عجوز قاللها ياخاله تقبلنّي اقعد عندك انفعك وأربي عيالي قالن الله يحيك جلسن عند ذيك الحرمه هي وعيالها وزوجها يدور عليها من يوم ما رجع وقالو له خواته إنها شلن عيالها وهربن لقاها في الأخير وقعد معاها عند امعجوز لما ماتن ذيك العجوز ورثو منها ذاك الهوش كله وصارو تجار (أغنياء) لان امعجوز مقطوعه ومالها أحد يورثها وعاشو في عز وراحه.

عين امحرمه فارغة

قالك من ذاك الرُجل الطيب المسكين حب واحده لعابه وخطبها شرطن عليه أنه ما يرد لها طلب اتزوج بها وكان كل يوم ترسله لقريه مره يشتري لها طيب ومره حنا ومره خطور وهي شا تصرفه علشان تاخد راحتها وهو من كثر حبه لها تقول ولا الضالين يقول آمين لما ذاك اليوم معاها لحوح بايت نشفنه بين امشمس لما بقي مثل امحطب وحطنه على امقعاده حقها وفرشن عليه شرشف وأول ما دخل زوجها انسدحن على ذاك اللحوح تتوجع وهو يطقطق تحت ظهرها وهي تقول آه ياعظامي آه ياظهري كني شأموت قلها سلامتك من اموجع اروح انادي الفقيه يقرا عليك قالن أن وصيت لمولّده (الدايه) وهي قاللي لو تمرختن بزهرة العجايب تتعافين أشاك تروح تيجيبها لي قال وفيان يلاقُنها زهرة العجايب قالن له في حبل السحايب اللي ماقد وصلّه لاشاب ولا شايب من امطل تقوم تبرّه وماتيجي الا وهي معاك

قال ان شاءالله وخرج امسوق يشتري له زواد ويقضّي لها الله يكفيها وهو مسافر لقى جاره حكى له إنه مسافر ووصاه على حرمته لو احتاجن منه أي حاجه سأله جاره فيان تشى بياه بميعاده كلها قله والله لتسافر ذا البكان ما ييجي الا خبرك تري اللي قلك تروح يتمنى موتك قله لاذي حرمتي مريضه ودلوها على ذي الزهرة وهي تحبني ومش راضيه بي أنضر قله اسمع كلامي وتعال معايه بيتي وانا اقلك ماهو تسوي المهم راح معاه وكانن بيوتهن امسجف في امسجف (يعني متلاصقة) اول مادخلو قله جاره اسمع يابن الحلال حرمتك ذي لعابه وتشى تبعدك من بيتك واذا سمعت كلامي اخليك تشوف بعينك قام دخل الشك في نفسه وقله طيب بس هي مريضه وانا أريت لونها اصفر وعظامها تطقطق قله املون امصفر يمكن تمرخن هرد

وامطقطقه ذي مادري ماهي انت ذحين تروح وتقلها إنك رايح تجيب لها امدوى اللي قالك عليه وتيجي سنايه راح اتوادع من حرمته وخرج وراح عند جاره دخله محل كان قد سوى له فيه بطق (ثقب) يطانع منه على امغرفه اللي فيها حرمته وكانن ذيك الحرمه الملعونه مصاحبه خمسه رجال واحد مزارع وواحد صياد طيور وصايغ ذهب وخادم يدق على زيفه (طبله) وجزار قعد يترجى لما بعد مارقدو الناس الا وهو يسمع احد يدق عليها فتحن دخل صاحبها امزارع معاه لها ثنتين قصب حالي وقعد معاها هاجع الا وامباب يدق لهي تقوله زوجي أجا وخرجنه من ناحيه ثانيه ودخلن صاحبها امحنّب (الصياد) جايبلها معاه ثنتين حمام سود في قفه وقعد شويه سمعو دق قالن ذا زوجي وخرجنه ودخلن صاحبها امصايغ معاه زوج شيل (حلق) حطها تحت امخده وجلس شويه وامباب يدق قالن ذا زوجي وخرجنه ودخلن صاحبها امخادم زيفته معاه لانه كان في جواز وحط امزيفه حقه تحت امقعاده وقعد معاها الا امباب يدق قالن ذا زوجي خرج امخادم ودخل امجزار معاه لحم مقطع حق محشوش (أكلة شعبية) حطه تحت امزيفه قعد معاها قد الفجر شيطلع وسمعو ذاك الدق على امباب شيكسره هرب ذاك الجزار وراحن هي تفتح لقين زوجها قامن تتماوت وتقوله هاه لقيت امدوى أنا مريضه أنا شأموت الحقني قالها اسكتي يابنت الناس أنا وصلت جبل السحايب ونزلولي ذولاك الاثنين الحانيش طوااال مثل امقصب اللي في امعشه وسووود مثل امحمام اللي في امقفه وعيونها تتلامع مثل امشيل اللي تحت امخده ولو مالله ستر عليه كان قطعوني صغيره صغيره مثل املحم اللي تحت امزيفه وضربها وطلقها وطردها من بيته.

رواية فاطمة صالحي

حكاية حبة الرمان وقرقح الشيطان

قلك من ذاك الواحد والواحد الله كان في واحد تاجر عنده مال ميل ما تاكله النيران ومعاه ثلاث بنات يحبهن حب ماشي مثله وخصّيه امصغيره لان امها ماتن وهي تتولد بها واسمها حبة الرمان بزنهن جدتهن ام ابوهن وكان كل ليله قبل ما يرقدون تحكي لهن خرفينه وذيك الليله وقدهن كبار حكن لهن على جني اسمه قرقح الشيطان يتشكل في أي صوره ويحب امبنات امحسان مرن الايام وقام ابوهن شيسافر الهند يجيب بضاعه وسأل كل واحده فيهن ما هو يجبلها من هديه قالو لابوهن ماهو يشون الا حبة الرمان بقين ساكته ولما سألها ابوها ماهو تشى قالن جبلي قرقح الشيطان سافر ابوهن ولما رجع بعد سته شهور عطاهن امهدايا واشترى لحبة الرمان اكثر منهن وقلها سامحيني يابوك دورتو على قرقح الشيطان وكل ما اسال واحد يضحك عليه وقعدو يومين الا ذا الدرويش (شحات) على امباب يطلب لله هبوله ماتيسر قال الله يخليكن اسقوني خرجن له حبة الرمان تسقيه قلها الله يخليك ياصبيه حكي لي ظهري مادري ماهو قبصني على بابكن اجن تحك له لطين يدها على ظهره وهرب بها يسابق امريح وهي معلقه فوق ظهره وذيك الصبيه خايفه ومرعوبه لما وصل بها عند ذاك العرج الكبير وقال لمعرج ياعرج اقصر اقصر شاضر بك بمسحر قصر امعرج قام حطها فوقه وقلها لو نزلتن شاموتك ترى انتن اللي طلبتني من ابوك انا قرقح الشيطان وصرتن ملكي واللي ياخذك مني شأقتله واشرب من دمه استحكمن ذيك البت فوق ذاك العرج اللي رجع مثل ماكان بعد ما قله امجني ياعرج طول طول شأضربك بمخنطول وعند اهلها بعد ساعه كذا فقدوها لانها ما دخلنش بعد ما راحن تسقي امدرويش وقعدو يدورون عليها في كل امقريه وينادون ويسألون لا حس ولا

خبر بعدين لقو جاهل صغير قلهن انه اراها على ظهر واحد قحم قال ابوها انا شأروح ادور عليها خرج من عند بناته وهن يبكون على اختهن بعد ما قلهن انه شيجيبها معاه ان شاء الله وهو يمشي جنب على ناس يرعون غنم سلم عليهن وقلهن انتن فن وغنمكن فن ومراعيكن فن قالو والله مافنانه الا حبة الرمان جنّبها قرقح الشيطان امس ذا الوان ومشى لما لقي ناس يزرعون قلهن انتن فن وبلادكن فن قالو والله مافنانه الا حبة الرمان جنّبها قرقح الشيطان امس ذاا لوان وعلى ذي التامله (على هذه الحال) لما وصل عند امعرج اللي عليه بته ارنه قعدن تناديه وتبكي وتقله ياباه نزلني وشلني من ذا البكان وردني بيتنا وبيّنه ما يقول لمعرج قله ياعرج اقصر اقصر شأضربك بمسحر قصر ذاك العرج ونزلن ومشن مع ابوها وشويه الا يرون ذيك الجنبيه المذهبه مرجومه قام ابوها شايشلها قال لاذا قرقح الشيطان كبها ومشوا الا يشوفون ذاك الحصان واقف يصهل وسرجه عليه قال هيا نركب امحصان ذا تعبنا واحنا نمشي قالن له لا ياباه ذا قرقح الشيطان مشو وكل شويه يتشكل في شي وهي تقول لابوها لايشله لانه قرقح الشيطان بعد شويه ظهر لهن في صوره شنيعه شعره مشعفل وكل شعره لحالها كأنه برايا (نوع من الإبر يستعمل لخياطة السعف) وعيونه تطلع شرار وقال لابوها كب حرمتي وروح في حالك قبل ما اقتلك ولا تنساش انها بنفسها اللي قالن تشاني ابى ابوها يفلتلها وكان ماسكها بكل قوته قام قرقح الشيطان لطمها انقلبن كلبه عورا وسخط من قبالهن (اختفى) اخذها ابوها وهو يبكي لما وصل ذاك البيت في قريه قالهن عابر سبيل خرجن راعية امبيت ورحبن به وهبله اكل قعد ياكل لقمه في خشمه ولقمه في خشم ذيك الكلبه وامحرمه ذيك تطانع مستغربه من ذا الشي واجا يرقد حط امكلبه معاه فوق امقعاده ودفاها معاه ورقدو وكان يفكر كيف يقول لبناته ان امكلبه ذي هي اختهن حبة الرمان ولما اجا شيسافر قالن له امحرمه وجه الله عليك توديني ذي الكلبه لاني حبيتوها وجالسه اتعجب منك كيف تعاملها من البارح وشأراعيها مثلك وازيد قال في نفسه احسن اروح اقلهن مالقيتوهاش بدل مايرنها وهي كلبه وعطاها ذيك الادميه ورجع بلاده قعدن حبة الرمان لما نص الليل نابهه تبكي على حالتها والا رجعن صبيه واهل امبيت كلهن رقادى فرحن وقامن نظفن امبيت وطحنن امحب وسون قهوه وفطور بس لما طلع الفجر رجعن كلبه قامن امحرمه من امنوم تلاقي ذاك البيت نظيف وامفطور مسوى

ومقهوه راحن لبنات جيرانهاوسالنهن منهي منكن اجن نفعني واناراقده كل واحده
قالن انا عرفن انهن كذابين وكان معاهاثلاثه جهله قالن لهن اللي يعرف منهي تيجي
تنفع امبيت شأزوجه عليها قام اول واحد سهر حتى قرب نص الليل ورقد وامثاني
سوي مثله ثاني ليله وفي ثالث ليله قعد امثالث ساهر بعد مارقد في امنهار حتى شبع
وفي نص الليل ما يرى الا ومكلبه انقلبن صبيه كأنها قمر وقامن كنسن وشطرن
ووشن اميفى وخبزن وسون قهوه واجا الفجر رجعن كلبه قامن امه امطل الا هو يبيها
شلنه وراحن هي وياه عند الفقيه وخبروه بمهرجه كلها قلهن ما اظن ذي الكلبه الا
صبيه مسحوره او مبدله روحو انا شأجيكن بعد العشا ونشوف ماهو امخبر اجاهن
الفقيه وقعدوا يراقبون لما كملن شغل امبيت وقام الفقيه يقرا عليها وهي تبكي حتى
طلعن امشمس الا وهي بكانها صبيه وبينهن بقصتها قالن لها امحرمه انا شكيت من
ساعة ما اريت ابوك يوكلك بيده ويرقدك عنده واخذوها سافروبها عند ابوها وخطبنها
امحرمه لبنها وسولها هود وقعدو بها عند اهلها شهر وزياده بعدين رجعو بلادهن
وغدا الشر عنها وعاشن متهنيه مع زوجها وعمتها.

رواية فاطمة صالحي

الخبعة خبعة

قلك في واحده خبعه ومخذوله وماتفهم من الدنيا ولا قله اتزوجن ذاك الادمي ومن هبلها كرهنه في عيشته ذاك اليوم اجا قلها انا شأسافر وذي مصاريفك حق شهر شعبان مش تنفقنها مره واحده وسافر وبعد ايام سمعن واحد ينادي لمثاني يا شعبان خرجن هي بين تنادي يا شعبان يا شعبان حتى جاوبها قالن له ايجه لهلم وقامن ودنه امزلط اللي عطاها زوجها وقالن له ذي حطها جوزي عندي خذ حقك روح جوزها لقاها شاتموت من امجوع قلها مش انا عطيتك مصاريف قالن له اجي شعبان ووديتوه حقه قال لا حول ولا قوة الا بالله اخذها وسافربها امقريه اللي فيها اهلها وقلها انا شأروح ادور اذا لقيت خبع مثلك شأرجع واذا مالقيت الله معايا ومعاك المهم سافر من قريه لمثانيه وفي ذاك اليوم لقى قحم روح به معاه بيته وكان عنده بنيه شابه وامها هبوله غدا وجلس عندهن حتى امليل حلف عليه امقحم يرقد عندهن رقد واول ماطلعن امشمس الا وهو يسمع صعايق من داخل امبيت امبنيه تقول وابني حسن ياللي مالحقت اغضيك ولا افرح بك وامعجوز تقول وابن بتي حسن مته وانت صغير وامقحم ينوح مع بته وحرمته دخل قلهن ياجماعه صلو على النبي ماهو جرالكن قله امقحم بتي تحلمن انك تزوجت عليها وهبلك جاهل سمنه حسن ومات قلهن عظم الله اجركن وانا اترخص منكن شأسافر قله امقحم فيان تسافر وتكب حرمتك شلها معاك قال امرجل في نفسه لا والله حرمتي اعقل من ذيلا الناس وقلهن خلاص انا شأروح ادور جماله نسافر معاهن وخلوها تجهز نفسها وخرج من عندهن هارب بعمره ورجع روح بحرمته وعاش معاها راضي بنصيبه.

رواية فاطمة صالحي

امفقير وامشيطان

قلك وقلك من ذاك الرجل فقير وما يملك من الدنيا ولاشي الا ثور ياجره يحرثون عليه ويصرف امأجره على عياله وحرمته وذيك السنه كانن محجره ولا ارو نقطه مطر وماحد قله فيانك هو وثوره وقعدو عياله يتلا غون من جوعهن وهو يطانع فيهن عينه بصيره ويده قصيره قام قال لحرمته انا شأبره امجلاب (سوق المواشي) ابيع امثور وناكل بثمنه وبعدين ربنا يفرجها.

بره من امغبش على امسوق وعرض ثوره لمبيع اجى واحد قله كم تشى فيه ولما سمع امقيمه اللي هو طالبها لمثور قال يا شيخ تعوذ بالله من الشيطان ورخص تراك معاك ثور مش جمل رد عليه وقله والله ما اعوذ بالله الا منك راح ذاك الادمي اشتكاه للشيخ وجابوه عند الشيخ هو وثوره قله تتعوذ من امرجل وهو مصلي وصايم ويخاف الله وقام خلى امعسكر حقه يروحون به الحبس بعد ماهباله ذاك الكف ختى نكع درسه (ضرسه) وصادرو امثور حقه ادب بيتوه في الحبس ذيك الليله وامطل خرجوه وقالو توكل على الله ولو ارايناك في ذي القريه مره ثانيه ما تلوم الا نفسك عمين عليه الدنيا وخرج مش داري فيان يقبل بنفسه قعد تحت ذيك الا ثله الا واحد يقوله السلام رد عليه السلام سأله مالك قله كبني في حالي وروحلك في طريقك قله بيّني يمكن انفعك قام حكى له قصته قله ماحد شيتخارج لك من ذا الشيخ الا انا وغاب عنه شويه ورجع معاه له ثياب وقله البس ذي الهتر وارجم بحقك امقطعه وروح قل للشيخ فلان يسلم عليك وارسل لك معايه امحصان اللي طلبت منه يشتريه لك لبس ذاك الرجل وقله فيان امحصان قله انته روح وشتلاقيه عند باب الشيخ اول ماتوصل واشاك تشوف اللي شيجرى للشيخ حتى يبرد بطنك من امقهر اللي قهره لك

ولما قدك شتخرج جنب شل امثور حقك وترى عيالك ارسلتولهن عجره حب وسمن وكل لوازم امبيت قله جزاك الله خير بس مين انته قله وانت قدك في بيتك شأقولك من انا المهم راح امرجل لبيت الشيخ واول ماقبّل ارى ذاك الحصان اللي كانه ماهو جره من لجامه ودخل قال للشيخ فلان يبلغك السلام ومرسل معايه ذا الحصان المهم قعدو شويه الا والظهر يأذن قام شل امحصان وقال لمرجل انا شأروح اتوضا ونصلي وغداك اليوم عندنا وقام دفع له قيمة امحصان ودخل على بيته وراح بيت الما (الحمّام) ملى امبريق وخرج يتوضا على امطراحه والا وذاك الحصان يتحول ذبي ويفلت في امبريق قام الشيخ يصعق اجو جماعته يغيرون عليه مالك مالك قلهم امحصان فلت في امبريق قالو شيخنا تجنن واجوله بالفقيه يقرا عليه ولما بقي مثل ماهو حمو امكوى وهبوله يجي عشرين كويه في ديمه (جسمه) كله قام امرجل في ذيك الربشه اخذ ثوره وقيمة امحصان وخرج عشره مايحلقنه وصل بيته لقى عياله وحرمته بخيرهن من الله وعندهن مقاضي تكفى شهور وزياد حمد ربه الا وذاك الرجل اللي لقيه سابق يدق على امباب رحب به وشكره وقله ذحين توفي وعدك وتقول مين انته قله انا الشيطان حبيت اعوضك عن اللي جرالك بسببي خاف امرجل وقعد يقول اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويرددها حتى اختفى الشيطان من بيته ودور له على شغل وكل يوم يتعوذ من الشيطان يجي الف مره.

رواية فاطمة صالحي

حكاية شهربان

قلك من ذاك الواحد والواحد الله ماتو ابوه وامه وكان معاه اخت صغيره وهو قده مجوز ومعاه اثنين جهله وكل ما حبلن حرمته هبن ولد وماشي معاه بنات المهم ربى اخته مع عياله كأنها بته وكان يحبها ويوكلها امحالي ويلبسها امغالي ولما شبن صاحبن واحد وحبلن منه وهربن معاه قام اخوها قال لمرته لو في يوم من الايام هبتن بت شأدفنها امبنات ماوراهن الا امفضايح كانن حرمته مسكينه تدعي ربها كلما حبلن من ساعة ماتشل لما تقول يالله انها ماتهب صبيه حتى مايدفنها ابوها ويحسر قلبها عليها وذاك اليوم وهي حبلى قدلها سبعه قلها انا شأحج وانتن اذا هبتن بت شأروح ادفنها وادفنك معاها وسافر اراد رب العالمين وهبن بينه وقعدن خايفه من زوجها لما يروح قام واحد من عيالها وكان شفيق بالهلول وقلها ياولداه انا شأشل اختي بلاد بعيده واذا اجى ابويه قولي انك هبتن ولد ثماني ومات واخذ ذيك الصبيه ومشى بها بلاد تشلهن وبلاد تحطهن عشره ايام بلياليها لما وصل ذاك المكان فيه مسجد مخروب ما باقي منه الا امأذنه وكان ذاك البكان خالي ومافي الا قصر كبير على مد النظر ورعه يرعون امهوش حقهن طلب منهن شويه حليب وشرب ذيك البت وسقاها وطلع بها ذيك المأذنه وسكن فيها ورقد هو وياها وفي امنهار حطها ونزل يدور على خشب وسوى باب وثيق لمأذنه وسكن فيها هو واخته مرن سنين وكبرن ذيك الصبيه وهو في امنهار يروح يدور له مشقايه ويروح امليل بخيره من الله وعلمها امطبيخ وامنفعه وفهمها امور الدنيا وجاب حبل طويل عصبه في امباب وجره حتى عندها وقلها حسك في يوم تنزلين وانا غايب ولما ايجي شأناديك من تحت

جري امحبل قالن طيب كان يبره من امغبش ويجي المغرب ينادي ياشهربان انا
خويك حمدان جايبلك امصيد امسمان تقوم تجر امحبل ويطلع وفي ذاك اليوم قالن
له ياخويه انا احس معايه كرب ونفسي انزل امواذي اتنفس شويه نزلها وهو معاها
ولما ارن ام ما قالن شأنزل اتغسل وكان شعرها طويل لما ركبتها لعبن لها في ذاك
الواد حتى شبعن وقالن لاخوها هيا روحنا وكان ابن السلطان كل يوم يرسل امعبد
حقه يروي حصانه من اموادي وذاك اليوم لما رجع ابى ذاك الحصان يأكل وجلس
كذا ثلاثه ايام وابن السلطان زعلان على امحصان حقه يدور له دله من امرض المهم
اجوله بواحد يعرف في امخيل قام فتح خشمه الا ويلاقي ذيك الشعره ملويه على
لسانه بارحها حتى خرجن وعطاها ابن السلطان وقاله ذي الشعره اللي كانن مانعه
امحصان من اماكل وامشرب اخذها ابن السلطان وقعد يتفكر من طولها وارسل
لواحده عجوز وقلها دوري على راعية ذي الشعره وبيني فيان بيتها وبت من هي والا
شأقطع راسك خرجن امعجوز ومابقن بيت في امدينه مادخلنه مالقين ولا صبيه
شعرها مثل طول امشعره اللي معاها خافن من ابن السلطان وقالن لنفسها احسن
اهرب بعمري وخرجن تمشي لما وصلن عند ذيك الماذنه والا تشوف امولد ينادي
ياشهربان انا خويك حمدان جايبلك امصيد امسمان وتشوف باب امأذنه ينفتح جرن
بكل قوتها حتى وصلن عنده وقالن يابني دخلني معاك انا خايفه في الخلى يجي ذيب
ياكلني دخلها معاه عند اخته ولا تشوف ذيك الصبيه كأنها نجمه ماشي في حلاها ولا
في جمالها ولا حتى بنات الجان وقامن سألن امعجوز ماهي قصتك ياخاله قالن لها
معايه ولد واحد رملت عليه طول عمري ولما كبر زوجتوه وذحين سافر قامن حرمته
طردني من امبيت وانا مقطوعه ومامعايه حد وخرجت من ضيقتي حتى لقيت اخوك
وطلعني عندك قالن لها خلاص اقعدي عندي نتناوس انا وياك جلسن امعجوز
عندهن يومين وفي اميوم امثالث قالن لمبنيه اقربي مدري ماهو ذا في شعرك وقامن
نتفن شعره من راسها وشويه قالن لها انا شأروح اطانع ابني روح ولا عاده وشأرجع
وخرجن من عندها على ابن السلطان ودنه امشعره وبينه بمخبر قام هبا لما العصر
وراح عند ام مأذنه وقعد ينادي ياشهربان انا خويك حمدان جايب لك امصيد امسمان
جرن امحبل والا ويطلع ابن السلطان خافن منه وقالن من انته وماهو تشابي قلها انا

شأخطبك من خوك واشاك على سنة الله ورسوله قبل اخوها لقي امباب مفتوح طلع يجري والا ويشوف ذاك الرجل عند اخته قام رفع امسيف شيقتلها هي وياه الا وهي تحكي له امقصه من ساعة مالقي امعجوز عند امأذنه المهم زوجها على ابن السلطان وعاش معاها في قصرها وخلاه الوزير حقه وشاف ان الخير اللي سواه فيها يوم ما هربها من ابوها رجع له.

رواية فاطمة صالحي

تدبير أم ابن الصياد

قلنا وقلكم من امرأة كانت تعيش مع زوجها الصياد وابنها في سعادة تامة، ولأنّ الحال لا يدوم مرض الزوج وأحس بدنو أجله، فنادى على ابنه واخذ يوصيه بأمه خيراً وقال له: كما ترى، دنا أجلي وأمك ليس لها أحد في هذه الدنيا إلاّ أنت، وأريدك بارّاً بأمك كالهدهد،[1] فأينما ذهبت تحملها معك ولا تخجل منها حتى وإن نفرت النساء من وجودها معك.

---

(١) يُتّخذ من الهدهد مثالاً للبرّ بأمه، وهناك معتقد راسخ عند العرب ذكره الجاحظ في كتابه الحيوان فقال: أمّا القول في الهدهد، فإنَّ العرب والأعراب كانوا يزعمون أنَّ القنزعة التي على رأسه ثوابٌ من اللّه تعالى على ما كان من بِرّه لأُمّه لأنَّ أمّه لما ماتتْ جعل قبرها على رأسه، فهذه القنزعة عوضٌ عن تلك الوَهْدة.
والهدهد طائرٌ مُنتن الريحِ والبدن، من جوهره وذاته، فربَّ شيءٍ يكونُ مُنتِناً من نفسه من غيرِ عرَض يعرِضُ له، كالتيوس والحيّاتِ وغير ذلك من أجناس الحيوان.
فأمّا الأعراب فيجعلون ذلك النَّتْنَ شيئاً خامره بسبب تلك الجيفةِ التي كانت مدفونةً في رأسه، وقد قال في ذلك أميَّة أو غيرُه من شعرائهم، فأمّا أميَّة فهو الذي يقول:
تعَلمْ بأنَّ اللّه ليس كصنْعِهِ صنيعٌ ولا يخفى على اللّه مُلحِدُ
ويزعمون أنَّ الهدهد هو الذي كان يدلُّ سليمان عليه السلام على مواضع المياه في قعور الأرضين إذا أراد استنباط شيء منها. ويروُون أنّ نَجْدة الحرُوريَّ أو نافع بن الأزرق قال لابن عباس: إنّك تقول إنَّ الهدهدُ إذا نقر الأرض عرف مسافة ما بينه وبين الماء، والهدهُد لا يُبْصر الفخَّ دُوَين التراب، حتى إذا نقر التّمْرة انضمّ عليه الفخُّ، فقال: ابنُ عبَّاس إذا جاء القدرُ عمي البصرُ.
ومن أمثالهم: إذا جاء الحينُ غطّى العين.
وابن عباسٍ إن كان قال ذلك فإنّما عنى هدهُد سليمان عليه السلام بعينه؛ فإنَّ القول فيه خلافُ =

وأخذ عليه المواثيق، فعاهده الابن على البرّ بأمه في كلّ حالاته.

وكانت الأم امرأة فطنة قادرة على تحمل مصاعب الدنيا، وحين سمعت تعهد ابنها بالبر بها، قالت له:

- وأنا لن أتركك ما حييت.

وكانت امرأة جميلة تقدّم لخطبتها رجال كثر فلم توافق وقالت: نذرت حياتي لابني.

وعندما تفقدت حالها بعد موت زوجها لم تجد معها شيئاً سوى هوري (قارب صغير) كان يستخدمه زوجها في الصيد وفكرت أن تبيعه لكي تنفق من ثمنه عليها وعلى ابنها، لكنّ فكرها هداها إلى طريقة أخرى، فقد كان ابنها لا يعرف شيئاً عن مصاعب الحياة وأرادت أن تعلّمه كيف يواجه مصيره، فأخذته إلى جارهم الصياد وقالت له:

- هذا ابني وأريدك أن تعلمه الصيد ليكسب مهنة يقتات منها بقية حياته.

رحّب الصياد بطلب زوجة جاره وأبدى استعداده لتعليم ابنها مهنة الصيد.

فأخذ الصياد الشاب وعلمه شؤون الصيد حتى أتقن المهنة.

وعاد الى والدته يخبرها الخبر،فأعطته قارب أبيه وقالت له:

- عليك الآن أن ترتزق بكسب يدك وتطعمني وتطعم نفسك.

فكان الشاب يخرج صباحاً ويظل يصطاد إلى ما قبل الظهيرة ويعود إلى سوق البلدة ويبيع ما لديه من سمك ويشتري حاجيات البيت ويعود سعيداً.

وذات يوم اصطاد سمكة واحدة (من نوع البياض) واشتهى أن يأكلها بدلاً من أن يبيعها، فدخل على أمه وناولها السمك قائلاً لها: لم أُرزق هذا اليوم إلاّ بهذه السمكة وقد اشتهيتها فقومي واشويها لنتغدى بها.

فلم تلمه أمه وقد ارتضت بما قسّمه الله، وقامت لتنظيف السمكة وعندما شقّت بطنها وجدت بداخلها حبة لؤلؤ (قماشة) كبيرة وصافية لامعة، ففرحت فرحاً عظيماً

= القولِ في سائر الهداهد. وقد قال الناس في هُدهُد سُليمان، وغرابِ نوح، وحِمار عُزير، وذئبِ أُهبان بن أوس، وغير ذلك من هذا الفنّ أقاويل.

وخبّأتها ولم تخبر ابنها، وظلّت تفكّر كيف يمكن الاستفادة من هذه اللؤلؤة الكبيرة، وهداها تفكيرها إلى فكرة قامت من فورها لتنفيذها.

ذهبت الإم إلى داخل المدينة وأخذت تبحث عن بيت تستأجره يكون ملاصقاً لقصر السلطان، وعندما وجدت البيت استأجرته على الفور وعادت إلى البيت، وقد افتقد ابنها غيابها فطمأنته وقالت له:

- لقد أصبحت رجلاً وأمنيتي أن أزوجك وأفرح بك. . .

فقال لها ابنها: أنا رهن أمرك والذي تريدين يكون.

فقالت له: علينا أن نترك هذا الخدر (بيت من فروع الشجر واللبن) وننتقل إلى بيت أفضل حتى إذا خطبت لك قبلت خطيبتك بك.

فقال لها: كما تريدين.

فقالت له: نغادر في هذه الليلة ولا يصبح علينا الصباح إلاّ في بيتنا الجديد.

ومن غلسة الصبح ارتدت ملابسَ ممزقة ووضعت مظلة على رأسها وحملت كيساً وضعت فيه حجارة ورملاً، واتجهت إلى قصر السلطان، فقد سمعت أنّ ابنته تصيبها حالة كرب فلا تقبل أن ترى أحداً.

واتجهت إلى القصر وظلت ترفع صوتها عالياً:

- هذا الطائر من نصيب من. . . هذا الطائر من نصيب من؟

فسمعتها الأميرة وانحنت من نافذة قصرها فرأت تلك المراة وقالت لها:

- أي طائر؟ ليس بيدك طائر!

فقالت المرأة للأميرة: انزلي أقرأ لك بختك.

أصاب الأميرة الفضول فنزلت ووجدت المرأة قد فرشت قطعة قماش أمامها ووزّعت على جنباته حجارة في أشكال مختلفة وأجلست الاميرة امامها وقالت لها: أنت ضائقة من كلّ شيء ولن ينفتح ضيق صدرك إلاّ بهذا الطائر الذي يحوم حولك.

وحملت حجراً من وسط تخطيطاتها على رملها وقالت لها: هذا هو الطائر.

وعندما حاولت الأميرة أن تفهم لم تجبها المرأة، وكوّمت قطعة القماش على الرمل والحجر الذي تحمله ووضعته في زنبيلها وودّعت الأميرة التي بقيت حائرة لا تعرف ماذا تقصد تلك العجوز.

عادت المرأة إلى بيتها وهي فرحة لإنجاز أوّل خطوات فكرتها، وبعد مضي أيام

وفي إحدى الصباحات لبست وتزينت وخرجت (ولم يكن لها من جيران سوى بيت السلطان) فطرقت بوابة القصر، فخرجت الاميرة (وهي الابنة الوحيدة للسلطان) وكانت تتمنى رؤية تلك المرأة العجوز التي أخبرتها عن الطائر الذي سيخرجها من وحشتها وضيقها، وعندما رأت المرأة (وهي ليست في نفس هيأتها الأولى التي قابلتها بها في أول مرة) سألتها الأميرة:

- من أنت؟

فقالت الأم: أنا غريبة عن بلادكم وابني تاجر لؤلؤ ولقد نسينا ميزان اللؤلؤ في بلادنا فلو عندكم ميزن أعيرينا لوزن بعض اللؤلؤ.

فقالت الأميرة: حبّاً وكرامة...

ودخلت إلى القصر وعادت بالميزان، فقامت الأم بحمل الميزان وأحضرت صمغاً وألصقت حبة اللؤلؤ التي وجدتها في إحدى كفتيه، وأعادته إلى الأميرة التي تنبّهت لتلك اللؤلؤة الكبيرة اللامعة، فاستوقفت المرأة قائلةً لها:

- ياخالة انظري لقد لصقت إحدى حبات اللؤلؤ في الميزان.

فقالت المرأة: الدنيا أرزاق وما دامت لصقت في الميزان فهي هدية لك.

تمنّعت الأميرة إلاّ أنّ المرأة أصرّت على ذلك، وودّعتها وعادت إلى بيتها.

وبعد مضي أيام عاودت المرأة الطرق على بوابة قصر السلطان، فخرجت إليها الأميرة مرحّبةً واستضافتها، فأخذت المرأة تعتذر بشتّى الأعذار مبديةً حرجاً كبيراً، فشجّعتها الأميرة لأن تتحدث وتقول حاجتها، فأخذت المراة تحكّ، تنقل يدها وتحكّ مقدمة ومؤخرة رأسها قبل أن تقول:

- والله يا ابنتي إني مستحية منك...

فقالت لها الأميرة: لا تستحي، قولي ما تريدين قوله.

فقالت الأم: كما تعلمين ابني تاجر لؤلؤ وكنّا مسافرين وقلنا نجلس في هذا البلد ليومين ثلاث، ولشهرة ابني علم به أحد تجار اللؤلؤ في بلدكم فجاء لشراء أنواع منها، وللأسف وبعد أن تمّت الصفقة وجد ابني أنّ اللؤلؤ الذي معه نقص بعض الشيء واستحى أن يخبر التجار فأرسل خادمه كي يجلب له كيساً من خزانته في بلادنا، وقد تأخّر الخادم وسوف يأتي التاجر لأخذ لؤلؤه الليلة، فقلت في نفسي

أستعير منك كم لؤلؤة من خزانة أبيك وأعيدها إليك حالما يعود الخادم بكيس اللؤلؤ.

فقالت الأميرة: لا تعتذري ولا تتحرّجي، سأجلب لك بعض حبات اللؤلؤ لكي يكمل ابنك ما نقصه.

وغابت الأميرة وعادت تحمل منديلاً صرّت به حبات من اللؤلؤ وناولت المرأة، فشكرتها شكراً مضاعفاً وغادرت القصر.

وبعد مضي عدة أيام طرقت بوابة القصر تطلب مقابلة السلطان، وعندما أراد الحرس معرفة السبب لم تخبرهم وأصرّت على طلبها، فسمح لها السلطان بذلك، وعندما قابلته تحدّثت عن نجابة ابنها وحسن تدبيره لتجارته حتى بلغت سمعته الآفاق، وقالت للسلطان: لم أجد شيئاً يشرّفني ويزيدني فخراً بابني إلاّ أن أزوّجه ابنتك.

فكّر السلطان ملياً قبل أن يجيب وتذكّر أنّ ابنته لم تشفَ من ضيقها الدائم، فهي دائماً متشائمة[1] غير منفتحة على الدنيا تعيش حالة انطواء وتشاؤم مما حولها،

---

(١) حينما أرسل الإله زيوس الأمراض إلى الأرض كان راغباً في إرسال شرٍّ أبلغ خطراً من الأمراض، وهو التشاؤم، وذلك بعد معرفته بسرقة النار، وبذا يكون قد حكم على الخلق بفقدان أيّ متعة في الحياة، وكان التشاؤم ضمن محتويات صندوق الإلهة باندورا إلاّ أنها حين فتحت الصندوق لتري زوجها مجوهراتها وثيابها كان التشاؤم متلهّفاً للخروج ومع عجلته اشتبكت أجنحته في جوانب الصندوق، وعندما أغلقت باندورا غطاء الصندوق بقي التشاؤم بداخله وإلاّ لو خرج لما تمتع الناس في حياتهم أبداً.
وفي هذه الأسطورة تحديداً وقفت هنا ولا بدّ من وجود أسطورة مكمّلة تعلّل وجود التشاؤم في حياتنا خاصة وأن الإنسان الأول أظهر تشاؤماً تجاه بعض الطيور والحيوانات، ولكي تستقيم تلك الموتيفات لا بدّ من وجود كائن (سواء طيراً أو حيواناً) تسلّل إلى صندوق باندورا وعند خروجه حمل معه التشاؤم ليحلّق في كلّ أركان الأرض.
وهي الموتيفة الأسطورية التي أوجدها العقل البشري الأول لدخول إبليس الجنة من خلال الحية، وهذا القول اجتهاد لردم الفجوة الحكائية بين إغلاق صندوق الإلهة باندورا على التشاؤم وحضوره في حياة الإنسان حضوراً بُنيت عليه أفعال وتصرفات إنسانية أخرى كالتشاؤم والتطيّر من بعض الطيور والحيوانات وبعض السلوكيات.
وربما لا تكون هناك فجوة حكائية إلاّ تخيّلاً مني لعدم مروري على تفسير العقل الأول لظهور التشاؤم... =

وقال في نفسه: لو أنّي زوّجتها لربما تنعتق من حالتها وتقبل على الدنيا...

وطلب من المرأة أن تمنحه بعض الوقت لكي يشاور ابنته، فقالت المرأة:

- دع هذا الأمر لي...

وأستأذنته لأن تجلس مع الأميرة، فوافق على ذلك.

دخلت المرأة على الأميرة ضاحكةً مستبشرة وقالت لها:

- لقد رأيت لك رؤيا وأتمنى أن تكوني أنت صاحبتها...

نشأ فضول داخل صدر الأميرة وأرادت أن تعرف تلك الرؤيا، فضمّتها المرأة إلى صدرها وقالت لها:

- صلّي على حبيبنا وخاتم الرسل محمد بن عبد الله.

فقالت الأميرة: اللهم صلي وسلم على حبيبك محمد...

فقالت المرأة: بعد ما أخذت منك اللؤلؤ ورجعت إلى البيت وأخبرت ابني بقصتك فرح فرحاً عظيماً وأخذ يسألني عنك ولم يتركني إلا بعد أن حدّثته عنك وعن أدبك وجمالك وحسن معاملتك، وذهبت للنوم... ورأيت فيما يرى النائم أنّ طائراً أخضر نزل من سقف الغرفة مرفرفاً يقول لي: اذهبي واخطبي لابنك.

فقلت له: أخطب من؟

فقال: فتاة أعطتك منديلاً وستعطيك أبناء لولدك.

فقلت له: هي أميرة وابني تاجر غريب فكيف توافق عليه؟

فقال لي: قولي لها اسميكما زوجان في اللوح المحفوظ.

استغربت الأميرة أن تتزوج من شاب لم تره ولا تعرفه وليس أميراً، لكنها

= وقد عرفت القبائل العربية العيافة، بمعنى التنبؤ، عن طريق ملاحظة حركات وسكنات الطيور والحيوانات وسمّوها (الشاق)، أي شقّ أجساد الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها واستخلاص النبوءة والتكهن، يقال له: «طيرة» في العربية والعبرية، والتطيّر بمعنى التشاؤم والتفاؤل، وكانوا يتشاءمون ويتطيّرون من المرأة الطامث والدار والفرس وعتبات البيوت ومداخلها والغراب والغراب الأسود، ولقد اجمع العرب والعبريون على اعتبار الغربان والبوم من الحيوانات النجسة والمشؤومه وسمّوا البومة (أم الصبيان) و(أم الخراب) واعتبروها الهامة التي تخرج من رأس القتيل تحجل بلا توقف على قبره في طلب الثأر والدم. (الموسوعة الفلوكلورية والأساطير)

تذكرت قصة العجوز التي مرّت بها وقرأت لها الحظ بأنها ستتزوج شاباً ينزل عليها كطائر من السماء.

تذكرت الأميرة قول العرافة العجوز التي قالت لها: وإنه سيخرجها من ضيقها؛ فشعرت بالفرح وقبلت عرض المرأة بالزواج وهي تخفي فرحتها.

ونزلت الأم إلى السلطان وأخبرته بموافقة الأميرة على الزواج ومنحته اللؤلؤ الذي أخذته في المرة الماضية من ابنته على أنه مهر تقدّم به ابنها.

فرح السلطان لموافقة ابنته على الزواج وأُقيم حفل حضره القاصي والداني استمر سبعة أيام بلياليها، وزفّت الأميرة إلى الشاب واستحلّ جزءاً من قصر السلطان مدّعياً أنه بحاجة لبعض الوقت من أجل تأثيث بيته بما يليق بالأميرة.

وذات صباح استيقظت الأميرة من نومها وأخذت تنظف غرفتها، وبينما هي تكنس تطلع إليها الشاب وتذكّر حالته السابقة وبيتهم المتواضع فانتابه الضحك، وتنبّهت الأميرة للضحكة فتوقفت وسألته عما يضحكه، وكانت تظنه يضحك على هيأتها، ولم يرد أن يخبرها بما تراءى له من ماضيه البائس وكيف هو حاضره من رغد ورفاهية وأنه متزوج بابنة السلطان، وعندما صمت أقسمت الأميرة أن لا تكلّمه أبداً ما لم يخبرها سبب ضحكه، وظلّ يحاول استرضاءها إلاّ أنّ عنادها تمدّد وأخذت تطالبه بطلاقها.

فأخذ يسترضيها وأخبرها أنه كان يفكّر كيف لابنة سلطان أن تكنس بمكنسة من طفي بينما في منزله المكنسة من ذهب، فتعجبّت مما يقول وأقسمت عليه إلاّ أن يريها منزله وتلك المكنسة الذهبية، فإذا بالحيرة تتلبّسه ولم يجد خياراً إلاّ إخبار أمه بما حدث طالباً منها إصلاح مافعل، فقالت له:

- اطلب من السلطان الإذن بالرحيل، واذا سافرنا ربك يدبّرها. . .

استأذن الشاب السلطان وأخبره أنّ عليه العودة إلى بلاده وتجارته التي غاب عنها. أذن له السلطان وزوّده بهدايا وهبات وودّعهم إلى مخارج المدينة.

ظلّت قافلتهم مسافرة من بلد إلى بلد والأم لا تعرف إلى أين تتجه ويزداد الشاب قلقاً وخشيةً من أن يفقد زوجته، فكلما لاحت لهم مدينة أو قرية وسألته: هل وصلنا؟

يجيبها: لا، لم نصل بعد.
ويخافت أمه: ما العمل الآن؟
فتصبّره وتقول له: ربك يدبّرها من عنده.
وصولوا إلى بئر وقد أصاب العطش جمالهم، فنزلوا يتزوّدون بالماء ويسقون جمالهم، وبينما هم على تلك الحال كانت هناك سيدتان تتحدثان فيما بينهما (بالقرب من الأم) فأنصتت لحديثهما فإذا بالسيدة الأولى تقول لصاحبتها:
- ألم تسمعي بالتاجر العجوز؟
فقالت لها صاحبتها: التاجر العجوز الذي يعيش في القصر الكبير المغلق ولا يزوره أحد ولا يخرج إلى أحد؟
فقالت لها: نعم هو بعينه.
فردّت عليها: ماذا به؟
فقالت لها: يقول خدمه إنه يحتضر.
فردّت صاحبتها: ليتني ابنته، فكلّ الأموال والمجوهرات التي عنده ستذهب للغرباء...
ابتعدت عنهما قليلاً، وافتعلت أنها تنزل حمولة من جملها وطلبت منهما مساعدتها، وعندما أقبلتا للمساعدة أصدرت تأوّهاً ولعنت الغربة التي أبعدتها عن أبيها وقصره، فسألتها إحداهما:
- هل أنت من هذه الناحية؟
فردّت عليها: أنا ابنة التاجر الذي قصره قريب من هنا.
فقالت لها إحداهما: أخاف أن أغضبك!
فقالت لها: ولماذا تغضبيني؟
فردّت عليها: سمعت أنّ أبوك يحتضر ولا أعرف تلحقين به أو لا تلحقنين.
أبدت التأثر وتباكت فأخذت المرأتان تهدآنها وتواسيانها، فطلبت منهما مصاحبتها إلى قصر أبيها فهي لا تقوى على تحمّل الصدمة بمفردها، وقد أخبرتهما أنّ ابنها تزوّج ابنة السلطان ولا تريد أن يكون مقدم العروس مقدماً سيئاً على القصر، فوافقت السيدتان ورافقاها، فقالت لابنها: ابقى انت وزوجتك حتى أرسل في طلبك.

وطلبت من السيدتان أن يسبقاها وأن تسير خلفهما، وعندما وصلتا إلى القصر أشارت إحداهما إلى الأبواب المغلقة وقالت:

- لم يدخل أحد من هذا الباب منذ أن عرفت نفسي.

فتحركت أم الشاب وطرقت الباب، ففتح لها الخدم فصاحت بهم: كيف حال أبي؟ سمعت أنه يحتضر.

ردّ عليها أحدهم: عظّم الله أجرك، لقد قضى نحبه قبل ساعات ولو أنك تقدّمتي قليلاً للحقتي به...

فرفعت الصوت باكية وأقبلت عليها السيدتان معزيتين واستأذناها لكي يخبروا أهل القرية بخبر موت أبيها لكي تقوم المدينة بواجب العزاء .

فرحت بمقترح السيدتين، ودخلت إلى داخل القصر وأشار لها الخدم لجهة مرقد أبيها، وعندما وقفت عليه وجدت مفاتيح مدلاّة من عنقه فأخرجتها وخبّأتها ونادت بالخدم من أجل احضار المغسل والتهيؤ لدفن أبيها.

وأرسلت الخادم الذي فتح الباب إلى البئر وقالت له: أخرج خيلين من خيول الإسطبل واذهب إلى البئر الواقعة على طرف المدينة وستجد سيدك وزوجته ابنة السلطان، دعهما يركبان الخيلين وأنت قد جمالهما وعد بهما.

وقامت بفتح المخازن فوجدت من كلّ شيء أموالاً كثيرة، ففرحت فرحاً عظيماً، وما إن قدم ابنها حتى أخبرته بالقصة وقالت له:

- كن قوياً واستقبل المعزّين على أنّ الميت جدّك الذي لم تره، وعرّف بنفسك أنك صهر السلطان.

وتناقلت المدينة خبر موت التاجر وأن حفيده زوج ابنة السلطان يتقبّل العزاء في قصر جدّه، فتهافت الناس من كلّ مكان لتقديم واجب العزاء.

وبعد مضي أيام العزاء فتحت الأم مخزن الذهب وأخرجت كمية كبيرة ناولتها لابنها وقالت له: اذهب إلى الصائغ واطلب منه أن يصهر هذه الكميّة ويصيغ لك مكنسة ذهبية. قام الابن بما طلبته منه أمه وبعد أيام كانت المكنسة جاهزة، فحملها ودخل إلى زوجته وقال لها:

- هذه هي المكنسة التي أخبرتك عنها...

فتناولتها الأميرة وأُعجبت بها وقالت له:

- لم أكن أصدّق أنّ هناك من هو أغنى من أبي حتى رأيت العجب في قصر جدك.

وشعرت الأميرة بمقدار حب زوجها لها فتخلّصت من حالة التشاؤم التي لازمتها طويلا...

وما هي إلا أيام حتى شعرت بحالات الوحم ففرحت أم الشاب وأنفقت أموالاً كثيرة على فقراء البلد، وعندما ولدت زوجة ابنها ضاعفت من الإنفاق بسبب مقدم السلطان لرؤية حفيدة.

وعاش الشاب في سعادة غامرة بسبب برّه وسماعه لما تدبّره وتقوله أمه.

رواية فاطمة صالحي

تدبير أم ابن الصياد

الحكاية بلهجة أهل المنطقة

قلك من ذيك الحرمه حطن المنية على زوجها وقبل ما يغمض عينه قرب ولده منه يجي عمره عشرين وقله انا اشا اموت وامك مالها حد اشاك كمهدهد فيان ما رحت ومك معاك ولا تحس بمخجل منها فهي مك اللي حملنك وبزنك قامن ودنه عند واحد حوات وقالن له علمه لمهرتك وخله عندك حتى يعرف يحوت بنفسه لان ابوه مات وماورثه من الدنيا الا امهوري اللي يشتغل عليه وخايفه ابيعه ناكل ثمنه ومايبقى معانا ولا شي قلها امحوات ابشري وقعد ذاك الولد عنده قراب امسنه لما تعلم وبقي يركب امهوري حقه ويروح يحوت وامحوت اللي يحصله يهب منه له ولأمه ويبيع الباقي وفي ذاك اليوم اتى لها بحوته بياضه كبيره وقلها ياولداه وشي اميفا وشوي لي ذي الحوته نفسي فيها قالن طيب وقامن تنظفها لقين فيها ذيك القماشه اللي تلمع وتبرق دسنها ومابينش ابنها وثاني يوم من شرقة امشمس راحن اجرن بيت جنب بيت السلطان وروحن بيتها ولما اجى ابنها قالن له نفسي يابني ازوجك وافرح بك قبل ماأموت قلها اللي ترينه يصلح سويه وانا في شورك وطاعتك قالن قبل شي ننقل من ذا الخدر تراني اجرت بيت ومن الليله نسري مانرقد الا فيه شلو قراشعهن وراحو على امبيت امجديد المهم مرن ايام وراحن بيت السلطان وسألن عن راعية امبيت خرجن لها الاميره بت السلطان وقالن مين انتن قالن انا غريبه عن البلاد وابني تاجر قماش ونسينا امكيال حق امقماش في بلادنا اشي امكيال حقكن وشأرده ودنها

امكيال وروحن بيتها وقامن لطن (ألصقت) ذيك القماشه فيه بلبانه وردنه لمبنيه تقولها ياخاله في قماشه لاطيه في امكيال قالن مادام ماخرجن مع امقماش اللي كلتوه بها والله ماأشلها وروحن وبعد يجي عشره ايام اجن مره ثانيه وقالن لمصبيه الله يسترك بعنا من واحد قماش وبخسنا (نقصنا) نص مكيال انقذيني وانا شأرده لك بعد ثلاثه ايام قامن هبلها من امقماش حق ابوها وبعد العشا اجن ذيك الحرمه وطلبن تقابل السلطان دخلن عليه وقالن له انا اجيت خاطبه راغبه بتك الاميره لابني التاجر فلان الفلاني وذا مهرها وقامن ودنه امقماش اللي اخذنه من بته رحب وسهل وقبل ابنها يكون زوج للأميره وهبو ذاك الهود اللي ماحد قدا رى مثله سبعه ايام بلياليها وفرح ذاك الولد والاميره حبنه كمله كان ضعيف الله وطيب بالهول وفي ذاك اليوم قامن الاميره تكنس غرفتها وهو يطانع لها قام يتذكر امخدر اللي كان ساكنه وامفقر اللي كانو هو وامه فيه حمد ربه وقام يضحك ويتكركر ويقول سبحان مغير الاحوال زعلن حرمته لانها حسبنه يضحك عليها وقالن له اما تقولي ذحين لما هو تضحك ولا تطلقني وبقيت ضاغية متشائمة من كل شيء لمه انه ضحك وكمنه يحبها حب يسلي عليها فقلها اضحك عليك قلك بت السلطان وتكنس بمكنسه طفي واحنا معانا مكنسه ذهب قالن والله لما توريني ذي المكنسه الذهب مأكون لك حرمه قلها امكنسه كبيناها في امبيت اللي في بلادنا قالن خلاص تسافر بي اشوفها قلها شأروح اتشاور مع ولدتي راح لولدته بياها بمخبر وقلها شوفي لي دبره انتن حنبتني وذحين خارجيني قالن له نسافر ولقدها في بلاد بعيده يفرجها الله نوو على السفر وحمل السلطان بته من كل شي ومشو يترحلون لما وصلو على ذاك البير جنبو يشربون ويسقون امجمال حقهن الا وامعجوز تسمع ذيك الصبيه تقول لمثانيه سمعتن ماهو جرى قلك امقحم امتاجر راعي امبيت امكبير ينازع وما عنده لاجار ولامجور كمله قاعد عمره كله لوحده ومايزور احد ولايدخل احد بيته قامت معجوز تسألهن يابنات تعرفون واحد قحم ساكن في ذي القريه قالو لها ذحين كنا نتهرج عليه عسى تعرفنه قالن ياوه ترنه عمي وانا واجيه اخابر به وليه منه سنين طويله خبروها انه مريض ودلوها على بيته وهي تبكي وتقول اميوم اللي القى فيه عمي القاه مريض المهم دخلن ذاك البيت بعد ماكسرو امباب ولقو ذاك الادمي قد سلم الروح وقامن تعزي

سيدي واعمي واجو الناس يعزنها يقولون سبحان الله عاش لوحده ولما مات اجو اهله وبعد ماخلصن امثلاثه اميام حق امحزن قامن تفتش امبيت لقن فلوس وفضه وذهب نادن ابنها بعيد عن حرمته وهبن له كيس جنيهات مجيدي وقالن روح عند امصايغ وقله يصوغها مكنسه ذهب راح واجى بذيك المكنسه سكته وداها ولدته قامن تقول لمرة ابنها طانعي امكنسه امذهب حقي لانك كنتن مش مصدقه ابني قامن تتسامح منهن واخذو مال امقحم وباعو امبيت والاراضي حقه ورجعو على بلاد السلطان وعاشو فيها كأنهن ملوك.

رواية فاطمة صالحي

حزن امقملة[1]

قلك من ذاك القعموص (نوع من النمل كبير الحجم) اتجوز على ذيك القمله وفي يوم جمعه قلها اشا اتبخر واري جحمه وهبيلي بخور هبله بخور فلت في امجمر ومات خرجن تبكي تحت امنخله قالن لها امنخله مالك باكيوه قالن على الشيخ صديق حرق وقزن عينه قالن لها امنخله انتن باكيوه وانا يابسوه اجى غراب وحط فوق امنخله وسألها مالك يابسوه قالن انا يابسوه وعمتنا امقمله باكيوه على الشيخ صديق حرق وقزن عينه قام نتف ريشه قال وانا ناتفوه وراح على امواديي يشا يشرب سأله امواديي مالك ناتفوه قله انا ناتفوه وامنخله يابسوه وعمتنا امقمله باكيوه على الشيخ صديق حرق وقزن عينه قال وانا قاطعوه اجو بنات شيملون امجرارا حقهن وسألو امواديي مالك قاطعوه قلهن انا قاطعوه وامغراب ناتفوه وامنخله يابسوه وعمتنا امقمله باكيوه على الشيخ صديق حرق وقزن عينه قامو رجموا بمجرار حقهن في الارض وقالوا واحنا كاسروه وروحو على بيوتهن لما سألوهن اهلهن ماهو جرى لكن وفيان امجرار قالو كسرناها قالولهن لمه قالو احنا كاسروه وامواديي قاطعوه وامغراب ناتفوه وامنخله يابسوه وعمتنا امقمله باكيوه على الشيخ صديق حرق وقزن عينه.

رواية فاطمة صالحي

وتستمر الحكاية على هذا المنوال وكل راوي يزيد فيها ما يشاء.

---

(١) حكاية للأطفال الصغار تروى لهمليناموا.

الفقيه

قلنا وقلك، من رجل فقير يعمل حمّالاً في السوق ودخله اليومي لا يكفي معيشته، فكان يتزوّج ويطلّق، كلّ يوم له امرأة، يتزوج المرأة ليوم أو يومين ويطلّقها بعد أن يُفهمها أنه لا يقدر على إعالتها.

وذات يوم تزوّج امرأة ذكية، عرفت فيه الشخصية الضعيفة التي تقاد ولا تقود، وعندما أراد تطليقها أمسكت لسانه وأفهمته أن الله الرازق، والرزق يتطلب البذل والجهد، وأشارت عليه بتغيير مهنته، فأخبرها أنه لا يعرف شيئاً من أمور الدنيا سوى حمل البضائع للمتسوقين، فقالت له: أنا أدبرك.

وقامت من حينها ببيع بعض مستلزمات البيت، واشترت قفطاناً وجبّة وسبحة، وألبست زوجها وأوصته أن يقف في الطرقات ويدّعي معرفته بتفسير الأحلام و«يفتش» عن الغيب.

خرج من البيت وهو يسبّ ويلعن هذه المرأة التي لم يستطع التخلص منها، فكان يسير هائماً وغضبه ولعناته تخرج منه من خلال تحريك يديه وشفتيه، ومن يراه يظنّ أنه يتمتم بالأذكار.

وصادف أنّ إحدى جواري السلطان غضبت منها ابنة الملك فطردتها، فخرجت الجارية تبكي وتولول وتندب حظها، وأثناء سيرها التقت بهذا الرجل، فتوسّمت فيه خيراً واقتربت منه متوسّلةً:

- يا فقيهنا ادعي لي أن الله يحنّن قلب ستّي. . .

وعندما رآها تتوسّل به وتتمسّح بثيابه قال في نفسه: كيف لو عرفت أني ما افقه ولا شي.

وأراد أن يخلّص قفطانه من بين يديها، وهو يلعن زوجته في سرّه وعزم على تطليقها، وأخذ يتصوّر نفسه وقد ذهب إلى أخيها طالباً منه أن يأتي لأخذ أخته، وفي احتدام سرحانه تخيّل نفسه يقول لأخيها: يا ترجعها لبيتك يا أقتل نفسي.

وما أن أنهى جملته حتى ظهر عبد الأميرة يصيح بالجارية: فيانك يا ميمونة وأنا أعبط عليك من الصباح لي ابشلي ابشارة... تقلك ستي ارجعي رضين عنك.

وما إن سمعت الجارية بشارة العبد حتى انحنت تقبّل يد الرجل الفقير وتصيح به: والله إنك فقيه وعالم ومكشوف عنك الحجاب.

وخلعت كلّ ما تلبسه من ذهب وألقته في حجر الرجل الفقيه وهي تقبّل يده.

عاد الرجل الفقير إلى بيته مندهشاً ممّا حدث، وقذف بالحلي التي حصل عليها لزوجته لاعناً حظه الذي أوقعه معها، وكان يبرطم وينعتها بالمرأة التي تسعى إلى قتله، فهوّنت عليه الأمر وقالت له: قوّي قلبك...

وأخذت تريه الذهب الذي حصل عليه من الجارية وأنه لو ظلّ يحمل كل ما في السوق لسنة كاملة لما حصل على ربع ما حصل عليه، فردّ عليها: في الأول عسل وفي الآخر قطران.

فأخذت تشجّعه وتهوّن عليه الأمور.

أما الجارية فقد عادت إلى سيدتها وقبّلت يديها وأخبرتها أنّ فقيهاً توسّلت به أن يدعو لها فما أن أتمّ دعاءه حتى جاءت البشارة، وأخذت تمدح علمه وفقهه ومقدرته على كشف الغيب، وزادت من عندها أنها حين توسّلت به أن يدعو لها وضع يده في الماء فظهر (العبد) المبشر على سطح الماء وقال لها: طانعي ذا من يبشرك برضى سيدتك.

كانت الأميرة تستمع إلى جاريتها بين مصدّقة ومكذّبة، وكانت الأميرة حامل وعلى وشك أن تضع مولودها البكر، وكانت راغبة في معرفة نوع مولودها وخوفها أن يكون أنثى.

وفكرت أن تأتي بهذا الفقيه ليخبرها، فإن كانت أنثى ادّعت لزوجها أنها ماتت أثناء وتسلم من غضبه... وفي الحال أرسلتها لتأتي بذلك الفقيه.

خرجت الجارية تبحث عنه وتسأل حتى دلّوها على بيته فطرقت الباب وأخبرته أنّ الملكة تريده أن يكشف لها عمّا في بطنها...

التفت إلى زوجته وانهال عليها بالشتم واللعن، وقال لها: ما افعل ذحين؟

انفردت الزوجة بالجارية وأخذت تسألها عن الملكة وعن أحوالها وظروفها، فحكت لها الجارية أنّ الملكة حامل وتخشى أن تلد أنثى فيغضب منها الملك لأنه ينتظر مولوداً ذكراً ليكون خليفته.

اقتربت من زوجها، وأوصته أن يقول للملكة إنها ستضع مولوداً ذكراً، وأخبرته أنهما سيرحلان من المدينة قبل أن تضع الملكة مولودها.

اطمأن بعض الشيء وتحرك مع الجارية لمقابلة الملكة.

وعندما وصل إلى القصر كانت الملكة تقف على سلّم داخلي، فسألته: ما هو معاك يا فقيهنا...

فقال لها: الخير إن شاء الله...

فقالت له: افتش لي..

أخرج منديلاً به كومة رمل وفرشه على الأرض ورمى الحجارة في وسطه وأخذ يلعب بتلك الحجارة الصغيرة وهو يشتم ويلعن زوجته في سرّه، فاستبطأت الملكة ردّه، فقالت له: ما هو عندي؟

فقال في نفسه ما دام المسألة كذبة في كذبة وأنا هارب هارب خلّيني أسمّن الكذبة...

فقال للملكة: أبشري، أنت حامل بتوأم ولد وبنت...

فسعدت الملكة وقالت له: فيان أولد فوق ولاّ تحت؟

وكانت للملكة غرفتان، إحداهما في أعلى القصر والثانية في أسفله، وكانت تتطيّر من غرفتها الأرضية، وعندما سألته: فيان أولد فوق ولاّ تحت؟

فقال في نفسه: ربنا يأخذك فلا ترين فوق ولا تحت.

وعندما عادت سؤالها كان قد وصل إلى مرحلة الضجر فقال لها: لا فوق ولا تحت.

فنزلت الملكة من شرفتها لكي تعطيه عطيتها وبينما هي تنزل جاءها الطلق على السلّم فولدت في مكانها... وإذا بها تلد توأمين ولد وبنت.

وكان الفقير ينظر إلى كلّ ما يحدث وهو يكاد يموت هلعاً، فقد كان مخططه أن يخرج من القصر ويهرب مع زوجته مباشرةً، فكيف سيتصرف الآن، وبينما هو

في حالته تلك انطلقت الزغاريد وجاءت إليه الخادمة تقبّل يديه وتقول له: صدقت تنبؤاتك.

وأمرت الملكة أن يعطى عطية تغنيه ما بقي له من حياة.

لم يصدّق ما حدث، وعاد ومن خلفه العبيد يحملون له العطايا، وطرق الباب على زوجته فرحاً وسعيداً بما حصل عليه من أموال، فاستقبلته بالزغاريد والقبل.

ومع الأموال التي حصل عليها قرّر أن يتوقف تماماً عن حكاية تفسير الأحلام والفتش عن الغيب، ووافقته زوجته على ذلك فالأموال التي حصلا عليها تكفيهما أبد الدهر.

وقامت زوجته من حينها بشراء قصر وعبيد وزيّنت بيتها علىٰ أحسن ما تكون عليه قصور الأثرياء.

وما هي إلاّ أيام حتى طلبه الملك، فجاء إليه الوزير وبعض الحاشية لإبلاغه بحاجة الملك إليه ليكشف له عن أمر.

دخل إلى زوجته كعادته لاعناً وشاتماً، وردّد على مسامعها: ما قلت لك أولها عسل وآخرها قطران؟!

فأخذت تلاطفه وتوصيه بتقوية قلبه، فلبس ملابسه، وخرج مع الوزير متجهين إلى قصر الملك.

وكان الملك قد فقد خاتم الملك، وبحث عنه في كلّ القصر ولم يجده، وبه جوهرة لا تقدَّر بمال، وهو خاتم تناقلته أسرته الملكية من أزمان غابرة.

وعندما عجز في بحثه أشارت إليه زوجته أن يستعين بالفقيه الذي كشف لها وأخبرها أنها ستلد توأمين وأنها لن تلد «فوق ولا تحت» فولدت على السلّم، وقبلها بشارته بعودة الجارية المطرودة، ولا زالت تحفّزه على استدعاء الفقيه ليكشف له عن خاتم الملك، إما أن ينجح في العثور عليه وإما أن يُقتل. وافق الملك على مقترح الملكة واستدعى الفقيه.

عندما وصل الفقيه إلى القصر وجد الملك في انتظاره وهو يداعب نعامة وقفت أمامه ويحنو عليها حنواً عظيماً، وعندما رأى الملك استغراب الفقية قال له: هذه النعامة أحبّ إليّ من أبنائي فلا تستغرب أني أدلّلها، ثم أراه يده وقال له: انظر

(وأراه بنصره)، فقدت خاتم الملك كان في بنصري وهو خاتم مرصّع بجوهرة لا تقدَّر بثمن، فإما أن تعثر على ضالتي وإما أن آمر السيّاف بقصّ رأسك.

أخذ الفقيه ينتفض ويهذي من شدة الخوف، وطلب مهلة من الملك لكي يقوم بنثر حجارته ومعرفة أين يمكن أن يكون الخاتم، فمنحه مهلة ساعة واحدة، إما الجوهرة وإما رأسه.

وانسحب الملك إلى مخدعة تاركاً الفقيه في بلاط الحكم.

وقف الفقية حائراً لا يعرف ماذا يصنع، وأخذ يتصوّر انقضاء المهلة وكيف سيقطع رأسه ويتدحرج على الأرض، فأصابه الهلع وأيقن من نهايته، فأخرج سبحته وأخذ في الاستغفار والتسبيح، ومن شدّة توتره انقطع خيط السبحة فتناثرت حبيباتها الكهرمانية على الأرض، فانكفأ يجمعها، وتدحرجت بعض حبيبات السبحة إلى الأمام فالتقمت النعامة بعضاً من تلك الحبيبات، فاستشاط غضباً وهمّ بقرع رأسها بعصا كان يحملها، وقبل أن يفعل ذلك كان الملك قد دخل إلى بلاطه ودخل معه الوزراء والقوّاد، فجلس الملك على كرسيه وخاطب الفقية أنّ المهلة الممنوحة له قد انقضت وعليه أن يخبره أين هو الخاتم.

فقال في نفسه إنه ميت ميت ولو هناك ثمن لرأسه فلتكن النعامة، فربما لا يقدم الملك على قتلها فينجو، وقد عرف محبته للنعامة عندما حكى له في بداية دخوله أنّ أباه قد وهبه إياها كهدية وأوصاه بها خيراً وأكّد له أنها مستودع ملكه.

كان الملك ينتظر ردّ الفقيه الذي تقدّم حتى قرب من عرش الملك وقال له: يا ملك الزمان خاتمك في بطن هذه النعامة.

نهض الملك عن كرسيه غير مصدّق قول الفقيه، وأخذ يستعيده لأن يتراجع عمّا قال، لكنّ الفقية أصرّ أنّ الخاتم في بطن النعامة، فقال له الملك: والله ثم والله ثم والله لو ما لقيتها في بطنها لأقتلك شرّ قتلة أنت وكلّ أهلك.

وكان الملك في غاية الكرب وهو يأمر بذبح النعامة، أما الفقيه فكان في حالة يرثى لها من الخوف والجزع، وأخذ يشتم زوجته في سره، ومن شدّة خوفه (سلح) على نفسه.

وقف الملك على من قام بذبح النعامة يشاهد ذبحها وفتح بطنها وهو مكفهر

حزين. قام الذباح بفصل (أمغالها) أمعائها والبحث فيها عن الخاتم، فوجد في أمعائها حجارة وحبات سبحة ووجد الخاتم في أسفل الأمعاء.

وعندما رأى الملك الخادم أخذه فرحاً وعاد إلى داخل القصر حيث كان يجلس الفقيه، وكان الفقية مغمضاً عينيه ينتظر أن يسمع مناداة الملك للسياف الذي سيقطع رقبته.

فرفع الملك صوته حتى سمعه كلّ من كان في البلاط: فقيهنا لا تُحجب عنه الحجب وقد صدق ووجدنا الخاتم في بطن النعامة وله ما يشاء من أموال.

لم يصدّق الفقية ما سمع ففتح عينيه ورأى الملك يرفع الخاتم ليريه الوزراء والقواد، فحمد الله وشكره أن نجّاه، واستأذن الملك في الخروج والعودة إلى بيته ليحسّن من هندامه وحالته.

فعاد وقد لحق به عبيد الملك يحملون صناديق من الذهب والفضة هدية للفقية.

وما أن علمت زوجته حتى رفعت (غطاريفها) زغاريدها فرحةً بما منّ الله على زوجها من نعم.

وكان الملك قد حزن حزناً شديداً على النعامة التي ذبحها ورغب في أن يقتصّ لها من ذلك الفقية، وأخذ يشتكي لزوجته عمّا أصابه من غمّ وقال لها: لقد ضحك عليّ هذا الفقيه، فقد وجدت حبيبات سبحته في بطن النعامة ويمكن أنه استنتج أنّ النعامة التقمت الخاتم...

فقالت له الملكة: اختبره، فإن لم يصدق اقتله لترتاح من همّك وغمّك.

فاتفق هو وزوجته على أن يسألاه عن شيء هما يعرفانه، وبعد تفكير قالت الملكة: ادعه إلى القصر واسأله عمّا يوجد داخل هذا الأنبوب، وقد وضعت في أسفل الأنبوبَ قطراناً وفي أعلاه عسلاً.

استدعى الملك الفقيه وزوجته، وكما حدث في المرّات السابقة أخذ يلوم زوجته على ما أدخلته فيه من كذب وادّعاء، وقال لها: أما هذه المرّة فلن ينقطع رأسي لوحدي فقد طلب أن تكوني معي، ولأول مرّة تخاف زوجته وتقول له: وانا اش خصي يطلبني؟ فقال لها: هذا طلبه.

تحرّك الفقيه وزوجته إلى القصر وتمّ إدخالهما إلى المقصورة الخاصة بالملك

فاستقبله وقال له: رويت لعمتي أنك مكشوف الحجاب ولم تصدّقني، وروت لها زوجتي ما أخبرتها به عن ولادته وما تحمل فلم تصدق، ونريدك أن تثبت لها بمقدرتك، وها هي معي هي وزوجتي التي أرادت أن تكون زوجتك كمالة للشهادة، ونريد العمة أن تصدّق ما نصدّق به، وإن لم تعرف فالنتيجة قتلك وقتل زوجتك معك... ورفع الملك الأنبوب وقال للفقيه: هه، ما تقول في ذا الأنبوب...

صمت تماماً وأيقن من موته وموت زوجته وأراد أن يخبرها بأنّ البدايات يمكن أن تكون جيدة لكنّ نهايات الكذب سيئة، فقال لزوجته بصوت مرتفع: أوله عسل وآخره قطران.

صاحت الملكة وهي تخاطب الملك: ما قلت لك انه مكشوف الحجاب.

ولم يصدّق الفقية ولا زوجته بنجاتهما بل وحصولهما على هدية قدّمتها لهما عمة الملك والملكة نفسها... وعادا إلى البيت غير مصدقين بما حدث.

ولم تمضِ أيام حتى استدعاه الملك للمرة الثانية وطلب منه أن (يكشف) سبب تأخر سفن خرجت للتجارة ولم تعد وكان من المفترض أن تصل منذ أسبوعين، فإن عرف سبب تأخّر السفن كان فقيهاً حقاً وإن لم يعرف يكون أفّاقا استطاع أن يستثمر عقله في كلّ التجارب التي مضت، وهذا يستوجب قتله.

فطلب المهلة وخرج لاعناً زوجته وأن ما هو فيه لن ينتهي إلاّ بفصل رأسه، ومن شدّة غمّه وهمّه خرج على وجهه وقد دخل الغروب وهو يتطلع إلى البحر الواسع ويقول في نفسه: كيف أعرف ما حدث لهذه السفن وأنا لم ابحر في حياتي؟ وظلّ يمشي على الشاطىء فإذا بصياد يستقبل صديقاً له ويسأله عن أحواله، فأخذ الصديق يروي للصياد كيف نجا من موت محقق حين هبّت الرياح وارتفعت الأمواج وضاعت كثير من السفن في وسط البحر ومنها سفن الملك وتجار البلد، وأنهى حديثه بأنّ السفن تجمّعت من جديد وأبحرت في طريق العودة وأنه سبقها ليبشّر التجار بسلامة تجارتهم.

عاد الفقيه مباشرةً إلى الملك وقال له: يا ملك الزمان خرجت وقلّبت بصري في السماء واطّلعت على ما هو كائن، ونشرت حجارتي، فعلمت أنّ السفن تعرّضت للعاصفة هوجاء وقد ضاع بعضها في وسط البحر ومرّ البحارة بليال متعبة ولمّا هدأت العصفة تجمّعت سفنكم وهي الآن في طريق العودة... فقال له الملك: متى

تصل؟ فاحتار الفقيه وندم لأنه لم يسأل ذلك الصياد عن موعد احتمالية عودة السفن، وأراد أن يبعد الملك عن هذا السؤال باختلاق حكاية السبع الذي مات وهو ينتظر وليفته التي خرجت للصيد ووقعت في الأسر، فظنّ السبع أنها خائنة فقتل نفسه، وأراد من هذا المثل أن يقول للملك: إنّ الصبر والانتظار خير من العجلة، وعندما أعاد الملك سؤاله: متى تصل السفن؟

رفع الفقيه صوته كي يبدأ حكايته فقال: ذكّرتني بسبع. . .

فعلّق المعلّق: سبعة أيام. . .

فصمت الفقيه ولم يزد فقال الملك: في اليوم الثامن إن لم تظهر السفن قتلتك.

عاد الفقيه إلى زوجته ككلّ مرّة يلعن ويشتم ويقول لها: بسبب فكرتك كلّ يوم أنا في ورطة. . . ولا زالت تواسيه وتقول له: ربنا يفرّجها كما فرّجها في المرات السابقة.

انقضى الأسبوع سريعاً وحلّ اليوم الثامن وكلّ أهل المدينة وقوف على الشاطىء انتظاراً لقدوم الزمن ودخل الغروب، فقال الملك: وجب قتل الفقيه فقد كذب علينا. . .

وأمر أن يستعدّ الفقيه للقصاص فترك الناس مطالعة البحر وانتقلوا إلى مشاهدة القصاص، فقرفص الفقيه وأخذ يلعن زوجته في كلّ كتاب ويصدر حركات متصوراً لو أنها بجوره لسحبها من شعر رأسها وقدّمها للسيف قبل أن تقطع رأسه، وعندما رفع السيّاف سيفه سمع الجميع نفير البواخر ورأوا أضواءها القادمة من بعيد.

فأوقف الملك الحكم وأعلن صدق وكرامة الفقيه، فانقلب الناس فرحين يحكون كيف أنّ الفقيه كان يسحب البواخر سحباً لكي تظهر قبل أن تُقصّ رأسه، ولولا سحبه لها واستعجالها لما ظهرت ولكان ميتاً الآن.

وذات نهار تناقل الناس موت زوجة الملك حتى إذا دخلت عليها المغسّلة لتغسيلها التصقت يدها بجسد الميتة ولم يقدر أحد على نزع يد المغسّلة، وقد احتار الملك فيما يصنع، فأشار إليه جلساءه أن تُقطع يد المغسلة لكي تدفن الملكة أو يقطع شيء من جسد الميتة، إلاّ أن الرأيين لم يطمئن لهما الملك، وقد استجاب لرأي وزيره الأول بأن يتم استدعاء الفقيه لمعرفة رأيه في هذه الحادثة الغريبة.

استحسن الملك رأي وزيره وتمّ استدعاء الفقية الذي ألقى بشتائمه المعتادة على زوجته فهوّنت عليه الأمر وقالت له:

- اطلب أن تنفرد بالمغسلة وإذا انفردت بها أخرج خنجرك وتظاهر بأنك راغب في قطع يدها وسوف تخاف وتسحب يدها.

وعندما وصل الفقيه إلى القصر كان الجميع في استقباله، فطلب رؤية الحالة، فأفسحوا له المكان، وعندما شاهد الوضع طلب من الملك أن يُترك لوحده مع المغسّلة، وحالما انفرد بها سلّ خنجره من وسطه وقال للمغسلة:

- أخبريني ما الذي حدث حتى التصقت يدك بالجثة؟

فارتبكت المغسلة وقالت: بمجرد أن رششت الماء ووضعت يدي على الجثة حتى التصقت...

فقرّب الخنجر من يدها وقال لها:

- سأقطع يدك إن كان ما تقولينه صحيحاً.

ومرّر خنجره على معصمها فصاحت به: لقد كذبت يا مولانا.

فقال لها: اصدقيني.

فقالت له: عندما رأيتها موسدة قلت في نفسي كم رجل فعل بك كيت وكيت...

هزّ الفقيه رأسه وخرج قائلاً للملك: أعطني خيزران واختر من يحضر الواقعة...

استغرب الملك طلبه لكنه استجاب وأمر خادمه بجلب خيزران ووقف مع الخلّص من رجاله على باب الغرفة لينظروا ماذا يحدث، فكانوا يسمعون صراخ المغسّلة من شدّة الضرب، وبعد لحظات خرجت المغسلة ومن خلفها الفقية وهو يقول للملك:

- ادفنوا ميتتكم.[1]

---

(١) كما سبق وأن اشرت في أكثر من موقع بأن الحكايات يتم بناءها باستعارة حكايات أخرى لكي تدخل ضمن لحمة القصة بينما هي خارج سياق النص أصلاً، وهذه الجزئية هي استعارة لقصة أنس بن مالك التي امتلأت بها كتب التاريخ، والقصة المستعارة هنا تقول: إنّ امرأة من نساء =

آمنت كلّ البلد بكرامة الفقيه وأصبح مبجّلاً ومقدّراً من قبل الجميع وأصبح الناس يحظّون ببيته من كلّ مكان متمسحين به وطالبين بركاته.

وأمام كلّ هذه الكرامات عاب الملك على أهل المدينة عدم الاستفادة من الفقية في صلاة الجمعة، فتحمّس الجميع لدعوة الفقية لأن يكون خطيباً عليهم في يوم الجمعة، وأبلغوه أنه سيخطب ويئمّ بهم صلاة الجمعة القادمة.

وكالعادة اتّجه لزوجته لاعناً ساخطاً ومخاطباً إياها فيما يصنع وهو الذي لا يعرف قراءة الفاتحة، فأخذت تصبّره وتقول له: لو أنك قلت ما قلت فسوف يسمع

= المدينة المنورة ماتت، ولما ماتت جيء لها بالمغسّلة لتغسلها، ولما وُضع الجثمان ليُغسل، وجاءت المغسلة تصبّ الماء على جسد الميتة، وبينما هي تصبّ الماء على فرجها إذ ذكرتها بسوء وقالت: كثيرا ما زنا هذا الفرج. فماذا حدث؟ هل يترك الأمر هكذا وإن كان المقذوف بالزنا ميتاً؟! فماذا حدث؟ لقد التصقت يد المغسلة بجسم الميتة، التصقت كأنّ مغناطيسًا شديد الجذب جذبها، بحيث أصبحت لا تقوى على تحريك يدها، وأغلقت الباب حتى لا يراها أحد على هذه الحال، وأهل الميتة في خارج الحجرة ينتظرون تكفين الجثة؛ أنحضّر الكفن؟ فتقول المغسلة: مهلاً. أنحضر الكفن؟ فتقول: مهلاً. ودخلت إحداهن فوجدت الموقف هكذا، وظلّ الموقف على ما هو عليه، وأخذوا رأي العلماء في يد المغسلة والميتة. قال أحد العلماء: «نقطع يد المغسّلة لتدفن الميتة... فإنّ دفن الميت أمر واجب»، وقال بعضهم: «بل نقطع قطعة من جسد الميتة لنخلّص المغسّلة فإنّ الحي أولى من الميت».

واحتدم الخلاف، ووقف علماء المدينة حائرين: أيقطعون يد المغسلة أم يقطعون قطعة من جسد الميتة؟ وأخيراً اهتدوا إلى أن يسألوا الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، قالوا: كيف نختلف وبيننا الإمام مالك؟ ذهبوا إلى الإمام مالك وسألوه، وإذا بالإمام مالك يأتي على جناح السرعة، وسألها من وراء حجاب، وقال لها: ماذا قلت في حقّ الميتة؟ قالت: يا إمام، لقد رميتها بالزنا. قال الإمام مالك: تدخل بعض النسوة على المغسّلة وتجلدها ثمانين جلدة... مصداقاً لقول الله جلّ في علاه: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ [النور: ٤]، ودخلت النساء وجلدن المرأة المغسلة القاذفة، وبعد تمام الجلدة الثمانين رفعت يدها عن جسد الميتة. من هنا قيل: لا يُفتى ومالك في المدينة".

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أنّ هذة القصة واهية. فسند القصة به علل كثيرة منها راوي يُدعى «يعقوب بن إسحاق العسقلاني»، وقد قال الإمام الذهبي في حقه إنه كذاب، وعليه هذا فالقصة... موضوعة!!! وسند القصه بها عدّة رواة اشتُهروا بالتدليس والكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم. (الموسوعة الشاملة - سلسلة الأحاديث الواهية).

لك الناس ويصدقونك وأغلبهم لا يعلم من أمور دنياه أكثر مما تعلم.[١]

وفي يوم الجمعة ألبسته زوجته أحسن الثياب وبخّرته وأوصته بالإكثار من التمتمة وأن يختصر كلامه قدر ما يستطيع.

وصل إلى الجامع وفجع بأعداد الناس المتزاحمة داخل الجامع، فقاده حرس الملك وأوصلوه إلى المنبر، فجلس، وظلّ المصلون ينتظرون منه أن ينهض للقاء الخطبة فلم ينهض، فقد سرح في خواطره وتخيّل أنّ زوجته في مثل هذا الوقت تدخل المطبخ وتكشن الحوت، تخيّلها تلقي الحوت في مقلاة مليئة بالزيت الحار، فرفع يده متمثّلاً غليان الزيت وتخيّل أنّ زوجته تلقي بالحوت داخل المقلاة فأصدر نفس صوت القلي بالتقاء جلد الحوت بذلك الزيت، ومع حركته تلك هطل مطر غزير فجأةً فتصايح المصلون بركاتك يافقيهنا... وفسّروا حركاته وصوته أنه يخبر عن هطول المطر، ومع تهليلهم وتكبيرهم انفجع وتخيّل أنّ المقلاة سقطت على زوجته، فأخذ يصيح: سقط... سقط!

ومع تحذيراته تشقّق سقف المسجد وأخذت تتساقط لبناته وسقفه على المصلين، فتراكض المصلون إلى خارج المسجد جميعهم... وبعد هذه الحادثة لم يختبر أحد قدراته وآمنوا أنه فقيه مكشوف عنه الحجاب.

رواية عائشة عجيبية

---

(١) تحمل الكتب حكايات طريفة حول المتحدّثين وأصحاب الغفلة، ومن يسلك طريق البحث عن مثل هذه الملح سيجد الكثير منها، خاصةً في كتاب الحمقى والمغفلين لابن الجوزي وكتاب المستظرف في كل فن مستظرف لإبراهيم شمس الدين الإبشيهي، وهذه إحدى تلك الملح: قدّم رجل ابنًا له إلى القاضي فقال: أصلح الله القاضي، إنّ هذا ابني يشرب الخمر ولا يصلّي. فقال له القاضي: ما تقول يا غلام فيما حكاه أبوك عنك؟ قال: يقول غير الصحيح. إني أصلي ولا أشرب الخمر. فقال أبوه: أصلح الله القاضي، أتكون صلاة بلا تلاوة؟ فقال القاضي: يا غلام، تقرأ شيئًا من القرآن؟ قال: نعم، وأجيد القراءة. قال: اقرأ! فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، علق القلبُ ربابًا بعدما شابت وشابا إنّ دين الله حق لا أرى فيه ارتيابا! قال أبوه: والله أيها القاضي ما تعلّم هاتين الآيتين إلاّ البارحة، لأنه سرق مصحفًا من بعض جيراننا! فقال القاضي: قبّحكما الله! تقرآن كتاب الله ولا تعملان به!

حجاز بن مرجاز صاحب الحصن الزجاج

كان ياما كان، كان في زمان من الأزمان ملك ولديه سبع بنات يحبهنّ حبّاً كبيراً، وفي سنة من السنوات قرر أن يحجّ، فأعلن في البلد عن عزمه على الخروج إلى حجّ هذا العام ومن أراد مصاحبته فليتجهّز.

فأخذ الناس الراغبين بالتجهز والاستعداد ريثما يعلن الملك عن موعد سير القوافل.

وقد علمت بناته بسفر أبيهن وأخذت كلّ واحدة منهنّ تفكر في الهدية التي ستطلب من أبيها إحضارها لها من بلد الحجاز، وكانت هناك امرأة عجوز تمرّ عليهنّ بين الحين والآخر وتعرض بضائعها عليهنّ ليشتروا منها. وفي تلك الأيام مرّت عليهنّ فأخبرنها بسفر أبيهنّ وأنه سيجلب لهنّ ما يردن من الحجاز وأعرضن عن بضاعتها إلاّ الاميرة الصغيرة فقد طيّبت خاطرها واشترت منها، وقبل أن تغادرها المرأة العجوز قالت لها: لو سألك أبوك متشين من الحجاز قولي له... أشا حجاز بن مرجاز صاحب الحصن الزجاج.

ولكي لا ينسى تحقيق طلبها أوصت العجوز الأميرة أن «تذمم» ناقته التي سيسافر عليها.

استمعت الأميرة لنصيحة العجوز وقررت أن تنفذها، وفي يوم سفر الملك اختلى ببناته السبع لوداعهن، وقال لهن: ماتشون من الحجاز؟

قالت الكبيرة: أشا بخور جاوي، وقالت الثانية: أشا بز هندي، وقالت الثالثة: أشا ذهب من دقة صاغة الحجاز، وقالت الرابعة: أشا رشرش ماله مثل، وقالت

الخامسة: أشا خواتم، وقالت السادسة: أشا مصار وكرت، وقالت الصغيرة: أنا أشا حجاز بن مرجاز صاحب الحصن الزجاج...

فودّعهن أبوهن وخرج ليركب ناقته، فلحقت به بناته لوداعه، وكانت ناقته باركة فركبها وقبل أن تنهض «حلطت» الأميرة الصغيرة برقبة الناقة و«ذممتها»[1] أن لا ينسى أبوها طلبها.

وخرج الملك من قصره راكباً ناقته وانضمّت إليه بقية القافلة و«شيموا» للحجاز.

انقضى الحجّ واستعدّ الحجّاج للعودة إلى بلدانهم، وخرج الملك إلى الأسواق المجاورة للبيت الحرام، واشترى لكلّ بنت من بناته ما طلبته وزيادة، واستعدّت

---

(١) التذميم في الجنوب يعني تحميل الأمانة، ومن يذمم عليه حمل وتنفيذ ما تذمم به. والمذمم متى ما لم ينفذ ما ذمم به لا يجانبه التوفيق في أي شيء يعمله.
والذِمَّة مفرد، وجمعها «ذِمَم»، ولها معان كثيرة منها العهد والميثاق وأمانة الضمير، ويُقال: "فلانٌ لا ذِمَّةَ له- رعاية الحقوق والذِّمم- عديم الذِّمَّة: لا ضمير له، «فَإِنَّهُ مَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ» [حديث]- (كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً) إبراءُ الذِّمَّة: إرضاء الضمير- بذمَّتي/ بالذِّمَّة: قَسَم- براءةُ الذِّمَّة: شهادة تفيد الخلوّ من المسئوليَّة الماليَّة أو الجنائيَّة. بريء الذِّمَّة: خالص من الدَّيْن أو حقوق الآخرين. بلا ذِمَّة: جَبْرًا، قهرًا، غَصْبًا. بينهم ذِمَّة: أُلفة. طاهر الذِّمَّة: شريف، نزيه، أمين. على ذِمَّة فلان: على عُهدته. فلانٌ في ذِمَّة الله: مات، في كنفه وجواره. في ذِمَّة التَّاريخ: منسيّ، جزء من الماضي. قِلّة الذِّمَّة: قلّة النزاهة والأمانة. هذا الخبر على ذِمَّة فلان: على عهدته ومسئوليّته.
ويأتي في هذا السياق ذكر أهل الذِّمَّة المعاهَدون من النصارى واليهود ممَّن يُقيمون في دار الإسلام، وسُمُّوا بذلك لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم. (معجم اللغة العربية المعاصرة ج١ ص٨٢١). وكان القسم بالأمانة أمراً دارجاً إلى وقت قريب مع أنّ هناك حديث للرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «من حلف بالأمانة ليس منا»، والتذميم كشرط ملزم يتواجد بين الناس كعادة دارجة من غير التحرّز في استخدامها وإن بقيت مغلظة في الضمير، فإن أردت تحميل الآخر أيَّ رغبة بالقول: ذممتك، أو تحميله حق أنكره بالقول: في ذمّتك.
وإن كانت الذمة تقابل الأمانة في مفهوم العامة، فهي بذلك أخذت صفة الإلزام من كثير من الآيات القرآنية التي تشير إلى هذا، فالله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [سورة النساء، ٥٨]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [سورة المؤمنون، ٨]. ويقول عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال، ٢٧].

القافلة للعودة، ركب الملك ناقته فلم تتحرّك من مكانها، وكلّما وجّهه لجهة السير بركت، فاستغرب أشدّ الغرابة، وكان بالقافلة رجل يعرف الأسرار والأخبار، فقال للملك: ناقتك يا ملك الزمان مذمّمة وما تمشي إلاّ بعد ما تحقّق المذمّمة به.[1]

أخذ الملك يتذكّر ما هو الأمر الذي نسيه، وبعد جهد تذكّر أنه لم يشترِ لابنته الصغرى ما طلبته، فعاد إلى أسواق مكة[2] يسأل الباعة عن حجاز بن مرجاز صاحب

---

(١) وهناك من يرى أنّ العبادات كلها هي من الأمانات تماشياً مع الآية القرآنية ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا﴾ [سورة الاحزاب، ٧٢].
وقد اختلف اختلافاً كبيرا في ماهية الأمانة، فابن عباس يقول: إنها الفرائض، وقال (أي ابن عباس): عرضت على آدم فقال: خذها بما فيها، فإن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبتك. قال: قبلت، فما كان إلاّ قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة. وقال آخرون: هي الطاعة. وقال أبي بن كعب: من الأمانة أنّ المرأة اؤتمنت على فرجها. وقال قتادة: الأمانة الدين والفرائض والحدود. وقال بعضهم: الغسل من الجنابة. وقال مالك عن زيد بن أسلم قال: الأمانة ثلاثة: الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة.
وثمّة تفسير متأخّر للأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال راق لي بالقول إنّ الأمانة هي الحرية، وللأسف لا أتذكّر اسم قائل هذا القول كاملاً، فقد استمعت إليه في إحدى القنوات، وأمسك باسم نشأت ولا أدري هل هو اسمه الأول أم الثاني.
ولثقل الأمانة يمكن هنا استحضار قصة نزول سورة المائدة، فقد قال الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد، قالت: إني لآخذة بزمام العضباء، ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ نزلت عليه سورة المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة. وقال الإمام أحمد أيضاً، عن عبدالله بن عمرو قال: أنزلت على رسول الله -صلى الله عيه وسلم- سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها. وروى الترمذي عن عبدالله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: آخر سورة أنزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾، وعن جبير بن نفير قال: حججت، فدخلت على عائشة فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلّوه، و ما وجدتم فيها من حرام فحرّموه. لأن العضباء (ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم) لم تحتمل ثقل ما جاء به القرآن من أمانة فقد كادت من ثقلها أن تدقّ عضد الناقة.

(٢) للأسف الشديد تم طمس كثير من آثار مكة المكرمة وغابت كثير من الأسواق والمعالم التاريخية والأثرية ومع توسع الحرم المكي لا يعرف أحد كيف تم التعامل مع المطمور من آثار وإذا آمنا بأن مكة هي أول بيت وضع للناس لقوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ =

الحصن الزجاج، فيستغربون من سؤاله ويتضاحكون، وحدث هذا مع الكثير من الباعة، وقال آخرهم: تريد شراء حجاز بن مرجاز؟ فقال له: نعم، فقال: هل تعرف ما هو؟ فقال الملك: لا، فقال له البائع: هذا ابن ملك من ملوك الدنيا ودلّه على قصره.

= مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٩٦ - ٩٧).

وأن تكون مكة أول بيت وضع للعبادة فهذا يعني أنها امتلكت حضارة قديمة جداً ويعني أيضاً أنها كانت مدينة جاذبة لأجناس وأعراق مختلفة، وآثار مكة ذكرت في كثير من كتب التاريخ العربية. أوردها الدكتور فاضل الربيعي في كتابه **أبطال بلا تاريخ**.

١ - فقد أخبر ابن هشام (في كتاب السيرة النبوية) أن العرب عثروا على نقوش باللغة السريانية تحت الكعبة وينقل عن ابن اسحق قوله (إن قريش وجدت في الركن اليماني كتاباً بالسريانية فلم يدروا ما هو حتى قرأ لهم رجل من اليهود، فإذا هو: إن الله ذو بكة خلقتها يوم خلق السموات والأرض وصورت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى تزول أخشابها (جبلا مكة) مبارك لأهلها في الماء واللبن).

٢ - وقال ابن إسحاق (وحدثت أنهم وجدوا في المقام كتاباً فيه : مكة بيت الله الحرام يأتيها رزقها من ثلاثة سبل لا يحلها أول من أهلها).

٣- وقال ابن هشام نقلاً عن ابن إسحق (إن العرب عثرت على حجر كتبت فيه عظة. قال ابن إسحق: وزعم ليث بن أبي سليم أنهم وجدوا حجراً بالكعبة قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة أن كان ما ذكره حقاً مكتوب فيه: من يزرع خيراً يحصد غبطة ومن يزرع شراً يحصد ندامة).

٤ - ويزعم ابن هشام في السيرة أن العرب عثرت في وقت ما على نقش قديم تحت الكعبة وفيه: لمن ملك الدمار؟ للحبشة الأشرار لمن ملك الدمار؟ لفارس الأحرار لمن ملك الدمار؟ لقريش التجار؟

٥ - ويقول الأزرقي صاحب أخبار مكة في رواية مرفوعة بإسنادها إلى علي ابن ابي طالب رضي الله عنه قال: لما احترقت الكعبة في الجاهلية هدمتها قريش لتبنيها عن ركن من أركانها من الأساس فإذا حجر فيه مكتوب: أنا يعفر بن عبد قرا أقرأ على أبي السلام من رأس ثلاثة آلاف سنة.

وما صلة هذه الأحجار بما يُعرف بـ حجر الزاوية في العقائد القديمة للعرب؟ إن أخبار الانفة تفيد بأن القبائل عثرت على الأحجار النقوش في زوايا البيت الحرام في الركن اليماني - **أبطال بلا تاريخ** - فاضل الربيعي - دار الفرقد.

ولأنّ القافلة معطّلة ولم يستطع الملك الخروج من مكة، ذهب إلى قصر حجاز بن مرجاز، فانبهر لذلك القصر الزجاجي، فكلّ ما بذلك القصر قد شيّد بالزجاج الفاخر، واستأذن على الملك حجاز بن مرجاز وعرفه بأنه أحد ملوك الأرض وحكى له قصة طلب ابنته الصغرى، فضحك حجاز بن مرجاز ورحّب بالملك وأبقاه ضيفاً لثلاث أيام، وعندما ودّعه أعطاه بخوراً وريش نعام وقال له: أعطي ابنتك هذا البخور وهذا الريش وقل لها: هذا هو حجاز بن مرجاز.

استغرب الملك ممّا أعطاه حجاز لكنه أخذ البخور والريش وعاد إلى قافلته، وما إن امتطى ناقته حتى انطلقت مهرولةً تسبق بقية النوق والجمال.

وصل الملك إلى بلاده فتمّ استقباله أحسن استقبال، ودخل على بناته وأعطى كلّ واحدة ما طلبت، وعندما جاءت ابنته الصغيرة أعطاها البخور والريش وقال لها: هذا ما طلبتي، فقالت له: أنا طلبت حجاز بن مرجاز صاحب الحصن الزجاج مش ريش وبخور.

قال لها أبوها: هذا هو حجاز بن مرجاز وتعبت وأنا أدور عليه.

استغربت الاميرة الصغيرة وندمت لأنها سمعت كلام تلك العجوز، وظلّت تنتظر رؤيتها لكي تلومها، وكان أبوها كلما مرّ بها رآها حزينه، فيواسيها ويداعبها ويسألها: ما بال القمر كاسف؟

وينادي على بعض الخادمات صائحاً: اقلبوا المطاحن.[1]

---

(١) الكسوف للشمس، وهي ظاهرة فلكية تحدث عندما تتوضع الأرض والقمر والشمس على استقامة واحدة تقريباً ويكون القمر في المنتصف، أي في وقت ولادة القمر الجديد عندما يكون في طور المحاق مطلع الشهر القمري بحيث يلقى القمر ظله على الأرض، وفي هذه الحالة إذا كنا في مكان ملائم لمشاهدة الكسوف سنرى قرص القمر المظلم يعبر قرص الشمس المضيء.
إلاّ أنّ التعبير الدارج في مخاطبة المرأة الجميلة بالقول لها: ما بال القمر كاسف، ولا تستخدم كلمة خاسف كونها تحمل دلالة الخسف، وهو العذاب الذي تحمله الذاكرة الشعبية للخسف الذي حدث مثلاً لقوم لوط، وأهل الحجاز يستخدمون مفردة الكسوف بمعنى الخجل.
وخسوف القمر هو المحو أو النقصان، ويوصف به القمر حين يظلم، وإذا حال جرم الأرض بين القمر والشمس منع وصول نور الشمس إلى القمر فيظلم، ويحصل غالباً في أنصاف الشهور.
=

فينشرح خاطرها وتضحك في وجهه وتقول له: ما بي شيء.

مرّت أيام وهي على حالها من السرحان والأسف أنها لم تطلب شيئاً تفاخر به مثل أخواتها، وفي صبيحة أحد الأيام دخلت العجوز إلى القصر لتعرض على الأميرات ما تحمله من بضائع، فانفردت بها الأميرة الصغيرة وقالت لها: أخواتي حصلن على أشياء فنّ وأنا جبلي ريش وبخور، وكلّ هذا بسببك.

ضحكت منها العجوز وأخبرتها أنها حين تريد حجاز بن مرجاز تتزيّن وتجلس في غرفتها وتتبخّر من البخور وتحرق ريشة النار في البخور الذي تبخرت به...

انشغلت الأميرة بالحديث الذي أخبرتها به المرأة العجوز وأرادت أن تجرّب لتعرف ما هو حجاز بن مرجاز: إنسان ولاّ طير ولاّ إيه.

وفي تلك الليلة دخلت غرفتها بعد أن اغتسلت وتنظّفت وتزيّنت، وجاءت بالمجمر ووضعت به قليلاً من البخور وتبخّرت به، ثم أحرقت واحدة من ريش النعام، وفي لحظات تصاعد دخان كثيف وتكوّن إعصار أخذ يحوم داخل الغرفة للحظات، وعندما انجلى كان يقف أمامها طائر يهزّ ريشاً تعدّدت ألوانه وينفضهما، وكلما نفض ريشه تبدّلت حالته حتى اكتملت صورته على صورة شاب في غاية الجمال والوسامة[1] ففزعت، فأخذ الشاب يهدّيء من خاطرها ويقول لها: انت اللي طلبتي حجاز بن مرجاز... وأنا حجاز.

= ومن عادات أهل القرى في جنوب الجزيرة العربية عند خسوف القمر تقوم النساء بقلب المطاحن (جمع مطحنة وهي آلة حجرية تستخدم لطحن الحبوب) ورشّها بالماء كاعتقاد أنّ عملهن هذا يساعد القمر على رؤية طريقه والعودة إلى مساره.

وظلّ هذا الموروث الأسطوري قائماً كبقايا من تقديس إلاهين كانا يعبدان في فترة زمنية سحيقة، وبالرغم من التنبيه الإسلامي لهذا الأمر في قول الله عزّ وجلّ (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون)، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعو الله وكبّروا وصلّوا وتصدّقوا».

إلاّ أنّ بقايا التقديس الأسطوري بقيت كعادات تمارس كفعل لا يتمّ البحث عن منبع جذره الأسطوري.

(١) حالة التشكل على هيئة طير أو حيوان هي حالة أسطورية وردت كثيراً في الميثيولوجيا العالمية، وقد يكون أشهرها أسطورة الرجل الذئب الذي يتّخذ من هيئة الذئب وسيلة للتخفي =

وعندما هدأت استأنست بوجوده وظلا يتحدثان لوقت طويل، وقد راقت الأميرة لحجاز بن مرجاز، فبقي معها لليلة الثانية، وأحس أنه مجذوب إليها فبقي لليلة الرابعة والخامسة، وبلغ الشهر وهو يجالسها ويتحدّثان في كلّ شيء، وأوصاها أن لا تخبر أحداً عن وجوده، وأخبرها أيضاً أن لا أحد سيراه على حالته هذه، بل سيرونه على أنه طائر فلا تخبر أحداً عن هيأته الحقيقية، وحذّرها لو أنها أخبرت أحداً بأنه أمير جاء لتلبية طلبها من آخر الدنيا فلن تراه أبداً، فقد عقدت الساحرة سحرها على موته لو أنّ أحداً عرف أنه انسان سيسقط ريشه ويخرج من بطنه دود يأكل جسمه حتى لا يبقى منه شيء،[1] فعاهدته أن لا تخبر أحداً.

= ليلاً ومع حلول الفجر ينسلخ عنه الجلد فيخبئه في مكان ما، فإذا خبّأه في مكان حار يظلّ طوال اليوم يشعر الحرّ حتى لو كان الجو صقيعاً، والعكس إن خبّأه في مكان بارد، وعلى الرجل الذئب تخبئة جلده في مكان لا يصل إليه أحد لأنّ من يجد الجلد ويحرقه يموت الذئب في الحال.

ويتواجد الرجل الذئب في الأماكن التي لا توجد بها ذئاب، في هيئة حيوان آخر مفترس، والرجل الذئب هي التيمة نفسها حين يوجد الرجل التمساح أو الرجل الدب، وتتطور فكرة الرجل الذئب في بلاد اليونان حيث تذهب المعتقدات عندهم بأنّ الرجل الذئب يصبح مصاصاً للدماء بعد موته ودفنه. . .

وفي الأساطير الجنوبية يحضر الرجل الذئب في مسميين هما النباش والعراج، فالنباش هو الضبع والعراج هو الذئب، وكلاهما يمثلان حيواناً أسطورياً يجوب المنطقة لإحداث الرعب أو تيمة أسطورية لاكتمال الحكاية.

وفي هذه المجموعة سوف ترد قصص للنباش والعراج.

(١) في هذه الجزئية استعادة لأسطورة العنقاء، فمع تقدّم حدث القصة تعود أيضا إلى تلك الأسطورة بالقول إنّ وجه الأمير تحوّل صوب مشرق الشمس لكي يموت بهدوء، وقد روى بلاتيني قصة العنقاء بأنها طائر العرب الشهير الذي يبلغ حجمه حجم النسر، له ريش ذهبي ناصع حول عنقه بينما لبقية جسمه لون قرمزي فيما عدا الذيل أزرق اللون، وعنقه مزيّن بعفرة، أما رأسه فله تاج من الريش. وهذا الطائر مقدّس لدى الشمس، وحينما يكبر في السن يبني عشاً من القرفة وحبّات البخور ويملأه بالعطور ثم يمدّد جسمه ليموت. ومن عظمه ونخاعه تتولّد دودة صغيرة الحجم تتحوّل إلى طائر صغير يكون أول عمل له القيام بدفن سلفه ثم يحمل عشه بأكمله إلى مدينة الشمس بالقرب من باعنخاي (جزيرة سقطرة باليمن)، وهناك يضعه على المذبح المقدس، ومع دورات السنة العظيمة تظهر دودة جديدة مرة أخرى لتعيد نفس المنوال كما فعل الطائر الأول في الفصول وعند ظهور النجوم. =

وقد افتقد ابوها وأخواتها غيابها، فذهبوا إليها في غرفتها، فتحوّل حجاز بن مرجاز إلى صقر.

واستغرب أبوها من وجود صقر في غرفتها وسألها عنه فقالت له: هذا طلبي اللي طلبته منك، هذا حجاز بن مرجاز، فضحك الملك وقال لها: ليس صحيحاً فقد رأيت حجاز. وتمنّت لو أنها تقدر أن تقول له إنه حجاز بشحمه ولحمه، لكنها تذكرت تحذير حجاز بأن لا تخبر أحداً عنه.

تقافزت أخواتها لرؤية حجاز بن مرجاز وفوجئن أنه طائر فأخذن يتنقلن به في جنبات الغرفة ويهشنه فيطير من مكان لآخر. وعندما خرجن عاد حجاز إلى هيئته، فأخذت تسأله عن سبب بقائه على شكل طائر، فقال لها إنّ سحراً صُنع له.

وحكى لها قصة ساحرة أرادته لابنتها وعندما امتنع هدّدته بأن تسحره فلا يقرّ له مكان، فاستهزأ بها وبما تقول، فسحرته، وقد أحضر أبوه كلّ السحرة لفكّ سحرها إلاّ أنّ السحرة عجزوا وقالوا لأبيه: إنّ سحره ليس ثابتاً في مكان، فكلّما كشفنا عليه انتقل إلى جهة أخرى ولا نعرف أين وضعت الساحرة السحر، فأخذت الأميرة تبكي لوضعه، فخفّف عنها، وقال لها: ربنا قادر على أن يعينني ويخلّصني من هذا السحر.(1)

= وجاء في سفر أيوب: «ثم ساموت في عشي وسأضاعف عدد أيامي كما فعل خور» (أساطير من تاريخ اليمن: حمزة علي لقمان، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٨٨، ص١٦)

(١) يحضر السحر دائماً في الحكايات الشعبية كعقدة حكائية يستوجب فكّها، ولكي يفكّ فإنّ الأحداث تتشعب بحثاً عن مخلّص. وقصة وجود السحر بدأت مع هاروت وماروت وهما المقصودان في قوله تعالى: ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ [سورة البقرة] وهي القصة التي وردت في كثير من كتب التاريخ، فعن ابن عباس قال: لما كثر بنوآدم دعت عليهم السماء والأرض والجبال والملائكة: ربنا أهلكهم، فأوحى اللّه تعالى إلى الملائكة: إني لو أنزلت الشيطان والشهوة فيكم منزلتهما من بني آدم لفعلتم كما يفعلون؛ فحدّثوا أنفسهم بأنهم إن ابتلوا سيعتصمون، فأوحى الله إليهم أن اختاروا من أفضلكم ملكين فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض حكمين وهبطت الزهرة في صورة امرأة. (أين التتمة؟)

وأهل فارس يسمونه بيدخت، وكان الملائكة قبل ذلك يستغفرون للذين آمنوا فلما وقعا. (أين التتمة؟)

=

ظلّ حجاز بن مرجاز يعيش مع الأميرة في غرفتها لشهور طويلة ولا أحد يعرف كنهه، وكلما سأل الملك عن ابنته الصغيرة تضاحكت أخواتها وقلن: هي مع اميطير ما تخرج.

وفي ليلة قال حجاز بن مرجاز للأميرة: أنا أطلت الغياب عن أهلي وراغب اسافر لرؤيتهم. فأخذت الأميرة الصغيرة تبكي حين أحست بموعد الفراق، ورجته أن يبقى لأسبوع حتى تقرّ نفسها وتوطّنها على الفراق. وافق حجاز على المكوث لأيام. . .

وأخذت تدرّب نفسها على الخروج من الغرفة كي تسلى عنه، فاستقبلتها أخواتها ساخرات منها ومن بقائها مع طير، وكانت بها رغبة ملحة أن تخبرهن أنه ليس بطير بل شاب في غاية الجمال، وعندما أكثروا من المزاح والسخرية قالت لهن: هذا شاب طلعته ولا القمر وهو خليفة أبوه على مملكته. . . فتضاحكن منها ومن ادّعائها، فقالت لهن: ولو طلع مثل ما قلت ما تهبونه لي. . .

فقالت أختها الكبرى: كل ما معانا لك.

قالت لهن: خلاص أنا ادخل وأترك الباب مفتوح. . .

ثم دخلت غرفتها وتركت الباب مفتوحاً، فأخذت أخواتها يتطلعن فهالهنّ جمال الشاب وهيأته، فتصارخن وكلّ واحدة تريد أن تمسك به، وفي الحال تحوّل إلى طير وأخذ يحوم داخل الغرفة بحثاً عن مكان يخرج منه، فارتطم بكلّ قوة بزجاج

= وعن ابن عمر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إنّ آدم لما أهبطه الله تعالى إلى الأرض قالت الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها نحن أطوع لك من بني آدم؟ فقال تعالى للملائكة: هلّموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض ننظر كيف يعملان. قالوا: هاروت وماروت. وأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن النساء فجاءتهما فسألاها نفسها فقالت: لا واللهّ حتى تتكلما بهذه الكلمة من الشرك، فقالا: والله لا نشرك باللهّ شيئًا، فذهبت عنهما ثم رجعت بصبي فسألاها نفسها فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي، فقالا: لا والله لا نقتله أبدًا، ثم رجعت بقدح خمر تحمله فسألاها نفسها فقالت: لا واللّه حتى تشربا هذه الخمر، فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبي، فلما أفاقا قالت المرأة: والله ما تركتما شيئًا مما أبيتما علي إلاّ قد فعلتماه حين سكرتما، فخُيّرا بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا، وقيل إنّ ذلك بعد رفع إدريس. (تاريخ الملوك لابن الجوزي)

النافذة فتكسرت وقطعت جناحه، وتحامل على نفسه وحلّق بعيداً وهو يقول للأميرة الصغيرة: ألم أقل لك لا تخبري أحداً. . . ستندمين كثيراً ولن تريني أبداً. فجزعت الأميرة وهي تراه يتهاوى على أرض الغرفة ودمه ينزف، وعندما حلّق بعيداً عن قصر أبيها أخذت تبكي بجزع، فأقبلت أخواتها عليها يواسينها.

ومنذ ذلك اليوم وهي لا تأكل ولا تشرب، وفي حالة بكاء مستمر. شحبت وشحب لونها وعجز أبوها وأخواتها عن التخفيف من حزنها، ولم تعد تطيق البقاء، فطلبت من أبيها أن يسمح لها بالخروج للبحث عن حجاز، فحاول أن يرسل الحرس والجنود بدلاً عنها، فقالت له: سيبحثون عنه بالأمر وأنا سأبحث عنه بالحب.

ففهم أبوها مقصدها وسمح لها بالخروج للبحث عن حجاز بن مرجاز.

خرجت من القصر مرتديةً ملابس فلاحة فقيرة، وغطّت رأسها بمظلة خزفية، وحملت زوّادتها في زنبيل، وأخذت تسير من غير هدى، مسافرةً من بلد للبلد (تا البلاد تشلها وتا البلاد تحطها)، وفي كل مكان تسأل عن حجاز بن مرجاز فيقولون لها: بلده بعيدة، فتسأل إن كان أحد رأى طائراً مقطوع الجناح، فلا تجد جواباً. . .

صعدت جبالاً وهبطت أوديةً وركبت البحر ودخلت في صحراء كلّما مشت بها لاتنتهي، فأصابها التعب والظمأ، فكانت تبحث عن شجرة تستظلّ بها من تلك الحرارة القاسية، وبعد بحث طويل رأت شجرة ذات أغصان كثيفة ظلّت تسير باتجاهها ولم تصلها إلاّ عصراً، وارتمت أسفل أغصانها وأخذت تبلّل فمها بقليلٍ من الماء الذي حملته في قربتها. . . وفكرت أن تنام قليلاً قبل أن تواصل سيرها، فتمددت، فنزلت عليها «بصوة» فنظرت فإذا ثلاث حمامات مستقرّات على أغصان الشجرة، وقبل أن تفكر في هشها سمعت واحدة منها تحدّث الحمامتين الأخريين: ما سمعتم ما جرى لحجاز بن مرجاز؟

فقالت الحمامة المجاورة لها: ما له؟

فقالت الحمامة: مسكين شيموت من جرح أخذ جناحه كله وما هي إلا أيام ويطلع منه الدود ويموت، ويقولوا خلاص وجهوا وجه ناحية شروق الشمس.[1]

قالت الحمامة الثالثة: احمدي ربك أنه ما أحد يدري أننا دواه من كلّ شيء.

---

(١) وهنا استلهام أخر لأسطورة العنقاء.

فقالت لها الحمامة الأولى: إيه والله، فالعجوز اللي سحرته وزّعت سحرها بيننا، كلّ وحدة مننا شايلة جزء.

قالت الحمامة الثالثة: ولو أبوه يعرف أننا دواة لأرسل كلّ مملكته يدوروا علينا...

قالت الحمامة الثانية: حتى لو لقونا ما أحد يعرف ان لو تمرّغ بدمنا وتبخّر بريشنا وأكل لحمنا ومصمص عظامنا يشفى في الحال...

قالت الحمامة الأولى: الحمد لله ما حد عارف ومين حيلقانا ونحن كل يوم في بلد؟

فرحت الأميرة الصغيرة فرحاً عظيماً عندما سمعت حوار الحمامات الثلاث وظلّت مستكينة في مكانها حتى دخل الليل، فتسللت بحذر وأمسكت بالحمامات الثلاث وربطت كلّ واحدة بالأخرى ووضعتها في زنبيلها، ونشطت في السير مسافرة، ولا زالت تنتقل من بلد لبلد حتى وصلت إلى بلد حجاز بن مرجاز، وعندما سألت قيل لها إنه يحتضر ولم يستطع كل الأطباء أن يداوه.

أخذت نفسها وذهبت إلى جوار قصر الملك، وأخذت تدور رافعةً صوتها: نداوي اللي مايتداوى... نداوي اللي مايتداوى.

حاول الحرس إبعادها عن بوابة القصر فلم تستجب لهم وظلّت في مكانها، ورأت الأبواب تفتح لدخول النادبات، فقد تمّ استدعائهن حتى إذا مات الأمير حجاز يرفعن الصوت ويعدّدن مناقبه، وسمعت رئيس الحرس يحرّض أحد الحراس لإحضار المغسّل، فأصابها الفزع، وأمسكت برئيس الحرس تناشده أن يدخلها على الملك أو أن يخبره أنّ مطبّبة تؤكّد مقدرتها على معالجة ابنه حجاز، وكان رئيس الحرس يحب الأمير، فأسرع بإدخالها واستأذن على الملك وأخبره أنّ هناك مطببة تقول: نداوي اللي مايتداوى.

وكان الملك متأثراً حزيناً لما سوف يحدث لابنه، فقد أكّد كلّ الاطباء الذين كشفوا عليه أن لا فائدة وأنّ موته محقق... وعندما سمع رئيس الحرس يخبره هذا الخبر صاح به: أدخلها... عسى أن يأتي الله بالفرج على يديها.

دخلت الأميرة الصغيرة في ثيابها الرثة وهيأتها المزرية، فاحتقرها الملك وسألها: تداوين اللي مايتداوى؟

فقالت لها: نعم يا ملك الزمان...

فقال لها: لو داويتي حجاز لك نصف مملكتي...

فطلبت أن ترى المريض، فتمّ إدخالها إلى غرفة حجاز وهو في حالة احتضار، فأمرت بإخراج الجميع وتركها بمفردها مع حجاز، فأمر الملك بتنفيذ كلّ ما تطلبه أو تأمر به.

وحين بقيت بمفردها ارتمت على جسد حجاز تضمّه وتقبّله وتبكي، ثم نهضت وأمسكت برؤوس الحمامات الثلاث، فتجمّعت بيدها ثلاثة أجزاء من ورقة، جمعتها مع بعضها، وذبحت الحمام ووضعت دمها في إناء ونتفت ريشها، وبدأت بتمريخ جسد حجاز بذلك الدم فأخذ يئنّ وينتفض، ثم طلبت جمراً ومبخرة من الخدم، ووضعت فيها الريش والورقة وبخّرت حجاز فإذا به يرتعد، فقامت بتغطيته وخرجت وطبخت حمامة من الثلاث حمامات وعادت إلى حجاز وشرّبته مرقتها وأكّلته لحمها، فاستعاد بعض قوته، وفعلت نفس الفعل في اليوم الثاني والثالث، واستعدّ الملك لكي يسلّم على ابنه، وعندما دخل الملك لم يصدّق أنّ ابنه استعاد صحته وأصبح متعافياً.

تسللت الأميرة الصغيرة قبل أن يتحقق منها حجاز بن مرجاز، وظلّت خارج الغرفة تنتظر خروج الملك، وعندما خرج سلّمت على الأرض بين يديه، وكان الملك منتشياً وسعيداً، وقال لها: أنا عند وعدي فلك نصف مملكتي.

فقالت له الأميرة الصغيرة: الحمد لله على شفاء الأمير وأخبرك أيضاً أنّ السحر قد زال عنه وأنا لا أريد نصف مملكتك، أريد حاجة واحدة فقط.

فقال لها الملك: كل ما تطلبيه مجاب...

قالت الأميرة الصغيرة: أريد خاتم الاأمير حجاز...

استغرب الملك من طلبها البسيط الهيّن، وقال لها: بس!؟

فقالت: بس!

دخل الملك إلى الأمير وقال له: مطببتك تريد خاتمك مقابل علاجها...

فخلع الأمير خاتمه وأعطاه لأبيه، فأخذته الأميرة الصغيرة وغادرت القصر.

وأُعلن في المملكة عن تشافي وليّ العهد الأمير حجاز بن مرجاز من السحر ومن جروحه التي أصابته، ففرح الشعب وخرجوا ليعبّروا عن فرحتهم بالغناء

والإنشاد والمزامير والرقص، وفرّق الملك الأموال والأطعمة على الفقراء وعاشت المملكة أفراحاً متواصلة لسبعة أيام.

وكانت الأميرة الصغيرة سعيدة بشفاء الأمير حجاز، وسعيدة لمحبة الناس له، وقد سكنت في بيت حقير داخل المدينة، وكلّ يوم تذهب إلى قصر الملك تتلصص لرؤية الأمير حجاز وهو يتمشى أو يركب الخيل أو يتحدث مع هذا أو ذاك. كلّ يوم تفعل هذه الأفعال وتعود إلى بيتها الحقير وتنام لتصحو من أجل أن تذهب لتقف أو تدور حول القصر.

وبعد مدة أُعلن في المدينة أنّ الملك حجاز بن مرجاز سوف يتزوج بابنة الوزير الأول للملك وسوف تشمل أفراح زواجه كلّ المملكة، وأخذ الجميع يستعدّ لهذا الزواج، وبدأ توافد الضيوف من ملوك وأمراء، فجُنّ جنون الأميرة الصغيرة، وذهبت إلى القصر تترجى الحرس لإدخالها لمقابلة الأمير حجاز، فكانت تُطرد حتى لم يعد متبقياً على الزواج سوى يوم واحد. ذهبت الأميرة إلى القصر وأخذت تبكي وتستعطف الحراس وهم يجرجرونها من شعرها ويبعدونها، فتعود مرة أخرى، وصادف أن كان رئيس الحرس خارجاً فرآهم يجرّون امرأةً من شعرها، فوقف ليستوضح الأمر، فقيل له إنّ هذه المرأة منذ زمن وهي تدور حول القصر إلا أنها في الأيام الأخيرة تطالب برؤية الأمير حجاز بن مرجاز، فأمرهم بأن يأتوا بها إليه، وعندما رآها عرف فيها المطببة التي طببت الامير، فاعتذر منها وقال لها: أنا أدخلك على الأمير، واصطحبها إلى داخل القصر، وأشار لها إلى مكان جلوس الأمير وقال لها: لا أستطيع أن أخبره بأني أدخلتك فقد شدّد أن لا يسمح لأي امرأة بدخول مقصورته. شكرته وأخذت تسير على أطراف أصابعها حتى وجدها الأمير حجاز تقف أمامه، وعندما رآها تقف بين يدها عرفها وصاح بها: يا خائنة العهد والمواثيق، ما الذي جاء بك؟

فظلت صامتة، وهو في أشدّ حالات غضبه، وأخبرها أنه بسبب كشف سرّه لأخواتها كاد يموت لولا أن ارسل الله له مطببة أنقذت حياته.

فأخذت تبكي وتقول له إنها ندمت على فعلتها وقد لقيت الأهوال حتى وصلت إليه.

فقال لها: لن أغفر لك... ولقد أخبرتك لو أفشيتي سري لن تريني أبداً.

وصاح بحرسه الشخصي معنّفاً إياه ومستفسراً: كيف دخلت هذه المراة عليه؟ وأمره بطردها، فتمسّكت بيد الأمير حجاز وأخرجت خاتمه من كمّ فستانها وقالت له: أليس هذا خاتمك؟

وعندما رأى خاتمه في يدها تناوله وقال لها: كيف وصلك؟

قالت له وهي تبكي: أخذته ثمنا لتطبيبك.

اندهش الأمير وقال لها: أنت المطبية؟

فقالت له: نعم، وقد لاقيت الهوايل.

وحكت له قصتها من يوم تحوّله إلى طير وارتطامه بزجاج نافذتها إلى أن خرجت تبحث عنه إلى سماعها حوار الحمامات الثلاث إلى الأيام التي بقيت لوحدها تطببه إلى مجيئها اليوم وهي تدور حول القصر لرؤيته.

حضنها وقبّل رأسها واعتذر لها وشكرها على تخليصه من السحر ومداواته، وقال لها: أنت زوجة الدنيا والآخرة... وخرج على أبيه وأخبره بكلّ الخبر، فبارك الملك زواجهما وراضى ابنة الوزير بتزويجها ابن اخيه بدلاً من ابنه... وتمّ إرسال المراسيل للملك أبو الأميرة الصغيرة بأن يحضر هو وبناته الست ليكونوا في حفل زواج ابنته على الأمير حجاز بن مرجاز صاحب الحصن الزجاج... وعاش الزوجين في سعادة تامة خلفوا الصبيان والبنات.(١)

رواية عائشة عجيبية

---

(١) تزخر الأساطير والحكايات الشعبية بقصص الهجر أو الرحيل وتتبع الحبيب لحبيبه إلاّ أنها تنتصر للنهايات السعيدة، وأكاد أجزم أنّ النهايات السعيدة هي المرهم الذي يتداوى به الناس من تعب أيامهم. فعادةً الحكي يتم ليلاً حين يكون الجميع قد أنهى يوماً شاقاً من العمل والجهد.

وحكايات الحب حكايات أولها بحث وولع ونهايتها لقاء وسعادة، بينما نجد أنّ الأسطورة الأولى تعتمد على المفارقة العظيمة والماسأة، وقصة تغير ثمر شجرة التوت إحدى تلك الماسي، فقد كانت شجرة ذات ثمار بيضاء إلاّ أنّ قصة الشاب بيراموس الذي أحب العذراء الصغيرة ثيسبي هي المحرك لهذا التغير والمؤسس للأسطورة، «وقد ذهبت الحكاية إلى أنّ بيراموس أحب ثيسبي وتمّت محاصرة هذا الحب وعدم التقاء الحبيبين فكانا يتبادلان عشقهما ليلاً عبر شق في الجدار، ومع اضرام الشوق لعواطفهما قررا الالتقاء ليلاً قرب مقام مقدس =

= لأفروديت خارج المدينة تحت شجرة توت وارفة تنوء بثمارها البيضاء. وصلت الفتاة أولاً وليثت تنتظر مجيء حبيبها. وفي هذه الأثناء خرجت لبوة من الدغل القريب والدم يضرج فكَّيها بعد أن أكلت فريستها، فهربت ثيسبي تاركةً عباءتها التي انقضت عليها اللبوة ومزقتها إرباً ثم ولَّت تاركة عليها آثار الدماء. حضر بيراموس ورأى عباءة ثيسبي فاعتقد بأن الوحش قد افترس حبيبته، فما كان منه إلاّ أن جلس تحت شجرة التوت وأغمد سيفه في جنبه، وسال دمه على حبيبات التوت ولوَّنتها بالأحمر القاني. بعد أن اطمأنت ثيسبي لانصراف اللبوة، عادت إلى المكان لتجد حبيبها يلفظ اسمها قبل أن يموت وعرفت ما حدث، فالتقطت سيفه وأغمدته في قلبها وسقطت إلى جانبه. وبقيت ثمار التوت الحمراء ذكرى أبدية لهذين العاشقين». (الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية: فراس السواح، دار علاء الدين).

خطر بن مطر

قلنا وقلكم، كان في زمان من الأزمان امرأة مضت عليها سنوات طويلة ولم ترزق بالذرية، وكان نفسها ومنى عينها أن يرزقها الله بالذرية، وكان الحمل شغلها الشاغل تمشي وتجلس وهي تفكر بالخلفة.

وفي يوم كانت تكنس (قبل) بيتها وقف غراب على (قرعينة) العشة ينعق، فتطيّرت منه[1] وزجرته فلم يستجب، وقد علق جناحاً وأخفض الآخر، فقالت في نفسها: نذر علي لو حملت وجبت بنت لزوجها هذا الغراب.[2]

وراحت أيام وجت أيام، وإذا بالمرأة تحس بعلامات الوحم وتتمنى على

---

(١) من معتقدات العرب الجاهلية التكهن ويقال له طيرة في العربية والعبرية، والتطيّر بمعنى التشأوم والتفاؤل، فمثلاً عرفت القبائل العبرية العيافة، بمعنى التنبؤ عن طريق ملاحظة حركات وسكنات الطيور والحيوانات، وسمّوها «الشاق» أي شقّ أجساد الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها واستخلاص النبوءة.
وكانوا يتشاءمون ويتطيرون من المرأة -الطامث- والدار والفرس وعتبات البيوت ومداخلها ومن الغراب وكذلك من العطاس ومن السعال.
وقد أجمع العرب والعبريون على اعتبار الغربان والبوم من الطيور النجسة المشؤومة، وسمّوا البومة «أم الصبيان» و«أم الخراب»، واعتبروها الهامة التي تخرج من رأس القتيل تحجل بلا توقف على قبره في طلب الثأر والدم.
وكانت الحيوانات والطيور التي يتشاءم منها تزجر. (موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، شوقي عبدالحكيم، مكتبة مدبولي)

(٢) حكايات الحيوان والطيور يرى البعض أنها أكثر قدماً من الأساطير وأنها ترجع إلى مراحل التوحّش والبربرية والطوطمية، فهي حكايات أقرب إلى التعليمة أو الشرح والتفسير. (نفس المصدر السابق)

زوجها أن يحضر لها سفرجلاً، وكم كانت سعادة زوجها عظيمة بحمل زوجته، ومع نهاية التسعة أشهر كانت المرأة قد ولدت ببنت ما لها مثل في الزخم والحلاة.

وفي اليوم الثاني من ولادتها رأت الغراب فوق (قرعينة) العشة بمنقارة كيس (فلته) فوقها، تناولت المرأة الكيس وفتحته فإذا به مليئاً بالذهب[1] واللؤلؤ، فتضاحكت وهي تنظر إلى الغراب وقالت له: كن هذا هديتك لخطيبتك.

فنعق الغراب وطار من مكانه، وكان زوجها يسمعها فسألها عن الخبر فقالت له: قبل ما أحمل كان هذا الغراب في مكانه على (القرعينة) فنذرت في نفسي لو ربي رزقي بنية لزوجها هذا الغراب، واليوم أتى الغراب ورمى هذا الكيس وفيه ذهب ولولو. وتضاحكت هي وزوجها فرحاً، وانتقلت حالتهما من الفقر إلى الغنى بعد أن باعا الذهب واللؤلؤ واشتريا بيتاً كبيراً وعاشا في سعادة.

ومرت الأيام وكبرت البنت ودخلت سنّ الزواج وكثر خطابها، ومع مجيء كلّ خاطب يظهر الغراب فوق (القرعينة) ينعق بصوت عالٍ، فتتضاحك أمها وتقول لزوجها: بان اليوم امغراب وكنه يشا خطيبته أو سمع بخطبتها.

فيتضاحكان وينسيان الأمر، وبعد فترة تنبّها إلى أنّ كلّ خاطب يتقدّم لابنتهما يحدث له حدث يحيل بين استكمال الخطبة أو إتمام الزواج، ومع تكرار هذا التعطيل احتار الأب في ما يحدث، وخشي أن تبور ابنته، فذهب يبحث عن مشايخ يشيرون عليه فيما هو حادث لابنته، وبعد بحث واستفسارات طويلة أخبره شيخ أنّ ابنته منذورة لشخص أخر ولم يتمّ النذر، ونصحهه بتزويجها لمن نذرت له.

فعاد مهموماً إلى بيته وأخبر زوجته بالخبر، فأخذت تصيح وتبكي: كيف أزوّج بنتي لطير لا ومن خس الطيور؟

فقال لها زوجها: لنستحكم بأمر الله.

وكان الغراب واقفاً على القرعينة ينعق، فخرج أبو البنت إلى «القبل» ووجّه حديثه إلى الغراب: خلاص، قبلنا بك زوج لابنتنا، تعال بعد يومين ونزفّك عليها.

---

(١) يرتبط وجود الذهب في مخيلة الناس بالأنهر، ويعود هذا إلى أن الملك ميداس قد اغتسل في ينبوع نهر باكتولوس ليزيل عنه لعنة اللمسة السحرية التي تحول كل ما يلمسه إلى ذهب حتى طعامه وشرابه. الأسطورة والمعنى، فراس السواح.

غاب الغراب للحظات وعاد ينعق وبفمه كيس قذفه باتجاه الأم ففتحته فإذا به ذهب ولؤلؤ، فقالت لزوجها: والله الغراب عازم اهو جاب مهر البنت.

وعندما سمع الناس بأمر الزواج استغربوا أشدّ الغرابة، فكيف تتزوج بنت في غاية الجمال بغراب، ولأنّ القصة غريبة عجيبة فقد حضر الزواج خلق كثير، وكانوا يتضاحكون وهم يرون الغراب واقفاً على كتف العروسه أثناء الزفّة، وكانت البنات يتعمدن نتف ريشه أو هشه فينعق نعيقاً قبيحاً وينتقل من كتف زوجته إلى رأسها وأم العروس في حالة كرب وبكاء وتتقبّل مواساة جاراتها بدلاً من تهنئتها.

وكان الأب قد اختار غرفة داخلية من غرف البيت أن تكون بيتاً للزوجين، وبعد انتهاء مراسيم الزواج أدخلت الأم ابنتها إلى تلك الغرفة وأغلقت عليها الباب.

ظلّ الغراب يقفز من وتدّ لوتد والبنت تنظر إليه فزعة، وعندما رأته هادئاً يتطلع إليها من غير أن يحدث صوته المزعج، رقّ قلبها، ومدّت يدها إليه، فخفق بجناحيه وحطّ على يدها، فسألته: تحبني. . .

فغرس رأسه في حضنها، وأرادت أن تمرّر يدها على رأسها فإذا بها تحسّ بشيء حاد يلامس أصابعها، تمعّنت وإذا بدبوس مغروس في أعلى جناحيه بالقرب من الرأس، فنزعته فإذا بالغراب ينتفض ويتصاعد دخان كثيف بعد انجلائه ظهر شاب في غاية الوسامة والجمال، فاضطربت وخافت، فهدأ الشاب من روعها وأخبرها أنه هو نفسه الغراب وقد سحرته زوجة أبيه وحوّلته إلى غراب لكي لا يحكم مملكته بعد وفاة أبيه، وأنها اعتلت على العرش وأبقته بجوارها مسحوراً على هيئة غراب، وقال لها إنّ اسمه خطر بن مطر وإن أرادت أن تنقذه فعليها أن تضع الدبوس الذي أخرجته من رأسه في رأس زوجة أبيه الساحرة، وإلى أن تفعل ذلك لا بدّ أن يظلّ سرّه مكتوماً على أيّ إنسان وإلاّ فسد إبطال السحر وظلّ غراباً.

فرحت البنت فرحاً عظيماً كون زوجها بهذا الجمال وأنه ملك وعاهدته أن تبطل السحر عنه مهما كلفها الأمر.

وظلا مع بعضهما في عناق وتبادل الكلام المعسول، وفي الصباح جاءت الأم لتتفقد ابنتها، فتحوّل خطر بن مطر إلى غراب وقفز إلى الوتد ينعق من هناك، فسألت الأم ابنتها إخبارها وماذا حدث لها فطمأنتها وأن حالها على ما يرام.

فقالت لها: كبي امغراب هنا وتعالي تنفسي معي. . .

فاعتذرت البنت من أمها بأنها ترغب في البقاء داخل غرفتها.

مضت أيام والبنت لا تخرج من غرفتها، فتعجبت الأم وزاد عجبها عندما كانت ترى أن ابنتها إذا خرجت تخرج من أجل أن تغتسل وتتطيب وتتبخر وتلبس أحسن الملابس وتعود إلى غرفتها.

ولم تستوعب الأم كلّ هذه التصرفات، فنادت على ابنتها مبديةً استغرابها ممّا تفعل، وكانت البنت نفسها أن تخبر أمها بأنّ الغراب ليس إلا ملك وعلى جمال لا يوصف، وعندما عاتبتها أمها على صنيعها أمسكت بها وهمست لها: هذا ما هو غراب، هذا الملك خطر بن مطر سحرته أم زوجته لو ترنه يامه تتجنني من طلعته. . .

فرحت الأم وقالت في نفسها: والله لخلّص زوج بنتي من ريشه.

وقامت من حينها و«وقدت» التنّور بحطب كثير، واتجهت إلى غرفة ابنتها، وبينما كان خطر بن مطر يسامر زوجته تسللت الأم وتناولت ريش الغراب وألقت به في البئر، فسمعت صراخاً حادّاً من جهة غرفة ابنتها، وعندما ركضت إلى هناك كانت ابنتها تبكي وتندب حظها. . .

وقد عرفت الأم من ابنتها أنّ زوجها فجأةً أخذ في الصراخ وقال لها: لن تريني، وتحوّل إلى غراب وطار وهي لا تعرف السبب، فقالت لها أمها: أنا السبب، تسلّلت إلى غرفتك وأخذت ريشه وحرقته.

قررت البنت أن تلحق بزوجها وتبحث عنه حتى آخر الدنيا، وحملت مجوهراتها وفساتينها وسافرت، و(تا البلد تشلها وتا البلد تحطها) وكلما سألت عن بلد خطر بن مطر قالوا لها: فيانك وفين بلد خطر؟ وما زالت مسافرة حتى وصلت إلى بلاده.

وذهبت إلى قصره وأخبرت الحرّاس أنها تريد رؤية خطر بن مطر، فقالوا لها: أنت مجنونة! ما أحد من الشعب قد شاف خطر. فدفعت بالمجوهرات لبعض الحراس لكي يدخلوها إلى غرفته، فأدخلوها، وظلت مختبئة إلى أن حان الليل ودخلت غرفته، فوجدته نائماً، فأخذت تقبّله وتشكو حالها من بعد فراقه، وكان يغطّ في النوم كالميت. . . ورأتها وسمعتها إحدى خادمات القصر، فجاءت إليها وسحبتها إلى خارج الغرفة وذهبت بها إلى غرفتها، وقالت لها: جنيتي أنت، والله

لو عرفت زوجة أبوه انك دخلتي عليه لتقتلك ولاّ تمسخك كلبة. لكن نصيحتي لك تدسسي لما ربنا يشفلك خرجة وأحسن وقت يروح عنه السحر وقت نومه، فتبعيه..

وكانت الساحرة قد رأتها وشاهدتها وهي بجوار سرير خطر تحكي له عن الدبوس الذي أخرجته من رأسه، فقررت أن تاخذه منها ثم تقتلها، وكان مكتوباً أنّ الساحرة لا يستتب لها الأمر إلاّ بموت الأمير خطر وهو في حالة غراب، وقد نفثت عليه بمرض النوم،[1] ولو لم يعد الدبوس فسينقلب عليها السحر...

فكانت تتغافل عن تسلّل الزوجة لكي تعرف أين يكون الدبوس.

وكانت البنت في كلّ ليلة تذهب إلى الخدم والجواري وتعطيهم الذهب وتسأل: أين سينام الليلة خطر بن مطر؟ فيقال لها: الليلة سينام في بستان الفلّ، فتذهب إلى بستان الفلّ وتظلّ تنوح أسفل قعادته تشكو له تباريح هواها به وكيف عذّبها الفراق، ولم يكن يسمعها خطر لأنّ الساحرة تضع له المخدّر فينام ولا يشعر بشي.

---

(١) تعيد الأسطورة وجود الأمراض والهموم على وجه الأرض بسبب غضب الإله زيوس الذي لم يكن راضياً على أهل الأرض فعاقبهم بالظلام الدامس، وعندما حدثت حادثة سرقة النار، حين تجرّأ بروميثوس على سرقة النار وأضاء الارض، مما تسبب في غضب زيوس، أمر الإله هيفاستوس أن يصنع من الطين امرأة فاتنة الجمال ووهبها زيوس الحياة وأغدق عليها بقية الآلهة كثيراً من المفاتن التي يعشقها الرجال ومنحوها صفات عديدة كالجمال الصارخ وطيبة القلب وعذوبة الحديث والمهارة في شتى الفنون، سوى أنّ أحداً من الآلهة لم ينعم عليها بعقل سليم راجح، وسمّاها الآلهة باندورا، أو صاحبة المواهب الإلهية جميعاً، كونها حظت من كلّ إله بشيء. ثمّ تسلمها هيرمس رسول الآلهة وأوصلها إلى إبيميثيوس (أخ بروميثوس سارق النار) وقال له: لقد أرسل زيوس هذه المرأة لتكون زوجة لك. وكان بروميثوس قد حذّر إبيميثيوس أخاه ألاّ يقبل هبة من زيوس، إلا أنّ فتنة باندورا أنسته وصية أخيه، فحمل زوجته (وصندوق كبير كانت تحمله معها) إلى بيته لتقيم فيه. وفي البيت قصت باندورا لزوجها أنّ صندوقها الذهبي الذي تحمله فيه مجوهراتها وملابسها، فرغب زوجها في أن يرى مجوهراتها فطلب منها أن تفتحه وألحّ في ذلك، فقامت باندورا وفتحت الصندوق، وبدلاً من أن يجد إبيميثيوس المجوهرات وجد بداخل الصندوق مجموعة من المخلوقات المجنّحة ذات رسم كوجوه الموتى اندفعت تحاول جاهدة الخروج من الصندوق وانتشرت في جميع أركان الارض. وتلك كانت الأمراض والهموم التي أنذر زيوس بإرسالها إلى الأرض. (المصدر السابق)

وفي الليلة الثانية تسأل: أين سينام خطر بن مطر؟ فيقال لها: الليلة سينام في بستان الكاذي، فتذهب وتظل أسفل قعادته تنوح وتشتكي فلا يسمعها...

وكلّ ليلة تنفق الذهب وتسأل: أين حينام خطر بن مطر؟ فيقال لها في بستان الورد، في بستان العزاني، في بستان الياسمين، في بستان الحنون...، ولم تفلح كلّ محاولاتها في إيصال شكواها إلى خطر بن مطر، فقد كانت الساحرة تضع له المخدّر قبل أن يذهب إلى البستان، وما إن يصل حتى يستلقي على فراشه كالجثة الهامدة.

وذات يوم، وبينما كانت تتسلل لرؤية خطر، لمحت غرفة الساحرة مضاءة الأنوار، فاتجهت إليها بحذر، ورأت الساحرة تقف أمام جنيٍّ بشع المنظر تقبّل يده وتستحلفه أن يشير عليها وهي تشتكي أنّ نصف السحر زال عن خطر بن مطر.

أخذ الجني يهوّن عليها ويقول لها: أنت وفية معنا وسأكون وفيّاً معك وأخبرك عن عدوتك التي أزالت نصف سحرك، فهي ستأتي مع الغناء والرقص، فإن لم تقضي عليها قضت عليك، وقال لها: لو خرجت اتبعيها ككلبة، ولو ملست عليك عضيها فتتحوّل إلى كلبة في الحال، وستجدين الدبوس مغروس في اذنها، خذيه وارجعي دبسيه في رأس خطر بن مطر... وستكون المملكة تحت يدك والكلبة والغراب عبيدك.

قبّلت يده، فاستأذنها وشقّ الجدار وخرج.

خافت البنت أشدّ الخوف، وعادت إلى خارج القصر بمساعدة الخادمة، وعندما هدأت قررت أن تنقذ زوجها مهما كلفها الأمر.

فكانت تخرج ليلياً لحضور أعراس الأمراء وعليّة القوم علّها تجد الساحرة هناك.

وفي أول ليلة لبست فستاناً أخضرَ وتزيّنت بالذهب والماس واللؤلؤ، وربطت مصر أخضر على شعرها، ودخلت للعرس، فأبهرت النساء بجمالها وأناقتها، فالتمّوا عليها يسألونها من تكون، وبعضهن يسألنها: هل هي عزباء أم متزوجة؟ فقالت لهن: متزوجة من حفّار النقر.

فتحن أفواههن مستغربات ومتعجبات وقلن لها: كل ذا الجمال وذا الحسن ومتزوجة حفار النقر!؟

فقالت لهن: أنا رزق رزقه الله لحفار النقر . . .

فبقين متعجبات من جمالها وفتنتها، وحين بدأ الغناء ونزلت النساء للرقص قامت هي وفردت مصرها الأخضر (الذي هو من نفس قماشة فستانها) وفرشته على الأرض وأخذت ترقص فوق مصرها، ومن بغض النساء لها ولجمالها قامت إحداهن وأحرقت المصر، وهي لاهية في رقصتها، فحذّرتها امرأة أخرى وقالت لها:

غريبة مصرك حرق

فردّت عليها مباشرة:

انحرق محي وفؤادي

على خطر بن مطر

صاحب الكواكب والزهر

يلعن أبوه من مصر

وخرجت مسرعةً والكلّ يتساءل: ما قالن. . . ما قالن؟

فلم تتعرف أيٌّ منهنّ على مقولتها بسبب ضجيج الحريم وارتفاع دق الطبل والغناء.

وبعد أن هربت من العرس أخذت تنتظر أن تلحق بها كلبة فلم ترَ أحداً يتبعها.

وفي الليلة الثانية حضرت وهي مرتدية فستاناً سماوياً ومتزيّنة بالذهب والماس واللؤلؤ ووضعت مصرها السماوي على نصف شعرها، ودخلت للعرس، وكما حدث ليلة الأمس انبهرت النساء بجمالها وزينته، فالتموا يسألونها: هو انت اللي كنت في زواج البارحة؟ فأنكرت وقالت: لا، يمكن تكون أختي، فسألوها: هل هي عزباء أم متزوجة؟ فقالت لهم: متزوجة من خثاث الحاسي.

فتحن أفواههن مستغربات ومتعجبات وقلن لها: كل ذا (الزخم) الجمال وذا الحسن ومتزوجة خثاث القمايم!

فقالت لهن: أنا رزق رزقه الله لخثاث القمايم. . .

وأُقيم العشاء ونادوها لأن تأكل فاعتذرت بأنها شبعانة، وحين بدأ الغناء ونزلت النساء للرقص قامت هي وفردت مصرها السماوي (الذي هو من نفس قماشة فستانها) وفرشته على الأرض وأخذت ترقص فوق مصرها، ومن بغض النساء لها ولجمالها قامت إحداهن وأحرقت المصر، وهي لاهية في رقصها، فحذّرتها امرأة

أخرى وقالت لها:

غريبة مصرك حرق

فردّت على الفور:

انحرق محي وفؤادي

على خطر بن مطر

صاحب الكواكب والزهر

يلعن أبوه من مصر

وخرجت مسرعةً والكل يتساءل: ما قالن... ما قالن؟

فلم تتعرف أيٌّ منهن على مقولتها بسبب ضجيج الحريم وارتفاع دق الطبل والغناء.

وبعد أن هربت من العرس أخذت تنتظر أن تلحق بها كلبة فلم ترَ أحداً يتبعها.

وفي ليلة الثالثة جاءت في فستان لونه أحمر ومصرها الأحمر يغطي نصف شعرها، وفي نفس هيأتها التي ظهرت بها في الليلتين السابقتين، وحين سألوها هل هي متزوجة أم عزباء؟ قالت لهن إنها متزوجة من حفّار القبور.

فتحن أفواههن مستغربات ومتعجّبات وقلن لها: كل ذا (الزخم) الجمال وذا الحسن ومتزوجة حفار القبور!

فقالت لهن: أنا رزق رزقه الله لحفار القبور...

ومع نزول النساء للرقص فردت تحت قامتها مصرها وأخذت في الرقص، وقامت امرأة وأحرقت مصرها، ونبّتها امرأة وقالت لها:

غريبة مصرك حرق

فردّت على الفور:

انحرق محي وفؤادي

على خطر بن مطر

صاحب الكواكب والزهر

يلعن ابوه من مصر

وخرجت مسرعةً والكل يتساءل: ما قالن... ما قالن؟

وبعد أن هربت من العرس سمعت نباح كلبة تركض خلفها، فتوقفت حتى

جاورتها الكلبة، وفي الحال سحبت الدبوس الذي أخرجته من رأس خطر بن مطر وغرسته في رأس الكلبة التي أخذت في الركض والعواء، فلحقت بها، وكانت الكلبة تجري وهي تجري خلفها، وكانت الكلبة تبحث عن مكان تختبىء فيه، وكلما رأت البنت تجري خلفها تواصل النباح والركض حتى وصلتا إلى خلاء واسع، فانتفضت الكلبة، فقالت لها البنت: سامحيني، بس كنت أبغاك تحسي كيف سويتي بزوجي وقلبتيه غراب... سامحيني، هيا تعالي من أجل أسحبلك الدبوس، فأقبلت الكلبة مطاطأة الرأس، وفي الحال أخرجت البنت طوقاً كان معها وطوّقت رقبة الكلبة وجرّتها خلفها.

وتحرّكت إلى قصر خطر بن مطر، وتسللت إلى مخدعة وهي تجرّ الكلبة وفاجأته بحضورها ففرح بها فرحاً عظيماً، وبعد أن سعد بها كان قلقاً يتلفّت ويقول لها: اختبئي لا تأتي علينا زوجة أبي فتسحرك أنت أيضا...

فأخذت تضحك وقالت له: انظر إلى هذه الكلبة، هل تعرفها؟

فقال لها: وهل قالوا لك إني مربي كلاب؟

قالت له: هذه الكلبة هي زوجة أبوك وقد غرست دبوس السحر في رأسها، ففرح خطر بن مطر فرحاً كبيراً، وأمر الحدّاد أن يصنع سبعة أقفاص كلّ قفص داخله قفص، ووضع الكلبة في داخل أولها واغلق أبواب الأقفاص وأمر الحارس أن يرمي يومياً للكلبة جيفة فأر.

وتربّع خطر بن مطر على عرش حكمه وطلب إحضار أبو وأم زوجته وعاشوا في سعادة وهناء.(١)

رواية عائشة عجيبية

---

(١) هناك قصة اسمها أحمد المشهور، وهي نفس هذه الحكاية، الفرق أنها تعطي الغراب اسماً حيث يخبر زوجته أن اسمه أحمد المشهور وحذّرها أنها إن أخبرت أحداً باسمه أو هياته فسوف تفقده وتظلّ تبحث عنه طوال الوقت. وعندما تفشي سره لأمها يحلّق ويغادرها، فلا تطيق البعد عنه فتخرج تبحث عنها في بلادٍ كثيرة، وأثناء بحثها تنوح باكية وتردد:
يا أحمد المشهور
جريت وراك
سنة وأربعه شهور.

=

= كما نجد أنّ حكاية حجاز بن مرجاز تتشابه في جزئية مع هاتين القصتين، والتشابه في أنّ البطل كان مسحوراً على هيئة طائر، وأنّ التحذير من كشف اسمه سيقود حبيبته أو زوجته للخروج والبحث عنه.

والذي يلفت ويحتاج إلى تفسير حكائي أو أسطوري إصرار الذكر بأنّ فقده سوف يؤدي بالأنثى للندم والخروج بحثاً عنه وتلقي المصاعب قبل الوصل إليه. . . وأعتقد أنّ هذا يعيدنا إلى الخلق الأول الذي تحمل كتب التراث حكاية متعددة الأوجهة عنه، إلاّ أنها جميعها يثبت حواء كدافع لاختراق المحرّم مما ينتج عنه هبوطهما (ويقال إنّ آدم هبط أولاً في الهند، وهبطت حواء في مدينة جدة)، وهذه الحكاية وُجدت قبل أن تحتقر الأنثى فنجد أنّ الذي يبحث عن الأنثى كان الذكر (أو كلاهما كان يبحث عن الآخر من غير انتقاص) فالتقيا في عرفة.

الناقة

كان ياما كان، كان في زمن من الأزمان امرأة مضى على زوجها فترة زمنية طويلة ولم تنجب، وظلّت نفسها تتوق للخلف، وفي يوم قالت:

- يا رب هبلي ذرية حتى ولو كانت ناقة.

وما هي إلا أيام حتى أحست بالوحم، فكانت تسير بين جاراتها فرحة ومختالة، وانكسرت فرحتها حين ولدت ناقة، فأخذت النساء يتضاحكن منها ومن خلفتها.

كبرت الناقة وكانت أمها تحبّها حباً كبيراً وتدلّلها وتعاملها معاملة الصبايا، فتشتري لها الحلي والفساتين وتحضر لها البخور والطيب، فتسخر جاراتها ممّا تفعل، فتشعر حيالهن بالكره كونهن يؤذينها في مشاعرها، إلاّ أنّ ما يحدث يومياً يجعلها تكبح تلك المشاعر.

فقد كانت تستيقظ فتجد بيتها قد تمّ تنظيفه، وغسل الملابس المتسخة، وغسل وترتيب الأواني، وتقديم الحسوك لـ«لهوش»، فتسأل جاراتها عمّن فعل معها هذا الجميل، فتدّعي كلّ واحدة أنها هي من قامت بكلّ هذه الأفعال، فتشكرها وتحرص على تقديم الهدايا لجاراتها وتنسى إساءاتهن وسخريتهن على ابنتها.

ولم تكن الأم تعلم أنّ كلّ من يقوم بهذه الأعمال هي ابنتها الناقة التي تستيقظ من قبل أذان الفجر وتقوم بكلّ مهام البيت على أحسن قيام، حتى إذا انتهت ارتدت جلدها وعادت إلى مكانها.

وكانت الناقة تظهر رغبتها في مرافقة الصبايا للتحطيب، فكانت أمها تضع لها الحبل على رقبتها، وتخرج الناقة مع بنات القرية إلى الغابة لجمع الحطب، وما إن يصلن إلى الأشجار اليابسة وتكسيرها وجمعها وربطها في حزم ينشغلن باللعب

والركض بين أشجار تلك الغابة بينما تنسلّ الناقة وتبحث لها عن مكان خالٍ من الناس، وتقوم بخلع جلدها والاغتسال من النهر، حتى إذا انتهت أعادت ارتداء جلدها ولحقت بجاراتها المتجمعات للعودة، فيجبرنها على حمل حزم الحطب حتى إذا اقتربن من القرية أناخوها وأنزلت كلٌّ منهن حزمتها ومضت إلى بيتها... وفي أحيان يضربونها فتعود إلى أمها وعلامات الضرب ظاهرة على جلدها، وإذا أرادت أمها أن تمنعها من الذهاب تظل ترغي حتى يظهر زبد شدقيها، فتخضع أمها لغضبها وتسمح لها بمرافقة بنات الجيران، موصيةً كلّ واحدة منهن بالعناية بابنتها الناقة.

وذات يوم وحينما كانت تغتسل في النهر مرّ ابن السلطان بتلك الناحية وكان حصانه ظمآناً، فتقدّم به إلى مجرى النهر ليشرب لكنّ الحصان كان يضع فمه في الماء ويتراجع، فنزل ابن السلطان ليرى سبب تراجع حصانه، فإذا به يلمح خصلات شعر طويلة ممتدة في النهر، ورأى فتاة (تقل للقمر بحز وأجلس مكانك) وحينما اقترب تنبّهت الفتاة لوجوده، فركضت واختبأت بين الأشجار، وارتدت جلدها، وانضمّت لبقية الصبايا.

تحرّك ابن السلطان إلى تجمعهنّ، فلم يعرف أيَّ فتاة منهنّ أخذت بلبّه، وأخذ يقلّب بصره بينهنّ فلم يتعرّف على من كانت تغتسل داخل النهر، واحتار في أمره.

وحين استعدّت الفتيات للعودة، جاءهن مرسول الأمير ليقول لهنّ إنّ ابن السلطان يرغب في الزواج من إحداكن، لكنّ شرطه أن تقدّم كلّ واحدة منكن وجبة طعام، ومن تكن وجبتها هي الأشهى سوف يتزوجها.

فعادت كلّ فتاة لتخبر أمها بالخبر، وانتشر بين بنات القرية خبر رغبة الأمير في الزواج بواحدة من بناتهم، فرغبت كلّ البنات في تقديم تلك الوجبة حتى التي لا تذهب إلى التحطيب قررت أن تدخل منافسة الوجبة الأشهى.

وبدأت الأمهات باختيار وجبات بناتهن، فمنهنّ من اختارت أن تقدّم الثريد، ومنهن من اختارت تقديم عصيدة، ومنهن من اختارت تقديم أقراص الغيش الحامض مع المغش، ومنهن من اختارت تقديم المفالت، ومنهن من اختارت تقديم الحنيد...

وكانت الناقة تحوم حول أمها وتحنّ طوال اليوم على غير العادة، فقالت لها أمها: كنك تشين معاهم.

فهزّت الناقة رقبتها، فاحتارت أمها فيما تشارك به ابنتها من وجبة، وبعد تفكير قررت أن تقوم بجمع حبّات الكين وإخراج اللب وطحنه وخبز عجينته.

وعندما جاء وقت خروج الصبايا للتحطيب كانت كلّ واحدة تحمل وجبتها وأمل كبير أن يختارها الأمير دون سواها.

وصلت الفتيات إلى مكان التحطيب فوجدن الأمير وحاشيته ينتظرون مقدمهن، وتمّ بسط كلّ وجبة ووقفت كلّ صبية خلف وجبتها، وكانت الناقة مصطفّة مع البنات وقد جعلوها في آخر الصف. مرّ ابن السلطان بكلّ واحدة منهن وتذوق أكلتها، وعندما وصل إلى الناقة سألهن: وهذه معاكم؟

فقالوا: نعم.

فحاول وزيره أن يبعده عنها خوفاً من أن تؤذيه، لكنّ الأمير قال له: أنا وعدت أتذوق كل ما يقدّم، وهي معهم.

ومدّ يده إلى الزنبيل المعلّق في رقبتها فوجد قرصاً غريب الشكل، فاقتطع جزءاً منه وقضمه، فإذا به يشتهي القضمة الثانية والثالثة، وظلّ يقضم ويأكل حتى أتى على القرص كاملاً.(١)

---

(١) وهناك قصة تقول إنّ أميراً مات أبوه وتمّت مبايعته لأن يكون ملكاً للبلاد. أراد الأمير الزواج لكنه احتار في اختيار عروسه، إذ أرادها أن تكون صادقة طموحة طيبة لكي تعينه في إدارة مملكته. فقام بإعلان رغبته في الزواج ودعا إلى اقامة حفلة تحضرها كلّ الفتيات الراغبات في الزواج منه، فتداعت جميع فتيات المملكة لحضور ذلك الحفل.

وكانت هناك فتاة - ابنة أحد خدام القصر - قد عشقت الأمير قبل أن يصبح ملكاً تمنّي نفسها بأن تقترن به، ووجدت في الدعوة التي أعلن عنها فرصةً لتحقيق حلمها، وكان أبوها يشفق عليها ممّا تجد وأراد أن يثنيها عن حضور الحفلة، لكنها أصرّت، فأخذ يبحث لها عمّا ترتديه فلم يجد مالاً لشراء فستان يليق بالحضور، فاعتذر منها إلا أنها لم تيأس وقامت من حينها بزيارة الخيّاطات وأخذ كلّ قطعة زائدة عن الحاجة، وأعادت تركيب تلك القطع وخاطت فستاناً في غاية الروعة.

وفي ليلة الحفل أخذ أبوها يهوّن عليها ليقينه أنّ الملك سوف يختار أميرةً أو ابنة وزير أو ابنة أحد أعيان البلاد، فتقبّلت نصائحه بهدوء وتوجّهت إلى القصر لحضور الحفلة.

وقف الملك بين الفتيات الراغبات في الزواج منه وأعطى كلّ واحدةٍ منهن بذرةً وقال لهن:

- لقد أعطيت كلّ واحدةٍ منكن بذرة، فلتقم كلّ واحدة منكن ببذر بذرتها وسيكون موعد لقائنا بعد ستة أشهر، ومن تاتي بأجمل ثمرة فسوف أتزوجها. =

وأعلن أنّ أشهى وجبة قُدّمت هي وجبة الناقة، وغادرهن، فاشتعل غضب البنات على الناقة، فتناولت كلّ واحدة غصناً من شجرة وأخذن يضربن الناقة وهي تركض وترغي من شدّة الألم.

وتناقلت القرية أنّ ابن السلطان أعجبه قرص الناقة لكن لم يتوقع أحد أن يتقدّم لخطبتها، وفي اليوم التالي جاء الأمير إلى بيت الناقة وخطبها من أبيها، فرحّب به الأب وقال له: تمنيت لو عندي بنت كنت زوجتك فأنا عندي ناقة.

فقال الأمير: أنا أريد الناقة.

فظنّ الأب أنّ الأمير يسخر منه، ومع إصراره قبل خطبته.

عاد الأمير إلى قصره فوجد غضب أمه وأبيه على تصرفه، فقال الأمير لأبيه:

= تفرّقت المدعوات وذهبت كلّ واحدة منهن لزراعة بذرتها.
قامت ابنة الخادم بغرس بذرتها والمداومة على سقايتها إلا أن الأيام مضت من غير أن تبشر بذرتها، ومع انتهاء الستة الأشهر أعلن عن موعد حمل الثمار إلى قصر الملك ليختار عروسه.
حزنت ابنة الخادم لأن بذرتها لم تخرج شيئاً، فأخرجتها من الارض وحملتها بيدها وقررت أن تذهب إلى القصر، فحزن أبوها وقال لها:
- كيف تذهبين وأنت لا تحملين ثمراً بل تحملين بذرتك كما هي؟
فقالت له: سأقول الحقيقة بأن بذرتي لم تفقس.
وعلى بوابة القصر توافدت الفتيات وكلّ واحدة منهنّ تحمل ثمرة ناضجة، وقد تنوعت أشكال الثمار المحمولة من تفاح وموز وعنب ومشمش وترنج وسفرجل.
وقف الملك في مكانه ورحّب بالحاضرات آمراً أن تمرّ كلّ فتاة من أمامه وهي تحمل ثمرتها، فمرّت جميع الفتيات وهنّ يحملن ثمارهنّ حتى إذ مرت ابنة الخادم وهي تحمل بذرتها أوقفها الملك وسألها:
- لماذا لم تأتي بثمرة؟
فقالت له: يا ملك الزمان، بذرت بذرتي فلم تنتج شيئاً وجئتك بها كما أعطيتني.
وبعد العرض أعلن الملك أنه سوف يتزوج ابنة الخادم، وحين احتجّت الفتيات على اختياره، فقد اشترط أن يتزوج بمن تأتي بأجمل ثمرة، قال لهن الملك:
- لقد منحتكنّ بذوراً فاسدة لا تنبت، وقد كذبتنّ جميعاً إلا هذه الفتاة فقد صدقت ولهذا اخترتها.
فرحت ابنة الخادم وزُفّت على الملك وكانت له نعم الزوجة وأعانته في كلّ حوائجه وخلفت له الصبيان والبنات.

علّمتني احترام الناس وقد وعدت أنّ من يعجبني أكلها أتزوجها، وقد أعجبني أكل الناقة، فهل تريد أن يتقوّل الناس أنّ الأمير لا يصدق في وعده، والمهم أن أصدق في وعدي، أما زواجي من الناقة فيمكن أن أُطلقها بعد أن أفي بوعدي.

وافقه أبوه واستحسن رجاحة عقله، فوافق على زواجه.

وكان الأمير متحسراً على تلك الفتاة التي رآها تسبح في النهر، وأخذ يعلّل نفسه بأنّ الاقدار لم تشأ أن يتزوج بها ورضي بنصيبه.

أُقيم الزواج واقتصر على المعارف والأقارب، وكان الأمير يسير ممسكاً بخطام الناقة وكلّ من حضر الزواج يسخر من ذلك المنظر المضحك، ورفضت أم الأمير الحضور، واقتصر الحفل على التهنئة السريعة من قبل الملك ومغادرة المكان.

قاد الأمير الناقة إلى مقصورته الخاصة وربطها بسارية ودخل غرفته، ومن شدة كربه لم يعرف طعماً للنوم، وكان يتقلّب في فراشه إلى أن انتصف الليل، فخطرت بباله أمه وغضبها منه، فقرر أن يذهب إليها معتذراً وطالباً منها العفو وأن تختار له أيّ فتاة لكي يتزوجها إرضاءً لها. ارتدى ملابسه وخرج، وأصابته الدهشة عندما لم يجد الناقة في مكانها، واعتراه الغضب من تصرفه، وتحسّر على نفسه في أن يمضي الليل بحثاً عن ناقة، تلفّت يميناً ويساراً فلم يرَ لها أثراً، وسمع تساقط مياه في جهة دورة المياه، فتحرّك إلى هناك وكم كانت دهشته عندما رأى فتاة (تقل القمر بحز واجلس مكانك)[1] وعرف فيها نفس الفتاة التي رآها تغتسل في النهر، فأخذ

(١) هذه الجملة تقال كمدح فاخر ويقال للتدليل على عدم مقدرة الكلمات وصف ذلك الحسن الذي تتميز به بطلة الحكاية، ودائماً ما يستخدم القمر لوصف جمال المرأة وهذا الوصف ليس اعتباطياً إذ له جذر أسطوري، وكان القمر في زمن متاخر إلهاً أنثوياً يعبد حتى إذا تطور الفكر الإنساني وانتقل أو تدرّج في عبادته وصولاً إلى التوحيد بقي الأثر الأسطوري في تقديس القمر كإله، ولكونه إلهاً أنثوياً التصق وصف الأنثى الجميلة بأنها قمر.

"ومن المتعارف عليه أنّ العرب من أقدم عبدة القمر، فمن أسماء إلهات القمر عند العرب البائدة وهو نفسه عند السمومريين اللاساميين، ويعتقد البعض أنّ البائدة أخذوه عنهم والاسم الأشهر كان من أكثر الأسماء شيوعاً، خاصةً في الحبشة، فكلمة شهر هي أحد أسماء الإله القمري، ويرى البعض أنّ لفظة قمر كانت الاسم المتأخر الذي أخفى به الساميون اسم رب الأرباب، أي بعد أن تحولت الإلهة القمرية الأنثى إلى إله ذكر أب، فالإله ودّ أو ودّ شهر معناه ودّ القمر، ويرى البعض أنّ لفظة قمر هي تسمية متأخرة أطلقها الساميون من أبناء الجيل =

يتلصص عليها من غير أن تراه، وحين انتهت من اغتسالها ارتدت جلدها... وأخذت تتهادى إلى المكان الذي ربطها فيه.

فغمره الفرح ولم يطق السكوت على هذا السر، فذهب وأخبر أباه وأمه بأنّ زوجته ليست ناقة بل فتاة لم يخلق في جمالها، وظنّت أمه أنه يسترضيها ولم يصدّقه أبوه، فوعدهم أن يريهم هذا في الليلة المقبلة.

وفي الصباح مرّ على الناقة وقدّم لها العجّور والماء وملس على رقبتها وتركها في مكانها وهو في غاية الشوق لمجيء الليل.

وظلّت الناقة في مكانها تلوك العجّور بهدوء.

جاء الليل فدخل الأمير غرفته منتظراً حلول منتصفه، وقد وعد أبواه أن يكونا مستيقظين وأمر الخدم بإشعال التنّور وملؤه بالحطب، وعندما حلّ منتصف الليل خرج من غرفته ولم يجد الناقة في مكانها، فتسلّل إلى دورة المياه فوجد الناقة تغتسل، فمدّ يده إلى جلدها وأسرع وقذفه في التنور المشتعل وعاد إلى مكان الناقة، وعندما انتهت من اغتسالها وأرادت جلدها لم تجده وظلّت تبحث عنه حائرة، فدخل

= الثاني لإخفاء الاسم الحقيقي لرب الأرباب.)

وكما يقول حمزة لقمان: تتفق الآلهة في شمال الجزيرة العربية مع الآلهة في جنوب الجزيرة العربية في كلّ شيء أساسي تقريباً. وعلى الرغم من أنّ العرب الجنوبيين آمنوا بالثالوث السيّار، القمر والشمس وكوكب الزهرة، إلاّ أنّ كثرة الأسماء التي أُطلقت عليها جعلت بعض الكتّاب يظنون أنّ كلّ اسم لإلهٍ مستقل.

بينما كان القمر الإله القومي لكلّ دولة في جنوب الجزيرة العربية في العصور الغابرة.

(أساطير من تاريخ اليمن: حمزة علي لقمان، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص ص٢٦-٢٧).

كما أن الزرداشتية ترى للقمر دوره في المنظومة نفسها التي تؤمن بها، فالقمر «حادي الأرواح للعالم الآخر، مُجسّداً مرحلة البرزخ والانتقال في الزرادشتية، ..وهو مرجع ذنوب البشر، وميزان الثواب والعقاب... كما أنه قد حسم الصراع لمصلحة أهورامزدا... وسانده ضد أهريمن، ومنع أن يصل دنسه إلى البشر التابعين لمزدا .. وذلك حينما تمكن من الهبوط للعالم السفلي وإنقاذ النور الإلهي الذي سرقه الشيطان من المخلوقات، وحينما صعد اكتمل نوره وصار بدراً. - الوحدانية في الديانة الزرادشتية (صراع المقدس والمدنس) لأحمد لاشين، مقال نشر في السند يوم ١٩ - ١٠ - ٢٠٠٩».

عليها فقالت له: استرني.[١]

فألقى عليها شاله، وعاد بها إلى غرفته وألبسها أحسن الملابس وقادها إلى أمه وأبيه لكي يروها، وعندما رأوها ذكروا الله كثيراً لحسن خلقها. . .

وقرر الملك أن تقام حفلة الزواج مرة أخرى دُعي إليها الملوك والأمراء.

وعندما وصل الخبر إلى القرية بأنّ الناقة ما هي إلا فتاة جميلة ليس لجمالها مثيل في الدنيا لم يصدّق أحد، حتى أبواها، ولهذا تسابق الجميع لحضور ورؤية هذه الفتاة. . . وقد حضر الزواج خلق كثير ومن البلدان، ومن رآها لم يصدّق أن توجد فتاة بهذا الجمال.

وكان أكثر الحضور فرحاً أمها التي ظلت تحتضنها وتقبّلها في كلّ حين. . .

---

(١) مسألة العورة من المسائل التي تدخل في التابو من وقت بعيد جداً، وقد أشرت في أحد الهوامش إليها في قصة الإلهة الهيلينية الأنثى البرية أرتيمس مع حبيبها الصياد البري أكتايون، وقصة هذه الأسطورة صائدة الغزال (باختصار شديد): أنّ أرتيمس كانت إلهة عظيمة، وهي ابنة كبير الآلهة زيوس، قد اختارت الأحراش مملكةً لها، كما اختارت الصيد حرفةً، فترتاد الغابات ومن حولها وصيفاتها الحوريات، وكانت ترأف بالحيوانات الرقيقة والوديعة فلا تصيدها، وكانت أحب الحيوانات إليها اناث الغزلان، وتعاقب من يصطادها.
وكانت أرتيمس عذراء لم تتزوج وتقول إنها لن تكون زوجة لإله أو إنسان بل تودّ أن يكون مقامها في الغابة مع حورياتها.
وكان الصياد أكتايون يعشق أرتيمس ويعشق الصيد، وكان لديه خمسون من كلاب الصيد وكلما خرج تجمعت حوله تلك الكلاب تلعق يديه فرحة بمقدمه، ويخرج بها إلى رحلات الصيد لتركض خلف الفرائس التي يصطادها. وذات يوم خرج للصيد وكان الجو حاراً حتى إذا جاءت الظهيرة ترك كلابه تستريح تحت ظلال الأشجار وذهب يبحث عن نهر ليشرب الماء، وفي بحثه سمع طرطشة ماء وضحكة فتيات، وعندما اقترب وأزال الأغصان الملتفة فإذا به يرى أريمس تسبح عارية ومن حولها الحوريات، فلم يستطع أن يرفع بصره وأخذ يتمتع بجمالها، فحانت منها التفاته فرأته، وفي الحال اعتراها الغضب فرفعت يدها إليه فتحوّل في الحال إلى وعل بأرجل نحيلة طويلة وقرون متشعبة، فارتجف وانطلق يجري نحو كلابه ويناديها فكان صوته يخرج كصوت الغزلان، فهجمت عليه كلابه وأطبقت عليه ومزقته إربا. . . وبعد ذلك ظلت الكلاب تبحث عن صاحبها وتعوي طوال الوقت ولم يسكت عواءها أبداً حتى وجدهم نحات ماهر أخذته الشفقة بهم فصنع لهم تمثالاً من طين على هيئة أكتايون فظنته الكلاب سيدها واستراحت من نباحها المتواصل. (موسوعة الفولكلور، شوقي عبدالحكيم، مكتبة مدبولي)

وكان للأمير ابن عم أصابته الغيرة حين رأى جمال زوجة ابن عمه، وما أن انتهى العرس حتى ذهب في اليوم التالي إلى أبي الناقة وقال له: أريد أن تزوّجني.

فقال له الأب: ليس لدي بنات، كانت عندي ناقة واحدة وزوّجتها...

فقال له: ولكني رأيت ناقة ترعى في أرضك لا يركبها أحد ولا تحمل بشيء.

فقال له: هذه ناقة من النياق السائبة.[1]

---

(١) يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة المائدة]

وتُعدُّ الناقة من أقدم المعبودات العربية، وهي من الآلهة الطواطم، ومن اسم الجمل اشتُقت مفردات كثيرة كالجمال والجميل والجامد والجيد. وكان الجمل عند البدوي وحدة قياس لمهر العروس ودية أو فداء القتيل - وهي عادة لا زالت مستمرة-، وكذلك وحدة الميسر والتضحية.

وقد عرف العرب الجاهليون شعائر النوق والجمال السائبة التي تترك لترعى في حمى الأرض الحرام، مثل مكة والطائف، فإذا ولدت الناقة خمس بطون يكون آخرها ذكراً شقّوا أذنها وأخلوا سبيلها، فلا تُركب ولا تُحلب وتصبح سائبة، منافعها للآلهة دون البشر، وهكذا تصبح الناقة محرّمة أو تحت التابو للآلهة -الاصنام- بدلاً من الناس. وكانت تنذر للآلهة والأرض المقدسة أو المحرّمة... وتُستخدم السائبة كنذور فإذا مرض الرجل العربي قال: إذا شُفيت فناقتي سائبة. (موسوعة الفلوكلور والأساطير العربية، شوقي عبدالحكيم، مكتبة مدبولي).

وعن أول من اتخذ السائبة روى أبو هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون: يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجرّ قصبه في النار فما رأيت رجلاً أشبه برجل به منك ولا به منك، فقال أكثم: تخشى أن يضرّ بي شبهه يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه أول من غيّر دين إبراهيم وبحر البحيرة وسيّب السائبة وحمى الحامي. (تفسير ابن كثير)

وقال الإمام أحمد «١/ ٤٤٦» حدثنا عمرو بن مجمع حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنّ أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر، وإني رأيته يجرّ أمعاءه في النار. تفرّد به أحمد من هذا الوجه، وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لأعرف أول من سيب السوائب وأول من غيّر دين إبراهيم عليه السلام. قالوا: =

= ومن هو يا رسول الله؟ قال: عمرو بن لحي أخو بني كعب، لقد رأيته يجرّ قصبه في النار تؤذي رائحته أهل النار، وإني لأعرف أول من بحر البحائر. قالوا: ومن هو يا رسول الله؟ قال: رجل من بني مدلج كانت له ناقتان فجدع آذانهما وحرم ألبانهما ثم شرب ألبانهما بعد ذلك، فلقد رأيته في النار وهما يعضانه بأفواههما ويطآنه بأخفافهما، فعمرو هذا هو ابن لحي بن قمعة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم، وكان أول من غيّر دين إبراهيم الخليل فأدخل الأصنام إلى الحجاز ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرّب بها وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى «وجعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا» إلى آخر الآيات في ذلك. فأما البحيرة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس فإن كان ذكرا ذبحوه فأكله الرجال دون النساء وإن كان أنثى جدعوا آذانها فقالوا: هذه بحيرة. وذكر السدي وغيره قريباً من هذا، وأما السائبة فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة إلا أنها ما ولدت من ولد كان بينها وبينه ستة أولاد كانت عليه هيئتها فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين ذبحوه فأكله رجالهم دون نسائهم، وقال محمد بن إسحاق: السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر سيبت فلم تركب ولم يجز وبرها ولم يحلب لبنها إلا الضيف، وقال أبو روق: السائبة كان الرجل إذا خرج فقضيت حاجته سيب من ماله ناقة أو غيرها فجعلها للطواغيت فما ولدت من شيء كان لها، وقال السدي: كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته أو عوفي من مرض أو كثر ماله سيب شيئاً من ماله للأوثان فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا، وأما الوصية فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع فإن كان ذكراً وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء وإن كان انثى استحيوهما وإن كان ذكرا وأنثى في بطن واحد استحيوهما وقالوا وصلته أخته فحرمته علينا. (رواه ابن أبي حاتم) وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال: فالوصيلة من الإبل كانت الناقة تبتكر من الأنثى ثم ثنت بأنثى فسموها الوصيلة ويقولون وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر فكانوا يجعدونها لطواغيتهم، وكذا روي عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى، وقال محمد بن إسحاق «١/ ١٣٣»: الوصيلة من الغنم إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن توأمين توأمين في كل بطن سميت الوصيلة وتركت فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى جعلت للذكور دون الإناث وإن كانت ميتة اشتركوا فيها. وأما الحامي فقال العوفي عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا لقح فحله عشراً قيل حام فاتركوه، وكذا قال أبو روق وقتادة، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: وأما الحام فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئاً ولايجزون له وبراً ولا يمنعونه من حمى رعي ومن حوض يشرب منه وإن كان الحوض لغير صاحبه، وقال ابن وهب: سمعت مالكاً يقول: أما الحام فمن الإبل كان يضرب في الإبل فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه. وقد قيل غير ذلك في تفسير =

= هذه الآية، وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم من طريق أبي إسحاق السبيعي عن أبي الأحوص الجشمي عن أبيه مالك بن نضلة قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في خلقان من الثياب فقال لي: هل لك مال؟ فقلت: نعم، قال: من أي المال؟ فقلت من كل المال من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: فإذا أتاك الله مالاً فكثر عليك، ثم قال: تنتج إبلك وافية آذانها، قال قلت: نعم، قال: وهل تنتج الإبل إلا كذلك قال فلعلك تأخذ الموسي فتقطع آذان طائفة منها وتقول هذه بحير وتشق آذان طائفة منها وتقول هذه حرم؟ قلت: نعم، قال: فلا تفعل، إنّ كلّ ما أتاك الله لك حلّ، ثم قال: «ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام». أما البحيرة فهي التي يجدعون آذانها فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوتارها ولا أشعارها ولا ألبانها، فإذا ماتت اشتركوا فيها، وأما السائبة فهي التي يسيبون لآلهتهم ويذهبون إلى آلهتهم فيسيبونها، وأما الوصيلة فالشاة تلد ستة أبطن فإذا ولدت السابع جدعت وقطع قرنها فيقولون: قد وصلت، فلا يذبحونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض. هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجاً في الحديث، وقد روي من وجه آخر عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عوف بن مالك من قوله، وهو أشبه وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد «٤/١٣٦» عن سفيان بن عيينة عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو عن عمه أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة عن أبيه به وليس فيه تفسير هذه، والله أعلم وقوله تعالى: (ولكنّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) أي ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة ولكن المشركين افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها إليه وليس ذلك بحاصل لهم بل هو وبال عليهم (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) أي دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه، قالوا: يكفينا ماوجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك. قال الله تعالى: «أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا» أي لا يفهمون حقاً ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه فكيف يتبعونهم والحالة هذه لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلا. (تفسير ابن كثير)
وكذلك قال ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس في تعريف البحيرة والسائبة والوصيلة واللحام وما صدر في الجاهلية، فالبحيرة هي الناقة التي تلد خمسة أبطن فإن كان الخامس أنثى شقوا أذنها وحرمت على النساء والسائبة من الأنعام كانوا يسيبونها ولا يركبون لها ظهراً ولا يحلبون لها لبنا، والوصيلة الشاة تلد سبعة أبطن، فإن كان السابع ذكراً أو أنثى قالوا وصلت أخاها فلا تذبح وتكون منافعها للرجال دون النساء، فإذا ماتت اشترك فيها الرجال والنساء. والحام الفحل ينتج من ظهره عشرة أبطن فيقولون قد حمى ظهره فيسيبونه لأصنامهم ولا يحمل عليه ثم يقولون إنّ الله عز وجل أمرنا بهذا، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾. ثم الله عز وجل ردّ عليهم فيما حرموه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وفيما أحلوه بقولهم: خالصة لذكورنا، ومحرّم على أزواجنا، قال الله تعالى: ﴿قل آلذكرين حرم أم الأنثيين﴾ المعنى: إنّ كان الله =

فقال ابن عم الأمير: زوّجني هي سائبة ولا نايبة.

ومع إصراره ومجيء أبيه وافق وذهب وجلب الناقة السائبة وزوّجه بها. قاد ابن عم الأمير الناقة من خطامها وأدخلها إلى مخدعه، وفي الصباح وجدوا ابن عم الأمير ميتاً والناقة ترغي وتزبد وتبحث عن مخرج من تلك الغرفة.

رواية عائشة عجيبية

= تعالى حرم الذكرين فكلّ الذكور حرام وإن كان حرم الأنثيين فكلّ الإناث حرام وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين فإنها تشتمل على الذكور والإناث فيكون كل جنين حراماً. . .

الاّ أنّ اهم ناقتين في الذاكرة العربية هما ناقة الله أو ناقة صالح وناقة البسوس، فأما ناقة صالح التي كانت سائبة فعقرها قوم صالح فكان أن دمّر الله قبائل ثمود حين أرسل الله عليهم الصاعقة.

وقوم ثمود آراميين كانوا يسكنون اليمن إلى أن طردهم الحميريون القحطانيون، وبالتحديد حميد عبدشمس الملقب بسبأ لأنه كان يسبي أعداءه، فنزلوا جهة عرفت باسم نبيهم وهي مدائن صالح وأصبحوا مضرب الأمثال في التريق والتشتت. وقد ذكر الطبري أنّ موقعهم هو الحجر وضواحيها بين الحجاز وسوريا، وأنّ قبيلة ثمود من القبائل العربية البائدة المتفرعة من أولاد سام بن نوح، وسميت بذلك نسبة إلى أحد أجدادها، وهو: ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح. . .، وقيل: ثمود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وسيدنا صالح من هذه القبيلة، ويتصل نسبه بثمود، وكانوا قوما جاحدين آتاهم الله رزقاً كثيراً ولكنهم عصوا ربهم وعبدوا الأصنام وتفاخروا بينهم بقوتهم فبعث الله إليهم صالحاً مبشراً ومنذراً ولكنهم كذّبوه وعصوه وطالبوه بأن يأتي بآية ليصدقوه فأتاهم بالناقة وأمرهم أن لا يؤذوها ولكنهم أصروا على كبرهم فعقروا الناقة وعاقبهم الله بالصاعقة فصعقوا جزاء لفعلتهم ونجى الله صالحاً والمؤمنين.

التركي وبنات الحطاب

كان ياما كان، كان في حطاب يحتطب يومياً حزمة حطب ويبيعها ويصرف ثمنها على بناته الثلاث.

وتسلّط عليه باشا تركي كان يقف للباعة ويسلبهم بضاعتهم، ومن ضمن أولئك الباعة الحطاب حيث يأخذ منه حزمة الحطب ولا يعطيه شيئاً، واستمرّ على هذا أياماً، وكان الحطاب يعود إلى بناته حزيناً متحسراً ويقلّب الأمر على أوجه كثيرة، فهو لا يقدر على مقاومة الباشا التركي واستسلامه له يعني حرمانه من توفير القوت لبناته.

لاحظت البنات أنّ أباهم لم يعد يحضر لهم طعاماً وطوال الوقت يجلس حزيناً شارد البال، وكانت ابنته الصغرى الأحبّ إلى قلبه والأكثر ذكاء بين أختيها، فجلست إلى أبيها تسأله عمّا أهمّه، ولماذا لم يعد يحضر شيئاً، حتى الطعام؟

فحكى لها حكاية الباشا التركي الذي تسلّط على الناس باعتراض طريق الباعة وأخذ بضاعتهم ومن يعترض يجلد أو يسجن.

سمعت من أبيها ما يعانيه، فذهبت إلى أختيها وأخبرتهما بالخبر، وقالت لهما: إني أعددت خطة لتأديب هذا التركي، وأخبرت أختيها بخطتها فوافقاها عليه. . .

وفي الصباح الباكر تزينّ وذهبن إلى بيت التركي (وقد سألن عن بيته فعرفنه). طرقت البنت الصغرى الباب ففتح الباشا التركي الباب ليجد ثلاث فتيات يتغنجن بدلال ويطلبن منه قضاء اليوم معه. فرح الباشا كثيراً وأخذ يرحّب بهنّ ترحيباً فائضاً.

وسأل الصغرى عن اسمها فقالت: اسمي ارقص، وسأل الوسطى عن اسمها فقالت: اسمي من مثلي، وسأل الكبرى عن اسمها فقالت: اسمي أنا فين.

استغرب من أسمائهن الغريبة لكنه لم يدقق كثيراً، وحين أراد أن يستمتع معهن قالت له البنت الصغرى: سنبقى معك طوال اليوم والليلة والمفروض أن تكرمنا بالأكل وأنواع الشراب، فلو تذهب إلى السوق لجلب ما نشتهيه من مأكل ومشرب بينما نقوم نحن بترتيب مكان جلستنا.

وافقها الباشا وقال لهن: الآن أذهب إلى السوق وأجلب ما لذّ وطاب من مأكل ومشرب. وما إن خرج حتى قامت بنات الحطاب باستدعاء أبيهن الذي أحضر عربات وحمالين وأخذ كل ما كان داخل بيت الباشا التركي ولم يبقين له شيئا، وغادرن البيت.

عاد التركي إلى بيته فوجد الباب مفتوحاً وكل ما كان بالبيت من تحف وأثاث وأرزاق جمعها طوال مكوثه بالبلد قد سرقت، فأُصيب بلوثة وأخذ يصرخ منادياً على البنات: مين مثلي... أرقص... أنا فين...

وكلما ارتفع نداؤه تجمّع الجيران حوله مستغربين من صراخه حتى إذا أعاد النداء وصرخ: مين مثلي

يردّون عليه: ليس مثلك أحد فأنت الباشا والمقدّم فينا.

وإذا صرخ منادياً: أنا فين

فيردّ عليه المجتمعون: صلّي على النبي أنت في بيتك

وإذا صرخ منادياً: أرقص

يردّون عليه: تشا ترقص فوق ارقص تشا ترقص تحت ارقص...

وظلّ على هذه الحال حتى حمله الناس إلى دار المجانين...

بينما عادت البنات مع أبيهن بكلّ تلك الأرزاق والغنائم وعاشوا في بحبوحة بعد ضيق.

رواية عائشة عجيبية

مين يشتري الكلام؟

كان ياما كان، كان في قديم الزمان شاب فقد أباه وليس له في المدينة لا قريب ولا بعيد، وقد ترك له أبوه ثلاثة دنانير لا غير. كان الشاب حزيناً لا يعرف ماذا يصنع في دنيته، فقرّر السفر وتجريب حظه في مكان آخر، فخرج مسافراً من بلد إلى بلد، وفي طريقه وجد رجلاً في طريقه يقول:

- أبيع كلام... أبيع كلام

فوقف عنده وقال له:

- كيف تبيع كلام... هو الكلام ينباع؟

قال له: ايوه ينباع

فقال الشاب: وريني

فقال البائع: ادفع فلوس اوريك

احتار الشاب بين فضوله وبين التفريط في الدنانير الثلاثة التي لا يملك غيرها، فسأل البائع:

- بكم تبيع الكلام؟

فقال له: بدينار

فكر الشاب وقرر أن يخسر ديناراً ويرى هذه البضاعة الغريبة العجيبة، فأعطى البائع ديناراً وقال له:

- خذ دينار واعطيني كلام

تناول البائع الدينار ووضعه في جيبه، وقال للشاب:

- حبيبك حبيبك ولو كان عبد نوبي!

فقال الشاب: طيب وبعدين

فقال له البائع: خلاص... هذا الكلام بالدينار حقك...

وقف الشاب مندهشاً وهو يسمع ذلك الكلام ومستغرباً من نفسه أنه دفع ديناراً لمثل هذا القول، ولا زال به فضول لمعرفة هذه البضاعة التي يعرضها البائع، فأخذت تنازعه نفسه وقرر أن يدفع ديناراً آخر مقابل أن يسمع، فناول البائع الدينار الثاني، فقال له البائع:

- لا تخن من اتمنك ولو كنت خاين.

فقال له الشاب: ها... كمّل.

فقال له البائع: خلاص الكلام اللي قلته بدينار ولو تبغى كلام ثاني هات دينار.

كان الشاب حائراً فلم يبقَ له إلا دينار واحد ولم يستفد من الكلام الذي قاله البائع، فقرر أن يتخلص من الدينار المتبقي ويرى ما يحدث، فناول البائع الدينار الثالث، فقال له البائع:

- ساعة الحظ ما تتعوض.

فطلب الشاب الاستزادة إلا أنّ البائع رفض إن لم يكن لدى الشاب ما يدفعه مقابل كلامه، وافترقا وذهب كلٌّ منهما لحال سبيله.

ندم الشاب على تفريطه في ما يملك مقابل كلام يمكن أن يسمعه في أي مكان، وظلّ يسير حتى دخل قرية ميتاً من الجوع، ولم يجد من يطعمه، فأخذ يبحث عن أيّ عمل يقوم به، وفي بحثه وقف عند طاحونة وسأل صاحبها أن يستخدمه كعامل، فوافق الرجل على أن يعمل عنده الشاب. وعند الغروب لاحظ الشاب أنّ كلّ من في القرية أسرعوا في إغلاق متاجرهم وأنّ الناس يركضون إلى بيوتهم، فسأل الشاب صاحب الطاحونه عمّا يحدث فقال له: هذه القرية مسكونة بمارد كبير يقبل أن يتحرّك الناس في الأسواق وفي الأماكن طوال النهار فإذا جاء الليل فليس من حق أحد أن يسير في الطرقات وتصبح البلد ملكه، وإن رأى إنسيّاً سأله سؤالاً فإن لم يجب خسف به الأرض فلا يعود للحياة، وأوصاه أن ينتبه لنفسه وأن يغادر السوق بعد إغلاق الطاحونة وقبل أن يسودّ الظلام.[1]

---

(١) تقول الأسطورة إن الإله زيوس غضب على البشر فحرمهم من النور فغدت الأرض غارقة في =

وأخذ الجميع يركض هارباً قبل أن يسودّ الظلام في تلك القرية. أغلق الشاب الطاحونة وخرج ولا يعرف إلى أين يمضي، وندم أنه لم يطلب من صاحب الطاحونة أن يبيت عنده.

تحوّلت القرية إلى ظلام دامس وليس هناك من كائن يدبّ على الأرض. شعر الشاب بالخوف الشديد وهو يسير من غير هدى، وبينما هو يسير ظهر له المارد الجبار غاضباً صائحاً بأعلى صوته: مين اللي كسر كلامي وخرج في الليل.

= ظلام دامس ليقوم بروميثيوس بسرقة النار وإشعال الأرض وإخراجها من ظلمتها إلا أن هناك من يرى أن بروميثيوس سرق شعلة المعرفة (وليس شعلة النار وهناك فرق كبير) سرقها من عند زيوس كبير الآلهة ليعطيها للبشر. كان بروميثيوس إلهاً كذلك، لكنه ارتأى أن المعرفة لا يصح أن تبقى لدى الآلهة فقط، ولم يكن أبداً مؤيداً لزيوس في عزلته عن البشر واحتقاره لهم. وبالرغم من تحذيرات زيوس له بأن المعرفة المقدسة لا تصلح للبشر، فقد خدعه بروميثيوس وأعطى للبشر - الساكنين في الكهف المظلم آنذاك - ما قد يفتح لهم مجال الألوهية. فوهبهم حرفة النجارة، وعلوم الفلك لمعرفة الأزمان والنجوم، ثم أعطاهم الكتابة. وأخيراً سرق شعلة النار المقدسة من عند زيوس ووهبها للبشر!

حين أضاءت النار المقدسة الكهف المظلم، تفجّر الإبداع لدى البشر! وبدا أنهم قد يصيرون هم أيضاً آلهةً أو ما شابه. عندها، اشتدّ غضب زيوس - كبير الآلهة - على بروميثيوس وعلى البشر؛ فقرر أن يعاقب الجميع!

عوقب بروميثيوس - الإله الطيب - بأن عُلّق على جبل القوقاز عارياً، بينما النسر الإلهي يأكل كبده. وحتى يدوم عقابه للأبد، فقد أمر زيوس بأن يُخلق له كبدٌ جديد كلما تفتت كبده - **الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية**، فراس السواح).

ولو أردنا استكمال الأسطورة فهي تقول إن هرقل يقوم بقتل النسر الذي كان يقتات على كبد بروميثيوس وخلصه من عذابه الأبدي.

+ وتيمة اقتسام العالم بين نور وظلام تواجدت في الديانة الزرادشتية فبعد أن قام أهريمن بمحاولة أخذ النور الكامن في المخلوقات أي بأسر الحياة، ويهبط بها إلى العالم السفلي، ولكن في يوم النهاية الموعود سيعود كل النور إلى أهورامزدا ثانية. فالنور دائماً إلهي وإن انتسب إلى الشيطان بعض الوقت، ولكنه عائد لأبديته مرة أخرى، ونتيجة لخطف النور الإلهي ستصيب المخلوقات الأمراض فيخلق لها مزدا الدواء، ثم يُصيب الإنسان العجز والهرم فيعوّضه الإله بأبناء حتى تستمر الحياة، وهكذا دواليك، فأهريمن بفعلته تلك قد تمم الخلق الإلهي ونفذ مشيئة الرب الأكبر في كائنات فانية ضعيفة تحتاج دائماً إليه. - الوحدانية في الديانة الزرادشتية (صراع المقدس والمدنس)، أحمد لاشين، نشر في السند يوم ١٩ - ١٠ - ٢٠٠٩.

ارتعب الشاب واعتذر أنه غريب عن البلد ولا يعرف شيئاً. . .

فزاد غضب المارد وقال للشاب: لا يعنيني أنك غريب فالشرط اللي بيني وبين سكان هذه القرية إني أخسف بأي إنسان ألقاه في الليل، وأنا خاسف بك الارض خاسفها. . . بس للأمانة لا أخسف بأحد إلا بعد أن أساله سؤال فلو لم يجب عليه خسفت بيه وإن أجاب عليه أصبح عبده وملك يمينه.[1]

كان الشاب يرتعد ولا يعرف له منفذاً للهرب فاستسلم لواقعه وأخذ يتشهّد قبل أن يسخف، وزاد هلعه مع ظهور أنوار ودخان كثيف ظهر على أثرهما المارد وبيده فتاتين، إحداهما بيضاء شقراء فائقة الجمال والثانية في غاية الدمامة وسوء المنظر سوداء وشعرها منكوش وأسنانها متفرقة ورائحتها كريهة. أرعد المارد وقال للشاب: سؤالي لك:

- مين من البنتين أجمل.

كاد الشاب أن يستعجل ويشير إلى البنت الجميلة لكنه تراجع وتذكّر الحكمة التي اشتراها من بيّاع الكلام. لم يطق الجني صبراً لتأخّر إجابة الشاب فأوشك أن يخسف به إلاّ أنّ الشاب صاح قائلاً:

- حبيبك حبيبك ولو كان عبد نوبي.

صعق المارد من الإجابة وانحنى للشاب صائحاً:

---

(١) أيضاً تتكرّر هنا نفس تيمة أبو الهول مع أوديب حين يسأله سؤاله الشهير: ما هو الشيء الذي يسير على أربع في أول النهار وعلى اثنين في وسط النهار وعلى ثلاث في آخر النهار.
وهناك أبو الهول المجنح نقش هكسوسي سوري، وهو رمز من رموز السلطة. وعن انتقال الهكسوس من مصر إلى اليونان يتحدث اسخيلوس في مسرحية «الضارعات» أو بنات داناؤوس أو «المستجيرات» عن مجيء داناؤوس الهكسوسي، ملك ليبيا إلى أرغوس اليونانية مع بناته الخمسين هرباً من أبناء شقيقه إيغيبتوس ملك مصر، وعددهم خمسون أيضاً، الذين أرادوا الزواج من بنات عمهم. وشن إيغيبوتس حملة على أرغوس وانتصر فيها، وتزوّج كل واحد من أبنائه بنتاً من بنات داناؤوس. وفي ليلة العرس تلقت كل بنت خنجراً من أبيها وأمراً بقتل زوجها. وهكذا قتلت ٤٩ بنتاً ٤٩ رجلاً ما عدا هيبرمسترا التي عشقت زوجها لونكي. وفي الأثر قام لونكي بالانتقام لإخوته القتلى، فقتل داناؤوس وبنات عمه جمعيهن ما عدا زوجته. - بين الأسطورية والتاريخية مأساة أوديب وقصة أخناتون، صقر أبو فخر، مجلة نزوى، العدد السبعون.

- لقد ملكتني، فمنذ ألف سنة لم يجب على هذا السؤال أحد، أنا عبدك ورهن يمينك من اليوم ولو أردتني صفّق واذكر اسمي تجدني بين يديك.

هدأ الشاب وحمد الله على نجاته، وعاد وفتح الطاحونة ونام بداخلها إلى الصباح، واعتذر من صاحبها على المبيت داخلها كونه خشي أن يصيبه مكروه، فقال له صاحب الطاحونة: ليكن مبيتك هنا.

بدأ الشاب عمله وأراد الطحّان أن يختبر مقدرته في العمل، فكلّفه بطحن كمية ممّا اعتاد الطحانيين على طحنها، فقام بعمله على خير قيام. وأراد أن يختبر صبره فزاد الكمية أربعة أضعاف ما تتحمله الطاحونة، وطلب من الشاب أن يطحنها طوال الليل وأن لا يأتي الصباح إلا وهي مطحونة طحيناً دقيقاً. وعندما جاء الليل كان الشاب متعباً وراغباً في النوم، وقال في نفسه لو نمت ولم أطحن ما أمر به سيدي فسوف يطردني من العمل، فنهض ليقوم بعمله لكنه تذكر المارد فقال في نفسه: «أجربه»، فصفق وأخذ ينادي:

- شمروخ شمروخ

وفي الحال وجده يقف بين يديه مردّداً: شبيك لبيك عبدك شمروخ بين يديك.

فقال له: أريد منك أن تطحن هذا الطحين...

وفي لحظة كانت كلّ الكمية مطحونة طحيناً دقيقاً، وعندما اطمأن الشاب ذهب للنوم، فجاء سيده في الصباح ووجد أنّ الكمية قد طحنت بالكامل، ففرح كثيراً بالشاب، وأصبح يقبل أيّ كمية يتقدّم بها أهل القرية لطحنها، وكان الشاب قبل أن ينام ينادي على المارد شمروخ فيطحن أي كمية موجودة. اتّسعت تجارة صاحب المطحنة وأصبح يقبل من القرى المجاورة كميات كبيرة من الحبوب ويعطيها للشاب لطحنها...

أحبّ صاحب الطاحونة الشاب وكان يأتمنه على دخل الطاحونة وعلى كلّ شيء بها، وعندما وجده أميناً أوكل إليه مهمة إضافية من شراء احتياجات زوجته وتوصيلها إلى البيت، فكان الشاب يقوم بهذه المهمة يومياً، وقد رأته زوجة صاحب الطاحونة وأعجبت به وراودته عن نفسه، وكاد أن يقع لولا أنه تذكّر الحكمة الثانية التي اشتراها بدينار:

لا تخن من ائتمنك ولو كنت خاين. . .

فتمنّع ورفض وبينما كانت زوجة الطحان تحاول مع الشاب دخل زوجها، فارتاب ممّا يحدث إلاّ أنّ الشاب خرج سريعاً ولم يبقَ معتذراً من سيده أنّ هناك عمل كثير في الطاحونة وعليه أن ينجزه، وعندما خرج أخذت الزوجة تشتكي من سوء سلوك الشاب وتقول لزوجها:

- هذا هو من عطفت عليه واعتبرته كولدك!

أحسّ صاحب الطاحونة بغضب شديد وقال لزوجته: هذا الكلب يدنّس شرفي، لا وألف لا.

فأخذت تبكي وتطالبه بأن يقتله شرّ قتلة على فعلته. خرج صاحب الطاحونة غاضباً أشدّ الغضب، واتّجه من حينه إلى قرية تبعد عن قريته ثلاث شدّات، فقد كان يعرف قاتلاً مأجوراً في تلك القرية، وطلب منه قتل الشاب مقابل ما يريد من مال، فقال القاتل: أنا أقتل بمائة دينار، فقال له: سوف أرسل لك نصف المبلغ مع من أريدك أن تقتله والنصف الآخر مع شخص تعطيه رأس المقتول، واتفقا على هذا.(١)

---

(١) هذه التيمة تتكرر دائماً في قصص الملوك حين يرغبون في القضاء على خصومهم بأيدي عمالهم في الأمصار، ومن أشهر القصص العربية ما حدث للشاعرين الجاهليين طرفة بن العبد والمتلمّس حيث أمر الملك عمرو بن هند أن يكتب لأحد رجاله من عبد القيس بالبحرين وهو المعلّى أن يقتل طَرَفَة، فقال له بعض جلسائه: إنك إن قتلت طَرَفَة هجاك خاله المتلمّس، وهو رجل مسنّ مجرّب، وحليف وصديق طَرَفَة، فعدل عمرو عن ذلك، وأرسل إلى طَرَفَة والمتلمّس فأتياه إلى الحيرة التي كانت عاصمة للمناذرة، فأكرمهما وأغدق عليهما العطايا، ثم كتب لكلٍّ منهما كتاباً إلى المكعبر، عامله في البحرين وعمان، (سمي كذلك لأنه كان يقطع الأيدي والأرجل لأعدائه) وحمّلهما الهدايا وقال لهما: خذا كتابي هذا، وأعطى كلاًّ منهما كتابه بيمينه، وانطلقا إلى المكعبر فقد أمرت بإكرامكما. . . وإذ كانا في الطريق بأرض بالقرب من الحيرة رأيا شيخاً دار بينهما وبينه حديث، ونبّه الشيخ المتلمّس إلى ما قد يكون في الرسالة. ولما لم يكن المتلمّس يعرف القراءة، فقد استدعى غلاماً من أهل الحيرة ليقرأ الرسالة له، فإذا فيها: «باسمك اللهم. . . من عمرو بن هند إلى المكعبر. . . إذا أتاك كتابي هذا من المتلمّس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً». فأخذ الكتاب من الغلام ومزّقه وقذفه في النهر ثم أنشأ وقال لابن اخته طرفة: والله إنّ الذي في كتابك مثل الذي في كتابي، فقال طَرَفَة: لئن كان اجترأ عليك ما كان بالذي يجترئ عليّ، وأبى أن يطيعه، فسار المتلمّس من فوره ذلك حتى أتى الشام، وخرج طَرَفَة حتى أتى صاحب البحرين المكعبر بكتابه، فقال له =

عاد صاحب الطاحونة إلى بيته فاستقبلته زوجته سائلةً عمّا صنع فوعدها خيراً وأنها سوف تسمع ما يسعدها. تصنّعت الفرح وقالت له: لن أفرح حتى أراك انتصرت لشرفك، فقال لها: سأجعلك تتحققين من هذا بنفسك.

وفي اليوم التالي ذهب إلى طاحونته ووجد الشاب يعمل بجدّ واجتهاد، فقرّبه وقال له: أريد منك إيصال هذه الخمسين دينار إلى صديق لي في القرية الفلانية وتبلّغه تحياتي، فردّ عليه الشاب: حبّاً وكرامة.

وحمل المبلغ وخرج مسافراً، وفي طريقه رأى احتفالات عرس، وكان جائعاً، فقال في نفسه: أمرّ على هؤلاء المحتفلين وأصيب معهم أكلاً وأكمل سفري. رحّب به أهل العرس وشاركهم أفراحهم بالرقص واللعب والأكل، وبعد العشاء همّ بمواصلة سفره إلاّ أنّ العريس أصرّ عليه بالبقاء ومشاركته الرقص والغناء كضيف معزز مكرم. وتذكّر الشاب الحكمة التي اشتراها بديناره الثالث والأخير:

- ساعة الحظ ما تعوض.

فقال في نفسه: أستمتع مع هؤلاء الناس وفي الصباح أواصل سفري، وظلّ معهم إلى وقت متاخر من الليل، ومع انتهاء العرس كان مجهداً ومتعباً فنام.

أما صاحب الطاحونة فقال لزوجته: اليوم سوف تتأكدين بأني أحبك حباً عظيماً، خذي هذه الخمسين دينار واذهبي بها إلى فلان في القرية الفلانية، وعندما

= صاحب البحرين: إنك في حسب كريم وبيني وبين أهلك إخاء قديم، وقد أمرتُ بقتلك فاهرب إذا خرجت من عندي فإنّ كتابك إن قرئ لم أجد بدّاً من أن أقتلك، فأبى طَرَفَة أن يفعل، فحبسه المكعبر، وكتب إلى عمرو بن هند قائلاً: «ابعث إلى عاملك من تريد فإني غير قاتله». فبعث ملك الحيرة رجلاً من تغلب، وجيء بطرفة إليه فقال له: «إني قاتلك لا محالة... فاختر لنفسك ميتة تهواها». فقال: «إن كان ولا بدّ فاسقني الخمر وأفصدني». ففعل به ذلك. وكان ذلك نحو عام ٥٦٩ م، وحين علمت الخرنق، وهي شاعرة من شعراء الجاهلية وأخت طَرَفَة من أمه، ما حصل معه رثته بقصيدة طويلة. وقبر طرفه معروف الآن في البحرين. وتمّ حديثاً إنشاء نصب الشاعر طرفة بن العبد بمدينة حمد بالبحرين على شكل هرمي وضعت عليه صورة تخيلية للشاعر وكتبت عليه نبذة عن حياته، ويحتوي هذا النصب على متوازي مستطيلات بالجهة الأخرى منه كتب عليها جزء من شعر الحكمة الخاص بالشاعر وستة أعمدة أسطوانية الشكل مقوسة تعكس التراث العربي والجاهلي الخاص بالجزيرة العربية وتوابعها. (موسوعة الكويبيديا الحرة)

تعودين ستعرفين مقدار حبي لك. حملت المبلغ وخرجت مسافرة، وانطلقت إلى القرية المحددة، ولأنّ الشاب نام متأخراً فلم يذهب مباشرةً وظلّ نائماً للعصر، أما زوجة الطحان فقد وصلت إلى القرية التي قال عنها زوجها بعد الظهر، وأعطت القاتل الخمسين ديناراً، فقام القاتل مباشرةً بقطع رأسها ولفّه في قماشة وأبقاه عنده. ومع الغروب كان الشاب قد وصل إلى قرية القاتل وأعطاه الخمسين ديناراً وقال له: يسلّم عليك سيدي ويقول لك مشكور، فاستوقفه وأعطاه لفة كان بها رأس زوجة صاحب الطاحونة، وقال له: قل لمن أرسلك: هذه هي الأمانة، فأخذ الشاب الكيس وهو لا يعلم ما بداخله ومضى عائداً.[1]

وعندما وصل تفاجأ صاحب الطاحونة لرؤيته وزادت دهشته حين ناوله اللفة التي بها رأس زوجته، فأجلسه واستحلفه بالله أن يقول قصته كاملة من غير

---

(١) كثيرة هي القصص التي تروي كيف نجا المظلوم من مثل هذه التدابير ومنها هذه القصة: «كان رجل يغشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك، فيقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه، فإن المسيء ستكفيه إساءته، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام، فسعى به إلى الملك، فقال: إنّ هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم أنّ الملك أبخر، فقال له الملك: وكيف يصحّ ذلك عندي؟ قال: تدعوه إليك، فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه، لئلا يشمّ ريح البخر، فقال له: انصرف حتى أنظر، فخرج من عند الملك، فدعا الرجل إلى منزله، فأطعمه طعاماً فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده، وقام بحذاء الملك على عادته، فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء ستكفيه إساءته، فقال له الملك: ادن مني. فدنا فوضع يده على فِيه مخافة أن يشمّ الملك منه رائحة الثوم، فقل الملك في نفسه: ما أرى فلاناً إلاّ صدق؟ قال: وكان الملك لا يكتب بخطه إلاّ بجائزة أو صلة، فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عُماله: إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبناً، وابعث به إليّ، فأخذ الكتاب وخرج، فلقيه الرجل الذي سعى به فقال: ما هذا الكتاب؟
قال: خطّ الملك لي بصلة، فقال: هبه لي! فقال: هو لك، فأخذه ومضى به إلى العامل وقال العامل له: في كتابك أن أذبحك وأسلخك، قال: إن الكتاب ليس هو لي، فالله الله في أمري حتى تراجع الملك؛ فقال: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه وسلخه وحشا جلده تبناً، وبعث به، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته، وقال مثل قوله، فعجب الملك وقال: ما فعل الكتاب؟ فقال: لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له، قال له الملك: إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر، قال: ما قلت ذلك؟ قال: فَلِمَ وضعت يدك على فِيك؟ قال: لأنه أطعمني طعاماً فيه ثَوم فكرهت أن تشمه، قال: صدقت، ارجع إلى مكانك، فقد كفى المسيء إساءته».

نقصان. . . فجلس الشاب يحكي له منذ أن مات أبيه إلى أن اشترى حِكَماً بكلّ ماله إلى اللحظة التي هما عليها.

فرح صاحب الطاحونة بنجاة الشاب وتعهّده وزوّجه وعاشا كابن وأب.

رواية يونس[1]

---

(١) يونس سيدة بلغت سنّاً متقدّمة، وتُعدّ من أهم راويات الحكايات في القرية، ويتمّ إسناد كثير من المرويات التي يتناقلها الأهالي إليها كمصدر للروي، وقد أجادت الحكي إلى درجة أنها غدت تؤلّف حكاياتها. ويعيد بعضهم غزارة الحكي لديها كونها مسافرة على الدوام تتنقل بين المدن والقرى بشكل دائم، وكان السفر في ذلك الزمان مقتصراً على التجار أو على من لهم بضائع يتنقلون بها بين القرى، والسيدة يونس كانت ممن يرتاد الأسواق بائعةً ومشترية.
وقد عاشت السيدة يونس في بداية القرن العشرين، وجلّ ما روته عائشة عجيبية كان نقلاً عن هذه المرأة. وعندما ثبّتُّ اسم يونس في سرد هذه الحكاية كي أشير إلى هذه الساردة العظيمة التي خلّفت وراءها عشرات الحكايات لم يصلني منها سوى القليل.
والملفت اسمها (يونس)؛ فهو اسم للمذكر، ولم يمرّ بي أنّ هناك امرأة لها نفس الاسم.

خالي خويخلي

قلنا وقلكم، قال كان في زمان بنت «حالية»، ومن شدّة حلاتها يحقد عليها بنات القرية من كثرة الخطّاب، فالخطّاب كل يوم «خطور» على بيت أبيها يطلبون الزواج بها، فيعتذر الأب أنّ ابنته لا تزال صغيرة ولا تصلح للزواج.

وكانت البنت طيبة القلب تحب معاونة الناس، وذات يوم خرجت مع صاحباتها للتحطيب، وبعد أن انتهين من جمع جذوع وأغصان الأشجار اليابسة وحزمت كلّ واحدة منهن حزمتها، مررن بعرج حبات كينة مستوية النضوج، فتشهت كل واحدة منهن تلك الحبيبات، فوقفن يتطلعن إلى حبات الكينة من غير أن يستطعن إسقاطها بالحجارة التي قذوفها باتجاه أغصان العرج الملتفة، فقالت واحدة منهن: ماشي فايدة لا بد من وحدة منا تطلع وتهز الأغصان.

وتخافتت مع زميلاتها عاقدات العزم على توريط البنت الجميلة وجعلها تصعد لتهز أغصان العرج، وبدأت كل منهن تقول للأخرى: اطلعي وهزي أغصان العرج.

قالوا للأولى، قالت: خايفة على كرتتي تتمزق.

قالوا للثانية، قالت: خايفة مصري يطير.

قالوا للثالثة، قالت: خايفة مقلمتي تتعلق.

قالوا للرابعة، قالت: خايفة وزرتي تفلت.

قالوا للخامسة، قالت: خايفة على سديريتي.

وكانت كلّ واحدة تعتذر بخوفها على شيء من أشيائها، فركزن على البنت الجميلة، وأخذن يمدحن خفتها وسرعتها وأنهن سيخترن لها الكين الناضج ويضعنه في «جبها»، فاستحت منهن، فساعدوها على تسلق الجذع، وصعدت متحملة أذى

ووخز الأشواك الحادة، واختارت لها مكاناً عالياً على فرع يابس، وأخذت تهزّ الأغصان الممتلئة بحبات الكين، فتتساقط الحبات بكميات كبيرة، فتجمع صاحباتها الحبيبات الناضجة في زنابيلهن بينما يضعن لها الحبات الخضراء في زنبيلها، وبعد أن جمعن كميات كبيرة تركنها فوق العرج وحملن حطبهم وزنابيلهن وانطلقن عائدات إلى القرية.

فأخذت البنت تصيح بهنّ أن يساعدنها على النزول، فلم يلتفتوا إلى ندائها واستغاثاتها وأسرعن في خطاهن للوصول إلى القرية قبل حلول الليل وقبل خروج الجن[1] من مخابئها.

أما البنت فأخذت تحاول النزول، وكلّما مدّت رجلها نحو غصن أو فرع وخزتها الأشواك أو أمسكت بملابسها، فتظلّ تخلّص نفسها وتعيد المحاولة فلم تنجح في كل محاولتها.

ودخل الليل بوحشته وظلامه الدامس، وخرجت الغيلان والسعالي تنفخ في تلك الظلمة بأصوات مرعبة، وظلت البنت في مكانها تنتفض من شدة الخوف، وسمعت وقع خطوات ثقيلة تسير باتجاهها، فصاحت به:

ياعمي العراج[2] أنا بنتك
نزلني اقصع قميلتك
ومهش خرقتك

---

(١) قسمٌ كبير من الجان هم أولاد حواء، ولذلك هم إخوان الإنس، ويقال إنّ حواء كانت تلد كلّ مرة أربعين طفلاً، ولخجلها لأنها لا تستطيع أن ترضع الجميع، كانت ترمي نصفهم، وعندما كان آدم يسألها: كم طفلاً وهبك إلهك، أجابت: عشرين، وأنكرت الآخرين. ولأنّ آدم لم يصدّق أقوالها، فقد ابتهل إلى خالقه أن يسمح للآخرين بأن يسكنوا الأرض، وأن يظهروا في الليل عندما ينام إخوتهم على ظهر الأرض. (المعتقدات الشعبية في التراث العربي، محمد توفيق السهلي وحسن الباش، دار الجيل، ص٦١).
وهناك اعتقاد بأنّ الجن يظهرون يوم الجمعة قبل الصلاة، والسبب في ذلك لحنين واشتياق حواء لأبنائها هؤلاء كانت تستدعيهم في يوم الجمعة حين يكون زوجها يصلي لربه ويرجع إلى بيته بعد الظهر.

(٢) العراج هو تيمة الرجل الذئب الذي يتشكل في هذه الهيئة، وقد نوهت عن تيمة الرجل الذئب في أسطورة حجاز بن مرجاز.

فالتفت صائحاً:

عرف انسي شاكله على ضرسي

فعادت تقول له:

ياعمي العراج أنا بنتك

نزلني اقصع قميلتك

ومهش خرقتك

فجلس تحت العرج وقال لها:

إن نزلتي هنا آكلك (واشار إلى كتفه الأيسر)

وإن نزلتي هنا آكلك (وأشار إلى كتفه الأيمن)

وإن نزلتي هنا مش حاكلك (وأشار إلى حجره)

استعدت البنت للقفز، مركزةً على السقوط في حجره، وسقطت في حجره، فقال لها:

- فلتّي من الأكل

وأمسك بها وقال لها: يا أنا أوصلك لبلادك يا أنت توصليني لبلادي.

قالت له: أنت وصلني لبلادي.

فقال لها: إن كان معاك كين جاني أنا واصلك وإن كان معاك كين بسر أنت توصليني.

فرحت البنت لهذا الشرط لأنّ صاحباتها وعدنها إن صعدت إلى العرج سيضعن الكين الناضج في زنبيلها، وعندما أخرجت الكين للعراج ووجده بسراً صاح فرحاً: أنت حتصوليني لبلادي...

وقال لها: هيا احمليني على كتفك...

فانثنت البنت وتعلّق العراج على كتفها وأخذ يدلها على طريق بيته، وطال السير فكانت تقول:

يابيت تقارب يابيت تقارب

حملي ثقيلو وانا شتعب

وكان يردّ عليها:

يابيت تباعد يابيت تباعد

حملها خفيفو والبنت تتقحب

وبعد مسيرة طويلة وصلت به إلى بيته في أعالي الجبال، وأدخلها وتزوّجها غصباً عنها وسجنها داخل البيت، وكان يخرج ليلياً من أجل أن يصطاد، وكان في كلّ ليلة يعود بجثث أوادم ويقدّمها لها فترفض أن تاكل، وتصنع لها أكلاً من الاعشاب التي تطلب منه أن يجلبها. ومرّت سنوات خلفت له ثلاثة غيلان يشبهونه في كلّ شيء.

أما أهلها فقد انزعجوا حين عادت الصبايا ولم تعد معهن، وحين سألهن عنها قلن إنها احتطبت وعادت مبكراً، ولا يعرفن عنها شيئاً. فبحثوا عنها في كلّ مكان ولم يجدوها، وكان لها أخ يحبها حباً كبيراً، فنذر أن لا يعود إلا ومعه أخته، وقد سافر من سنوات يبحث عنها في كل مكان.

وذات يوم وهو سائر رأى نسرين يتناقمان في احتراب وصل إلى نتف الريش وإدماء الجسد، فانتصر للمهزوم وصوب سهمه، فقتل النسر المعتدي برمية صائبة.

فنفش النسر المهزوم ريشه، وأخذ يتقلّب ويتشكّل حتى ظهر في صورة شاب جميل المحيا، واقترب من منقذه يشكره على إنقاذ حياته، وقصّ عليه قصة النسر المقتول وقال له: أنا ابن ملك كان له وزير يشتغل بالسحر، فعلمت بأمره وقبل أن أشكوه لأبي سحرني على صورة نسر وحبسني فوق ذلك الجبل المرتفع (وأشار صوب الجبل) ولا زلت محبوساً هناك إلى أن جاءني صباح اليوم على هيئة نسر ليخبرني بخبر وفاة أبي، فشعرت برغبة في الانتقام وطلبت منه إخراجي للحظات كي أرى الدنيا وما هي عليه، وكنت أضمر أن أقتله، وما إن أخرجني حتى أنشبت مخالبي في جناحيه، ولا زلنا نتعارك إلى أن صوّبت سهمك فأنقذتني، فمع موته بطل سحره. والآن سأعود إلى مملكتي فاقصدني هناك أعينك على نوائب الدنيا.

فقال له الفتى: أنا لا أريد من الدنيا شيئاً إلاّ أختي التي تاهت عنا من زمن طويل ولا نعرف عنها شيئاً. . .

فقال له الأمير: على رأس هذا الجبل فتاة حبسها (عراج) وكنت أسمعها تبكي يومياً تشكو فراق أهلها. . . فدعنا نعود إلى مملكتي وأسخّر لك كتيبة تخرج معك. . .

اعتذر الشاب وقال للأمير: أنا أولى بإنقاذ أختي فعد إلى مملكتك وسأتدبر أمري، فإن لم ألحق بك فأرسل من يبحث عني، وافترقا.

نشط الشاب وأخذ يتسلّق الجبل من الظهر وبلغ قمة الجبل مع دخول الليل، فرأى مغارة في أعلى القمة، وقرّر أن يبحث فيها، لكنه تراجع واختبأ بين الصخور حين رأى (العراج) يخرج منها ويتكبّب هابطاً الجبل حتى إذا ابتعد تحرّك الشاب ودخل المغارة، فوجد أخته ترضع عراجاً صغيراً، وانقضّ عليه عراجان صغيران كان يحاولان الوصول إلى كتفه وقضمه، فانتبهت أمهما لما يحدث وحملت المصباح لترى من ذا الذي دخل إلى مغارتهم، فعرفت أنه اخوها فأنزلت رضيعها وحملت «هراوة» وألقت بها على ظهري ابنيها تبعدهما عن أخيها، وأفهمتهما أنّ هذا خالهما فهدآ بعض الشيء، وقامت بتقييدهما بسلسلتين قصيرتين، وتعانق الأخوان وأخذت البنت تبكي وتشتكي لأخيها عما أصابها، فهوّن عليها الأمر، وجرى الوقت وهما يتحدثان، واقترب حلول الفجر فإذا بهما يسمعان خطوات العراج الثقيلة تقترب، فخافت على أخيها وقالت له: ماشي مكان أدسك فيه ولو رآك شياكلك...

ومن العجلة قامت وخبأت أخيها تحت المطاحن، ووضعت عليه الأغطية، فإذا بالعراج قد وصل حاملاً جثة على ظهره وقال لها: جهزي لنا الأكل...

وقبل أن يجلس هبّ صائحاً:

- عرف إنسي شاكله على ضرسي.

فخافت أن يكتشف موقع أخيها فجذبته صائحةً به: هذا عرفي ولا حسبتني قلبت عراجة...

وفي الحال أشعلت التنور ووضعت به حطباً كثيراً، وعادت إلى موقعها، فرأى العراج ابنين من أبنائه مقيدين والرضيع يتحرك ويسحب الألحفة التي تغطي خاله، فقال لها العراج: مالك جهلتك مربطين؟

فقالت له: آذوني ربطتهم.

فتحرّك ابنه الاكبر من قيده يحاول فكه وقال:

خالي خويخلي

تحت المطيحني

شااكله قبل ماياكلني

فقال العراج: مايقول ابنك؟

فقالت له: كنت ألاعبه واقله انه لك خال

ظلّ العراج يتشمم ويقول لها:

- عرف إنسي شاكله على ضرسي

فصاحت به: أقلك أنا إنسية والجثة اللي أتيت بها إنسية وما تشى تشمّ غير عرف إنسي!

وأمسكت بيده وقالت له: هيا احند لك الجثة.

فمشى معها إلى أن وصل إلى التنور الذي تحوّل حطبه إلى جمرات متقدة، وقالت له: عاين امجمر.

فانحنى ليرى فدفعت به بكلّ قوتها إلى داخل التنور فتماسك ولم يقع، فقفز أخوها نحوه وضرب هامتة بالسيف ضربةً قوية، فترنّح وطلب منه أن يثنّي[1] ضربته (فلم يفعل لأنه يعلم أنّ الضربة الثانية تحييه) فأسرعت أخته بدفع العراج إلى الموقد فوقع بين الجمرات وأخذ يصيح: كذا حرقتيني، والله لأدقدق عظامك وأنا ميت (يقصد بقاء أولاده) فعادت وسحبت ولديها المقيدين والرضيع وألقت بهم مع أبيهم داخل التنور، فاحترقوا كلهم، وأسرعت إلى إخراج أخيها من تحت المطاحن، ونزلا الجبل بأقصى سرعة.

واتجها إلى مدينة الأمير (النسر) الذي رحّب بهما وأكرمهما إكراماً عظيماً بأن جعل الشاب وزير دولته، وقام الشاب بإرسال جنود لإحضار أسرته إلى القصر، وتجمّعت العائلة وعاشوا في سعادة وهناء.

رواية عائشة عجيبية

(١) تكون ضربة الإنسي للجني ضربة واحدة لا يثنّيها فيقال إنّ تأبّط شرا قتل غولة بضربة واحدة من سيفه فقتلها، وإنّ الغولة عندما ضربها قالت له: اضرب الثانية فرفض، وهي التيمة التي تنصّ على أنّ ضربة الرجل المغوار لا تُثنّى وإلا كانت الثانية حياة للجني أو الجنية.

المرأة والحكيم

كان ياما كان، كان في امرأة لم ترزق من الدنيا إلاّ بولد وحيد، وقد مات زوجها وهي لا تزال شابة، وتقدّم لخطبتها الكثير إلا أنها ترفض في كلّ مرة وتقول: سخّرت حياتي لتربية ابني الوحيد.

وأفنت حياتها في تربية ذلك الشاب وتعليمه تعليماً متقدماً، وقد أحسنت تأديبه حتى برع في اكتساب حبّ كلّ من عرفه، وطمعت به فتيات القرية لأن يكون زوج المستقبل، واستشعرت أمه بذلك، فأخذت تتنبه في ترشيح إحداهن لأن تكون زوجة لابنها.

ولا يدوم على حال إلاّ رب العباد، فقد مرض الشاب وتفاقم مرضه وأسلم الروح، فجزعت أمه أشدّ الجزع، وتسامعت الجارات بخبر موت ابنها فتسارعن لمواساتها. مضت أيام وهي تنوح نوحاً يقطّع القلب، فقالت لها إحدى جاراتها:

- يوجد حكيم في قرية المداوية يعرف أسرار الحياة والموت ولو ذهبت إليه فربما يجد لك حلاً.

استبشرت المرأة، وقامت من حينها بوضع ابنها في تابوت وانطلقت إلى قرية المداوية التي سمّيت بهذا الاسم لأنّ الحكيم الذي بها يداوي كلّ من يقصده.

وصلت إلى القرية صباحاً، وسألت عن بيت الحكيم فدلّوها عليه، وعندما وقفت على بيته رأت حشوداً ملتفّين حول بابه، الكلّ يطلب دواءً لعلّةٍ أصابته أو أصابت أحد قرابته، فمكثت تنتظر اللحظة التي تقف فيها بين يدي ذلك الحكيم وهي تترجّى أن يسمح لها أولاً كونه تحمل ميتاً، وعندما يسمعها من حولها يقولون لها: أتبحثين عن دواء لميت.. !فلا تردّ عليهم.

بقيت على حالة الجزع تلك حتى جاء دورها، فدخلت مستنجدةً بالحكيم تُحلّفه أن يجد لها أعشاباً تعيد إليها ابنها الميت،[1] وأخذت تبكي بين قدميه مبديةً استعدادها لدفع ما يريده ذلك الحكيم مقابل وصفته.

أنهضها الحكيم من جثوها بين قدميه، وقال لها: أبشري بالخير، فقط أريد منك أن تحضري لي حبة سوداء[2] من بيت جيرانك أو من أي بيت كان بشرط أن لا

---

(١) فكرة العودة إلى الحياة بعد الموت هي فكرة قديمة جداً وقد وردت في أسطورة آرا الأرمنية، فقد كان آرا عاشقاً لسميراميس الساميّة وحين عرضت عليه الزواج ورفض وما حدث بعد ذلك من حروب أدت إلى مقتل آرا فتنبهت سميرميس لفقده وأرادت أن تعيده إلى الحياة، وعندما أعجزتها كلّ المحاولات ارتدت زيه واتّخذت هيئته وادّعت أنّ الإله أعاده إلى الحياة.

(٢) وجدت هذه الأسطورة ضمن أساطير الصين، وثمة اختلافات في سرد الحكاية، ومن الملاحظات التي سجّلتها حول هذه الحكاية مسألة التكيّف، فكلّ منطقة تكيّف الحكايات التي تصل إليها وفق بيئتها ومعتقداتها، ففي الأسطورة الصينية يطلب الحكيم من المرأة إحضار حبة خردل من بيت لم يمرّ به حزن، ونلاحظ أنّ الحكيم هنا طلب من المرأة الحبة السوداء (حبة البركة)، وهذا هو التكيّف، فالحبة السوداء في الثقافة الإسلامية تعالج كلّ الأمراض إلا السام (وهو الموت) ومع ذلك يطلب الحكيم تلك الحبة السوداء كونها مترسخة في الوجدان الإسلامي فقد حثّ النبي صلى الله عليه وسلم على التداوي بالحبة السوداء، وروى البخاري ومسلم في كتاب الطب، وابن ماجه وأحمد وغيرهم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحبة السوداء شفاء من كلّ داء إلا السام، أي الموت. وروى البخاري أيضاً الحديث عن عائشة بزيادة «إنّ». كما أنّ عبرة الحكاية هو الوصول إلى أن لا أحد يعيش من غير حزن.

وفي الحكاية الصينية يطلب الحكيم أن تأتي المرأة بخُرّوب وليس حبة السوداء، والخُرّوب نبتة أسطورية ظهرت مبكراً في الأساطير وتحمل نذير شؤم وكانت العصا التي استند عليها سليمان عليه السلام من الخرنوب.

حيث قال أبو جعفر: ثم لبث سليمان بن داود في ملكه بعد أن ردّه الله إليه تعمل له الجن ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وغير ذلك من أعماله ويعذّب من الشياطين من شاء ويطلق من أحبّ منهم إطلاقه حتى إذا دنا أجله وأراد الله قبضه إليه كان من أمره ما حدث به ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: كان سليمان نبي الله إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها: ما اسمك فتقول: كذا وكذا فيقول: لأي شيء أنت فإن كانت لغرس غُرِست إن كانت لدواء كتبت، فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها: ما اسمك قالت: الخُرّوب قال: لأي شيء أنت قالت: لخراب هذا البيت.

فقال سليمان: اللهم عمّ على الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، =

يكون أصحاب البيت الذي تجلبين منه الحبة السوداء قد مرّوا بحزن بتاتاً.

فرحت المرأة وأشرق وجهها وأخذت تمسح دموعها وتعده أن تعود إليه بتلك الحبة...

فقال لها: على بركة الله... ودعي ابنك عندي حتى إذا أحضرت الحبة أعالجه وأعيده للحياة...

فانطلقت عائدةً إلى قريتها والسعادة تغمرها حين تفكر برجوع ابنها من الموت.

أخذت تفكر أيّ البيوت يمكن لها أن تطرقه ولم يمرّ أصحابه بحزن قط، وفي تفكيرها استبعدت من مرّ بحزن من أهالي القرية، واختارت بيتاً تعرف أنّ أهله يعيشون في سعادة، وطرقت الباب فخرجت لها سيدة كبيرة في السنّ ورحبت بها، فقالت لها المرأة: جئت إليكم مؤملةً أن أجد عندك حبة سوداء.

فردّت السيدة الكبيرة: لك عيوني، بس حبة واحدة! سأعطيك كيس مليء بالحبات السوداء...

وقبل أن تنهض السيدة أمسكت بها المرأة تسألها: سآخذه منك بس هناك شرط.

فقالت لها السيدة: ما هو الشرط؟

فقالت المرأة: سآخذه إن لم يمر بك حزن.

فقالت السيدة: ومن ذا الذي لم يمرّ به حزن، فأنا أشدّ الناس حزناً، فقد كان زوجي يمتلك أموالاً طائلة ولم نكن نحتاج لأحد، ونشتري ما نشاء، وذات يوم ركب زوجي البحر فغرقت به السفينة، ومع موته لم نعد نملك شيئاً من هذه الحياة، وقد ترك لي عشراً من الأبناء كلّ واحد منهم له فم وبطن وأنا اسعى عليهم طوال اليوم ولا أوفي بمطالبهم...

فقامت المرأة (أم الشاب) تواسيها وتخفّف عنها وتهوّن عليها ما تجده في حياتها، ومدّت إليها بمبلغ مالي قائلةً:

= فنحتها عصاً فتوكأ عليها حولاً ميتاً والجن تعمل فأكلتها الأرضة فسقط فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين.

وكان ابن عباس يقرؤها حولاً في العذاب المهين قال: فشكرتِ الجنُّ الأرضة فكانت تأتيها بالماء. الكامل - تاريخ الطبري.

- تدبّري بهذا المال ما يحتاجه عيالك اليوم وإن شاء الله أقدر أن أساعدك في المرات القادمة.

شكرتها السيدة الكبيرة وطلبت منها أن تكون صديقة لها فوعدتها، وغادرت لتبحث عن بيت لم يُصب أهله بحزن قط.

طرقت باباً ثانياً وسلّمت على صاحبة الدار وطلبت منها الحبة السوداء بنفس الشرط، فتباكت المرأة وقالت لها: من ذا الذي لم يمر به حزن، فأنا متزوجة من رجل لم أحب في الدنيا أحداً كما أحببته، وفي ذات يوم وبينما كان يسقي دابته جاء شاب غرّ وأراد أن يسقي قبل زوجي فتشاجرا، ومع تجاذبهما دفع زوجي بذلك الشاب فسقط في البئر ومات، وقد غاب زوجي سنوات داخل السجن وكنت أؤمل أن يفرج عنه ويعفو أبو الشاب إلا أني سمعت قبل ثلاثة أيام بأنّ زوجي تمّ قصّ رأسه، وأنا الآن لا أعرف ما الذي أصنعه في حياتي، فقد اسودّت الدنيا في عيني.

فأخذت أم الشاب تواسيها وتهوّن عليها الأمر وتمدح جمالها، وإنّ الله سيعوضها بزوج خير من زوجها، ووعدتها أن تشارك في زفافها، فشكرتها الشابة على طيب أخلاقها وطالبتها أن تزورها دائماً، فوعدتها أم الشاب أن تعودها بمجرد انتهاء مهمتها التي خرجت من أجلها.

طرقت أبواباً كثيرة داخل قريتها ولم تجد بها بيتاً بلا حزن، فخرجت إلى قرى أخرى علّها تجد مبتغاها، وكانت تسأل عن أصحاب الدار قبل أن تطرق الباب.

دخلت على رجل مسنّ فطلبت أن يمنحها الحبة السوداء بشرطها فضحك وقال لها: من ذا الذي لم يمرّ به حزن، فأنا مثلاً عشت في هذه الحياة سعيداً ولم أفكّر أنّ الحزن سيصل إلي، وكان هذا البيت تضجّ به الضحكات، وفي ذات يوم كنت خارج قريتنا فاندفع السيل وأخذ البيت وكل من فيه، وها أنا كما ترين وحيداً ليس لي زوجة ولا ابن ولا بنت، وقد كانوا جميعهم حولي وأصبح حزني أني لم أمت بعد.

فأخذت المرأة أم الشاب تواسيه، وقامت وتفقدت بيت العجوز، وطهت له وجبة غذاء وغسلت ملابسه ونظفت أواني المطبخ وكنّست ورتبت الفرش والوسائد، فوقف العجوز عاجزاً عن شكرها، فقالت له: سأمرّ بك أتفقدك بين الحين والآخر، فدعا لها، وخرجت تبحث عن بيت آخر، وقد أشار لها فلاح على بيت يتوقع أن لا حزن مرّ بأهله.

طرقت الباب فرحبت بها امرأة وأوقفتها عند الباب وعادت إليها وأنقدتها مبلغاً كبيراً من المال، فقالت أم الشاب:

- أنا لا أريد مالاً بل أريد حبة سوداء واحدة.

فاستغربت منها المرأة ودعتها للدخول لتعرف قصة هذه التي رفضت المال الكثير ولا تريد إلا حبة سوداء واحدة، فقصت لها القصة، فقالت المضيفة: من ذا الذي لم يمرّ به حزن؟ هل تشاهدين كلّ هذا الخير الذي أنا عليه ومع ذلك حزينة، فقد تربيت يتيمة الأم وكان أبي مشفقاً علي أن يتركني في هذه الدنيا بلا أمان، فتقدّم لخطبتي الكثير ولم أكن راغبة بأحد، والشخص الوحيد الذي أقبل به كان ابن عمي، وقد تعاهدنا أن نكون لبعضنا، فأخبرت أبي بذلك فرحّب بتزويجي لابن أخيه، وقبل الزواج تماماً جاءت أمه تقول إنّ ابنها رضع من أمي، فلم يتمالك ابن عمي هذا الخبر ونحر نفسه أمامنا جميعا، وظللت أبكيه طوال الوقت، وبعد مدة أجبرني أبي على الزواج من زوجي ولم أحبه قط بالرغم من أنه طيب وينفق علي بسخاء.

فجلست أم الشاب تنصحها وتقول لها: ابن عمك مات فلا تميتي حياتك واهتمي بنفسك.

فرحت البنت لتلك النصائح وقالت لأم الشاب: لم أخبر أحداً بقصتي هذه ولكن طيبتك وسماحة وجهك جعلتني أقول لك فلا تغيبي عني.

فوعدتها أن تمدّ حبل الوصل بينهما وودّعتها وخرجت تبحث عن بيت بلا حزن.

وبينما هي تسير وجدت طفلة صغيرة تلعب بجوار بيتهم، فسألتها عن أمها فقالت لها: إنها بالداخل، فطرقت الباب لتجد ترحيباً وتهليلاً بمقدمها، فطلبت أم الشاب حبة سوداء مشترطة نفس شرطها، فقالت صاحبة الدار:

- ومن ذا الذي لم يمرّ به حزن، انظري لدي بنتان إحداهما عمياء والثانية خرساء، وقد أصابني الحزن لحالتهما، ولم أجد لهما طبّاً يخرجهما مما هما فيه، وكلما فكرت أني سأموت ذات يوم وستبقى بناتي تحت رحمة الناس يكاد قلبي يتشقق.

فأخذت أم الشاب تواسيها وتقول لها إنّ الله لا يضيع عبيده وإن محنتها مع

ابنتيها من أجل أن يرزقها الله الجنة. ارتاحت صاحبة الدار لحديث أم الشاب ودعتها لزيارتها كلّ وقت... وتوادعتا على لقاء يجمعهما ثانيةً.

انتقلت إلى قرى كثيرة ولم تجد بيتاً خالياً من حزن... وصلت في مسيرها إلى قرية المداوية، فقالت في نفسها: ربما يكون بيت الحكيم بيتاً لا حزن فيه... فطرقته ولم تجد الحكيم في الدار فقد خرج لبعض شأنه، فقالت أم الشاب لزوجة الحكيم: أريد منك حبة سوداء بشرط أن لا يكون الحزن قد مرّ ببيتك...

فقالت لها زوجة الحكيم: ومن ذا الذي لم يمرّ به حزن، فنحن بيت الأحزان، رزقنا الله بثلاثة أطفال شبّوا أمام أبصارنا، وكل يوم ونحن نمنّي أنفسنا بتزويجهم ورؤية أبنائهم... وفي ذات يوم دخل ابني الكبير في سباق خيل مع أقرانه، وعندما اشتد السباق وقرب المتسابقون من خط النهاية، وكان ابني في مقدمة السبق، ومن شدة فرحه أفلت اللجام من يده فسقط عن حصانه، فمرت من فوقه بقية الأحصنة ولم نستطع غسله فقد تمزّق جسده تماماً، وبعد أيام لحق به أخوه الأصغر، فمع موسم الأمطار انهمرت المياه من كلّ مكان، فكان صبية القرية يسبحون في «مطينة» قريبة من الحقول، ونزل ابني ليسبح معهم فرسبت قدميه في الطين، وقد أخرجوه منتخفاً حتى أننا لم نتعرف على هيئته، أما ابني الاوسط فقد مات قبل فترة وجيزة إذ سقط على رأسه حجر، فقد كان عابراً للسوق وهناك اثنان من المتخاصمين تبادلا قذف الحجارة فكان واحد منها من نصيب ولدي، فلق هامته ومات في الحال...

جلست أم الشاب تواسي زوجة الحكيم وتصبّرها على مصابها وتقول لها: ربنا يصبّركما بصبر أيوب ويمنحكما فرج الله الذي فرّج به على أيوب.

وهمّت بالاستئذان فأمسكت بها امرأة الحكيم لأن تتغدى معهما، فاعتذرت وذكرت لها أنّ هناك بيوتاً كثيرة عليها أن تزورهم وتواسيهم... وما أن فتحت الباب حتى وجدت الحكيم داخلاً، وعندما رآها سألها:

- علّك عدت بحبة السوداء؟

نكست رأسها وقالت له: من ذا الذي لم يمرّ به حزن؟

ثم قبّلت يده وقالت له: أين دفنت ابني؟

فقال لها: بجوار أبنائي، فقد علمت أنك لن تجدين بيتاً لم يمرّ بحزن وستعرفين الحياة بأنها مواساة، وأنّ من أثقله الحزن يموت.[1]

فشكرته وغدت يومياً تمرّ على كلّ أولئك الذين مرّت بهم تقدّم لهم ما تستطيع من معونة ومواساة.

رواية مريم حيدر

---

(١) هناك وحش أسطوري اسمه أمت، وهو من تيمة الأساطير المصرية الفرعونية وله هيئة تجمع ما بين كائنات مختلفة، وتنصّ الأسطورة أنّ هذا الوحش ينقضّ على كلّ قلب أثقلته الآثام، والآثام هنا تشير إلى المعاصي، ويبدو أنّ هذا الوحش أوجدته الأسطورة من أجل التطهر لكي يتخلص المرء من معاصيه قبل أن يصل إليه الوحش الأسطوري أمت.
وأمت مفردة تتكون حروفها من حروف الموت، أي إنّ النجاة من المعاصي تتأتى من خلال إنهاء حياة العاصي، وهي فكرة الخلاص عند اليهود، وقد سنّت عليهم كتطهّر من الإثم حين عبدوا العجل، فقد زيّن لهم السامري هذه العبادة وأخبرهم أنه أخذ شيئاً من أثر فرس جبريل عليه السلام، ثم طلب منهم التبرع بالذهب لكي يصنع لهم إلهاً (وهو ما عرف بالعجل) وحدث هذا في الفترة التي غاب فيها موسى عليه السلام لميقات ربه ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٥٤]

عمر ما يقوم

قلنا وقلكم، قال كان في ملك[1] عنده بنت (الحلى حلاها والزخم زخمها)، وكانت مطمع الخطّاب، وكل يوم يخطبها ملك أو أمير أو وزير، وهي تعيب في كلّ من خطبها وترفض خطبته، وقد ضاق أبوها من رفضها الدائم لخطابها، فأقسم أن يزوجها بأكسل رجل في مملكته إن لم تقبل بابن عمها زوجاً لها، وحين رفضت نادى الملك على وزرائه وطلب من كل واحد منهم أن يجوب المملكة بحثاً عن أكسل رجل في دولته ليزوجه بابنته.

تفرق الوزراء في المدن والقرى بحثاً عن رجل خامل كسول، وكلما عثروا على شخص اكتشفوا خصلة أو أكثر ينشط فيها هذا الخامل، فيعاودون البحث، وقد مضت فترة زمنية ليست بقصيرة وهم يجوبون الأرياف والقرى والمدن والجزر والجبال والصحاري، وكل ذلك البحث لم يثمر عن رجل يرى فيه الملك أنه كسول.

وكان الملك حريصاً على أن يبرّ بقسمه ويؤدّب ابنته التي لا يعجبها العجب، وكلما عاد وزير من بحثه أعاده مرة أخرى لمواصلة البحث والتقصي، وبعد أن أعلن كلّ وزير عن عجزه جمعهم الملك وقال لهم: أمامكم خياران لا ثالث لهما: إما أن تأتوا بهذا الشخص أو أبدّل بدلاً عنكم وزراء آخرين.

---

(١) قال ابن الكلبي: أول ملوك الأرض من بابل طهمورث وكان لله مطيعاً وكان ملكه أربعين سنة وهو أوّل من كتب بالفارسية وفي أيامه عبدت الأصنام وأول ما عرف الصوم في ملكه وسببه أن قوماً فقراء تعذّر عليهم القوت فأمسكوا نهاراً وأكلوا ليلاً ما يمسك رمقهم ثم اعتقدوه تقرُّباً إلى الله وجاءت الشرائع به.

فخاف كلّ وزير على منصبه، وقرروا أن يتعاونوا لإيجاد الشخص المطلوب، فكانوا يتبادلون المعلومات في سفرهم وترحالهم، وعندما لم يعثروا على ضالتهم رغبوا في العزل بدلاً من السفر الدائم.

وحين اجتمعوا سألهم الملك عن الأخبار فقالوا له: عجزنا. . .

وكان وزيره الأول قد تأخر عن الاجتماع، وقبل أن يصدر الملك أمره بعزل الوزراء دخل الوزير الأول وقال للملك: لقد عثرت على ضالتنا!

فاستبشر الملك خيراً وقال له: أين وجدته؟

فقال الوزير الأول: في القرية التي تجاور مدينتنا، ووجدته بالصدفة.

فقال الملك لوزيره: اذهب إليه وأحضره وأخبره أني مزوجه بابنتي الوحيدة.(١)

---

(١) شاعت مقولة «اخطب لابنتك قبل أن تخطب لابنك»، وهي مقولة تستحث الأب على إعمال خبرته وفراسته لاختيار الزوج الصالح لابنته، وقيام الآباء باختيار أزواج لبناتهم تكثر قصصهم في كتب السير، ومن تلك القصص قصة رواها ابن بطوطة في كتاب رحلاته كبيان أنّ اختيار الآباء يثمر ذرية صالحة: في مدينة جَبْلَة قبرُ الوليّ الصالح الشهيد إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه، وهو الذي نَبَذَ المُلْكَ وانقطع إلى الله تعالى حسبما شُهِرَ ذلك. ولم يكن إبراهيم من بيت مُلْك كما يظنه الناس، إنما ورثَ المُلْكَ عن جدّه أبي أمّه، أما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبّدين الوَرِعين المنقطعين. ويُذكَر أنّ أدهم هذا مرّ ذات يوم ببساتين مدينة بُخارى وتوضّأ من بعض الأنهار التي تتخللها، فإذا بتفاحة يحملها ماء النهر. فقال: «هذه لا خَطَرَ لها»، فأكلها. ثم ندم ووقع في خاطره من ذلك وسواس. فعزم على أن يعترف لصاحب البستان وأن يَسْتَحِلّه. فقرع باب البستان فخرجت إليه جارية، فقال لها: ادعي لي صاحب المنزل. فقالت: إنه لامرأة. فقال: استأذني لي عليها. ففعلت، فأخبر المرأة بخبر التفاحة، وطلب عفوها، فقالت له: إنّ هذا البستان نِصفُه لي ونصفُه للسلطان. (والسلطان يومئذ بمدينة بَلْخ، وهي مسيرة عشرة من بُخارى). وأحَلّته المرأة من نصف التفاحة. فذهب إلى بلخ، فاعترض السلطان في موكبه وأخبره الخبر واستحلّه، فأمره أن يعودَ إليه في الغد. وكان للسلطان بنت بارعة الجمال، قد خطبها أبناء الملوك فتمنّعت، وحُبِّبتْ إليها العبادة وحُبّ الصالحين، وهي تحبّ أن تتزوج من ورع زاهد في الدنيا. فلما عاد السلطان إلى منزله أخبر بنتَه بخبر أدهم، وقال: ما رأيتُ أورعَ من هذا، يأتي من بُخارى إلى بلخ لأجل نصف تفّاحة؟ فرغبت في تزوّجه. فلما أتى أدهم من الغد قال له السلطان: لا أحِلّك إلا أن تتزوج بنتي. فتمنّع أولاً ثم قبِل الزواج منها. وحملت منه فولدت إبراهيم رضي الله عنه الذي أسند الملكُ إليه بعد وفاة جدّه. وفي قصة عمر ما يقوم أراد الأب أن يؤدّب ابنته كونها لم تقدّر قيمة من جاء إليها خاطباً فأراد أن يوصلها إلى الحسرة حين يختار لها من لا يقدّرها.

خرج الوزير لتلبية أمر الملك.

أما الرجل الذي وجده الوزير في القرية القريبة فقد كان ابناً لامرأة فقيرة، وهو ابنها الوحيد، وقد اعتنت به منذ نعومة أظافره تدلّله وتحنو عليه وتقوم بجميع شؤونه، فاستمرأ الحال وكبر على هذا الدلال إلى درجة أصبح فيها لا يفعل شيئاً لأمه أو لنفسه، ولهذا كان طوال الوقت مستلقياً في الفراش وتقوم أمه بتلقيمه الأكل وإسقائه الشراب، وبالغ في كسله لدرجه أن تقوم أمه بغسله وتنظيفه وحلق ونتف شعر جسده، وتعيده إلى فراشه.

وإذا سألها أحد عن ابنها تقول: عمر ابني ما يقوم.

فعُرف في القرية باسم عمر ما يقوم.

المهم، وصل وزير الملك إلى القرية فتسابق الناس لاستقباله والترحيب به، وحين علموا أنه جاء من أجل عمر ما يقوم استغربوا أشدّ الغرابة وأصبح كلّ منهم يسأل عن السبب فلا يجدون جواباً.

تخلّص الوزير من مستقبليه وتحرّك إلى بيت عمر ما يقوم، فاستقبلته أم عمر جزعة وهي تسأل: ما الذي حمل الوزير أن ياتي إلى بيتها ويسأل عن ابنها؟ طمأنها الوزير وطلب منها أن تنادي ابنها لكي يتحدث معه، فقالت له: عمر ما يقوم.

استغرب الوزير ردّها واضطرّ أن يدخل غرفة عمر، وزادت غرابته أنّ عمر لم ينهض لاستقباله أو يمدّ يده للسلام عليه، فتغاضى عن ذلك خشية أن يفشل في مهمته. وجلس مواجهاً لرقدة عمر وقال له: لقد جاءك السعد وأبشر بما لم تحلم به أبداً.

ظلّ عمر صامتاً لا يجيب، فأحسّ الوزير بالغضب الشديد لبرود عمر ولم يجد بدّاً من القول:

- يا عمر أبشر، الملك يريد أن يزوّجك بنته وقد طلبك أن تحضر إلى قصره وتتزوج بها.

وكم كانت دهشة الوزير حين ردّ عليه قائلاً: أنا عمر ما يقوم.

فاستفسر منه: كيف عمر ما يقوم؟ أقلك الملك يريد تزوجيك بابنته وتقول: أنا عمر ما يقوم.

فردّ عليه: أنا عمر ما يقوم وإن كان الملك يريد تزويجي فليأتي هو وقله عمر ما يقوم...

كاد الوزير يجنّ من ذلك الردّ فصاح به: الملك يأتي إليك! هل جننت؟

واستعان الوزير بأم عمر لكي تقنع ابنها بالنهوض وتلبية دعوة الملك فقالت له: ابني عمر ما يقوم.

حاول الوزير كثيراً إقناع عمر بالنهوض وباءت كلّ محاولاته بالفشل ولم يجد بدّاً من العودة وإخبار الملك بما حدث.

وعندما وصل الخبر للملك فرح فرحاً عظيماً وقال: إن كان بهذا الكسل فهو عقوبة حقيقية لابنتي لكي تعرف قيمة الرجال...

ودهش الوزير الأول عندما وافق الملك على الذهاب إلى عمر في بيته.

وصل الملك إلى القرية يحفّ به الوزراء والقوّاد وانقلبت تلك القرية رأساً على عقب، وكلّ واحد يخبر الآخر بأن الملك في قريتهم، فتسابق سكان القرية لرؤية موكب الملك، وكما جاء الوزير ولم يعرفوا لماذا جاء إلى عمر ما يقوم أيضاً لم يعرفوا لماذا الملك جاء إلى عمر...

وتزاحم الناس حول بيت عمر ما يقوم منتظرين خبراً يشرح صدورهم لمثل هذا الاهتمام بشاب لا ينهض من فراشه منذ أن كان صبياً.

دخل الملك بيت عمر فلم يجده في استقباله، وأخبره الوزير أنّ عليه الدخول إلى مرقده، ففعل الملك ذلك عن طيب خاطر وهو يتشفّى فيما ستجده ابنته من هذا الكسول القادم.

وقف الملك على فراش عمر فلم ينهض لاستقباله فأرضاه ذلك التصرف، بالرغم من أنّ الوزراء نهروا عمر وأمروه أن ينهض لاستقبال الملك فردّ عليهم: أنا عمر مايقوم.

استجاب الملك لكسل عمر وعقد له على ابنته، وطالبه أن يختار يوماً ليأتي ويأخذ زوجته، فردّ عليه: لا، أنا عمر مايقوم، فقال الملك له: ستصلك زوجتك إلى هنا.

عاد الملك فرحاً، فقد وجد رجلاً لم يخطر في باله تماماً أن يكون على وجه

البسيطة، فدخل على ابنته وقال لها: لقد زوّجتك فاستعدي للذهاب إلى بيت زوجك.

ولم ينفع عناد الأميرة وتمنّعها، فقد أجبرها أبوها جبراً، فحملها الحراس إلى بيت زوجها حملاً، وقال لها أبوها وهو يودّعها: تذكّري أن ليس لك أحد إلاّ زوجك، ولو وقفتي على بابي فسآمر بحبسك.

حُملت الأميرة إلى بيت زوجها مكرهةً، وتُركت في فناء بيت عمر حاملة (بقشة) بها ثياب قليلة، فأشفقت عليها أم عمر وأدخلتها إلى غرفتها، وأقامت حفل زواج مصغّر، وزفّت إلى زوجها الذي لم يتحرك من فراشه.

نظرت الأميرة إلى زوجها فتحسّرت على الحال الذي غدت فيه، وفكّرت في الهرب لكنها تراجعت عن فكرتها، فهي لا تعرف شيئاً ولم تجرّب أن تفعل شيئاً قبل ذلك. ظلّت ليلها تنظر إلى تلك الجثة التي لم تتحرك بالرغم من تخففها من ملابسها، وخلال الأيام الأولى لمكوثها رأت أنّ زوجها لا يفعل شيئاً وأن أمه تخدمه في كلّ شيء، حتى أنها ذات ليلة دخلت عليهما مخدعهما، وقلبته فوق زوجته، وهو الفعل الذي حرص عمر على طلبه من أمه ليلياً.

مضت الأيام على هذه الحال وغدت الأميرة هي من تقوم بخدمة زوجها في جميع الأغراض.

وعندما حان موسم الحصاد قالت أم عمر للأميرة: يابنتي ماعندنا شيء خلينا نحضر الموسم علّنا نصيب أجراً من عملنا هناك...

فوافقت الأميرة على النزول للحقول والعمل كأجيرة لحش أعواد القصب وقطف الأعذاق، وقد رفض عمر النهوض ولم تكن أمه لتدعه في البيت وحيداً، فأحضرت «ظرف» كبير وتحمّلت هي وزوجته على إدخاله «الجب» وتناوبتا على سحبه حتى بلغا الحقول فتركاه بجوار أعواد القصب الخضراء «يتمنظر» وشاركتا النساء في الحشّ وقطف الأعذاق، وكان هناك «حامي» الحقول يتابع سير العمل، واستغرب رؤية تلك الفتاة الجميلة التي تظهر ملامحها وهيأتها أنها بنت عزّ، فهي تصرخ مع تمرير محشها وتصاب بجرح، فاقترب منها سائلاً عن حالها:

- مالك يابنت؟

فأخبرته أنها المرة الأولى التي تنزل فيها للعمل طالبةً منه العذر على التقصير، فسألها: مامعاك حد؟

فقالت له: معي عمتي وزوجي...

وأشارت إلى عمّتها التي جاءت إليها مسرعة تسأل عمّا يريده «الحامي» الذي وجّه حديثه إلى الأميرة:

- وأين زوجك؟

فأشارت إليه، فتحرّك الحامي نحوه غاضباً تتبعه الزوجة والأم، وحين وجد الحامي عمراً على تلك الحال سأله:

- أنت محلوس؟

فردّ عليه: أنا عمر مايقوم...

فقال له: كيف عمر مايقوم؟ ما تستحي من نفسك وأنت ترى زوجتك وأمك يعملوا وأنت جالس؟

فلم يزد على جملة: أنا عمر مايقوم...

غضب الحامي وحمل عصاته الغليظة وأخذ يضرب عمراً الذي نهض من الظرف راكضاً وهو يصيح وقد تبعته أمه وزوجته فرحتين بما حدث.

ومن ذلك اليوم وعمر يعمل ويراعي زوجته وأمه.

رواية عائشة عجيبية

ماء القلوب

كان ياما كان في قديم الزمان، كان لأحد الملوك ابنة في غاية الحسن والجمال، وعندما كبرت غيّر اسمها وسمّاها «ماء القلوب» لفرط عذوبتها ورقّتها، وكان يأنس بمجالستها فملأت حياته سعادة، وكلما كبرت زاد جمالها وغدت مطمعاً لكلّ راغب في الزواج.

ولم تكن الأميرة في كلّ حالاتها سعيدة، فهي تسأل أباها دائماً عن أمها التي لم تعد فيقول لها:

- ستعود.

ويكتفي بهذا الردّ من غير زيادة أو نقصان.

ويدخل مخدعه حزيناً باكياً لا يعرف كيف يتصرف في المشكلة التي وضع نفسه فيها، كون زوجته قد ماتت في يوم ولادة الأميرة، وقد أخفى خبر موت أمها عن الجميع حتى لا تكبر ابنته وتشعر بأنها كانت السبب في موت أمها. واستمرّت كذبته إلى أن جاء الوقت الذي أصبحت فيه الأميرة تسأل عن أمها بإلحاح.

وعندما ضاق الملك بسؤال وإلحاح ابنته استشار وزيره فأشار عليه بالزواج من امرأة أخرى والاتفاق معها على أن تقول إنها هي أم الأميرة.

راقت هذه المشورة للملك وتبقّى البحث عن امرأة تقوم بهذا الدور بإتقان، فقال له وزيره:

- دع هذا الأمر لي.

وكان الوزير ابناً لإحدى الجنيات المسجونات في بحر الظلمات قد سجنها الملك، فقد انتشر الجن في مملكته وأكثروا من إيذاء الناس. وفي يوم وجد الملك

خاتم الاسم مطوّقا برقبة إحدى الحمامات التي كان يرسلها برسائل ملكه، وبواسطة ذلك الخاتم[1] استطاع سجن كثير من الجن، ومنهم أم الوزير.

---

(١) في كثير من الأساطير يمثل الخاتم دلالة ملك وقوة وسطوة، وهو خاتم النبي سليمان حتى وإن لم يذكر نسبه للنبي سليمان، فتجد في الأساطير والحكايات أن امتلاك الخاتم يمكّن مالكه من تغيير حاله ويحقق له النصر.
وتلعب التيمة الحكائية على هذا الخاتم لما كان له من أثر في حكم النبي سليمان، كما أن المروية الأسطورية في ضياع خاتم سليمان جعلت السرد يعتمد على إنقاذ بطل الحكاية بحصوله على ذلك الخاتم.
وقصة ضياع خاتم النبي سليمان مروية في كثير من الكتب والسير التاريخية العربية والعبرية، ويروي كتاب الكامل في التاريخ قصة ضياع ذلك الخاتم فيقول: كانت لسليمان زوجة يقال لها: الأمينة (واسمها جرادة) وكان إذا دخل مذهبَه أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهّر، وكان لا يمسّ خاتمه إلا وهو طاهر، وكان ملكُه في خاتمه، فوضعه يوماً من تلك الأيام عندها كما كان يضعه، ثم دخل مذهبه وأتاه الشيطان صاحب البحر -وكان اسمه صخراً- في صورة سليمان لا تنكر منه شيئاً فقال: خاتَمي يا أمينة! فناولته إياه فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان وعكَفت عليه الطير والجن والإنس وخرج سليمان فأتى الأمينة وقد غُيّرت حالته وهيئته عند كلّ من رآه فقال: يا أمينة خاتَمي! فقالت: ومن أنت؟ قال: أنا سليمان بن داود فقالت: كذبتَ، لست بسليمان بن داود، وقد جاء سليمان فأخذ خاتَمه، وهو ذاك جالس على سريره في ملكه. فعرف سليمانُ أنّ خطيئته قد أدركته فخرج يقَف على الدار من دور بني إسرائيل فيقول: أنا سليمان بن داود، فيحثّون عليه الترابَ ويسبّونه ويقولون: انظروا إلى هذا المجنون أيّ شيء يقول! يزعم أنه سليمان بن داود. فلما رأى سليمان ذلك عمَد إلى البحر فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر إلى السوق فيُعطونه كل يوم سمكتين فإذا أمسى باع إحدى سمكتيه بأرغفة وشوى الأخرى فأكلَها، فمكث بذلك أربعين صباحاً عِدّة ما عُبِد ذلك الوثن في داره، فأنكر آصف بن برخيا وعظماء بني إسرائيل حُكم عدو الله الشيطان في تلك الأربعين صباحاً، فقال آصف: يا معشر بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيت! قالوا: نعم، قال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه فأسألهنّ: هل أنكرن منه في خاصة أمره ما أنكرنا في عامة أمر الناس وعلانيته، فدخل على نسائه فقال: ويحكنّ! هل أنكرتن من أمر ابن داود ما أنكرنا، فقلن: أشدُّه ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! إنّ هذا لهو البلاء المبين، ثم خرج إلى بني إسرائيل فقال: ما في الخاصة أعظم مما في العامّة، فلما مضت أربعون صباحاً طار الشيطان عن مجلسه ثم مرّ بالبحر فقذف الخاتم فيه فابتلعته سمكة وبصر بعض الصيادين فأخذها وقد عمل له سليمان صدرَ يومه ذلك حتى إذا كان العشيّ أعطاه سمكتيه فأعطى السمكة التي أخذت الخاتم ثم خرج سليمان بسمكتيه فيبيع التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة =

وكان الوزير يسعى للحصول على الخاتم لإنقاذ أمه وبني جلدته من السجن وعذاباته، وكانت خطة الحصول على الخاتم توجب الحصول عليه قبل أن يتزوج الملك وينجب صبياً، سواء هو أو ابنته.

وقد وجد الوزير الفرصة سانحة لأن يزوّج أخته بالملك لتعرّف أين يخبّىء الخاتم بعد أن تعب كثيراً ولم يصل إلى غايته.

استدعى أخته وأمرها أن تكون في حالة الإغراء والفتنة بدلاً من حالة العبوس التي كانت عليها وهي تجوب البحار السبعة. وقال لها:

- سوف أدعو السلطان إلى قصري وأريدك أن تعترضيه، فإن حدّثك فاسكبي عليه من ماء الرغبة ولا تجيبيه بكلمة.

أبدت الأخت السمع والطاعة، وقام الوزير بدعوة الملك إلى قصره وأقيمت وليمة ضخمة حضرها كبار رجالات الدولة، وفيما كان الملك يتطلع إلى قصر وزيره وما احتواه من كل نادر ونفيس متعجباً لمح فتاة فاق حسنها كلّ النساء التي رآهنّ في حياته، رآها تسير بين زهور البساتين الملحقة بالقصر، فخرج واعترض طريقها سائلاً عمّن تكون، فتحاشت وقفته ونضحت عليه ماءً كانت تحمله في إناء مخصّص لرش ماء الورد والكاذي، وانسحبت من أمامه مسرعة.

فتغيّرت حال الملك وتخلّى عن رصانته وأخذ يركض خلفها، فسبقته إلى داخل القصر وأغلقت دونه الأبواب. فأخذ يقرع الباب فلا يجد مجيباً، وكان الوزير متابعاً كلّ ما حدث، وافتعل أنه خرج باحثاً عن الملك فقد استبطأ عودته، وحين رآه يقف عند الباب انحنى له قائلاً:

- يا ملك الزمان، تأخرت علينا فافتقدك وخرجت لرؤيتك... هل يطلب مولاي شيئاً ألبّيه؟

قال الملك:

= ثم عمد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويّها فاستقبله خاتمه في جوفها فأخذه فجعله في يده ووقع ساجداً لله وعكَفَ عليه الطير والجن وأقبل عليه الناس وعرف أنّ الذي دخل عليه لما كان أحدث في داره فرجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه وأمر الشياطين فقال: ائتوني به فطلبتْه له الشياطين حتى أخذوه فأتى به فجاب له صخرة فأدخله فيها ثم سد عليه بأخرى ثم أوثقها بالحديد والرصاص ثم أمر به فقذف في البحر.

- أريد امرأة دخلت من هذه البوابة إلى القصر.

فقال الوزير: هذا الجزء مخصص لأختي ولا يشاركها إلا خدمها...

فقال له الملك: آمرك بإخراج جميع النساء المتواجدات وعرضهنّ علي.

لبّى الوزير الأمر وأخرج جميع الخادمات اللاتي بالداخل وعرضهنّ على الملك الذي تفحّص كلاً منهنّ فلم يجد المرأة التي سلبت قلبه بينهن، فقال للوزير:

- المرأة التي أريدها ليست من ضمن هؤلاء الخدم.

فقال الوزير: لم يتبقَّ بالداخل إلا أختي...

فقال الملك: أريد أن أراها؟

فقال الوزير: لا سلطان لي عليها وهي لا تقبل مقابلة رجل إلاّ إن جاء خاطباً...

فقال الملك: قل لها إنّ الملك جاء خاطباً لك.

فغاب الوزير للحظات وأفسح المجال لدخول الملك وانسحب من المكان، فظهرت أخته في أحلى زينة لها، ولم يتمالك الملك نفسه من الانبهار بها فانحنى يقبّل يديها ويظهر خضوعاً وأمنيات أن تقبل به زوجاً لها.

وقد وجدتها فرصة لأن تطلب الخاتم كمهر للاقتران بها لولا أنّ وصية أخيها لها عدم الحديث من قريب أو بعيد عن الخاتم خشية أن يفركه الملك لاختبار ما إن كان حوله جان فيلقي بهم إلى سجن بحر الظلمات.

وقد أوصاها أن تجيب بنعم على كلّ طلب يطلبه الملك أثناء رؤيتها، وحين عرض عليها الزواج وأجابت بنعم لم يستطع إدخال شرط أن تتدعي أنها أم الأميرة الغائبة خشية رفضها لعب الدور، وقد استعان بأخيها وقال له:

- لم استطع أن أخبرها بالشرط الذي طلبت الزواج من أجله.

فطمأنه الوزير قائلاً:

- دع الأمر لي وسوف أجعلها أماً حقيقية لابنتك.

ولم يشأ الملك أن يعلن الزواج بل كان الإعلان عن عودة الملكة من رحلتها الطويلة، وفي داخل الاحتفالات تمّ زفّ أخت الوزير على أنها الملكة العائدة.

وكم فرحت الأميرة الصغيرة بهذا الخبر، وأخذت تنظّم الجواهر واللؤلؤ في عقد لتقدّمه هدية لأمها الغائبة.

ودخلت أخت الوزير قصر الملك كأم لابنة الملك وليس كزوجة أب، ومع التقاء الأميرة الصغيرة بزوجة الأب استشعرت أنّ هذه المرأة تكرهها، وخشيت أن تخبر أباها بأنّ أمنية عودة أمها انعكست تماماً، وأنها تتمنى أنّ تلك الأم لم تعد، خاصةً بعد أن غاب عنها أبوها وأصبح طوال الوقت منشغلاً بزوجته ولا تراه إلاّ قليلاً. وفي تلك اللقاءات الخاطفة كان يسألها عن مدى فرحتها بعودة أمها فتظهر فرحاً بتلك العودة.

وكانت أخت الوزير لا عمل لها داخل القصر إلاّ تقليب كلّ شيء والعبث به وترك مهمة إعادة ترتيبه للخدم، وكلما رآها الملك على تلك الحال يسألها إن كانت تبحث عن شيء، فتجيبه نافيةً وتتعلّل أنّ من طبعها نبش الأشياء التي حولها وأنها لم تتخلص من عادتها تلك طالبةً منه الصبر على أفعالها، فقال لها:

- لا عليك... انبشي القصر كاملاً فهناك من سيعيد ترتيبه.

ووُجدت في هذا الأمر حلاً من أن تبرّر بحثها الدائم عن الخاتم.

كبرت الأميرة وزاد حسنها حسناً على حسن وتوافد الخطاب لخطبتها من كلّ حدب وصوب، وكان الملك يتمنى أن تُرزق ابنته بملك أو أمير يقدّر جمال ابنته وأدبها، هذه الأمنية أخذت تتلاشى بعدما توقف الخطاب عن خطبة الأميرة، فقد توالت أحداث الخطّاب وتناقلها الناس، فما أن يتقدّم أحدهم لخطبة الأميرة حتى يسخط[1] إلى صخرة ويموت في اليوم التالي مباشرةً.

---

(١) عادة ما يطلق على الأسلاف القدماء وتمائمهم وتماثيلهم اسم مساخيط أو مسخوط، والمفرد الأثري مسخوط أو مسخوطة، وتحول إبطال الحكايات إلى حيوانات أو طيور وهوام وأصنام في معظم الحكايات الخرافية عن طريق السحر والتنجيم.
السخط أو المساخيط هي مقدرة تحولات لشخوص الحكايات إلى حيوانات، وهي ليست قاصرة على تراثنا الفولكلوري العربي بل هي ملازمة للسحر كملمح عالمي في عمومها، وأقدمها بالطبع الأنماط البردية المصرية. (موسوعة الفلوكلور والأساطير، شوقي عبد الحكيم)
والمساخيط في الحكايات الأسطورية لا تُعدّ، حيث نجدهم كتيمة أساسية تقوم عليها بعض الحكايات، ونتذكر في هذا السياق الهرة الجميلة (في إحدى الحكايات السورية) التي تجمع الأزهار والفاكهة من حديقة الأمير في النهار وما أن تخلع ملابسها وتستحم في البحيرة ليلاً حتى تصبح فتاة جميلة، وفي هذه المجموعة نجد حكاية حجاز بن مرجاز وكذلك الناقة، وإن كان ثمة اختلاف في أنّ الناقة كانت أمنية أم في أن تُوهب مولوداً حتى ولو كان ناقة.
إلاّ أنّ المساخيط في الأساطير تيمة أساسية.

وأطلق الناس عليها لقب أميرة الموت، فكان يحزنها هذا اللقب ويزيد من وحدتها وانطوائها، وكانت تتمنى لو أنّ امها تتلطّف بها وتواسيها وتخفّف عنها ما تجده من ألم، إلاّ أنّ زوجة أبيها كانت تظهر السعادة مع خبر كلّ خطيب يموت، فقد كانت تمرّ على الأميرة وترمي باتجاهها خيطاً أحمرَ وتقول لها:

- ضعي هذا الخيط لنحسب عدد من يموت من خطابك.

فتصمت ولا تخبر أباها بما يحدث، وقد استشعر الملك وحدتها وحزنها فاستدعى المنجّمين والسحرة ليعرف سبب تصخّر ومقتل خطّاب ابنته، ولم يستطع أيٌّ منهم إجابته عن السبب.

وظلت الأميرة عزباء تعيش حزينة لا تحدّث أحداً ولا تلتقي بأحد... وكان أبوها يعرضها على المنجّمين والسحرة، وفي ذات يوم جاء ساحر طاعن في السن وقال للملك:

- امنحني الوقت ودعني أجالسها.

فسمح الملك بذلك، فكان الساحر يجالس الأميرة ويسألها عن حالها وبما تشعر، وما هو الشيء الذي تغير في حياتها، فلا تخبره بشيء، وعندما رأى صندوقاً وضعت به خيوطاً حمراء سألها عن سرّ تلك الخيوط المجموعة في ذلك الصندوق. عندها شعرت بالرغبة في الحديث وقالت له:

- كلّ خيط من هذه الخيوط يمثّل خطيباً مات بسببي.

وقصّت عليه قصّة أمها التي تأتيها وتناولها الخيط الأحمر مع تحجّر خطّابها وموتهم...

فأخرج الساحر خيطاً أبيضَ من جيبه وقال لها:

- ضعي هذا الخيط بين الخيوط الحمراء... وهذا الخيط سيكون صاحبه عريسك الذي تسعدين معه، ودليل قرب ظهوره سيتحوّل الخيط من اللون الأبيض إلى اللون الأخضر، وعليك أن لا تخبري أحداً حتى يتحقق مرادك...

تناولت الأميرة الخيط الأبيض فرحةً ووضعته في صندوقها، وانشرح بالها وغدت تتحدث مع الساحر العجوز، وكان يسألها عن أيّ شيء غريب يمرّ في حياتها، فقالت له:

- لا شيء غريب، فطوال اليوم أمكث في القصر لكن في الليل يزورني حلم لا يتغير...

استحثّها الساحر العجوز لأن تكمل فقالت له:

- ليلياً أرى فيضاناً يغمر بلادي[1] ويُغرق كلّ ما حوله وأظلّ وحيدة أستغيث بمن ينقذني فيخرج شاب ويحملني على حصانه ويطير بي في السماء... وعندما ينزلني يقول لي: أنا من سيتزوجك فلا تقبلي بأحد.

فقال لها الساحر:

- هل تعرفين هذا الشاب أو قد سبق لك أن رأيتيه؟

فتردّ الأميرة إنها لم تره من قبل.

فضحك الساحر وقال لها:

- هذا صاحب الخيط الأبيض وسيأتي ليتزوج بك.

فتلهفت لأن تعرف من يكون ومتى يظهر وكيف سيتخلص من عقوبة من يخطبها، وتلاحقت أسئلتها إلاّ أنّ الساحر العجوز أوقف كلّ تساؤلاتها وقال لها:

- الذي أعلمه أنه سياتي وحسب.

وطلب الساحر مقابلة الملك ليخبره بخبر الأميرة، وعندما وقف أمامه قال:

- هذه الأميرة تسلّطت عليها جنية من جنيات البحور السبعة ولن يتزوجها إلاّ رجل يأتي من البحار السبعة حاملاً رأس الجنية التي تسلّطت على ابنتك، ويكون وصوله إلى هناك بعد أن يحصل على خاتم الاسم، فإن لم يكن معه سيموت هناك.

دخل الملك مخدعه حزيناً مهموماً وحكى لزوجته سرّ تحجر خطّاب ابنته وموتهم، وأكمل لها الحكاية التي أخبره بها الساحر العجوز...

---

(١) يفسر الفراعنة الفيضان في أساطيرهم بأنه فيض الدموع التي تسفحها إيزيس وهي تبكي أخاها أوزيريس الذي قتله ست وعندما جاءت المسيحية إلى مصر وأزالت عبادة إيزيس استمرت أسطورتها تعيش في معتقد الفلاحين في شكل أسطورة مسيحية جديدة تقول إن الفيضان ينبع من دموع القديس ميخائيل الذي كان كلما حل ميعاد الفيضان يدخل على العرش الإلهي يرجو الله أن يرحم عبادة المصريين فيأمر بزيادة النيل، ويظل يتضرّع ويبكي حتى يستجاب دعاؤه فيفيض النيل من فيض دموعه!

أساطير من الشرق، سليمان مظهر، الهيئة العامة للكتاب، الألف كتاب الثاني ٢٧٤ صـ ١٦.

كانت اللحظة المناسبة لمعرفة أين يخبّىء الملك خاتم الاسم، وكانت وصية أخيها لها أن تعثر عليه بنفسها من غير أن تمسّه يد الملك قبل مسّها له. . .

فلم تبادر بالاستزادة وتركته يتحدث وهي توجّه حديثه إلى الغاية التي تريد، فقالت له:

- وهل لديك خاتم الاسم؟

فقال لها: نعم.

وصمت وصمتت. ظلّ صامتاً لبعض الوقت ثم أكمل:

- كنت أخاف على هذا الخاتم من أن يجده أحد فيستخدمه استخداماً سيئاً ولذلك أبقيته في عنق الحمامة[1] التي وجدت الخاتم مدلّى من عنقها.

أحسّت أخت الوزير أنّ الوقت حان لتعرف موقع الحمامة وتذهب بنفسها لاستعادة الخاتم، فتضاحكت وقالت له:

- مدام الخاتم معك أعطه لأيّ شاب تثق فيه وأرسله ليقتل الجنية ويعود لك برأسها. . .

فبكى الملك وأخذ يردّد:

- هذه الحمامة أطلقتها برسالة ولم تعد منذ شهرين، ولا أظن إلاّ أنها ماتت أو صادها أحد الصيادين.

وعندما سمعت أخت الوزير جملته الأخيرة تمنّت لو أنها تنزع رقبته عن جسده لولا أنه قال لها:

- لا زال هناك أمل في معرفة مصيرها.

فقفزت من مكانها سائلةً:

- وكيف هذا؟

فقال: كلما أردتها هدلتُ كهديل الحمام فتردّ علي في أيّ أرض كانت.

---

(١) اكتسبت الحمامة حضوراً رائعاً في ذاكرة البشرية كونها حملت البشارة بنجاة البشرية من الغرق، بعكس الغراب، وقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان ما يلي: وإنّ نوحاً صلى الله عليه وسلم حين بقي في اللُّجّة أياماً بعث الغراب، فوقع على جيفةٍ ولم يرجع، ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعاً يكون للسفينة مَرفأً، واستجعَلت على نوحٍ الطَّوق الذي في عنقها، فرشاها بذلك، أي فجعل ذلك جُعلاً لها.

استعادت أخت الوزير هدوءها وقالت له:

- نادِ عليها إذاً. . .

تحرك السلطان إلى شرفة قصره وأخذ يهدل حيناً وينصت حيناً، وعندما فرغ من هديله قال لزوجته:

- الحمامة قريبة جداً من هنا وأخبرتني أنها في قفص، ولها شهر ونصف وهي تنتظر نمو ريش جناحيها بعد أن قصقص صيادها ريشها.

تحفّزت أخت السلطان وتابعت:

- اسألها في أيّ مكان هي.

فقال لها: لا تعرف المكان لكنها في نفس المدينة التي نحن فيها.

وكان في المدينة شاب وسيم يهوى الصيد، وفيما كان عائداً من رحلة صيد استرخى تحت ظل شجرة وافرة الظلال لأخذ قسط من الراحة ثم مواصلة عودته إلى بيته، وفيما كان مضطجعاً رأى حمامة ليس لها شبيه تقف على أحد أغصان تلك الشجرة، فغافلها وأمسك بها وعاد إلى بيته مسروراً.

وتنبّه لوجود خاتم قد تدلّى من عنقها وحاول فكّ رباطه فعجز عن ذلك، فقام بقصّ ريش جناحيها وأبقاها في قفص مستقلّ، وكان يومياً يسقيها الماء المسكر وينثر لها أجود انواع الحبوب.

وذات يوم سمع نداء يتعالى حول البيوت يردّده أحد حرس الملكي بصوت جهوري:

- من يجد حمامة تدلّى من عنقها خاتم فله جائزة سنيّة.

وكانت أخت الوزير قد أمرت بعضَ الحرس بالدوران حول بيوت المدينة والمناداة على من يجد الحمامة والجائزة التي رصدتها لهذا الأمر.

فكّر الشاب بحمل الحمامة والوصول إلى قصر الملك وأخذ الجائزة، وقبل أن يُقدم على ذلك سمع الحمامة تهدل:

- ستصبح ملكاً لو قتلت مائة أفعى.

ظنّ نفسه واهماً، وعندما تكرّر هديل الحمامة وهي تقول له:

- ستصبح ملكاً لو قتلت مائة أفعى.

فتراجع عن حمل الحمامة والذهاب بها إلى قصر الملك، وأصبح يومياً يخرج

إلى البرية ويعود بعد أن يكون قد قتل ثلاث أو أربع أفاعي[١].

وكان يحمل تلك الأفاعي ويرمي بها أمام قفص الحمامة علّها تخبره بالمزيد إلاّ أنّ الحمامة ظلت صامتة في مكانها.

---

(١) الأفعى كائن ملعون في كل الديانات، فالجذر الأسطوري لوجودها هو أنها المسؤولة عن إدخال إبليس إلى الجنة إذ أخفته في نابها (ولذلك هو سام) وحين تمكن إبليس من دخول الجنة قام بإغواء أدم و(من أهم الرموز التي تشغل الوعي الديني الزرادشتي، رمزية الأفعى كما شغلت ديانات قديمةكبرى عدة كالمصرية القديمة بتعدّد مراحلها الفكرية، والبابلية بشقيها الأكادي والسومري فالأفعى ترمز إلى التناقضين، فهي ذات أصل شيطاني، ولكنها مرتبطة بالنار المقدسة في جانب آخر، وهناك ارتباط بين الأفعى والمقدس بشكل مباشر، وإن كان ارتباط لغوي لا أكثر، وتوضيح تلك الفكرة يحتاج إلى بحث منفصل حول العلاقة بين الأسطورة والتطور اللغوي، ليس فقط في السياق الديني ولكن في الملاحم والتراث الشعبي بشكل عام. ولكن من المؤكد أن الأسطورة الزرادشتية قد قدّمت أدلة كافية للارتباط بين الأفعى والشيطان، «ففي نهاية العالم سيتجسد أهريمن على شكل أفعى، وسيتم تقييدها بواسطة ملاك وفي حكاية أخرى بواسطة الإله الأكبر ذاته وستُلقى في الحجيم للنهاية».
وفي قصة مشهورة في الزرادشتية تم تناقلها في الملاحم الإيرانية خاصة الشاهنامة وهي قصة (الضحاك وأفريدون)، "فالضحاك مخلوق شيطاني له حيتان على كتفه، في الأسطورة ابتلعا الشمس، فكانت ظاهرة الكسوف، ولدى انتصار البطل الملحمي / الأسطوري افرديون عليه وقتلة للحيات سطعت الشمس من جديد، وكان عيد (المهران المهرجان)، كما أن الأصل اللغوي للضحاك (Aji Dhak ازى دهاك)، يظهر أنه من تجليات أهريمن، واسمه مركب من (ازى) Aji بمعنى الحية، و(دهاك) ويد اسمه (داسه) من أصل (Deas) اللاتينية، و(ديو) Div الفارسية يعني الشيطان، أي أن اسمه (حية الشيطان). خاصة إذا وضعنا في الاعتبار قصة تحول الضحاك إلى حليف للشيطان، فقد وعده الشيطان أن يُملّكه العالم بشرط أن ينفذ كل أوامره، وبالفعل طلب منه أن يُطعم حيتين سوف تنبتان له على كتفه رؤوس شباب البلد، واستمرت تلك الأزمة إلى ظهور أفريدون وانتصاره بعد ملحمة طويلة، وفي الروايات الأفستية، الضحاك هو الشيطان بشكل مباشر.
فالحية ذات صلة واضحة بعالم المقدسات والمدنسات معاً، بمعنى أنها تجسد تلك العلاقة الجدلية بصورة واضحة، فهي ذات أصل شيطاني أهريمي واضح، أي أنها مشاركة في تدنيس العالم، فقد ابتعلت الحية الشمس، كما أن التراث الديني الزرادشتي يذكر الحية المقدسة بوصفها حية سماوية ضخمة تلتف حول العالم لتلتهمه في لحظة سطوة أهريمن. - الوحدانية في الديانة الزرادشتية (صراع المقدس والمدنس)، أحمد لاشين، مقالة نشرت في السند يوم ١٩ - ١٠ - ٢٠٠٩.

وذات يوم نادى منادي الملك:

- إنّ من أراد الزواج بالأميرة فمهرها حمامة يتدلّى من عنقها خاتم.

وظلّ المنادي يدور في المدينة يومياً، ولم يتقدّم أحد لخطبة الأميرة خشية أن يكون مصيره التحجّر ومن ثم الموت.

ولم يسمع الصياد الشاب هذا النداء كونه يقضي معظم وقته في البرية لصيد الأفاعي التي تناقصت وبقيت في جحورها لا تخرج، ممّا حمل الصياد الشاب على مهاجمة أوكارها ونبشها وإخراجها وقتلها. وفي إحدى المرات، وبينما كان يهمّ بجزّ رقبة أفعى، صاحت به:

- وعدك في البحور السبعة وليس في البراري.

فوقف ممسكاً براسها وطالباً منها تبيان مقولتها، فقالت له:

- لا أخبرك بشيء حتى تعاهدني أن تكفّ عن قتل أهلي وأصدقائي. . .

فقال لها: لا أستطيع التوقف حتى أكمل قتل مائة أفعى. . . فأنا موعود.

فقالت الأفعى:

- أنت موعود في البحور السبعة وليس هنا.

وأخذت تقصّ عليه قصة الملك وسجنه للجنيات الشريرات في تلك البحور، وأنّ احداها تبحث عن خاتم الاسم لكي تتخلص من الملك وابنته وتعود إلى المدينة لتزاول شرورها كما يحلو لها من غير أن يسيطر عليها أحد، وأنّ الحل قتلها قبل أن تجد الخاتم.

فقال لها:

- فكيف أصل إلى البحور السبعة وأنا هنا؟

فقالت له: ستجد الحلّ لو عثرت على الحمامة التي تحمل خاتم الاسم.

تخلّى الصياد الشاب عن الأفعى ووعدها أن لا يعود إلى صيد الأفاعي في تلك البرية، فودّعته وتمنّت له التوفيق.

عاد الصياد الشاب إلى موقع الحمامة فوجدها قابعة في مكانها صامتة، وأخبرها بما قالت له الأفعى البرية وطلب منها مساعدته. فقالت له الحمامة: لن أساعدك حتى أعرف معدنك.

فاحتار وقال لها: وكيف أستطيع إخبارك بمعدني؟

فقالت له: أن تذهب إلى الملك وتطلب يد ابنته. . . ولا تخبره أني عندك.

فردّ الشاب: ولكن أخاف أن أتحجّر قبل أن أصل إلى الزواج من الأميرة.

فقالت له: حالما تخطبها سوف أساعدك.

خرج الشاب متوجّهاً إلى قصر الملك وطالباً رؤيته، ولم يسمح له بذلك إلاّ حينما أخبر الحرس أنه قادم لخطبة الأميرة.

فاستقبله الملك وأخت الوزير فرحين وهما يظنان أنه يحمل معه الحمامة، وعندما طلب الزواج من الأميرة ولم يظهر الحمامة صاحت به الملكة:

- ألم تسمع المنادي ينادي أنّ مهر الأميرة حمامة يتدلى من عنقها خاتم؟

فقال الشاب:

- جئت خاطباً وسوف أبحث عن الحمامة حتى أجدها.

وكان الملك مشفقاً عليه من التحجّر والموت فلم يطل معه الحديث وقال له:

- أفضل أن تسحب خطبتك ريثما تجد الحمامة.

فقال له الشاب:

- أنا صياد وأعرف كيف أجمع جميع الحمام المتواجد في المدينة وأريد منك أن تقبل خطبتي حتى لا يسبقني إلى الأميرة أحد.

فقال له الملك:

- أقبل خطبتك إن أعدت إليّ الحمامة.

فقال الشاب: أمهلني سبعة أيام.

وكان الملك غير راغب في قبول خطبته إلاّ أنّ أخت الوزير حفّزته على القبول قائلةً له:

- اقبل، فسبعة أيام ليست بالمدة الطويلة، وإن لم يأت بالحمامة يكون طلبه مرفوضاً.

فأبدى لها الملك تخوّفه من أن يموت الشاب في اليوم التالي ويزداد نحس ابنته.

فقالت له: أشعر أنّ هذا الشاب لديه الحمامة، فإن قبلت وأرسلت خلفه من يتعقّبه نكون قد ضربنا عصفورين بحجر: الحصول على الحمامة وزواج الأميرة في آن.

وافق الملك على خطبة الشاب وما أن خرج حتى أرسل في إثره حارساً يتبعه ويأتي بأخباره.

وكانت الأميرة تجلس في غرفتها حزينة كعادتها، تقلّب في أشيائها من غير اهتمام، وعندما سمعت خادمتها تخبرها أنّ خاطباً قدم لخطبتها ركضت إلى صندوقها الذي تجمع فيه الخيوط الحمراء، فرأت أنّ الخيط الأبيض الذي أعطاها إياه الساحر العجوز قد تحوّل إلى خيط أخضر، فقفزت في الهواء فرحةً وتمنّت لو أنها استطاعت رؤية خطيبها الذي تنتظر قدومه من زمن طويل. . . وكادت أن تخبر أباها بأنّ الخاطب الجديد هو الذي سيتزوج بها، كما أخبرها الساحر، إلاّ أنها تذكّرت الوصية بأن لا تخبر أحداً بأنّ خلاصها سيكون على يد هذا الشاب، فصمتت حيال ما أخبرها به أبوها من أنّ خاطباً جديداً قد تقدّم لخطبتها.

أما الشاب فقد عاد إلى بيته مسرعاً، فتلقّته الحمامة بنصيحة أخذ الحذر من كونه مراقباً وقالت له: ستجد أسفل مني ثلاث بيضات، خذها وانطلق إلى خارج المدينة، وقبل ذلك خذ معك الخاتم المدلّى من عنقي واطلب منه أن تحلّ صورتك بالحارس الذي يتبعك. . . أما الثلاث بيضات فاكسر الأولى ستجد بها فرس يطير بك إلى البحور السبعة، والثانية بها سيف يقطع أي رقبة، والثالثة سيكون بها درع يمنع عنك أي ضربة أو عين. . . وحين تصل إلى البحور السبعة ستجد نساءً كلّ واحدة منهن أجمل من الأخرى، وسيقلن لك: أهلاً بعريسنا، فلا تلتفت إليهنّ فإن استجبت تحولن إلى أفاعٍ وامتصصن دمك، وتظاهر بالقبول حتى إذا دنت الواحدة منك امسح على رأسها بالخاتم واقطف رأسها في الحال، ولا تخشَ الأفاعي التي تخرج من رؤوسهن وتحاصرك من كلّ جهة، وعليك بمواصلة السير إلى أن تصل إلى امرأة مقيّدة ستقول لك إنها أسيرة وترجوك فكّ قيدها، فإياك أن تنظر إلى عينيها، وضع بينك وبين نظراتها درعك، وتصنّع أنك منشغل بفك قيدها حتى إذا قالت لك: أنت الموعود بخلاصي، اقطع رأسها في الحال واحمله وغادر البحور السبعة في الحال ولا تنشغل بأيّ شيء آخر. وستجدني أنتظرك على أغصان الشجرة التي قبضت علي فيها.

كان الشاب يستمع إلى كلّ كلمة قالتها الحمامة، فبادر في الحال بحلّ عقدة

الخاتم المدلّى من رقبتها وتناول البيضات الثلاث وأطلق الحمامة من قفصها وهمّ بمغادرة البيت، فصاحت به:

- انتبه، لا تنسَ شيئاً ممّا قلت لك.

فوعدها أن لا ينسى، فقالت له:

- لقد نسيت أول واجباتك قبل أن تغادر بيتك.

فسألها عن الشيء الذي نسيه، فقالت له:

- سوف أُذكّرك به ولن أعيد عليك بقية الوصايا... ألم أقل لك اطلب من الخاتم أن تحلّ صورتك بالحارس الذي يتبعك؟

وفرك الخاتم وطلب منه أن تحلّ صورته بالحارس، وخرج إلى البرية مسرعاً، وكسر البيضة الأولى فخرج منها حصانٌ له أجنحة، وكسر الثانية فخرج منها سيفٌ بتار، وكسر الثالثة فخرج منها درعٌ برّاق... فامتطى الحصان وحلّق بعيداً.

أما الحارس فقد طمس على بصره ولم يرَ خروج الشاب وظنّ أنه لا يزال في بيته، وكانت مهمته مراقبة الشاب وتتبّع خطواته أينما حلّ، لذلك بقي بجوار البيت مترقّباً خروج الشاب.

مضت يومان على غياب الشاب ولم يعد الحارس بخبرٍ عنه، فأُصيبت أخت الوزير بقلقٍ كبير، فأرسلت من يأتي لها بالخبر.

وعندما عاد مرسولها أخبرها أنّ الحارس ليس له أثر وأنّ الشاب يجلس أمام بيته يقلّب سيفاً في يده.

استشعرت أخت الوزير بخطرٍ قادم، وذهبت إلى أخيها تخبره أنّ خطيب الأميرة لم يتحجّر ولم يمت، فأصابه القلق ولم يدرِ ما الذي يحدث أو ما الذي يمكن فعله.

أمّا الشاب فقد حلّق به حصانه المجنّح إلى البحور السبعة وهبط على جزيرة تناثرت على أرضها بقايا أسماك وطيور وجماجم مهشّمة وهياكل وصخور على هيئة بشر، وبزغت الأفاعي من كلّ جحر تسعى وتختلط بعضها ببعض، يتعالى فحيحها وتتقافز صوب الطيور التي تحطّ وتعاود الطيران. وما أن سار الصياد الشاب قليلاً حتى ظهرت فتيات جميلات أخذت كلّ واحدة منهنّ تتمنى عليه أن يأوي إليها وهي تتغنّج بدلالٍ فائر:

- انتظرتك طويلاً... تعال يا عريسي.

وحالما تحاول الواحدة منهنّ جذبه من يده يمسح على رأسها بالخاتم ويستلّ سيفه ويقطع رأسها فيتدحرج على أرضية الجزيرة وتتحوّل قطرات دمها إلى أفاعٍ تزحف نحوه فلا يبالي بتكاثرها، بل يظلّ متقدّماً يقطع رأس أيّ فتاة تقترب منه أو تحاول جذبه حتى امتلأت طريقه بأنواع مختلفة من الحيّات الزاحفة والطائرة والمتلوية، ومن على بعد لمح امرأة مقيّدة أخذت تصيح به:

- الحمد لله على مجيئك لتخلصني فأنا أسيرة هذه الجزيرة منذ زمن طويل.

رفع الشاب درعه بيده اليسرى على مستوى نظره متحاشياً تماماً أن تقع عينه بعين تلك الأسيرة ومقترباً منها بحذر وهي تزغرد:

- لم أكن أتوقع أن تأتي بهذه السرعة لتخلّصني ممّا أنا فيه...

ظلّ الشاب يتقدّم والمرأة المقيّدة تعده وتمنّيه بكنوز الأرض طالبةً منه فكّ قيدها على عجل[1]، ومنتظراً أن تقول جملتها التي أخبرته عنها الحمامة، وعندما لم تنطق بتلك الجملة همّ بضرب عنقها، لكنه تذكّر أنّ عليه تصنّع فك القيد، فاقترب أكثر وهو يردّد:

- قبل أن تجازيني عليّ فكّ قيدك أولاً.

فاستعجلته فرحةً:

- أنت الموعود بخلاصي.

وما إن نطقت بجملتها حتى نهض وألقى بسيفه على رقبتها بكلّ قوة، ففار ماء الجزيرة وتقافزت عشرات الحيات من جهات مختلفة وارتفع ضجيج حين دبّت الحياة في تلك الصخور التي وقفت على هيئة بشر، وأقبلوا للسلام عليه، وقبل أن يحيطوا به تماماً أمسك بشعر رأس الجنية المقطوع ووضعه في كيس وامتطى حصانه المجنّح وغادر البحور السبعة.

---

(١) العجلة سمة إنسانية اتّصف بها الإنسان، ولهذه الصفة تأسيس اسطوري، فقد روى السدّي عن أشياخه قال: لما أراد اللهّ عز وجل أن ينفخ في آدم الروح قال للملائكة: (فإذا نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين.) فنفخ فيه الروح فدخل فيه الروح من رأسه فعطس فقالت له الملائكة: قل الحمد لله فقال: الحمد للهّ فقال اللهّ: رحمك ربك، فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان فذلك قوله: ﴿خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾. (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي)

عاد إلى بلاده غير مصدّقٍ ما حدث، ومرّ على الشجرة وافرة الظلال فوجد الحمامة في مكانها، ورحّبت به ترحيباً حارّاً وحمدت الله على سلامته، وقالت له:

- تبقّى عليك إنجاز مهمتين: قتل الوزير وأخته. وعليك أن تصل إلى القصر وتعلن أنّ معك الحمامة والخاتم، وسيحضر الوزير وأخته، وإيّاكَ أن يمسّك أيٌّ منهما الخاتم قبل الملك، وإذا أمسك الملك بالخاتم فسيتحوّل الوزير وأخته إلى ماردين ضخمين؛ فابدأ بقتل الوزير ثم ثنّي بأخته. . . لا تنسى.

تناقل الخدم أنّ خطيب الأميرة لم يتحجّر أو يمت، فتقبّلت الأميرة الخبر بفرح غامر، وهبطت لترى خطيبها.

وقف الشاب أمام الملك ومن حولهما وقف الوزير وأخته التي استعجلت الشاب:

- هل وجدت الخاتم.

فقال الشاب موجّهاً حديثه إلى الملك:

- يا ملك الزمان، قد جئتك خاطباً ابنتك ووعدتني إن عدت بالخاتم تكون ابنتك خطيبتي، والآن جئتك حاملاً مهرها.

فلم تطق أخت الوزير صبراً وصاحت به:

- ناولني الخاتم ولا تكثر من الكلام.

فلم ينظر إليها الشاب وركّز حديثه للملك:

- قبل أن أسلّمك الخاتم جئت بهدية في هذا الكيس، وهي هدية للملكة.

وكان يحمل رأس الجنيّة في كيس ربطت فوهته بخيط أحمر، وعندما رأت أخت الوزير ذلك الخيط تشاءمت، فقام الشاب بفكّ الرباط وجذب رأس الجنية من شعرها، فصعق الوزير وأخته وقبل أن يفوقا من دهشتهما استلّ الشاب سيفه وقطع رأس الوزير فتطايرت الأفاعي مع قطرات الدم الخارجة من ذلك الجسد الذي وقع في مكانه.

لجمت المفاجأة الملك فلم يستطع النطق وزاده عجباً أن رأى زوجته الجميلة تتحوّل إلى ماردٍ ضخم تخرج فحيحاً وقد استطالت لسانها وهي تصيح بالشاب:

- يا ابن الفاعلة قتلت أهلي وناسي. . . سأشرب من دمك.

وتقدّمت نحو الشاب الذي استقبلها بضربة من سيفه سمع لها دويّ كارتطام الحديد بالحديد، فصاحت به:

- ثنّي ضربتك يا ابن الفاعلة...

فردّ عليها: ضربتي واحدة وموتك واحد.

فسقطت على الأرض وتحوّل جسدها إلى أفعى ضخمة أخذت تزحف باحثةً عن جحر تختبيء فيه... عندها قفزت الحمامة إلى كتف الشاب، فتناول الخاتم المدلّى من عنقها وقدّمه للملك قائلاً:

- هذا مهر عروستي.

لم يتمالك الملك نفسه واندفع حاضناً الشاب ومعبّرا عن عجز كلمات الشكر والثناء، فأرجع الشاب كلّ ما حدث من فضل للحمامة التي دلّته على طرق الخلاص من الجنيّة وأهلها الذين تسلّطوا وتجبّروا فكان جزاءهم الموت.

واستدعى الملك ابنته، وكان يظنها بعيدة عن مجلسه، فإذا بها تقف في جواره وقد شاهدت وسمعت كل شيء، فقال لها أبوها:

- هذا الشاب يطلبك للزواج وقد خلّصك وخلّص البلاد من شرور الجنّ فماذا تقولين؟

فتبّسمت وأرخت رأسها، فبارك الملك خطوبتهما.

وكان الملك يهمّ باستدعاء الخدم لتنظيف مجلسه من الأفاعي المتناثرة في كلّ مكان، وقبل أن ينادي عليهما رأى أنّ ما على الأرض ليس إلاّ خيوط حمراء متناثرة هنا وهناك، وعندما أشار إلى هذا المنظر قالت الحمامة:

- هذه جثث الجنّ والأفضل أن تُجمع وتُحرق وتُدفن في مكان عميق.

وماهي إلا أيام وأُقيم زواج الأميرة من الشاب الصياد حضره الملوك والأمراء والوزراء وعمّت الافراح لشهر كامل وعاش الجميع في سعادة ونعيم.(١)

رواية عائشة عجيبية

(١) هذه الحكاية تذكّرنا بالأسطورة الإغريقية «رأس ميدوسا» فقد استعارت كثيراً من تيماتها، وتلك الأسطورة قام بتحليلها الدكتور أحمد خالد توفيق بدءاً من أسطورة «بروسيوس» البطل المغوار الذي كان واحداً من أولئك الأبطال الذين تزخر بهم الأساطير الإغريقية، فقد كان شديد الوسامة، شديد البأس، وهو كالعادة ابن زيوس من امرأة بشرية، وعلى حين كان أخوته من الأب يمارسون أعمالهم، «هرقل» مشغول بقتل الهيدرا، و«أطلس» منهمك في رفع الكرة الأرضية، و «برومثيوس» معلق بين الجبال يتلقى عقابه الأبدي، و«جاسون» يبحث عن الفروة =

= الذهبية، كانت هناك مهمة أكثر تعقيداً تنتظر «بروسيوس»، حيث كانت «كاسيوبيا» الحسناء المغرورة قد بالغت في غرورها ووقاحتها إلى درجة أثارت حنق سادة «الأوليمب». لهذا سلطوا على جزيرتها الفيضانات والزلازل.
ثم جاءت الطامة الكبرى حين أرسلوا إلى الجزيرة تنيناً مرعباً اسمه «الكراكون»، وكان هذا التنين يطلب -كالعادة- أن يقدموا له قرابين بشرية وإلا أغرق الجزيرة بما عليها. وهكذا وجدت كاسيوبيا نفسها مرغمة على تقديم ابنتها الجميلة أندروميدا لإشباع شهية التنين الشره. وهكذا كانت أندروميدا الضحية القادمة ما لم يحدث شيء ما. وفي هذه اللحظة يصل بروسيوس إلى الجزيرة فيقع في حب الفتاة المختارة كقربان ويصمم على قتل الوحش لإنقاذ فتاته، ولكن كيف؟! هناك طريقة واحدة فقط، أفظع من التنين نفسه، قطع رأس ميدوسا..! و«ميدوسا» وأختاها، وهن من أبشع الصور التي ذكرتها في الأساطير اليونانية من مخلوقات، ويسمونهم «الجرجونات الثلاث». لقد كانت ميدوسا وأختاها فتيات طبيعيات جداً حتى غضب عليهن زيوس فأحالهن إلى ..مسخ بحيث تحولت الأيدي إلى نحاس ..وازددن بشاعة وصارت ألسنتهن مشقوقة كألسنة الأفاعي ..وتحول شعرهن إلى ثعابين ذات فحيح لدغتها قاتلة .. وصارت نظرتهن كافية لأن تحول من تلتقي عيناه بأعينهن إلى حجر ..وبعد هذا المسخ نفين إلى جزيرة في البحر المتوسط لم تحددها الأسطورة حيث يعشن في الكهوف وسط عشرات من التماثيل الحجرية لأولئك البحارة التعساء الذين ألقى بهم حظهم العاثر على شاطئ تلك الجزيرة ..ويعد هذا العقاب من أقسى العقوبات التي وردت في الأساطير الإغريقية ..وكان التحدي الذي يواجه بروسيوس أن يقطع رأس ميدوسا، وتتمثل الصعوبة في عدم مقدرته على رؤيتها، إلاّ أنّ بروسيوس مثله مثل هرقل وثيذيوس يمثل البطولة وتجاوز الصعاب التي تواجهه، وقد حظي بإعجاب الأوليمب .. وتلقى زيارة من هرمز حاملاً له بعض الهدايا كالخوذة التي تخفي من يرتديها .. والسيف الذي لا يضرب إلا ويصيب هدفه... ثم الدرع البراق الشبيه بالمرآة ..وينطلق برسيوس مع رفاقه في البحر قاصدين جزيرة الجرجونات الثلاث .. دخل بروسيوس كهف ميدوسا... حوله عشرات من التماثيل الشنيعة لبحارة ماتوا قبل أن يفهموا ما الذي قتلهم. دخل بروسيوس ومن معه في حذر باحثين عن ضالتهم... ومن ثم تصحو ميدوسا من نومها وتفح الثعابين في شعرها... فيخفي الرجال وجوههم خلف الدروع... وتتقدم ميدوسا نحو أول الرجال فيتعثر وتلتقي عينيه بعينيها ويتحول لحمه إلى حجر.. إلاّ أنّ الدرع الذي كان يحمله بروسيوس عكس نظرة ميدوسا فارتدت النظرة إليها وتحوّلت بدورها إلى حجر.
وثمة مروية أخرى تقول إنّ ميدوسا تقدمت نحو بروسيوس الذي استجمع شجاعته وحماسة المكان عنده ليطير رقبتها بضربة واحدة ثم يبادر بالفرار قبل أن تصحوا أختاها... وإنه لم يمسس شقيقاتها... وعاد بالرأس في كيس ليظهره في اللحظة المناسبة أمام التنين قبل أن يبتلع حبيبته... وبهذا يكون قد خلّص حبيبته وتزوج بها. ولم تتطرّق الأسطورة إلى ما حدث لشقيقات ميدرسا.

غالى يا بني*

يُحكى أنّ أحد الفقراء المعدومين كان يسير في السوق ومعه ابنه، فتاقت نفس الابن إلى حبة موز، فأخذ يجرّ أباه ويصيح به:

- أريد موزة.

فمشى الأب إلى البائع وسأله:

- بكم الرطل؟

فقال البائع: بقرش.

فالتفت إلى ابنه متودّداً:

- غالي يا بني!

وراحت أيام وجات أيام وسّع الله على ذلك الفقير، وفي يوم كان هو وابنه يسيران في نفس السوق فتاقت نفس الابن للموز، فقال لأبيه:

- نفسي في موز.

فذهب الأب إلى البائع وقال له: بكم الرطل؟

فردّ عليه البائع: بربع ريال.

فقال الأب:

- أعطني خمسة أرطال[1]

رواية عائشة عجيبية

---

(١) * هذه الحكاية تضرب في ضيق الحاجة، فعندما يكون الإنسان غير قادر على شيء يقول: غالي يا بني، بينما إذا تيسّرت حاله يصبح الغالي رخيصاً.

فاطمة بنتي فيان فصعتي وحوتي؟

قلك وقلنا، من امرأة كانت تعيش مع ابنتها فاطمة، ولا تملك من حطام الدنيا شيئاً، فكانت تخرج لتبحث عن رزقها ورزق ابنتها من خلال امتهان أيّ عمل، سواء كان بيعاً أو خدمة في بيوت الناس، وتعود بالقليل.

وقد ألفت أن تترك ابنتها فاطمة في البيت حيث تقوم بالتنظيف والغسيل والكنس، وعادةً ما تترك لها أمها «كعكة» قمح وحوته لكي تقوم بطحن القمح وعجنه وخبزه وقلي الحوته حتى إذا عادت الأم تجد في البيت شيئاً تأكله.

وخلال غياب الأم تجوع فاطمة وتظلّ تقطع من قرص الخبز الذي أعدّته لأمها و«تتخسر» بشيء من الحوتة حتى تأتي عليهما، فإذا جاءت الأم من عملها تسأل ابنتها:

- فاطمة بنتي فيان فصعتي وحوتي؟

فتردّ عليها فاطمة: خرجت هبيت لي طبلية ودخلت هبيت لي طبلية.

فتغضب الأم وتقوم بضرب ابنتها ضرباً مبرحاً حتى إذا جاء اليوم التالي تكرّر الحدث.

وفي يوم من الايام ضاقت فاطمة مما يحدث[1]، وقرّرت أن تغادر البيت لتنجو من الضرب اليومي لها.

وفي أثناء غياب الأم خرجت وهي لا تعرف إلى أين تتجه، وظلّت سائرة من

---

(١) في أول مرة سمعت هذه الحكاية وأنا طفل قالت الراوية إنّ الأم هي من قامت بتدبير خطة للتخلص من ابنتها وحملتها إلى البرية وتركتها هناك، كما حدث في قصة نوب. فالتيمة الأساسية في الحكاية الجنوبية أنّ الأم في الغالب هي من تقوم بالتخلص من ابنتها.

بلد إلى بلد لا تستقرّ في مكان، بل تتزوّد بالماء وتمضي من غير غاية تستهدفها، وفي سيرها عبرت خلاءً ممتداً. نفذ ماءها وزادها، فظلت تسير بحثاً عن ماء قبل أن تهلك، ومن بعيد رأت قطاً يسير في ذلك الخلاء وقد تدلّت مفاتيح كثيرة من رقبته، فقالت في نفسها: لا يمكن أن يسير هذا القط في هذا الخلاء ما لم يكن هناك ماء، فأخذت تتبعه من بعد.

مشى القط مسافة طويلة حتى وقف على قصر ليس له مثيل، وكأنه نبت من الأرض، فجدرانه من الذهب وأعمدته من الزبرجد وأبوابه من اللؤلؤ،[1] وفي سرعة دخل القط من تلك البوابة الذهبية الكبيرة، فلحقت به على الفور، وقبل أن يتنبّه لها أمسكت به ونزعت من رقبة المفاتيح المعلّقة برقبته، وأخذت تتطلع إلى ذلك القصر

---

(١) أوصاف القصور الأسطورية تستعير أوصاف إرم ذات العماد التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، وتقول الروايات إنّ مبانيها من ذهب وفضة وأعمدتها من زبرجد وياقوت وحصاءها من اللؤلؤ والمسك والعنبر والزعفران.
وتذهب الرواية إلى أنّ عاداً الأول أنجب ولدين هما شديد وشداد، وعندما هلك «عاد» تولى الملك من بعده ابنه شديد، وعندما مات تولاه «شداد بن عاد». وكان شداد مولعاً بقراءة الكتب القديمة فأعجبته الجنة وما فيها من قصور وأشجار وثمار فدعته نفسه إلى أن يبني مثلها في الدنيا، فأمر ببناء مدينة من الذهب والفضة والزبرجد والياقوت واللؤلؤ على أن تقام قصورها فوق أعمدة من الزبرجد، وغرس تحت تلك القصور وفي شوارع المدينة أنواعاً مختلفة من الأشجار المثمرة أجرى من تحتها الأنهار في قنوات من الذهب والفضة، واستغرق بناء هذه المدينة ثلاثمائة عام. وكان شداد قد بلغ من العمر تسعمائة عام وعندما بلغه أنّ مدينة «إرم ذات العماد» قد تمّ بناؤها رحل مع نسائه وجواريه وخدمه ووزرائه وجنوده وسار بهم في موكب عظيم حتى إذا لم يبق بينه وبين «إرم» إلاّ مرحلة واحدة أرسل الله عليهم الصيحة فأهلكتهم جميعاً.
والوصف الذي يأتي في الحكايات الجنوبية للقصور بأنّ ترابها من مسك وزعفران يعود إلى تجارة الطيوب على ما يبدو، فقد أطلق الجغرافي «سترابون» لقب بلاد الطيوب على جنوب الجزيرة العربية، وذكر ديودورس الصقلي أنّ أرض الجزيرة تثمر الطيوب بحيث كانت تربتها تعبق بالأريج.
كما تصاحب هذه الطيوب الأسطورة القحطانية المصاحبة لأرض الميعاد العربية حين أوصى قحطان أبو العرب (الجنوبيين-اليمنيين) ابنه يعرب بأن يسير مهاجراً متّبعاً رائحة المسك والطيوب إلى أرضه المقدّرة أو الموعودة في الشام واليمن حيث شملت تسمية اليمن، واليمن كلّ ما هو واقع على يمين الكعبة.

وهي غير مصدّقة لكلّ ما فيه من عجائب وغرائب، فمشت بين البساتين، وكان كلّ بستان به فاكهة مختلفة عن فواكهة البستان الآخر، ورأت أنواع الخيول، وكانت أرض القصر مفروشة بحصى من ياقوت ولؤلؤ، ورأت عشرات الخدم كلّ واحد منهم منشغل بعمل من الأعمال، وتوغّلت في القصر فوجدت أبواباً ذهبية زينت بحبات اللؤلؤ، فاشتاقت لمعرفة ما الذي يوجد خلف تلك الأبواب، فأخذت تجرّب المفاتيح التي أخذتها من رقبة ذلك القط.

انفتح الباب الأول فرأت كلّ أنواع وأصناف الأثاث، وفتحت الباب الثاني فوجدت كلّ أنواع المأكولات والمشروبات، وفتحت الباب الثالث فرأت مخزناً للمجوهرات والذهب، وفتحت الباب الرابع فرأت مخزناً لكلّ أنواع العطور والبخور، وفتحت الخامس فرأت مخزناً للملابس، وكلّما فتحت باباً وجدت كنوزاً مختلفة. . . أغلقت تلك الأبواب وعادت تتمشّى داخل القصر، فرأت القط يركض باتجاه غرفة كبيرة، فلحقت به، فإذا بها ترى رجلاً مسنّاً تهاوت صحته ولم يعد قادراً على النهوض من فراشه الوثير، فاقتربت منه لتسلّم عليه، وقالت له: إنسي والاّ جني؟

فلم يردّ عليها، وأحسّت به يحتضر، فأخذت تلقّنه الشهادتين، فمات بعد أن نطقها، وما أن لفظ أنفاسه الأخيرة حتى رفعت صوتها عالياً مدّعيةً موت أبيها، فالتفّ حولها الخدم والحشم مهوّنين عليها مصابها وداعين للميت أن يتغمّده الله برحمته وغفرانه.

وأعلنت الحداد، وظلت قابعة في (الربع) وقد أرسلت خدمها لإخبار الناس بموت صاحب القصر ومعلنين لهم أنّ ابنته الوحيدة تتقبّل فيه العزاء، فتوافدت عليها النساء من كلّ حدب وصوب معزّينها بوفاة أبيها وداعين لها بطول العمر.

ومضت الأيام وهي تتقلّب في نعيم ورغد من العيش لم تكن تحلم به بتاتاً، وفي ذات يوم وبينما كانت جالسة في شرفة قصرها رأت من بعيد امرأة رثة الثياب تضع (ظلّة) على رأسها لتحتجب من أشعة الشمس، قاطعةً تلك الفيافي بعجلة، فعرفت فيها أمها، فنادت على الخدم بأن يخرجوا ويأتوا بتلك المرأة.

خرج الخدم مسرعين لتلبية أمر سيدة القصر، وأمسكوا بتلك المرأة وأدخلوها القصر، وكانت تصرخ وتستغيث وتتبرّأ من فعل أيّ منكر يجعل أولئك الخدم

يجرجرونها، ولا زالت تصرخ وتستغيث حتى وقفت أمام سيدة القصر التي أمرت بخروج كلّ الخدم كي تنفرد بأمها.

لم تتعرّف الأم على ابنتها فاطمة التي غيّرت النعمة حالها، فأخذت فاطمة تلاطف أمها وتسألها عن سبب خروجها في هذا الجو الحارق، فقالت الأم: لي ابنة خرجت ولم تعد إلى البيت وأنا من زمن أبحث عنها ولم أجدها.

فضمّتها فاطمة وقالت لها: أنا بنتك.

فلم تصدّق الأم وظلّت تحدّق بها وتتفحّص ملامحها حتى عرفتها، فضربت على صدرها مستنكرةً وصولها إلى ذلك العزّ، فأخبرتها بكلّ ما حدث، وسحبتها من يدها لتريها الكنوز المخبّأة في المخازن، وبعد ذلك أمرت الخادمات بغسلها وتنظيفها وإلباسها أفخر الثياب.

فقامت الخدمات بالمهة على خير وجه، وبعد أن جلست واسترخت تماماً التفتت إلى ابنتها فاطمة متساءلةً:

- فاطمة بنتي فيان فصعتي وحوتي؟[1]

رواية عائشة عجيبية

(١) هي قصة ربما حملت دراما أعمق مما رويت بهذه الصورة كترفيه مستقصداً الإضحاك في خلق المفارقة بين الغنى الفاحش وبقاء عقلية البائس الفقير على وضعه السابق بالمطالبة برزقه الشحيح الذي ألفه. وهي توليفة لحكاية العوز والغنى المفاجىء، والذي يظلّ معه الفرد مشغولاً بواقعه الحقيقي.

رجل مفصل فصالو هبولي عشرة مشاهاش

قلنا وقلكم، قال: كان في واحد تاجر وله ابنان، الكبير اسمه زيد والصغير اسمه علي بن الجارية، وكان زيد جشعاً يحب نفسه كثيراً، أما علي فكان حنوناً روؤفاً بأهله فكانوا ينادونه بعليّ الأب. ظلّ الأخوان مع بعضهما في كنف أبيهما، وقد تزوج الاثنان بامرأتين جاءت كلّ منهما مطابقة لطبيعة زوجها، فكانت زوجة زيد امرأة حقود محبة لنفسها بينما كانت زوجة علي امرأة حنونة متسامحة. . . وقد رزق الله علياً الأبناء بينما زوجة زيد لم تنجب.

وذات يوم مات الأب وترك إرثاً عظيماً فبغى زيد على أخيه وجحده ولم يعطِه من الإرث شيئاً قائلا له بحجّة أنّ أباه لم يترك شيئاً وكلّ الأموال التي تركها هي من كسبه، وقد حرص على البرّ بأبيه وأبقاه يعمل معه متسامحاً وغاضّاً بصره عن ادّعاءات أبيه بأنه صاحب التجارة والأموال.

تقبّل علي برضى نفس ولم يطالب بحقوقه حتى عندما طرده أخوه من البيت ولم يعترض فقد حمل زوجته وأولاده وأقام له بيتاً متواضعاً من جذوع الشجر والقش، واشترى فأسا وامتهن الحطابة، فكان يخرج من الصباح الباكر يحتطب ويحمل ما احتطبه ويبيعه ليشتري لأهل بيته ما تيسر من طعام ويجلس هانئاً قانعاً برزقه.

وجاء وقت من الأوقات قلّت فيه الأشجار اليابسة، فكان علي يتوغل داخل الغابة بحثاً عمّا يمكن احتطابه، وأصبح عمله مرهقاً وبحثه مضنياً. وفي كلّ يوم يزداد توغلاً في الغابة، وذات يوم كان يحتطب بجوار جبلٍ ضخم وسمع ضجيج خيل وأصواتاً متلاحقة، فخشي أن يتعرضوا له بالأذى، فسحب حماره واختبأ في

مكان لا يُرى، وأخذ ينظر إلى مقدم الخيل والرجال المتصايحين، وزاد خوفه عندما توقفوا على مقربة من مخبئه، فلزم الصمت وأخذ يدعو الله أن لا ينهق حماره. هبط الفرسان عن جيادهم وتقدم أحدهم إلى ذلك الجبل الضخم وصاح بأعلى صوته:

- يا صخرة افتحي بابك![(١)]

فإذا بصخرة ضخمة تتحرّك وتفتح ويدخل من خلالها أولئك الرجال ويغيبون تماماً. تشجّع علي واقترب من المكان الذي دخلوا منه فلم يرَ مدخلاً في ذلك الجبل، فظلّ ماكثاً في مكانه متعجباً ممّا حدث ظانّاً أنه يتخيّل وأنّ كلّ ما حدث مجرّد تخيّلات، وفجأةً سمع صوتاً عالياً يقول: يا صخرة افتحي بابك!

فإذا بصخرة ضخمة تتحرّك من مكانها، فأسرع علي بالاختباء وشاهد كلّ الرجال الذين دخلوا يخرجون، ثم سمع كبيرهم يصيح:

- يا صخرة أغلقي بابك.

فتحرّكت الصخرة وعادت إلى مكانها، وركب الرجال خيولهم وانطلقوا بعيداً.

تأكّد علي أنه لم يكن يتخيّل وعندما استردّ أنفاسه وتأكّد من مغادرة أولئك الرجال وقف أمام الصخرة وصاح:

- ياصخرة افتحي بابك!

فإذا بالصخرة تفتح، فأسرع علي بالدخول إلى جوف تلك المغارة ودُهش حينما رأى كنوزاً لا حصر لها من الذهب واللؤلؤ والمرجان والياقوت، وأنواع الأطعمة والملبوسات. فاسرع وجذب حماره وحمل عليه من تلك الكنوز الشيء الكثير، وغادر المغارة مستعجلاً بعد أن صاح:

- ياصخرة أغلقي بابك...

عاد إلى زوجته فرحاً بما وجد، فلم تصدّق ما رأت من كنوز كثيرة وكادت تجنّ، وسألته من أين جلب كلّ تلك الكنوز، وعندما لم يجب اتهمته بالسرقة، فأقسم لها أنه لم يسرق بل أخذ أموالاً وجدها في مغارة، وأنّ ما أخذه لا يُعدُّ شيئاً

---

(١) هذه هي حكاية «علي بابا والأربعين حرامي» التي وردت في ألف ليلة وليلة إلاّ أنّ البيئة التي رويت فيها هذه الحكاية كيّفتها ووظّفتها لبطلها الإقليمي (علي بن الجارية).
ومن المعروف أنّ الكلمة السحرية أو السرية لفتح المغارة هي «افتح ياسمسم» بينما هنا لم تحفل الحكاية بنقل نفس الجملة واستعاضت معها بـ«ياصخرة افتحي بابك».

مما بقي، فزاد طمعها وقالت له: لماذا لا تعود إلى تلك المغارة وتجلب الكثير من هذه الكنوز؟ ولا زالت تلحّ عليه حتى عاد إلى تلك المغارة يقود جملين حمّل عليهما كنوزاً طائلة وعاد مسرعاً إلى بيته قبل أن يراه أحد... وما هي إلاّ أيام وتغيّرت حياة علي ابن الجارية فانتقل إلى بيت جديد وأثّث منزله واشترى عبيداً.

وأخذت زوجته تفرز أنواع المجوهرات، فالذهب على حدة واللؤلؤ على حدة والزبرجد على حدة، ورغبت في معرفة مقدار ما لديهم من ثروة، ولم يكن بمقدور علي ابن الجارية حمل كلّ هذه الكنوز لكي يزنها عند الصاغة، فقالت له زوجته: لماذا لا نستعير المكيال من عند أخيك ونزن أنواع المجوهرات ثم نعيده إليه، فوافقها على ذلك، ومن حينها أرسلت جاريتها إلى بيت أخي زوجها.

وعندما طلبت الجارية استعارة المكيال عجبت زوجة زيد من هذا الطلب، فعلي رجل فقير ليس له من دخل سوى بيع حزمة الحطب التي يحتطبها، وقررت معرفة سبب طلب علي استعارة المكيال، فوضعت في قعر المكيال صمغاً وناولت الجارية.

قام علي وزوجته بكيل الذهب واللؤلؤ والمرجان، فترسّبت قطع من كلّ نوع في قعر المكيال، وعندما أعاد علي المكيال إلى أخيه فحصه هو وزوجته فوجدا في أسفله ذهباً ولؤلؤاً وياقوتاً مترسّباً، فتعجبا أشد العجب ونالت منهما الغيرة والحسد وقالت زوجة زيد: لا بدّ وأنّ أخاك سرق خزينة الملك وإلاّ من أين يمكن له الحصول على أموال يزنها بالمكيال، فاذهب واعرف من أين حصل على هذه الأموال.

خرج زيد إلى بيت أخيه علي ابن الجارية مصرّاً على معرفة سرّ تلك المجوهرات التي وجدها في قعر المكيال، فطرق الباب غاضباً ليجد أخاه مرحّباً به، إلاّ أنّ ذلك الترحيب لم يرق له، فأظهر الانفعال وخاطب أخيه بأنّ أباهم ربّاهما أحسن تربية إلاّ أنّ تلك التربية لم تثمر في علي ابن الجارية واتّهمه بالسرقة وإلاّ كيف وصلت إليه أنواع الجواهر والذهب واللؤلؤ وهو الحطاب الفقير.

نفى علي ابن الجارية أن يكون سارقاً وتساءل: كيف عرف بالمجوهرات؟ فأخبره زيد بأنه وجد شيئاً منها في مكياله، فظلّ علي ابن الجارية ينكر السرقة وزيد يصر عليها ممّا جعل علي بن الجارية يخبر أخاه بقصة المغارة واللصوص، فانقلبت

حال زيد وأخذ يتودّد لأخيه لكي يخبره بموقع تلك المغارة، فحذّره علي ابن الجارية من ذلك وارتضى أن يقتسم معه الكنوز التي في حوزته إلاّ أنّ زيداً قال له: هنيئا لك بمالك ودعني أجرب حظي. فأخبره علي بموقع المغارة وكلمة السر.

وفي اليوم التالي خرج زيد يجرّ عشرة حمير محمّلة بصناديق فارغة ليملأها بالذهب وبقية المجوهرات، وعندما وصل إلى المغارة لم يصبر على الانتظار كما أخبره أخوه بالالتزام بتوقيت محدد للدخول والخروج، فوقف مسرعاً أمام الصخرة المقصودة وصاح: افتحي يا صخرة بابك.

فانفرجت الصخرة ودخل زيد إلى داخل المغارة وكاد يتجنّن من لمعان الكنوز المختلفة، فأخذ يملأ الصناديق بكلّ الأنواع وظلّ منشغلاً بتعبئة الصناديق إلى وقت متأخر حتى إذا همّ بالمغادرة سمع صوتاً قوياً يصرخ من الخارج:

- ياصخرة افتحي بابك.

فارتبك ولم يجد بدّاً من ترك الحمير في مواقعها واختبأ أسفل الفرش والسجاد.

وكان القادمون هم أصحاب المغارة، وقد لاحظوا مباشرةً وجود الحمير وما تحمله من كنوز، وأيقنوا أنّ السارق الذي امتدت يده إلى الأموال في المرة السابقة أعاد الكرة، وفرحوا أنه وقع هذه المرة، فتواصوا بتفتيش المكان، فتفرّق اللصوص في كلّ جنبات المغارة وفي الحال عثروا على زيد، وقادوه إلى رئيسهم الذي أمر بتقطيعه إلى قطع صغيرة، وفي الحال تخاطفت السيوف جسد زيد، فتساقط جسده إلى أوصال مقطعة، وأمر قائد اللصوص بأن تُجمع أوصاله في سجاد كبير، وتُنشر على شجرة تجاور بوابة المغارة ليكون عبرة لمن أراد أن يعيد تجربة السطو على كنوزهم.

افتقدت زوجة زيد تغيّب زوجها، فذهبت تسأل عنه عليّاً ابن الجارية الذي أخبرها أنه لم يره منذ يومين، فازداد قلقها وأخبرته أنه لم يعد للدار، فخشي علي ابن الجارية أن يكون أخوه قد أصابه مكروه، فتحرّك مباشرةً إلى جهة المغارة، ورأى جثة أخيه المقطعة والمنشورة في العراء، فكوّمها داخل السجادة، وقبل أن يغادر دخل المغارة فوجد الحمير التي أحضرها أخوه والصناديق المعبّأة فساقها أمامه وعاد سريعاً قبل أن يراه أحد، وأخبر زوجة أخيه بما حدث فأخذت تولول وتُحمّل عليّاً

ابن الجارية مسئولية قتل زوجها، فأخذ يهدّىء من خاطرها ويعدها أن يأخذ بثأر أخيه مهما كلفه الأمر.

رفضت زوجة زيد أن يدفن زوجها ككومة لحم، فاستجاب علي لرأيها، وخرج إلى السوق قاصداً أحد الخياطين وعرض عليه القيام بتخيط جثة ادّعى أنها سقطت في فخ فتقطعت. وافق الخياط على الطلب وغادر مع علي ابن الجارية إلى البيت لكي يقوم بالمهمة.

أما اللصوص فقد عادوا ووجدوا أنّ الجثة ليست في مكانها وأنّ الحمير بالكنوز التي تحملها ليست في مكانها، فاشتاط الرئيس غضباً وأمر رفاقه بالخروج والبحث عمّن سرقهم واستعادة الجثة من مكانها، وانتشر اللصوص في كلّ مكان بحثاً عن غريمهم.

وصل الخياط إلى بيت علي بن الجارية وقام بخياطة الجثة خياطة محكمة وعندما همّ بالمغادرة أعطاه علي ابن الجارية عشرة دنانير فلم يقبل بها لكنّ عليّاً أصرّ على أنّ المبلغ يوازي العمل وكان يخشى إن أعطاه أكثر ينفضح أمره، فرفض زيادة الخياط الذي ركب حماره غاضباً وأخذ يبرطم طوال الطريق قائلاً:

- راجل مفصل مفصالو هبولي عشرة مشاهاش...

وظلّ يردد مقولته طوال الطريق فسمعه أحد لصوص المغارة فاستوقفه سائلاً عن خبره، فرفض الخياط أن يتحدث معه إلاّ أنّ اللص عرض عليه عشرين ديناراً إن أخبره خبر الجثة التي خاطها، فوافق الخياط وتناول العشرين درهماً وأشار للصّ إلى بيت علي ابن الجارية وقال له:

- هذا البيت اللي خيطت فيه الجثة.

بحث اللص عن فحمة وأشّر بها على بيت علي لكي يعرفه إن أخبر رئيس العصابة وعاد من حينه إلى بقية رفاقه مبشراً أنه وجد غريمهم. فكّر قائد العصابة في طريقة يدخل بها إلى بيت علي لاسترجاع أموالهم وقتل غريمهم، فقام بزيارات متعددة لمعرفة المداخل والمخارج التي يصل بها إلى بيت علي ابن الجارية، وكان خلال زياراته يمعن التفكير للوصول إلى فكرة ناجعة، وبعد تفكير متمعّن اهتدى إلى فكرة أخبر بها رفاقه، واتفقوا على تنفيذها.

وكانت الفكرة أن يجهّز قافلة من الجمال تتكون من تسعة عشر جملاً ويضع

كلّ واحد داخل صندوق غير مغلق ويكون مغطى بالحشائش بحيث يصبح كلّ اثنين على جمل واحد يتدلى كلٌ منهما على جانب من جوانب الجمل، وأخبرهم أنه سيتدبر وسيلة للدخول إلى بيت علي ابن الجارية، وأوصاهم أن يظلوا ساكنين في أماكنهم حتى إذا صاح بهم خرجوا من مخابئهم وفتكوا بعلي واستردّوا كنوزهم.

اتفق اللصوص على هذه الخطة وتمّ تحميلهم على الجمال وبقي الرئيس ونائبه يقودان القافلة، ومكثوا خارج المدينة إلى ما بعد العشاء، ودخلوا إلى المدينة، وطرق رئيس اللصوص باب بيت علي ابن الجارية، وعندما خرج إليهم علي قال له رئيس اللصوص:

- أنا ورفيقي تجار نبيع القاز وقد دخل علينا الليل فلو تتكرم وتضيفنا الليلة إما كرماً منك أو بمقابل وسنكون لك من الشاكرين.

رحّب علي بهما ونادى على خدمه لإناخة الجمال وتقديم الأعشاب والماء لها، وأدخل ضيفيه إلى المضيافة وأخذ يؤانسهما وخرج طالباً من زوجته تجهيز العشاء وعاد إلى ضيفيه.

قامت زوجة علي ونادت على أحد خدمها بذبح خروفين وسلخهما، وطلبت من خادمتها موارة التنور بينما انشغلت هي بعجن الدقيق ريثما تجهز الجارية من إشعال وموارة التنور.

تحركت الجارية لتنفيذ أمر سيدتها لكنها اكتشفت أنّ القاز الذي بالبيت قد نفذ وليست هناك قطرة واحدة، ولأنها مسئولة عن توفير القاز خشيت إن علمت سيدتها بتقصيرها وعدم توفير القاز أن تغضب منها، فقالت في نفسها أذهب إلى قافلة الغريبين وآخذ قليلاً من القاز بدلاً من لوم سيدتي وغضبها علي.

وتحرّكت الجارية إلى الصناديق الموضوعة داخل صناديق والمحمّلة على ظهور الجمال الباركة في فناء الدار، فمدّت يدها إلى أول صندوق فاصطدمت أناملها بصلعة أول اللصوص (كان اللصوص جميعاً قد حلقوا رؤوسهم بالموسي)، فسحبتها على الفور، ومرت على الصندوق الثاني فوجدت رأساً محلوقاً أيضاً، وهكذا مرّت على جميع الصناديق، فخافت وقررت أن تتحمل لوم سيدتها على عدم توفير القاز بدلاً من أن تجد نفسها في مصيبة أخرى، فأسرعت تخبر سيدتها بما وجدت، وكانت سيدتها امرأة حكيمة، فأمرتها بالتزام الصمت، ونادت على زوجها توصيه أن

لا ينام ضيفاه، فالأكل على وشك الانتهاء، وطلبت منه أن يأتي لرؤية ترتيب المائدة.

خرج علي ابن الجارية من عند ضيفيه ليرى ما قالت عنه زوجته، فإذا بها تسحبه وتبتعد به عن المضيفة وتخبره بخبر الصناديق المحمّلة على الجمال.

وكان علي ابن الجارية قد شكّ بأنه رأى ضيفيه في مكان ما لم يتذكره تماماً، وحينما أخبرته زوجته بقصة الصناديق تذكّر وجه رئيس العصابة ونائبه.

فناد على خدمه وسلّح كلاً منهم بسيف ودخلوا على رئيس العصابة ونائبه وقتلوهما ثم تحرّكوا إلى الجمال الباركة وقتلوا كلّ لصّ في صندوقه، وليل في ليل أمر علي خدمه بحفر حفرة كبيرة ودفن فيها الأربعين حرامي وطمر عليهم التراب...

وفي الصباح الباكر خرج بجمال القافلة وحمل كلّ الكنوز الموجودة في المغارة وعاد بها إلى بيته... وعاش كأغنى أغنياء الدنيا.[١]

رواية عائشة عجيبية

(١) خطة حصان طروادة يتم استعارتها في كثير من القصّ الشعبي للدخول إلى المواقع المحكمة وشديدة الحراسة، ودخول اللصوص إلى بيت علي ابن الجارية هي إعادة لنفس الفكرة مع اختلافات طفيفة.

ابن الملك المعتوه

اشتهر أحد التجار بالأمانة حتى سمّوه الرجل الصالح، وكان الناس يحبونه ويضعون عنده أماناتهم ورهوناتهم ويعودون بعد زمن لاسترجاعها، وكان له صديق من التجار يدعى فاضل يتاجر في بيع العطور وقد كسدت تجارته فقرّر أن يسافر إلى بلاد الله لعله يجد لبضاعته رواجاً في بلدان أخرى، وكان فاضل متزوجاً بأمراة حملت منه، وعندما قرر الرحيل عاتبته لتركه لها وهي على وشك أن تضع مولودها الأول، فظلّ يلاطفها ويخبرها أنّ خروجه من أجلها وأجل وليده.

وحين أخذ يستعد للسفر خشي أن يموت في سفره فتضيع زوجته وابنه فقام بتنصيف ماله، واتفق مع زوجته أن يترك لها مالاً عند صديقه الرجل الصالح وأوصاها إن لم يعد فلتذهب إلى صديقه وتطلب منه الأمانة وتقول له:

- لقد ترك زوجي عندك جرّة حب وأنا الآن أطلبها.

وكان هذا التاجر قد وضع داخل الجرّة ألف دينار وغطّاها بالحَبّ وذهب إلى صديقه الصالح وقال له: لم يعد لتجارتي سوق هنا وسوف أترك عندك جرة الحبّ هذه فإن احتاجت إليها زوجتي فأعطها إياها.

رحّب التاجر الصالح بصديقه وقال له: اطمئن فزوجتك مثل إحدى أخواتي ولو احتاجت لشيء ما عليها إلا اخباري وسوف أتفانى في خدمتها.

عاد التاجر فاضل إلى زوجته لوداعها وظلّ محتاراً هل يخبرها بما في الجرة أم يتركها تكتشف ذلك بنفسها، وبعد مراجعات قرر أن لا يخبرها وسافر من حينه، وكلما وصل إلى بلد وجد أنّ أهلها لا يقبلون على شراء بضاعته، فيرتحل إلى بلد

آخر، وطال تنقله من مكان إلى مكان وكلّما عرض بخوره وعطوره في أسواق تلك البلد يجد صدوداً وعدم رغبة في شراء معروضاته فيسافر إلى بلد جديدة.

وكانت زوجته تتلهّف على أخباره فلا يصلها أيّ شيء عنه وكانت أمنيتها أن يرى ابنها الذي أنجبته. ومع الأيام كانت حالتها تزداد بؤساً وحاجة حتى لم يعد في بيتها شيء تأكله فتذكرت أنّ زوجها قد وضع جرة حبّ عند صديقه الصالح فذهبت تطلبها فامتنع التاجر الصالح أن يعطيها الجرة وقال لها إنه هو من ائتمنه زوجها وليست هي ولن يعيد الجرة إلا لمن ائتمنه، فعادت الزوجة حزينة وقررت أن تخرج لتعمل في الحقول وتطعم نفسها وابنها.

أما التاجر الصالح فله قصة مع تلك الجرّة، فعندما ترك فاضل جرّته أمانة قام ووضعها داخل بيته لكي يحميها من الرطوبة، ووضعها في مخزن الحبوب الخاص به وأوصى زوجته أن لا تمسّ تلك الجرّة فهي لصديقه.

وذات يوم توحّمت زوجة التاجر الصالح وتاقت نفسها للحبّ الذي في جرّة فاضل، فتسللت إلى المخزن وأخرجتها وأفرغت منها ما يوازي كيلة، وقامت بطحنها وعجنها وخبزها فوجدت لها طعما لذيذاً لا يُقاوم حتى أنّ زوجها شاركها الأكل ووصف أنه لم يذق طعماً شهياً كهذا.

فقررت زوجة التاجر الصالح أن تُفرغ جرّة فاضل من حبّها وتطحنه وتملأ الجرّة بحبّ مشابه، وعندما أفرغت الجرة وجدت الألف دينار الذهبية، ففرحت وأخبرت زوجها، وعندما أراد أن يمنعها عن فعل ذلك قالت له:

- صديقك لم يقل إنه ائتمنك على مال بل ائتمنك على حبّ، وإذا جاء وطلب أمانته أعد إليه الجرّة وهي مليئة بالحب.

غاب التاجر فاضل عن بلده ثلاث سنوات ولم يحقق أرباحاً في رحلته بل خسر خسائرَ كبيرة حتى أنّه باع بضاعته بأبخس الأثمان لكي يقتات من ثمنها.

فرحت الزوجة بمقدم زوجها كما فرح فاضل برؤية ابنه لكنه حزن حزناً شديداً حين رأى التعب والجوع واضحاً عليهما، فوعدها أنّ حالهما سوف تتحسن حالما يستردّ ماله ويبدأ بتجارته من جديد.

وحين أخبرته ما حدث لها مع صديقه التاجر الصالح أصيب بالغمّ والهمّ وفكّر لو أنّ صديقه أنكر ما أودعه من أمانة كيف سيكون حاله وحال أسرته، فظلّ مسهداً

إلى أن حان الصباح، فخرج إلى دكان صديقه التاجر الصالح، فرحب به وأجلسه في مقدمة الدكان واعتذر منه لأنه لم يدفع الأمانة إلى زوجته مدّعياً أن لا تُسلّم إلا لصاحبها فقط، وعندما عقب فاضل على كلامه قائلاً له: ولكني طلبت منك تسليمها الأمانة لو طلبتها. فاعتذر التاجر الصالح بأنه نسي هذه الوصية، وطلب من فاضل انتظاره ريثما يذهب إلى بيته ويعود إليه بالجرّة.

اطمئن فاضل إلى أنّ ماله لم يضع وأخذ يفكّر بالطريقة التي سيعود بها إلى عالم التجارة وقرر تغير تجارته، وبينما هو يفاضل بين تجارة وأخرى جاء صديقه التاجر الصالح حاملاً الجرّة ودفع بها إليه، فشكره فاضل ومضى إلى بيته وكم أصيب بالحسرة حين أفرغ جرّة الحبّ ولم يجد الألف دينار، فعاد مسرعاً إلى التاجر الصالح، وقال له: الجرّة التي أعطيتني إياها ليست جرّتي، أرجو منك أن تتاكد من ذلك.

فقال له التاجر الصالح: هذه هي جرتك ولم أضع في بيتي من أمانة سوى جرّتك أما بقية الأمانات فأنا أتركها داخل دكاني.

فقال فاضل: ولكن جرّتي كان بها ألف دينار ذهبية!

فقال التاجر الصالح: أنت ائتمنتني على حبّ وليس على أموال.

وأنكر تمام الإنكار أن يكون قد علم بأمر الألف دينار الذهبية، فتشاجرا وارتفع صوتهما حتى بلغ مسامع المتسوقين الذين اجتمعوا حولهما محاولين معرفة سبب خصامهما وهما الأصدقاء الخلص.

تحرّك فاضل إلى القاضي شاكياً أنّ صديقه التاجر الصالح قد استولى على أمواله عندما تركها أمانة عنده، فاستدعى القاضي التاجر وأخبره إنّ فاضلاً يتّهمه بسرقة ماله، فأنكر التاجر الصالح وخاطب القاضي قائلاً:

- سيرتي الطويلة بين الناس تشهد على أمانتي، وقد جاءني فاضل قبل سفره وائتمنني على جرّة مليئة بالحب، وعندما عاد وطلب الأمانة أعدت له جرته كما هي.

فوجّه القاضي سؤاله إلى فاضل: عندما أودعت الجرة عند التاجر هل قلت له إنّ بها مال أم حب؟

فقال فاضل: لا لم أخبره أنّ بها مال، بل قلت له أنّ بها حبّ.

لم يجد القاضي منفذاً إلى التاجر الصالح فأمر بإطلاق سراحه وطلب من فاضل أن يستخلف الله في ماله إن كان صادقاً.[1]

عاد فاضل إلى بيته غاضباً ومقسماً أن يستعيد ماله مهما كلفه الأمر، ولم يعد أمامه سوى الذهاب إلى ملك البلاد وعرض مظلمته عليه.

وفي اليوم التالي حمل فاضل جرة الحب وتوجه إلى الملك شاكياً، وعرض عليه كلّ ما حدث، فاستدعى الملك التاجر الصالح فأنكر مرة أخرى وقال: ائتمنني على حب وقد أعدت إليه حبه.

استشعر الملك صدق فاضل لكنه لم يجد طريقة يثبت بها خيانة التاجر الصالح

(١) الحكايات الشعبية في أوقات كثيرة تضع ألغازاً لا يقدر على حلها إلا القضاة إن أرادت الحكاية تخليص بطل القصة أو توكل مهمة حلّ الألغاز إلى البطل ذاته أو الشخصية الراغبة في إظهارها على غير ما كان السامع يتوقع.

وكما أنّ مسألة الجلوس إلى القضاء كانت من الصعوبة بمكان إن لم يكن القاضي مستوفياً شروط القضاء، ويُضاف إلى ذلك الفراسة والنباهة والإلمام، وهذه قصة توضح عدم الاغترار بالنفس وبما تظن أنها بلغته من علم، فقد أورد الخطيب البغدادي في كتاب تاريخ بغداد قصة أبي حنيفة وتلميذاً له والقصة تقول: مرض أبو يوسف مرضًا شديدًا (وكان تلميذاً لأبي حنيفة) وفي مرضه عاده أبو حنيفة مرارًا. فلما صار إليه آخر مرة رآه ثقيلاً، فاسترجع ثم قال: لقد كنتُ أُؤَمّله بعدي للمسلمين، ولئن أُصيبَ الناسُ به ليموتَنّ علمٌ كثير. ثم رُزق أبو يوسف العافية، وخرج من العِلّة. فلما أُخبِر بقول أبي حنيفة فيه ارتفعت نفسُه وانصرفت وجوه الناس إليه، فعقد لنفسه مجلسًا في الفقه، وقصرَّ عن لُزوم مجلس أبي حنيفة. وسأل أبو حنيفة عنه فأُخبر أنه عقد لنفسه مجلسًا بعد أن بلغه كلام أستاذه فيه، فدعا أبو حنيفة رجلاً وقال له: صِرْ إلى مجلس أبي يوسف فقل له: ما تقول في رجلٍ دفع لقَصَّار ثوبًا ليصبغه بدرهم، فصار إليه بعد أيام في طلب الثوب، فقال له القصار: ما لكَ عندي شيء، وأنكره. ثم إنّ صاحب الثوب رجع إليه، فدفع إليه الثوب مصبوغًا، أَلَه أجرُه؟ فإن قال أبو يوسف: له أجره، فقل له: أخطأت. وإن قال: لا أجرَ له، فقل له: أخطأت! فصار الرجل إلى أبي يوسف وسأله، فقال أبو يوسف: له الأجرة، فقال الرجل: أخطأت، ففكر ساعة ثم قال: لا أجرة له، فقال له: أخطأت! فقام أبو يوسف من ساعته، فأتى أبا حنيفة، فقال له: ما جاء بك إلاّ مسألةُ القصَّار. قال: أجل. فقال أبو حنيفة: سبحان اللّه! من قعد يُفتي الناس، وعقد مجلسًا يتكلم في دين اللّه، لا يُحسن أن يجيب في مسألة من الإجارات؟! فقال: يا أبا حنيفة، علّمني، فقال: إنْ صبغه القصار بعدما غَصَبه فلا أجرة له، لأنه صبغ لنفسه، وإن كان صبغه قبل أن يغصبه فله الأجرة، لأنه صبغه لصاحبه. ثم قال: مَن ظنّ أنّ يستغني عن التعلُّم فَلْيَبكِ على نفسه.

في المحافظة على الأمانة، واستهوى فكرة إثبات التهمة على التاجر الصالح، فأخذ طوال الليل يقلّب الموضوع على عدّة أوجه علّه يهتدي إلى طريقة يثبت تفريط التاجر بالأمانة.(١)

وكان للملك ابن وحيد يصمه كلّ من داخل القصر بالعُته حتى أنّ الملك نحّاه عن ولاية العهد وفكر أن يقلد أخاه ولاية العهد بعد أن تناقل الناس هجاء الشعراء واتهامه بالعته لكونه مبقياً على ابنه في ولاية العهد. وكلما قبض على أحدهم ممن قال فيه شعراً تنصّل ونفى ذلك، فيخلي سبيله بالرغم من يقينه أن ذلك الشاعر قد هجاه.(٢)

---

(١) ومن القصص التي برع فيها القضاة في اكتشاف خيانة الأمانة ما رواه البيهقي في كتابه **المحاسن والمساوئ** عن قوة وفطنة القاضي إياس بن معاوية. تقول القصة: استودع رجلٌ رجلاً آخر مالاً، ثم طالبه به فأنكره. فخاصمه إلى إياس بن معاوية القاضي، وقال: دفعتُ إليه مالاً في الموضع الفلاني. قال إياس: فأيّ شيء كان في ذلك الموضع؟ قال: شجرة. قال: فانطلق إلى ذلك الموضع، وانظر إلى تلك الشجرة، فلعلّ الله يوضّحُ لك هناك ما تُبَيِّنُ به حقَّك، أو لعلك دفنت مالك عند الشجرة ثم نسيتَ، فتتذكّر إذا رأيتَ الشجرة، فمضى. وقال إياس للمُطالَب بالمال: اجلس حتى يرجعَ صاحبُك، فجلس، وانشغل إياس عنه بالنظر في قضايا الناس، وهو ينظر إليه بين الحين والحين. ثم التفت إياس إليه فجأةً وقال: تُرى هل بلغ صاحبك الآن موضع الشجرة؟ فأجاب الرجل: لا أظن، فهي بعيدة. فقال: يا عدوّ الله، هات المال فقد أقررتَ على نفسك!

(٢) ثمة علاقة وثيقة بين الشعراء والملوك وقد حملت لنا كتب التاريخ نزول كثير من الشعراء في بلاط السلاطين ومدحهم لهم، وكان الشعراء يمثلون وزارة الإعلام حالياً التي تمدح السلطان وتسجل مآثره وبطولاته، حتى إذا امتنع الملك عن العطايا أو تدخل حاسد لتعطيل العلاقة الحميمة انقلب الملك على الشاعر وحرمه من المزايا وفي أحيان يصل الغضب بالملك إلى الأمر بالتنكيل بالشاعر الذي يظل هارباً متخفياً.
وقصص الشعراء مع الملوك بالكثرة التي يعجز حصرها وبعض منها يحمل نباهة الشعراء وسرعة بديهتم والتخلص من غضب الملوك بحسن التدبّر، وتروى قصة حدثت حين أنشد الفرزدق أمام سليمان بن عبد الملك قصيدته التي جاء فيها:

ثلاثٌ واثنتان فهنّ خمسٌ ... وسادسةٌ تميل إلى شمام
فبتن بجانبي مصرعاتٍ ... وبت أفض أغلاق الختام
كأن مغالق الرمان فيه ... وجمرَ غضىً قعدن عليه حام

فقال له سليمان: ويحَك يا فرزدق، أحللت بنفسك العقوبة، أقررت عندي بالزنا وأنا إمامٌ ولا =

وفكّر أن يقلّدها لأخيه.

وقد عرض مشكلة فاضل وصديقه التاجر الصالح على أخيه يستشيره في الطريقة التي يمكن بها التأكد من قول الرجلين (عرض المشكلة في حضور ابنه الذي كان يقلّب القمح الموجود في الجرّة التي تركها فاضل عند الملك) فظلّ الملك وأخوه يتحاوران لوقت طويل من غير أن يصلا إلى طريقة تكشف أيَّ الرجلين يحمل الحق في كلامه. وعندما أوشك الليل على الانتصاف قال ابن الملك: أستغرب جدالكما الطويل والحقّ واضح وضوح الشمس، فسخرا منه وكنوع من التندّر قال له أبوه: أفتنا، أين الحق؟

فقال الابن: أودع التاجر فاضل القمح من ثلاث سنوات، وهي مدة كافية لأن يتلف القمح، وحين أعاد التاجر الأمين القمح كان قمحاً ناضجاً لم يمضِ على حصده أيام، وبهذا يكون التاجر قد فرّط في أمانته.

ابتهج الملك لقوة حجّة ابنه أكثر ممّا ابتهج من اكتشاف تفريط التاجر بأمانته، ونهض من مكانه وقبّل ابنه على مفرق رأسه.

وفي الصباح الباكر واجه الخصمين بعضهما لبعض، وأقرّ بكذب التاجر وأغلظ له القول، فاعترف بذنبه طالباً العفو من الملك ومن التاجر فاضل، فأمره الملك بإعادة الألف دينار الذهبية وحبس التاجر الصالح والمناداة في المدينة بأن لا يُستأمن التاجر الصالح على شيء بعد اليوم. وفي مجلسه قدّم هدية ثمينة مع عشرة آلاف دينار ذهبية للتاجر فاضل لأنه كان سبباً في اكتشاف نبوغ ابنه الذي ولاّه ولاية العهد من بعده. وعادت تجارة التاجر فاضل إلى سابق عهدها.[1]

رواية هندية مساوى

= بدّ لي من أحدك. فقال الفرزدق: بأي شيء أوجبت على ذلك؟ قال: بكتاب اللّه. قال: فإن كتاب الله هو الذي يدرأ عني الحدّ. قال: وأين؟ قال: في قوله: والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون فأنا قلت يا أمير المؤمنين ما لم أفعل.

ومن سرعة البديهة عند الشعراء ما رُوي عن أبي الهول الحِمْيَري والفضل بن يحيى، حيث هجا أبو الهول الحِمْيَري الفضل بن يحيى ثم أتاه راغباً إليه؛ فقال له الفضل: ويلك بأي وجه تلقاني! قال: بالوجه الذي ألقى به ربي وذنوبي إليه أكثر؛ فضحك الفضل ووصله.

(١) هذه الحكاية موجودة في ألف وليلة وليلة مع اختلاف في البدء وفي المنتهى، فبدايتها تبدأ =

= بحلم. يطارد فاضل (هذا البطل اسمه في ألف ليلة وليلة منصور) حلماً يظهر فيه شيخ وقور يحضّه على السفر إلى بلاد معينة بقوله: فقد أراد الله لك السعادة في تلك البلاد. إلا أنّ رحلته في تلك الحكاية لم تحقّق له السعادة بينما الحكاية التي تواجدت في تهامه قد حققت السعادة فعلاً بفوز فاضل بهدايا الملك...

كما أنّ هناك اختلافاً في الوصول إلى حلّ معضلة اكتشاف خيانة التاجر للأمانة، فهنا الحكاية ولّفت وجود ابن للملك معتوه وجعلت حلّه للمعضلة سبباً في توليه للعهد وإعطاء التاجر فاضل الجوائز والهبات. بينما في ألف ليلة وليلة إن قصة غدر التاجر بصديقه تحوّلت إلى حكاية يتناقلها الصغار والكبار، وكانت القصة تشغل بال الملك فخرج للبحث عن حلّ للمشكلة فوجد صبياناً يمثّلون القصة ويخرج الحلّ من فم أحد الصبية الصغار. وهناك اختلاف جوهري آخر، فالحكاية الجنوبية استخدمت الحبّ، وهو المنتج الزراعي الذي يعرفونه تماماً، بينما قصة ألف ليلة وليلة استخدمت الزيتون وهو المنتج الزراعي الذي لا يعرفه مزارعو جنوب الجزيرة العربية.

غصن وادي وشل

قلنا وقلك، قال كان في رجل متزوج امرأتين، وبنى لكلّ واحدة منهما بيتاً في قريتها، وكانت زوجته الأولى قصيرة وسمينة والثانية طويلة ونحيفة، وكان يذّم الأولى أمام الثانية ويذمّ الثانية أمام الأولى، فإذا ذهب إلى زوجته الطويلة دخل عليها مسلّماً ويقول لها:

السلام عليك يا غصن وادي وشل

عادني ويتي من عند حجرة المغتسل

فتفرح بذمّه لزوجته القصيرة السمينة، فتهشّ وتبشّ في وجهه وتقدّم له الأكل والشراب ثم تتزيّن ويبيت معها ليلتها سعيداً بها وبما تفعله له.

وإذا ذهب إلى السمينة وعاتبته على تأخره عنها هشّ لها طرباً وذمّ ضرّتها الطويلة قائلاً لها:

السلام عليك ياقبة بواليها

عادني ويتي من عند عظام اجابيها

فتفرح بذمّه لزوجته الطويلة النحيفة، فتهشّ وتبشّ في وجهه وتقدّم له الأكل والشراب ثم تتزيّن ويبيت معها ليلتها سعيداً بها وبما تفعله له.

واستمرّ على هذه الحال يرضي كلاً منهما بذمّ الأخرى.

أرادت زوجته السمينة التأكّد من حبّه لها، فبعد أن قضى ليلته معها قامت بتزيينه وإلباسه أحسن الثياب وودّعته، فركب حماره متّجها إلى زوجته الطويلة النحيفة، وما أن خرج حتى امتطت حماراً أخر وتبعته من غير أن يحسّ بها، وما أن وصل إلى

بيت زوجته الطويلة حتى ربط حماره ودخل إليها مسرعاً، فلحقت به الزوجة السمينة وسمعته يقول لضرّتها:

السلام عليك ياغصن وادي وشل

عادني ويتي من عند حجرة المغتسل

أحسّت أنّ كلامه ذمٌّ لها، وأنه يكذب عليها، فعادت إلى بيتها وانتظرت مقدمه حتى إذا جاء في اليوم التالي قال لها نفس القول لكنه فوجئ بأنها جمعت ملابسها وذهبها واستأذنته بأنها عزمت على الذهاب إلى بيت أبيها، فاستفسر منها عن السبب فقالت له:

- حاسة بضيقة واشا أجلس يومين مع اخواتي وبويه.

وافق على رغبتها وقام وأوصلها إلى بيت أبيها.

وكان لها سبع أخوات جمعتهنّ حولها وسألتهنّ إن كنَّ يحببنها، فأجابت كلّ واحدة منهن بأنها تحبها حباً كبيراً، فقالت لهن:

- أشا أبوك اتعجب لحجرة المغتسل مين تعرفها؟

فأخبرتها واحدة منهن أنها تعلم موقعها لكنها استغربت طلبها وحاولت أن تقنعها بأنّ هذه الحجرة تقع على حافة ماء آسن وليس بها ما يدعو للذهاب إليها، فأصرّت على زيارة الحجرة ورؤيتها. وفي صباح اليوم التالي خرجن معها إلى موقع الحجرة، فوجدتها حجرة كبيرة غير متّسقة الشكل تطحلبت جوانبها الغارقة في الماء وسكنتها دويبات وحشرات صغيرة، ومن حولها تنافر الصبية يسبحون وبعضهم ترك ثيابه بالقرب من تلك الحجرة... فكتمت في نفسها غيظها ولعنت زوجها في سرّها لأنه يمثلها بهذه الحجرة.

وعادت إلى البيت ضائقة الصدر حزينة، وعندما حاولت أخواتها تسليتها ومعرفة سبب حزنها لم تبح لهن واستحلفت من تعرف موقع غصن وادي وشل أن تذهب بها إلى ذلك المكان، فأخبرتها إحدى أخواتها بأنه وادٍ جميل تنبت فيه كلّ أنواع الأزهار، ومنها غصن وادي وشل، فأبدت رغبة ملحة في أن تزور ذلك المكان.

وفي الصباح الباكر تحركت مع أخواتها لزيارة الوادي، وعندما وصلت إلى هناك وجدت أنّ المكان قطعة من الجنة، فتحسّرت وكتمت غيظها في نفسها،

وسألت عن غصن وادي وشلّ، فدلّتها إحدى أخواتها اليه، فإذا به غصن رشيق ينتهي بزهرة لم ترَ أجمل منها، فقطفت غصناً من تلك الأغصان المتناثرة، وعادت مع أخواتها إلى البيت، وقامت ووضعت الغصن على باب بيت أبيها.

وبعد أسبوع قدم زوجها كي يعود بها إلى بيتها فرأى غصن وادي وشل على الباب وقد تيبّس وذبلت زهرته، فعرف الرسالة التي تركتها له زوجته، فدخل إليها وحاول الاعتذار منها لكنها ردّته وقالت له:

إن صغرت فانت خويه

وإن كبرت فانت بويه

طلقني.

وأصرّت على طلبها فطلّقها وعاشت في بيت أبيها، وكلّما تذكّرت الحجرة والغصن تلعن زوجها وتدعو عليه.

رواية عائشة عجيبية

درين ودرينة

درين ودرينة راحوا يلقطوا كين، درينة حنبت في حلقها كينة، قالت لدرين: روح جبلي لبينة من عند أهل البقيرة.
راح الدرين لأهل البقيرة وقال لهم:
- يا أهل البقيرة هبولي لبينة لعمتي درينة حنبن في حلقها كينة من عروج وين وينه.
قالوا له:
- روح عند البقيرة إذا ابنها ما عاشها احلبها وبز ام لبينة.
راح الدرين للبقيرة لقي ابنها ما عاشها حلبها وكان ضامي وشرب اللبينة.
راح عند أهل الغنيمة قال لهم:
- يا أهل الغنيمة هبولي لبينة لعمتي درينة حنبن في حلقها كينة من عروج وين وينه.
قالوا له:
- روح عند الغنيمة إذا ابنها ما عاشها احلبها وبز ام لبينة.
راح الدرين للغنيمة لقي ابنها عاشها قال له:
- يا تيس يا ابن التيس لمه تعيش امك؟
ردّ عليه التيس:
- أنا تيس ابن تيس ولمه الشفرة تذبحني؟
راح الدرين يسأل الشفرة وقال لها:
- ياشفرة يابنت الشفرة لمه تذبحي أم تيس؟

ردّت عليه الشفرة:

- أنا شفرة بنت شفرة ولمه النار تحمّيني؟

فذهب الدرين إلى النار وقال لها:

- يانار يابنت النار لمه تحمي الشفرة؟

فقالت له النار:

- أنا نار بنت النار ولما الماي يطفيني؟

راح الدرين للماء وسأله:

- ياماي يابن الماي لمه تطفي النار؟

ردّ عليه الماء:

- أنا ماي ابن ماي والرب الي ينزلني.

رواية مريم عبدية

صن حجل العجام

رغب ابن السلطان أن يتزوج فوصفوا له فتاة في غاية الجمال، وكانت هذه الفتاة معتزة بنفسها ولا تقبل شيئاً إلا باقتناع، وعندما تقدّم لها ابن السلطان لم يشاورها أهلها ولم يأخذوا رأيها، فزُفّت إلى ابن السلطان وهي غاضبة.

وعندما رآها ابن السلطان جُنَّ بها شوقاً وحباً، وأخذ يناغيها ويتغزّل بها وهي لا تردّ ولا تنطق بكلمة واحدة.

استغرب ابن السلطان صمتها وتعاليها عليه، فغلب حبّه غضبه، وخطب ودّها بالهدايا النفسية وبالقول الرقيق، فلم تتغيّر، وظنّ أنها بكماء، إلاّ أنّ أباها نفى أن تكون ابنته بكماء وقال لصهره:

- ربما تتدلّل عليك.

وعرف من أخواتها أنها تتكلم لكنها متعالية وعنيدة ولا يرضيها الرضى.

فكان يناديها باسم عجمى وإذا دعاها تحضر إليه لكنها لا تتكلم، وكلّما سألها عن حالها لا تجيب، فيقول لها:

- عجمى نامي

تنام.

- عجمى كلي

تأكل.

- عجمي اشربي

تشرب.

سلك كل الطرق طلباً لإرضائها مقابل أن تقول له كلمة واحدة فلم تفلح كلّ محاولاته.

مضت الأيام وخلّفت له الابن الأول، والثاني والثالث، ولم يسمع منها كلمة واحدة خلال هذه السنوات، ولم يشأ تطليقها لشدّة حبه لها، وانتشر خبر هذه الزوجة بين أهل وأقارب السلطان.

واشتاق ابن السلطان لأن تكون معه امرأة تحدّثه ويحدّثها، تأنس إليه ويأنس إليها، إلا أنّ حبه لزوجته ملأ قلبه وكان يتمنى لو أنها تتكلّم لكان أسعد الناس.

ومع مواصلتها لصمتها ورغبته في أن تكون له زوجة تسمع منه وتسأله عمّا به، جعلته يستشير بعض أصدقائه، فنصحه صديقه الحميم بأن يتزوّج ويُبقي العجمى في عصمته ما دام يحبها، واقترح عليه أن يتزوّج امرأة فقيرة لكي يغيظ زوجته، فترك لصديقه مهمة اختيار تلك الفتاة، وما هي إلاّ أيام وأعلن عن زواج ابن السلطان، فانتقل الخبر إلى كلّ أركان الدولة وكلّ واحد يردّد:

- قلك ابن السلطان يشا يزوج... قلك ابن السلطان يشا يزوج...

فسمعت زوجته بالخبر، فلم تقل شيئاً، وأراد ابن السلطان أن يرى أثر الخبر عليها فوجدها كما تركها، فأخذ يقول لها:

- لو تقولي كلمة واحدة ابطل كل شيء.

فلم ترد عليه، فازداد غضبه وتركها وغادر إلى جهة أخرى من القصر.

وفي ليلة الزواج حضر الناس من كلّ مكان لمشاهدة الاحتفال الذي أعدّ له مشاركة فرق جاءت من بلدان مختلفة لتهنئة ابن السلطان ومشاركته فرحته.

أما زوجته العجمى عندما خلا البيت وتحرك الجميع لحضور العرس، قامت من مكانها واغتسلت ولبست أحسن ما عندها من ثياب ومجوهرات، ولبست حجلها (خلخالها) الذهبي، واتجهت للعرس، وكانت مفاجأة الحفل إذ شاهدتها أم وأخوات ابن السلطان، وأخذن يتغامزن مع بقية قريباتهن لحضورها، وبقيت في مكانها إلى أن دخل ابن السلطان كي يُزفّ إلى زوجته الجديدة، انبهر برؤية زوجته العجمى التي كانت في أحلى زينتها وأبهى منظرها، وعندما رأته جلس بجوار زوجته الجديدة. قامت من مكانها ورقصت على ضرب الطبول وأصوات الانغام، ومع رقصها كان خلخالها يصدر صوتاً منغّماً، فأرادت الزوجة الجديدة أن تسخر منها فقالت:

- صن حجل العجام .
فالتفتت إليها وردّت عليها بصوت مسموع:
-والله ما انا عجام
هرجي من عام لعام
وضحكي تبسام
اخرجي ياغنامة يابنت الغنام
وعندما سمع ابن السلطان ردّ زوجته فرح بها كثيراً وقفز إليها يضمّها ويقبّلها، وقام من حينه بتطليق زوجته الجديدة. . .
وعاد مع زوجته التي اعتذرت من صمتها الطويل وعاشا في سعادة وراحة بال.

رواية عائشة عجيبية

بعد امغنى ومال

قلنا وقلكم، من وحدة جمالها يسلب اللبّ، وسمع بها ابن السلطان وتقدم لخطبتها، وما هي إلاّ أيام وتزوّج بها، وكان (ما معاش ولا فتة)[1] فصبرت واستحكمت بحكم الله، وكلّما مضت الأيام ورأت جمالها وفتنتها تحسّرت على نفسها، وفي الأخير قررت أن تطلب الطلاق، واستجاب ابن السلطان لطلبها وطلّقها.

فخرجت من القصر ليس معها إلاّ الثياب التي دخلت بها إلى القصر، فساحت في الأرض، وتقدّم لخطبتها أحد الرعاة فوافقت، وتزوّجت به وأنجبت له ثلاثة أبناء كالأقمار، وكان زوجها يكدّ ويتعب من أجل توفير حياة كريمة لزوجته وأبنائه إلاّ أنّ دخله كان ضئيلاً، فلم تشتكِ زوجته ورضيت بما يجلبه لها.

وفي يوم من الأيام كان ابن السلطان مسافراً وعرف أنّ زوجته الأولى تسكن في الخلاء مع أبنائها وزوجها، وأراد أن يرى ما حلّ بها، فمرّ من جوار بيتها، ولم يكن بيتاً بل خدروشاً، وكانت تجلس بثياب مرقّعة تغرس جملاً وأبناءها من حولها يصيحون من الجوع، فوقف على رأسها وأراد أن يسخر منها فقال لها:

ذا ام غنى وذا ام مال

أصبح اليوم جمال

فنهضت من جلستها وأشارت إلى أبنائها الثلاثة وقالت له:

---

(١) «ما معاش ولا فتة» هي جملة مواربة تشير إلى أنّ الشخص الموصوف بهذا القول هو رجل عنين.

ذا ام غنى وذا ام مال
وذا ام قنا راعي امريشة
وامسعد في رجل ام جمال
ولو نور بتغبيشة
يرد امعقل ومسكان
ومطير في بغاشيشه.[1]
فخجل ابن السلطان من ردّها وانصرف من أمامها لاكزاً خيله ليبتعد عنها بعيداً.

رواية مريم عبدية

(١) من هذا الردّ يتضح أنّ ما كانت تبحث عنه من الزواج تحقق مع راعي الجمال، وفي هذا السياق نتذكر مقولة ميسون، امرأة معاوية، حين نفرت من القصور والخدم والحشم بالعودة إلى موطنها الأصلي بعد زواج فاشل:
لبيت تخفق الأرواح فيه   أحب إلي من قصر منيف.

صاحبة الولول

قلنا قلكم، قلك كان في سلطان من السلاطين عنده بنت وهبها الله جمالاً لم يهبه لأحد، وتناقل الناس خبر جمالها، فطمع بالزواج منها الملوك والأمراء، وكلّما جاء خاطب رفضه السلطان، وفي كلّ مرة يختلق حجّة من الحجج لرفض طلب الخاطب.

وكانت نفس السلطان نفس دنيئة، فقد أحبّ ابنته وتمنّاها زوجة له، واحتار كيف يصل إلى مبتغاه، وبعد تفكير ذهب إلى قاضي البلد لكي يستفتي، فرحّب به القاضي وقال له:

- يا سلطان الزمان لو أنك طلبت حضوري لبلاطك لجئتك.

فهوّن السلطان على القاضي وقال له:

- عندي معضلة شغلت تفكيري وأريد أن أستفتيك كي ترشدني بالفتوى الصحيحة.

فقال له القاضي: اعرض مشكلتك وستجد عندي الحلّ بإذن الله.

فقال له السلطان: في شخص يمتلك مهرة ليس مثلها شبيه وهي مهرةٌ لم تروّض بعد، وهذا الشخص لا يريد أن يروّض أحد مهرته إلاّ، هو فهل يجوز له ترويض مهرته بنفسه؟

ضحك القاضي وقال: يا سلطان الزمان، هذه ليست معضلة أبداً فصاحب المهرة أحقّ بمهرته إن شاء ترويضها بنفسه أو أعطى مروضاً يروّضها.

فغضب السلطان من ضحك القاضي وقال له: أقول لك إنها معضلة وبسببها لا أنام فتقول ليست معضلة!

فارتبك القاضي ارتباكاً كبيراً وواصل حديثه بنفَسٍ متقطّع: والله إنها لمشكلة عويصة فدعني أفكر فيها وأردّ عليك الجواب.

فزاد غضب السلطان وصاح: لم أترك بلاط حكمي لكي أذهب وأعود اليك... الآن أجبني: هل يروّضها بنفسه؟

فاصطكت أسنان القاضي وقال: نعم، يجوز لصاحبها أن يروّضها بنفسه.

ترك السلطان مجلس القاضي وعاد إلى قصره، وقال لزوجته: زيّني ابنتك واصعدي بها إلى مخدعي واتركيها هناك.

أرادت زوجته استيضاح الأمر إلاّ أنه صاح بها: سوف تتزوج ابنتك الليلة.

وأسكت كلّ أسئلتها التي طرحتها على مسامعه: من هو العريس؟ ومتى خطب؟ ومتى قبل؟ ولماذا لا يُقام عرس يدعى إليه الخلق والخلايق؟ ولماذا تصعد بها إلى مخدعة؟ ولماذا لا يريد أن يحضر أحد إلى مخدعه بعد صعود العروس؟

كانت الأم تزيّن ابنتها وأسئلة كثيرة تدور في مخيلتها، لكنها خافت على رقبتها من أن تُقطع، فأنهت تزيين ابنتها وقادتها إلى مخدع أبيها السلطان ونزلت بعد أن أعطت ابنتها ماءً سحرياً، وأخبرتها كيف تستخدمه إن أراد أبوها بها سوءاً.

صعد السلطان إلى مخدعة وانبهر بجمال ابنته انبهاراً لم يُمكّنه من وضع مقدمات، فهجم عليها يقبّلها وهي تصيح به:

- أنا بنتك يابا... أنا عندالله وعندك يابا!

وعندما لم تفلح استغاثتها رشّت عليه من الماء السحري الذي زوّدتها أمها به، وفي الحال ثقلت حركة السلطان واستلقى في مكانه وتعالى شخيره.

فقامت الأميرة بجمع حاجياتها ومجوهراتها وذهبها وتسلّلت من القصر، وفي طريقها وجدت (هندي بابا) رثّ الملابس يشحذ في الطرقات، فاقتربت منه وقالت له:

- تعطيني ملابسك وأعطيك مقابلها جنيه ذهب.

لم يصدّق هندي بابا ووافق على العرض مباشرةً، وخلع ملابسه وتناول الجنيه وغادر مكانه، فقامت الأميرة بلبس تلك الملابس الرثة المرقعة.

ساحت الأميرة في أرض الله، ولا زالت تسير من بلد إلى بلد حتى ابتعدت عن بلد أبيها كثيراً، وفي إحدى المدن دخلت إلى حانوت لتأكل وتشرب، فوجدت

امرأة عجوز هناك عرفت أنها فتاة، فحاولت أن تسأل عن سبب تخفّيها في ثياب هندي، فلم تخبرها وطلبت منها أن تبحث لها عن دبّاغ جلود ليصنع لها بدلة من الجلد مقابل أن تعطيها ثلاث جنيهات ذهب. فرحت العجوز بالعرض وأخذت مقاييس طولها وعرضها وخرجت من فورها، وقبل دخول الليل جاءت ببدلة من الجلد غطّت الأميرة من رأسها لقدميها، فتناولت الأميرة تلك البدلة واشترت «تنكة» تمر وأخذت تدعك تلك البدلة بدبس التمر لسبعة أيام متوالية، وارتدتها في اليوم الثامن وخرجت إلى قصر سلطان المدينة باحثةً عن عمل هناك، وكانت تسير وأسراب الذباب تقع على بدلتها أو تحلّق فوقها. ومن على بوابة القصر طردها الحراس وسخروا منها، فعادت في اليوم التالي تطلب عملاً داخل القصر، فطردها الحراس وقالوا لها:

- مجنونة انت تعملي في بيت السلطان وانت على هذه الحالة والذبان لاصق في جسمك ويحوم فوقك!

وطردوها وكانت زوجة السلطان تنظر إليها من شرفة القصر فأشفقت عليها ونادت بها، فسمح لها الحراس بالدخول، وعلمت زوجة السلطان أنّ هذه الفتاة تبحث عن عمل، وكانت بناتها الثلاث حاضرات الموقف فصاحت بها الابنة الكبرى:

- منشابك وامولول عليك.

فتدخّلت أمها قائلة: لنكسب الأجر فيها.

سُمح لها بالعمل في القصر بشرط أن لا تُمسك أكلاً أو شراباً، وسُمح لها أن تقوم بحمل القمائم وتنظيف حضائر البهائم.

وفي وضعها الرثّ وتخاطف الذباب حولها لم يقترب منها أيّ رجل، فعاشت بعيدة عن إيذاء الرجال لها.

وكان للسلطان ابناً وحيداً، وسط ثلاث أخوات، رؤوفاً ودوداً وجميلاً أيضاً، وكلّما رأى «صاحبة الولول» عطف عليها وحدّثها بلين بأن تنظف جسدها بدلاً من ترك الذباب يحوم عليها، فتعده بتنفيذ نصيحته، لكنها لا تفعل.

ومع مرور الأيام أُغرمت به وأحبته كثيراً ولم تعرف وسيلة لأن تبلّغه بحبها له،

وكانت تجهّز له أفضل الأكلات فلا يأكل من يدها بتاتاً أو يشرب، فتشعر بالأسف على ما هي عليه.

وكان السلطان يمنّي نفسه بأن يزوّج ابنه، فأخذ يلحّ عليه حتى وافق، وذهب الابن إلى أمه وأخواته وقال لهن:

- وافقت على الزواج بشرط أن تكون زوجة المستقبل جميلة لا يشبهها أحد من نساء العالمين.

فرحت أمه وأخواته بإظهار رغبته في الزواج، وأصبحت السلطانة وبناتها يذهبن إلى الأعراس لاختيار عروس لابنهم.

وذات ليلة، وبينما كانت السلطانة وبناتها يتهيأن للذهاب إلى عرس، جاءت «صاحبة الولول» تترجاهن أخذها معهنّ إلى العرس، فتضاحكن من طلبها وقلن لها: امولول عليك من كل جانب وعادك تشين تروحين لمدوف.

فخرجت من عندهم وهي مصمّمة على الذهاب للعرس، وقامت بمناداة أحد الخدم ووهبته جنيهاً ذهبياً وقالت له:

- اشتري لي فلّ وكاذي وعزاني والباقي حلال عليك.

غادرت السطانة وبناتها القصر متجهات إلى موقع العرس، وعندما أحضر الخادم طلب «صاحبة الولول» قامت بنظم الفل والعزاني، وخلعت جلدها واغتسلت وتنظّفت وشلفت ولبست أحسن ثيابها وتزينت بالذهب والمجوهرات ولحقت بهم إلى موقع الزواج، وعندما دخلت أبهرت كلّ النساء، فأخذن يتطلعن صوبها غير مصدّقات أن تكون هناك امرأة بكلّ هذا الجمال، وعندما رأتها السلطانة وبناتها تخافتن فيما بينهن أنّ هذه الفتاة تصلح زوجة لابن السلطان، وتنافت النساء على استضافتها ودعوتها لأن تجلس بجوارهن، فأظهرت رغبة أن تجلس بجوار زوجة السلطان، فتحرّكت وجلست بجوارهنّ والعيون تحوطها من كل جانب، فالتفتت إليها الأميرة الكبرى وخاطبتها:

- من أي بلد انت؟

فقالت لها: من بلاد الله.

فقالت لها السلطانة: متزوجة؟

فردّت عليها: نعم متزوجة.

فقالت لها الأميرة الوسطى: ممّن متزوجة؟

فردّت: من خثاث امحاسي.

استغربت السلطانة وبناتها وقالت السلطانة:

- كلّ هذا الجمال وما تلبسينه من ذهب ومجوهرات لخثاث امحاسي!؟

فتبسمت وهي تردّ: الله هباله.

وقبل أن ينتهي العرس انسلّت «صاحبة الولول» وعادت إلى القصر وارتدت بدلتها الجلدية وجلست تغسل الأواني. وعندما دخلت السلطانة وبناتها القصر كان السلطان وابنه ينتظروهنّ لمعرفة إن وجدنَ فتاةً تليق بأن تكون عروساً لابن السلطان، فتصايحت البنات وهنّ يحدثن أبيهن:

- وووه يا باه.. ووووه يا باه جات بنية ولا كأنها من بنات السلاطين الزخم زخمها والحلى حلاها لابسة احسن الفساتين وعليها الذهب والمجوهرات وهي تبرق أحسن من ذهبها وقلنا هي اللي تصلح لاخونا ولما سألنها قالت متزوجة من خثاث امحاسي... قلنا لها كل هذا الزخم والذهب لخثاث امحاسي قالت الله هباله.

وكانت صاحبة الولول تسمعهم فقالت لهن: قلت لكم شيلوني معاكم أبيتم.

فردت عليها الأميرة الكبرى: ربنا يشلك امولول عليك وعادك تشنا نشلك شالتك ام الصبيان.

وجلست بنات السلطان مقهورات من جمال وحسن الفتاة التي رأوها في الزواج، وقالت الأميرة الصغيرة:

- بكرة في زواج ولا بد من أن نكون أحسن منها.

وعندما جاء المساء كانت الأميرات منشغلات بالتزين وإظهار محاسن جمالهن ولبسن أفخر ثيابهن، فجاءت صاحبة الولول وقالت لهم:

- تا الليلة شيلوني معاكم.

فطردوها وهن يصحن بها:

- امولول عليك من كل صوب وعادك تشين تخرجين.

وما أن خرجوا حتى اغتسلت ولبست وتزينت ولحقت بهم إلى الزواج. وعندما دخلت أبهرت كلّ النساء، فأخذن يتطلعن صوبها غير مصدقات أن تكون هناك امرأة بكلّ هذا الجمال، وعندما رأتها السلطانة وبناتها تخافتن فيما بينهن أنّ هذه الفتاة

تصلح زوجة لابن السلطان، وتنافت النساء على استضافتها ودعوتها لأن تجلس بجوارهن، فأظهرت رغبة في أن تجلس بجوار زوجة السلطان، فتحركت وجلست بجوارهن والعيون تحوطها من كلّ جانب، فدنت منها السلطانة وقالت لها:

- مش انت اللي كنت هنا البارحة؟

فقالت لها: لا لا، هذه أول مرة اجي ممكن تكون أختي.

فالتفتت إليها الأميرة الكبرى وخاطبتها: من أي بلد انت؟

فقالت لها: من بلاد الله.

فقالت لها السلطانة: متزوجة؟

فردّت عليها: نعم متزوجة.

فقالت لها الأميرة الوسطى: ممّن متزوجة؟

فردّت: من كناس امزاقير.

استغربت السلطانة وبناتها وقالت السلطانة:

- كلّ هذا الجمال وما تلبسينه من ذهب ومجوهرات لكناس امزاقير!

فتبسّمت وهي تردّ: الله هباله.

وقبل أن ينتهي العرس انسلّت «صاحبة الولول» وعادت إلى القصر وارتدت بدلتها الجلدية وجلست تغسل الأواني، وعندما دخلت السلطانة وبناتها إلى القصر كان السلطان وابنه ينتظروهنّ لمعرفة إن وجدن فتاة تليق بأن تكون عروساً لابن السلطان، فتصايحت البنات وهنّ يحدثن أبيهن:

- وووه ياباه... وووه ياباه جات بنية أحلى من اللي رأيناها ليلة البارحة وهذه كأنها سلطانة لابسة احسن الفساتين وعليها الذهب والمجوهرات وهي تبرق أحسن من ذهبها وقلنا هي اللي تصلح لاخونا ولما سألنها قالت متزوجة من كناس امزاقير، قلنا لها كل هذا الزخم والذهب لكناس امزاقير قالت الله هباله.

وكانت صاحبة الولول تسمعهم فقالت لهن: قلت لكم شيلوني معاكم أبيتم.

فردّت عليها الأميرة الكبرى: ربنا يشلك امولول عليك وعادك تشنا نشلك شالتك ام الصبيان.

أظهر السلطان امتعاضاً من زوجته وبناته وأخبرهنّ أن مهمتهنّ اختيار عروسه لابنه وليس التطلع إلى المتزوجات، فوعدته زوجته أن تختار في المرة القادمة، وتمّ

فعلاً اختيار فتاة لأن تكون زوجة لابن السلطان، وتتالت الاستعدادات لحفل الزواج.

وفي ليلة العرس وبينما كانت السلطانة وبناتها يتزينَّ دخلت عليهنّ «صاحبة الولول» طالبةً منهنّ أخذها معهنّ إلى حفل الزواج، فوجدت الرفض كالمرّات السابقة، فخرجت من عندهن، واغتسلت وتزينت أفضل ما تكون عليه، ولحقت بهنّ إلى موقع الزواج.

ووقّتت دخولها مع دخول ابن السلطان على عروسها، وعندما دخلت ورآها ابن السلطان ذُهل ولم يعد ينظر إلى أحد سواها وهي تشاغله بعيونها، وعندما حانت الزفّة انطلقت نحوه وكأنها تسلّم عليه وتبارك له، وحين مدّ يده سحبت خاتمه ووضعت خاتمها في راحة يده وانطلقت مسرعةً وعادت إلى القصر ولبست جلدها وجلست تغسل الثياب.

أما ما كان من أمر ابن السلطان فقد تظاهر بالإغماء ولم يكمل حفل الزواج، فتوقّف كلّ شيء، وتجمّعت عليه أمه وأخواته يحاولن إنعاشه، وأمروا بحمله إلى القصر.

وعندما رأتهن صاحبة الولول عاتبتهن:

- حتى في زواج خوكم ما شلتوني معاكم!

فصاحت بها الأميرة الصغيرة:

- شلك عفريت انت ومذبة اللي تولول عليك، ما ترين خويه دايخ؟

فردّت مستغربةً: عسى ما له؟

فقالت الأميرة الكبرى: دخلت علينا بنيّة أحلى من القمر فغر خويه وغشي عليه.

وتناقل الناس خبر انفضاض العرس وما حدث لابن السلطان بسبب تلك الفتاة التي دخلت وقلبت حال الأمير حتى أنه لم يتمالك نفسه فأُغمي عليه.

ظلّ الأمير متأثراً لأيام، وحين استعاد قوته أخبر أمه أنه لا يريد أن يتزوج إلاّ بالتي أخذت خاتمه وتركت له خاتمها، وإن لم يجدها فلن يتزوج أبداً.

تناولت أمه الخاتم الذي تركته تلك الفتاة في راحة يد ابنها، وأرسلت رسلاً إلى كلّ بيت في المدينة، فمن يأتي الخاتم على إصبعها تكون زوجة لابن السلطان، وشاع الخبر بين أهالي المدينة وغدت كلّ فتاة تتمنى أن يكون الخاتم على مقاس

إصبعها، وما إن يصل المرسول إلى أيّ بيت حتى تبذل الفتاة كلّ المحاولات لأن يستقرّ الخاتم في إصبعها فلا يحدث ذلك.

وبعد أن عاد كلّ المبعوثين من غير أن يجدوا فتاة يتطابق الخاتم مع إصبعها دخلت صاحبة الولول ترجو السلطانة أن تسمح لها بتجريب الخاتم، فاستلقت السلطانة على ظهرها ضاحكةً ونادت على بناتها وزوجها وابنها كي يسمعوا ماتقوله «صاحبة الولول»، وعندما علموا برغبتها في تجريب الخاتم زادت ضحكاتهم ودفعت الأميرة الكبرى صاحبة الولول :

- خرجي خوارج ما عاد الا انت وولولة ذبتك تتزوجي خويه.

خرجت من عندهم وبقيت قريبة منهم تسمع ما يقولون.

قام ابن السلطان وقبّل يد أبيه وطلب منه أن يسمح له بالسفر بحثاً عن تلك الفتاة، ومع إصراره وافق السلطان على سفر ابنه بحثاً عن عروسه، وعندما تقرر موعد خروجه رفض أن يرافقه أحد إلاّ خادماً واحداً يقوم على حمل أكله وشربه، فقامت أمه وأخواته بتجهيز «زوّادة» له وحملوها في خرج سرج خيله، وقبل أن ينطلق خرجت صاحبة الولول حاملةً قرص حنطة وقدّمته إلى الأمير كزوّادة، فتضاحك الجميع وقالوا لها:

- الامير ما ياكل اكلك وانت هنا عادك محملاه ذبتك في سفره.

فقالت: أم قرص لمخادم مش للأمير.

وكان الأمير على عجله فأمر خادمه بأخذ قرص صاحبة الولول ووضعه في خرج حصانه.

ودّع الأمير أبيه وأمه وأخواتها وانطلق في سفره.

فرحت صاحبة الولول أنّ الخادم حمل قرصها معه فقد حنطة ناضجة وطحنتها وعجنتها ووضعت خاتم ابن السلطان وسط قرص الحنطة متمنيةً أن يراه الخادم ويخبر سيده.

وفي سفره كان ابن السلطان يمرّ على كلّ قرية ومدينة ويعطي الخاتم للخادم ويأمره بالدوران على البيوت لكي تقوم الفتيات بلبس الخاتم حتى إذا لم يجد فتاة يتطابق الخاتم مع أصبعها يغادر إلى مكان آخر.

وبعد مسيرة ثلاثة أيام نفذت زوّادة الأمير، وكان قد بلغ صحراء ليس بها

شيء، فسأل خادمه إن كان معه شيء يؤكل، فردّ عليه خادمه أنه لم يبقّ شيء إلاّ قرص صاحبة الولول فضحك الأمير وقال:

- لو اموت من الجوع ما اكلت خبزة صاحبة الولول.

واستمرّ في سفره وكلما ظن أنّ تلك الصحراء ستنتهي إذا هي تمدّ أطرافها، فقرصه الجوع ولم يعد قادراً على الاحتمال فطلب من الخادم أن يعطيه قرص صاحبة الولول، وما أن قسمه حتى وجد خاتمه في وسط القرص، ففرح كثيراً وأمر خادمه أن يلوي أعناق الخيل ليعودا إلى بلدهما.

ومع مقدمه فرح أهله وظنوا أنه قد وجد فتاته التي خرج يبحث عنها، وعندما لم يشاهدوا أحداً معه سوى خادمه أيقنوا أنّ الأمير قد اهتدى وعاد إلى رشده من أوهام البحث عن فتاة لم يعد لها مكان في البلد.

اجتمع الأمير مع أهله في المساء وفاتح أباه برغبته في الزواج من صاحبة الولول، فاستنكر الجميع طلبه هذا، وعندما أصرّ قال له أبوه:

- لو تزوجت صاحبة الولول أتبرى منك.

وعجز كلٌّ منهما عن إقناع الآخر، فوافق السلطان على زواج ابنه بالشرط الذي أخبره به، وهو أن يطرده من القصر ويتبرّأ منه.

تزوّج ابن السلطان من صاحبة الولول وحملها إلى بيت خرب في طرف المدينة، وكان الذباب يحوم حولهما ويتساقط في آنية الأكل والشراب وابن السلطان ممسك عن الأكل والشرب، وسألها عن قصة الخاتم الذي وجده في قرص الحنطة فأبدت استغراباً وأعادت إليه السؤال: عن أي خاتم يتحدث؟ أحسّ ابن السلطان أنه تورّط ولم يعد أمامه من شيء يفعله؛ فلو عاد فسوف يسخر منه أهله وربما يطرده أبوه، ولو بقي مع هذه المرأة وذبابها الحائم فسيموت من الغيظ، فظلّ واجماً طوال الوقت، تحدّثه صاحبة الولول فلا يردّ عليها، تقترب منه فيبتعد عنها. استيقظ في الليلة الخامسة من زواجه فلم يجد صاحبة الولول داخل الغرفة، فخرج يتفقد ماذا تصنع، فلاحظ وجود جلد تكوّم عليه الذباب وسمع طرطشة المياه، فانزوى في ركن وأخذ يراقب ما يحدث، وما هي إلا لحظات إلا ويرى نفس الفتاة التي أذهلته ليلة العرس، رآها تقترب من بدلة الجلد وتهمّ بارتدائها، فقفز نحوها فصاحت به:

- استرني سترك الله.

فتناول شرشفاً وغطاها وقال لها:

- مستورة في الدنيا والآخرة.

وجذبها إلى مخدعهما وهو يكاد يطير من الفرح بأن وجد الفتاة التي عشقها، وظلا إلى وقت متاخر من الليل يتجاذبان الحديث، وقد أخبرته بقصتها كاملة، فضمّها إلى صدره وقال لها: أنت زوجة الدنيا والاخرة.

أما أمه فقد أصابها الحزن على ولدها الوحيد وعزمت على أن تتدخل بنفسها في إقناعه بترك صاحبة الولول، وقد اختارت أجمل بنات المدينة وقررت أن تذهب إليه في بيته وتطلب منه أن يختار أيّ واحدة من البنات المصاحبات لها ويطلّق صاحبة الولول ويعود إلى قصر أبيه وملكه، وقد اتّفقت مع أخواته أن يتباكين ليؤثروا عليه، وعندما وصلوا استقبلهم استقبالاً حسناً واعتذر عن المكان وما به من خراب فقالت له أمه:

- هذا البيت لا يسكنه إلا امذبة وكنها اعدنك

فسكت ولم يرد عليها، وعندما عرضت عليه رؤية الفتيات اللاتي قدمن معها قال لها ولأخواته:

- ادخلوا وسلّموا على زوجتي وبعدها اختار.

دفعوا الباب فرأوا حورية تجلس على كرسي، فلم تنطق أيّ منهما وانكفأت الأم تقبّلها وتقول لها:

- كلنا خدمك.

فنهضت من جلستها ورحّبت بأم وأخوات زوجها وهي تعتذر من سوء المكان، فقالت لها الأم:

- أنت مكانك في القصر.

ودخل ابن السلطان عليهن وهن يتبادلن الحديث ورفع البدلة الجلد فاستحت زوجته وتصايحت أخواته:

- صاحبة الولول قمر الزمان.

فقام من حينه وأحرق الجلد وانتقل بزوجته إلى القصر وعاشا سعداء ما تبقى لهما من عمر.

رواية عائشة عجيبية

ماي بارد ماي بارد نجم الشريق ماهبلك

قلنا وقلكم، قال كان هناك ثلاثة إخوه بنتان وولد، وكان اسم الكبرى نجم الشريق واسم الصغرى ضبية البان واسم الولد ماي بارد (وكان أصغرهما سناً)، ولم يكن لهم من أحد في هذه الدنيا، وقد تعاهدوا أن لا يفترقوا، وتجدهم كل يوم في بلد، يسيحون فالبلد التي ينزلوا بها، يجربوا أحوالها وأحوال أهلها فإن اعجبتهم بقوا بها وإن لم تعجبهم غادروها إلى بلد أخرى.

مع نزولهم في كلّ بلد يسخّرون أنفسهم للعمل، فما يطلبه صاحب العمل ينفّذونه بحذافيره ويتقاضون أجورهم ليشتروا احتياجاتهم من أكل وشرب وملبس، وكانوا سعداء بما هم فيه.

والبلد التي لا تستقبلهم يغادرونها سريعاً متخففين من الحسرة بقولهم :

- هذه بلد ليس لنا فيها رزق.

وفي ترحالهم الطويل وصلوا إلى بلد وكانوا جياعاً وعطشى، ونزلوا على أحواض المدينة، وقبل أن يهمّوا بالشرب حذّرهم (الحاسي) بأنّ هذه المياه جُلبت من بئر مسحورة وهي فقط للغسيل والتنظيف، أما من يشرب منها فيتحوّل إلى طير نافر.

فلم يشربوا من مائها، وقامت الأختان بالاغتسال وتسريح شعورهن من الأتربة التي علقت بها، وغسلوا بعض ثيابهم، وانطلقوا مسافرين إلى بلدة أخرى، وفي منتصف الطريق افتقدت نجم الشريق مشطها فاستوقفت أخويها وقالت لهما:

- لقد نسيت مشطي على حوض الماء الذي اغتسلنا عنده، انتظروني أذهب وأحضره.

فقال ماي بارد: أنا أذهب وأحضره.

فرفضت ضبية البان ذهاب أخيها الصغير أو أختها الكبيرة وقالت: أنا التي عليها أن تذهب.

وانطلقت راكضةً قبل أن يمنعها أخواها، ولا زالت تركض وتركض حتى وصلت إلى الحوض مقطوعة النفس وقد ازداد عطشها، ووجدت مشط أختها في مكانه لم يأخذه أحد، فتناولته وهمّت بالعودة إلاّ أن عطشها قد فاض وهي ترى الماء أمامها، فقالت في نفسها: أرتشف قليلاً منه أو أبلّل لساني فقط، ولم تستطع مقاومة رغبتها وبدلاً من أن تبلّل لسانها أخذت تعبّ من الماء عبّاً، وفي الحال تحولت إلى عصفورة وألحقت في السماء.

انتظر أخواها عودتها فلم تعد، وأصابهما الملل من الانتظار الطويل فقررا أن يعودا إلى البئر يتفقدان سبب غيابها.

وعندما وصلا إلى البئر وتطلّعا باتجاه الحوض المملوء بالماء لم يعثرا عليها ووجدا مشط نجم الشريق ملقياً على الأرض، فسألا الحاسي عن أختهما فقال لهما:

- ألم أحذّركم من أنّ هذه المياه مسحورة وأن لا تشربوا منها... وأختكم لم تسمع قولي وقد شربت ورأيتها تتحول إلى عصفورة أمام نظري ولم ألحق بها.

ندم الأخوان على أختهما ضبية البان واستفهما من الحاسي عن الجهة التي طارت بها فأشار لهم باتجاه الشرق، وكلما سارا تباعدت بهم الأرض، فكانا يدخلان إلى مدينة ويخرجان من مدينة من غير أن يعثرا على أختهما.

فأمسكت نجم الشريق بأخيها وقالت له:

- ما نعمله لا يفيدنا بشيء والرأي عندي أن نبقى في بلد نعمل ونحسّن من دخلنا ثم نخرج للبحث عن أختنا.

وافقها أخوها ماي بارد، فنزلوا في مدينة، ورفض ماي بارد أن تعمل أخته، وأصرّ أن يعمل هو وأن تبقى هي في البيت.

فكان يخرج ليعمل في الحقول إما باذراً أو حامياً أو ناصداً ويعود بأجره إلى أخته التي تدبر معيشتهما، ومع الأيام وتدبير نجم الشريق تحسّنت حالتهم، فقد بدأت بشراء غنمة ثم حماراً ثم بقرة ثم حقلاً ثم خادماً، فإذا هم (بالصلاة عليه) في أحسن حال لا ينغص على حياتهم إلاّ فقد أختهما ضبية البان.

وفي يوم من الأيام كان أحد المزارعين عائداً من حقله فرأى نجم الشروق ورغب بأن تكون زوجة له، وتقدّم لخطبتها، فأخذت تتشاور مع أخيها فقال لها: تزوّجي...

فقالت له: لكني نذرت أن لا يطيب لي عيش إلا بوجود أختي ضبية البان.

فقال لها: تزوّجي أنت وربنا يعيدها على خير.

تزوجت نجم الشريق ومن أول سنة حملت وولدت الأول والثاني والثالث، فانشغلت بزوجها وأبنائها ولم تعد تهتم بأخيها لأنّ زوجها كان يغار من اهتمامها به فتعمّدت أن تري زوجها بأنه هو وأبناءها أهم من أخيها، فكانت تستخدم أخيها كأجير وتدفعه إلى العمل المضني وعندما يعود مساء تعطيه فصعة (كسرة خبز) ورواشة امدبية (لبن مخلوط بماء)، وتأمره أن ينام بجوار كلبتهم.

أحسّ بتغيّر أخته في معاملتها له، فكان يخرج صباحاً ليرعى غنم وأبقار زوج أخته ويستظلّ تحت (هيجة) ويناجي أخته الغائبة ضبية البان حتى إذا انتهى من مناجاته يبكي فيبلل الأرض من تحته.

وفي ذات يوم، وهو على حالته تلك، سمع صوت أخته ضبية البان تقول له:

- ماي بارد ماي بارد نجم الشريق ماهبلك

فأخذ يتلفت في كلّ الاتجاهات فلم يرها وبقي صوتها يتردّد:

- ماي بارد ماي بارد نجم الشريق ماهبلك

وعندما لم يرها ردّ عليها:

- هبلي فصعة وريبة ورقدتني تحت الكليبة.

وفي الحال تساقطت على رأسه فواكهة من كلّ الأنواع فأخذ يلتقطها ويقضمها بفرح، وظهرت له عصفورة من بين أغصان الهيجة ترفرف بجناحيها، وهبطت على كتفه ونقرت خده، فعرف فيها أخته ضبية البان.

وعندما لاح الغروب استودعته أخته ضبية البان وقالت له:

- لا تخبر أحد بي وسوف آتي يومياً إلى هذا المكان.

وتودعا، فحلّقت ضبية البان بجناحيها وغابت في المدى، أما ماي بارد فقد دفع بالأغنام والأبقار أمامه ووصل إلى بيت أخته نجم الشروق، وبدأ بإنهاء بقية الأعمال، فأدخل الأبقار والأغنام إلى حظائرها وقرّب لها الحسوك وحلب الأبقار

وربط الحمير، وعندما انتهى من كلّ أعماله قدّمت له نجم الشريق كسرة الخبز واللبن المخلوط بالماء فلم تمتد يده إليه، وكان هذا التصرف لأول مرة يحدث فهو غالباً يعود في أشد حالات الجوع ويأكل الكسرة ويشرب اللبن المخلوط بالماء ويطالبها بزيادة فتمتنع. في أول الأمر لم تشأ أن تسأله، وفي المرة التالية شكّت أنه يقوم بشرب لبن الأبقار والغنم، وفي المرة الثالثة شكّت أنه يقوم بذبح الغنمات الصغيرات وأكلها، ومع كلّ شكّ تكتشف أنّ شكّها ليس في مكانه، فزاد فضولها لأن تعرف أين يأكل أخوها حتى يعود ولا يقبل بما تقدّمه له، وكلّما سألته لماذا لا يأكل يردّ عليها: مليش نفس.

قرّرت أن ترسل ابنها البكر لكي ينقل لها خبر خاله، وأوصته أن يراقبه من غير أن يراه.

وفي الصباح الباكر نهض ماي بارد ودفع بالأغنام والأبقار أمامه وانطلق إلى المرعى ومن خلفه خرج ابن اخته لمراقبته، ومع الغروب عاد أخوها وقد سبقه ابنها فروى لها ما حدث بكلّ التفاصيل قال لها:

- دفع خالي بالأغنام والأبقار أمامه وعندما وصل إلى المرعى تركها ترعى واستظلّ بظل (هيجة) وأخذ يبكي بكاءً متواصلاً وما هي إلا لحظات حتى سمعت صوت عصفورة تقول له:

- ماي بارد ماي بارد نجم الشريق ماهبلك

فيردّ عليها:

- هبلي فصعة وريبة ورقدتني تحت الكليبة.

فتسقط عليه من فواكه الجنة ما لذّ وطاب، وتهبط على كتفيه وتنقر خده، ثم جلسا يتحدثان إلى الغروب، وقبل أن تطير العصفورة نقمت خده وقالت له: موعدنا باكر.

وعندما انتهى الابن من سرد ما رأى فهمت نجم الشريق وأسرت في نفسها، وعندما عاد أخوها لم تغيّر معاملتها له وحرصت أن تستيقظ مبكراً، وما أن تحرّك أخوها إلى المرعى حتى لحقت به وأخذت تتبعه من بعد، وعندما وصل إلى المرعى انطلقت الأبقار والأغنام في اتجاهات مختلفة واتجه هو إلى تلك (الهيجة) ليستظلّ بها، وأخذ في البكاء فسمع صوت أخته ضبية البان تردد:

- ماي بارد ماي بارد نجم الشريق ماهبلك

فيردّ عليها:

- هبلي فصعة وربية ورقدتني تحت الكليبة.

فأسقطت عليه من فواكه الجنة ما لذّ وطاب وقبل أن تهبط على كتف أخيها ظهرت نجم الشريق صائحة:

- سيد بويه ياخويه...

وأخذت تعتذر له وتلعن نفسها وتقبّل رأسه ويده ورجله، وكانت ضبية البان تنظر إليهما وترفرف بجناحيها، فهبطت على كتف أختها وأخذت تنقرها على خدها، وهبطت معهما إلى تحت ظلّ (الهيجة) وبكوا وتعاتبوا وتسامحوا.

قالت ضبية البان لأختها نجم الشروق:

- أنا أريد آخذ أخي ماي بارد فإن أردتِ أن تذهبي معنا فمرحباً بك وإن أردتِ أن تبقي مع زوجك وأولادك ففي أمان الله.

تباكت نجم الشروق وضمّت إخوتها وقالت لهما:

- الزوج موجود والابن مولود والأخ مفقود، أريد معكم. [١]

---

(١) محبة الأخ على ما عداه صفة إنسانية قديمة ربما تم تأسيها منذ النشوء الأول للبشرية واعتقادي أن هذه تيمة أولى كان بداية خيطها ما حدث في قصة هابيل وقابيل.

وظلت تيمة سارية عبر الزمن.

وكثير من الحكايات نجد فيها أن الأخ يمثل الركن الحصين لأخته.

وفي هذا السياق نتذكّر الخنساء وهي أم عمرو تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السُلمي ولدت العام ٥٧٥ م. وتوفيت عن عمر يقارب التسعين، حيث بكت الخنساء أخاها صخراً فأبكت معها بقية العرب:

قَـذىً بِـعَـيـنِـكِ أَم بِـالـعَـيـنِ عُـوّارُ ... أَم ذَرَّفَت إِذ خَلَت مِن أَهلِها الدارُ

كَـأَنَّ عَـيـنـي لِـذِكـراهُ إِذا خَـطَـرَت ... فَـيضٌ يَـسـيـلُ عَـلـى الـخَـدَّيـنِ مِـدرارُ

تَبكي لِصَخرٍ هِيَ العَبرى وَقَد وَلَهَت ... وَدونَـهُ مِـن جَـديـدِ الـتُّـربِ أَسـتـارُ

تَبكي خُناسٌ فَما تَنفَكُّ ما عَمَرَت ... لَـهـا عَـلَـيـهِ رَنـيـنٌ وَهـيَ مِـفـتـارُ.

وقصة الخنساء مع أخويها معاوية وصخر تطول إلا أن علاقتها بصخر هي التي ثبتت في ذاكرة التاريخ لما أنتجته من قصائد عُدّت من أفخر ما قيل في الرثاء:

وإيجاز قصة الخنساء مع أخويها وكيف قُتلا أن معاوية كان في سوق عكاظ يطوف هنا وهناك =

= وهو يختال فخوراً بجماله وفروسيته ووقعت عينه على (أسماء المُرّية) فأخذه حسنها وجمالها فلحقها وبدأ يدعوها إليه فصاحت به: أما تعلم أني عند سيد العرب هاشم بن حرملة الغطفاني؟..

فأجابها معاوية متحدياً ساخراً: أما والله لاقارعنه عنك. فقالت أسماء وهي تهزّ كتفها استخفافاً: شأنك وشأنه.

وعادت لهشام وأخبرته بمن تعرّض لها فانطلق غاضباً حتى لقي معاوية فوقف منهما الآخر وكان بينهما تهديد ووعيد ولم يخرجا من سوق عكاظ حتى تهيأ كلاهما للغزو وعلى الرغم من نصح صخر لأخيه معاوية، لكنه أبى إلا أن يخرج مع فرسان سُليم لغزو بني مرة قوم هشام، وكان لقاء سريع أسفر عن مقتل معاوية، وفي العام التالي غزا صخر بني مرة وهو على فرس أخيه (الشماء) فقتل دُريد أخو هاشم وأدرك ثأره.

ولكن القدر لم يُهمل صخراً عاماً آخر بعد فقد أصيب بجرح بليغ واسع الجوف، وهو على رأس فرسان من عشيرته يغزو بني أسد فمرض منه وطال مرضه حتى ملّته زوجته، وكانت إذا سألها أحد العُوّاد كيف أصبح صخراً الغداة وكيف بات البارحة؟

تقول: (لا هو حي فيُرجى ولا هو ميت فيُنعى)، وأمّا أمه فقد كانت تقول (أرجى له منا يومنا ولا نزال بخير ما رأينا سوارده فينا).

وحين سمع صخر هذا قال:

أرى أمَّ صخر(ن) لا تملّ عيادتي	وملّت سُليمى مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازةً	عليك ومن يغترّ بالحدثان؟
لعمري لقد نبهت من كان نائماً	وأسمعت من كان له أُذُنانِ
أهمُّ بأمر الحزمِ لو أستطيعه	وقد حِيل بين العِير والنزواني
وللموتِ خيرٌ مِن حياة كأنها	معرسُ يعسوبٍ برأسِ سِنانِ
وايُّ امرئٍ ساوى بأم(ن) حليلةٍ	فلا عاشَ إلا في شقا وهوانِ

ولما طال عليه البلاء أحموا له شفرة وقطعوا له ماتناً من جيبه موضع الجرح، ولم تستطع أخته الخنساء أن تشهد بعينها بل انتظرت بعيداً وهي تسأل: كيف صبره؟ ولما سمع صخر سؤالها قال:

أجارتنا إن الخطوبَ تنوب	على النّاس كل المُخطئينَ تُصيبُ
فإن تسأليني: هل صبرتَ فإنني	صبور على ريب الزمان صليبُ.

الأغاني، لأبي فرج الاصفهاني.

حتى إذ مات لم توقف الخنساء شعرها وبكاءها عليه من خلال قصائد تعدّ من عيون الشعر العربي.

وتفضيل المرأة العربية لأخيها ما تناقلته كتب السير أن امراة جاءت إلى الحجّاج بن يوسف الثّقفي تلتمس أن يُطلِق سراح زوجها وأخيها وابنها الذين كان قد أسَرَهم بعد انتصاره في =

ففردت ضبية البان جناحيها فركب أخوها على جناح وركبت أختها على جناح وطارت بهما في بلاد الله.

رواية عائشة عجيبية

= معركة وادي الجماجم، فقال لها؟ مادامت لك الشجاعة لتواجهي الأمير فإني سأقبل أنْ أفرّج عن أحدِهم فأيّهم تختارين؟ فكرت المرأة لوهلة ثُم قالت؟ الزوج موجود والابن مولود والأخ مفقود، أختار الأخ. فأُعْجبَ الحجاجُ بجوابها وأفرج عن الثلاثة.

الناس في خجة ورجة

قالنا وقلك، قلك كان في أخوين أحدهما ثري ثراء فاحش والآخر فقير فقر مدقع. وكان الأخ الفقير لديه سبع بنات ويعمل حطّاباً يخرج من الصباح الباكر يحتطب ويبيع ما احتطب، فيحصل على مال ضئيل جداً لا يستطيع به شراء شيء سوى قرص أو قرصين من الشعير يعود به إلى بناته فيتخاطفنه ولا تشبع الواحدة منهن، وهذه هي وجبتهم الرئيسة ويفرحون أشد الفرح عندما تقوم زوجة عمهم بإرسال كسرات خبز وبقايا من طعام الخدم إليهن.

ومع الأيام ذبلت وتهتكت ملابسهن فبانت عوراتهن فكنّ يغطونها بأيديهن عندما يتحركن من مكان لآخر، وبلت فرشهم ولم تعد فرشاً بل خسف، وضنت من سعف النارجيل فإذا استلقين عليها ظهرت آثارها على ظهورهن وجنوبهن، وكان أبوهن ينظر إلى حالتهن دائماً ويتمنى أن يرزقهن الله بالأزواج حتى يرتحن من العيشة التي يعيشونها.

وقد حاول مرة واحدة أن يطلب المساعدة من أخيه فطرده شرّ طردة، بعدها لم يجرؤ بتاتاً على سؤاله أو طلبه المعونة.

وجاءت ليلة العيد وليس لديه شيء من المال ليشتري لبناته كسوة أو ما يفرحهم به، فكان يسير في السوق ويرى الناس تتهافت على الشراء بينما يعجز هو عن شراء كسرتي الخبز التي يشتريها يومياً، فعاد إلى بيته دامع العين وعندما رأى بناته يغطين عوراتهن بأيديهن انزوى جانباً وأخذ يبكي بحرقة.

لم تنشغل بناته بإصلاح شيء في بيتهن بينما انشغل الجيران بالتزيّن وطلاء الجدران وحبك القعايد وجلب الحلويات وإخراج الملابس الجديدة ونظم الفلّ

ووضع الحنّاء، وكانت أصوات الجيران تصل مسامع بنات الرجل الفقير فتزداد حسرتهن حسرة، وتواصين بالنوم كي ينسوا ما هنّ عليه.

تناولت البنت الصغرى (خزقة) نومها وفرشتها على الأرض وأخذت تنظر إلى السماء وتذرف الدموع، ونظرت إلى أبيها وأخواتها فرأتهنّ متكوّمات على بعضهن وقد هربن من حالهن إلى النوم، فأعادت نظرها إلى السماء ورفعت يدها قائلةً:

الناس في خجة ورجة

وتقول يافارج العيدي

وأنت عيدي ياسيدي

وانقلبت في مرقدها وأخذت تردّد قولها ودموعها منهمرة:

الناس في خجة ورجة

وتقول يافارج العيدي

وأنت عيدي ياسيدي

ونامت، وبينما هي نائمة رأت سبع قوافل محمّلة بكلّ ما يطلبه الطالب تتهادى حتى وقفت في عرصة دارهم وأحسّت بشخص يهزّ كتفها ويقول لها:

- قومي لمطلوبك.

وظنّت نفسها في حلم فحرصت أن تبقى حالمة إلاّ أنّ ذلك الشخص أعاد هزّها وهو يقول لها:

- قومي لمطلوبك هذا هبة ربك.

فنهضت وفتحت عينيها فإذا بها ترى سبع قوافل محمّلة بكلّ ما يطلبه الطالب، فأسرعت وأيقظت أخواتها وطالبتهنّ بإنزال حمولة الجمال وإدخالها إلى داخل البيت، وتسارعت الفتيات إلى نقل تلك الحمولة فإذا بها ذهب ومجوهرات وبخور وملابس وأطعمة وأثاث، وكانت الملابس متنوعة وكثيرة ووافقت مقاساتها مقاساتهن، فاغتسلن وتزينّ ولبسن أفخر الفساتين وعلقنّ الذهب والمجوهرات على جيدهن ومعاصمهن وصدورهن وأرجلهن، فصلصت خلاخيلهن لينهض أبوهن من مرقده فزعاً ممّا يرى وقال لهن:

- من فين كل هذا؟

فردّت عليه ابنته الصغرى: من عند ربي.

وأخرجت له ملابس فاخرة وألبسته وأعطته مالاً كثيراً وطلبت منه أن يذهب إلى السوق ويشتري كلّ شيء وأن لا ينسى شراء خرفان وذبحها وتوزيعها على عابري السبيل.

وما هي إلاّ ساعة وجاء «حاملاً السوق كله» فأكلوا وشربوا وحمدوا الله، ومع قروب الظهر من يوم العيد أرسلت لهنّ زوجة عمهن بتلك (القراشف) كسرات الخبز واللبن المخلوط بالماء، فردّتها البنت الصغيرة وحمّلت الخادم الذي جاء بها بخروف كامل وبعض الأقمشة وقالت له:

- سلم على ستك وقلها هذا من عند البنات.

وعندما وصل الخادم إلى عمته وأخبرها الخبر، اندهشت وتحركت مباشرة إلى بيت البنات، وعندما رأت تلك الأرزاق الكثيرة كانت تصيح بهن: من فين لكم كل هذا؟

فتردّ عليها البنت الصغيرة:

- من عند ربي.

فقالت لهن: لا لا، قولوا سرقنا عمنا.

فقالت لها البنت الصغيرة: أقلك من عند ربي وإن ما صدقتي موتي من قهرك.

فأخذت زوجة عمهم تصيح منفعلة: لا والله إلا إنكم سريتم وسرقتوا مخازن عمكم.

وخرجت من عندهن وهي تولول وتنادي على زوجها بأن يتفقد مخازنه وتحرّضه على شكوى أخيه وبناته اللاتي سرقن أمواله.

استقبلها زوجها مهدّئاً ومستفسراً عمّا حدث فأخبرته أنّ أخاه سرق مخازنه كاملة فقفز من مكانه واتجه يتفقد متاجره فلم يجد شيئاً قد سُرق، فعاد إلى زوجته يخبرها الخبر، فأصرّت على أن يذهب إلى القاضي ويشكو أخاه وبناته فاستجاب لها وذهب إلى القاضي شاكياً من أن أخاه قد سرقه.

استدعى القاضي الحطّاب وأخبره بما يتّهمه به أخوه، فقال الحطاب:

- يا سيدنا القاضي أنا ما اعرف مصدر كلّ هذه الاموال واللي تعرف هي بنتي الصغرى اسألها هي.

فطلب القاضي حضور البنت الصغرى، فوقفت بين يدي القاضي وحكت له الحكاية وقالت:

- يعلم الله أننا كنا في حاجة اللقمة والهدمة وكان أبي يعمل طوال اليوم فلا يوفر شيئاً نشتري به ما يستر عوراتنا، وجاء العيد وليس معنا شيء، وحزنت على حالي وحال أخواتي، وتناولت (خزقتي) وفرشتها على الأرض وأخذت أنظر إلى سماء ربي وأنا أبكي وأسمع جيراننا مشغولين بالعيد ولوازمه ونحن ما عندنا حاجة وأخواتي مكوّمات على بعض من شدة الجوع وقد هربن من حالهن إلى النوم، فأعدت النظر إلى السماء ورفعت يدي وقلت:

الناس في خجة ورجة

وتقول يافارج العيدي

وأنت عيدي ياسيدي

وانقلبت في مرقدي وأخذت أردّد:

الناس في خجة ورجة

وتقول يافارج العيدي

وأنت عيدي ياسيدي

وأنا أبكي بحرقة، ونمت وبينما أنا نائمة رأيت سبع قوافل محمّلة بكلّ ما يطلبه الطالب تتهادى حتى وقفت في عرصة بيتنا وأحسست بشخص يهزّ كتفي ويقول:

- قومي لمطلوبك.

وحسبت نفسي أحلم إلاّ أنّ ذلك الشخص أعاد وهزني وهو يقول:

- قومي لمطلوبك هذا هبة ربك.

فنهضت وفتحت عيني فإذا بالرجل يقف على سبع قوافل ويقول: هذا هبة من ربك.

فأمرت أخواتي بنقل ما على الجمال وأدخلناها إلى بيتنا... وفي الظهر جاءت زوجة عمي واتّهمتنا بأننا سرقنا مخازن زوجها.

فنظر القاضي إلى عمّ البنات وقال له:

- انسرق شيء من مخازنك؟

فخجل العم وقال: لا والله ما سرقوني.

فصرفه القاضي وقال له: وهبهم مالك الملك فلا تحسدهم على هبتهم ولولا تنازل أخوك عنك لكنت حبستك.

وعادت البنت الصغرى إلى إخوتها وأبيها وانشغلوا جميعا بالتجارة فتوسعت أرزاقهم وطالت الشرق والغرب وأقبل الأمراء والأثرياء على خطبة البنات والزواج منهن، أما الصغرى فقد تقدّم لها سلطان البلاد وتزوّجها فأصبحت السلطانة التي سخّرت كلّ وقتها لقضاء حوائج الفقراء والمحتاجين.

رواية عائشة عجيبية

القلب وما يهوى

يُحكى أنّ رجلاً لم يكن ذا شأن، ومع هوانه على الناس كان يرى في نفسه مقدرة عالية من البطولة والإقدام نذر أن يسخّرها لحماية بلده التي يحبها حباً جماً، وكان يشتغل بقصّ الأشجار وبيع حطبها، يخرج يومياً حاملاً فأساً يعجز عن حمله كل ذي بأس بينما يتحول في يده إلى (لبانة) يطوّح به في الهواء يميناً ويساراً ومن يراه لا يحسبه إلاّ مقاتلاً في أرض المعركة لا حطاباً يواجه أشجاراً واقفة فسُمّي بالحطاب المقاتل.

وامتاز حطبه بالجودة، فالأشجار التي يقتطعها نادراً ما توجد في حزم حطب الحطابين، فأقبل الناس على شراء حطبه حتى غدا ما يحتطبه محجوزاً قبل أن يقطعه.

وذات يوم أقام سلطان البلد حفل شواء للخلّص من أصدقائه، وطال زمن شوي الذبائح إلى أن انتصف الليل، وعندما مُدّت الأسمطة كان اللحم نيئاً، فغضب السلطان غضباً شديداً ونادى على كبير الطهاه متوعّداً إياه بعقوبة لم تمرّ على خادم قط، فأخذ الطاهي يعتذر من السلطان من أنّ الحطب المجلوب لم يكن جيداً، وأقسم أنّ الحطاب تعمّد إحضار حطب سيء لإحراج الملك قبل إحراجه.

فازداد غضب السلطان ممّا سمع وأمر بإحضار من تقصّد إهانته على الفور. . . فشعر الطاهي أنّ أول مكائده قد أنتجت غضب السلطان على خصمه.

وكان الطاهي يدبّر مكيدة للحطاب المقاتل الذي جرت معه حادثة مساومة ابتدعها الطاهي بإعطائه ما يفوق عمل شهر كامل مقابل أن يمكّنه من صفعه أمام محبوبته ليظهر لها مقدرته على مواجهة الرجال، فهي التي شككت في قوة بدنه وأنه

لا يعرف من الدنيا سوى تقليب الأطعمة ومدّ الصحون وتزيين الموائد، فأثارت حميته فقال لها:

- أشيري إلى من تشائين وستجديني أؤدّبه أمامك.

فراهنته على ضرب الصياد المقاتل، وعندما حاول الطاهي فعل ذلك بعد رفض الحطاب لهذه المساومة تجرّأ بالمحاولة فلم يكن من الصياد إلا الإمساك بيد الطاهي وكسرها من الرسغ وتركه يئن.

وذهبت حادثة الحطاب وطاهي السلطان حكاية تروى في الأسواق مما جعل الناس يتهكّمون على الطاهي كلّما ظهر في مكان.

وكانت عشيقة الطاهي خادمة للأميرة ابنة السلطان، فعادت وروت قصة كسر يد الطاهي لسيدتها وتضاحكتا على ما آل إليه حال الطاهي، كانت الخادمة تنعت الحطاب المقاتل بصفات أغرت الأميرة برؤية هذا الحطّاب، فاستعارت ملابسَ رثّة من خادمتها وخرجت بمعيتها إلى الخلاء. وقفت الأميرة تنظر إلى الحطّاب مندهشةً من قوّته وتساقط الأشجار العملاقة تحت ضربات فأسه القوية والصائبة، ومقدرته الخارقة على حمل الجذوع الضخمة وتكسيرها. اقتربت منه قائلةً:

- أيها الحطاب المثابر ألا أجد عندك شربة ماء؟

فتناول كوز مائه وناولها وعندما وقعت عيناه على محيّاها تولّع بها ورغب في مكوثها لوقت أطول، فسألها عن حالها ومن أين قدمت، فأخبرته أنها جارية لدى ابنة السلطان، وافترقا على وعد الالتقاء، وأثمر الوعد عن لقاءات يومية يتناجيان فيها إلى ما قبل الغروب حيث تسارع الأميرة بالعودة إلى القصر قبل حلول الظلام وعودة أبيها إلى مخدعه.

حدث هذا قبل أن يتم الطاهي تدبيره ويؤلّب السلطان على الحطاب المقاتل، وبعد استثارة السلطان وأمره بجلب الصياد إلى قصره، تحرّك الطاهي بصحبه رئيس الحرس ونفرٍ من الجند إلى منزل الحطاب وقيّدوه مكبّلا بالسلاسل، ولم يكن يعرف تهمته حتى يدفع عن نفسه ما أُلصق به، وكلّما سأل طالبه رئيس الحرس بالصمت.

وقف أمام السلطان مبهوراً بما احتوى عليه القصر من معمار وسجاجيد وفرش ورخام وأواني ذهبية وفضية فظلّت عيناه مبحلقتان من غير أن تستقران على وضع، وعندما صرخ به السلطان:

- كيف جرأت على إفساد وليمتي؟

فقال الحطاب: ومن يجرؤ على ذلك ياسيدي؟

فازداد شطط السلطان وصاح به: أنت من خلال حطبك الفاسد أفسدت علينا نشوة الأكل.

وبينما كان الحوار دائراً قدم قائد الجيش مقتحماً البوابة من غير أن يطلب الإذن بالدخول، فتنبّه السلطان لدخوله المستعجل وترقّب خبراً سيئاً فأشار إليه بالصمت وأدناه منه لكي يسرّ إليه بما يحمل من أخبار، فانحنى القائد يهمس للسلطان:

- يا مولاي، العدو يقف على حدود جهتنا الغربية وقد باغتونا بالظهور على حين غرّة.

نهض السلطان من جلسته المسترخية وأمر بإخراج كلّ من تواجد في البلاط، وطلب الاجتماع بأركان جيشه في الحال، وعقد اجتماعاً تشاورياً انتهى بضرورة مجابهة جيش العدو قبل أن يبادر بالهجوم.

ومع خروج القوّاد قال لهم السلطان:

- جنّدوا الشعب للدفاع عن بلدهم، ونادوا على المحبّين لأوطانهم بالنفير لملاقاة العدو.

في دخول وخروج القادة حدثت فوضى على بوابة مجلس السلطان، ولم يعد أحد متنبّهاً لأحد، فاستغلّ الصياد المقاتل ذلك الارتباك وخلع قيوده وانطلق إلى بوابة القصر الخارجية، وفي طريقة وجد خادماً يحمل بدلة أحد القوّاد، فأمسك به وقال له:

- لقد خرج سيدي وأوكل إلي مهمة حمل بدلته واللحاق به.

وتناول البدلة وانزوى بين الأشجار وارتداها، وانضمّ إلى القواد يوجّه الجنود ويرتّب مواقعهم، وكان محلّ استنكار كثير من الجنود فلم يسبق لهم أن رأوه، فسارع بالإعلان أنه خطيب ابنة السلطان قدم من بلده فوجد الحال على ما هي عليه فقرّر أن يخوض الحرب باسم دولته مع السلطان ضد أعدائه، فكسب تقديراً وتفخيماً من بقية القادة.

رسم خطة التزمت بها بقية الألوية ودارت المعركة، كانت الغلبة لجيش

السلطان[1]، ودحروا أعداءهم وكسبوا مغانم كثيرة وأسروا قائد العدو وعادوا إلى السلطان حاملين رايات النصر.

قال قائد العدو للسلطان: لولا أنّ قائدك محنك لهُزمتم في لمح البصر، ولو علمت بوجود محارب مثله في جيشك ما فكّرت بحربكم.

فسأل السلطان عن ذلك القائد فقيل له:

- إنه خطيب ابنتك...

ظهر الاستغراب جلياً على ملامحه إلا أنه كتم دهشته ولم يسأل من يكون وقد عزم على معرفة ذلك القائد الذي ادّعى أنه خطيب ابنته.

عاد الحطاب إلى البرية وبه شوق عارم لرؤية خادمة الأميرة (وهي الأميرة بعينها)، وانتظر لأيام من غير أن تظهر.

وكانت الاميرة تأتي إلى البرية متنكرة بزي الخدم فلا تجده، وظنّت أنه غادر البلاد أو أنه ملّ منها وغيّر موقع احتطابه، وكلّفت خادمة أن تعرف كلّ مواقع الاحتطاب، وزارتها مكاناً مكاناً فلم تجده، فكتمت شوقها، وكانت تسهر الليل بطوله، ويمرّ أبوها بها ويغضب أشدّ الغضب حينما يجدها لا تزال ساهرة، ويلقي

---

(١) الخطط الحربية شاعت من خلال الأساطير وأشهرها خطة حصان طروادة وتمّ تناسخ الخطط الحربية كواقع أو كمرويّ وإدخال المرتزقة ضمن الجيوش الرسمية حدث عند الفرس إذ (تفتق خيال أنو شروان عن خطة ماكرة إذ أمر بفتح السجون وإخراج المجرمين مشكلاً منهم جيشاً من المرتزقة الذين تمّ تدريبهم على عجل، كما وضع تحت تصرفه أسطولاً حربياً صغيراً سيّره عبر دجلة صعوداً حتى أعماق الخليج العربي كما تقول رواية المسعودي، بما يشير إلى أن المرتزقة كانوا من الذين يقضون محكومياتهم في سجون العراق الخاضع للفرس (في خانقين العراقية اليوم) وأوكل أنوشروان قيادة الجيش والأسطول لحاكم إقليم الديلم وهرز قائلاً له: أن فتحوا فلنا وإن هلكوا كان ذلك الذي أردت وكلا الوجهين فتح.

وقد أصيب بعضهم في البحر فأمرهم وهرز أن يحرقوا السفن ليعلموا أنه الموت ولا وجه يؤملون المفر إليه فيجهدون انفسهم. وهذا برأينا هو الأصل البعيد لأسطورة حرق طارق بن زياد القائد الإسلامي سفنه.

بيد أن الأمر الهام والحيوي في هذه الحقبة هو أن المحرَّرين سرعان ما اندمجوا مع السكان المحليين، بحيث تسارعت وتيرة الزواج من فارسيات ليولد جيل جديد من الحكام اليمنيين سيعرف بـ الأبناء. **أبطال بلا تاريخ**، فاضل الربيعي، دار الفرقد.

على مسامعها النصائح بأن لا تسهر خشية طلوع نجمة الصباح عليها.[1] ومع نشوب

---

(١) في الموروث الشعبي أنّ الفتاة لا تسهر إلا إذا كانت عاشقة ويخشى عليها من طلوع نجمة الصباح ويُقال: إذا طلعت نجمة الصباح على عذراء أفقدتها بكارتها.

وتشكّل وجود نجمة الصباح في الثقافات العالمية في صور مختلفة، فهي العزّى عند العرب والبنت الثانية من بنات الله الثلاث (كما زعموا تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا) وهنّ: اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى، وعُرفت بدورها تحت هذا الاسم في المثيولوجيا البابلية، وقيل إنّ معناها ملك أو إله النار.

ويحسب رواية تيودروس بركوني هي نجم الصباح ولها أسماؤها المختلفة باختلاف الألسن، فطيء دعتها عوزي واليونان أفروديت والقرشيون طشقميت والكلدانيون بلتي أو بلثي والآراميون أستيرا والراداتيون ملكة أشعيا والعرب ناتي ثم العزى فيما بعد وبالتحديد في القرون الستة السابقة على الإسلام.

وهي في منبتها الأصلي (إينانا) عند السومريين والتي اشتهرت باسمها الأكادي عشتروت عند البابليين وأناثا أي أنثى عند الكنعانيين وإيزيس في مصر وأفروديت عند اليونانيين وفينوس عند الرومان وكوبيلا عند الحثيين.

العزى أو نجم الصباح أو الزهرة فينوس:

«إنّ ربكم يشتو بعزة لحرّ تهامة» آلهة فصل الشتاء والاخضرار والخصب والجنس كما يقول الملك الكاهن عمرو بن لحي.

وكانت العزى إلهة للجنس والإخصاب عند العرب كما كانت عند البابليين، ويعتبر الحمام والغزال من طيورها وحيواناتها المقدسة ولها نفس الشعائر عند البابليين والسوريين والنبطيين، وكان العرب الجاهليون مغرمين بتشبيه النساء الفاتنات بالغزال.

يقول الألوسي: كانت المرأة من العرب إذا عسر عليها خطب النكاح نثرت جانباً من شعرها وكحلت إحدى عينيها وحجلت على إحدى رجليها ويكون ذلك ليلاً وتقول: «يا نكاح أبغي النكاح قبل الصباح»، أي أنها تريد الزواج أو المخاطبة الجنسية قبل ظهور نجم الصباح أو الزهرة، وتحفل المواويل والأغاني الشعبية بآلاف القطع الشعرية التي تتغنى إلى اليوم بنجمة الصبح «يا نجمة الصبح طلي وراجعي روحي».

ويضيف روبرت سميث أنّ عبادة الزهرة أو نجم الصباح انتشرت في اليمن، وخلال إقامة شعائر أعيادها كانت تقام الاحتفالات والأفراح المختلطة.

ولعلّ الحمام والغزال ظلاّ على الدوام من أهم الرموز والدلالات العربية، فمن اسم الحمام جاءت تسمية الملكات الساميات عامة: سميرام، سميراميس، سميرنا، كما لا ننسى حمامة الأيك كشعار إسلامي. وفي الغزال فالعرب أكثروا من تشبيه النساء الفاتنات بالغزال.

(الموسوعة الفوللكلورية والأساطير، شوقي عبدالحكيم)

ومن أسماء كوكب الزهرة عثتر شرقن (أي عثتر الشرقي) وهو نجمة الصباح، وهو كالشمس =

الحرب لم تعد تخرج بتاتاً من القصر، ولم تكن تعلم بما حدث للحطاب بتاتاً.

حملت إليها الخادمة نبأ انتصار جيش أبيها على العدو، وقصة إحضار الطاهي للحطاب، وقصة خطيبها المزعوم، فلم يثرها من تلك الأخبار إلا السؤال: ما الذي حدث للحطاب؟

فأخبرتها خادمتها أنّ الاحتمال الأكبر هو هروبه من البلاد.

استعرض السلطان كلّ قادته، وأخذ يتفحّصهم واحداً واحداً شاكراً لهم بلاءهم في الحرب، وكانت نفسه تتوق لأن يسألهم عن القائد الذي أدار المعركة باسم أنه خطيب ابنته، وقد خفّف من تفرّسه في تلك الوجوه قول قائد الجيش:

- يا مولاي، لماذا لم تدعو خطيب ابنتك لحضور هذا الاجتماع؟

ففهم من السؤال أنّ القائد الذي يتحدثون عنه ليس من قوّاده أصلاً، فزاد فضوله لمعرفة ذلك القائد.

دخل الطاهي مقبّلاً الهواء بين يدي السلطان ومباركاً بالنصر المبين وقائلاً:

- استطعت يا مولاي الانتصار على خصومك إلاّ أنّ الحطاب انتصر عليك.

فاعترت السلطان حالة هياج:

- كيف تجرؤ على قول هذا؟

ارتبك الطاهي وردّد:

- فقط أردت أن لا يتحدّث الصيّاد بأنه انتصر عليك بفعلته الأولى والثانية.

- وماذا حدث ثانية؟

فقال الطاهي: لقد هرب من غير عقاب، فحين انشغلت بأمر الجيش استغلّ الفرصة وهرب.

فصاح السلطان بحرسه وأمرهم أن ياتوا بالحطاب مكبّلاً.

فتراكض الحرس لتنفيذ أوامره، واقتادوا الحطاب لملاقاته، وأخذوه إلى مجلس السلطان من غير أن يستأذنوا، حيث كان القادة يتشاورون مع السلطان عن السبل

= يذكر في الشمال حيث كانوا يسمونه عشتر وعشتروت ويؤنّث في الجنوب.
(أساطير من تاريخ اليمن، حمزة علي لقمان، دار المسيرة بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص ص٢٨-٢٩)

لكفّ اعتداء الخصوم على المملكة، فاقتحم الحراس المجلس يجرجرون الحطاب، فالتفت الجميع لصلصة السلاسل وهرج ومرج الحرس، واستغرب القادة من منظر الحطّاب المكبّل بالحديد في يديه وقدميه، وقبل أن يتحدّث السلطان تقدّم قائد الجيوش متشفّعاً ومتحدّثاً:

- يا سلطان الزمان، إن أغضبك صهرك فقد أفرحك في أرض المعركة فاقبل شفاعتي فيه.

أحسّ السلطان أنّ القائد الذي يبحث عنه ما هو إلاّ هذا الحطاب، فقال في نفسه:

- لقد أضاف الثالثة بادّعائه أنه خطيب ابنتي.

فقال للقائد: قبلت شفاعتك فيه.

وأمر الحراس أن يفكّوا قيده.

وقال للحطاب: حدثنا عن المعركة التي قدت فيها الجيوش للنصر.

فصمت الحطاب وتبرّع بقية القوّاد في شرح خططه التي لم تعرفها المعارك التي خاضوها، فنادى على حاجبه وهمس في أذنه باقتياد الحطاب إلى الحمّام وإلباسه أحسن الثياب وإرجاعه إلى البلاط.

عاد الحطّاب في هيئة غير التي ذهب بها، فقد تمّ إجلاء بشرته وإلباسه أفخر الثياب ورُشّت عليه أغلى العطور، فأخرج السلطان كلّ من عنده، وقال الحطاب:

- لماذا ادّعيت أنك خطيب ابنتي؟

فقال الحطاب: حين خرج القادة من عندك كنت أقف في الخارج ورأيت وسمعت تخبّطهم في ملاقاة العدو فقلت في نفسي: لو أنهم وصلوا الى أرض بهذا الاختلاف سوف يهزمون، فادّعيت أني خطيب ابنتك ولهذا قدّموني عليهم وحدث ماحدث. . .

انشرح السلطان للباقته في الحديث فاندفع وقال للحطاب:

- لن يكون ادّعاء بعد الآن فقد خطبتك لبنتي.

فاعتذر الحطاب عن قبول عرضه، فكاد السلطان يصعق فصاح به:

- ها أنت تهينني للمرة الرابعة!

وأخذ يعدّد إهانات الحطاب له، فنفى ذلك تماماً وقال للسلطان:

- لو قبلت بابنتك سوف أظلم ثلاثة قلوب: قلبي وقلب الفتاة التي أحبها وقلب الاميرة التي ليس لها ذنب في أن تختار لها زوجاً بدلاً عنها.

فأعجب السلطان بجسارته وصدق قوله، وقال له:

- ومن هي البنت تلك التي فضلتها على ابنتي.

تردّد الحطّاب في الحديث وطلب الأمان من السلطان أن لا يكون ردّه محلّ إغضاب أو مقارنة، فأعطاه السلطان الأمان، فقال:

- هي خادمة الأميرة؟

ضحك السلطان حتى طفرت الدموع من عينيه:

- أقول لك أُزوّجك بنتي فتردّ أريد خادمتها.

فقال له: القلب وما يهوى.

صدّق السلطان على جملته الاخيرة وسأله:

- ومن أين عرفتها؟

فحكى له الحكاية وأنه أعطاها الوعود والمواثيق أن يتزوجها وليس من المروءة خذلان من وثق بك. أعجب به السلطان أيّما اعجاب، وأراد أن يتعرف على تلك الخادمة التي فضّلها هذا الفارس على ابنته، فطلب من حاجبه أن يجمع له جميع الخادمات اللاتي في القصر وخاصة خادمات الأميرة.

وأخذ يلاطف الحطّاب وقد طلب منه الانضمام إلى قوّاد جيوشه، فأبدى استعداداً لأن يموت من أجل وطنه وملكه، فأثلج قوله قلب السلطان فأكبره وأضمر في نفسه تعيينه قائداً عامّاً لجيشه.

تراصّت الخادمات أمام السلطان وكلّ منهنّ لا تعرف لماذا تمّ جمعهن أمام ذلك الحطاب، والتفت إلى الحطّاب سائلاً:

- أيّاً منهن تريد؟

قلّب الحطّاب بصره ولم يرَ محبوبته بينهن فقال:

- عذراً يا سلطان، هي ليست بينهنّ.

فاستدعى حاجبه وقال له:

- ألم أقل لك اجلب كلّ الخادمات؟

فردّ الحاجب: هؤلاء جميع الخادمات!

وأعاد سؤاله للحطاب: أأنت متأكد أنها هنا في القصر؟

فقال له: هي قالت أنها خادمة الأميرة.

فقال السلطان: علّها كذبت عليك.

فقال له: وهل يكذب المحبّ؟

اهتمّ السلطان بإظهار تلك الخادمة فقد بلغ به الفضول مبلغاً جديداً.

وعد الحطاب أن يعرف من هي تلك الخادمة التي ادّعت أنها خادمة ابنته، وودّعه على أمل أن يبدأ عمله مع الجيش مباشرةً.

شكر الحطاب السلطان وانصرف.

دخل السلطان إلى ابنته فوجد لديها خادمتها التي رغبت في سرد ما حدث لهنّ في البلاط، وقبل أن تبدأ حديثها دخل السلطان على ابنته فانسحبت الخادمة وتلقّفته الأميرة بالسؤال:

- لماذا أنزلت خادماتي إلى بلاطك؟ هل حدث منهنّ ما كدّر صفو بال السلطان.

فأخذ يحدّثها عن قصّة الحطّاب الغريبة منذ خبر الطاهي إلى رفض الحطّاب الزواج بها ورغبته في الزواج بخادمتها.

فاعترتها حالة فرح مفاجئة، فرح بمعرفة غياب حبيبها، وفرحة أنّه فضّلها كخادمة على أميرة، وفرح أنه أصبح أحد قوّاد أبيها.

ولم تكن مستعدة لإجابة أبيها على سؤاله المباغت:

- من هي هذه الخادمة التي لم تنزل مع الخادمات؟ هل لديك خادمة لم تنزل؟

ارتبكت بعض الشيء ووقعت في حيرة بين أن تخبره بقصتها أم تنفي وجود تلك الخادمة تماماً.

وقررت كتم سرها على أمل أن تجد فرصة لتعديل قصّتها مع الحطّاب، وقالت لأبيها:

- ربما تكون الخادمة التي عليها العين تأخرت عن النزول لأيّ سبب فلم تظهر في البلاط.

فصارحها السلطان بأنه في حرج مما بدر من الحطّاب، حيث أنّ القادة يعرفون بأنه خطيبك، فكيف يدخله في الجيش وهو الذي فضّل خادمة من خدمه على ابنته.

فقالت له: اذا أردت أن أحلّ حرجك فاسمع نصيحتي.

وذكرت له مخططاً يتيح له تقوية عزيمة قادته جميعاً.

استحسن الفكرة وعزم على تنفيذها، فجمع القادة (بمن فيهم الحطاب) وقال لهم:

- لقد قلّبت أمر خطبة ابنتي على أوجه كثيرة ورأيت أنّ كلاً منكم جدير بها، ولذلك رأيت أن أفسخ خطبتها من خطيبها وتسيروا في طابور أمام ناظريها، وقد وضعت دلواً به دهن العود فمن انسكب عليه الدهن يكون زوجاً لابنتي بشرط أن تقذف عليه خمارها.

نشطت أرواح القادة لهذا العرض، وتفرّقوا على موعد الاصطفاف والسير أمام الأميرة وكلّ منهم يمنّي نفسه بأن تكون من نصيبه.

كانت الأميرة قد اتفقت مع خادمتها التي ذهبت بها إلى البرية لرؤية الحطّاب أن تمسك بدلو دهن العود من على شرفتها وأن لاتسكب الدهن إلاّ على الحطّاب، واتفقتا على هذا الأمر. وعندما نزلت الأميرة لرؤية اصطفاف القادة وسيرهم، جلست في زاوية لا تظهر فيها لأحد، وبدأ القائد الأول بالخطوة العسكرية من أسفل شرفتها، وتلاه الثاني والثالث، وكان ترتيب الحطّاب الرابع، وعند سيره غفلت الخادمة لبعض الوقت وعندما انتبهت كان قد عبر الشرفة، فأمسكت بدلو الدهن ولم تسكبه على البقية.

فقال السلطان: شاء القدر أن تعودوا مرة أخرى من تحت الشرفة فإن لم يصب أحدكم دهن العود يكون قدرها أن تتزوج شخصاً آخر.

فرحت الأميرة أشدّ الفرح بهذه المبادرة من أبيها وكانت تتمنى أن تصعد لتخنق الخادمة لولا أنها تراجعت مع اقتراح أبيها بإعادة سير القادة.

أُعيد صفّ القادة بترتيب جديد كان الحطاب في آخر الصفّ هذه المرة، وتحرّك القائد الأول ومرّ من تحت الشرفة، وتلاه القائد الثاني فالثالث فالرابع فالخامس فالسادس إلى أن وصل الدور إلى الحطّاب فعندما عبر الشرفة اندلق عليه دهن العود وأسرعت الأميرة برمي خمارها عليه.

وخشي السلطان أن يفضح الحطّاب برفض القرعة وبالتالي رفض الأميرة مما

سيوقعها في إحراج كبير، فلم يعلّق بشيء وقد سمع أحد القوّاد يقول: قدرها يا سلطان الزمان أن تتزوج خطيبها الأول الذي فسخت خطبته.

كان الحطاب يتطلع إلى السلطان كمن يقول له: لقد أخبرتك أريد خادمتها.

ولم يكن الوقت ملائماً لأيٍّ منهما في تبادل الحديث، واكتفى السلطان بما حدث، وانقلب الحطّاب إلى البرية مفكّراً بمغادرة البلاد على أن يتزوج امرأة لا يحبها.

كان يقتعد نفس المكان الذي التقى فيه بخادمة الأميرة (الأميرة نفسها) وفي التفاتة منه رأى محبوبته قادمة، فنهض عجلاً وضمّها إلى صدره وأخذ يعاتبها على غيابها الذي طال، وتعاتبه على عدم إخبارها عن أحواله ولماذا ترك البرية فجأةً، فحكى لها الحكاية كاملة وقال لها:

- قبل أن تأتي كنت أفكّر بمغادرة البلاد على أن أتزوج أميرة وقلبي مع خادمتها. فضمّته ووعدته أن تتزوّج به مهما كان الأمر، ورغبت له أن ياتي لرؤية الأميرة، فرفض رفضاً باتاً، فقالت له: لقد اتفقت معها أن تقنع أباها بتزويجي لك.

اطمأنّ لهذا ووعدها أنه سيكون في الغد سيحضر ويطلب من السلطان رؤية خطيبته، وافترقا على هذا.

فكّر السلطان في الحرج الذي أوقعه فيه الحطّاب برفض الزواج من ابنته، ولو رفض مرّة أخرى فسيحرق شرف ابنته ولذلك دبّر خطة مع وزيره الأول أن يتخلّص من الحطّاب في رحلة يدّعي فيها السلطان أنه اختاره لمصاحبة الوزير في حمل رسالة من السلطان إلى أحد خصومه والتفاوض حول الاختلافات التي بينهما... واستقرّ الأمر على هذا.

وعندما قدم الحطّاب إلى القصر قبل الهواء بين يدي السلطان وقال له:

- يبدو أنّ كذبتي والقرعة مصرّان أن أكون خطيباً لسيدتي الأميرة، فهل أحظى برؤيتها؟

كان هذا الطلب مفاجئاً للسلطان إلاّ أنه رغب في إذاقته حسرة رفض الزواج من الأميرة ذات الجمال الأخّاذ، فوافق على ذلك وأرسل من يخبر الأميرة بأنّ خطيبها قادم لرؤيتها.

وبعد فترة قدمت خادمتها واقتادته إلى غرفته وقبل دخوله قالت له: لا بدّ من وضع ربطة على عينيك كي لا تصدم من رؤية قبح منظر سيدتي.

فوافق وكان يحدّث نفسه: من أجل هذا القبح أراد السلطان توريطي بالزواج منها.

وضعت الخادمة عُصابة على عينيه وأمسكت بيده وأدخلته على الأميرة التي أخذت تتأمّله وتتشمّم رائحته.

وكانت متفقة مع خادمتها الخاصة أن تتحدّث وكأنها الأميرة، وعندما أحسّ باقتراب أنفاسها منه تحدّثت الخادمة قائلةً:

- ترفضني أنا وتطلب الزواج من خادمتي؟

فردّ عليها: القلب وما يهوى.

فقالت الخادمة: ولكنها خادمة.

فقال لها: هي خادمة عندك ولكنها ملكة في قلبي.

فلم تتمالك الأميرة من التعلّق بعنقه ولثم وجهه ورأسه، وحاول إبعادها عنها إلا أنها سحبت الربطة عن عينيه فإذا به يرى حبيبته هي التي تفعل ذلك، فضمّها إلى صدره بكلّ قوة، وخاطب الخادمة قائلاً:

- سيدتي الأميرة أرجوك أن تمكّنيني من الزواج بمحبوتي.

فانسحبت الخادمة على الفور وهي تنحني بإجلال للأميرة وتقول لها:

- سيدتي الأميرة اسمحي لي بالخروج.

وعندما غادرت المكان كان الحطّاب في أشدّ حالات الاستغراب، فأمسكت به الأميرة من يده وقادته لأن يجلس بجوارها وهي تردّد:

- أنا التي رفضت الزواج منها وقبلت بالخادمة، فأنا خادمتك ما حييت.

كان لا يزال في دهشته، فأخبرته بكلّ قصّتها وأنها أرادت أن تراه في البدء فإذا بها عاشقة له، واعتذرت بأنّ الأحداث كانت متداخلة فلم تستطع إخباره بكلّ شيء.

سمع طرقاً على الباب وصوت الحراس من خارجه يقول:

- سيدي القائد إنّ السلطان يستدعيك للمثول أمامه.

تعانقا وأخبرها أنه سيطلب من السلطان إتمام زواجه في مدة لا تتجاوز الأسبوع، وهبط محلّقاً كطائر، وكان السلطان قد استدعى وزيره وبعض القادة،

وعند مثول الحطّاب بين يديه لم يشأ السلطان إعلان الموافقة أو الإسراع بالزواج فصمت على أمل أن ينفرد به.

نظر السلطان إلى الحاضرين وقال لهم:

- لقد طالت عداوتنا مع ملك بلاد الشمس والرأي عندي إرسال وزيري ورئيس القواد (وأشار للحطاب) أن يذهبا ويعرضا عليه أموراً أفهمتها لوزيري من أجل إنهاء الخصومة والعيش في سلام... فما رأيكم؟

تسابقت الأصوات بالقول: نِعم الرأي يا سلطان الزمان.

فوجّه السلطان حديثه إلى وزيره: من الساعة تتحرّك أنت ورئيس القادة ومعكم سرية من الجند ولا يوقفكم برّ ولا بحر إلا في بلاد الشمس.

وغادر السلطان المجلس وتبعه كلّ الحضور، وكان الحطّاب يتمنّى لو يلحق بالسلطان ليخبره بموافقته على الزواج من الأميرة، لكنّ الوزير لم يتركه شارداً في أمنياته بل وجه إليه الأمر بالتحرّك في الحال.

انطلق الوزير بالسرية وبمعيته الحطّاب وغابوا في السفر.

علمت الأميرة بما حدث عن طريق خادمتها التي أرسلتها للتصنّت على ما سوف يقوله حبيبها لأبيها، فجاءت إليها وأخبرتها بالخبر.

مضت سنة والأميرة في حيرة من أمرها، فحبيبها لم يعد، فقد عاد الوزير ولم يحمل أخباراً عن الحطّاب سوى أنه نزل في أحد الموانىء وغاب، وقد انتظره طويلاً وعندما لم يعد تحرّك إلى بلاد الشمس.

وفي السنة الثالثة من غيابه جاء إليها أبوها يخبرها أنّ أميراً من الأمراء تقدّم لخطبتها، فقالت له:

- وهل نسيت أني مخطوبة للرئيس قوادك؟

فردّ عليها:

- كان رافضاً ولا يريدك، وبذهابه نكون في حلّ من ادّعائنا أنه خطبك، وفرصة لأن تتجوزي بأمير وليس بحطّاب.

ولم تشأ أن تخبره بقصتها مع الحطّاب خشيةً على مشاعره وكذلك خوفاً من أن يتّهمها بالتلاعب واستغلال ثقته بها، فقالت له:

- ليست لي رغبة في الزواج.

وكان هذا ردّها لكلّ من تقدّم لخطبتها عندما علم الراغبون بها أنّ خطيبها لم يعد من سنوات، فكثر الخُطّاب من ملوك وأمراء وقادة، فأصرّ أبوها أن تختار واحداً ممّن تقدّم للزواج منها، وإن رفضت سوف يزوجها غصباً عنها.

فقالت لأبيها: موافقة على الزواج بشرط.

فقال لها السلطان: وما هو شرطك؟

فقالت: سأقوم بغزل كوفية ومن تأتي هذه الكوفية على مقاس رأسه أتزوجه.[1]

---

(١) غزل الكوافي ونكثها هو استعادة لأسطورة بينلوبي زوجة أوديسيوس التي أوردها الشاعر هوميروس في ملحمة الأوديسة، فبنلوبي حين غاب زوجها في إحدى المعارك وكثر خطابها والإصرار على تزويجها طلبت أن يمهلوها بعض من الوقت لتحوك ثوباً لوالد زوجها قبل أن تختار زوجاً آخر، وكان الثوب حجّة لتطيل الأمد آملةً عودة أوديسيوس.. وما كانت تحوكه نهاراً تقوم بحلّه عند المساء حتى ضرب بثوبها المثل للشيء الذي يبدأ العمل فيه ولا ينتهي.
ويذكر الأستاذ نبيل الحفار أنّ الأوديسة Odyssey ملحمة منسوبة للشاعر الإغريقي هوميروس[Homero] الذي عاش في القرن الثامن ق.م بحسب تقدير مؤرخي الأدب تتألف من (١٢٢٠٠) بيت على الوزن السداسي (هِكسامِترون) Hexametron الذي يتكوّن من تفعيلة من مقطع طويل يليه مقطعان قصيران، ويرجّح أنّ ظهور الأوديسة يعود إلى سنة ٧٠٠ق.م. تنقسم الملحمة إلى أربعة وعشرين جزءاً يسرد فيها الشاعر رحلات تيه الملك أوديسيوس Odesseus، أو أوليس (عوليس) على نحو ما شاع في التراث العربي، ومغامراته وعودته السعيدة إلى موطنه في جزيرة إيثاكه Ithake التي كان قد غادرها قبل عشرين عاماً ليشارك في حملة ملوك اليونان وجيوشهم وأبطالهم في مواجهة طروادة Troia. تمتد أحداث الملحمة على عشر سنوات من التيه، تبدأ مع سقوط طروادة بفضل حيلة الحصان الخشبي التي ابتدعها أوديسيوس وتنتهي باستعادته عرشه في وطنه. لكنّ مؤلف الأوديسة لا يسرد الأحداث وفق تتابعها الزمني، بل يضغط فيها زمن السرد إلى حدّه الأدنى. فالمدة الزمنية بين توديع أوديسيوس الحورية كاليبسو Kalypso التي احتجزته سبع سنوات في جزيرتها أوغيغيا Ogygia بعد أن تحطمت سفينته حتى التقائه زوجته الوفية بِنيلوبه Penelope بعد أن قضى مع ابنه تِلِماخوس Telemachos على مجموعة الخطّاب الطامعين بها للوصول إلى العرش والثروة، لا تتجاوز أربعين يوماً. أما المدة التي تسبق هذه الأحداث وما تخللها من مغامرات عجيبة، فيعرضها المؤلف عرضاً غير مباشر، باستعادة البطل للأحداث وقصّها على الملك ألكينوس Alkinoos وابنته ناوسيكا Naussika في بلاد الفاياكيين Phaiak الواقعة بين اليونان وإيطالية، وكذلك في أغاني بائع متجول.

كان السلطان يحبها حباً كبيراً فوافق على شرطها، وأعلن هذا الشرط على جميع المتقدمين لخطبتها.

قدّم السلطان لابنته عدداً من (البكرات) لفّ بها خيوط من حرير ومعها مغزل لكي تغزل الأميرة الكوفية التي ستكون من نصيب زوج ابنته.

فحملت الأميرة البكرات والمغزل وبدأت الغزل، فكانت تغزل طوال النهار وفي الليل تنكث غزلها، لتعود في التالي غزلاً جديداً، وكان السلطان والخطّاب ينتظرون انتهاء غزلها، وفي كلّ مرة يحضر أبوها يجد أنّ غزلها لم يتم.

هذا ما كان من أمر الأميرة، أمّا الحطّاب فقد وجد نفسه في مأزق، فبعد مسيرة ثلاثة أيام أحاط به الحرس وقيّدوه ورمّوه داخل بئر عميق وكاد يهلك لولا أنّ قافلة ألقت بدلوها وأخرجوه، وحملوه معهم مقيّداً وباعوه عبداً لأحد الأمراء، ولم يكن هذا الأمير إلا ابناً للملك الذي انهزم جيشه على يد الحطّاب، فأخذه لأبيه كهدية وأُلقي به في السجن ونسوه داخل ذلك السجن.

مرّت سنوات وهو سجين سجناً انفرادياً لا يعلم به أحد.

وفي أحد الأيام تناهى إلى مسامعه صوت عرف فيه أحد قادة السلطان كان يجاوره في السجن الملاصق، فتبادل معه الحديث همساً وعرف منه أنّ جيشهم هُزم في معركة سريعة وخاطفة وتمّ أسر مجموعة من القادة هو واحد منهم، وأنّ السلطان طلب الصلح وفق شروط المنتصر، وأخبره أنّ سلطنتهم تدفع مبالغَ كبيرة مقابل ذلك الصلح.

تحسّر الحطّاب المقاتل على حاله وحال حبيبته ووطنه، وقرّر الهرب بأيّ صورة كانت.

فتصنّع المرض وأخذ ينادي على سجّانيه الذين لم يسمعوا له صوتاً طوال سجنه، فاستجاب أحدهم لندائه، وما أن فتح بوابة السجن حتى انقضّ عليه ولكمه لكمةً أفقدته الوعي وارتدى بزّته وحمل سيفه وخرج وأجهز على بقية الحراس واحداً واحداً، وقام بفتح الزنازين لبقية القوّاد المأسورين، وتسللوا إلى داخل بلاط الملك فخطفوه مع اثنين من أبنائه، وانطلقوا إلى بلادهم يسابقون الريح.

لم يصدّق السلطان ما رواه له القادة مادحين أفعال الحطّاب وما قام به من بطولات، وأراد أن يشكر ويعتذر للحطّاب إلاّ أنه سمعه يقول له:

- علينا مهاجمة أعدائنا فهم الآن في ارتباك شديد.

وافقه السلطان وبقية القادة، وانطلق الجيش مباشرةً لخوض الحرب، وما إن وصلوا حتى وجدوا جيش الخصم مبعثراً وليس له من قائد فاقتحموا أسوار المدينة واستولوا عليها معلنيين نصراً مؤزراً على عدوهم.

أرسل الحطّاب من يخبر السلطان بنصرهم وطلب منه أن يأتي ليعلن انضمام المملكة المهزومة إلى سلطانه. فدخل السلطان إلى ابنته فرحاً، فوقفت الأميرة أمامه تريه أنّ غزلها لم يكتمل، فاقترب منها وقبّل رأسها وأخبرها الخبر وقال لها:

- سوف أزفّك إلى خطيبك فهو صهري الذي أفتخر أن أزفّك إليه.

وحينما علمت بالقصة كاملة لم تتمالك نفسها من البكاء وأخذت تقبّل يد والدها غير مصدّقة بما يرويه لها.

وفي اليوم التالي تحرّك السلطان بحرس يحرسون قافلة الأميرة، ولا زالت قافلتهم تسير حتى وصلت إلى مملكة بلاد الشمس، فاستقبل استقبال الفاتح وأعلن انضمام البلاد إلى حكمه، واستدعى الحطّاب وقال له:

- أنا فخور بأن اخطبك لابنتي للمرة الثالثة.

وزُفّت الأميرة في حفل كبير حضره القاصي والداني، وفي ليلة العرس نصّب السلطان صهره الحطّاب والياً على بلاد الشمس.

وعاش الحطّاب والأميرة في سعادة كبيرة وخلّفوا البنين والبنات.(١)

رواية فاطمة خليل

---

(١) نلحظ هنا أنّ بنية هذه الأسطورة جاءت وفق توليفات عديدة، وكل توليفة قادمة من حكاية أخرى تم جمعها في سياق يخدم الحكاية، بينما لو تمّ تتبع كلّ جزء منها سنجد أنّ جلّ الحكاية خليط مستعار من حكايات أخرى، وفي هذه الحكاية أهملت أسطورة أوديسيوس في سياقها الحكائي الأول مبتدئةً على النمط الكلاسيكي من كون البطل حطّاباً ثم بدأت باستعارة الحكايات من هنا وهناك. وإن كان ثمة وجود لبعض معاناة أوديسيوس وزوجته لكن مع افتراق حاد لكثير من تفاصيل تلك الأسطورة. ونلحظ أنها في جزء منها استعارت قصة سيدنا يوسف عليه السلام حين رمي في الجب وإخراجه وبيعه لأمير، ونجد جزء انصباب دهن العود في حكاية أخرى، ورمي الأميرة لخمارها توجد في قصة أخرى. . . وهكذا.

وهذا يمثل انتقال الأسطورة من مكان لآخر ومسخها أو تحويرها وتكييفها وفق واقع السارد الأخير لكلّ هذه الحكايات، والتي تتحول حكايته إلى أصل أنت سامعها وتغيب الأسطورة الأم كأن لم تكن.

علي زنية -١
طعامتي وإلا ام ديك

عاش علي زنية فقيراً يعتمد في حياته على ما يجده في طريقه من رزق، وذات يوم امتلك كيلة طعام بعد أن عمل مع أحد المزارعين في حصد حقل القمح، فأعطاه مقابل عمله كيلة من الحَبّ، فحملها وذهب إلى جارته وطلب منها أن تطحنها له، فرحّبت بذلك وقامت وأعدّت له (قروع) وأحضرت مطحنتها وأخذت تطحن كيلة الحب، وأثناء طحنها قفزت حبة خارج المطحنة، وكان ديكها يسير بجوارها وينقم ما يصادفه من حب أو دود،[1] فنقم حبة علي زنية، فأخذت جارته تعتذر منه وتقول له:

- التقم الديك حبة القمح ياعلي.

فردّ عليها: دعيني أفطر وأشرب قهوتي، بعد ذلك أنظر في أمر الحبة والديك.

وبعد أن ملأ بطنه وشرب قهوته تناول طحينه وأخذ يطالب جارته بحبة القمح التي ابتلعها ديكها، فقالت له:

- كيف ياعلي احضر لك حبة القمح وهي في بطن الديك؟

فقال لها: لا أعرف... احضريها وبس.

---

(١) للعرب تفسير في بقاء الديك داخل المنازل بالرغم من كونه طائر، فقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان قصة سبب بقاء الديك في المنازل وعدم ابتعاده عنها كونه مرهوناً، فقال: «وفي كثيرٍ من الروايات من أحاديث العرب أنّ الديك كان نديماً للغراب، وأنهما شربا الخمر عند خمّارٍ ولم يعطياه شيئاً وذهب الغرابُ ليأتيه بالثَّمنِ حين شرب، ورَهن الدّيك، فخاس به، فبقي محبوساً».

وعندما تمنّعت صعد على (الكدافة) وأخذ يصيح بكلّ صوته:
- ياطعامتي يامديك.
تجمّع الجيران على صوته وعرفوا الحكاية ووقفوا متعجّبين من صنيع علي زنية، وأخذت جارته تحاول معه فقالت له:
- أعطيك بدل الحبة حبة
فرد: ياطعامتي يامديك
فقالت له: أعطيك ملء كفي من القمح
فرد عليها: ياطعامتي يامديك
فقالت له: أعطيك كعة من القمح
فردّ عليها: ياطعامتي يامديك
حاول الجيران أن يثنوه فلم يقبل من أيٍّ منهم قولاً أو نصيحة، وفي الأخير استحكمت المرأة وقالت:
- أمري لله خذ امديك
وأعطته داعيةً عليه أن لا يوفّقه الله، فلم يكترث لدعواتها، وحمل الديك ومضى.
دخل عليه الليل فنادى على أهل بيت سكنوا على ربوة من ربوات الوادي، فخرج إليه عائلها فقال له علي زنية:
- دخل علي الليل فلو تضيفوني الليلة أكون شاكراً.
رحّب به صاحب البيت وقدّم له العشاء وأخرج له قاعدة فرشها بفراش قطني مع غطاء ووضع بجواره شربة ماء، وقبل أن يغادره قال له علي زنية:
- هذا ديكي لو تضعه مع دجاجكم بدلاً من تركه هنا فأنا أخاف أن يفترسه ثعلب أو ذيب.
رحّب الرجل وحمل ديك علي زنية وأدخلة إلى كن الدجاج، ودخل إلى أهله لينام، وعندما تأكّد علي زنية من نوم الجميع نهض من فراشه وأخذ ديكه ووضعه في حظيرة الغنم وعاد إلى فراشه.
وفي الصباح الباكر ومع إخراج الغنم للمرعى لاحظت سيدة البيت أنّ ديك الضيف قد مات، فصاحت بزوجها:

- يبدو أنّ الكباشة تناطحت ليلة أمس وهرست الديك تحت قوائمها.
فردّ عليها زوجها: ومن حمله من كن الدجاج إلى حظيرة الغنم؟
فقالت زوجته: لا علم لي.
فرفع صاحب البيت الديك بين يديه وقلّبه وهو ينظر إلى زوجته متحسّراً:
- يا فضحيتنا مع ضيفنا.
فهوّنت زوجته عليهِ وقالت له:
- اعتذر منه وإن لم يقبل عذراً فليدخل إلى كن الدجاج ويختار ما يشاء من الديكة.

اطمأنّ زوجها لهذا الرأي، وذهب صاحب البيت إلى علي زنية لإيقاظه والاعتذار له. استقبل علي زنية الخبر بتهوين الأمر وقال لصاحب البيت:
- دعني أتناول وجبة إفطاري وأشرب القهوة فأنا على سفر.
وفي الحال انتقل صاحب البيت إلى زوجته وأخبرها أنّ الضيف لم يظهر ضيقاً لفقده الديك وطلب منها تجهيز وجبة الإفطار، وبعد أن تناول علي زنية إفطاره وشرب قهوته قال لصاحب الدار:
- أريد ديكي.
فوجئ صاحب البيت من طلب علي زنية كونه لم يظهر هذه الرغبة عندما أخبره بموت الديك، ومع ذلك قال لعلي زنية:
- أمامك كن الدجاج فاختر ما تشاء من الديكة.
فقال علي زنية: لا أريد ديكك بل أريد ديكي بعينه.
فقال له: لكنّ ديكك مات.
فقال علي زنية: يا ديكي يا الكباشة.
فاحتار صاحب الدار ما الذي يمكنه إرضاء هذا الضيف ويسكت صوته الذي ارتفع عالياً:
- ياديكي يالكباشة.
فاجتمع الناس حول صياح علي زنية وحاولوا جاهدين إقناعه بأخذ ديك أو ديكين أو ثلاثة مقابل ديكه إلاّ أنّ إصراره وخشية صاحب الدار من فضيحة أن يقال عنه إنه أهان ضيفه، فاعطى علي زينة أغنامه، فساقها أمامه وواصل سفره، ومع

دخول الليل رأى ديراً، فقال في نفسه: آوي إلى أصحاب هذا الدير أنا وكباشتي حتى الصباح، فنادى:

- ضيف يا أهل الدار.

فخرج إليه أحد الرجال مرحّباً، فقال له:

- دخل علي الليل وانا أسير بكباشتي فلو تضيفني إلى الصباح أكون لك من الشاكرين.

فرحّب به وقدّم له العشاء وسامره لبعض الوقت واعتذر منه للذهاب إلى النوم، فقال علي:

- أخشى على كباشتي من ثعلب أو ذئب ينقضّ عليها.

فأمر صاحب الدار ابنه بإدخال الكباشة إلى حظيرة الغنم إلاّ أنّ عليّاً اعترض وقال:

- كباشتي لا تنام إلاّ مع الثيران.

استغرب الرجل إلاّ أنه نفّذ رغبة ضيفه وأمر ابنه بإدخال الكباشة إلى حظيرة الثيران، وعندما نام الجميع قفز علي من فراشة وأخرج شفرته من حزامه وانطلق إلى الحظيرة وبقر بطون خرافه وعاد إلى النوم.

وفي الصباح اكتشف صاحب الدار أنّ خراف ضيفه قد بُقرت بطونها فسأل ابنه عمّا حل بها فقال له:

- ربما نطحتها الثيران فبقرت بطونها.

فانطلق صاحب الدار إلى ضيفه يعتذر له عما حدث لخرافه، فردّ عليه:

- دعنا نفطر ونصلّي على النبي أما الكباشة فأمرها هيّن.

تمّ تجهيز الإفطار، فأفطر علي وشرب قهوته وقال لصاحب الدار:

- الآن نتحدث عن كباشتي. . . ما الذي حصل لها؟

فقال صاحب الدار: يبدو أنّ الثيران تناطحت فضاعت خرافك وسط المناطحة وبقرت بطونها، وإن شئت بدل الخروف خروفان.

فقال علي زنية: لا يا سيدي كباشتي أو الثيران.

وقام بنفس الدور، وقف يصيح:

- كباشتي أو الثيران.

وتجمّع الناس وكلّما أرادوا ثنيه عن مطالبته أصرّ، فاستجاب صاحب الدار وأعطاه الثيران وهو يلعن الساعة التي استضافه فيها.

هشّ علي زنية الثيران أمامه ومضى في طريقه حتى دخل الليل فعرج على قرية تلألأت أضواء فوانيسها وتعالى منها دقّ الدفوف وأصوات الزغاريد وطلق النار، فسار إليها، فرحّب به أصحاب العرس، وشاركهم وليمة العرس، ومع زفّة العروس إلى عريسها أطلق علي زنية الثيران باتجاه العروس، فانطلقت مسرعة وكادت تصيب المحتفلين بأذى لولا أنّ أنفاراً من أهل القرية تراكضوا وحالوا بين العروس والثيران المندفعة وظلّوا يضربوها حتى تفرّقت وركضت إلى الجهة التي جاءت منها.

فقام علي زنية صارخاً:

- يا ترجعولي ثيرتي يا تعطوني العروس.

جنّ جنون أهل القرية من دعوة ضيفهم، وبذلوا له الاستعداد لإعطائه ضعف ثيرانه التي هربت، لكنه أصرّ على طلبه وهدّدهم إن لم ينفّذوا الخيارين أن يدور على طول البلد وعرضها ويخبر الناس أنّ أصحاب القرية أهانوا ضيفهم. فتداول رجالتها ما حدث وقرروا تطليق العروس من زوجها وتزويجها بالضيف.

دفع بالعروس إلى علي زنية لأخذها وعاد من حيث أتى فوجد ثيرانه قد عادت إلى حظيرتها، فأخذها واتّجه إلى منطقة قريبة من الوادي وبنى له عشة وعاش مع زوجته وثيرانه.

وتحرتكن تبرتكن في (بطن) الصغير من بينا.

رواية عائشة عجيبية

قصة علي زنيه[1] بلهجة الراوية

قلك من ذاك الشاب اسمه علي من كثر عمايله في الناس ونصبه واحتياله سموه علي زينه في يوم راح يشتغل عند واحد بخيل امذبي مايلاقي في بيته حاجه ياكلها قال إذا شاتشتغل عندي اكلك وشربك على نفسك قال طيب قاله ونومك في امسجد قاله طيب شغله عنده في دكانه وقعد ذاك الولد يخرب في امبضاعه ويرميها لما زهق منه ذاك الرجل وقله انقلع من دكاني تراك خسرتني وهربت زبايني قال والله مااخرج لما تهب لي أجره عن كل يوم اشتغلته معاك قله بس بعد ما اخصم ثمن اللي خربته قله طيب شهّد عليه الناس وقعد ذاك البخيل يكتب ويحسب لما بعد العصر وهباله حبه طعام وقله هاذي الباقي من اجرتك عندي قام يخاصم ويعترض قالوله اهل امسوق انت وافقت على شرطه خذ امحبه ذي وارضى بنصيبك أخذ ذيك الحبه وخرج يمشي لقى واحده عجوز على امطراحه حقها تشهف (تحمص) حب شاتسوي فحيقه قلها ياخاله تجملي شهفي لي امحبه حقي قالن خلي حبتك معاك ولما يخمد امحب شأملي لك كفك، قلها انا مش فحاجتك شهفي لي حبتي وعطيني ياها وبس ورمى ذيك الحبه على املحه نقزن وحطن في الارض قام امديك حق امعجوز أكلها قعد علي زينه يتمصيب ويبكي ويقول حبتي ولا امديك وربش ذيك الحرمه من قهرها قالن له شل امديك الله لاردك شله وخرج على قريه ثانيه ودخل بيت واحد تاجر وقال عابر سبيل رحب به وعشاه وقله بيت عندي حتى أمطل قله طيب فيان

---

(١) نلحظ الفوراق الكبيرة ما بين نفس القصة عندما تروى شفهياً وعندما تكتب كتابة.
ومن الصعوبة البالغة نقل المحكي كما هو، إذ يدخل في الحكي حركات الراوي والأصوات التي يصدرها، لذلك عندما تكتب الحكاية تنقل من وعاء واسع إلى وعاء ضيق.

امغنم حقك شأبيت ديكي قله حطه على امنامه بين امدجاج قاله ديكي مايرقدش الا مع امغنم دخله بينها وفي نص الليل قام زغت امديك (خنقه) وبعج بطنه وحط رجول امتيس امكبير في بطن امديك ورجع يرقد قام راعي امبيت الصباح وقله اللي يرضيك انا مستعد لو تشا ثلاثه ديوك بدل حقك شأهبلك قال ابدا اما ديكي ولا امتيس غير بدل قال لا المهم عطاه ذاك التيس شله وسافر على قريه ثالثه ولما وصل سأل على بيت الشيخ دلوه عليه دخل عنده وقال أنا ضيفك قله الله يحيك قعد معاه لما أجى وقت امنوم وطول قعدته وتيسه جنبه وقال للشيخ ورني فيان يرقد امخيل حقك شأبيت تيسي قله رقده بين امغنم قله تيسي مايرقد الا مع امخيل لانه والف على كذا دخله بين امخيل وبعد مارقد الشيخ قام وبعج بين امتيس وتخير احسن حصان وحط رجوله في بطنه ولطخ خشمه بمدم ورقد حتى امطل أجى قال هات امتيس حقي شأتوكل على الله وجزاك الله خير على ضيافتك راح لقى امتيس ميت وامحصان داعس عليه في بطنه رجع يتعذر من علي زينه وقله اطلب اللي يرضيك بدل تيسك ترى حصاني قتله قام يبكي ويقول ان امتيس ذا كان مثل ابني ومايرضيني الا اشل امحصان اللي قتله حتى ابرد ناري عطاه الشيخ ذاك الحصان وسرجه ركب عليه وخرج من امقريه الا في ناس شالين جنازه يشون امجنه قالهن من اللي مات قالوله واحده عجوز مقطوعه واحنا رايحين ندفنها وكان منهن ثلاثه قلهن تبادلون اوديكون ذا الحصان وتعطني امعجوز قالو طيب اخذها على ظهره لما وصل مدينه كبيره حطها في خرابه وخرج لقي ثياب منشفه حق حرمه سرقها وقعد يسأل اذا كان في امدينه زواج الليله قالوله في زواج ابن شيخ الحواتين رجع امخرابه وفك امكفن عن امعجوز ولبسها بمثياب اللي سرقها وراح على بيت شيخ الحواتين وقله ان ابويه قبل مايموت وصاني ازورك انا وولدتي لان ابوك كان صاحبه رحب به وقال دخل ولدتك عن امحريم قال خذلي طريق لانها تعبانه بلهول ومحد يعرف يقعدها الا انا دخل حطها فوق امقعاده وركالها يجي بعشرين مخده وجاب حبل امشيشه وخلاها تمسكه وخرج اجوا امحريم يواجهنها (يسلمون عليها) شافوها قطعه واحده لاحركه ولا كلمه ولا نفس قامن راعية امبيت قربن منها ومسكن يدها طاحن ذيك العجوز وشافوها ميته نادو لمرجال وقالولهن امعجوز امغريبه ماتن خرجو لعلي زينه وقالو عظم الله اجرك ولدتك توفن قام يبكي ويقول حريمكن قتلوها والله مااقبل ديه ولا

عوض وشأشتكي عند القاضي ياخذ لي حقي قامو يترجنه ويحايلون عليه وقالو اللي تشاه احنا موافقين عليه قلهن مايرضيني في موت ولدتي الا وزنها ذهب قالو ماشي معانا ذهب لكن نزوجك بنت شيخ الصيادين ونعطيك بيت ودكان وراس مال تشتغل به وافق وزوجوه واستقر في حياته وكل يوم يردد ذيك الزمله طعامه هبلي ديك وامديك هبالي تيس وامتيس هبالي حصاان وامحصان هبالي عجوزه وامعجوزه هبلي عروسه وهبلي معاها بيت وخلصت الحكاية.

علي زنية - ٢
علي زنية واليهودي

قلنا وقلكم، من واحد يهودي كان طامعاً في الاستيلاء على بيت جاره ولم يكن إلى ذلك من سبيل.

وكان اليهودي يقرض المحتاجين مقابل زيادة مالية فوق أصل القرض، وفي موسم من مواسم البذار لم يكن لدى الفقير مال لشراء البذور أو استئجار ثور وحراثة وعامل يساعده في الحرث والبذار، وفكّر في أي وسيلة تمكّنه من الحصول على المال لكي لا يذهب الموسم وأرضه ميتة، فذهب إلى جاره اليهودي وطلب قرضاً يسدّده له بعد جني المحصول، وقد وضع الفقير حجّة البيت كرهن لسداد قرضه إلاّ أنّ اليهودي قال لجاره الفقير:

- سوف أقرضك وعليك أن تعيد القرض قبل أوان السداد وإلاّ اخذت بيتك وخريت عليك.

وأمام الحاجة وافق الفقير على شرطي اليهودي وأخذ المال، ومن فوره اشترى البذور واستأجر عاملاً وثوراً يجرّ الحراثة وسعى في استصلاح أرضه وبذرها مؤملاً في موسم يعيد إليه توازنه.

مضت الأيام وعبرت غيوم كثيرة من غير أن تمدّ الأرض بقطرة ماء، وتسارعت الأيام ودنا موعد سداد القرض، وليس لدى الفقير شيء يمكن أن يُسكت جشع اليهودي.

فإذا بالفقير يبحث عن وسيلة لإنقاذ أرضه ونفسه، فإن ذهبت الأرض أصابه الخزي والعار بالشرط الثاني من تمكين اليهودي أن يخرى عليه، فأصابه الهمّ

والحزن، ولا زال مهموماً مكسور الخاطر شارد اللب لا يلتفت إلى شيء سوى إحصاء ما تبقّى من أيام لانتهاء موعد تسليم القرض. . . وبينما هو على حالته تلك مرّ به جاره وسأله عمّا به، فأخبره بالمصير الذي ينتظره. أشفق عليه جاره، وقلّب الوضع من اتجاهات عدّة علّهما يجدان حلاً لتأخير موعد سداد القرض أو اقناع اليهودي بأخذ الأرض من غير أن يخرى على جاره الفقير. وبينما كانا يقلّبان الحلول قفز جار الفقير صائحاً:

- لن يخلّصك من هذا الأمر إلاّ علي زنية.

فقال الفلاح الفقير: وما الذي يمكن لعلي فعله في مثل حالتي؟

فقال له جاره: لنجرّب عسى وعلّ.

توجّه الفلاح وجاره مستنجدان بعلي زنية وأخبراه الخبر، فقال لهما:

- عندما يحين موعد السداد اجمعا أهل القرية جميعاً وأخبرني وسوف أجد حلاً.

أسرعت الأيام في التتابع وحلّ يوم السداد، فجاء اليهودي شامتاً بالفقير وقائلاً له:

- حان موعد السداد وحجّة أرضك معي وعليك أن تعطيني أرضك وتمكّنني من أن أخرى عليك.

وأخذ يضحك بصوت مرتفع، فقال له الفلاح الفقير:

- ليكن موعدنا غداً في السوق الكبير.

فقال اليهودي: إنّ غداً لناظره قريب.

شعر الفلاح الفقير باليأس وزاد كربه إلاّ أنّ جاره أصرّ عليه بدعوة كبراء البلد وعامّة الناس، فقال له:

- بدلاً من أن أُهان أمام القلة تريدني أن أخسر قيمتي أمام كلّ الخلق؟

فردّ عليه: ألم يطلب علي زنية منك هذا الطلب؟

فقال له: لن يستطيع علي زنية فعل شيء، وقد رضيت أن أهب اليهودي أرضي لكن أن يخرى علي وأمام الجميع فهذه التي لا أرضاها لنفسي وأُفضّل أن أنحر نفسي قبل أن يفعلها اليهودي.

ولا زال الجار يواسيه ويقنعه باتّباع ما قاله علي زنية حتى وافق مضطراً وتحت

إلحاح جاره، فانطلق الاثنان يخبران كلّ من يصادفانه بموعد تنفيذ شرطي اليهودي وأنّ اجتماعهم لتثبيت أداء الفلاح للعهد المتفق عليه بينه وبين اليهودي.

وفي صباح اليوم التالي توافد الناس من كلّ مكان وقد تسرّب خبر الشرطين لمسامع الكثيرين... وما أن فاضت ساحة السوق بالمجتمعين حتى خرج الفلاح على رؤوس الأشهاد وقال:

- أريد علي زنية أن يكون حكماً في تطبيق العهد الذي بيني وبين اليهودي.

فوقف شيخ البلد سائلاً اليهودي:

- هل ترضى بأن يكون علي زنية حكماً بينكما؟

فردّ اليهودي: نعم أقبل.

فنهض علي زنية وشكر الجميع وقال: المسلم على العهد وأريد من اليهودي أن يسمع الجميع بما اتفق عليه مع الفلاح، وكلّ ما أرجوه أن يرفع صوته بأعلى طبقة يستطيع النطق بها:

فوقف اليهودي صائحاً:

- جاءني الفلاح قبل عام مضى وطلب مني قرضاً وقد اشترطت عليه إن لم يسدّد القرض خلال عام فيحقّ لي أخذ أرضه وأن أخرى عليه، وقد حان موعد السداد ولم يُعد مالي الذي أقترضه... هذا كلّ ما حدث؟

وجلس اليهودي، فنادى علي زنية على الفلاح:

- هل ما قاله اليهودي صحيح؟

فردّ الفقير: نعم هذا ما حدث.

وجلس وهو في حالة يرثى لها من الكدر، وأخذ ينظر إلى علي زنية الذي دار بين المجتمعين وهو يردد:

- لقد استمع الجميع إلى ما قاله اليهودي ووافقه عليه الفلاح الفقير، فالقرض تمّ وفق شرطين: أخذ الأرض وأن يخرى اليهودي على الفلاح الفقير، وأنا متمسك بتطبيق الشرط الثاني وهو أن يخرى اليهودي على خصمه، فقط يخرى دون أن ينزل قطرة بول واحدة، فإن استطاع فعل ذلك فله بيت الفلاح حلالاً زلالاً، وإن لم يستطع فالبيت يعود إلى الفلاح ومال اليهودي يضيع لإخلاله بتطبيق الشرط الثاني.

جُنّ اليهودي وأخذ يصيح: أنا لا أقبل بهذا الحكم، فتدخل كبار من حضر وقالوا:

- صدق علي زنية.

إن أردت البيت فقم واخرى على خصمك من غير أن تنزل قطرة بول واحدة وإلاّ فإنّ مالك ضائع والبيت يعود إلى صاحبه.

وكان اليهودي قد داوم على أكل الدجرا لثلاثة أيام وامتنع عن التغوط لكي ينزل سلحه على الفلاح الفقير الذي أغاظه بالامتناع عن بيع بيته، وحين جاء تطبيق حكم علي زنية كان اليهودي يسلح ويتبول في آن.

فتصايح الجميع:

- خسر اليهودي... خسر اليهودي.

فعاد البيت إلى صاحبه ولم يتمكّن اليهودي من مطالبته بالقرض.

رواية زهرة علي

علي زنية - ٣

كان لعلي زنية أختين هرمتين حتى أن أصغرهما لم يتبقَّ في حنكها إلا سنّين وحيدين والكبرى غدت درداء، وكانتا تتبادلان الكره والبغضاء في بداية حياتهما إلاّ أنّ الكبر قرّب بينهما وغدتا ترقّ كلٌّ منهما لحالة الأخرى.

ولم تتزوّج أيٌّ منهما طوال حياتها، فبالإضافة إلى دمامتهما وسوء ألفاظهما كانت كلّ منهما متّسخة الثياب منكوشة الشعر معكوفة الأظافر يفرّ الجالس بجوارهما من رائحتهما المنتنة والمنبعثة من جسديهما وأفواهما.

ولم يكن لهما من عائل إلاّ أخاهما علي زنية، فوجد في تحمّل مسئوليتهما مشقّة بالغة، وكان يكره سلطان البلاد، وفكّر أن يتخلّص من حمولة إحدى أختيه بتزويجه نكايةً به.

وعندما يطرأ على باله هذا التفكير يظلّ يضحك ضحكاً متواصلاً متصوّراً منظر تلك (الزيجة)، ومع مداومته على ذلك التخيّل قرّر تنفيذه.

علم أنّ السلطان سوف يحضر مناسبة وسيكون طريقه عابراً من جوار بيته، فأعطى أختيه إناءً وضع به سائلاً خلط به دهن العود والمسك وماء الورد، وطلب منهما رشّ هذا السائل في طريق الموكب.

ومع مرور الموكب رشّت كلّ منهما إناءها في طريق السلطان، فوقع جزءٌ منه على ثياب السلطان، وفاحت روائح زكية، فسأل علي زنية:

- ما هذا ياعلي؟

فتقدّم معتذراً منه ومتّهماً أختيه بعدم مرعاة الوقت لسكب بولهما.

استغرب السلطان وردّد: أهذا بول؟

فقال علي: نعم بولهما... وأجد نفسي في حرج لا يزيله إلاّ عفوك.

سرح السلطان في تخيلاته، متصوّرا جمال هاتين الصبيتين اللتين إذا تبوّلتا كانت رائحة بولهما عطراً، وعزم النية على طلب الصغرى للزواج بها، وبعد انتهائه من حضور المناسبة استدعى عليّاً وطلب منه الزواج من أخته الصغرى، فرحّب وأظهر فرحاً غامراً بمصاهرة السلطان.

وعاد إلى البيت وأخبر أخته الصغرى أنّ السلطان طلبها لأن تكون زوجةً له. أُصيبت بالصدمة وظلّت صامتة لبعض الوقت، وعندما تحدّثت استنكرت طلب السلطان وسألت عن الأسباب التي تدعوه لطلب يدها، فهي مسنّة ودميمة وليس بها ما يغري الرجال... فلم يجبها أخوها على شيء من استفساراتها.

وفي يوم العرس ظلّت العروس في حالة إسهال دائم وهي تفكّر بأنّ السلطان حالما يراها سيقطع عنقها، فأخذت تدعو الله وتستغيث ممّا هي فيه... انشغل الناس بالتهيئة لحفل الزفاف، وقد توافد خلق من البشر لحضور مراسم الزواج.

وزفّت العروس إلى مخدع السلطان وهي في حالة ذعر وارتباك فجاءها النبي الخضر وقال لها:

- تمنّي...

فقالت: أتمنى أن أعود بنت خمسة عشر عاماً ليس في حسني وجمالي أحد.

وما أن أكملت جملتها حتى دخل عليها السلطان، واقترب منها وصعق مكبراً وهو يردد:

- سبحان الله على ما خلق!

ولم تكن العروس تعلم أنّ أمنيتها قد تحققت فأخذت تتوسّل إلى السلطان قائلةً:

- أنت تستحق امرأة أجمل مني إلاّ أنّ أخي علي خدعك بي فأرجو أن تسامحني.

فقال لها:

- لقد قادني أخوك إلى السعادة ولم أكن أحلم أبداً أن أجد امرأة مثلك.

ظنّت أنه يسخر منها، وظلّت منتظرة انطلاق فورة غضبه وأدهشها هشاشته

وبشاشته بها وتدليله لها، وحانت التفاتة منها إلى مرآة أُلصقت داخل الغرفة، فلم تصدّق، اقتربت ونظرت في المرآة فرأت فتاة في غاية الروعة والجمال. . . وكلّما حدّقت ذهب بالها إلى أنّ فتاة أخرى تشاركهما الغرفة، فكانت تضع يدها على وجهها وشعرها وفمها فأيقنت أنّ أمنيتها تحققت، فأقبلت على السلطان بكلّ ثقة واعتداد.

وفي صباح اليوم التالي حاولت التخلص من بين يدي السلطان مظهرةً له رغبتها في دخول الحمام، فقال لها السلطان:

- مثلك يتغوط ويتبول في مكانه، فقد شممت رائحة بولك وكلها عطور.

حاولت بكلّ الوسائل أن تنهض فلم يرضَ أن يخلّصها، فتغوطت على الفراش. . . كانت دهشتها توازي دهشة السلطان حين وجدت أنّ تغوّطها ما هو إلاّ جواهر ولؤلؤ أخذ السلطان يجمعه بيده وينثره في الهواء صائحاً:

- ألم أقل لك إنك نعمة مهداة من الله؟

وشاع خبر العروس وجمالها وصدّق الناس روعة ذلك الجمال الفاتن وظلّ بهم شك من أنها تتغوط جواهر ولؤلؤ إلاّ أنّ القريبين من السلطان كأمه وأخواته أكدن أن الأميرة زوجة السلطان تتغوط جواهر ولؤلؤ وتتبول عطوراً.

سمع ابن عم السلطان بجمال الأميرة وتغوّطها فقرر أن يخطب أختها قبل أن يسبقه إليها أحد، فذهب إلى بيت علي زنية خاطباً لكنه لم يجده ووجد بابه مغلقاً.

فعزم على المرابطة بجوار البيت إلى أن يعود علي وأخته.

أما علي فبعد أن زوّج أخته بالسلطان خاف أشدّ الخوف من غضبته عندما يكتشف دمامة وقذارة العروس، وكان متاكداً من أنّ غضبة السلطان ستحمله على استدعائه وقتله، لذلك حمل أخته وغادر البيت هرباً.

وهو في هربه كان يسمع الناس يتحدثون عن الأميرة التي تزوّجها السلطان بانبهار ومطلقين الأوصاف التي تذهب إلى أنّ الأميرة لم يُخلق مثلها في الجمال والكمال، وعندما سمع قصة تغوطها زادت دهشته وأيقن أنّ ما يتناقله الناس كمينٌ وضعه السلطان من أجل القبض عليه، وظلّ هارباً وفي كل مكان يسمع حكاية جمال أخته وتغوطها للمجوهرات واللؤلؤ، فقرر أن يعود إلى بيته، فرجع مع أخته، ووجد

حارساً من حراس السلطان ينتظره ومعه ابن عم السلطان، فقال في نفسه: هي مكيدة. . .

واستجاب للأمر، وسار مع الحارس، وكان ابن عم السلطان يظهر له الودّ ويقول له:

– ليس لي علاقة باستدعاء السلطان لك فأنا جالس أمام بيتك من أيام أنتظر عودتك ولن أخبرك بما أريد حتى تعود إلى بيتك.

كان علي زنية مستغرباً ممّا يقوله ابن عم السلطان لكن كان باله مشغولاً كيف ستكون ردة فعل غضب السلطان، وعندما دخل إلى المجلس نهض السلطان عن عرشه واستقبله بحرارة، مرحّباً ومحيّياً، فسارع علي زنية بالاعتذار عن فعلته:

– لم أكن أرغب في إيقاعك في هذه الورطة لكن ما شاء الله فعل.

فضحك السلطان وقال له:

– لقد أهديتني نعمة لا يوازيها أيّ نعمة.

وسحبه من يده إلى مخدعه، وعندما رأى علي زنية أخته لم يصدّق بتاتاً أنها هي فعلاً وظنّ أنّ السلطان أراد أن يريه الجمال الذي يليق به وليس تلك العجوز الشمطاء الدميمة الكريهة الرائحة، فاقتربت منه أخته مسلّمة وحضنته وأخذت توشوش له بما حدث، ففرح فرحاً عظيماً، وصدّق ما تناقله الناس عن الأميرة زوجة السلطان.

وقبل أن يغادر المكان أخرج السلطان كمية من الجواهر واللؤلؤ وأعطى علي زنية، فقال علي زنية:

– هذا كثير!

فضحك السلطان وهو يقول:

– كلّ هذا من خرى أختك.

وعندما عاد علي زنية إلى بيته واستقبلته أخته الكبرى بمنظرها الدميم ورائحتها الكريهة مستوضحةً الأمر طمأنها بأنّ أختها في خير كبير، وقبل أن يكمل حديثه كان ابن عم السلطان يقرع الباب ويطلب ملاقاة علي زنية ليخطب أخته الكبرى. حاول علي زنية صدّه وردّه إلاّ أنه أصرّ في طلبه، فقال له:

– لن أوافق حتى تأتي بشهود يشهدوا على ما سوف أقوله لك.

أسرع ابن السلطان بإحضار شهوده، وهم أبوه وأخوه وأحد أصدقائه، فاستقبلهم علي زنية وقال لهم:

- لقد جاء ابنكم خاطباً أختي وأريدك أن تشهدوا على قولي حتى لا يغضب ابنكم ويتّهمني بالغش والخداع.

فقالوا له: قل فلم نأت إلاّ للشهادة.

فقال علي: أختي امرأة مسنّة كريهة المنظر والرائحة لا يقربها إنسان إلاّ وهرب من رؤيتها ورائحتها، فإن قبل بها بهذه الصفات فمرحباً به وإن لم يقبل أكون له من الشاكرين.

كان الجميع يظنّ أنّ علياً يحاول إبعاد ابنهم عن الزواج من أخته لكي يزوّجها إلى سلطان آخر، فتقدّم أبو الخاطب وقال لعلي:

- نحن قبلنا بزواج ابننا بأختك بأيّ صورة كانت وستكون في العين والقلب.

وتمّ الزواج على هذا.

وفي ليلة العرس زُفّت العروس إلى مخدع زوجها، وعندما جاءها كاد يختنق من رائحتها، وعندما رفع غطاء وجهها قابلته ضاحكة بفم ليس به سنّ، وبدمامة منقطعة النظير. كاد يُجنّ من هول الصدمة، فتماسك وقال في نفسه: ربما تكون على هذه الهيئة شكلاً ومنظراً، لكن يمكن أن تكون مثل أختها تتغوط جواهر ولؤلؤاً.

وفي الصباح قالت له: أريد أتغوط.

فقال لها: مثلك لا يتغوط إلاّ على الفرش الوثيرة.

وأبقاها على فراشه، وما أن تغوطت حتى (طرشق) خراءها في وجهه وثيابه.

فأخذ يصيح ويلعن علي زنية في كلّ كتاب.

رواية عائشة عجيبية

عود الخيزران

قلنا وقلكم، قال من واحد حطاب كان يذهب في كلّ صباح إلى الخبوت بحثاً عن الأشجار اليابسة ويقتطع منها ما يشاء من حطب ويعود إلى بيته.

وذات يوم وجد الحطّاب شجرة ضخمة وبها فرع لم يُرَ له مثيل في حسن الاستواء والنعومة طوال زمن احتطابه، فاقتطعه بفأسه، وعندما قطعه سمع أنّة تخيّلها صدرت من الشجرة لكنه لم يكترث كثيراً، وحمل الفرع بيده وسرعان ما تيبس وشحب لونه، فتناوله وهزّه بيده فازداد اعجاباً بخفّتة في يده وثقله على الأرض، واتّخذه حلية يسير بها بين الناس متفاخراً بعصا لا يوجد لها مثيل بين العصوات،(1) وقد عرض عليه شراءها فلم يقبل ببيعها.

---

(1) العصا موتيفة أسطورية قديمة قد تكون أقدم من عصا موسى إلاّ أن اختيارها كمعجزة أكسبتها حضوراً أسطورياً أممياً وغدت العصا من مستلزمات استكمال قيافة الرجل. وإذا عدنا إلى عصا النبي موسى فقد قيل إنها انها هدية الرب لآدم عقب خروجه من جنة عدن وأنها توارثت من أب لابن إلى أن وصلت إلى إبراهيم فأورثها ابنه مدين وأمه (قطورة بنت مقطور، من العرب العاربة) فأورثها مدين لشعيب الذي أورثها بدوره لموسى عقب زواجه من صفورة ابنة شعيب. (الكامل في التاريخ)

وفي رواية أخرى يقال إنّ يوسف الصديق سرقها من شعيب وزرعها في حديقة بيته إلى أن جاء الغلام الجعد موسى فانتزعها، ويقال إنها كانت من آس الجنة، كما يقال إنها كانت في طول قامة موسى وإنها هي بعينها ما أصبحت بعد ذلك بقرون بمثابة الصليب الذي صلب عليه المسيح في فلسطين. (موسوعة الفلوكلور والأساطير لشوقي عبدالحكيم)

وهناك أقاويل كثيرة عن عصا موسى فقد قيل: عن مقاتل بن سليمان كما في تفسيره المنسوب إليه (٢/ ٤٤٩): قال ابن عباس: «إنّ جبريل دفع العصا إلى موسى عليه السلام بالليل حين توجه إلى مدين، وكان آدم عليه السلام أخرج بالعصا من الجنة. فلما مات آدم قبضها جبريل =

= عليه السلام». وروى ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦١/ ٤٢) عن وهب بن منبه في عصا موسى: «أنّ شعيباً حين زوج موسى وأمره أن يخرج قال له: ادخل المخدع الذي فيه العصي فخذ منها عصا وائتني بها، قال: فدخل موسى فمدّ يده إلى العصي فوقعت في يده منها عصا فأخرجها إلى شعيب فلما أبصرها شعيب ضحك وقال: ردّها، فردها مكانها وخرج إلى شعيب فقال له: اذهب فائتني بعصا أخرى، قال: فدخل فمد يده فوقعت تلك العصا في يده فأخرجها إلى شعيب فإذا هي هي، فزعم وهب أنه ردّه سبع مرات كلّ ذلك تقع العصا في يده، فقال شعيب: يا موسى أنت صاحبها فاستوصِ بعصاك خيراً واحتفظ بها فإنك سترى منها أمراً عجيباً من أمر الله وسلطانه»، فزعم وهب «أنها هي التي أخرجها آدم من الجنة». وفي تفسير البغوي (٣/ ٤٤٣): «قال عكرمة: خرج بها آدم من الجنة فأخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً فدفعها إليه. وقال آخرون: كانت من آس الجنة حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء وكان لا يأخذها غير نبي إلا أكلته فصارت من آدم إلى نوح ثم إلى إبراهيم حتى وصلت إلى شعيب وكانت عصا الأنبياء عنده فأعطاها موسى». وروى الطبري في تفسيره (٢٠/ ٦٧) عن السدي قال: «أمر، يعني أبا المرأتين، إحدى ابنتيه أن تأتيه، يعني أن تأتي موسى، بعصا فأتته بعصا وكانت تلك العصا عصا استودعها إياه ملك في صورة رجل فدفعها إليه فدخلت الجارية فأخذت العصا فأتته بها فلما رآها الشيخ قال: لا ائتيه بغيرها فألقتها تريد أن تأخذ غيرها فلا يقع في يدها إلا هي وجعل يرددها وكل ذلك لا يخرج في يدها غيرها فلما رأى ذلك عمد إليها فأخرجها معه فرعى بها ثم إن الشيخ ندم وقال: كانت وديعة، فخرج يتلقى موسى فلما لقيه قال: أعطني العصا، فقال: موسى هي عصاي، فأبى أن يعطيه، فاختصما فرضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما، فأتاهما ملك يمشي فقال: ضعوها في الأرض فمن حملها فهي له، فعالجها الشيخ فلم يطقها وأخذ موسى بيده فرفعها فتركها له الشيخ فرعى له عشر سنين». وروى عن ابن وهب قال: قال ابن زيد: قال -يعني أبا الجارية-: لما زوّجها موسى لموسى أدخل ذلك البيت فأخذ عصا فتوكأ عليها فدخل فلما وقف على باب البيت طارت إليه تلك العصا فأخذها فقال: ارددها وخذ أخرى مكانها، قال: فردها ثم ذهب ليأخذ أخرى فطارت إليه كما هي فقال: لا أردّها، فعل ذلك ثلاثا فقال: ارددها، فقال: لا أجد غيرها اليوم، فالتفت إلى ابنته فقال لابنته: إنّ زوجك لنبي. وروى عن أبي بكر -ولعله الهذلي كما قال ابن تيمية في الفتاوى (١/ ٦٤)- قال: سألت عكرمة قال: أما عصا موسى فإنها خرج بها آدم من الجنة ثم قبضها بعد ذلك جبرائيل عليه السلام فلقي موسى بها ليلاً فدفعها إليه". قال ابن تيمية في جامع الرسائل (١/ ٦٤): «ما يذكرونه في عصا موسى وأنّ شعيباً أعطاه إياها وقيل أعطاه إياها هذا الشيخ وقيل جبريل وكل ذلك لا يثبت»، واستنكر أن يكون أبو المرأتين شعيباً كما في رواية وهب بن منبه - على فرض صحة خبر العصا - وقال في جامع الرسائل (١/ ٦٥): «لو كان هذا هو شعيباً النبي لم ينازع موسى ولم يندم على إعطائه إياها ولم يحاكمه، ولم يكن موسى قبل أن ينبأ أحق بالوفاء منه فإن شعيباً كان نبياً وموسى لم يكن نبياً فلم يكن موسى قبل أن ينبأ أكمل من نبي».

وذات يوم قال لابنه الوحيد:

- أعلم أنك لا تزال صغيراً لكنّ الحياة تحتاج إلى من يعرفها منذ الصغر وأريدك أن تخرج معي للاحتطاب.

فرح الطفل بطلب أبيه، فقد كان راغباً بالخروج ورؤية الأماكن التي يذهب أبوه إليها في كلّ صباح.

وفي صباح اليوم التالي خرج الحطاب وابنه متجهين إلى البرية بحثاً عن الحطب، وكلما طرقوا مكاناً وجدوا أنّ الاشجار مخضرة ولا أثر لليابس منها، فيواصلان سيرهما داخل أحراش الغابة، فشعر الطفل بالإنهاك والتعب، فطلب من أبيه أن يستريحا قليلاً لكنّ الأب قال له:

- هذه هي الحياة، تعب ولا راحة فيها... دعنا نواصل بحثنا.

فاستجاب الطفل لطلب أبيه وواصل السير، وبعد قليل استشعر الحطاب أنّ طفله لم يعد يقوى على المسير، فناوله عصاته وشاله وقال له:

- ابقَ هنا واحمِ نفسك بهذه العصا وضع الشال على رأسك من أشعة الشمس.

فردّ الطفل بأنه خائف أن يظل لوحده، فهوّن أبوه الأمر وقال له:

- سأكون قريباً منك وفي كل مرة سأنادي عليك فردّ على ندائي.

جلس الطفل وبيده عصا أبيه وغادر الحطّاب مخترقاً الغابة وباحثاً عن ما يحتطبه، ومحاولاً أن يكون مكان تواجده قريباً من ابنه، وكلما ابتعد قليلاً صاح بأعلى صوته:

يا صاحب العصا

قلي من عصى

فيردّ الطفل:

ابنك ما عصى

جالس مع العصا

فيطمئن الحطاب ويواصل بحثه عن الحطب، وكلّما وجد حطباً جمعه أو وجد شجرة يابسة اقتطعها، وبعد كلّ سير أو قطع يصيح بابنه:

ياصاحب العصا

قلي من عصى

فيردّ الطفل:

ابنك ما عصى

جالس مع العصا

مضى الوقت وشعر الطفل بعطش شديد فأخذ يبحث عن ماء في دائرته التي جلس بها فلم يجد، وقرر أن يبحث عن الماء بدلاً من إشغال أبيه عن عمله، فأمسك بالعصا وقال لها:

- سأذهب للبحث عن الماء فإذا نادى علي أبي فردّي عليه.

وترك العصا وغادر مكانه بحثاً عن الماء، وبعد لحظات ارتفع صوت الحطّاب صائحاً:

يا صاحب العصا

قلي من عصى

فردّت عليه العصا قائلةً[1]:

---

(١) تحتفل الثقافة العربية بالهاتف كحضور لكائنات أخرى إما أن تكون ملائكة أو جن، ويختلف تقييم الهاتف وفق الحالة وتتبع حكايات الهاتف سنجد العشرات منها تؤسس لوجودها وفق مصدر المروية أو هوى الراوي (وتورد الكلاسيات العربية هذه الحكاية الخرافية عن أميه بن أبي الصلت: في ذات يوم خرج ركب من قبيلة ثقيف إلى الشام وفيهم أميه فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلاً ليتعشوا عشاء فأقبلت حشره من حشرات الأرض حتى دنت منه فرماها بعضهم بشي في وجهها فرجعت وضموا سفرتهم بعضها إلى بعض ثم قاموا يرحلون ممسين فطلعت لهم عجوز من وراء كثيب مقابل لهم تتوكأ على عصا فقالت: ما منعكم أن تطعموا رجيمة الجارية اليتيمة التي جاءتكم عشيه؟ فسألوها: من أنت؟ قالت: إنا أم العوام، فقدت زوجي من أعوام، أما ورب العباد لتفترقن في البلاد. وضربت بعصاها الأرض ثم صاحت: بطئي إيابهم ونفري ركباهم، فوثبت الإبل كأنّ على ذروة كلّ بعير شيطان ما يملك منها شيئاً حتى افترقت في الوادي، فعدا خلفها أصحابها يجمعونها ولم يستطيعوا ذلك إلا آخر النهار، فلما أناخوها ليرحلوا طلعت عليهم العجوز فضربت الأرض بالعصا ثم قالت كقولها بالأمس، فلم يجمعوا الإبل إلا الغد عشية فلما أناخوها ليرحلوا أقبلت العجوز مرة ثالثة ففعلت كفعلها في اليومين السابقين ونفرت الإبل وعندئذ قال القوم لأمية: أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك؟ فقال: اذهبوا انتم في طلب الإبل ودعوني. ثم توجه إلى ذلك الكثيب الذي كانت العجوز تأتي منه حتى علا وهبط في وداي فإذا فيه معابد وقناديل وإذا رجل مضطجع معترض على بابها فلما رأى أميه قال: إنك لمتبوع فمن أين يأتيك صاحبك؟ قال: من إذني اليسرى. قال: =

العطش قاتل

وابنك سائل

عندما سمع الحطاب هذا الردّ عرف أنه ليس صوت ابنه، فتحرّك بعجلة إلى المكان الذي ترك فيه ابنه، وأخذ يبحث عنه فلم يجده، ولم يكن يعرف أنّ عصاه تتحدّث فأراد أن يعرف من ذا الذي ردّ على ندائه فصاح:

يا صاحب العصا

قلي من عصى

فردّت عليه العصا قائلةً:

العطش قاتل

وابنك سائل

فأمسك الحطاب بالعصا مستغرباً من نطقها وحديثها وأخذ يجرّب بتوجيه الأسئلة إليها فأخبرته أنّ ابنه عطش وذهب ليبحث عن الماء وأوكل لها مهمة أن تردّ على نداءته.

ولم يكن الحطاب منشغلاً بحديث العصا وإنما منشغلاً بالوصول إلى ابنه، فهزّها في يده وقال لها:

- سأذهب وأبحث عنه فإن عاد أخبريني بعودته وارفعي صوتك وإن سألتك عنه فأجيبي.

= فبأي الثياب يأمرك؟ أجاب: بالسواد. قال: هذا خطيب الجن كدت والله أن تكونه ولم تفعل، إنّ صاحب النبوه يأتيه الوحي من قبل إذنه اليمنى ويأمره بلباس البياض، فما حاجتك؟ فحدّثه أمية حديث العجوز فقال الرجل: صدقت وليست بصادقة، هي امرأة يهودية من الجن هلك زوجها منذ أعوام وإنها لا تزال تفعل ذلك بكم حتى تهلككم إن استطاعت، فقال أمية: وما الحيله؟ أجاب: جمعوا ركابكم فإذا جاءتكم ففعلت كما كانت تفعل فقولوا لها: سبع من فوق وسبع من أسفل باسمك اللهم، فلن تضركم، فرجع أميه وعلّم قومه ما أمره به الشيخ فلم تضرهم فلما رأت العجوز الإبل لم تتحرك صاحت قد عرفت صاحبكم وليبيضن أعلاه وليسودن أسفله فأصبح أمية قد برص في عذاريه واسودّ أسفله فلما قدموا لمكة ذكروا لإلها هذا الحديث فكان ذلك أول ما كتب أهل مكة (باسمك اللهم) في كتبهم. (موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، شوقي عبدالحكيم، مكتبة مدبولي)

وانطلق الحطاب مخترقاً أحراش الغابة[1] مفتشاً عن ابنه وعندما ينهي تفتيش المنطقة التي هو بها يرفع صوته عالياً:

يا عصا السعد

وصل لك سعد

فتردّ عليه العصا:

حطاب أبي

ماعادت العين اللي ترتجي

فيعضّ على شفتيه ندماً لفقد ابنه، فتّش كلّ أركان الغابة فلم يجد طفله، فعاد وحمل عصاه وأخذ يبكي والعصا تهتز بيده وتردد:

ما جا من الدنيا يروح

وما ينفع البكا والنوح

أما الطفل فقد وجد بئراً وظنّ أنّ مائها قريب فتعلّق بحبل البكرة فسقط بداخلها، وكانت بئراً معطلة، وأخذ يستغيث بأبيه فلم يسمعه أحد. بقي داخل البئر حائراً يقلّب بصره، وعندما رأى حبل البكرة لا يزال مدلّى (وكانت عروة الحبل في آخرها ممسكة بالبكرة) أمسك به وأخذ يتسلّق، وكلّما صعد إلى المنتصف أو فوقه وقع مرةً أخرى، ولا زال في محاولته إلى أن صعد، إلاّ أنّ الليل قد دخل عليه، وسمع أصوات الحيوانات تأتيه من كلّ جهة، فعاد إلى قعر البئر ونام هناك. ومع أول انتشار لخيوط الشمس نهض الطفل وتسلّق إلى خارج البئر، وكان جائعاً

---

(١) من الغابات الشهيرة في الأساطير غابة ديانا وتعتبر ربة للغابات والوحوش للماشية ولثمار الأرض، وكان يعتقد بأنها تبارك الرجال والنساء كي ينجبوا، كما تساعد الأمهات عند الوضع وقد قام جيمس فريزر (ملوك الغابة) بتفسير القاعدة الغريبة التي تنظم تعاقب كهنة الربة (ديانا) في (أريشيا) بإيطاليا وهو تقديم تفسير معقول للتقليد الكهنوتي في غابة (نيمي)، حيث تقوم عبادة الربة (ديانا). وكانت الغابة تمثل مملكة (ديانا)، وفيها شجرة تتجسد فيها، وكان من واجب الكاهن حراسة هذه الشجرة.

ولا يجوز كسر أي غصن من أغصانها، ولا يسمح إلا لعبد هارب أن يكسر - إن استطاع - أحد هذه الأغصان، ونجاحه في هذه المحاولة يؤهله لمنازلة الكاهن، فإن تمكّن من قتله فإنه يتولى الحكم مكانه متخذاً لقب (ملك الغابة). - الغصن الذهبي، جيمس فريزر.

وظمآناً، فانتقل من مكانه بحثاً عمّا يأكله ويشربه، وتوغّل في الغابة كثيراً وأخذ يتنقل بحثاً عن طريق تخرجه إلى أهله، وكلّما سار توغّل وابتعد عن المكان الذي فارق فيه أبيه، ولا زال سائراً حتى وجد في طريقه حمامة مجروحة تهدل ومن حولها تجمّعت الطيور، فانحنى لرؤية ما أصابها، فوجد في إحدى جناحيها سهماً صغيراً فاستلّه وأخذ تراباً وردم جرحها وحملها معه فإذا بطيور الغابة تحلّق فوق رأسه مصدرةً أصواتاً متداخلة، وإذا غيّر سيره وقفت بعيدة عنه لا تبرح مكانها، وإذا عاد إلى مكان تحليقهم رفرفوا على رأسه. واصل سيره وفق إرشادهم له، فإذا به يقف على نهر صغير جارٍ، فأسرع بعبّ الماء حتى ارتوى، ثم قام وغسل ونظّف جرح الحمامة وتناول ثمرة إحدى الأشجار وعصرها على الجرح، فإذا بالجرح كأن لم يكن.

وعندما حلّقت الحمامة هبطت على رأسه وكتفيه كلّ الطيور التي غطّت هامته أثناء سيره، كلّ منها ينقم خده ويترك مكانه لطائر آخر. . .

أنس الطفل بالطيور التي حوله وأنست به، وحين تأوي طيور النهار تتكفّل بحمايته طيور الليل، فقد كان يخاف النوم (كان هذا قبل أن يتصادق مع بقية الحيوانات)، فجاء إليه الخفاش[(١)] والبومة وقالا له:

- نم قرير العين فنحن حراسك.

وعاش داخل الغابة يتنقل من مكان إلى مكان، وفي كلّ يوم يكتسب صداقة حيوان أو طير. مضت سنوات وهو يأكل ويشرب داخل الغابة، وفي ذات يوم وبينما كان يتسلق إحدى الأشجار الضخمة سمعها تقول له:

- اطلب من أبيك أن يرد إلي ابنتي.

استغرب حديثها وكيف للشجرة أن تعرف أباه، ولماذا أخذ أبوه ابنتها، فقال لها:

- متى أخذ أبي ابنتك؟

فقالت الشجرة: حين كان يحتطب.

فقال لها: سأعيدها إليك حينما أصل إلى بيتنا.

فقالت له: لقد دعوت الله أن يحرق قلبه بضياع أبنائه، وقد استجاب الله

---

(١) ومن المعتقدات أنّ الخفافيش تهرب في النهار ولا تظهر إلاّ ليلاً هرباً من الدائنين.

لدعوتي لكني حزينة الآن، فانا أتابعك منذ أن وصلت إلى هنا فوجدتك إنساناً طيب القلب، وأدعو الله أن تعود إلى أبيك لتعيد إلي ابنتي.

فقال لها ابن الحطاب: سامحي أبي فهو طيب القلب.

فقالت: لن أسامحه حتى يعيد إلي ابنتي.

وأخذت تبكي فحنّ عليها ابن الحطاب، ونزع بذرة من البذور التي كان يجمعها وقال لها:

- سأبذر لك ابنة أخرى تكون بجوارك.

وكانت البذرة تنمو بسرعة وخلال مدة وجيزة كبرت والتفتت حول أغصان وفروع الشجرة الضخمة التي شكرت ابن الحطاب وأخذت تدعو له بالسلامة والعودة إلى أهله وأن تعود إليها ابنتها.

وقد اقترحت عليه أن يبذر بذوره في المواقع الجدباء، وحكت له قصة انتقالها بأنها كانت تسكن منطقة جدباء تغري الحطابين بارتيادها وعندما لا يجدون أشجاراً يابسة يقتطعون الأشجار الخضراء ويتركون فروعها إلى أن تيبس ثم يبعونها وقالت له:

- أخاف أن تكون هناك شجرة خضراء فتتعرّض لما تعرّضت له ويتعرّض أبناؤهم لما تعرّضت له.

أخذ ابن الحطاب بنصيحتها وخرج خارج الغابة ليبذر بذوره في كلّ منطقة جدباء، وحلّقت الطيور مرتفعةً إلى أعالي السماء وجذبت غيوماً كثيرة فأمطرت على تلك المواقع، فنبتت أزهار وأشجار كثيرة لجأ إليها كثير من الطيور هرباً من ضيق الغابة.

وقد حرص ابن الحطاب على متابعة الأشجار فأي شجرة تشيخ وتتيبس يحملها إلى خارج المنطقة المزروعة. ومع مرور الأيام تواصى الحطابون بالوصول إلى تلك المنطقة لوفرة الحطب فيها والحصول عليه من غير عناء.

وكان ابن الحطاب يخرج يومياً علّه يلمح أباه بين الحطّابين لكنه لم يره أبداً، فظلّ حزيناً يمنّي نفسه برؤية أبيه وأمه.

أما الحطاب فقد أصابه الحزن لفراق ابنه فقرر أن يغادر مدينته إلى مدينة أخرى

لينسى المكان الذي فقد فيه ابنه، ولم يكن يضايقه إلاّ أنين عصاه التي تنوح كلّ يوم باكيةً:

أمي الحنونة

بنتك مسجونة

فيحزن الحطاب لحزنها ويظل يهدهد عليها، قائلاً:

ياعود حزنك موجود

وابني غايب ولا مفقود

فتردّ عليه:

أعود يعود.

فرمى بها في كلّ خلاء ويغيب عنها ليوم أو يومين ويعود فيجدها في مكانها، ويخشى أن يأخذها شخص آخر، فيحملها ويعود بها إلى البيت فتردّد:

أمي الحنونة

بنتك مسجونة

فيشاركه النواح وهو يردّد:

ياعود حزنك موجود

وابني غايب والا مفقود

فتردّ عليه:

أعود يعود.

أما ما كان من أمر الابن، فإنه تفرّغ للزراعة ورعاية الطيور بحراسة بيضها وحماية فراخها ومداواة جريحها، فكان كلّ طائر يطير ويعود إليه بهدية ممّا يجده في طريقه من ذهب أو ألماس حتى تجمّع لديه كنز كبير لكنه لم يكن يقدّر قيمته فلم يتعامل بنقود منذ أن تاه داخل الغابة، فكان يتركه مكشوفاً من غير حراسة.

وذات يوم جاءته قمرية وقالت له:

– نحن نحبك ولا بدّ أن أحدنا يمكنه مساعدتك، فاطلب ما تشاء من أصدقائك الطيور أو الحيوانات.

فأخذ بنصيحتها وسأل الحيوانات جميعها، فكان كلّ حيوان يعتذر بأنه لم يغادر

الغابة ولا يعرف ماذا يفعل الناس وأنّ علاقتهم بهم خوف متبادل. . . وتحدث الذئب وقال له:

- أنا أدخل البيوت وأقتنص أغنام ودجاج الناس فأعطني شيئاً من أثر أبيك وسوف آتي لك بالخبر.

وكان لدى ابن الحطاب شال أبيه لا يزال محتفظاً به يتشمّمه كلّما تذكّر أسرته، فأعطى الذئب ذلك الشال ليتشممه. غاب الذئب لليلتين وبعدها جاء لابن الحطاب وقال له:

- متأكّد أنّ أباك ليس بالمدينة المجاورة للغابة فقد تشمّمت كلّ من بها وليس أثر لرائحة أبيك.

وكان حاضراً الثعلب فقال لابن الحطاب: لن يفيدك بالبحث عن أبيك إلا الطيور فهي تحلّق وتصل إلى البلدان أسرع منا فاستعن بها فهي أفضل من كلّ الحيوانات لتحقيق طلبك.

وقبل أن يتحرك مرّ على الشجرة الضخمة كعادته ليسلّم عليها فقالت له:

- أراك تبحث عن أبيك ونسيت أنّ ابنتي عنده.

فقال لها: سأعيدها إليك عندما أجدها.

فقالت له: لن تستطيع الخروج من الغابة حتى ولو حضر أبوك.

فقال لها: ولماذا؟

فقالت له: فراقكما دعوة دعوتها ولا ينقضها إلاّ إرجاع ابنتي قبل أن يلتقي بك، فإذا أرسلت الطير فأخبر المرسول أن يقول لأبيك عد بالعصا معك ومن غير أن تعود ابنتي لن تخرج من الغابة.

شكرها على نصيحتها وجمع الطيور وأخبرهم بالخبر وسأل: من يقدر على معرفة أين يكون أبي ويحضره إلى هنا مع العصا ابنة الشجرة؟

تعاطفت كلّ الطيور مع طلبه إلاّ أنّ كلاً منها اعتذر لعدم مقدرته على تحقيق رغبته وقبل أن يصاب باليأس رفرف الهدهد وقال له:

- سوف آتي لك به في الحال.

وحلّق الهدهد مبتعداً عن الغابة، وظلّ يتقلّب في الفضاء متنقلاً من مدينة إلى أخرى حتى وصل إلى مدينة الحطاب، وحطّ بالقرب من نافذته وصاح:

العصا محمول

تجد ابنك المفقود.

أنصت الحطاب لما يقول الهدهد، فخرج إليه وقال له:

- ما الخبر يا هدهد سليمان؟

قال له: اتبعني وستجد ابنك، واحمل معك العصا فهي ابنة شجرة عظيمة دعت عليك بالفقد كما أفقدتها ابنتها.

فرح الحطاب كثيراً، ودخل ليبشّر العصا بما سمع من الهدهد فاهتزّت في يده منشرحةً وأخذت تردّد:

أمي الخضراء

قرب اللقاء

وانطلق الحطاب في أثر الهدهد الذي كان يحلّق منخفظاً، ولا زال الحطاب مسافراً من بلد إلى بلد حتى وصل إلى غابة كثيفة الأشجار، أغصانها تلتفت وتمنع سيره وتفسح له المجال حين تسمع صوت العصا:

يا أغصان يا أغصان

أنا عود الخيزران

ولا زال الحطاب يعبر تلك الغابة حتى أوقفه الهدهد على شجرة ضخمة وقال له:

- اغرس العصا في جذع الشجرة.

فاستجاب لأمره وغرس العصا فإذا بها تنمو وتخضرّ وتنمو أوراقها، وسمع «زغاريد» تنبعث من جوف الشجرة الكبيرة وصوت يقول:

كما أعدت حبيبي

عد لحبيبك...

فتحرّك الحطاب في أثر الهدهد الذي حطّ على كتف ابنه قائلاً:

يا أبو الحبيب

هذا هو الحبيب

فارتمى الابن في حضن أبيه وأجهش كلّ واحد منهما في البكاء والسؤال عن الحال والأحوال حتى إذا هدأت لوعة الفراق وأراد الابن مغادرة الغابة مع أبيه

تجمّعت كلّ الحيوانات والطيور لوداعه وأخذ كلٌّ منهم يودّعه ويتمنى له حياة سعيدة بين أبويه، وعندما تحرّكا أوقفهما الهدهد وقال للابن:

– خذ كنوزك التي جمعتها طوال غيبتك.

استغرب الأب أن يكون لابنه كنوز في هذه الغابة، وعندما شاهد كميات الجواهر والألماس المنثورة في الغابة أخذ يلمّ تلك الكنوز وهو يفكّر كيف له أن ينقلها، وعندما تعسّر عليه أن يجد ما ينقل به تلك الكنوز اقترح على ابنه أن يعودا لحملها، إلاّ أنّ اقتراحه قابله اعتراض من الحمام فقالت إحداها: لو غادرتما فلن يستطيع أي منك العودة إلى هنا، فالغابة محروسة لا يدخلها أحد إلاّ مفقود أو عائد والمفقود يعود والغايب لا يعود.

فجاء الهدهد بكيس كبير للغاية وقال لهما: هذا الكيس هدية لكما من الشجرة الضخمة.

تناوله الحطاب وجمع فيه كلّ تلك الكنوز ووضعه على عاتقه وغادر مع ابنه الغابة. وعندما وصلا إلى بيتهما ارتمت الأم على ابنها غير مصدّقة بعودته وظلت تتشممه وتقبله إلى أن هدأ شوقها. وفي اليوم التالي اشترى الحطاب بيتاً جديداً واشتغل هو وابنه بالتجارة فذاع صيتهما وسمع بحكايتهما السلطان فقرّبهما ورغب في تزويج ابنته بابن الحطاب حتى إذا مات انتقل السلطان لابن الحطاب الذي كان يعاقب بقسوة كلّ من يقتطع فرعاً من شجرة خضراء.

رواية عائشة عجيبية

حارس كنز المساكين

كان ياما كان، كان في قديم الزمان فلاح لا يملك من حطام الدنيا إلاّ ثورين وحراثة يستخدمهما لحراثة أرضه وبذرها وانتظار موسم الحصاد والعيش من ثمارها طول السنة.

واستمر ت حياته بهذه الصورة زمناً، وفي سنة من السنوات أُصيبت الأرض بالجفاف ولم يجد شيئاً يقدّمه لأبنائه الذين يتضورون جوعاً أمامه، وحاول تدبّر أمره بالاقتراض أو الهبات إلاّ أنه لم يجد أحداً يلتفت لحالته، واستصعب بيع أحد ثيرانه لكي يشتري منه أكلاً وشرباً لأبنائه، وكانت ابنته الصغرى تواسيه وتصبّره وتخرج إلى البراري تنقب أرضها علّها تجد شيئاً يأكله إخوتها، وفي كل مرة تعود بنوع من الأعشاب تطبخ جزءاً منه وتقدّمه كمرقة وتعجن الجزء الآخر.

ومع الأيام لم يعد إخوتها قادرين على ابتلاع تلك الأعشاب المرّة أو الرشف من مرقها، فساءت صحتهم وأصيب بعضهم بالأمراض، عندها قرر الفلاح بيع أحد الثورين والاستفادة من سعره في شراء الغذاء لأبنائه.

جلب ثوره إلى المجلاب وباعه بثمن بخس واشترى الأطعمة المتنوعة وعاد إلى البيت فتقافز أبناؤه فرحاً بتلك الأطعمة (وأكلوا وشربوا وحمدو الله وصلوا على النبي) وبعد الانتهاء من أكلهم قامت البنت الصغيرة وقالت لأبيها:

- ثمن الثور لن يكفينا إلى نهاية السنة إن أنفقت بهذه الكيفية.

فقام وأعطاها المبلغ المتبقي وطلب منها تدبّر الوضع، فاشترت دقيقاً وسمناً وسكّراً، وكانت تعجن الدقيق وتحلّيه بالسكر وتقدّمه لإخوانها مع جرعات من الماء، وكانت هذه هي وجبتهم الرئيسة إلاّ أنها وجبة أبقتهم في حالة متأرجحة من

الاكتفاء وعبرت بهم شهوراً، ومع انتهاء ثمن الثور عادوا إلى طبخ الأعشاب وشرب مرقتها، فساءت صحتهم من جديد ومع هذا الوضع باع الفلاح ثوره الوحيد المتبقّي لديه ومنح ابنته الصغرى ثمنه لكي تتدبّر الأمر، وقد استطاعت عبور موسم الجفاف، وأخذ الفلاحون يستعدون لبذر أراضيهم ممنّين أنفسهم بموسم أفضل من الذي سبقه، فخرجوا لحراثة أرضهم وبذرها، ولم يستطع الفلاح حرث أرضه وجرّب أن يقوم بالحراثة بيده فوجد أنّ الأمر في غاية الصعوبة فقرّر أن يؤجّر أرضه في ذلك العام لأحد المزارعين ويستفيد من ثمن تأجيرها في تدبّر مأكل ومشرب أبنائه فلم يعد أمامه من حلّ.

استأجر أرضه أحد الفلاحين ونقده ثمناً جيداً داعياً له أن يعوّضه الله خيراً في الموسم المقبل.

حمل الفلاح إيجار الأرض وأعطاه لابنته الصغرى طالباً منها الإنفاق على إخوتها بذلك المبلغ وتدبّر مأكلهم ومشربهم طوال سنة كاملة.

وبينما كان الفلاح المستأجر يقوم بحرث الأرض واستصلاحها ليبدأ ببذرها علق سنّ الحراثة في صخرة وتوقفت الثيران لعدم مقدرتها على السحب، فأحضر الفلاح المستأجر فأساً وانهال على تلك الصخرة ضرباً، وعندما تفلقت ظهرت أسفلها حفرة غائرة بها جرار مليئة بالذهب فانطلق فرحاً إلى بيت صاحب الأرض وقال له:

- أُبشّرك، وجدت بأرضك مجموعة من الجرار وقد ملئت بالذهب، فتعال وخذ كنزك.

استغرب الفلاح صاحب الأرض وردّ: هذه الجرار ليست لي، هي رزقك فقد ظللت أحرث الأرض طوال عمري ولم تظهر، وهي رزقك.

رفض الفلاح المستأجر أن يأخذ شيئاً وأصرّ على أن يذهب ذلك الكنز لصاحب الأرض... واختلفا طويلاً، ومع استمرار اختلافهما قرّرا أن يذهبا إلى سلطان البلد ليحكم بينهما ويقضي لمن تكون جرار الذهب.

وقف الفلاحان أمام السلطان وتحدّث كلّ منهما بحديثه منتظرين حكم السلطان الذي حالما استمع إليهما صاح بهما:

- الجرار الذهبية ليست لكما فهي لي وقد أودعتها في هذه الارض منذ زمن فلا يمسّها أحد.

فامتثلا لأمره وغادرا القصر، فخرج السلطان من حينه ووقف على المكان الذي حدّثه عنه الفلاحان، فوجد جراراً كثيرة وكشف عنها فتقافزت منها الحيّات والعقارب وكاد يتعرّض للدغ، فانطلق هارباً غاضباً من الفلاحين وقال في نفسه: هذان الفلاحان يسخران مني بلا شك ويجب معاقبتهما.

استدعاهما على الفور ولم يرغب في إخبارهما بأنه ذهب إلى هناك، وحالما وقفا أمامه صاح بهما:

- هل تسخران مني بوضع حيات وعقارب داخل الجرار؟

فأنكر كلّ منهما أيّ عمل نُسب إليه وقالا:

- من أخبرك بهذا؟ نحن نتعهد لك بأنّ الجرار المليئة بالذهب لا تزال في مكانها.

فخالجه الشكّ بأنه لم يصل إلى المكان المحدّد وأمر بعضاً من حرسه بالانطلاق مع الفلاحين ليأتيا له بالخبر اليقين.

وقف الحرس والفلاحان على موقع الجرار، وعادوا جميعاً ليؤكّدوا للسلطان أنّ الجرار في مكانها لم تمسّ وإن وجدت بعض الجنيهات متناثرة على الأرض.

استغرب السلطان وأراد أن يذهب مرة أخرى فاستوثق من وصف المكان فوجد أنّ الوصف ينطبق على الموقع الذي ذهب إليه سابقاً، وعندما وصل وكشف على الجرار وجد الحيات والعقارب، فعاد إلى قصره وأرسل حرسه فجاؤوا مؤكّدين بقاء الذهب في مكانه. احتار من الأمر الذي يصادفه وأرسل في طلب الحكماء والسحره ليخبروه بلغز هذه الجرار التي ينقلب ذهبها إلى حيات وعقارب كلما ذهب لرؤيتها بينما يؤكّد له حراسه والفلاحان أنها زاخرة بالذهب.

اصطفّ الحكماء والسحرة ولم يجرؤ أحد منهم على الإجابة، فظلّ السلطان يردّد سؤاله، وحين رأى صمتهم غضب غضباً شديداً وقال لهم:

- إن لم تخبروني فسوف أزجّ بكم في السجن.

فتقدّم كبير الحكماء وطلب الأمان لنفسه لكي يتحدث، فأعطاه السلطان الأمان، فقال:

- اعلم يا سلطان الزمان أنّ الذهب يراه حراسك والفلاحان حقيقة وانقلابه إلى أفاعي وعقارب لأنك تريد أخذه من صاحبه، ولو أصررت على أخذه ستلدغك حية

أو عقرب وتميتك. . . والنصح عندي أن تسعى إلى تسليمه لصاحبه قبل أن يغضب حارس الكنز.

فأخذت السلطان الدهشة وقال:

- من حارس الكنز هذا؟

فقال الحكيم: هذا حارس كنوز المساكين يمنع أيّ يدّ تمتدّ إلى كنوزهم وإن سطا أو تجبّر قادر على أخذ كنزهم المحفوظ تحوّل الحارس إلى ثعبان وتربّص بمن يأخذ الكنز ويلدغه ولا يتركه إلاّ ميتاً.

استخفّ السلطان بمقولة الحكيم وعزم على أخذ جرار الذهب حتى وإن استدعى الأمر قتل الفلاحين، وبعد انفضاض مجلسه من الناس فكّر بالذهاب إلى موقع الجرار وحملها، فقد أعطاه أحد السحرة تعويذة من وقت مبكر وأخبره أنها ستحميه من أيّ مكروه، وأخبره أيضاً إذا كان مقبلاً على مغامرة أو حرب أن يأخذها معه ويردّد بعض الكلمات فتحميه من أيّ مكيدة تدبّر ضده.

اتّجه إلى خزينته لإخراج التعويذة والذهاب إلى الحقل وحمل جرار الذهب، وعندما فتح خزانته كاد يغمى عليه فقد وجد ثعباناً ضخماً ملتفّاً ومتحفّزاً للانقاض، فأغلق الخزينة على الفور وهو يلهث من شدة الخوف، وقبل أن ترتد إليه أنفاسه كان الثعبان يلتف حول ساقيه، فأخذ ينادي على الحراس فلا يسمع صوته، وسمع الثعبان يخاطبه:

- هذا تحذير فإن لم تعطِ الكنز لصاحبه ستكون الزيارة القادمة لإزهاق روحك.

وانسلّ الثعبان مخترقاً جدران المجلس وغاب عن عيني السلطان الذي نهض واستعاد أنفاسه، ونادى على حرّاسه بإحضار الحكماء الفلاحين.

ومع مثولهم بين يديه، اصطفّ الحكماء على يمين السلطان بينما وقف الفلاحان في مواجهته مباشرة وقال لهما:

- أعيدا قصتكما ليسمع الحكماء ويحكمون لمن تكون جرار الذهب.

أعاد كلٌّ منهما الحكاية وطلب السلطان من الحكماء إصدار حكمهم، فقال بعضهم:

- الجرار من نصيب صاحب الأرض فهي من أصل الأرض وليس للمستاجر من فضل إلاّ العثور عليها ويمكن إرضاءه بإعطائه مبلغاً من المال.

فقام صاحب الأرض معترضاً على الحكم وقال:

- ظللت في الأرض عشرات السنوات ولو كانت من نصيبي لوجدتها ولكن هي من نصيب المستأجر.

فعارضه الفلاح المستأجر مقسماً أن لا يأخذ شيئاً من الذهب.

فاستغرب السلطان من هذين الفلاحين اللذين يتدافعان حجّةً بحجّة من أجل أن لا يأخذا الكنز، ونظر إليهما قائلاً:

- أُكبر فيكما هذا الزهد من «وسخ» الدنيا إلاّ أنّ هذا الكنز لا بدّ وأن يذهب لواحدٍ منكما فهو محروس ولن يصل إليه إلاّ صاحبه.

ومع كلام السلطان ظلّ كلّ منهما مصرّاً على رفض الكنز، فطلب كبير الحكماء أن يفصل بينهما فسمح له السلطان، فقال لهما:

- ما دام كلٌّ منكما يؤثر صاحبه على نفسه فالرأي عندي أن يزوّج أيّ منكما ابنه بابنة الآخر ويذهب الكنز إلى الزوجين.

فقال الفلاح المستأجر: لم أُرزق إلا بابن وحيد.

فردّ عليه الفلاح صاحب الأرض: وأنا قبلت بتزويجه ابنتي الصغرى فلن يجد خيراً منها.

وأعلن موعد زفافهما وحضره السلطان ووزراؤه والحكماء، وذهبت ليلة ظلّت البلد تتحدث عنها لسنوات طويلة.

أما جرار الذهب فقد تمّ إخراجها وترك الأبوان الزراعة وانشغلا بالتجارة ففاضت أرباحهما وأصبحا من التجار الكبار.

رواية عائشة عجيبية

أمراء القصر الزجاجي

كان ياما كان، كان هناك ملك من الملوك كلّما حملت زوجته سقط الجنين قبل أن يكتمل. تزوّج عشرات النساء، وكانت كلّ زوجة منهن لا تكمل حملها، وكان يتوق لأن يكون له ولد يرث مملكته وحكمه.

وحينما وجد أنّ مصير زوجاته عدم إكمال حملهن طلب من المنجمين والكهان معرفة حظه، وكلما تقدّم أحدهم عجز عن كشف حجب الغيب واعتذر من الملك بأنّ طالعه لا يبين، فازدادت حيرة الملك وخشيته من قابل الأيام، وشعر بالوحدة تتّسع والحزن يأكل قلبه، ولم يعد يظهر كثيراً ولا يخالط جلسائه واكتفى بسماع أخبار البلد من خلال وزيره الذي أوكل إليه مهمة تسيير شؤون البلاد والعباد.

سمع الشعب بما حلّ بملكهم فحزنوا له أشدّ الحزن، ودعوا الله أن يفرّج همّه وكربه.

وطار خبر احتجاب الملك في الآفاق فسمع أحد الكهّان[1] المهرة بأسباب ذلك الاحتجاب، فحزم أمره على الإتيان للملك والكشف له عما تخبئه له الأيام.

---

(١) الكهانة فعالة مأخوذة من التكهن، وهو التخرص والتماس الحقيقة بأمور لا أساس لها، وكانت في الجاهلية صنعة لأقوام تتصل بهم الشياطين وتسترقّ السمع من السماء وتحدثهم به، ثم يأخذون الكلمة التي نقلت إليهم من السماء بواسطة هؤلاء الشياطين ويضيفون إليها ما يضيفون من القول، ثم يحدّثون بها الناس، فإذا وقع الشيء مطابقاً لما قالوا: اغترّ بهم الناس واتّخذوهم مرجعاً في الحكم بينهم، وفي استنتاج ما يكون في المستقبل، ولهذا نقول: الكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. والذي يأتي إلى الكاهن ينقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله من غير أن يصدّقه فهذا محرّم، وعقوبة فاعله أن لا تقبل له صلاة أربعين يوماً، كما ثبت في صحيح مسلم أنّ النبي صلى الله عليه =

وصل الكاهن واستأذن في رؤية الملك محمّلاً الحارس خبر معرفة كشف الحجب، وعندما سمع الملك بهذا المنجّم سمح له بالدخول واستقبله متلهّفاً سائلاً عمّا يحمله له من أخبار، فقال المنجّم:

- يا ملك الزمان نجمك مختبئ خلف سحب كثيفة لا يبين منه إلاّ القليل، والقليل هذا علمت منه أنك سترزق بثلاثة أبناء، ولكي يبقوا على قيد الحياة عليك إبقاؤهم داخل بيت زجاجي لا يخرجون منه حتى يكبروا.

فرح الملك بهذه الأخبار وخلع على المنجّم الهبات والهدايا وعرف منه طريقة إبقاء حمل زوجاته من غير إسقاط بتركهن داخل غرفة زجاجية حتى إذا ولدت الواحدة منهن يتمّ إخراجها وإبقاء مولودها داخل تلك الغرفة الزجاجية إلى أن يكبر.

نفّذ الملك الطريقة التي أخبره بها المنجم وكم كانت سعادته عندما رُزق بأول

= وسلم قال: «من أتى عرّافاً فسأله لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً أو أربعين ليلة». القسم الثاني: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله ويصدّقه بما أخبر به، فهذا كفر بالله عزّ وجلّ لأنه صدّقه في دعوى علمه الغيب، وتصديق البشري دعوى علم الغيب تكذيب لقول الله تعالى: ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «من أتى كاهناً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم». القسم الثالث: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله ليبين حاله للناس، وإنها كهانة وتمويه وتضليل، وهذا لا بأس به ودليل ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أتاه ابن صياد، فأضمر له النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً في نفسه، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم ماذا خبأ له؟ فقال: «الدخ» يريد الدخان. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اخسأ فلن تعدو قدرك». (مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد صالح العثيمين، المجلد الثاني).

وقد اشتهر كثير من الكهان، وقد يكون شق بن أنمار من أشهرهم، وهو كاهن جاهلي خرافي يعلم ما حلّ ومادق أنه يولد في قبائل تميم ابن عم ليس له مفصل ولا عظم يخرج ممسوخاً ثم تموت أمه لسبع ليال وينبئ أيّ شق بالزيادة والنقصان إلى فراغ الحق والزمان. وبعد أن ماتت أمه لسبع ليال أتوه بطريفة) وطريفة كاهنة جاهلية) ففتحت فمه ونفثت فيه وقالت: لا تسقوه لبن امرأة إلى بلوغه ثم قالت : أنت خليفتي من بعدي. وقيل: «كان الشق بن انمار بن نزار، هذا شق إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة، وكذلك كانوا يعتقدون فيما يماثله وهو سطيح بن مازن بن غسان»، وقالوا إنهما كانا شخصين بلا رأس ولا عنق وكانا من أشهر الكهنة الجاهليين وإنّ كسرى استدعاهما ليفسرا له رؤياه. كما أنهم تصوروا شقّاً نصف آدمي ونسبوا إليه بأنه أول من تنبأ بوقوع غزو الحبشة لليمن وظهور الملك سيف بن ذي يزن الحميري. (موسوعة الفلوكلور والأساطير - شوقي عبدالحكيم)

مولود وتتابعت نبوءة المنجم بثلاثة أبناء عاشوا داخل قصر زجاجي مفرغ من كلّ شيء ولا يدخل عليهم إلاّ والدهم والمرأة التي كانت تقدّم لهم الأكل والشرب، وكان أكلهم مكوّناً من بيض لا قشر له ولحم لا عظم له ولبن لا دسم فيه وفاكهة لا ورق لها.

كبر الأمراء الثلاثة في ذلك القصر وهم لا يعرفون شيئاً من أمور الدنيا إلاّ من خلال ما يوصله لهم أبوهم أو خادمتهم.

وذات يوم دخلت عليهم خادمة جديدة فاستغربوا من مقدمها فأخبرتهم أنّ خادمتهم السابقة ماتت وأنها البديلة لها وستكون مسئولة عن خدمتهم وتلبية احتياجاتهم، واستشعروا أنها تختلف كثيراً عن خادمتهم التي ماتت، ومع أول وجبة أحضرتها كانت مختلفة عما ألفوا عليه فقد أحضرت لهم بيضاً بقشره ولحماً بعظمه ولبناً بدسمه وفاكهة بأوراقها.

فقالوا لها: خادمتنا السابقة كانت تحضر لنا بيضاً لا قشر له ولحماً لا عظم له ولبناً لا دسم فيه وفاكهة لا ورق لها، فلماذا اختلف أكلنا؟

فقالت لهم: تقشير البيض يسلّيكم وعظم اللحم يجعلكم تتنبهون لما تأكلون ودسم اللبن يروي بشرتكم وأوراق الفواكهة تكشف لكم الفرق بين المفيد وغير المفيد.

فشكروا لها نصيحتها، وكان أصغرهم يجمع العظم ويجفّفه ويصنع منه أشكالاً مختلفة، ومع مرور الأيام أخذوا يتبادلون العظام ويخترعون ألعاباً بها، وفي إحدى الألعاب تقاذفوا عظمة كبيرة فسقطت على واجهة زجاجية وهشّمتها وتركت فجوة كبيرة، ومن خلالها شاهدوا ما هو خارج قصرهم الزجاجي لأول مرة، فأخذتهم الدهشة، واكتشفوا عالماً جديداً غير الذي عاشوه وأناساً غير أبوهم والخادمة، وظلّوا أمام تلك الفجوة إلى أن حضرت خادمتهم ورأت ما أحدثوه، وكانت خادمة حكيمة فقالت لهم:

- الآن اكتشفتم أنّ هناك عالم أخر غير هذا المكان الذي عشتم فيه زمناً طويلاً فتعلّموا مما تشاهدون.

وكان الأمراء يومياً يتعلمون ويكتشفون شيئاً جديداً، وذات يوم قالوا لأبيهم: لماذا تركتنا هنا وكأننا مساجين؟

فقال لهم: لم أكن أريد ذلك ولكن كان شرطاً لكي تبقوا أحياء أن تبقوا داخل هذا القصر الزجاجي.

وقصّ لهم قصة ولادتهم وكيف أنّ أحد المنجّمين أوصاه بهذه الطريقة لكي يبقيهم أحياء.

فقالوا له: والآن إن كنّا نساء نريد أن نتزوج وإن كنّا رجالاً نريد أن نتزوج وإن كنّا زرعا نريد أن نُحصد وإن كنّا تراباً نريد أن نُردم.

فقال لهم: أنتم رجال وإذا أردتم الزواج فسوف أصدر أمراً يقضي بمرور فتيات البلاد من أسفل نافذتكم والفتاة التي تعجب أحدكم فليرمي عليها شاله.

تناقل الناس أنّ الأمراء الثلاثة سوف يختارون زوجاتهم من خلال عرض، فتزيّنت كلّ فتاة وحلمت أن تصبح أميرة تعيش في قصر الملك.

وفي يوم العرض اصطفت الفتيات وبدأن السير من أمام النافذة التي يجلس بها الأمراء الثلاثة، وفي سيرهن رمى الأمير الأوسط شاله على واحدة فدقّت الطبول وارتفعت الزغاريد وأعلن الملك خطبتها لابنه الأوسط، ثم قذف الأمير الأكبر شاله على فتاة أخرى، فدقّت الطبول وارتفعت الزغاريد وأعلن الملك خطبتها لابنه الاكبر، وظلّ الأمير الأصغر ممسكاً بشاله ولم يقذفه على أيّ فتاة ممن سرن في العرض، فاستغرب الملك وقال في نفسه: ربما لم يتمكن من رؤية الفتاة المناسبة له بسبب سرعة سيرهن، لذلك طلب من الفتيات إعادة العرض والسير مرة أخرى، وكانت في العرض فتاة جميلة إلاّ أنها كانت تسير مسربلةً ثيابها بحيث لا تُرى أطرافها السفلية، فقذف الأمير الصغير شاله عليها، فدقّت الطبول وارتفعت الزغاريد وأعلن الملك خطبتها لابنه الأصغر.

وتمّ تحديد ليلة العرس، وزفّ الأمراء كلّ واحد منهم على عروسه، وفي صباح اليوم التالي كان الملك يجلس في بلاط حكمه منتظراً مقدم أبنائه للسلام عليه، حضر الأميرين الأكبر والأوسط وتغيّب الأمير الأصغر، وانتظروا خروجه ليومين وحينما لم يخرج ذهب الملك لتفقّد ابنه الأصغر ولم يستطع دخول غرفته فحاول فتح بابها ولم يستطع، فأخذ يبحث عن كوة تمكّنه من رؤية ما يحدث داخل غرفة ابنه الأصغر، وقد هالة ما رأى، إذ كان ابنه مقذوفاً على الأرض وفوق صدره

صخرة كبيرة كلّما حاول رفعها صفعته غولة ضخمة على وجهه وصاحت به: اقترب موعد اجتماع الغيلان لسحق مملكة أبيك وأكلكم جميعاً.

فيقول لها الأمير الصغير: أتفعلين هذا بزوجك؟

فتردّ عليه: كنت وسيلتي لإخراج أهلي من سجنهم الأبدي وسوف نسحق عظامكم يا بني البشر، تبقّت ليالٍ ويكتمل فيها البدر ويتخلّص كلّ الغيلان والسعالي من حبسهم، عندها ستكون أنت أول من نأكل لحمك ونمصمص عظامك، وبعد ذلك نكمل على بقية سكان المدينة.

ارتعب الملك مما يرى، وانسحب مسرعاً وأصدر امره للمنادي أن ينادي على شعبه بمغادرة البلاد قبل ظهور الغيلان والسعالي وأكل الكبير قبل الصغير.

وانتشر الخبر بسرعة البرق، وحمل الناس كلّ غالٍ وثمين وغادروا المدينة بمن فيهم الملك وولداه، فرغت المدينة من كلّ حي ولم يتبقَّ إلاّ الأمير الصغير رابضا تحت تلك الصخرة تحرسه الغولة وتنتظر اكتمال البدر وخروج بقية الغيلان والسعالي.

أخذ الأمير يستعطف الغولة لتركه يتغوّط خارجاً، وبعد استرحام متواصل سمحت له بالخروج وحذّرته من مغبة الهرب وقالت له:

- إيّاك والهرب واعلم لو أنك لو سرت لمدة سنة كاملة فأنا أقطع هذه المسافة في يوم واحد.

أبدى الأمير ضعفاً وعدم مقدرة على السير وخاطبها قائلاً:

- أنا لا أستطيع الحركة، فكيف الهرب؟

فسمحت له بالخروج، وعندما خرج وجد أنّ المدينة فارغة وليس بها من أحد، فتّش القصر بحثاً عن أبيه وعن إخوته وعن الخدم وعن الحرس فلم يجد أحداً فتوجّه إلى إسطبل الخيول فوجد فرساً هرمة فكّر في امتطائها والهرب، وعندما فعل قالت الفرس:

- أنا فرس هرمة ولو كان في مقدوري الحركة لهربت مع من هرب ولو أنك استخدمتني في هربك فسوف تلحق بنا الغولة وتأكلني وتأكلك فاعذرني ولا تعرّض حياتي للخطر.

نزل الأمير الصغير من على ظهرها وقرّر الهرب متخفياً بالأشجار والصخور وعندما رأت الفرس عزيمته على مغادرة البلاد لحقت به وقالت له:

- سوف أساعدك بطريقة أخرى.

فرح الأمير لقولها واستمع إليها فقالت له:

- شقّ بطني فستخرج لك مهرة شابة وسريعة.(١)

---

(١) حديث البهائم والدواب والطير من الأمور المعتادة في القصّ الشعبي، وحديث الطير والحيوان ليس مجرّد حكاية بل واقع حقيقي، فالمسلم يؤمن بأنّ الهدهد خاطب النبي سليمان، ويؤمن أيضاً أنّ آخر الزمان ستظهر دابة تخرج على الناس، وقد جاء قول الله عزّ وجلّ مؤكداً خروجها: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِآيَٰتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾ - سورة النمل.
أما عن مكان خروجها فقد ذكر الطبراني في الأوسط عن حذيفة بنّ أسيد قال: «تخرج الدابة من أعظم المساجد، فبينا هم إذ دبّت الأرض، فبينا هم كذلك إذ تصدعت» أي أنها تخرج من مكة المكرمة. وهناك من يخصص أنها تخرج من المسعى ويقال إنّ لها ثلاث خرجات، فمرة في البوادي ثم تختفي، ثم تخرج في بعض القرى، ثم تظهر في المسجد الحرام.
والدابة من العلامات الكبرى ليوم القيامة، ومخاطبتها البشر يأتي في آخر الزمان. وقد تفرّع العلماء في تفسير الجملة التي تنطق بها (أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِآيَٰتِنَا لاَ يُوقِنُونَ) وهذا على قراءة من قرأها بفتح همزة (إنّ) أي تخبرهم أنّ الناس كانوا بآيات الله لا يوقنون، وهذه قراءة الكوفة وبعض أهل البصرة. وأما قراءة عامة قراء الحجاز والبصرة والشام فبكسر همزة (إنّ) على الاستئناف ويكون المعنى: تكلمهم بما يسوؤهم أو ببطلان الأديان سوى الإسلام.
ويقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «وقع القول يكون بموت العلماء وذهاب العلم ورفع القرآن» ثم قال: «أكثروا من قراءة القرآن قبل أن يرفع. قالوا: هذه المصاحف ترفع، فكيف بما في صدور الرجال؟! قال: يُسرى عليه ليلاً فيصبحون منه قفراً، وينسون «لا إله إلا الله» ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم وذلك حين يقع عليهم القول». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجّال، ودابة الأرض» - رواه مسلم. وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله صلى الله عليهم وسلم يقول: «إنّ أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا» - رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تخرج الدابة ومعها عصا موسى عليه السلام وخاتم سليمان عليه السلام، فتخطم الكافر -أي تسمه- بالخاتم، وتجلو وجه المؤمن بالعصا حتى إنّ =

فشقّ بطنها فخرجت مهره تصهل وتحمحم وسكتت عندما سمعت الفرس تقول:

- لو سمعت الغولة صوتك فستخرج وتأكلك قبل أن تنطلقي.

امتطى الأمير ظهر المهرة، وقبل أن ينطلق ناولته الفرس ثلاث عقد: عقدة حمراء وعقدة سوداء وعقدة زرقاء وقالت للأمير:

= أهل الخوان ليجتمعون على خوانهم فيقول هذا: يا مؤمن! ويقول هذا: يا كافر!» - رواه أحمد والترمذي.

ويؤكّد الأستاذ الدكتور محمد عبد الغفار الشريف اختلاف الأقوال في تعيين دابة الأرض من خلال أربعة أقوال، فالقرطبي يذهب إلى أنّ الدابة هي فصيل ناقة صالح، واستشهد لهذا القول بما رواه أبو داود الطيالسي عن حذيفة بن أسيد قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة... فذكر الحديث وفيه «لم يرعهم إلاّ وهي ترغو بين الركن والمقام» وموضع الشاهد قوله «ترغو»، والرغاء إنما هو للإبل، وذلك أنّ الفصيل لما قتلت الناقة هرب، فانفتح له حجر، فدخل في جوفه ثم انطبق عليه فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عزّ وجلّ. وترجيح القرطبي لهذا القول فيه نظر، لأنّ الحديث الذي استند إليه في سنده رجل متروك، وكذلك جاء في بعض كتب الحديث لفظ «تدنو» و«تربو» بدلاً من «ترغو» كما في المستدرك للحاكم. القول الثاني: أنها الجساسة المذكورة في حديث تميم الداري رضي الله عنه في قصة الدجال. وهذا القول منسوب إلى عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وليس في حديث تميم ما يدل على أن الجساسة هي الدابة التي تخرج آخر الزمان، وإنما الذي جاء فيه أنه لقي دابة أهلب كثيرة الشعر فسألها: ما أنت؟ قالت: أنا الجساسة (وسميت بالجساسة لأنها تجسّ الأخبار للدجال). القول الثالث: أنها الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعتها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة. وهذا القول نسبه القرطبي إلى ابن عباس رضي الله عنهما منقول من كتاب النقاش، ولم يذكر له مستنداً في ذلك وذكره الشوكاني في تفسيره. القول الرابع: أنّ الدابة إنسان متكلم يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم، لينقطعوا، فيهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيٍّ عن بيّنة. وهذا القول ذكره القرطبي، ورده بأنّ الدابة لو كانت إنساناً يناظر المبتدعة لم تكن الدابة آية خارقة وعلامة من علامات الساعة الكبرى. والذي يجب الإيمان به هو أنّ الله تعالى سيخرج للناس في آخر الزمان دابة من الأرض تكلمهم، فيكون تكليمها آية لهم، وأنهم مستحقون للوعيد بتكذيبهم آيات الله، فإذا خرجت فهم الناس وعلموا أنها الخارقة المنبئة باقتراب الساعة، والذي يؤيد أنّ هذه الدابة تنطق وتخاطب الناس بكلام يسمعونه ويفهمونه هو أنه جاء ذكرها في سورة النمل، وهذه السورة فيها مشاهد وأحاديث بين طائفة من الحشرات والطير والجن وسليمان عليه السلام فجاء ذكر الدابة وتكليمها الناس متناسقاً مع مشاهد السورة وجوها العام.

– لو أنّ الغولة تنبهت لهربك وانطلقت خلفك احلل عقدة من عقدك وأرمي بها في طريقها.

تناول الأمير الثلاث العقد وشكر الفرس على حسن صنيعها معه وانطلق بالمهرة يسابق الريح.

أحسّت الغولة بتأخر الأمير فخرجت لاستكشاف الأمر فلم تشم رائحته في المدينة وعلمت أنه هرب، ففار غضبها وانطلقت في أثره تحدّث نفسها:

– لم تتبقَّ إلاّ ليلتين ويخرج أهلي من الحبس وهذا الأمير السافل يريد أن يُعطّل خروجهم بهربه.

وانطلقت خلفه وكانت المهرة تمتلك نصف مقدرة ركض الغولة، فما أن ابتعدت عن المدينة حتى تباطأت في مشيتها، وكانت الغولة تقطع المسافات صائحةً:

يا آكل العود

فين حتسود

وعندما سمع الأمير صوت الغولة استعدّ وتناول العقدة السوداء وعندما اقتربت الغولة رماها في طريقها فنبتت غابات من الأشواك حالت بينه وبين الغولة التي انشغلت بقصصة الشوك فيما انطلق الأمير بمهرته بعيداً.

وكانت الغولة تقصقص الشوك غاضبةً وتصيح:

ياشوك ياشوك

ابعد عن طريق الشوق

حصدت الغولة الأشواك خلال شهر كامل وانطلقت في أثر الأمير وهي تردّد:

حارب حارب

الأمير هارب

استشعر الأمير أنفاسها اللاهثة تقترب منه فأخرج العقدة الحمراء ورمى بها في طريق الغولة، فاشتعلت النيران من خلف الأمير ويمينه ويساره، وكلما أرادت الغولة اجتياز تلك النيران تراجعت، فكانت تجتث تراب الارض وتلقيه على ألسنة النيران المشتعلة وهي تردّد بغضب:

بعد الهرب شوك ونار

وفي القلب للأمير إعصار

وظلت لشهر وهي تطفىء النيران بحثو التراب عليها حتى إذا انطفأت تطاير شرر عينيها وانطلقت في أثر الأمير بغضب مضاعف وهي تصيح:

حارب حارب

الأمير هارب

وحين اقتربت من الأمير لم يعد معه إلاّ العقدة الزرقاء، فحلّ العقدة وقذف بها في طريق الغولة، ففارت المياه من باطن الأرض وأخرجت سبعة بحور لم تستطع الغولة اجتيازها فغرقت وهي تردّد:

حارب حارب

الأمير هارب

أيقن الأمير من غرق الغولة في البحور السبعة، فترجّل عن مهرته، واستظلّ تحت شجرة ليأكل ويشرب، وكانت على إحدى أغصان الشجرة بومة قد استكانت في مكانها وعيناها المتسعتان تتطلعان إلى الأمير فتطيّر منها وهشّها بيده فلم تتحرك فتناول حصى صغيرة وقذفها به فطارت بعد أن سقطت ريشة ذات ألوان زاهية جميلة. استغرب الأمير أن تكون الريشة للبومة فأخذ يتفحّصها فوجد بها جملة: من يأخذني يندم ومن يتركني يندم.

احتار الامير في تلك الريشة وشرطها الغريب العجيب، وكان يفكّر أن يتركها ويمضي بحثاً عن أبيه وأخوته وبقية شعبه، إلاّ أنه تراجع وقال في نفسه: إن تركتها ندمت وإن أخذتها ندمت، فلآخذها وأندم خير من أن أتركها وأندم.

حمل الريشة وانطلق مسافراً، ولا زال يقطع البراري والسهول ويصعد الجبال ويجتاز الصحاري حتى وصل إلى مدينة كبيرة أهلها مستبشرين فرحين، فاختار مكاناً حفّت به الأشجار وجرت فيه المياه وأنزل زوّادته، وبعد أن أكل وشرب أخرج الريشة التي معه متفكّراً بالجملة المكتوبة عليها، وبينما هو يقلّبها بين يديه خرج منها غناء جذب كلّ من سمعه، وأخذ الناس يصغون إلى ذلك الغناء الشجي وهم لا يعرفون مصدراً له، وممّن سمع الغناء ملك تلك البلاد فأخذته النشوة وسأل: من هذا الذي يغنّي؟

فلم يجد حرسه جواباً على سؤاله، فأصرّ على معرفة صاحب ذلك الصوت وأرسل حرسه للبحث عنه.

انطلق الحرس في كلّ مكان بحثاً عن مصدر الغناء، ولا زالوا في بحثهم إلى أن قادهم الصوت إلى مصدره، فوجدوا شابا يمسك بريشه تصدر أنغاما وغناء فحملوه إلى الملك وسأله:

- هل أنت صاحب هذا الصوت الجميل؟

فقال الأمير: لا يا سيدي إنما هذه الريشة التي أحملها.

تناول الملك الريشة وقلّبها بين يديه وأعجبه منظرها وشكلها ولم يلاحظ الجملة المكتوبة عليها، وبعد أن انتهى من تقليبها أراد التأكد من صدق الأمير فقال:

- غنِّ يا ريشة.

فردّت الريشة: لا أُغنّي حتى تردوا إليّ طيري؟

فقال لها الملك: وأين طيرك؟

فقالت الريشة: من حملني يعرف مكان طيري.

التفت الملك إلى الأمير وقال له: أين طيرها؟

فقال الأمير: لا اعرف أين طيرها.

وقصّ على الملك قصة الريشة إلاّ أنّ الملك لم يقتنع وظنّ أنّ الأمير لا يريد إسماعه ذلك الصوت الشجي مرة أخرى، فمنحه مهلة للعودة بالطير وإلاّ أمر سيّافه بقطع رأسه.

خرج الأمير من قصر الملك حزيناً يفكّر كيف يجد طائراً لا يعرف عنه شيئاً وأيقن من موته بعد انقضاء المدة، وبينما هو يسير على تلك الحال فاق على صوت مهرته تسلي عليه وتخاطبه:

- لقد نجوت من غيلان وسعالي ومثلك لا يحزن من شيء قادم.

استغرب حديثها فقالت له: كيف تستغرب وأنا قد خرجت من بطن فرس عجوز هي التي حدّثتك وأشارت لك بشقّ بطنها لأخرج إليك؟

وأخذت تهوّن عليه حزنه وتطلب منه أن يحكي لها سبب حزنه، فأخبرها بما حدث في بلاط الملك فقالت له:

- لا تحزن فهذا أمر هيّن.

فردّ عليها: كيف يكون كذلك وأنا لا أعرف الطير صاحب الريشة.

فقالت له المهرة: عد إلى الملك واطلب منه أن يعطيك الريشة لتقارن بها بين الطيور وتعرف صاحبها.

عاد الأمير إلى الملك وطلب منه أن يعيد إليه الريشة لكي يقارن لونها وشكلها ببقية ريش الطيور، وطلب معها قفصاً وحبة سوداء فقال له الملك:

- لا تظن أنك تخدعني وسوف أعطيك الريشة لكنّ حرسي لن يتركوك للحظة واحدة.

وأمر حرسة بإعطائه القفص وكيلة من الحبة السوداء والريشة. حمل الأمير ما تمّ تزويده به وخرج، فاستقبلته المهرة وقالت له:

- لنخرج إلى البرية وهناك ضع حبة السوداء داخل القفص وحرّك الريشة في كلّ الاتجاهات فصاحب الريشة يبحث عن ريشته وإذا رأيت طائراً مقبلاً نحوك فضع الريشة داخل القفص وإذا دخل الطائر القفص فأغلقه واحمله إلى الملك.

نفّذ الأمير قول المهرة حرفياً، وكان يدور بالريشة في كلّ الاتجاهات، وما هي إلاّ لحظات حتى لمح قمرية جميلة تحلّق على رأسه وحين اقتربت أكثر وضع الأمير الريشة داخل القفص، فهبطت القمرية ودخلت لتأخذ الريشة فأسرع الأمير بإغلاق القفص وحمله إلى الملك قبل انتهاء الموعد.

فرح الملك وجمع خاصته ليسمعهم أجمل صوت غنى، وعندما اجتمع الجميع تناول الملك الريشة وقال لها: غنِّ!

فقالت الريشة: لا أغنّي حتى يغنّي طيري.

فالتفت الملك إلى القمرية وقال لها: غنِّ!

فقالت القمرية: لا أغنّي حتى يغنّي وليفي.

فقال لها الملك: وأين وليفك؟

فقالت له: الذي جلب الريشة وجلبني يقدر على جلبه.

فالتفت الملك إلى الأمير الشاب وقال له:

- عليك أن تجلب وليف القمرية وإلاّ قطعت رأسك.

خرج الأمير أكثر حزناً مما كانت عليه حاله قبل الحصول على القمرية فاستقبلته المهرة مهوّنةً عليه الأمر وقالت له: لا تحزن فكلّ أمر وله حلّ.

فقال لها: وكيف أجد وليف القمرية؟

فقالت له المهرة: عد إلى الملك واطلب منه أن يعطيك ثلاث عربات، عربة بها ملابس نساء وعربة بها ملابس رجال وعربة بها ملابس أطفال وعد إلي أخبرك ماذا تصنع.

عاد الأمير إلى الملك وطلب منه ما أخبرته به المهرة، فاستغرب الملك طلباته إلاّ أنه أمر بإعطائه ما طلب، مؤكّداً أنّ المهلة لن تزيد عن ثلاثة أيام وإلاّ قطع رأسه. انحنى الأمير أمام الملك واستأذنه بالخروج وقاد العربات الثلاث حتى وصل إلى المهرة التي قالت له:

- اذهب الآن إلى السوق واعرض بيع الملابس بثمن بخس واشترط أنّ الذي يريد الشراء بذلك السعر أن يشتري كلّ العربات الثلاث بما تحمله دفعة واحدة.

وعندما نظر إليها الأمير مستغرباً حديثها سألها: ما فائدة كلّ هذا في جلب وليف القمرية؟

فقالت له المهرة: سوف يتجمّع حولك الراغبون في الشراء وإن حضر وليف القمرية سوف أشير لك إليه فأمسك به ونادِ على الحراس ليحملوه إلى الملك.

فضحك الأمير وقال لها: أنا أبحث عن طائر وأنت تقولين سيأتي رجل.

فقالت له المهرة: القمرية مسحورة وزوجها يبحث عنها وعن ولدها.

ثم أنهت قولها له:

- اسمع ما أشير به إليك ونفّذه حرفياً.

تحرّك الأمير بالعربات الثلاث إلى السوق وأخذ ينادي على بضاعته وكلّ من سمع بالسعر أقل من أجل أن يشتري شيئاً من تلك الملابس الفاخرة لكن تراجع الجميع أمام شرط شراء العربات الثلاث وكل واحد منهم يقول: وما حاجتي بكلّ هذه الملبوسات؟ وحاول البعض أن يثنيه عن شرطه لكنّ الأمير أصرّ على بيعها دفعة واحدة، وانتهى اليوم ولم يحضر أحد لشراء العربات الثلاث، وقد تناقل الناس خبر تلك الملابس الفاخرة والكثيرة والتي يشترط صاحبها بيعها دفعة واحدة وطار خبرها بين التجار، ومضى اليوم الثاني ولم يقبل أحد ولم يعد هناك متّسع من الوقت، فالمهلة المعطاة للأمير ثلاثة أيام وإلاّ قطع رأسه.

فكانت المهرة تهوّن على الأمير وتقول له:

- بقي يوم فلا تحزن وادعُ ربك أن يُسهّل أمرك فمن دعا الله ولجأ إليه لا يُردُّ خائباً أبداً.

وفي صباح اليوم الثالث حضر الأمير إلى السوق مبكراً وتجمّع حوله التجار والكلّ يريد منه أن يتنازل عن شرطه، وفيما هم يحاولون ذلك ظهر رجل ملثّم واخترق الصفوف راغباً في شراء الثلاث عربات دفعة واحدة، فأشارت المهرة إلى الأمير أنّ الرجل الملثّم هو المقصود، فجذبه وصاح بالحرس المتواجدين في السوق:

- هذا الرجل يبحث عنه الملك من زمن طويل فساعدوني على القبض عليه.

تحرّك الحرس وقبضوا على الرجل الملثّم وقادوه إلى مجلس الملك وتقدّم الأمير قائلاً:

- هذا هو وليف القمرية يا سيدي.

فأمسك الملك بالريشة وقال لها:

- غنِّ!

فقالت الريشة: لا أغنّي حتى يغنّي طيري.

فالتفت الملك إلى القمرية وقال لها:

- غنِّ!

فقالت القمرية: لا أغنّي حتى يغنّي وليفي.

فقال الملك للرجل الملثّم: غنِّ يا وليفها.

فقال الرجل الملثّم: لا أغنّي حتى أجد خاتمي.

فقال له: وأين خاتمك؟

فقال الرجل الملثّم: الذي جلب الريشة وجلب زوجتي وجلبني قادر على الإتيان بخاتمي.

فالتفت الملك إلى الشاب وقال له:

- ليس لك من مخرج إلاّ أن تأتي بخاتم هذا الرجل وأمامك مهلة ثلاثة أيام أو العقاب الذي تعرفه وهو قطع رأسك.

فخرج الأمير أكثر حزناً وهو يردّد: هذه الريشة اللعينة لو تركتها في مكانها لما ندمت كما أنا عليه من ندم الآن.

استقبلته المهرة وهو على تلك الحالة وأخذت تهوّن عليه وقالت له:

- لقد مررت بصعاب كبيرة وهذا الطلب يهون أمام كلّ المصاعب التي مررت بها. عليك الآن أن تعود إلى الملك وتطلب منه إعطاءك سفينتين مليئتين باللحم وعندما تحصل عليها عد إلي أخبرك ماذا تصنع.

عاد الأمير الى الملك وطلب منه سفينتين مليئتين باللحم، فأعطاه طلبه على الشرط الذي اتفقا عليه. خرج الأمير حاملاً أمر الملك بإعطائه سفينتين مليئتين باللحم، فقالت له المهرة:

- عليك الآن أن تسير في البحور السبعة وترمي لحم السفينتين في كلّ مكان تمرّ به وسيخرج لك ملك البحار عندها اطلب مساعدته.

أبحر الأمير وكان يعطي الأوامر بقذف اللحوم في كلّ مكان يعبره، فأقبل السمك على أكل اللحوم بشراهة وعندما زاد قذف اللحوم خرج ملك البحار سائلاً عمّن يغذي أسماك البحر بكلّ تلك الكميات، فقال له الأمير:

- يا ملك البحار لقد أوصاني أحد الحكماء بحكمة قال فيها: أعطِ من أخذ منك فالأخذ يردّ.

فقال ملك البحار: وما الذي أُخذ منك؟

فقال الأمير: كنت مسافراً وأضعت خاتمي في البحر وأنا الآن ابحث عنه.

فقال له ملك البحار: انتظر هنا فإن كان خاتمك في بلادي فسوف نجده وإن لم يكن هنا فما أعطيت رعيتي نردّه لك بالشكر.

ونادى ملك البحار بكلّ ساكنيه أن يجتمعوا ويفرغوا ما في بطونهم. اجتمعت كلّ الأسماك وأخرجت ما في بطونها ولم يكن في مخرجاتهم أثر للخاتم، فهوّن ملك البحار من خيبة أمل الأمير وقال له:

- بقيت أرض البحر لم نبحث فيها.

وأرسل مجموعة من الأسماك للبحث في قاع البحار عن ذلك الخاتم، وظلّت الأسماك تجوب أنحاء البحور وعادت خائبةً إلاّ أنّ ملك البحر تذكّر وقال:

- بحثنا في كلّ مكان ولم نجد خاتمك وبقي أمل وحيد.

وروى قصة تلك الغولة التي غرقت في مياهه وبعد موتها انتشرت رائحة كريهة

من جسدها أبعدت كلّ الساكنين من تلك الجهة وأمل أن يكون الخاتم متواجداً هناك.

وتحرّكت مجاميع من الأسماك لتبحث في تلك الناحية، وبعد بحث وتنقيب وجدت الخاتم في أمعاء الغولة، فالتقمته سمكة كبيرة وعادت به إلى ملك البحار الذي أخذه وسلّمه للأمير الشاب متمنياً له مستقبلاً زاهراً.

وعندما تناول الأمير ذلك الخاتم وجد فيه ختم أبيه وشعار مملكته، فداخلته فرحة نشطت لها روحه لكنه ظل حائراً في معرفة العلاقة بين الخاتم والقمرية وذلك الرجل الملثّم وأصرّ على اكتشاف السرّ حالما يصل إلى الملك.

وعندما أحضر الأمير الشاب الخاتم تناوله الملك وقلّب الريشة بين يديه وقال لها:

- غنِّ!

فقالت الريشة: لا أغنّي حتى يغنّي طيري.

فالتفت الملك إلى القمرية وقال لها:

- غنِّ!

فقالت القمرية: لا أغنّي حتى يغنّي وليفي.

فقال الملك للرجل الملثم: غنِّ يا وليفها.

فقال الرجل الملثم: لا أغنّي حتى يدخل الشاب الذي وجد خاتمي في نار ويخرج منها سالماً.

التفت الملك إلى الأمير الشاب وقال له:

- لقد سمعت الشرط وكل ما تجده أنت السبب فيه فلو لم أسمع غناء هذه الريشة لما أتعبتك كلّ هذا التعب وليس أمامك أو أمامي أن نتراجع فإما أن تدخل النار وتخرج منها سالماً وأسمع غناء الريشة وإما أن تحترق وأنتهي من كلّ هذا، وأمامك ثلاثة أيام حتى تتهيأ للدخول إلى النار.

وأمر الملك الحرس والخدم بجمع الحطب من كلّ مكان وإشعال النار لمدة ثلاثة أيام.

خرج الأمير ككلّ مرة حزيناً يفكّر كيف ينجو هذه المرة، وكالعادة قابلته المهرة وهوّنت عليه وقالت له:

- لا عليك سوف أنطلق راكضةً حول الدنيا وقبل الموعد بساعات سأعود إليك وسيكون عرقي متصبباً من كلّ مسامات جسدي فخذه واغتسل به فلن تمسك النار بسوء.

وانطلقت المهرة مسرعةً تجوب الأرض وهي توصي الأمير:

- لا تخف، موعدنا هنا بعد ثلاثة أيام.

غابت المهرة وظلّ الأمير ينتظر عودتها وهو يرى أنّ كلّ أهل المدينة خرجوا لجمع الحطب وإلقائه في النار المشتعلة.

وفي الموعد المحدد اجتمع الناس من كلّ أنحاء المملكة واجتمعوا أمام النار المشتعلة منتظرين قدوم الأمير الشاب الذي كان في غاية القلق حيث لم تظهر المهرة ولم يعد باقياً من حلول الموعد سوى ساعة واحدة وقد حضر الحرس لحمله إلى موقع الحدث.

وفي أعماق الأمير الشاب يقين أنّ المهرة لن تحضر وأنّ ساعة موته قد دنت فتحسّر على نفسه حيث لا يوجد أحد يخاف عليه أو يبكي من أجله، وحاول التهوين من أمر القادم بأنّ بقاءه في الحياة كغصن وحيد ليس له معنى والخير أن يموت ليلحق بمن سبقه من أهله، ومع نداء الحراس تحرّك لتلبية الأوامر، وقبل أن يتحرّك كانت مهرته تقف بجواره لاهثةً وعرقها يتصبّب من كلّ مسامات جسدها، فحمل إناءً وأخذ يجمع عرق مهرته ويضعه فيه ثم استأذن الحرس للحظات اغتسل فيها من عرق المهرة وتحرك إلى موقع النار المشتعلة.

وعندما أطلّ على الناس أخذتهم الشفقة به وأخذوا يصرخون:

- النار للملك وأعوانه.

فانتفض الملك في مكانه وخشي اندفاع الناس نحوه، وفي الحال ضرب الحرس طوقاً حول كرسيه بينما تحرك الأمير الشاب واخترق النار المشتعلة ومكث بها لدقائق وخرج منها سالماً، فجأر الناس بأصوات عالية مهللين مكبّرين واتّجه الأمير الشاب إلى المنصة التي يجلس بها الملك وبيده الريشة ومن حوله القوّاد والوزراء، وكم كانت دهشة الحضور حين رأوا القمرية تهتز وترتعش ويتصاعد من جسدها دخان كثيف ينجلي عن ظهور امرأة أخذت تصيح بالرجل الملثّم: استرني، فقفز صوبها وغطّاها بشرشف كان يحمله وقد أزاح لثامه.

فاندفع الأمير الشاب صائحاً: أمي . . . أبي.

وتعانق الثلاثة عناقاً طويلاً قابله تصفيق وتهليل من الناس المجتمعين، وكان الملك في غاية الغرابة والدهشة مما يرى من عناق وبكاء وأصرّ أن يسمع قصتهم على مسمع من الجميع فقام الرجل الملثّم وقال:

- أنا ملك مملكة الخير وقد تسلّطت علينا الغيلان والسعالي وعبثوا ببلادنا، وقد سار ما سار ولولا أنّ الأمل كان معلّقاً بابننا الصغير في إنقاذ مملكتنا لأصبحنا الآن طيوراً تحلّق في السماء والحمد لله على كلّ حال.

فنهض الملك ونادى بالناس: اشهدوا أنّي قد زوّجت ابنتي للأمير الشاب وجعلته وليّاً لعهدي.

فتصايح الناس وكثر التهليل والتكبير . . .

وعندما اجتمع الأمير الشاب بوالديه علم أنّ الغيلان كانت على وشك الهجوم على مملكتهم وأكل كلّ من فيها إلاّ أنّ هربه أجّل ظهور الغيلان، ولكي لا تهرب المدينة كاملة تمّ تحويلهم إلى طيور، وإنّ زوال السحر يزول بعودة خاتم الملك ودخول الأمير إلى النار والخروج منها سالماً.

وكان كلّ من سمع الحكاية لا يصدّق أنّ الأمير الشاب اجتاز كلّ تلك المخاطر وأعاد الملك لأبيه وأنقذ بلاده من الغيلان والسعالي.

وفي يوم زواجة من ابنة الملك حفّ به إخوته وأبوه وعمّه وأصرّ الأمير أن تكون مهرته في مقدمة العرس حيث كانت تتراقص على نغمات ودقات الطبول.

وعاش الجميع في خير وسعادة.

رواية عائشة عجيبية

عطرة الزمان... خلفة المكان

قلنا وقلك، قال من ملك كلّ يوم يتزوّج وكلّ يوم يطلّق. . . ولم يكن يرضى أن تتزوّج طليقته برجلٍ غيره، فيوكل لحرسه بحملها ونفيها إلى الوادي.

وبسبب عادته هذه لم يعد أحد يرغب في تزويج ابنته للملك، فكان يقدم على الغزوات والحروب لسلب النساء والتمتّع بهن والتخلّص من كلّ امرأة وطأها بنفيها وإلحاقها بالبقية.

فغزا الفرس[1] والرومان والأحباش والتركمان فتجمّعت لديه نساء لا حصر لهنّ كلّ يوم يضاجع امرأة، وفي اليوم التالي يدفع بها لأحد حراسه كي ينقلها إلى الوادي.

وكان الحرس الموكلة إليهم مراقبة النساء متابعة أيّ امرأة تلد فإن كان مولودها ذكراً حملوه إلى القصر وإن كان المولود أنثى تركوها لأمها.[2]

---

(١) دارت خلافات واسعة بين المسلمين حول سر تسمية أهل فارس بـ الأحرار. وكالعادة ذهب اللغويون مذاهب شتى فالأصفهاني، الأغاني، يقول: إن فارس سُميت بـ الأحرار لأنهم خلصوا من سمرة العرب وشقرة الروم وسواد الحبشة، وكل خالص فهو حر (وطين حر ولا رمل فيه)، بينما ارتأى السهلي، الروض الأنف، وقولهم لفارس الأحرار لأن الملك فيهم متوارث من عهد جيومرث وهو آدم عند الفرس، والصحيح أن فارس الأحرار تسمية أطلقها اليمنيون على الفرس بعد التحرير العام ٥٧٥ هـ . - **أبطال بلا تاريخ**، فاضل الربيعي، دار الفرقد.

(٢) يذكر المطّلعون على الأساطير اليونانية قصة مملكة الأمازون التي كان سكانها من النساء اللاتي لم يكنَّ يسمحن لغير رجل واحد فقط ليعيش معهن، فإذا وجدن غيره قتلنه وأبقين القادم الجديد. وعندما تلد الواحدة ولداً ذكراً قتلنه وعندما تلد بنتا أبقينها.

(أساطير من تاريخ اليمن: حمزة علي لقمان، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص١١)

وفي أيام الشتاء القارس يمتنع الجنود عن خوض المعارك في البلدان البعيدة، فيبعث الملك حرسه للإتيان بأيّ امرأة يصادفونها في الطريق أو على حدود البلاد.

وتجرّأ الحرس على أخذ النساء من بيوتهن، ففي كل يوم يهاجمون بيتاً ويأخذون امرأة منه ويعودون بها إلى القصر.

ضجّ الناس من سرقة بناتهم ولم يكن أيٌّ منهم يعلم أنّ الملك يقف خلف تلك السرقات، وقد طلب أعيان البلد مقابلته والشكوى ممّا يحدث في البلد من سلب للفتيات.

استقبل الملك الوفد مرحّباً ومستمعاً لما يقولون ووعد بإنهاء تلك الجرائم بأسرع وقت ممكن، وطيّب خاطر الوفد بهدايا ثمينة وودّعهم إلى خارج القصر.

جلس الملك إلى وزيره يستشيره فيما يحدث طالباً منه أن يجد وسيلة لإشباع رغبته من النساء من غير إثارة أهل البلد، فقال له: دع الأمر لي.

وكان الوزير يعلم أنّ للشيخ بندر التجار سبع بنات كلّ واحدة منهن أجمل من أختها، وكانت أصغرهنّ اسمها عطرة الزمان يضعها أبوها في منزلة الابن الذي طالما تمنّى أن يُرزق به، وحين وقف نسله على البنات كانت عطرة الزمان البسلم الذي أنساه فقد الابن فأحبّها حباً عظيماً، وكان يمنّي نفسه أن يراها هي وأخوتها سعيدات إلاّ أنّ استدعاء وزير الملك له جعله منقبض الصدر، فعندما وقف أمام الوزير سمعه يقول له:

- إنّ الملك يطلب إحدى بناتك زوجةً له وإن لم تجب طلبه قطع رأسك.

عاد التاجر حزيناً كئيباً إلى داره وأخبر بناته بما يطلبه الملك، فاستشعرت البنات بالخوف من المصير الذي ينتظرهن، ولم تقبل أيّ منهنّ أن تكون زوجة للملك إلاّ أنّ التهديد بقطع رأس أبيهن دفعهن إلى القبول واشتراطهن إجراء القرعة بينهن ومن تأتي عليها القرعة توافق على الزواج من غير تمنّع.

فأُجريت القرعة وجاءت على الابنة الرابعة، فتمّ عقد قرانها، وفي اليوم التالي حملها الحرس إلى داخل الوادي، وكان الوزير عالماً بما سيحدث، فاستدعى شيخ بندر التجار وقال له:

- إنّ الملك يطلب إحدى بناتك زوجةً له وإن لم تجب طلبه قطع رأسك.

وحدث كما حدث سابقاً، وأُجريت القرعة، فجاءت على الابنة السادسة، ولا

زال الوزير يخطب بنات شيخ بندر التجار ويقدمهن للملك من غير أن يعرف أنّ زوجاته الست كنّ أخوات، ولم تعد باقية إلا عطرة الزمان، الابنة الصغرى، فخطبها وزفّت إلى الملك، وقبل أن يدخل بها ادّعت أنّ عليها العادة الشهرية، وتمهّلت الملك في أن يمنحها الوقت حتى تطهر.

وكانت فتاة في غاية الجمال وعلى درجة عالية من العلم والدهاء، وقد استشعر الملك بمقدرتها على السيطرة من خلال ما تتفوّه به من قول أو ما تشير إليه من حكمة، ففي الليلة الأولى طلبت مجالسته وقالت له:

- أنار الله دروب ملك الزمان وأبعد عنه الكرب فلو أخبرني بما يجد من النساء من ضيق حتى يتخلص منهن برميهن بين أحراش الوادي لربما كشفت له عن الدواء.

فقال لها: ليس لك شأن فيما أنا فيه وسوف تلحقين ببقية زوجاتي عمّا قريب.

فقالت له: لقد رأيت رؤيا وأظنّ أني الموعودة بتحقيقها.

فقال لها الملك: وما رؤياك؟

فقالت له: رأيت سبع كواكب ينزلن ببابك، وقد أمسكت بستّ كواكب وأخفيتهم في خزانة ملكك وظللت طوال الوقت تطارد الكوكب السابع فلم تمسك به، ورأيت طائراً يخرج من رأسك يصيح بكلام يقول فيه:

كوكب دوار

يمحقك في المحاق

كوكب دوار

بعد إخوته ماحاق

فتطيّر الملك منها وخشي أن تكون هي المرأة التي يزول بها حكمه،[1] وقرّر أن يقتلها بدلاً من أن يدفع بها إلى الأدغال.

---

(١) غالباً ما تأتي الحكايات الشعبية بالحلم كوسيلة لمعرفة المستقبل، وغالباً ما يقترن الحلم بمعضلة الخشية من فقد السلطة وتأتي تفسيرات من المنجّمين ومن رجال البلاط، وقد استقرّت تيمة الحلم في الثقافات عامةً إلاّ أنّ تمركزها في شهنامات الفرس حيث تبدأ بالرؤيا وفي سيرة حمزة البهلوان البطل القومي في الحكايات العربية نجد أنّ حلماً لازم كسرى في منامه، حلم واحد متكرر الإيقاع والوحدات (وهي السمة التي تجعل الحالم يتيقن من أنّ رسالة ملحة تصله من الغيب وعليه كشفها). وإيجاز حلم كسرى أنه شعر بجوع عظيم فقدمت =

فنهض من فوره وكشف عن وجهها فوجد شامة على جذع رقبتها، فقال لها:
- أنت من أنتظرك من زمن.
ونادى على وزيره وقال له:
- أريدك أن تقتل هذه الفتاة وتأتيني برأسها.
وحاول الوزير أن يثنيه عن فعلته، فقال له الملك:

= إليه مائدة من ذهب عليه صحن من العاج منقوش بالنقوش الفارسية به إوزّة كبيرة مقلية وشهية ما أن قاربها حتى هجم عليه كلب كبير هائل كشّر عن أنيابه واختطفها وإذا بأسد يدخل عليه من الباب يلقي الكلب ميتاً ويختطف الإوزّة فيعيدها إلى كسرى دون كره، ودائماً ما يستيقظ كسرى عند هذه النهاية للحلم. فاستشار وزيره بخت الذي لم يعر الأمر اهتماماً يذكر سوى أنّ مثل هذه الأحلام تحدث من قبيل الطعام، إلاّ أنّ بروز الوزير جمهر الذي أعطى الحلم دلالات ذات صيغة سياسية وجوهرية بتفسير أنّ الإوزّة الشهية والمائدة الذهبية ما هي إلاّ الإمبراطورية الفارسية التي سيختطفها حين يظهر فارس من حصن خيبرية بالحجاز يملك الكرسي ويحاصر عاصمة الملك ويطرد كسرى إلى أن يأتي الأسد أو الفارس من برية الحجاز، والذي ليس سوى الأمير حمزة، فيستخلف الملك ويقتل عدو كسرى.

وغالباً تكون مثل هذه الأحلام هي محفّز للسلطان أو الإمبراطور من أجل القضاء على من يحمل شارة الحلم، وجميعنا عبرتنا حكاية حلم فرعون وكيف أمر بقتل أي مولود ذكر لكي يتخلص من عدو المستقبل.

ويرى الأستاذ شوقي عبد الحكيم أنّ هذه المرحلة تسمّى مرحلة قتل الأم، التي يؤهّل بعدها الطفل للانتقال الأبوي البطرقي، كما هي الحال في حالة أوديب بن لايوس الذي ألقي به بعيداً عن وطنه ومنبته ثيبس وأنقذه الراعي وأصبح أميراً لمملكة أخرى هي كورنثه وعندما عاد إلى ثيبس هرباً من لعنة قتل أبيه لابوس وتزوّج أمه دون علم منه حدثت النبوءة المحتومة.

وعند الفرس يصبح الطفل الموعود هو كيروس حفيد الملك استياجس ملك ميديا الذي حلم بأنّ ابنته ستهب الحياة ابناً يتسبب في مجيء الطوفان الذي سيغرق قارة أسيا عن آخرها، فانتزع الملك الطفل عند موته ودفع به إلى الموت، وكما هي العادة أنقذه رجل بسيط، لكن في اللحظة المحتومة قتل جده استياجس.

كما لا تغفل الحكايات أو الأساطير كيف ينجو الموعود من نقمة السلطان ومحاولة قتله قبل أن يظهر على مسرح الأحداث وتقول الحكاية إنّ جنود النمرود عندما جسوا جانبها الأيسر اختفى الجنين (إبراهيم في الجانب الأيمن) فانصرفوا دون أن يظفروا بطائل. وقصة الأطفال الذين حلم بهم السلاطين كثر مثل: رومولس وريموس وسميراميس وموسى وأوديب واوريست وكيروس أو قروش عند الفرس، وهي تيمة أساسية في الحكايات التاريخية ومن خلالها انتقلت إلى الحكايات الشعبية.

- أنت لا تعلم ما أُخبّئه... أنت تعلم ظاهر الأشياء، فأنت تشاهدني كلّ يوم أتزوج بامرأة وأدفع بها إلى الوادي، وهذه ليست قسوة فأنا لست قاسياً ولا قاتلاً، لكني رأيت حلماً وأنا لا أزال صغيراً وقد فسّره المنجمون[1] أنّ امرأةً ستخرج من

---

(١) التنجيم هو النظر فى الكواكب والنجوم، وحساب حركاتها، واستخدام ذلك فى ادّعاء معرفة الغيب واستطلاع أقدار الناس وآجالهم، وأرزاقهم وحظوظهم فى الدنيا. (دائرة معارف القرن العشرين: محمد فريد وجدي)
ووفق موسوعة المفاهيم الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، والتي ذهبت إلى أنّ الكلدانيين أول من اشتغل بالتنجيم فى القرن السابع ق. م، كما اشتغل به المصريون القدماء، وأخذه الإغريق عنهم كما أخذه عنهم الهنود القدماء والرومان.
بينما يفترض ابن العبري (تاريخ مختصر الدول) أنّ الذي خلق علم الفلك بعد الطوفان هو قينان بن أرفخشذ، وهي الشخصية التي ينفي الدكتور فاضل الربيعي وجودها في كتابه **أبطال بلا تاريخ**، أما ابن الأثير في كتابة **الكامل** فيرى أنّ النبي ادريس هو نفسه اخنوخ بن يارد بن مهلئيل، وأنه أول من خطّ بالقلم وأول من نظر في علم النجوم والحساب، وحكماء اليونان يسمونه هرمس الحكيم وهو عظيم عندهم.
إنّ عبارة ابن الاثير التي طالما تكررت في كتب وأحاديث الفقهاء المسلمين القدماء والمعاصرين والقائلة إنّ إدريس هو نفسه عند العرب أخنوخ وفي الآن ذاته هو هرمس الاغريقي وهو تحوت المصري وكلّ هذه الشخصيات تنتسب في النهاية إلى صورة (إن- كي) السومري. (أبطال بلا تاريخ: فاضل الربيعي، دار الفرقد)
واعتبرت رسالة النبي عيسى التنجيم وحياً من الشيطان إلى من يعمل به، ولقد كان من بعض الأعراب فى الجاهلية منجمون ومنهم: سملقة، وسطيح، وطريفة، وزوبعة، وعمران وغيرهم.
ونهى الإسلام عن التنجيم واعتبر الإيمان به كفراً، فاختفت حرفة التنجيم فى الجزيرة العربية زمناً طويلاً، إلى أن ظهرت فى عصر الدولة العباسية، فكان أبو جعفر المنصور من المعجبين بالتنجيم والمهتمين به حتى كان بعض المنجمين فى صحبته دائماً وكان منهم نوبخت الفارسي وغيره. (موسوعة المفاهيم الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر).
وأساس التنجيم ظاهر البطلان، وما انتشر قديماً إلا بين الأمم الوثنية التى كانت تقدس النجوم وتسجد لها، كما قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت: ٣٧).
وعن زيد بن خالد (قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية فأصابنا مطر ذات ليلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الصبح، ثم أقبل فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: قال الله عز وجل: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بي، فأما من قال: مطرنا =

القصر وتحرق المدينة، وقد خفت على شعبي فلم أُبقِ على امرأة في بيتي حتى أمي وأخواتي قد قتلتهن بمجرّد أن تولّيت الحكم.

وقال لي المنجمون: استبقِ على الذكور، فحين تخرج عليك تلك المراة ستكون حية تسعى تأتيك من جحر بيتك، عندها سيتحوّل الرجال إلى نسور وينقروها ويحملونها إلى خارج المدينة، ولهذا تجدني أدفع بالنساء إلى داخل الوادي، وإن حملت إحداهنّ ذكراً حملته وإن أنجبت أنثى خلّيتها في مكانها.

وقال المنجّمون إنّ غريمتي ستكون بأسفل رقبتها شامة على صورة ناب، والفتاة التي تزوجتها مؤخراً لها نفس الإشارة، وآمرك أن تقتلها بيدك وتأتي برأسها.

ولم يكن الوزير محبّاً لسفك الدماء، فحمل الفتاة إلى داره واحتار كيف يجلب للملك رأسها، وبعد تمهّل وتفكير أخبر ابنه بما هو فيه من محنة، وكان ابنه حكيماً متدبّراً، ماهراً في صناعة التماثيل، فأشار على أبيه أن يريه الفتاة حتى إذا رآها قام بصناعة مجسّم لرأسها ونحت ملامح الفتاة وركّبه على رأس خروف ذبحه، وأعطى أباه ذلك الرأس وقال له:

- اذهب إلى الملك بهذا الرأس وقل له: لقد قتلتها.

حمل الوزير الرأس ووضعه بين يدي الملك، فاطمأن وقال لوزيره:

- الآن أريد منك أن تجد لي امرأة أتزوجها وتكون زوجتي للأبد.

خرج الوزير يحمل همّاً على همّ فلم تعد في المدينة امرأة واحدة، فكل

= برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله، فهو مؤمن بي كافر بالكواكب، أما من قال: مطرنا بنجم كذا وكذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بي» (رواه البخاري).

وعن محمد بن علي عن أبيه عن علي أن رسول الله ﷺ قال: «ولا تجالس أصحاب النجوم» (أخرجه أحمد).

ولما تأهّب الخليفة المعتصم لفتح عمورية، ظهر المذّنب هالي في السماء فتشاءم الناس منه، ونصح المنجّمون الخليفة ألا يخرج للحرب، إلا أنه تذكر أحاديث رسول الله ﷺ وخرج للحرب وانتصر.

وفي ذلك قول أبي تمام:

السيف أصدق أنباءً من الكتب... في حدّه الحدُّ بين الجدّ واللعب. - الموسوعة الفهمية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر.

الفتيات قد تزوجهم الملك ودفع بهم إلى الوادي، فعاد حزيناً إلى بيته ليجد ابنه أمامه وأخبره بما حدث.

فقال ابن الوزير: دعني أذهب إليه بنفسي.

استهجن الوزير قول ابنه إلاّ أنّ الابن قال لأبيه:

- لدي خطة أتخلّص بها من هذا الحاكم الفاجر.

وشرح لأبيه خطته بوضع قناع أنثى على وجهه حتى إذا انفرد بالملك في مخدعه غرس خنجره في صدر الملك وقضى عليه.

وكانت عطرة الزمان تسمع حديثهما وقد تعلّق قلبها بابن الوزير وخافت أن يصيبه مكروه، فرفضت ذهابه إلاّ أنّ ابن الوزير أجلسها وأخذ منها معلومات عن تصرّف الملك وكيف يفكر، وكان قد أعدّ خطة ينفّذها في أول ليلة قبل انكشاف أمره.

زُفَّ ابن الوزير إلى الملك كزوجة، وكان الوزير خائفاً من افتضاح أمر ابنه فظهر ارتباكه وشروده، وقرّر مغادرة القصر قبل أن يفتضح أمره .

فاستقبلته عطرة الزمان جزعة وكانت تلحّ في سؤالها عمّا حدث لابنه فقال لها:

- علينا مغادرة البيت تحسّباً لأيّ طارىء.

وعندما رفضت أخبرها أنّ هذه الوصية هي وصية ابنه، وكانت الوصية التوغّل داخل الوادي مع بقية نساء الملك المحتجزات، ففي تلك المنطقة لن يبحث عنهما أحد إذا حدث مكروه.

أما ابن الوزير فقد وضع قناعاً مغرياً جعل الملك في حالة هيام واستعجال بانقضاء مراسم الزواج، وكانت من عادة الملك (في كلّ زيجاته السابقة) المرور أمام مرآة (أهداها له أحد السحرة) الوقوف أمامها وسؤالها:

- أحرث أرضي أم تأكلني أرضي؟

فإن أجابت «تحرث أرضك» دخل على زوجته مطمئناً، وفي كلّ زواج سابق يسمع جواب واحد:

- تحرث أرضك.

وقف كعادته وسأل المرآة:

- أحرث أرضي أم تأكلني أرضي؟

فلم تبادرة المرآة بالإجابة السريعة كما تعوّد، فأعاد سؤاله:

- أحرث أرضي أم تأكلني أرضي؟

فقالت له المرآة:

أرضك أرض رجال

بيده خنجر قتال

تلحق به نساء أبطال.

تريّث الملك وعدل عن الدخول إلى مخدعه، ونادى على حرسه وأمرهم بحمل زوجته وإيداعها السجن في الحال. دخل الحرس على ابن الوزير المتوثب ولم يكن يتوقع أنّ الملك سيغيب، فمع دخول أول الحراس وثب عليه وغرس خنجره في صدره واكتشف أنه قتل حارساً وليس ملكاً، وفي الحال التفّ عليه بقية الحرس وقادوه إلى سجن في أسفل الأرض وأخبروا الملك بما حدث، فغضب أشدّ الغضب وأقسم على قتل الوزير أولاً وقبل كلّ شيء، فأرسل جنوده للإتيان به إلاّ أنّ الجنود عادوا بخبر أن لا أثر للوزير في أيّ مكان، فازداد غضب الملك وأيقن من تآمر الوزير على قتله. وأرسل منادياً ينادي في كلّ مكان بأنّ مقتل ابن الوزير سيكون مع اكتمال البدر ولن ينقذه من هذه الميتة إلاّ ظهور الوزير نفسه.

وسرى الخبر بين الناس الذين تساءلوا عن سبب غضبة الملك على وزيره الأول ولم يجد أحد منهم جواباً.

أما الوزير وعطرة الزمان عندما حاولا التوغّل في الوادي لم يستطيعا سوياً حيث علما أنّ نساء الوادي لا يسمحن بدخول رجل إلى أماكنهن مهما كان السبب ولو رأين الوزير لقتلنه.

فأشارت عطرة الزمان على الوزير بارتداء ملابس المرأة وأن لا يتحدث بتاتاً، فوافق الوزير خوفاً على نفسه من القتل.

وكانت نساء الوادي قد أصبحن مجموعات كبيرة يجدن فنون الحروب والزراعة

والرعي ولم يعد يستطيع الحراس تسييرهن أو توجيه الأوامر إليهن، وتطوّر الأمر أنّ الحراس أصبحوا يتفادون الظهور في الوادي خشية اغتيالهم من قبل أولئك النسوة.

اجتمعت عطرة الزمان بأخواتها الست فوجدت أنهن أصبحن أكثر مراساً على تدبّر شؤونهن وأكثر مقدرةً على القتال وينضوي تحت أمرهنّ العشرات من النساء، فأخبرتهنّ بقصة ابن الوزير وكيف خلّصها من القتل وطلبت معونتهن في انقاذه.

وقد طلبن منها التريث ريثما يتدبّرن الأمر إلاّ أنّ خشيتها من فوات الوقت جعلتها تبحث عن وسيلة لقيادة النساء في حربها ضد الملك وتخليص حبيبها من بين يديه.

فجمعت النساء وقالت لهن:

- لن نمكث هنا طوال الوقت وعلينا محاربة ظلم الملك وأنا أحمل خطة للوصول إلى مخدعه وقتله وأريد منكم مناصرتي ومعاونتي.

فتصايحت النساء مؤيدات وخاصةً أولئك النساء اللاتي أخذ منهن أطفالهن.

اطمأنت عطرة الزمان لوجود مؤيدات وانفردت بالوزير وقالت له:

- أريد منك أن تخبرني عمّا يمكن فعله لو أني دخلت إلى قصر الملك.

فقال لها: إنّ للملك مرآة سحرية تخبره بكلّ شيء فإن استطعت تغطية المرآة أو كسرها فإنّ الملك لن يعرف ما الذي يدور حوله.

شكرت ابنة شيخ التجار نصيحة الوزير وعهدت إلى أخواتها بتخبئته، وأخذت تدبّر طريقة للوصول إلى قصر الملك مع وضع خطة تمكّن بقية النساء من الهجوم عند تمكّنها من القضاء على الملك، وكانت إشارة الهجوم سماع نفير البوق ثلاث مرات، واختارت سيدتين تجيدان الرمي بالنبل، وخرجت معهما إلى أطراف الوادي متربّصات بالحرس من أجل اغتيالهم، واستطعن قتل ثلاثة منهم وارتداء ملابسهم والتوجه إلى القصر.

وعندما وصلن تصنّعت عطرة الزمان أنها تحمل رسالة للملك وعليها مقابلته، وعندما علم رئيس الحرس أنها قادمة من الوادي وتحمل خبراً عن الوزير عجّل بدخولها على أنها أحد الحراس، وحالما سمح لها أسرعت إلى مكان المرآة وقامت بتحطيمها فخرج منها غراب أخذ ينعق بصوت عال:

كوكب دوار

يمحقك في المحاق

كوكب دوار

بعد اخوته ماحاق

تنبّه الملك للنعيق وعلم أنّ المرأة الموعودة دخلت إلى قصره، فأسرع إلى المرآة ليستكشف موقعها، وأُصيب بالخيبة عندما وجدها مكسورة واستشعر أنّ خطراً داهماً على وشك الوقوع.

فنادى رئيس الحرس وأمره بقتل أيّ امرأة يجدها في القصر وأمر حرسه الخاص بالإلتفاف حوله ومنع أي شخص من الاقتراب منه.

ووجدت عطرة الزمان الفرصة سانحة فانطلقت مع زميلتيها للانضمام إلى الحرس الخاص لحماية الملك الذي تراجع إلى داخل القصر وأخذ يغلق الأبواب باباً تلو باب حتى لم يعد معه من حرسه إلاّ القلة القليلة ومعهم الثلاث نساء المتنكرات بزيّ الحرس، وقد أشارت إليه إحداهن أن يأمر بالنفخ في البوق ليأخذ بقية الحرس حذرهم، فاستحسن الملك الفكرة وأمر حارسه بأن ينفخ في البوق، فصاحبته إحداهن واغتالته في الطريق، وأمسكت بالبوق ونفخت فيه ثلاث نفخات سمعها كلّ من في الوادي، فتحركت جيوش النساء متّجهات إلى القصر في حين قامت عطرة الزمان بجذب الملك إلى مخدعه وكشفت عن نفسها قائلةً له:

- ألم أقل لك إني الموعودة بزهق أنفاسك.

فأراد أن يستغيث بحرسه فلم يجد منهم أحداً، وقد حاصرته عطرة الزمان وهوت بسيفها على هامته فخرج منها طائر صغير أخذ يحوم داخل المخدع ويصيح:

كوكب دوار

يمحقك في المحاق

كوكب دوار

بعد اخوته ماحاق

فأسرعت بإلقاء شبكة على ذلك الطائر واصطادته.

وما هي إلاّ لحظات حتى كان القصر يعجّ بالنساء المقاتلات اللاتي استولين

على القصر وأسرن رجالات الملك، وأُعلن عن مقتل الملك فخرجت المدينة بأسرها مهللةً مكبّرةً على موت الملك الظالم.

وفي الحال أعلن أن تقديم عطرة الزمان لأن تكون ملكة على البلاد فتصايح المجتمعون مؤيدون، وارتفعت أصوات نساء الوادي:

عطرة الزمان

خلفة المكان

وأُعلن تنصيبها ملكةً على المملكة.

وفي الحال أمرت بعودة كلّ نساء الوادي إلى بيوتهن وإعطائهن تعويضات مالية مجزية عمّا حدث لهنّ من تعذيب وقهر خلال سنوات طويلة.

وتوجّهت إلى السجون وأخرجت كلّ المساجين من تلك الزنازين المظلمة الضيقة، ووقفت على باب سجن ابن الوزير وأخرجته من زنزانته ووضعت فيها ذلك الطائر الذي خرج من هامة الملك المقتول، فقد وضعته داخل قفص صغير، وأغلقت عليه بوابة السجن وهي تقول:

أنا الكوكب الدوار

ماحق الظلم والظلام

ابنة تاجر التجار

على الشر اقوم مقام.

فرح الوزير حين رأى ابنه سالماً وأخذ يعانقه والابن يسلّم على يدي أبيه وجبهته، ولم يصدق شيخ التجار أنّ ابنته الصغرى عطرة الزمان غدت ملكة للبلاد فقدم باكيا يقبّل بناته ويحمد الله الذي مكّنه من رؤيتهن وحضن ابنته عطرة الزمان وهو يبكي ويقول لها:

- ياملكة الزمان اعدلي بين الناس.

فنزلت عن عرشها وقبّلت أبيها وهمست في أذنه فأخذ يتبسم والتفت إلى الوزير وقال له:

- أطلب ابنك زوجاً لابنتي الملكة فهل تقبل؟

انحنى ابن الوزير أمام الملكة وقال لها:

- سأكون عبداً وزوجاً وخادماً. . .

وأُعلن في البلاد عن زواج الملكة على ابن الوزير حضر مراسم الزواج ملوك وأمراء المملكات المجاورة، وعاشت الملكة بين شعبها سعيدة آمنة بالعدل والحب.[(١)]

رواية عائشة عجيبية

(١) وربما يكون الأمر هنا إضمار للمرأة الأمازونية المحاربة في الأسطورة اليونانية والتي كانت تمثل السلطة الأنثوية حيث تتكون هذه المملكة من النساء كسلطة، والمرأة الأمازونية إذا ولدت ذكراً قتل وإذا ولدت أنثى أبقي عليها، وفي هذه المملكة ينسب الأبناء إلى المرأة. ويقال في تذكّر الملاحم اليونانية إنّ «بنتيسيليا» ملكة الأمازون جاءت على رأس فرقة من المحاربات لمساعدة «بريامومس» ملك طروادة وأنها لقيت مصرعها على يد البطل أخيل. كما تروي أنّ هرقل أرسل حملة للحصول على سوار ملكة الأمازون «لايوريستيوس» وانتهت الحملة بالانتصار عليهن. وتزخر الملاحم اليونانية بوصف للمعارك التي دارت بين الإغريق وبين نساء الأمازون وكانت هؤلاء النساء يستخدمن في القتال القوس والحربة والبلطة الخفيفة ونصف درع على شكل هلال وخوذة. وقد أكّد الرحالة «فرانشسكو دي ادريلانا» أنه التقى بفريق من نساء الأمازون المحاربات أثناء ارتياده أمريكا الجنوبية في القرن السادس عشر وذلك عند نهر الأمازون فسمّى هذا النهر باسم نهر الأمازون. وإن كان بعض الدارسين يرون في أنّ الاسم مشتق من الكلمة الهندية «أماسونا» أي: محطة القوارب، نظراً لشدة التيار في هذا النهر.

أم الصبيان

كان ياما كان، كان في قديم الزمان رجل ماتت زوجته وتركت له ولداً وبنتاً، وكان يذهب إلى حقله فلا يعود إلاّ متاخراً، فيجد ابنيه ينتظران عودته فيقدّم لهما هدية عبارة عن خنافس يجمعها من الوادي، فيلعبان بها حتى إذا انتهى لعبهما وضعوها داخل آنية ويغطيان عليها بصخرة وعندما يستيقظان يجدان أنّ خنافسهما قد ماتت فيظلان يبكيان فيخفّف عنهما أبوهما ويعدهما بجلب المزيد من الخنافس في نهاية النهار. . . وقد ظلّت الحال هكذا لوقت طويل.

وقد نصحه بعض أصدقائه بالزواج من امرأة تنتبه لابنيه وتراعيهما في غيابه بدلاً من تركهما لوحدهما. استجاب الأب لهذه النصيحة فتزوّج من امراة سيئة الطبع حقود لم يكن يعنيها من الدنيا إلاّ تحقيق رغباتها، وقد ظلت تعامل ابني زوجها معاملة خشنة وتضربهما وتسخرهما للخدمة، وإذا رأتهما يلعبان تحبسهما داخل «الزير» وتغطي عليهما بـ«المطحنة» وهي تردّد:

يا غالية يا غالية

الليلة واجية

احمس ام الزين

وأكل جمارة وافية

وان حادنك ام عين

حس عينك تدمع باكية.

فتتقافز من الزير خنافس وجعالي وتدخل بين شقوق العشة مصدرةً صوتاً واحداً:

امنا أم الصبيان

وجية تبز امصبيان

وكانت هذه الزوجة تسوم الابنين سوء العذاب وتهدّدهما بالحرق إن أخبرا أباهما، وقد مضى على زواجها ثلاث سنوات ولم تنجب شيئاً وأيقن زوجها أنها عاقر فلم يكترث للأمر كثيراً حيث كان يحمد الله على أنّه رزقها بابنيه إلاّ أنّ زوجته كانت ترى في وجودهما تنغيصاً لحياتها، وكانت قد أصابت هوى في قلب زوجها وأرادت أن تتملك قلبه كاملاً إلاّ أنّ وجود ابنيه معهما جعلها في حالة نفور منهما كلما سأل عنهما أو دللهما، فأخذت تتحجّج لزوجها بأنّ عرّافة أخبرتها أنها لن تنجب مادام حولها ابناه ولا بدّ من تغييبهما عن ناظريها كي تحمل.

حاول كثيراً أن يثنيها عن طلبها إلاّ أنها أخبرته إمّا أن يغيّبهما عن وجهها أو تغادر المنزل.

ولم يكن هناك من أقارب للزوج حتى يترك ابنيه عندهم واستحى من إيداعهما عند أحد الجيران، وأمام هذه الحيرة قالت له زوجته:

- اتركهما في البرية فلن يصيبهما مكروه وحالما أحمل أحضرهما مرة أخرى.

وافق الأب على مقترح زوجته، وحمل ابنيه وظلّ سائراً بهما حتى وصل إلى منطقة نائية موحشة وقال لهما:

- سأترككما هنا وأعود إليكما بعد يوم أو يومين.

وترك لهما ماءً وقليلاً من أقراص عيش، فأخذا يبكيان وأمسكا به يرجوانه أن لا يتركهما، فتخلّص من أيديهما وانطلق عائداً.

تفقّد الأخوان مكانهما فسرى الخوف في جسديهما وأخذا في البكاء والنحيب وانطلقا يركضان في تلك البرية بحثاً عن مكان آمن يصلان إليه، ولا زالا يركضان حتى هبطا إلى جرف سحيق ارتعبا لرؤية الهاوية التي كانا على مقربة منها، واشتدّ خوفهما حينما لمحا طائراً ضخماً يحلّق في السماء ويهبط على مقربة منهما، وحين تحدّث داخلتهما الطمانينة فصوته هو صوت أمهما التي ماتت، سمعاه يقول لهما:

- أنا أمكما جئت من الجنة حين رأيتكما في هذا المكان الموحش وجئت كي أوانسكما في وحدتكما.

فرح الأخوان وأقبلا على الطائر يقبّلانه ويشتكيان سوء معاملة زوجة أبيهما لهما.

فأخذت أمهما تقبّلهما بمنقارها ومنحتهما فواكهة لم يذوقا ألذّ منها أبداً، وأنسا بأمهما، وظلا على هذا الحال حيث تظلّ الأم مع ولديها إلى أن تظهر الشمس فتحلّق عائدةً وقبل الغروب يرونها تحلّق فوق رأسيهما وتهبط في مهبطٍ محدّدٍ خالٍ مما قد يؤذيها.

وقد أرادت زوجة أبيهما التأكّد من صدق قول زوجها بأنه ترك ولديه في البرية، فخرجت إلى الموقع الذي أخبرها أنه تركهما به وقدمت عليهما في الضحى، وحين رأى الأخوان عمتهما مقبلةً أصابهما الخوف فأقبلت عليهما مظهرةً جزعها ممّا فعل زوجها بهما وأخذت تتودّد إليهما وتسألهما عن سرّ بقائهما أحياء في مكانٍ قفر ليس به ماء أو أكل، فأخبراها أنّ روح أمهما تخرج من الجنة وتأتي لزيارتهما وحراستهما طوال الليل وتجلب معها الأكل والشرب. أظهرت عمتهما فرحاً كبيراً لهذا الخبر وأخذت تسألهما كيف تنزل وأين تنزل؟ فأخبراها أنّ نزولها يكون في هذا الموضع، فقامت تستكشف مكان نزول أمهما فوجدته مكاناً رملياً ممهّداً ليس به شيء، فشاغلت الأخوين وقامت بغرس الأشواك والإبر الحادة في ذلك الموضع، وقبل الغروب بقليل ابتعدت عنهما وأخبرتهما أنها ستذهب لكي تجلب دابّة يركبانها فصدّقاها بينما انزوت بعيداً لترى ما الذي يحدث للأم.

ومع الغروب حلّق الطائر الضخم فتقافز الأخوان فرحين بمجيء أمهما، وما أن هبطت في مكانها المعتاد حتى انغرست الأشواك والدبابيس في جسدها، وعندما حاولت أن تقفز من موقعها لم تستطع فاستسلمت للفخ الذي وقعت فيه وأخذت تئنّ وتدعو ابنيها للتخلّص من الدبابيس والأشواك التي مزّقتها، فأخذ الابنان ينتزعان الأشواك والدبابيس وهما يبكيان لما حدث لأمهما وهي تستحثهما على الإسراع قبل ظهور النهار قائلةً لهما:

- لو طلعت الشمس وأنا على هذا الحال لن أستطيع العودة إلى الجنة.

وقبل طلوع الشمس بقليل تمكّن الأخوان من انتزاع كلّ الأشواك والدبابيس وقد تلطّخت أيديهما بالدم الغزير الذي سفكته أمهم التي تحاملت على نفسها وأخذت تستعد للتحليق عائدةً إلى الجنة وقالت لهما:

- لا أعرف تحديداً هل أستطيع العودة إليكما أو لا، ولكن انظرا إلى جهة مقدمي فإن رأيتما سحابة بيضاء فسوف أجيء إليكما أما إذا رأيتما سحابة سوداء

فعليكما مغادرة مكانكما بأسرع ما يمكن، فإن لم تستطيعا الابتعاد فادفنا أنفسكما بالتراب.

وأكملت حديثها قائلةً: إنّ الغمامة السوداء ستحمل لكما طائراً يلتقمكما ويطير بكما إلى جبل القهر ويقدمكما طعاماً لفراخه.

حلّقت أمهما عالياً فأخذا بالبكاء والنحيب، وكانت زوجة أبيهما تتربّص بهما وقد سمعت كلّ ما قالته أمهما من نصائح وكانت تمنّي نفسها بأن يأتي ذلك الطائر ويلتقمهما ويريحها من وجودهما.

مضى اليوم والأخوان في حالة حزن وشرود يمنّيان نفسهما بعودة أمهما، ومع الغروب أخذا في التطلّع إلى الجهة التي تقبل منها أمهما فرأيا سحابة سوداء قاتمة تتجه نحوهما، وفي الحال أخذا يركضان ليختبأا في مكان آمن، وعندما لم يتمكّنا من الابتعاد حفرا حفرتين وقذفا بنفسيهما داخلها، ومن حفرتيهما رأيا طائراً أسوداً يهبط نافشاً ريشه وصائحاً:

يا دودة يا دودة

فين أنت موجودة؟

واخذ ينبش الأرض بمخالبه ويصيح:

يا دودة يا دودة

فين أنت موجودة؟

وظلّ على تلك الحال طوال الليل، وعندما أشرقت الشمس خرج الأخوان من حفرتهما وأخذا يركضان مبتعدين عن الطائر، وحينما لمحهما صاح بهما:

الليل قريب

والهرب ما يفيد

وأراد الطيران فلم تساعده جناحيه، فقد كان طائراً لا يطير إلاّ ليلاً، وكان على الأخوين الابتعاد عن المكان والاختباء عنه قبل حلول الليل.

ظلا يركضان في البرية بحثاً عن أيّ مكان أمن، ومن على بعد وجدا بيتاً فأسرعا إليه وطرقا بابه فخرجت لهما امرأة (وكانت زوجة أبيهما) فأخبراها بخبرهما فرحبت بهما قائلةً:

- سوف تجدان عندي الأمان.

وعندما دخلا البيت وجدا عندها كلاباً صغيرة بأعداد كبيرة مربوطة بسلاسل وكلها تنبح على خادم كان يقطع لحماً ويقدمه لها. أدخلتهما المرأة إلى الداخل وعرّفتهما على ابنتها التي كانت تستتر لتغطي ذيلها الظاهر، وقد رأى الولد أنّ لها ساق حمار، فأخبر أخته بما رأى فأرادت البنت أن تسأل المرأة عن حال ابنتها لكنها تراجعت حينما سمعت تلك المراة تخاطب الكلاب وتقول لهم:

- أنتم أبناء عاقين ولن أفك قيدكم حتى أرضى عنكم.

فقال لها أحد الكلاب: سامحينا يا أمنا الغولة فلن نعصيك بعد اليوم.

فقالت لهم: سوف أرى هذا بعد أن أعود.

عادت البنت إلى أخيها تخبره أنّ المرأة ما هي إلاّ غولة والكلاب أبناؤها، وعندما فكّرا بالهرب وجدا نفسيهما مسجونين داخل البيت لا يستطيعان فتح بوابة الخروج.

فرحت الغولة لمحبسهم، وجاءت إليهما ضاحكةً متوعدة أن تولم عليهما وتدعو الغيلان لمصمصة عظامهما، وغادرت المكان لدعوة بقية الغيلان. أحسّ الأخوان بالخوف فأخذا في البكاء وما هي إلاّ لحظات وحطّت أمهما بجوارهما وهي تخفف عنهما مصابهما وقالت لهما:

- لينتف كلٌّ منكما ريشة ويضعها في رأسه وسوف تتحولان إلى طائرين فحلّقا وعودا إلى البيت وأخبرا أبوكما بخبر زوجته وإياكما أن تتراجعا مهما حصل.

نتف الأخوان ريشتين ووضعاها بين شعرهما فتحولا إلى طائرين، وقبل أن يحلّقا سمعا نباحاً يقترب ورأيا الكلاب تهجم على أمهما التي عجزت عن الطيران فاستسلمت للكلاب التي أخذت تنهش جسدها وهي تئنّ وتقول:

- بلّغا الحبيب

بيدك غصن رطيب

بعد أمنا لا تخيب

حاول الأخوان العودة لإنقاذ أمهما إلاّ أنّ وصيتها بقيت تطوف بمخيلتهما فحلّقا باتجاه بيتهما، وعندما وصلا وجدا أبيهما حزيناً يقلّب يديه متحسّرا على فقد ابنيه، وحين سمع صوتهما وهما يقولان:

- بلغا الحبيب

بيدك غصن رطيب
بعد أمنا لا تخيب

خرج فوجد طائرين ولم يجد ولديه، وعندما أراد العودة إلى داخل الدار قفز الطائران على كتفيه وأخبراه بخبرهما وماذا حدث لهما ولأمهما، فحزن على أم ولديه وقرر أن يقتص لها من زوجته الغولة.

فوضع ولديه على الشجرة وظلّ ينتظر عودة زوجته (الغولة) وما هي إلاّ لحظات حتى أقبلت ومن خلفها تراكض الكلاب بنباح متواصل، وعندما وقفت على رأسه سألته:

- هل عاد ولديك؟

فقال لها: لا لم يعودا.

فقالت له: كذبت.

وخاطبت الكلاب التي برفقتها قائلةً:

- الليلة سأقدّم لكم لحماً طرياً فاسحقوا عظام الشايب قبل عظام الشباب.

تحرّك الزوج إلى الشجرة التي وضع ولديه بين أغصانها وتناول فرعاً من فروعها ووضعه على رقبة زوجته التي تحولت إلى غولة كلها شعر غطّى على عيونها، فأخذت تقول للكلاب التي معها:

- قصوا شعر من على عيوني
وناولوني السيف بيميني

وقبل أن تتحرك الكلاب لتلبية طلبها هبط الطائران وأخذا ينقمان رأس الغولة فخرجت منها خنافس وجعالي، فكان الأب يضرب بنعله كلّ خنفسة أو جعلي يظهر وأسرع بجلب قاز وأحرق الغولة والكلاب.

وتناول غصناً من الشجرة ومرّره على الطائرين فعادا إلى هيأتهما وتعانق الأب مع ابنيه وعاش الجميع في سعادة.

رواية عائشة عجيبية